دراسات إسلامية
- ١٢ -

الإشارات الإلهية

لأبي حيان التوحيدي

حققه وقدم له

عبد الرحمن بدوي

[الجزء الأول]

مطبعة جامعة فؤاد الأول
القاهرة — ١٩٥٠

تصـــــدير عام

(١)

أديب وجودى فى القرن الرابع الهجرى

« الكتابة ضربٌ من الصلاة » هكذا قال فْرَنتس كَفْكا (Franz Kafka)! وإن بين هذا الألمانى المسلول الشريد فى دنيا اللامعقول ، وبين صاحبنا العربى الغريب فى وطنه لَمشابِه ، وأىّ مشابه !

كلاهما تهاوت عليه الكوارث والأحزان من كل جانب ، وكان له من إرهاف الحساسة ونصاعة الذهن وعمق الانفعال ما يجعله يستمد من هذه الويلات غذاءً لروحه ومادّة لتفكيره : فأجهز على خلايا نفسه بمبضع التشريح الباطن حتى قضى على ذاته بذاته . فقال كَفْكا عن نفسه : « أنا من حجَرَ ، بل أنا حجرٌ لقبر نفسى ، لا منفذ فيه للشك أو للإيمان ، للحب أو للنفور ، للشجاعة أو القلق ، على وجه التخصيص أو وجه التعميم : كلاّ بل ثمّ أمل واحد غامضٌ يحيا ، لكنه من نوع شواهد القبور » . وإنه ليَدْهَشُ هو نفسه من هذا التحطيم المنظَّم لنفسه خلال السنين ، وكأنه سدٌّ يتقدّم ببطء نحو انقطاعه . وهو يشاهد روحه تفعل هذا كله مُغْتبطة بانتصاراتها على نفسها ، فيتساءل : لماذا لايشارك أيضاً فى هذا الاحتفال ، الاحتفال بعيد قضاء ذاته على ذاته ؟ ويخيَّل إلى نفسه أنه صار كالجيفة أو كالذبيح ، وأن هناك غرباناً سرّية مستورة ترُتَق حوله (« يوميات » سنة ١٩٢١ ، ١٦/ ١٠) . فى يده مطرقة ، لكنه لايستطيع استخدامها

إلا بتحطيم اليد التى تحملها . قد يرفُّ الأمل الخُلّب أمام ناظره القصير ، فيسعى إلى تحقيقه ، باذلاً كلَّ ما فى وسعه ؛ لكنه حينما يمسك به ، أو يخيَّل إليه أنه أمسك به ، لا يجد فى يده إلا « قطعة من الخشب مضحكة » . وحاله حال قفصٍ يسعى بحثاً عن طائر ، طائر موهوم . كلا ، بل أبشع من حال امرأة عاقر تعرف نفسها عاقراً ثم ترجو مع ذلك الولَدَ .

وصاحبنا العربى يصف نفسه وأطوارها فيقول : « أما حالى فسيئة كيفما قلّبتها ، لأن الدنيا لم تؤاتنى لأكون من الخائضين فيها ، والآخرة لم تَغْلِب عَلَىَّ فأكونَ من العاملين لها . وأما ظاهرى وباطنى فما أشدّ اشتباههما ! لأنى فى أحدهما متلطخ تلطخاً لا يقرَبنى من أجله أحدٌ ، وفى الآخر مُتَبَنّخ تبذّخاً لا يُهْتَدىٰ فيه إلى رَشَد ؛ وأما سِرّى وعلانيتى فممقوتان بعين الحق لخلوّهما من علامات الصدق ، ودُنوّهما من عوائق الرِّق . وأما سكونى وحركتى فآفتان محيطتان بى ، لأنى لا أجد فى أحدهما حلاوة النجوى ، ولا أعرَىٰ فى الآخر من مرارة الشكوى . وأما انتباهى ورقدتى فما أفرق بينهما إلا بالاسم الجارى على العادة ، ولا أجمع بينهما إلا بالوهم دون الإرادة . وأما قرارى واضطرابى فقد ارتهننى الاضطراب حتى لم يدع فىّ فضلاً للقرار ؛ وغالبُ ظنى أنى قد علقت به لأنه لا طمع لى فى الفكاك ، ولا انتظار عندى للانفكاك . وأما يقينى وارتيابى ، فَلِى يقينٌ ولكن فى دَرْك الشقاء . فمن يكون يقينُه هكذا ، كيف يكون خبره عن الارتياب ؟! » (ص ١٨) .

وليس هذا منهما لمجرد الاستمتاع بالتغنّى بالألم إرضاءاً لنزعة أدبية أو هاتفٍ رومنتيكى . بل كان فى حياة كلٍّ ما يدعو إلى هذه المرارة فى الشكوى ، يواكب هذا عرامة إحساسٍ ينفذ من الظاهر إلى الباطن ، فلا يتخذ من الأحداث إلا رموزاً وعلامات على الجوهر الباطن فى أعماق الوجود كله . فالألم الذى يحياه

فى لحظة هو ألمٌ مرفوع إلى أُسِّ السرمدية ، والانفعال الذى ينطبع فى نفسه من موضوع محدود ، سرعان ما يفتح على الوجود الواحد بأسره . وهذا هو ما يميز الأديب الوجودى الحقّ . فكأيِّن من حَدَثٍ تافه عند الناس يصبح لديهم حدث الأحداث ، لا لمبالغة فى تقديرهم أو إفراطٍ فى التخيل الجامح ، لكن لأنهم يقولون مع جيته : « كلُّ حادثٍ رمزٌ » . فما بالك وقد لقوا فى دنياهم عنتاً ليس بالهيّن !

فكَيْفَكا ينتسب إلى شعب مستأصل شارد ، عليه اللعنة والنقمة أينما حل وحيثما سار ، وإن ادّعى لنفسه أنه « شعب الله المختار » ، إلا أن يكون مختاراً للشقاء وإشاعة الشرّ بين الناس وإهدار القيم النبيلة عند الآخرين ! وصاحبنا لا نعرف له أصلاً ، إنما هو من أولئك الموالى الذين اختلطت فيهم الدماء والعناصر فكونت مركباً غريباً . على أنه كان يشعر بواشجة قربى مع الغرباء والأفاقين ، حتى كان لا يخالط إلا « الغرباء والمجتدين الأدنياء الأردياء »[1] ، وما هذا إلا لشعوره بأنه واحد منهم ، إذ كان يرتد إليهم مهما زجره عن ذلك زاجر من كبار القوم . على أن الأرجح أن يكون فارسىَّ الأصل ، مع احتمال دخول أجناس أخرى ؛ وبالجملة فهو آرى فى غالب الظن ، ولا شك أنه كان يشعر بالدَّخل العنصرى الذى كان بالغاً أشدّه فى عهده ، أعنى القرن الرابع الهجرى ، خصوصاً وقد بدأ عنصره ينتصر ، بل ويستقلّ بدويلات لا تكاد تربطها بمركز الخلافة إلا أوهى الروابط . ومن هنا كانت عناية كليهما بأمر الشعوبية ، وما ذلك إلا لما يعانيه من تجربة أو شعور أليم يبلغ حد المأساة ، لأنه شعور عنصر بأسره فى كفاح حضارى مع عناصر قوية أخرى كانت لها عليه مكانة السيادة .

---

(١) « الإمتاع والمؤانسة » ج ١ ص ٧ ، القاهرة سنة ١٩٣٩

وكلاهما نشأ فى أسرة تشتغل بالتجارة ، وطبيعة التجارة أشد ما تكون تنافراً مع الثقافة بالمعنى الرفيع . لأن التاجر لا يشارك فى الثقافة إلا بالقدر الذى يستعين به على التجارة ، وما تجاوزه يَعُدُّه خيانة لرسالته . ومن هذا ينشأ التعارض الحادّ بين الابن « الضال » فى أتاويه الفكر ، وبين الوالد المتربّع على دست المال . هاهنا صراع بين النافع والضائع ، بين الفرض والنافلة ، بين الجوهر والفضول . فالابن الضال يولع بالضائع والنافلة والفضول ، لأنه يرى فيها عين الحياة وقيمة الوجود ، ولذا يبغض كلّ مايعده الآخر قيمة حقيقية . وعن هذا التعارض ، إذا ما اشتد وكان كلا طرفيه مرهفاً ، ينشأ الإفراط ، أستغفر الله ، بل النضوج الكامل لكلا الاتجاهين والشواهد على هذا لاتحصى فى تاريخ الحياة الروحية ، ونجتزى منها بذكر مثل واحدٍ هو هينرش هينه (Heinrich Heine) . وكفكا قد لقى من أبيه الأمَرّين ، حتى أحسّ بهذا طوال حياته القصيرة : فكان أبوه ملئ الثقة والاعتزاز بالنفس ، ذلق اللسان لأنه يردد العبارات التقليدية الطنانة ، خبيراً بالحياة والأحياء خبرة كونها المكر والدهاء ، يتبع الطريق اللاحب السلطانى الذى يتبعه أولئك « الناجحون » فى الحياة ؛ وبالجملة كان من أولئك الذين يسميهم سارتر (Sartre) باسم « الأنذال » (les salauds) ، بينما كان فرنتس من الغشّاشة (les tricheurs) ، والأولون هم أولئك « العقلاء » ، « الطيبون » الذين يحيون حياة آلية ، ولا يتميز الواحد منهم من الآخر ، لأنهم أفرغوا فى قالب واحد ، أو صُنعوا بالجملة كما يقال فى لغة الصناعة ؛ أما الغشاشة فهم الذين يَغُشّون ، لأنهم يخادعون القواعد المصطلح عليها ، القواعد الشائعة الجارية بين كل الناس ، ولأن فى اختيارهم جانباً مُتّهماً مُقلِقاً يزعج النفوس المطمئنة القانعة السمينة الراضية . نعم ! كان كفكا رجلاً مرهف الحساسة ، قلقاً ، طفلاً كثير الحياء والخشوع ،

حتى كان فى حضرة أبيه يفقد كل ثقة بنفسه ، ويشعر بدلاً من هذا بشعور الخطيئة بغير حد ، حتى إنه كان يخشى ألا يبقى الخجل حياً بعد وفاته ، خجله هو أمام أبيه ، ذلك الجبار العاتى . ولقد قال له أبوه ذات يوم : « سأمزقك كالسمكة » ، فظلت هذه اللعنة الأبوية تصرخ فى ضمير كفكا طوال محياه . وآية ذلك أنه جعل من مغزاها مغزى لروايته : « الْحُكْمْ » (Das Urteil) : ففيها يحكم الوالد (ذو التجارة الواسعة والثراء العريض) على ابنه بأن يموت غرقاً ، صائحاً فى وجهه : « حكمتُ عليك بالموت غرقاً ! » (Ich verurteile dich zum Tode des Ertrinkens). بل نما هذا الشعور عند كفكا حتى وجد الأمر طبيعياً أن يلعن الوالدُ ابنه أو يحكم عليه بالإعدام ؛ إذ نشاهده يقول : « إن كرونوس ، سيد الآباء وأشرفهم ، قد ابتلع أبناءه . فإذا كان كرونوس (Kronos) قد فضل تلك الطريقة ، فلعل ذلك كان شفقةً منه على أولاده » !

ويلوح أن حظ صاحبنا العربى لم يكن خيراً من حظ هذا الألمانى ، ونقول : « يلوح » لأنه ليس لدينا وثيقة واحدة تبين لنا هذه الناحية ؛ بيد أننا نستطيع استخلاصها من صمته عن كل ذكر لأهله ، بالرغم مما تبدى له من مناسبات عدة للحديث عن هذا الجانب ، بل يخيل إلينا من خلال كلامه أنه فقد كل شئ فى عهد مبكر ، كما فقد الصديق والصاحب والتابع والرئيس فى جارى سِنى عمره . ونعد نحن هذا الصمت دليلاً على خيبة أمل من هذه الناحية ، ناحية الأهل ، لكن منعه الحياء من الخوض فيها ، فاكتفى بالصمت الذى هو أبلغ من كل كلام .

بيد أن صاحبنا هذا لقى من دهره والأحياء ما هو أشد هولاً مما لقيه كفكا ، فتحدث عن ألمٍ مرير أعنف من ألم كفكا ، لأنه حَيَّه على نحو

أعنف ، وإن التقيا فى النهاية معاً فى وصف عالم الإنسان بأنه عالم الخطيئة ، والخطيئة هى الشعور بالتضاؤل فى إمكان الوجود ؛ وأنه عالم القهر ، كما يقول السهروردى المقتول ، القهر للإنسان تحت سلطان قوة مستورة جبارة ، قوة المصير الذى لا يرحم ؛ عالم السلب الذى يضع الحدود فى وجه كل اتساع أمام الممكنات ، فلا تلبث أن ترتد إلى سردابها (souterrain) الذى تحدث عنه دوستويفسكى ، هذا السرداب المستنقع المستوحل الذى تنبعث منه روائح منفرة لكل شعور حىّ بمعنى الحياة ومدلول الوجود ، هذا السرداب الذى هو مجال الشعور فى باطنه الحر اللامعقول ، الثرىّ بالانفعالات الكابية والشهوات المتضاربة الشرسة ، الملىء بالظلمات والأهواء المندفعة المعربدة ، مما هو فى تعارض حادّ مع الظاهر الصافى ، وفى صفائه كل تفاهة ، الطاهر وفى طهره فقر الحياة ، المستقيم وفى استقامته البساطة الزائفة . نعم ! فى هذا السرداب تتفجر عيون الخطيئة ، لكن الوجودَ خطيئة ؛ وتضطرم الشهوات ، لكن الشهوة سرّ الحياة ؛ ويسود اللامعقول ، ولكن اللامعقول هو المنطق الأكبر .

وفى هذا السرداب النفسى العامر بالأشباح تسكن هذه الأرواح ، متفيئة ظلال الموت ، حانية على الجانب المُتَّهم من الوجود ؛ ولهذا كان حديثها فى الخارج ، أعنى فى آثارها الفنية ، مظهراً لهذا الباطن الموحش . فدوستويفسكى يختار أبطاله من بين تلك النفوس المبهمة التى تستحلّ لنفسها ما يدعوه النظام العام إثماً ، والتى ترى الحرية فى فعل الشر أكثر منها فى فعل الخير ، والحرية لها عندها خير مكانة ، لأن حرية فعل الخير هى القيدُ ، كلُّ القيد ، إن هى إلا اتباع وخضوع لما فرضه المجموع ، هذا اللامعقول الأكبر ،

من معايير وقيم إن صلحت للأنذال (les salauds) ، أعنى للأخيار الطيبين الصالحين ، فلا تصلح للغشاشة (les tricheurs) ، أعنى الممتازين الحريصين على التفرد وتحقيق المعنى الصحيح الملىء للحرية . أبطاله من تلك النفوس الجنّية التى تحدث عنها كيركجورد (Kierkegaard) فوصف تراكيبها وأنسجتها النفسية الفريدة الصنع ، والتى عرض لنا دوستويفسكى أحوالها الشائنة وأطوارها الرهيبة فى معظم ما كتب ، وبخاصة فى تلك المناجاة الشيطانية الهائلة التى تفوه بها إيڤان كَرَمَزوف (« الإخوة كرمزوف » : ١٩٤١ : ٩)، هذا الروح الخبيثة ، وهذا الإبليس الرائع الذى عرف الله ، ولكنه لم يُرده ، لأن طائفاً شيطانياً يصور له نفسه أنها هى الأخلق بالتأليه ؛ ثم فى شخصية راسكولنيكوف فى « الجريمة والعقاب » ، هذا القاتل الآثم ، لكن إثمه هو إثم القدر . والنفس الجنّية تتصف عند كيركجورد بخصائص عدة ، نبرز منها هنا ثلاثاً : أولاها « أنها تلك التى غُلِّق عليها فلا تنفتح إلا رغماً عن إرادتها . وكلا هذين معنى واحد : فالمغلق صامت ، فإن وجب الإفصاح كان ذلك ضد إرادتها » ، لأن الحرية بطبعها تهفو إلى الانتشار والتفتح ؛ وهذه لا تعرف الحرّية إلا مغتصبة من المصير . وثانيتها أنها « ما هو فجائى » ، ما هو فى حال اندفاع يطلق العنان لكل القوى العمياء الراقدة فى الأعماق المستوحلة للشعور ، وتصاعد فى عنفها حتى تكسر السدّ الفاصل بين المعقول واللامعقول ، فتنتهى إلى القضاءِ الذاتى ، بالانتحار وما أشبهه . وآخرها وثالثها أن « النفس الجنية هى الجوفاء الرتيبة » بما يكثر من ترداد طائف شيطانى آثم واحد ، يلح كأنه الفكرة المتسلطة ، فيشعر صاحبها بأن الخطايا وألوان الضعف تتكرر بنفسها فى حال من الإملال القاتل ، وأن الحياة خالية من كل معنى لأنها

عديمة الاتجاه ، لا تفتح على غيرها ، بل تشير دائماً إلى نفسها فى نوع من الإحالة الكالحة الجافة[1] .

وإيثار هذه النفوس الجنية من جانب أولئك الفنانين هو دليل على ما يشعر به هؤلاء الأخيرون من واشجة قُرْبىٰ وصِلَة رَحِمٍ بها . ولست أعنى أنهم يفعلون فى الواقع أفعال تلك النفوس ، وإنما أقصد أنهم يميلون إلى أن يحيوا فى باطنهم أحوالهم ، ويستشعروا انفعالاتهم . فى مظهرهم طفولة وبراءة ، لكنْ فى سردابهم ضجيج الأشباح الشيطانية والأرواح الخبيثة . فى مسلكهم فى الحياة تعقل وحكمة ورزانة ، لكنْ فى عمائق الشعور ، أو بالأحرى فى اللاشعور الغامض عربدةٌ وتجديف وتمردٌ واستمتاعٌ بمعانى الإثم المنفتل عن السبيل السواء .

فكفكا أصيب بداء السل وهو فى الرابعة والثلاثين . وظل يعانى هذه العلّة التى تستهلك بدنه يوماً بعد اليوم ، حتى قضى منها ولما يتم الحادية والأربعين . فلم يشأ أن يرى فى هذا الحادث مجرد حادث جسمانى ؛ وأعانه على هذا الظن

---

(١) راجع فى هذا بحثين قدما للمؤتمر الدولى للفلسفة الذى عقد فى روما من ١٥ إلى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٤٦ ، ونشرا فى « أعمال المؤتمر الدولى للفلسفة المنعقد بدعوة معهد الدراسات الفلسفية » ، الأول لاستفانيا بوتشيرى بعنوان : « كيركجورد ودوستيفسكى أمام مشكلة الشر فى العالم » ، ص ١٣٩ ص ١٤٢ (Stefania Bucceri) ؛ والثانى بعنوان « دوستويفسكى والوجودية » ، ص ١٤٣ — ص ١٥٨ تأليف ريمو كنتونى (Remo Cantoni) ؛ ميلانو سنة ١٩٤٨ . *Atto del Congresso internazionale di filosofia*, promosso dall, Istituto di studi filosofici, II : L'Esistenzialismo بعناية انريكو كستلّى (Enrico Castelli) .

أنه كان قوىّ البدن ، موفور الصحّة ؛ ولم يشأ أن يصدق أن مرض السل هذا إنما يصيب فى الغالب الأبدان العامرة بالصحة والقوة والنشاط . وإنما أوّله — على منهجه الذى تحدثنا عنه ، والذى شعاره قول جيته : « كل حادث رمز » — بأنه مجرد مجاز يرمز إلى الجرح الذى يسمى التهابه باسم ف (الحرف الأول من اسم خِطّيباه) ، وعمقه هو رغبة فى التبرير ؛ ورأى فى نصائح الأطباء ، من هواء ونور وشمس وراحة ، مجرد مجازات . إن خطيباه ، وهى ممثلة الدنيا ، قد وقعت فى عراك لا نهاية له مع ذاته ، حتى صارا بسبيل أن يمزّقا بدنه .

وهذه الِخطبة هى الأخرى كانت من عوامل شقائه . ففى شهر أغسطس من سنة ١٩١٢ التقى بفتاة سيرتبط بها برباط الخطبة . فأثر فى نفسه هذا اللقاء تأثيراً رائعاً ؛ فتحت تأثيره كتب فى ليلة واحدة ، منتشياً بهذا الغرام الفريد ، قصة « الحكم » ؛ وفى الشهرين التاليين ألّف كتابين من أهم كتبه ، ووضع مجمل كتاب ثالث . فقد كان فى حالٍ من الوجد العجيب والإلهام الخارق ، وكأنه موسى يشق الماء بعصاه ، كما وصف هو أحواله فى تلك الليالى العامرة بالوحى . لكنه ، شأنه شأن كيركجورد ، كان واهماً حين طلب يدها . فأمثاله قد قدرت عليهم العزوبة أبدا ، والوحدة أبدا . نعم ! استمرت الخطبة خمس سنوات . لكن طولها هذا أبلغ دليل على استحالتها ، إذ ظل طوالها معذباً بين نداء الرسالة الخالدة ، رسالة المتوحّدين ، وبين نداء رسالة الحياة الدنيا ، رسالة المنخرطين فى سلك « المجموع الأكبر » ، ولم يكن لديه من سرعة البت ما كان لدى شيخه الروحى كيركجورد الذى لم يقو على استمرار الخطبة إلا أحد عشر شهراً [1] . ولعل كفكا لم يستطع القرار نهائياً إلا لما أن نبهه مرضه العضال إلى واجبه .

(١) من ١٠ سبتمبر سنة ١٨٤٠ إلى ١١ أغسطس سنة ١٨٤١

وصاحبنا قد لقى الأهوال من الأحياء . عرف الشقاء الذى لايستحقه ، بينما وجد التافهين يرتفعون إلى أعلى مراتب الرياسة والشرف فى الدنيا . وسعى ما استطاع لطلب المثالة بين الناس « ولعقْدِ الرياسة بينهم ولمد الجاه عندهم »[1] ، فحرم ذلك كله . وزاد من شعوره بالألم أنه طلب المجد عند أناس مهنتهم مهنته أعنى حرفة الأدب ، لكنهم بلغوا مراتب الوزارة ، وهو لم ينل إلا البؤس والحرمان ؛ وظن أنهم أقدر الناس على معرفة قدره ، فلم يلق منهم إلا كل نكران وتحقير وإهانة لكل كرامة . وعاد من حيث أتى ، لم يزد إلا هما على هم ، ومرارة إملاق على إملاق . فلم يجد غير القرطاس يصبُّ فيه جام غضبته المقدسة ، فراح يفضح « مثالبهما » ؛ أو بعض المحرومين من على شاكلته مثل أبى بكر القومسى الفيلسوف الذى قال هو عنه إنه « كان بحراً عجاجاً ، وسراجاً وهاجاً ؛ وكان من الضر والفاقة ، ومقاساة الشدة والإضاقة ، بمنزلة عظيمة ؛ عظيم القدر عند ذوى الأخطار ، منحوس الحظ منهم ، مُتَّهماً فى دينه عند العوامّ ، مقصوداً من جهتهم » ، يناجيه صاحبنا ويطارح كلٌّ منهما الآخر ، حديثَ شقائه ، وهما فى الحرمان والشقاء صنْوان . قال لصاحبنا هذا يوماً : « ما ظننت أن الدنيا ونكدها تبلُغ من إنسان ما بلغ منّى : إن قصدتُ دجلة لأغسل منها نضب ماؤها ، وإن خرجتُ إلى القفار لأتيمّم بالصَّعِيد عاد صَلْداً أملَس[2] » ؛ ومع ذلك كان ذا أنفة نفس واعتداد بالكرامة ، فلم يشأ أن يترامى على أعتاب الرؤساء ، هذا الداء العضال المستحكم فى الشرق حتى اليوم ويا للأسف الشديد ، بل ربأ بنفسه عن كل هذا قائلاً : « معاناة الضُرّ والبؤس أولى من مقاساة

---

(١) ياقوت : « معجم الأدباء » ، نشرة القاهرة ، ج ١٥ ص ١٨ ، القاهرة بدون تاريخ .

(٢) المرجع السابق ، ج ١٥ ص ١٠

الجهال والتيوس ، والصبرُ على الوخيم الوبيل أولى من النظر إلى مُحيا كل ثقيل »[1] . فرد عليه صاحبنا : « ما أعرفُ لك شريكاً فيما أنت عليه وتتقلّب فيه وتقاسيه سواى ، ولقد استولى علىّ الحَرْفُ وتمكن منى نكدُ الزمان »[2] . هنالك انطلق يرمى زمانه وأهل زمانه بمقذع الهجاء ، شاكياً نائحاً حيناً ، متمرداً عنيداً يجدّف بكل شىء حيناً آخر .

كذلك فُرضت عليه الوحدة فى الحياة ، فظلّ عمره لايجد حوله « ولداً نجيباً وصديقاً حبيباً ، وصاحباً قريباً ، وتابعاً أديباً ، ورئيساً مُنيباً »[3] ؛ ومن هنا شعر بالوحشة الهائلة فى دنياه . فانطلق يصفها بكل حرارة ومرارة فى معظم صفحات كتبه .

لقد أحسّ بأنه « غريب » فى كل شىء : غريب فى وطنه ، غريب عن أحبابه ، غريب عن كل ما فى الوجود من أشياء وأحياء . فكان موضوع « الغريب » هذا من أبلغ ما سطره قلمه ، وفيه ملامح وجودية لايخطئوها النظر من أول وهلة ، ولهذا كانت الباعث لى إلى تلمّس العناصر الوجودية فى كتابته .

قال إن الغريب الحق ليس ذلك الذى « نأى عن وطنٍ بُنى بالماء والطين ، وبَعُدَ عن أُلاّف له ، عهدُهم الخشونة واللين » ، وإنما هو ذلك الذى « طالت غربته فى وطنه ، وقل حظُّه من حبيبه وسَكَنه »[4] . فهو فى وطنه غريب ، وتلك هى الغربة الوجودية ذات المعنى العميق ، لأنها إحساس بالوحدة الذاتية المطلقة التى يحملها الإنسان فى داخل نفسه أينما حل وحيثما سار ، وفى أى وسط

---

(١) المرجع السابق ، ج ١٥ ص ١٢

(٢) المرجع السابق ، ج ١٥ ص ١٣

(٣) ياقوت : « معجم الأدباء » ترجمة التوحيدى ، ج ١٥ ص ١٩

(٤) « الإشارات الإلهية » ص ٧٩

كان ؛ فالوطن المادى لامعنى له إذا قيس بالوطن الروحى الذى تقطنه تلك النفوس الشاردة . وهذا يدلّنا كذلك على معنى الاستئصال والإجذار (déracinement) الذى كان نتيجة ضرورية للدور الذى كانت فيه الحضارة العربية آنذاك فى القرن الرابع الهجرى ، أعنى فى دور المدنية المتأخر ، وفى مدينة بغداد التى كانت آنذاك مدينة عالمية ، سرعان ما يستأصل فيها ساكنوها ، خصوصاً إن كانوا ممن اصطلحت عليهم أخلاطٌ من الأجناس والثقافات المتعارضة ؛ فضلاً عما يضاف إلى هذا من انعدام الشعور القومى المحلّى عند أمثال صاحبنا من المفكرين الفضوليين على الحياة السياسية ، شأن المفكرين فى ذلك الدور الحضارى : يكونون عادةً عالميى النزعة (cosmopolites) ؛ وهو ما عبر عنه أبو الفتح البستى خير تعبير فى ذلك العهد نفسه فقال :

وإن نَبَتْ بك أوطانٌ نشأْتَ بها
فارْحَلْ ، فكُلُّ بلاد الله أوطان

لكن صاحبنا لا يقنع بهذا المعنى المبتذل فى عهده ودور الحضارة الذى ينتسب إليه ، وإنما يرفعه إلى المعنى الأعمق . فيقول : « قد قيل : الغريبُ مَن جفاه الحبيب . وأنا أقول : بل الغريب مَنْ واصله الحبيب ، بل الغريب من تغافل عنه الرقيب ، بل الغريب مَنْ حاباه الشَّريب[1] ، بل الغريب مَنْ نودى مِنْ قريب » ؛ ثم يرتفع بهذه النبرة إلى درجة عالية فيصيح : « بل الغريب من هو فى غربته غريب » (ص ٨٠) . أية روعة فى هذه العبارة التى تبدو فى صورة التناقض الوهمى (paradoxe) ، أو فى صورة الابتذال ! إذ معناها أن هذا الغريب قد صارت الغربة نفسها غريبة عنه ، ذلك لأنه ارتفع فوق معنى الغربة

---

(١) النديم .

عن الوطن إلى معنى الغربة عن الغربة بعد أن صارت الغربة نفسها وطناً له . وهذا يؤذن بأنه فى حركة متطورة ديناميكية مستمرة ، لأنه إن حىَّ حالةً واستشعر كل معناها ، ارتفع فوقها مقاماً آخر ، لأن الاقتصار هنا والتوقف يؤدى إلى الركود ، والركود السكونى هو والوطن المادى سواء ؛ وهو يرمى إلى التخلص من كل وطن مادّى . فهذه الغربة الأولى — أعنى التى فى المرتبة الأولى — قد تستحيل أو هى بالفعل تستحيل إلى استيطان ، والاستيطان نوعٌ من الوطن الثانى الذى قد يفوق الوطن الأول ؛ لهذا كان عليه أن يعلو على الوطن الثانى وهو الغربة ، فيصبح غريباً فيه ، فيكون غريباً فى الغربة نفسها. فهاهنا إذن معنى دقيق لايفطن إليه إلا فنان وجودى مثل صاحبنا هذا . وهو يعبّر عن هذا المعنى للغريب والغربة فى العلاء والتطور الديناميكى فيقول : «أين أنت عن غريبٍ لاسبيل له إلى الأوطان ، ولاطاقة به على الاستيطان ! » (ص ٧٩). وبالجملة ، فإن الغريب الحق هو الدائم الغربة أبدا ، الذى إن رأى غربة قد بدأت تستحيل إلى وطن فعليه أن يرحل عنها حتى يظل فى غربة أبدا .

وصاحبنا حريص كل الحرص على توكيد هذه التفرقة فى كل فقرة من تلك الصفحات الدامية النابضة بكل حياة . فنراه يقول عن هذا الغريب بالمعنى الصحيح الملئ : « هذا غريبٌ لم يتزحزح عن مَسْقَطِ رأسه ، ولم يتزعزع عن مهبّ أنفاسه . وأغربُ الغرباء من صار غريباً فى وطنه ، وأبعَدُ البُعَداء من كان بعيداً فى محل قُرْبه ، لأن غاية المجهود أن يسلو عن الموجود ، ويغمض عن المشهود ، ويُغْضِى عن المعهود ، ليجد من يغنيه عن هذا كله بعطاء ممدود ، ورِفْدٍ مرفود ، وركنٍ موطود ، وحدٍّ غير محدود» (ص ٨١—٨٢) . وهذا تفسير جيد لحقيقة هذا الغريب فى وطنه ، البعيد فى محل قُرْبه . فالغربة إنما تأتيه من باطنه ، إذ عليه أن يسلو عن الموجود ، والموجود هنا يشمل كل شيء :

الموجود بالمعنى المـادى ، والموجود بالمعنى الروحى ، والموجود بالمعنى الميتافيزيقى : والأول بالزهد فى الحياة والعزوف عن الدنيا ، والثانى بالعلاء المستمر فى معراج التطور الروحى . وفى هذا المعنى الثانى يتجلى الطابع الحركى الديناميكى الذى يميز تحليل صاحبنا لهذه الأحوال الوجودية الممتازة الخاصة بالغريب . والمعنى الثالث ، أى الميتافيزيقى ، يكون بتأمل فكرة الفناء : الفناء الفردى على هيئة الموت للأحياء ، والفناء العام على هيئة الانطواء للوجود كله فى حِضْن الوجود الواحد ، مما سيتناوله هو من بعد وهو يتلمّس النجاة والخلاص بأن يدعوك ، أيها الإنسان ، إلى « أن تصحب كونك بفراق كونك ، وتَبيدَ فى عينِك عن عينِك ، وتنأى عن شاهِد زَيْنِك وشَيْنِك ، وتمحو أثرَ المكان فى أيْنِك » (ص ١١٣) ، وهو ماسنتحدث عنه عما قليل .

والغربة الحقة كذلك تأتى من أن هذا الغريب هو الساعى إلى أن يغمض عن المشهود « فيعزِفَ عن كل ما يشاهد من أحوال متعاقبة متضاربة ، لا يرى له مجالاً للمشاركة فيها لأنه صار بمعزل عنها أو من فوق طورها ، أو فى القليل محروماً منها . وهو ما عبر عنه كفكا فقال إنه كان يمد يده إلى الأشياء والأحياء ، يمدها ما وسعها المدّ ، لكنها كانت قصيرة لا تبلغهم . فليس عليه إذن إلا أن يردها إلى أصلها فيغمض عن المشهود . وهذا الغريب كذلك قصاراه أن يغضى عن المعهود ، لأن المعهود هو ما اصطلح عليه المجموع الأكبر (Le grand Ensemble) كما يقول كفكا ، أو الأنذال (les salauds) على حد تعبير سارتر ؛ والروح الغريبة تهفو إلى التميز ، وألدُّ أعدائها التكرار ، لأنها تنشد دائماً أبداً التجديدَ والابتكار . فالمعهود هو القاعدة العامة ، هو النواميس المقررة بين الناس ، هو مايراه الناس وبه يحكمون وعليه يسيرون .

ويزيدنا صاحبنا وصفاً للغريب يستقرى دقائقه ويحيط بأطرافه ، مما يجعله عنده النموذج الأعلى للوجودى الحق . فالغريب كائن يعلوه الشحوب ويغلبه الحزن حتى يصير كالشَّن [1] ؛ « إن نَطَق نَطَق حزنان منقطعاً ، وإن سكت سكت حيران مرتدعاً . وإن قرب قرب خاضعاً ، وإن بَعُد بعد خاشعاً ... إن أصبح أصبح حائل اللون من وساوس الفِكْر ، وإن أمْسَى أمْسَى مُنْتَهَبَ السِّرّ من هواتك السِّتر . . . مصه الذبول وحالفه النحول » (ص ٧٩) — هذا من حيث قسماته وملامحه الخارجية ومظهره بين الناس . أما هو فى نفسه ، فهو مَنْ « أغربَ فى أقواله وأفعاله ، وغرّب فى إدباره وإقباله . . . من نطق وصفه بالمحنة بعد المحنة ، ودلّ عنوانه على الفتنة عُقَيْب الفتنة ، وبانت حقيقته فيه فى الفينة حدّ الفينة » (ص ٨٠) . فغرابة أقواله تجعله هدفاً للمحنة من الناس : تقتحمه العيون ، وتضطهده النفوس جهلاً أو حقداً أو لكليهما معاً .

لكنه مع ذلك يفرض وجوده على الناس وإن لم يكن حاضراً . وسواء على الناس حضوره وغيابه ، إذ هو كما قال صاحبنا فى عبارة رائعة حقاً فى إحكام معناها وثراء مدلولها : « الغريب مَنْ إن حضر كان غائباً ، وإن غاب كان حاضراً » (ص ٨١) . ولعل هذه الحال التى تُعَبِّرُها هذه الجملة هى أبشع أحوال الغربة بمعناها الوجودى . فهذا الشعور بالغياب يكوّن مرحلة عظيمة فى مراحل الضمير المعنّى الشقىّ بالمعنى الأعمق للوجود . والغياب هنا فى الفاصلة الأولى من الجملة هو الأشد أثراً . فهو غائب عن وجوده لأن الوجود يسلك سبيله بدونه ، ولأن المصير الخاص يفعل فعله دون أن يستشيره . وكفكما برع فى وصف هذه الحال براعة خليقة بالتنويه فهو يقول : « الحياة انحراف دائم

---

(١) القربة الخلَق الصغيرة .

لا يسمح لنا حتى بأن نشعر بالاتجاه الذى تتخذه فى انحرافها » . وهل آلم للنفس وأدعى إلى خيبة الأمل ، بل واليأس من الحياة كلها ، من أن تعتقد و تؤمن إيماناً واسعاً بجدوى ما تبذله فى الدنيا من مجهود ، ثم ترى عما قليل أن مصيرك قد تحدّد بنفسه ومن تلقاء نفسه وكأنك لم تشارك فيه أدنى مشاركة ؟ ! نعم ! إن بعض النفوس قد حلّت هذه المشكلة نفسها وظنت أنها استراحت بأن أسلمت قيادها منذ البداية إلى هذا المصير . لكن هذا ليس من الحل فى شىء ، إنما هو فرار من المشكلة ، أو بالأحرى إخفاء الرأس فى الرمل أمامها ، لأنها لن تختفى أبداً ولن تريم عن مكانها ، ولن تستطيع أنت منها فراراً . ومن هنا اتّسم أبطال رواياته بنوع من التسليم العاجز ، العاجز ولكنه على ذلك متمرد فى باطنه .

ذلك أن ها هنا فارقاً — ولو كان ضئيلاً فيما نعتقد نحن — بين موقف كفكا من المصير وموقف صاحبنا . فكفكا ظل حتى النهاية لا يود التفويض إلى سلطة عليا فوق الكون ، وإن طاف به بين الحين والحين ، خصوصاً فى السنوات الأخيرة قبل وفاته وفى شدة العلّة ، طائف يقرّبه كثيراً من تصور وجودها . أما صاحبنا العربى هذا فلن نستطيع أن نفصل فى أمره فى هذه الناحية بيقين ، حتى إن المؤرخين أنفسهم ليختلفون فى حقيقة إيمانه . فالذهبى — ولعله تأثر هنا بابن الجوزى — يرى أنه كان سيىء الاعتقاد . وابن فارس فى كتاب « الخريدة والفريدة » يقول عنه إنه كان « قليل الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان ؛ (وإنه) تعرّض لأمور جسام من القدح فى الشريعة والقول بالتعطيل» . وجاء ابن الجوزى فى تاريخه فقال: «زنادقة الإسلام ثلاثة : ابن الراوندى ، وأبو حيان التوحيدى ، وأبو العلاء (المعرّى) . قال : وأشدّهم

على الإسلام أبو حيان، لأنه مجمج ولم يُصَرِّح »[1] . بينما جاء فريق آخر على رأسه ياقوت[2] وابن النجار[3] والسبكى[4] فبرّأه من تهمة الزندقة ، على أساس أن ما فى كتبه لايدل على شيء من ذلك . وهذا حق فى جملته ، إذ ما بقى لنا من كتبه لايدلّنا على زندقة بالمعنى الدقيق ؛ لكن المستقصى لمراميه البعيدة لايعدَمُ أن يجد سنداً لاتهامه بأنه كان فى القليل رقيق الدين ، أو أنه كان يلوّنه بلون خاصٍ به لاينظر إليه أصحاب السُّنَّة نظرة الرضا . على أننا نعتقد أن تكفير ابن الجوزى هنا له إنما هو من نوع تكفيره للصوفية عامّة ، كما سيفعل ابن تيمية من بعد بالنسبة إلى ابن عربى والحلاج والصدر الرومى وابن سبعين . ومع ذلك فيجب أن نعترف بأننا لانملك الوثائق الكافية للحكم فى هذه المسألة حكماً صحيحاً ، لأن الرسالة التى كان يمكن أن تكون الفيصل فى هذا الأمر وهى : « كتاب الحجّ العقلى إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى » ليست بين أيدينا اليوم . وعنوانها يدعو إلى كثير من التساؤل ، لأنه يُقرّبنا كثيراً من جوّ رابعة والحلاّج[5] ، ولعل هذا هو ما دعا ابن الجوزى إلى اتهامه إياه بالزندقة . وأيّاً ما كان الأمر ، فعلينا — إلى أن يأتى دليل مضادٌّ — أن نسلم

(١) تاج الدين عبد الوهاب السبكى : « طبقات الشافعية » ، ج ٤ ص ٣ ؛ القاهرة بلا تاريخ .

(٢) « معجم الأدباء » ج ١٥ ص ٥ س ٤ : « وكان يتألَّه ، والناس على ثقة من دينه » .

(٣) أورده السبكى فى الكتاب المذكور ج ٤ ص ٢

(٤) تاج الدين عبد الوهاب السبكى : « طبقات الشافعية » ، ج ٤ ص ٣ ؛ القاهرة بلا تاريخ .

(٥) راجع كتابنا عن رابعة العدوية : « شهيدة العشق الإلهى » .

بأن التوحيدى كان على الأقل يؤمن بسلطة عليا فوق الكون ، كما كان يؤمن بهذا أيضاً أستاذه أبو سليمان المنطق السجستانى والدائرة التى التأمت حوله .

وهذا الفارق بين كليهما قد جعل كفكا لا يكاد يقول بالتفويض والتسليم لقوة عالية فى صراحة إلا بعد جهاد مع نفسه طويل ؛ أما صاحبنا فيلوح أنه قال به فى يُسْر أكثر ، وإن عذّبه مع ذلك هذا التسليم . ولهذا لا نبالغ إذا قلنا إن مُحَصَّل تجارب كليهما واحدٌ حتى فى هذا الباب أيضاً ؛ مع فارق قليل ، لعله يرجع فى بعضه إلى أن كفكا مات شاباً لما يبلغ الحادية والأربعين [1] ، بينما صاحبنا ذرّف على التسعين أو فى القليل شارفها . فكفكا قد عاد لا يرى فى المجهود فائدة . فلماذا الكفاح ، بل لماذا التمرد ! كله لا جدوى له مادام المصير يعمل عمله دون أن يحفل مرة واحدة باستشارتنا . وهذه القوة العليا (العدو فى نظره) ، وإن لم تسكن عالماً آخر غير عالمنا هذا ، فإنها مع ذلك غير منظورة ، إلى حدّ أنه يُخَيَّل إلينا كأنها عالية على الكون . ولكونها مستورة غير منظورة ، فإنه يستحيل أن يكون ثمّ حوار بينها وبين الإنسان . والرحمة لا تتم إلا إذا كان ثمّ التقاء بين نظرتين ؛ فكيف يكون التقاء بين مستور ومرئى ؟! كلا ، بل يلوح أن هذه القوة المستورة قد أعمت الإنسان عنها دون أن يعرف . ولهذا فليس أمام الإنسان غير التواضع : « فالمتواضع يعطى كل إنسان ، حتى أشدّ الناس يأساً ووحدة ، أقوى صلة يمكن أن توجد بينه وبين بقية الناس إخوانه ، وبطريقة مباشرة ، لكن فى الحالة وحدها التى يكون فيها التواضع كاملاً مستمراً . وهو يستطيع ذلك لأنه اللغة الحقيقية للصلاة ، الصلاة التى هى عبادة

(١) ولد فرنتس كفكا فى ٣ يوليو سنة ١٨٨٣ بمدينة براغ بتشيكوسلوفاكيا (التابعة للامبراطورية النمسوية فى ذلك الحين) ؛ وتوفى إثر إصابته بالسلّ فى ٣ يونيو سنة ١٩٢٤ فى مصحة كيرلنج قرب ڤينا بالنمسا .

وتضامن متين فى وقت واحد . فالصلة بالناس الآخرين هى صلة الصلاة ، والصلة بالذات الخاصة هى صلة المجهود . فمن الصلاة تأتى القوة اللازمة للمجهود »[1] . لكن هذه الرابطة ، رابطة الصلاة ، هى نوع من المشاركة الإنسانية فى نطاق هذا العالم ؛ وهى تسليم وإذعان .

أما صاحبنا التوحيدى فيرى أن تكون هذه الصلاة حواراً بين الذات وبين نفسها مرفوعة إلى أسّ القوة العليا . وهو فى هذا يقترب كثيراً من الوجوديين ذوى النزعة الدينية مثل جبريل مارسل (G. Marcel) . لكنه يذهب إلى أبعد منهم ، فينتهى إلى نوع من تصوف الاتحاد . فهو يقول مخاطباً الإنسان عامة — وهو الذى يوجّه إليه الخطاب الحقيقى فى كل هذه المناجيات — ، وبعبارة أخرى هو ذاته : « إن كنت من أهل الغصّة ، فتجرّع بالتسليم مرارة الغصّة ؛ إن أردت أن تلحق بالملأ الأعلى ، فذُبْ بين البلاء والبلى ؛ إن كنت من أهل المِحْنة ، فلا تنظر إلى المحنة ، ولكن انظر إلى المنّة فى المحنة » (ص ١١٢) . وفى هذا يلاحَظ تسليم ممزوج بنزعة إيجابية ترمى إلى تلقى المحنة فى رضا بها ، بل تدعُو إلى الإقبال عليها . والسبيل إلى هذا لابد أن يفضى بك فى النهاية إلى الفناء بين البلاء والبلى ، بين المحنة والمحو ؛ حتى ينسلخ المرء عن نفسه ، وينفسخ عليه نعته ، فلا يكونُ بينه وبين ذاته ضد ولا ندّ (ص ١١٣) .

نظرة صاحبنا إذاً تفتح على الأبدية وعلى العلو (transcendance) ، على الأمل ، لكنه أملٌ أقل تفاؤلاً من « رجاء » مرسل (Marcel) ، لأنه صدر عن شعور أليم بما فى الحياة من تعارض وبأن الوجود نسيج الأضداد ،

---

(١) « الاعتبارات » (أو : التأملات) ، الفقرة رقم ١٠٦ ، مجموع مؤلفاته : ج ٦ ص ٢١٦

وهو شعور طالما عبّر عنه صاحبنا فى « الإشارات الإلهية » ، فقال فى موضع من تلك المواضع العديدة : « حبيبى ! أما ترى ضيعتى فى تحفظى ؟ أما ترى رقدتى فى تيقظى ؟ أما ترى تفرّق فى تجمعى ؟ أما ترى غُصّتى فى إساغتى ؟ أما ترى دعائى لغيرى مع قلة إجابتى ؟ أما ترى ضلالى فى اهتدائى ؟ أما ترى رُشْدى فى غَىّ ؟ أما ترى عِىّ فى بلاغتى ؟ أما ترى ضعفى فى قُوّتى ؟ أما ترى عجزى فى قدرتى ؟ أما ترى غيبى فى حضورى ؟ أما ترى كونى فى ظهورى ؟ » (ص١٠٤) وهو يستمر على هذا النحو من بيان اتحاد الضدين فى الشىء الواحد ، وما ينشأ عن هذا من توتر فى طبيعة الوجود والأحوال الوجودية ، قارعاً طبل بلاغته هذا القرع المنتظم الطويل الأمد . ولا تكاد تخلو صفحة من هذا الكتاب من ترداد هذا المعنى ، مما يؤذن بأنه كان يرى سرّ الوجود فى هذا التوتر الحىّ ، فى هذا الاستقطاب (polarité) الذى فصّلنا القول فيه فى كتابنا « الزمان الوجودى »[١] . وهو يوحى كذلك فى بعض المواضع[٢] أنه يؤمن بتساوى الأضداد .

وأغلب الظن أن هذا المخاطب الذى يتجه إليه ما هو إلا نفسه ، إذ كثيراً ما يتحدث عن « بينك وبينك » (ص١١٣س٨) « وبينى وبينى » (ص ١٣٤ س ١٢) ؛ ومعنى هذا أنه يقول بازدواج فى نفسه . ومن هذا قد نستطيع أن نستخلص أن هذا العلو (transcendance) الذى يتجه إليه فى هذه المناجيات أو الصلوات ما هو إلا نفسه ، وبذلك نظل فى داخل ملكوت الإنسان ، شأن كل فلسفة وجودية حقيقية . فلا يجب أن ننخدع كثيراً

---

(١) ص ١٣٧ — ص ١٣٨ . القاهرة ، سنة ١٩٤٥

(٢) ص ٨٧

بتكراره كلمة : « إلهى ! » التى يستهل بها عادةً فقرات هذه المناجيات ، فقد تكون مجرد العادة اللغوية هى التى تحمله على استخدامها . وبهذا التفسير الذى نقدمه ، فى احتياط وحذر ، يتحقق قول كفكا الذى صدرنا به هذا البحث وهو أن « الكتابة نوعٌ من الصلاة » ، والصلاة مناجاة بين طرف متواضِع خاشع وبين آخر يفترض فيه أنه عالٍ ، لا بالمعنى الدينى حتماً ، وإنما مجردُ ازدواجٍ تنقسم فيه الذاتُ على نفسها وفى داخل نفسها إلى متحاورين يتضرع أحدهما إلى الآخر ويبتهل ، استمتاعاً بالحالين العاطفيتين اللتين يلبسانهما . وقد يدخل فى ذلك استلهام لرواسب عاطفية دينية تصرخُ فى الأعماق المستورة أو تدق أجراسها الداعية إلى إقامة الفروض الدينية ، لكن لات ثمّ مجيب ! كما قال رينان[1] . ولعل هذا ما قد يعطى ابن الجوزى بعضاً من الحق فى اتهامه التوحيدى ، صاحبنا .

بقى علينا أن نسوق شبهاً أخيراً بين كفكا وبين صاحبنا أبى حيان ، شبهاً هو نتيجة طبيعية لهذا الشعور الأليم بنقص (carence) الوجود ، ثم بعبث ما نأتيه . وذلك هو ما فعله صاحبنا من إحراق كتبه وغسلها بالماء فى آخر عمره ، وما أمر به كفكا من عدم نشر ما خلفه من كتب ، بل رغبته فى القضاء عليها . ويشبههما فى هذا الصنيع رَنْبو (Rimbaud) لما أن أحرق ، فيما يقال ، كل طبعة كتابه « ملاوة فى الجحيم » (Une Saison en Enfer) . والعوامل التى حملت كُلاًّ من كفكا وصاحبنا على هذه الفعلة تكاد تتشابه . فصاحبنا قد كشف عن أسباب هذه الفعلة فى رسالة كتبها إلى القاضى أبى سهل على ابن محمد الذى كتب إليه يعذله على صنيعه هذا ، فقال إنه أتى هذا الفعل بعد

---

(١) فى « ذكريات الطفولة والشباب » ، المقدمة ص ٧ ، باريس سنة ١٩٤٧

تروّ طويل ، واستخارة لله أياماً وليالى . وذلك لأسباب : (أولها) أن العلم يراد للعمل ، والعمل يراد للنجاة ؛ فإن قصّر العمل عن العلم ، كان العلم كَلّاً على العالم ، وصار فى رقبة صاحبه غُلاً ؛ وهو يرى أن هذا العلم قد قصر عمله عنه ؛ فمن النفاق أن تظل هذه الكتب تدعو إلى شيء لم يعمل صاحبها به ؛ فضلاً عن أنها شواهد تُعَذّ به بإظهارها الفارق بين ما أمّله وما صار إليه ؛ فهو يحرقها إذن « لقلة جدواها » كما يقول ياقوت[1] . (وثانيا) هو قد بذل فيها عصارة نفسه ، وأودع فيها أصناف العلم : سرّه وعلانيته (esotérique et exotérique) ، فكان على شعورٍ قوى بعظم قيمتها ونفاستها ، فكيف لا يلقى عنها الجزاء الذى يستحق ؟ لقد جمع أكثرها « للناس ولطلب المَثالة[2] منهم ، ولعَقْد الرياسة بينهم ، ولمدّ الجاه عندهم ، فحرمتُ ذلك كلّه »[3] . وهذه لاشك صراحة محمودة من التوحيدى ، فإنه جَرُؤَ على إبداء هذا السبب الذى يخيل إلى الناس أنه يزرى بقدر صاحبه من الناحية الروحية . (وثالثها) أنه يعلم ماطبع عليه الناس من سوء الظن والميل إلى تقصّى العيوب ، وهو يعلم أن كتبه ناقصة ، فيها سهو وغلط ونقص وعيب ؛ وهو عَدِم المنصف فى حياته ، « وفقد ولداً نجيباً ، وصديقاً حبيباً ، وصاحباً قريباً ، وتابعاً أديباً ، ورئيساً منيباً »[4] . فشق عليه أن يدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنّسون عرضه إذا نظروا فيها ، فيشمتون . إنه لم يعد له صديق — وهل كان له يوماً صديق ؟ إذ فقد « الإخوان والأخدان فى هذا الصقع من الغرباء والأدباء والأحباء » . لقد أصابه زهدٌ

---

(١) « معجم الأدباء » ، ج ١٥ ، ص ١٦

(٢) الفضل ، وحسن الحال .

(٣) ياقوت : « معجم الأدباء » ، ج ١٥ ، ص ١٨

(٤) المرجع السابق ، ج ١٥ ص ١٩

فى كل شىء ، وهو يرى مصارع أولئك الذين فقدهم « بالعراق والحجاز والجبل والرّىّ وما والى هذه المواضع »[1] . (ورابعاً) إنه لم يأت فى هذا ببدعة ، فله « فى إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم ، ويؤخذ بهَدْيهم »[1] ، يذكر منهم أبا عمرو بن العلاء اللغوى الأديب الممتاز ، وداودَ الطائى « وكان من خير عباد الله زهداً وفقهاً وعبادةً ويقال له تاج الأمة : طرَح كتبه فى البحر ، وقال يناجيها : نِعْمَ الدليلُ كُنْتِ ، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول ، وبلاء وخمول » ، ثم يوسُفَ بن أسباط ، والصوفىَّ الكبير أبا سليمان الدارانى الذى جمع كتبه فى تنُّور وسَجَرَها بالنار ثم قال : « والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك »[2] . ويذكر كذلك سفيان الثورى وأبا سعيد السيرافى ، وقد كان شيخ صاحبنا . ثم هو قد فعل فعله هذا وهو فى حالٍ من المرض والعسر والفاقه ، وهذه حال نفسية يرى هو فيها من العذر أضعاف ما أبدى . وبهذا كشف عن كل العوامل التى تضافرت وتمالأت حتى حملته على أن يصنع صنيعه هذا الذى لم ينفرد به ، بل سبقه إليه طائفة صالحة من أجلّة العلماء . على أن العنصر البارز فى هذه الأسباب هو تبرُّمه بهذه الكتب لأنها لا تعبّر عن حاله الفعلية ، وهو فى هذا يختلف عن كفكا ، إذ أن كفكا إنما كان غير راضٍ عنها لعدم كمالها أو لقصورها وضآلة قيمتها ، ثم إنه يعبّر بهذا الفعل عن عدم الرضا اللازم للفنان . ولكنهما يتفقان هنا فى أن هذا الصنيع هو آية إخفاق : إخفاق فى الظفر بالمجد عند التوحيدى ، وإخفاقٌ من فرط اليأس الذى استولى على النفس من طول مواجهتها

(١) المرجع نفسه ، ج ١٥ ص ٢١

(٢) المرجع نفسه ، ج ١٥ ص ٢٢

لمشكلة نفسها المستعصية على كل حلّ عند كفكا . ويتفقان كذلك فى أن كلاً منهما نظر إلى إنتاجه فوجده عبثاً لا طائل تحته ، واقعاً هنا تحت تأثير حال العزوف والزهد والانصراف المطلق (abandon total) التى استولت على كليهما فى أواخر عمرهما . أما الأسباب الأخرى التى ساقها التوحيدى فيغلب على الظن أنه انتحلها انتحالاً ، تواضعاً واعتذاراً وإمعاناً فى المجاملة باتهام النفس بما يشينها فى الظاهر على الأقل . ورسالة التوحيدى مكتوبة كلها بهذه اللهجة اللبقة البالغة اللطافة (finesse) : فهو يعتذر بأسباب مادية وأحوال نفسية ، وكل هذا يجب ألا نأخذه مأخذ الجد ؛ لأن هذه الفعلة لا تصدر عن مغرور ؛ بل عن شعور شخصية نبيلة ترى أن كل كتابة هى حادثة فانية زائلة عابرة : وخير قرطاس تكتب عليه هو الرمل الذى تذروه الرياح ، والماء الجارى الدائم التجديد . إن الكلمة التى تسجل على قرطاس ثابت تقيّد صاحبها . والكاتب الحرّ هو ذلك الذى لا تقيده كلماته ، ولا تصبح عليه كَلاًّ ولا غُلاًّ كما قال صاحبنا التوحيدى فى عبارة قوية مليئة بالمعانى .

الكتابة زفرةٌ ، فأَطلِقْها مع مُرْسَلات الريح ، تَحْىَ أبداً ؛ أمّا إن أسلمتَها إلى الثابت ، فقد تحجّرتْ أبداً وفى التحجُّر الموات . عَبِّرْ عن خواطرك وأحساسك ، ثم استودع هذه العبارة زجاجة تلقيها فى البحر المحيط ، كما حلم ألفرد دى ڤنى (Alfred de Vigny) ؛ ودع من أراد على مدى الأجيال كى يسعى للظفر بها ، فمن قيلت له وأرسلت إليه بعنوانه المجهول لا بد عاثر بها يوماً ما فى مكان ما أو زاوية خفيّة من زوايا ملكوت الروح . أنت عابر ، ووجودُك عابر ، فاجعل كلّ انتاجك عابراً ؛ فالوجود العابر لا يتفق معه إلا الكلمة العابرة ، والانتاجُ العابر .

الكتابة هى « لا » تخشى أن تقول « نعم » ؛ فتسجيلها يخشى معه إن تحجر أن تستحيل معه « لا » إلى نعم. نعم، الكتابة ضرب من الصلاة؛ وخير الصلاة ما اتجه إلى المجهول أبدا، وصار سرًّا أبدا. فإذا بدا السّر أو علم المجهول فأحرِق ما كتَبتَ وقل مع الدارانى : « والله ما أحرقتُك حتى كدتُ أحترق بك ».

(٢)

ونحن ننشر هنا القسم الأول من كتابه : « الإشارات الإلٰهية والأنفاس الروحانية ». وفقاً للمخطوطة الوحيدة المعروفة حتى الآن عن هذا الكتاب، وهى المخطوطة رقم ٨ تصوف (١٣٣٤) بالمكتبة الظاهرية بدمشق.

(ا) أما أن الكتاب للتوحيدى فالدليل عليه ما يلى :

أولاً — أنه ورد فى الورقة الأولى من مخطوط الظاهرية ماهذا نصه :

« الأول من كتاب الإشارات الإلٰهية والأنفاس الروحانية، من تصنيف أبى حيان ».

وهذا أمرٌ لم يتنبه إليه أحدٌ ممن درس هذا المخطوط من قبل. والسبب فى هذا أن هذه الصفحة الأولى قد ألصق بها مجلِّدُ الكتاب ورقة سميكة تضرب إلى الصفرة غطت ما تحتها، فلم يبن منه شىء لمن يقرأ لأول وهلة. ومن هنا رأينا مارتن بلسنر[1] (Martin Plessner) يقول : ٢٧ (١)

---

(١) فى مقال له بمجلة « اسلاميات » (Islamica) ج ٤ بعنوان : « مباحث فى تاريخ الكتب الإسلامية » البحث الأول : دراسات عن مخطوطات عربية فى استانبول وقونية ودمشق (Beiträge zur islamischen Literaturgeschichte I : Studien zur arabischen Handschriften aus Stambul, Konia und Damaskus. تحت رقم ٢٧ (١)

الظاهرية ، تصوف ٨ : « كتاب الإشارات الإلٰهية » : يقول الزيات (أى حبيب الزيات فى كتابه : « خزائن الكتب فى دمشق وضواحيها » ، القاهرة سنة ١٩٠٢) فى ص ٤٩ إنه ورد فى فهرست المكتبة (الظاهرية) أنه لأبى حيان التوحيدى ؛ لكن لا يمكن فى الواقع أن نستخرج يقيناً من المخطوط من هو مؤلفه » . وتابع بلسنر على رأيه كثيرون .

لكن كم كانت دهشتنا ونحن ندرس الورقة الأولى من المخطوط ، حينما عرضناها فى مقابل ضوء الشمس ! فقد تبين لنا أن هناك كتابة تحت الورقة الصفراء التى ألصقها المجلد . وسرعان ما أتينا بضوء مصباح قوىّ سلطناه على تلك الورقة فاتضح ما تحتها أو أكثر ؛ وقد ظهر بوضوح تام هذا النص الذى أوردناه . فلم يعد أمامنا أدنى شك فى أن فى المخطوط نفسه ورد أنه لأبى حيان (التوحيدى) ؛ وأن الذى وضع فهرست المكتبة الذى أشار إليه حبيب الزيات إنما اعتمد على هذا النص الصريح قبل أن يجلّد الكتاب وتلصق هذه الورقة به . ونحن بدورنا لم نستطع أن نصدق أن يكون واضع الفهرست المذكور قد كتب ذلك من تلقاء نفسه ، وهذا هو الذى دعانا إلى متابعة البحث فى المخطوط نفسه عما يدل على مأخذ قول واضع الفهرست ، حتى عثرنا على ضالّتنا المنشودة بمجرد تعريض الورقة الأولى لضوء الشمس الساطع ثم لضوء المصباح الكهربى . ولو تيسّر لنا مصباح كهربى قوىّ بدرجة كافية (ألف وَتْ أو أكثر) لاستطعنا أن نُصَوِّر هذه الصفحة المختفية بالتصوير الشمسى .

ولعل فى هذه النادرة عظةً للمشتغلين بالمخطوطات !

والنتيجة لهذا إذن أنه ورد فى صراحة ووضوح تامّين أن هذا الكتاب هو « الإشارات الإلٰهية والأنفاس الروحانية لأبى حيان (التوحيدى) » .

وثانياً — أنه ورد فى « معجم الأدباء » لياقوت الحموى [1] اسم هذا الكتاب من بين ثبتٍ بأسماء مؤلفات أبى حيان على بن محمد بن العباس التوحيدى هكذا : « كتاب الإشارات الإلهية : جزآن » . ثم ورد كذلك فى ثبت كتب التوحيدى الذى أورده الصفدى [2] نقلاً من غير شكٍ عن ياقوت ، فقال : « الإشارات الإلهية ، جزآن » .

ثالثاً — يوجد لهذا الكتاب مختصر مع شرح قام بهما عبد القادر ابن محمد بن بدر المقدسى الشافعى المتوفى حوالى سنة ٩٣٤ هـ (سنة ١٥٢٧ م) ، منه نسخة مخطوطة فى برلين (« فهرست المخطوطات العربية بمكتبة برلين » لألفرت (Ahlwardt) ج ٣ برقم ٢٨١٨) يقول عنها مارتن بلسنر فى مقاله السابق الذكر إنها ملخص لا يسمح بالمقارنة مع النص الأصلى (الموجود فى مخطوط الظاهرية) مقارنة كافية ، أى أنه لا يفيد كثيراً فى تصحيح النص ، ولكنه يدل على كل حالٍ على أن الكتاب للتوحيدى .

ومن سوء الحظ أننا لم نستطع الظفر بصورة من هذا الملخص ولا بالاطلاع عليه ، نظراً إلى الظروف الحاضرة التى تحول بيننا وبين هذا الاطلاع ، حتى نقرر مدى إمكان الإفادة من المقارنة بين النص الذى ننشره والنص الوارد — موجزاً — فى هذا الملخص الذى عمله عبد القادر بن بدر المقدسى

---

(١) نشرة مرجوليوث ج ٥ ص ٣٨١ س ١٩ ، لندن سنة ١٩٢٩ ≡ ج ١٥ ص ٧ س ١٤ — س ١٥ من الطبعة المصرية بمطبعة دار المأمون ، القاهرة (بدون تاريخ) .

(٢) راجع نصه فى مقال مرجوليوث عن مناظرة السيرافى ومتى ، المنشور « بمجلة الجمعية الأسيوية الملكية » (JRAS) سنة ١٩٠٥ تعليق ص ٨١

الشافعى . لهذا لا نستطيع التحدث الآن عن هذا المخلص ، وإنما نرجىء ذلك إلى أن يتيسّر لنا ذلك الاطّلاع .

رابعاً — وثمت دليل كان يمكن الظفر به ولكننا لم نظفر به حتى الآن ، وهو الدليل غير المباشر ، أعنى أن تكون قد وردت اقتباسات من هذا الكتاب فى كتب أخرى للتوحيدى نفسه أو لغيره . أما فى كتب التوحيدى نفسها فلم نعثر حتى الآن على إشارة إلى هذا الكتاب فيما نشر من كتبه : « المقابسات » و « الصداقة والصديق » و « الإمتاع والمؤانسة » [1] . أما فى كتب المؤلفين الآخرين فلم نعثر على أية إشارة إلى هذا الكتاب . والموضع الوحيد الذى يغلب على الظن أنه مأخوذ من كتاب « الإشارات الإلهيّة » هذا هو بعض ما ورد فى « شرح نهج البلاغة » [2] لابن أبى الحديد (ج ٣ ص ٨٨ — ص ٩١) . بيد أننا لم نجد شيئاً مما أورده هنا فى هذا الجزء ، فلعله نقله عن الجزء الثانى المفقود من كتاب « الإشارات الإلهيّة » ، هذا مع افتراض أنه مأخوذ من هذا الكتاب ، كتاب « الإشارات » لا من كتاب آخر من كتب التوحيدى المفقودة ؛ وإنما الذى يميل بنا

---

(١) « الصداقة والصديق » ومعها « رسالة فى العلوم » وكلتاهما لأبى حيان التوحيدى ، طبع الجوائب ، الطبعة الأولى ، القسطنطينية سنة ١٣٠١ هـ (سنة ١٧٨٣) .

« المقابسات » نشرة السندوبى ، القاهرة سنة ١٩٢٩

« الإمتاع والمؤانسة » نشرة أحمد أمين وأحمد الزين فى ٣ أجزاء ، القاهرة سنة ١٩٣٩ — سنة ١٩٤٣

(٢) نشرة دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة سنة ١٣٢٩ هـ (سنة ١٩١١ م) .

إلى هذا الافتراض هو الشبه فى الطريقة واللهجة بين بعض هذه « الدعوات الفصيحة المستحسنة » كما نعتها ابن أبى الحديد وبين ما ورد فى هذا الجزء من كتاب « الإشارات » ؛ أما البعض الآخر من هذه الدعوات فمأخوذ من مطلع كتاب « البصائر والذخائر » وذلك فى قوله : « اللهم إنى أسألك جداً مقروناً بالتوفيق ، وعلماً بريئاً من الجهل ، وعملاً عرياً من الرياء ... ... » إلى قوله : « فإنك على ذلك قدير » [1] . ولعل قسماً قد أخذ من مطلع بعض كتب التوحيدى الأخرى . وعلى كل حالٍ فإنه نظراً إلى أنه لم يذكر اسم الكتب التى اقتبس عنها ، ولما كانت هذه الاقتباسات غير واردة فى القسم الذى ننشره ونعرفه من كتاب « الإشارات » فإننا لا نستطيع أن نقطع برأى فى هذا الباب .

وخلاصة البحث هنا أن الدليل غير المباشر لا يزال يعوزنا فيما اتصل بنا حتى الآن من مصادر .

كما يلاحظ من جهة أخرى أن بعض المصادر أغفلت ذكر هذا الكتاب ، مثل السبكى فى « طبقات الشافعية » (القاهرة ، ج ٤ ص ٢ و ٣) والسيوطى فى « بغية الوعاة » (القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ ، ص ٣٤٨ — ٣٤٩) وابن خلكان فى « وفيات الأعيان » (ج ١ ص ٦٠ و ٦١ ، القاهرة سنة ١٣١٠ فى ذيل الكلام عن أبى الفضل محمد بن العميد) ؛ لكن هذا الصمت عن ذكر الكتاب

---

(١) مخطوط كمبردج ورقة ٩٩ ا ؛ وهذه النسخة فى ١٩١ ورقة مقاسها ١٩,٩ × ١٣,١ سم ، ومسطرتها ٢٥ س ، وتاريخه ١٤ شوال سنة ١١١٧ هـ ؛ راجع إدورد . ج . براون : « المخطوطات الإسلامية فى مكتبة جامعة كمبردج » ، كمبردج سنة ١٩٠٠ تحت رقم ١٣٤ Ed. G. Browne: *Muhammedan manuscripts in the Library of Cambridge University.*

لايدل على شيء ، لأن أصحابه لم يقصدوا إلى الاستيعاب والاستقصاء . كذلك لم يرد الكتاب ذكر فى « كشف الظنون » لحاجى خليفه ؛ وكل ما ورد عن أمثاله هو : « (١) الإشارات فى التصوف : لسعد الدين مسعود بن أحمد المتوفى سنة . . . مختصر. أوله : الحمد لله الذى هدانا لهذا الخ . (طبعة استانبول سنة ١٩٤١ م : سنة ١٣٦٠ هـ ، ج ١ ص ٩٧) » ، ثم (٢) « الأنفاس الروحانية » (ج ١ ص ١٨٣) وقد ترك هكذا غفلا من اسم مؤلفه فلا نكاد نتبين شيئاً من مجرد ذكر هذا العنوان ، أو على الأقل لايفيدنا فى تحديد الأمر فى كتاب « الإشارات الإلٰهية والأنفاس الروحانية » .

وبالجملة ، فليس ثمت شك لدينا فى أن « كتاب الإشارات الإلٰهية والأنفاس الروحانية » هو لأبى حيان التوحيدى ، وفى أن النسخة التى بأيدينا وننشرها ها هنا هى بعينها كتاب « الإشارات الإلٰهية » للتوحيدى .

(٣)
وصف مخطوط الظاهرية رقم ٨ تصوف

(ا) يقع هذا المخطوط فى ١٥٦ ورقة ، يبدأ نص الكتاب فى أول الورقة ١ ب وينتهى فى منتصف الورقة ١٥٦ ا

(ب) ورقة الوجه الأول (١ ا) :

قلنا إن هذه الورقة قد غطّاها مجلد الكتاب بورقة خارجية صفراء اللون سميكة لايستشف منها ما تحتها إلا إذا سلّط عليها نور قوى جداً وقد فعلنا ذلك فوجدنا مكتوبا فيها بوضوح :

« وقف محرم مؤبد
الأول من كتاب الإشارات الإلٰهية والأنفاس الروحانية
من تصنيف أبى حيان »

وتحت هذا العنوان وعن يساره كلام كثير يتصل بوقف هذا الكتاب وأيلولته ، وعليه ختم لم نتمكن من قراءته . وهذا الكلام غير واضح تماماً ، ولا يمكن أن يستبين بجلاء كله إلا بتسليط نور قوى جداً عليه .

(ج) والورقة ب يبدأ بها الكتاب كما هو مبين فى نشرتنا هذه ؛ لكن تخرمت منها مواضع فى الأسطر الأربعة الأخيرة كما أشرنا إلى ذلك فى هامش النص .

(د) الورقة الأخيرة من المخطوط قد لصق بظهرها (ص ١٥٦ ب) ورقة فيها كلام منقول عن كتاب « أدب الكاتب » لابن قتيبة أوله : « الغيلم ذكر السلاحف ، والأنثى سلحفاء ، ويقال سلحفية ؛ والعلجوم ذكر الضفادع ؛ والشيهم ذكر القنافذ ؛ والخزز ذكر الأرانب ، وجمعه خِزّان . . . » وهو مأخوذ من مواضع متفرقة من « أدب الكاتب » وأوله مأخوذ من ص ٨١ (المطبعة المصرية سنة ١٣٤٦ هـ : سنة ١٩٢٧ م) والباقى من مواضع متفرقة فى ثنايا هذا الكتاب . وهذه الورقة ليست من نوع ورق كتاب « الإشارات » نفسه ، ولهذا فهى ملصقة إلصاقاً وخارجية عنه .

(هـ) مسطرة الصفحة ١٩ سطراً ، طول السطر ١٢٫٥ سم ، وطول الصفحة فى الجزء المكتوب منها ١٥٫٥ سم ، وطول الصفحة مع الهامش ٢٠٫٥ ، وعرض الصفحة مع الهامش ١٦٫٨ إلى ١٧ سم .

والورق سميك جيد يضرب إلى السُّمْرة .

وترقيم الصفحات يستمر بحبر أسود من نوع حبر الأصل حتى ورقة ٤٨ ، وبعدها كتب الترقيم بقلم رصاص .

وعنوان الرسائل أرقام هكذا : رسالة ١ ، رسالة ب الخ ، وهو مكتوب بالحبر الأحمر ؛ وحُلِّى بالأحمر مع الأسود بعض الحروف فى ثنايا الصفحة ، خصوصاً

إذا كان رسم الحرف ممدوداً مثل السين فى : بألسنتهم ، أو حينما يمد خط بين حرفين مثل بين الحاء والياء ، أو للفواصل بين الفقرات .

(و) لم يرد فى هامش المخطوط غير استدراكات المناقص فى الصلب ، أو تصحيح بعض الكلمات التى اضطرب رسم كتابتها .

(ز) ورد اسم الكتاب فى داخله بصفحة ١٤١ ، مع عنوان فصل ، هكذا :

« ذم التفضيل بالغاشية والحاشية من الإشارات الإلهية » .

كما ورد فى آخره هكذا :

« تمت المجلدة الأولى من الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية » .

وكل هذا يؤكد — إن كنا لا نزال فى حاجة إلى فضل توكيد — كون هذا المخطوط هو « الإشارات الإلهية » .

(ح) وخاتمة المخطوط هى :

« تمت المجلدة الأولى من الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية ، بحمد الله ومنّه ولطيف صنعه . ويتلوه المجلدة الثانية ، وهى الرسالة الخامسة والخمسون : كتابى إليك أيها الصديق ، وأنا أسلك أن يسألك . . » .

وهى تدل على وجود مجلد ثانٍ يبدأ بالرسالة الخامسة والخمسين ، وهذا أولها .

(ط) وعليه تاريخ فى نهايته وهو : « وفرغ من كتبه محمد بن أحمد بن على الأشعبى ، بتاريخ جمادى الأولى سنة إحدى وسبعين وأربعمائة » .

وليس لدينا ما يوجب الشك فى صحة هذا التاريخ فقد كتب بنفس القلم والحبر اللذين كتب بهما المخطوط كله .

فالمخطوطة إذن قديمة جداً ، وتعد من أقدم ما بقى لدينا من مخطوطات عربية . ولقد نسخت إذن بعد وفاة التوحيدى بقرابة ستين سنة أو أقل (لسنا ندرى بالدقة ، لأننا لا نعرف على التحديد واليقين تاريخ وفاة التوحيدى ،

ولكنه حوالى سنة ٤١٤ هـ : ١٠٢٣ م) ، فلعلها كتبت عن نسخة المؤلف نفسه أو نسخة نشرت فى حياته ، إذا افترضنا أنه حينما أحرق كتبه إنما أحرق ما كتبه بيده وكان لديه ، مع جواز أن يكون قد خرج عن يده أيضاً ما كتبه بقلمه .

ومن هنا كانت مخطوطة الظاهرية بدمشق هذه التى عنها ننشر هذا الكتاب مخطوطة لا تصاب لها قيمة . وفضلاً عن قِدَمها هذا ، فإن العناية تتجلى فيها فى كل موضع ، وقد ورد ذكر ذلك صراحة فى آخر المخطوطة ، إذ ورد ما يلى : « مُعارَضٌ مُصَحَّح من أول المجلد إلى آخره » .

وإنما أتت صعوبة النشر من رداءة رسم الخط إلى درجة هائلة ، ومن إهمال النقط واضطرابها بين الحروف المتوالية ، ومن عدم اتباعه قاعدة واحدة ، سواء فى كتابة الحروف الواحدة وفى نقط الحروف وفى وضع إشارات تمييز لها من الحروف المناظرة (مثل السين والشين ، العين والغين) ، مما جعل الكلام يستحكم على القارئ فى كثير من المواضع ؛ لهذا قاسينا فى سبيل قراءته نَصَباً ناصباً ومشقة بالغة ، خصوصاً ولغة الكتاب غنية مفرطة فى الغنى ، لهذا احتاج إلى محصول لغوى غزير حتى يفصح عن مضمونه ، ويظهر ما خفى من مكنونه .

(٤)

أين يمكن أن نضع هذا الكتاب فى مراحل حياة التوحيدى الروحية ؟ سؤال لن نجد عنه ، فيما بين أيدينا منه ، جواباً حاسماً ، إذ ليس فيه أدنى إشارة تاريخية : إلى أحياء أو أحداث ، والشخص الذى يشير إليه فى بعض هذه الرسائل من العسير أن نتعرفه بيقين ، وأغلب الظن أنه شخص خيالى ،

أعنى أنه « الأنت » الضرورى كيما يتم الحوار النفسى أو المناجاة . فهو مجرد اختراع أدبى (fiction littéraire) .

لهذا لم يبق فى التحليل الباطن للنقد الخارجى إلا اعتباران : الأسلوب ، ثم مدلول اللهجة .

أما الأسلوب فلم يبلغ فى كتاب من كتب التوحيدى الأخرى : « الإمتاع والمؤانسة » و« الصداقة والصديق » و« ثمرات العلوم » و« المقابسات » مقدار ما بلغه فى هذا الكتاب ، كتاب « الإشارات الإلهية » : سمواً ، وحرارة ، وموسيقى ، وتمكناً من الأداء . والمشابهات بين الجاحظ وبينه ها هنا أظهر منها فى كتبه الأخرى . نعم ، للموضوع مدخل كبير فى تلوين الأسلوب ، بل وصياغته . والموضوع هنا يهب الأسلوب بطبعه أجنحةً وردية ترفُّ فى نور الإيمان المتقد ، مما يوهم دليلاً عكسياً يتنافى مع مُحَصَّل الاعتبار الأول . إذ نضوج الأسلوب يكشف عن تأخر العهد ، بينما الحرارة فى النبرة قد تؤذن بحماسة الشباب أو حرارة مشارف الرجولة . واجتماع كليهما ها هنا قد يؤدى بالبعض إلى استنتاج موقف التوقف ، لتكافؤ الأدلة .

وتلك أمور نحسب لها كلَّ حسابها ؛ ومع ذلك فنحن لا نجنح إلى التوقف المطلق ، بل نؤثر الترجيح ، وهو ترجيح تدعونا إليه الاعتبارات التالية :

١ — أن التوحيدى لم يشر إلى هذا الكتاب فى واحدٍ من كتبه الأخرى التى ذكرناها . أجل إنه ليس من عادة التوحيدى أن يشير إلى كتبه الأخرى فى مؤلفاته ، حتى إننا لا نذكر له إشارة واحدة فى أى من تلك الكتب إلى مؤلفاته الأخرى ، اللهم إلا إلى كتاب « مثالب الوزيرين » فى خلَل كلامه فى مستهل « الإمتاع والمؤانسة » ، وإن كان لم يذكره صراحة ؛

ومع ذلك فلا ضير من الاستناد إلى هذه الحجة — غير القاطعة — على الأقل بوصفها حُجّةً مساعدة .

٢ — أن أسلوب الكتاب بالغ أعلى درجة نضوج نلمسها لدى التوحيدى ؛ وأنه يعبر فيه عن شخصيته وتجاربه الحية وأحواله النفسية على نحوٍ يبرز فيه الجانب الشخصى ، وهو جانب من الصعب أن نتلمسه فى « الإمتاع والمؤانسة » وفى « المقابسات » أو « الصداقة والصديق » . وهذا الاستقلال الروحى دليل قوى على النضوج وغنى التجارب فى حياة يستمر منحنى التطور فيها على نحوٍ مطّرد .

٣ — أن الكتاب يعبر عن نفسٍ دلفت إلى الإيمان المستسلم بعد أن عانت من تجارب الحياة أهوالاً طوالا . ففيه مرارة اليائس من الناس ومن دنيا الناس ؛ وفيه صرخة أليمة لأمل خائب تكسّرت عليه نصال الخيبة بعد الخيبة ؛ وفيه عزوف رقيق ، ولكنه عميق ، عما يرتبط بالعاجلة ، واستدعاء متوسلٌ لكل ما تلوح منه بوارق الآجلة ؛ وفيه شعورٌ بهوّة هائلة تفغر فاها فى نسيج الوجود ؛ وفيه طعم الرماد يتذوقه المرء فى كل عبارة وإشارة .

ومثل هذا الموقف هو موقف داوود فى « مزاميره » ، لا أيوب فى تجديفاته ؛ وهو موقف لا يتهيأ إلا لمن حصّل من التجارب الروحية العنيفة نصيباً موفوراً ، ثم راح يجترّ الماضى ، وقد أحاله إلى تسليم ، فى ابتهالات تسرى فيها شائعة الألم الكليل ، بل العليل . وهذا كله لا يتحقق إلا فى سنّ متأخرة تماماً : حين تنضب قوى التجديف ، وتخفُتُ صرخةُ التمرد ، فيشيح المرء بوجهه إلى الجانب الشاحب من الحياة .

لهذه الأسباب الثلاثة كلها نرجّح أن يكون هذا الكتاب من كتب التوحيدى الأخيرة ومما كتبه فى آخر عمره .

وهنا تنتفض أمامنا التهمة المشهورة ، وهى اتهام التوحيدى بالزندقة ، وأنه أحد زنادقة الإسلام الكبار الثلاثة : ابن الراوندى والتوحيدى والمعرى ، وأنه أخبث الثلاثة وشرهم لأنه « مجمج ولم يصرّح » على حد تعبيرهم — فتطرح علينا السؤال التالى : كيف تتفق نبرة هذا الكتاب ، وهى نبرة صادقة تكشف عن إيمان عميق بالله ، وفيها تسليم مطلق لوجهه ، مع اتهامه بالزندقة ؟

وللجواب عن هذا السؤال نبدأ فنقرر أولاً أن هذه التهمة لا يمكن أن يكون أصحابها قد استخلصوها اعتماداً على هذا الكتاب . فمهما أمعنّا فى التأويل وتعسّفنا فيه فلن نستخلص بجدٍ ووضوح من هذا الكتاب ما يدل على شىء من الزندقة ، بَلْهَ التجديف . فأصحاب تلك التهمة إذن لا بد أن يكونوا قد استندوا إلى كتب أخرى للتوحيدى ، وإن كنّا لا ندرى بعدُ ما هى هذه الكتب ، لأن ما بين أيدينا لا يكفى للإدانة الصريحة .

وهاهنا نجرؤ على الافتراض التالى : وهو أن يكون التوحيدى قد ألّف كتاب « الإشارات الإلهية » فى دور تلا ما يشبه التوبة ، وأنه لهذا يعبّر عن فترة إيمان مستسلم حارّ النبرة صادق الطوية كانت آخر فترات حياته الروحية ، وأنه قد سبقها فتراتٌ نزع فيها منازع لعلها أن تكون الدافع إلى هذا الاتّهام .

* * *

وقد ذكرنا اسم « مزامير داوود » عن قصد ، لا لمجرد المقارنة والتشبيه . ذلك أننا لا نستبعد أن يكون التوحيدى قد تأثر « مزامير » داوود فى وضعه هذا الكتاب ، إذ ليس من العسير أن نجد أشباهاً ونظائر عديدة فيما بين « إشارات » التوحيدى « ومزامير » داوود : فصياغة المناجاة المتوجهة إلى الله

واحدة ، ومرارة التجارب الأليمة التى عاناها كلاهما متشابهة ، والشعور بالتسليم المطلق لوجه الله الواحد القهّار يكاد يتخذ صيغاً للتعبير مشتركة فيما بينهما ، والقشعريرة السارية فى ابتهالات كليهما تصدر عن نفس مليئة بأجساسٍ متفقة فى ينابيعها . ولعل الأمر الذى باعد بعض المباعدة بين كليهما فى هذا الباب هو الصنعة الفنية : فقد طغت المحسنات اللفظية — البديعية خصوصاً — عند التوحيدى حتى دفعت به إلى اتخاذ أسلوب عليه مسحة من التكلف ظاهرة ، مما أشاع بعضاً من البرود فى حرارة النبرة العالية التى هى الأساس الأصيل فيما كتب . وتلك آفة التوحيدى . بينما أسلوب « المزامير » يصدر من القلب إلى القلب فى غير تكلف ولا تعسف يلقيان ضباباً كثيفاً على صفاء العاطفة ونصاعة التعبير عن المشاعر . ومن هنا كانت هذه « المزامير » — فضلاً عن ملابساتها التاريخية ومكانة صاحبها أو من نسبت إليه — تهزُّنا بعنف بالغ جداً أكثر بكثير مما تفعله « إشارات » التوحيدى .

وليس بعسير أن نثبت أن التوحيدى قرأ « الكتاب المقدس » بعهديه : الجديد والقديم . فقد أشرنا فى عدة مواضع من هذا الكتاب إلى التشابه بين عبارات التوحيدى وبين آيات فى الأناجيل ، وهذا يقطع بأنه قرأها ، أو فى القليل عرف الكثير عنها ، وآيات بنصوصها . وما دام قد قرأها ، فمن الطبيعى أن يقرأ أسفار « العهد القديم » ، بل أن يعجب بها ، وهو الرجل الشاعرىّ المزاج ، الصوفىّ النفس . ومن ذا الذى يقرأ « المزامير » و « سفر أيوب » و « مراثى أرميا » والأسفار الخمسة المنسوبة إلى سليمان ولا يطرب لها ، إن كان فى مثل نفسية التوحيدى !

يضاف إلى هذا السبب « المكتوب » ، أنه كان على صلة وثيقة بأبي على عيسى بن زُرْعة وكانا يجتمعان فى صحبة واحدة ، وكثيراً ما أشار [1] إليه التوحيدى ووصفه ، وأبو عيسى بن زُرْعة من كبار المسيحيين اليعاقبة الذين كانت لهم مكانة ملحوظة الجلال فى الكنيسة اليعقوبية المسيحية . فكيف لايفيد التوحيدى منه ! ولطالما أفاد ابن زرعة من التوحيدى وسائر أصحابه ؟!

لهذا كله نرجح أن يكون التوحيدى قد تأثر « مزامير » داوود ، خصوصاً أنه لم يجد شواهد سبقته إلى هذا النوع فى الأدب الإسلامى ، اللهم إلا آثاراً ضئيلة قد نجد البعض منها أولاً فى كتب الحارث المحاسبى ثم فى كلمات الحلاّج . لكن هذه الآثار بعيدة الشبه كثيراً عن كتاب « الإشارات » هذا ، فلا يمكن أن يكون صاحبها تأثرها وحدها نماذج له ؛ وإنما الكتاب الذى يمكن أن يكون قد تأثره حقاً وبطريق مباشر وبصورة قوية بارزة ، هو كتاب « المزامير » المنسوبة إلى داوود النبى .

وهنا ميدان خصب للدراسة الأدبية ، وهو مدى تأثر الأدب العربى الإسلامى « بالكتاب المقدس » بعهديه : القديم والجديد ، خصوصاً و « العهد القديم » قد ترجم ترجمة ممتازة إلى العربية فى القرن الثالث ، وهى الترجمة التى قام بها حنين بن اسحٰق .

---

(١) راجع : « المقابسات » ص ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٦٣ ، ٣٥١ . نشرة السندوبى . القاهرة سنة ١٩٢٩ ؛ — « الإمتاع والمؤانسة » ج ١ ص ٣٢ ، ٣٣ ، ٤٨ ؛ ج ٢ ص ٦٣ ، ٦٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٤ ، ١٩٧

والشواهد على هذا التأثر عديدة ، نذكر منها فى المقام الأول أبا عثمان الجاحظ [1] ، فهو فى رسائله كثير الإشارة إلى آيات فى « الأناجيل » خصوصاً وإلى أحداث تاريخية خاصة بالمسيح ، وهو يورد هذه الآيات أحياناً بنصوصها فى ترجمة رائعة ، ألا ليتها وجدت اليوم لتحل محل الترجمة الشائنة الأعجمية البائسة التى يتداولها النصارى اليوم فى البلاد العربية !

على أن دعوانا تأثر التوحيدى بأسلوب « مزامير » داوود لا تقدح فى أصالة التوحيدى ، بل نرى فيها ما يؤكد هذه الأصالة ويرفع من مكانتها ومكانة صاحبها . فلسنا من أولئك التافهين العجزة الواهمين المغرورين الذين يفزعون من فكرة التأثر فتنتهى أصالتهم المزعومة إلى أن تصبح طلاءً زائفاً من السطحية الرخيصة التى لا ترضى غير الأغرار الأغمار من أمثالهم .

(٥)

والكتاب بعد هذا غنىٌّ بما فيه من منهج فى المناجاة لا نكاد نجد له نظيراً قبل التوحيدى ، وبهذا يمكن أن يعد رائد نوعه ، والنموذج الأول لكتب المناجيات التى سنراها من بعد فى الأدب الصوفى ، مثل « مناجاة الفرد الكامل » للصدر القونوى [2] ، وهى مناجيات فيها وُجِّه الخطاب إلى الله بلغة راقية قريبة الشبه بأسلوب التوحيدى فى « الإشارات » ، ولكن

---

(١) راجع : « مجموع رسائل الجاحظ » ص ٥٤ ، ٥٨ ؛ نشرة باول كراوس . القاهرة سنة ١٩٤٣ . ثم « كتاب الجاحظ إلى أحمد بن أبى دؤاد » فى « سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون » لابن نباتة ، ص ١٧٥

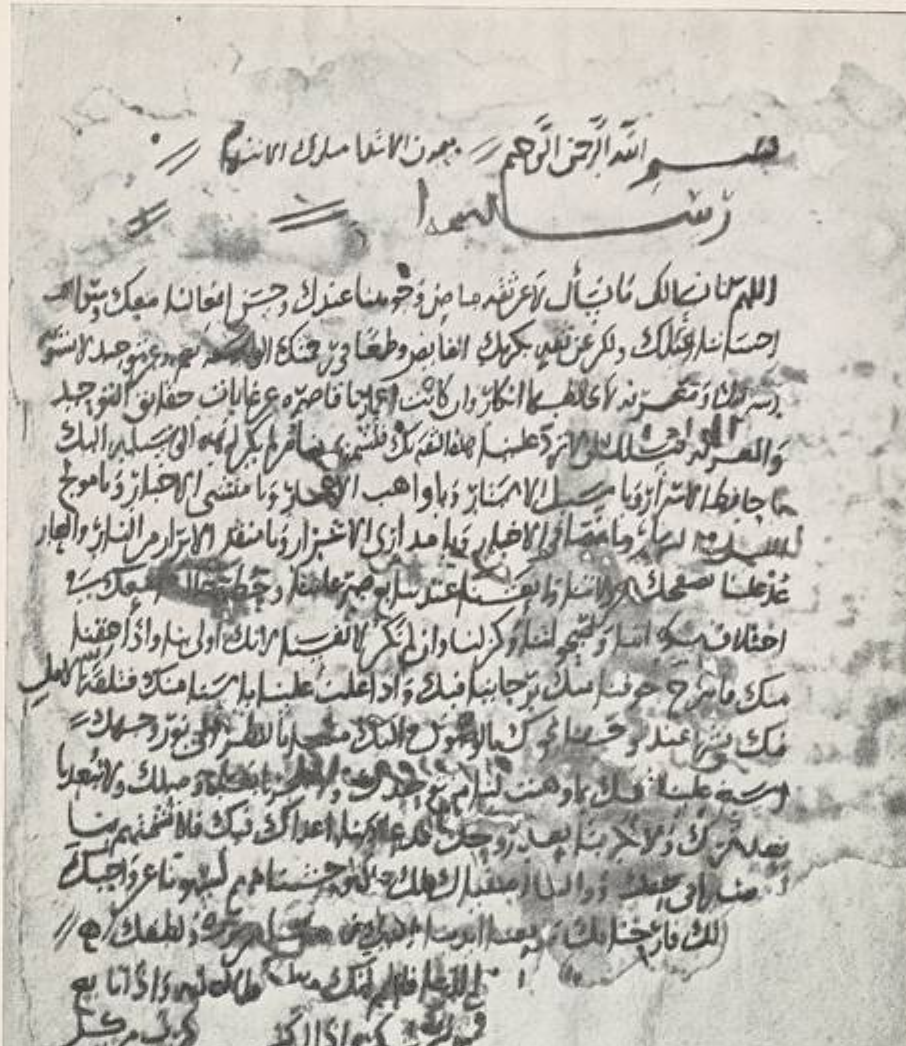
(٢) مخطوط بالظاهرية بدمشق تحت رقم ٥٨٩٥ عام من الورقة ١٦ ب إلى ٣٧ ب ، مقاس ١٨ × ١٣ سم . وسنقوم عما قريب بنشره .

تفترق عن لغة هذا الأخير بأن أسلوبها أحفل بالمصطلحات الفلسفية والصوفية، وأقل حظاً من الجمال الفنى والطلاوة الموسيقية والأدبية . ولسنا نبعد كثيراً إذا قررنا أن من الممكن أن يكون ثمت تأثر من جانب الصدر القونوى بأسلوب التوحيدى فى كتاب « الإشارات الإلهية » ، فضلاً عن منهجه .

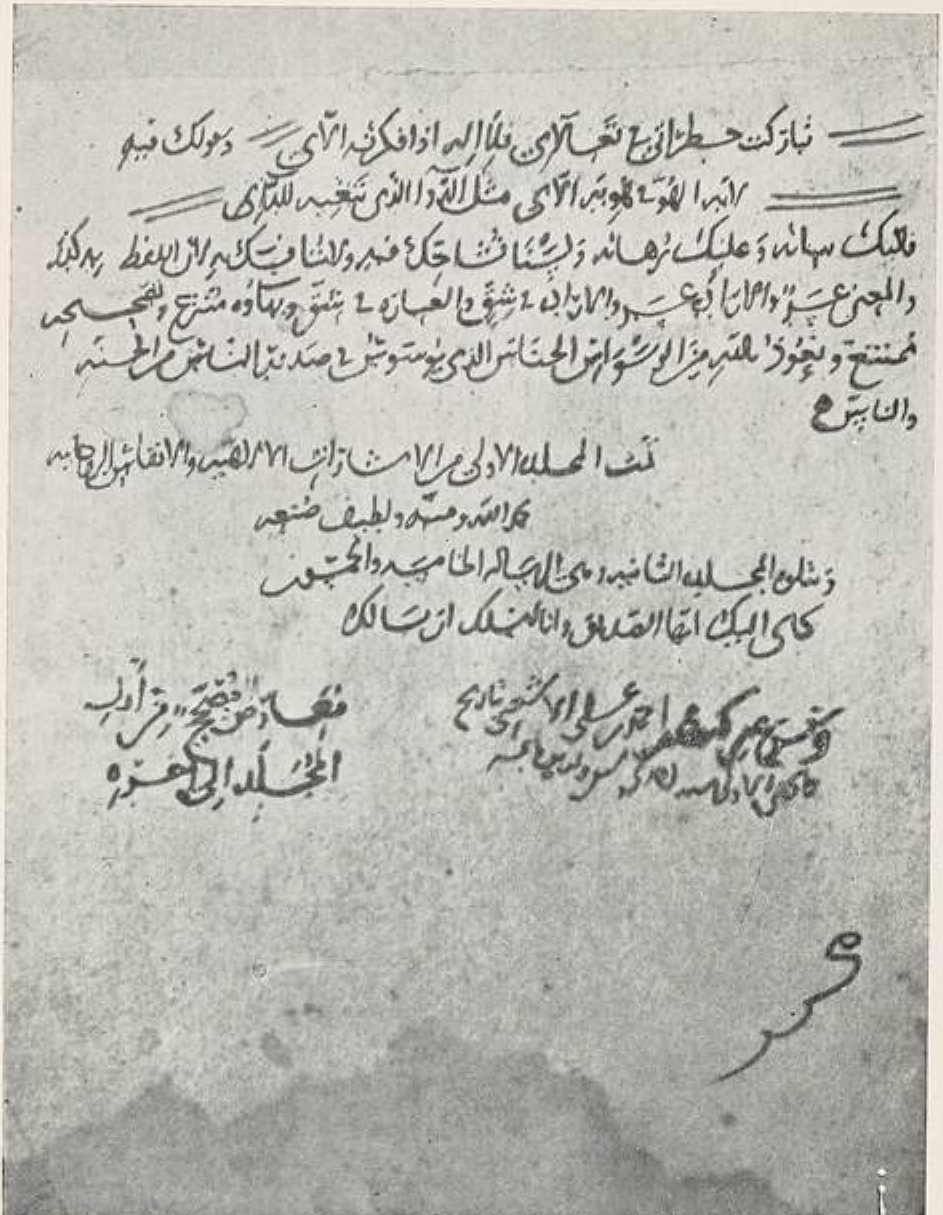
وإذا كانت الصنعة الفنّية قد غلبت على أسلوب التوحيدى فى هذا الكتاب على حساب المعنى والتجربة الروحية ، فى بعض المواضع ، فليس هذا بقادح فى شىء من القيمة الخطيرة التى لهذا الكتاب فى تاريخ التصوف الإسلامى والحياة الروحية ، تلك القيمة التى نرجو أن تتاح لنا فرصة قريبة للتحدث عنها وبيانها فى ذاتها ومع مقارنتها بنظائرها فى هذا الميدان الضخم ، فى الأدب الروحى الإسلامى ، الذى يشمل فن المناجاة الإلهية ، وهو فن يدل على ارتفاع هائل فى مستوى الذاتية ، وعلى عمق فى غور الحياة الباطنة ، وعلى إرهاف فى الحساسة الكونية عند النفوس المتقدة بشواظ من نار القداسة العليا ، العليا وفى علائها توكيد مع ذلك لكمال إنسانيتها ؟

عبد الرحمن بدوى

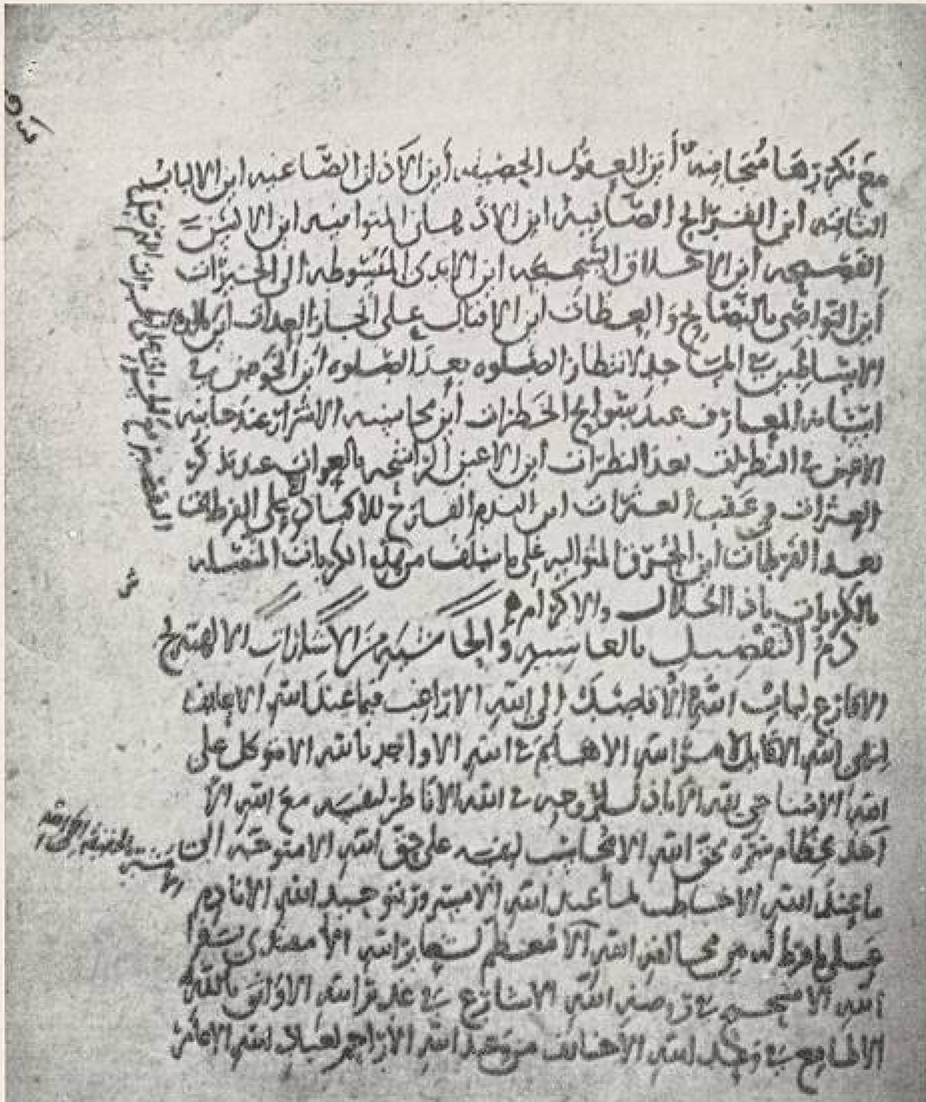
دمشق فى ١٨ نيسان (أبريل) سنة ١٩٤٩



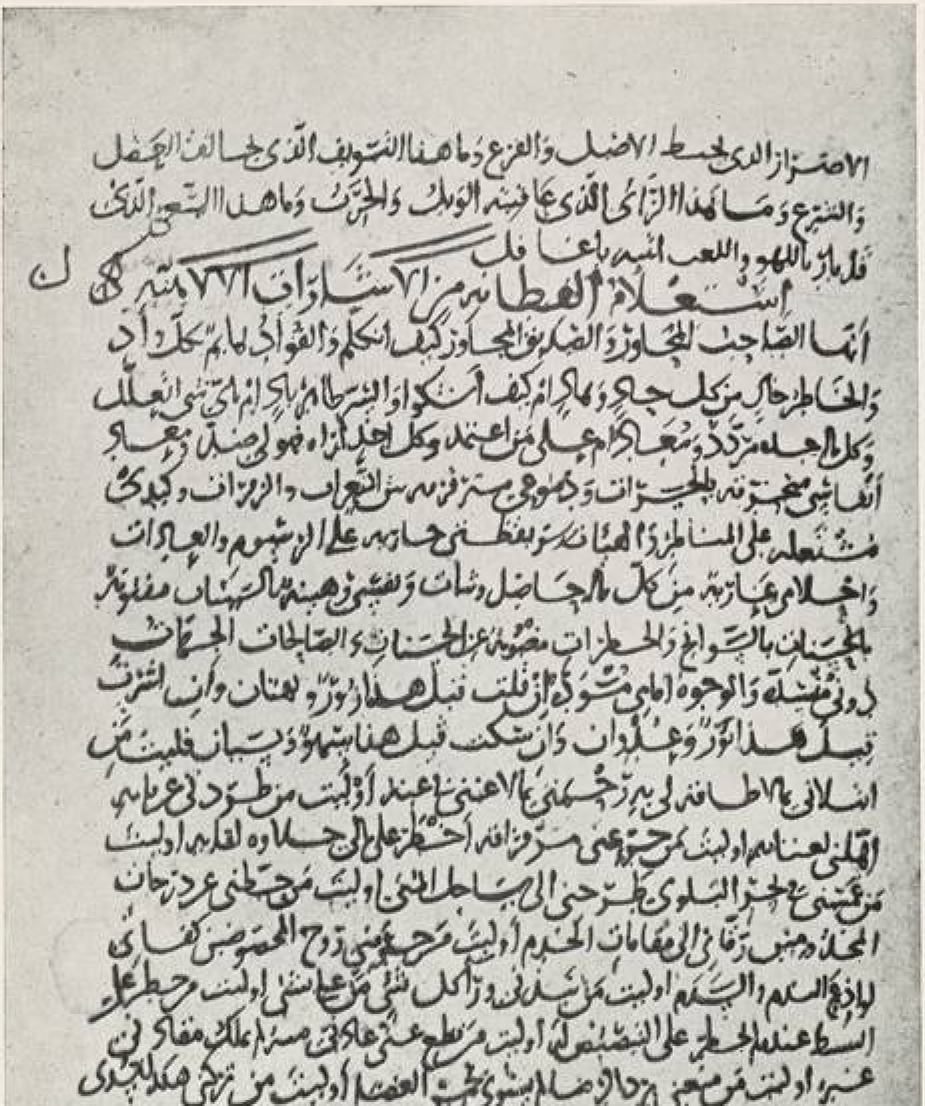
ورقة [١ ب] من مخطوط المكتبة الظاهرية بدمشق رقم ٨ تصوف
وهي أول المخطوطة ، وفي ظهرها صفحة الغلاف المغطاة


تم المجلد الأول من الإشارات الإلهية والأنفاس الروحانية
بحمد الله ومنه ولطيف صنعه

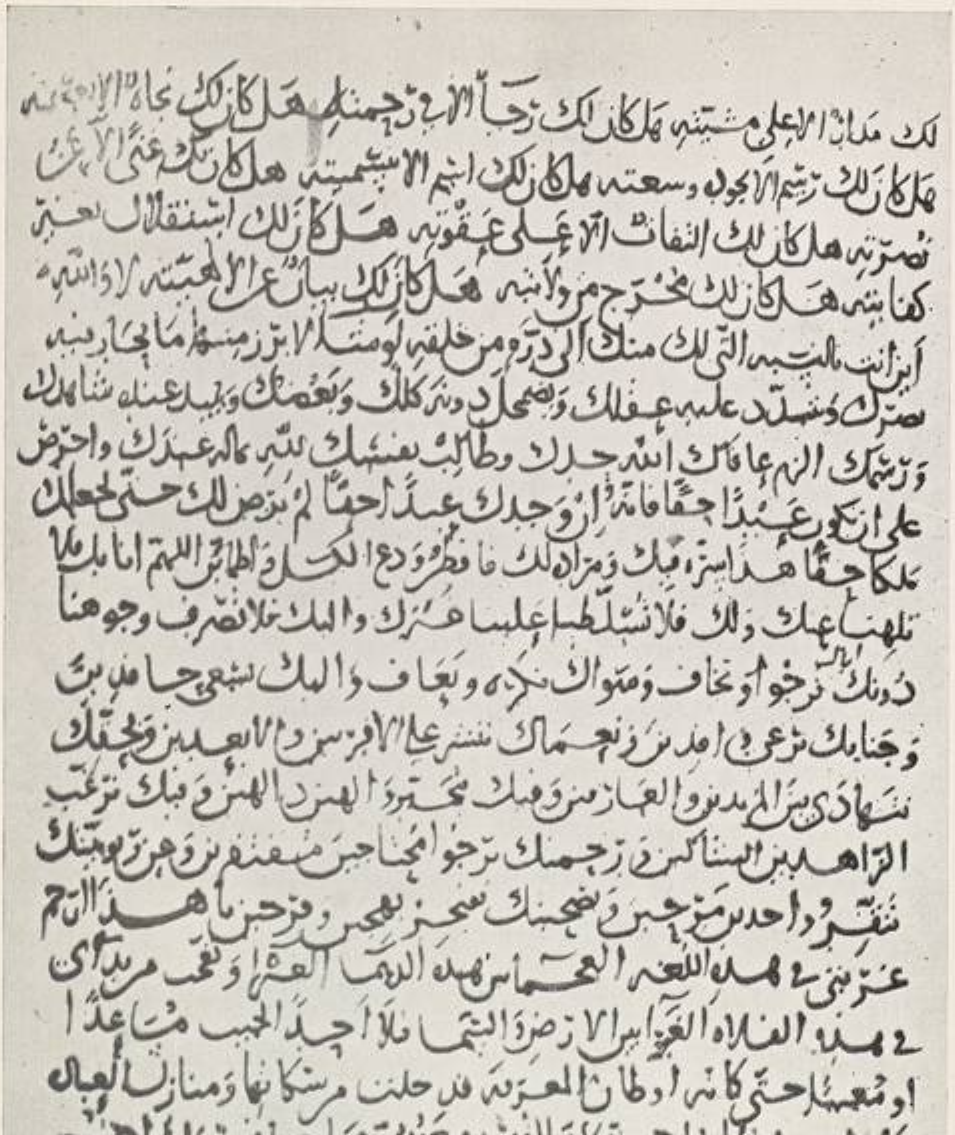
الورقة الأخيرة من المخطوطة وبها تاريخها ودلالة انتهائها
عند الجزء الأول من "الإشارات الإلهية"



ورقة [١٤١] وفيها عنوان فصل ، واسم الكتاب

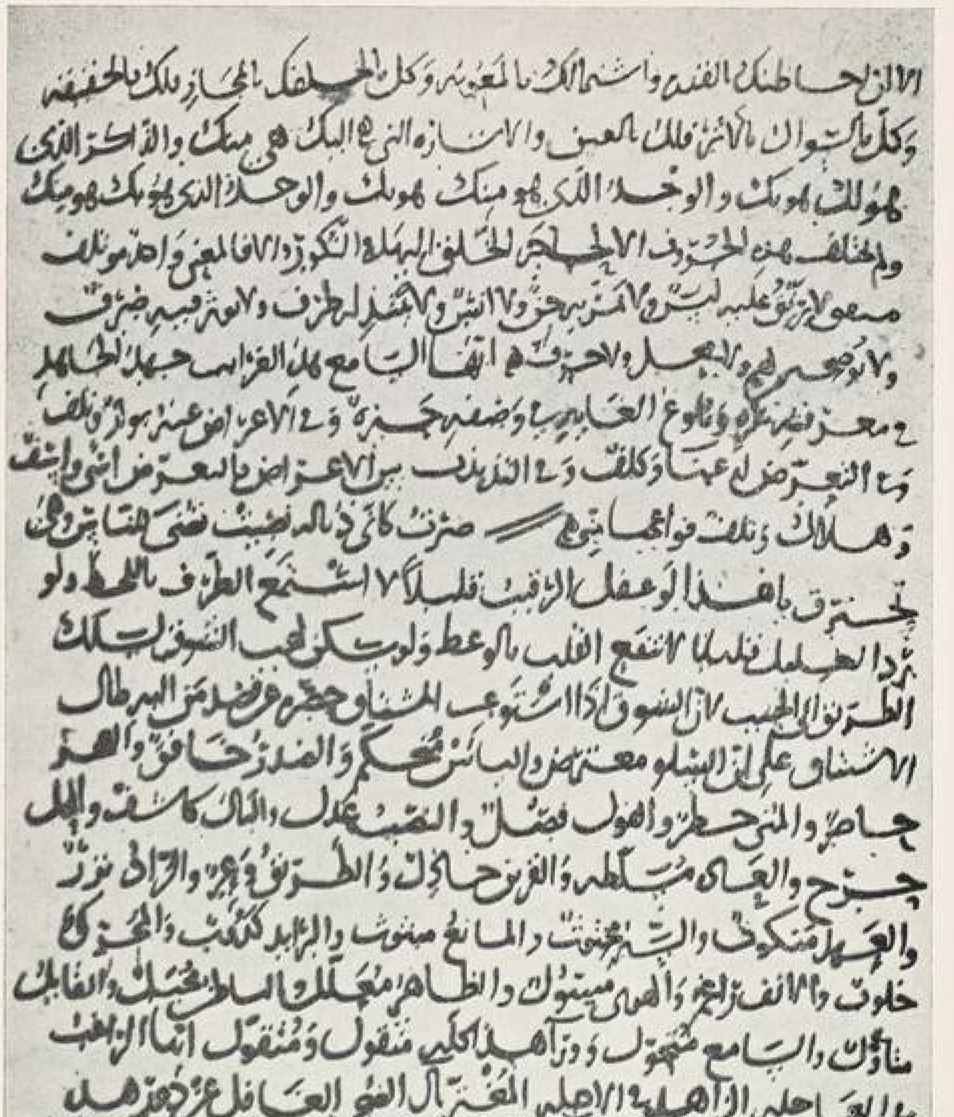


ورقة [١٨٩] وفيها عنوان فصل ، واسم الكتاب



لك مدائح الاعلى مشيئته هل كان لك رجاء الا في رحمته هل كان لك نجاة الا في
هل كان لك رسيم الا بجوده وسعته هل كان لك اسم الا بتسميته هل كان لك غنى الا عن
نصرته هل كان لك التفات الا على عفوه هل كان لك استقلال بعد
كفايته هل كان لك مخرج من ولايته هل كان لك بيان عن الاهيته لا والله
أين انت من النسبة التي لك منك الى دره من خلقه لو منتك لا تبرز منه ما يجاري به
نصرك ويشتد عليه عقلك ويضمحل دونه كلك ويعظمك ويبعد عنك شاهدك
ورسمك انه عافاك الله حدك وطالب نفسك لله بما له عندك واحرص
على ان تكون عبدا حقا فانه ان وجدك عبدا حقا لم يرض لك حتى يجعلك
ملكا حقا هذا سره فيك ومراده لك فافطر ودع الكسل والطامن اللهم انا بك ملنا
تلهفا عليك ولك فلا تسلطها علينا هجرك واليك خلافصرف وجوهنا
دونك نرجو او نخاف ومنوالك نرده ونعاف واليك نشتكي حاجتنا بك
وجنابك نرعى في احد من نعماك ننشر على الافرسين ونحققك
نتهادى بين المدين والعابرين ومنك نحتر في الهند ونك نرغب
الزاهدين الشاكرين ورحمتك نرجو محاجين مستغفرين وعن ربوبيتك
نتقرب واحدين مخبتين ونحبك نعجز بيحض ونرجو بما هذه الحم
عن بني في هذه اللغة العجماء بهذه الديمة العشراء ونحن مريدي
في هذه الفلاة الغبراء لا رضد النعما فلا احد الحبيب مساعدا
او معينا حتى كانه اوطان المعرفة قد خلت من سكانها ومنازل العبد
قد خلت من منها حتى كان الفترة مع بدوها خاتمة الحوادث

ورقة [٤٠ ب] من المخطوطه



ورقة [٨٨ ب] من المخطوطة

الأول من كتاب

الاشـــارات الالٓهيــــة

والأنفاس الروحانية

من تصنيف

أبى حيان < التوحيدى >

بسم الله الرحمن الرحيم [١ ب]

ميمون الابتداء مبارك الانتهاء

رسالة (١)

اللهمَّ إنَّا نسألُكَ ، ما نَسْأَلُ ، لاعن ثقةٍ ببياض وُجوهِنا عندَكَ ، وحُسْنِ أفعالنا معَك ، وسَوالفِ إحساننا قبلَك ؛ ولكن عن ثقةٍ بكرمك الفائض ، وطمعاً فى رحمتك الواسعة . نعم ، وعن توحيدٍ لايشوبه إشراكٌ ، ومعرفةٍ لايخالِطُها إنكار . وإن كانت أعمارُنا قاصرةً عن غايات حقائق التوحيد والمعرفة ، فنسألك أن لا تردّ علينا هذه الثقة بك ، فتُشمِتَ بنا من لم تكن له هذه الوسيلة إليك . يا حافظ الأسرار ، ويا مُسْبِل الأستار ، ويا واهب الأعمار ، ويا منشئ الأخبار ، ويا مُولِج الليل فى النهار ، ويا مُصافِيَ الأخيار ، ويا مُدارِي الأشرار ، ويا منقذ الأبرار من النار والعار ! عُدْ علينا بصفحك عن زلّاتنا ، وأنْعِشْنا عند تتابع صَرَعاتنا ، وخطَرِ(١) حالنا معك فى اختلاف سكَراتنا وصحَواتنا . وكُنْ لنا ، وإن لم نكن لأنفسنا ، لأنك أوْلَى بنا . وإذا خِفْنا منك ، فامزُجْ خوفَنا منك برجائنا فيك . وإذا غلَب علينا يأسُنا منك ، فتلقَّه بالأمل فيك . بَشِّرْنا ، عند توجهنا نحوك ، بالوصول إليك . متِّعنا بالنظر إلى نور وجهك . أسْبِغ علينا نعمتك بما وَهَبْتَ لنا من توحيدك . ولاتهجرنا

(١) كذا ! ولعل هنا تحريفاً أصله : أَخْطِرْ .

بعد وصلك ، ولا تُبْعِدنا بعد قُرْبك ، ولا تُكْرِبْنا بعد رَوْحك[١] . قد عادينا أعداءك فيك ، فلا تُشْمِتْهم بنا لتقصيرنا فى حقك ؛ ووالَيْنا أصفياءك لك ، فلا تُوحِشنا منهم لسهونا عن واجبك ...[٢] ... لك فأرحنا بك ؛ ورفعنا أيدينا إليك فأمدَّها من بِرِّك ولطفك . اهـ ... ...[٢] ... ... الدعاء فاعلم أنك ...[٢] بالإجابة وإذا ما نع ... ...[٢] ... ... شكر وإذا اكتد ...[٢] ... لرب من كل ... ...[٢] ... ... توالى عليك ... ...[٢] ... فاعلم أنك [١٢] محثوث على العمل . وإذا أُشهدتَ عيبَ حالك ، فاعلم أنك مخصوص باليقظة . وإذا غُيِّبتَ عن شاهِدِ أمرِك ، فاعلم أنك غيرُ قابل بواقع الموعظة ؛ وإذا استوحشت من بقاع الذكر ، فاعلم أنك معزول عن الولاية . وإذا عَمِيتَ عن الاعتبار بآثار السلف ، فاعلم أنك مُخلًّى من يُمْن الهداية . وإذا استحسنت القول واستثقلت العمل ، فاعلم أنك بعيد من التوفيق والعناية اهـ .

ياهذا ! إن كنت ثاكلاً فنحّ[٣] علىَّ ما أُصبتَ به ؛ وإن كنت مكروباً بالسر ، فَبُحْ ، فلعلك تشفِى غليلك فيه ؛ وإن كنت طالباً فَجِدَّ ، فعساك تصل إلى بغيتك منه ؛ وإن كنت واجداً فاحفظ ، فإنك غير واثق من ثبات ما ظفرت به . وتَلَطَّف ، جهدَك ، حتى تقف على مكنون أمرِك ، فلعلك مُسْتَدْرَجٌ من حيث لا تعلم ، ولعلك مرادٌ بالخصوصية وأنت مُسْتَكْتَم . زَيِّنْ وجهك بالصورة البهية . حَسِّنْ أمرَك بالنية القوية التقية . أنت فى مناط

---

(١) الروح (بفتح الراء) : الراحة والنعيم .

(٢) خرم فى الأصل بهذا المقدار تقريباً .

(٣) أى : ألقِ عَلَىَّ مُصابك .

الربوبية فلا تهبط إلى قاع العبودية . صانوك فلا تتبذّل (١) . أعزّوك ، فلا تذلّ . أعلوك ، فلا تسفُلْ . غسلوك ، فلا تتوسخ . نقّوك ، فلا تتلطخ . يسّروك فلا تتعسّر . قرّبوك ، فلا تتباعد . أحبّوك ، فلا تتبغّض . جدّوا بك ، فلا تكسّل . استخدموك ، فلا تتّكل . أعتقوك ، فلا تتعبّد . أقالوك ، فلا تتعثر . دعوك ، فلا تتأخر . نسبوك ، فلا تجحد . جبروك ، فلا تنكسر . أنبتوك ، فلا تذوِ . حسّنوك ، فلا تقبُحْ . حلّوك ، فلا تسمُجْ . علّموك ، فلا تجهل . نوّهوا بك ، فلا تخمُلْ . قوّموك ، فلا تضعُف . لطّفوك ، فلا تكثُف . أسرّوك ، فلا تنكشف . انتظروك ، فلا تتوقف . أمّنوك ، فلا تتخوّف . قوّموك ، فلا تتعقّف (٢) . ندّوك ، فلا تنشّف .

يا هذا ! إنك إن عرفت هذه اللغة ، واستخرجت حالك من هذا الديوان ، وحصّلتَ مالكَ وعليك بهذا الحساب ، أوشكَ أن تكونَ من المجذوبين إلى حظوظهم ، والراسخين فِى علمهم ، والخالدين فِى نعمتهم . وإن كنت عن هذه الكنايات [٢ ب] عمِياً ، وعن هذه الإشارات أعجمياً ، طاحت بك الطوائح ، وناحت عليك النوائح ، ولم توجد فى زُمْرة الغوادى والروائح . مطرَتْ سماء المحبة ، فلم تبتلّ بقطرة من قطراتها . وهبّت ريح الوِلاية ، فلم تَعْبَقْ بنسيم من نسائمها . وغنّتْ ضمائر الحِكَم ، فلم تطرب على لحن من لحونها . وجُليت عرائس الهدى فلم تتشبث بذيل من أذيالِ واحدةٍ منها . فياجافى الطبع ، ويا قاسى القلب ، ويا سيئ الاختيار ! كيف يطمع الطامع فى رُشْدك ، وهذا نظرك لنفسك !

(١) تبذّل وابتذل : ترك الاحتشام والتصون .

(٢) انعقف الشىء وتعقّف : تعوّج وانعطف .

أشهد أنك غبين(١) الرأى، مسلوب التوفيق. على أنه قد بقى من شمسك شفى(٢)، فإن تداركت يقينك رجوتُ لك أن تسلو عن فائتك، وإن جَنَحْتَ إلى التوانى وذهبْتَ فى آفاق الأمانى لم تَرِثْ من حالك إلا حسرةً، ولم تعضغ بفمك إلا جمرةً. يا هذا! خَفِّضْ أَسىً عما ساءك طِلابُه:

ما كلُّ شائمِ بارقٍ يُسقاه!

قد يَسْلَمُ المرء مما قد يحاذره ... وقد يصير إلى المكروه بالحذر

وما هو كائنٌ، وإن استطَلْنا ... إليه النَّهى(٣)، يوشك أن يكونا

ما خَطْبُ من حُرِم الإرادة وادِعاً ... خَطْبُ الذى حُرِم الإرادة جاهدا

يا هذا! خُذْ من التصريح ما يكون بياناً لك فى التعريض؛ وحَصِّلْ من التعريض ما يكون زيادة لك فى التصريح، واستيقن أنه لا حرف ولا كلمة، ولا سِمَة ولا علامة، ولا اسم ولا رسم، ولا ألف ولا ياء، إلّا وفى مضمونه آية تدل على سِرٍّ مَطْوِى وعلانية منشورة، وقدرة بادية وحكمة محبورة، وإلهية لائقة وعبودية شائقة، وخافية مشوقة وبادية معوقة. فاصرف زمانك كله فى فَلْى هذه الأبناء(٤) واستنباط هذه الأَنْباء. على أن زمانك أقصر من ذاك، أعنى أن يطول لك حتى تقف على كنه حقيقته، على ما فى باطن ذرة من هذه القصة.

(١) الغَبين: الضعيف الرأى.

(٢) شَفِيَتْ الشمسُ، تَشْفَى شفىً: غَربَتْ.

(٣) استطلنا النَّهَى: النهى أى الوصول والبلوغ، واستطلنا: أى وجدناه طويلاً، أى وجدنا الوصول إليه عزيزاً.

(٤) لعلها جمع (لم يرد فى لسان العرب) أُبْنة، وهى العُقْدة والعيب؛ والجمع الوارد هو أُبَنْ.

وهذه الإشارة ، وإن كانت محدثة للناس فى النفس الضعيفة ، فإنها مُبَشِّرة بعِظَم الحال فى الغاية المنيفة . فائْتَزِرْ ، حاطك الله ، بالانكماش ؛ وارْتَدِ بالجهد ، واكتحل بالسهر ، واغْرَ(١) بالفكر ، وحَرِّم على بالك أن يلمّ به الهوينا [١٣] والفتور . وإذا حَلَمْتَ فى النوم بمرادك ، فتعلّل به فى اليقظة . وزِنْ واتّزِن ، واخضع واستكن ، وتمهل واستمكن ، وانظر واستحسن ، وسل واستبِنْ ، وخَفْ واستأمِن ، وَقَرّ واطمئن ؛ وارجِع فى كل حادث فادح ، وفى كل مغلق وفاتح ، إلى ربك ، بل كن معه وعنده حتى لاتحتاج إلى الرجوع إليه . وإذا وردته فلا تصدُر عنه ، وإذا صدَرْتَ عنه فلا تَنْسَهْ .

يا هذا ! الحديثُ ذو شجون ، والقلب طافح بسوء الظنون بما لعله يكون أوْ لا يكون . فكرٌ يخالطه جهل وجنون ، ويفارقه علم ويقين . لكن بقى أن تَمْلِكَ زمام الفكر كما تملك عِنان الذكر ، لأن القلب هدف ، والهدف لايزول عن تُجاه الرامى ولا ينحرف ، إلى غير جهة المسدِّد . فمن لك الآن بقوّةٍ بها تُدبِّرُ فكرك ، أو تكرر ذكرك ، أو تأمن فى أضعاف مَكْرِك ونُكْرك ! إنك ربما اعوججت فى طَىّ مستقيم ، واستقمت فى مَخِيلةِ المُعْوَجّ . وذلك لأنك مملوك ، والمملوك لايكون مالكا ، والأول لايكون ثانياً ، والصاعد لايكون نازلا .

هذا ، فديتك ! نبأ غريب استُنبط من الغيب المكنون ، والسرّ المخزون . فإذا كان هذا خبراً عن بعض ما تراه العين ، فأين تجدك فيما يجده القلب ! ثم أين أنت عما وراء ذلك مما لايبدو إلا بإذن الحق الذى أخفى الخوافى فى البوادى ، وأبدى البوادى فى الخوافى ، ثم حكم بالبوادى على أنها الخوافى ، وعكس الخوافى على أنها البوادى ، لتكون ملكوته محفوفة بالعِبْرة بعد العِبْرة ،

(١) غَرِى بالشىء يَغْرَى وغُرِى به غرًا وغراء : أُولِع به من حيث لا يحمله عليه حامل .

ولينقلب المتصفحون عنها بالحسرة بعد الحسرة ؟ ذلك سرٌّ لاسبيل إلى السؤال عنه ، لأنه جُرْأة عليه ، والجُرْأة موجبة للمقت ، والمقت باب إلى السخط ، والسخط جالب للبعاد . ولاسبيل أيضاً إلى الجواب عنه ، لأنه مَحْوٌ للكل ، وتطويح للعقل ، ولَبْسٌ(١) على التحصيل [٣ ب] وطَمْسٌ على الدليل ، واغترابٌ فى الوطن ، واجتذابٌ للحَزَن ، واختلاط للقبيح فى الحسن . فسبحان من وارى منافع ما جُهِلَ مِنْ سِرِّه فى عُرْض(٢) ما عُرِفَ من علانيته ! وسبحان من لوشاء لأرانا فى الذى أرانا غَيْرَ ما أرانا ، وأتانا من لدنه سوى ما أتانا ! فلعلنا بذلك كنا على سكون لاتعتوره حركة ، أو على حركة لا يعتقبها(٣) سكون . فإن الحركة والسكون ، فيما كان ويكون ، قد أبليا جِدّتنا(٤) ، وأكلاّ حدّتنا ، وأضعفا شِدّتنا ، وأفنيا عُدّتنا ، فلم يبق منا إلاّ ذَماء(٥) ينبض فى حُشاشاتٍ مضمحلة ، لا يطرقها طارق الا بِحِدْثان غريب ، ولا يزورها زائر الا بأمرٍ عجيب . فالشكوى مُعادة ، والكُرَب معتادة ، والأحوال مُرادة ، والأوقات مُبادة . فلا حسيسَ(٦) فيُتعلَّلُ به ، ولا أنيسَ فيستراح إليه . إنما هو رنين وأنين ، وحنين وزفرات ، تُسْخِن(٧) العيون ، وتُخيِّل الظنون ، وتُبرِز الفنون من مَلاحظ العيون .

---

(١) من : لَبَسَ عليه الأمرَ : خَلَطه وجعله مشتبهاً بغيره .

(٢) عُرْض : ناحية .

(٣) يَخْلُفُها .

(٤) الجِدّة : بكسر الجيم : ضد البلى .

(٥) ذَماء : بقية النَّفْس .

(٦) حسيس : صوت خفىّ .

(٧) أسخن الله عَيْنَه وبعينه : أى أنزل ما يبكيه . وعكسه : أقرّ الله عينه .

فأين الأمان ، وإنّا[1] أُتينا من المأمن ! وأين المطلوب ، وإنما عطبنا في الطلب ! وكيف الطلب ، وإنّا هلكنا بالوجدان ! ومَنْ لنا بالخبر ، وقد بُؤْنا بالأثر ! وهل لنا من مناص ، وقد أُخِذْنا بالنواصى ! هيهات ! اليأسُ مما لا ينال إحدى الراحتين ، والسَّلْوة عما لا يُدْرَك إحدى العاقبتين . بلى ! إنْ صَدَق الفألُ وصحَّ الزَّجْرُ ، وصادف الإلهام حقاً ، وارتفع الخُلُق عن أن يكون خَلَقاً[2] ، فلعلَّ نسيم الأشجار يعبث بهذه الأرواح المتهتكة ، ويتميز بهذه الصفات المشتركة ، فنَكُرَّ على خزائن الغيب بالنَّهْب ، ونُوَقِّح وجوهَنا بالاعتذار ، ونخلع أرساننا[3] بالتملق ، ونسترد حقوقنا المغصوبة ، ونتبادر إلى أعلامنا المنصوبة ، ثم نجلس على منابر الرضوان مترملين فى عِطاف أولياء الحق ، نحمد على آفاتٍ زالت طالما جُرِحَتْ الصدورُ بها ، ونقترح أمانيَّ طالما [١٤] طَمَحت العيون إليها .

فإذا كان ذلك — وعن قريب يكون ذلك — ، فيالك من رَوْحٍ لا كرب بعده ، ويالك من صَفْوٍ لا كدر معه ، ويالك من وَصْلٍ لا هَجْرَ يشيّعه ، ويالك من قَبولٍ لا ردَّ يريبه ! اللهم لا تحرمنا هذه المُقامة[4] فى دار المقام ، فإنك أنطقتنا بوصفها ، وشوّقتنا إليها بذكرها . فبُحرمة إنطاقك لنا بوصفها ، وبدمام تشويقِك إيانا إياها ، إلاّ أنعمتَ بالَنا بالقرار معك ، وأقررتَ أعيننا بالنظر إلى وجهك ، وحققت آمالنا فى ذُرَى دار عزك ، وصدقتَ رجاءنا بما أسلفتنا من فضلك ، فإنك الجواد إذا لم تُسْأَلْ ، فكيف إذا سُئِلْتَ ! والمنعِمُ إذا لم تُطالَب ، فكيف إذا طولبت !

(١) ص : ان .

(٢) خلقاً : أى فاسداً .

(٣) جمع رَسَن : حبل ، أى قوانا .

(٤) المقامة (بضم الميم الأولى) : الإقامة .

يا هذا ! قد اخترط الحق لساناً لايمرُّ بصَدْع إلا شَعَبه [1] ، ولا يلمّ بقلب إلا رَعَبه [2] ، ولا يُطِلُّ على فاسد إلا أصلحه ، ولا يقرع باباً إلا فتحه ، ولا يَبِلُ [3] على نبتٍ إلا اعلولب [4] ، ولا يجتاز بوادٍ إلا اعشوشب . فأَصِخْ إليه ، واملأ عِيانك منه ، فليس فى كل حينٍ تُحال عن الماء والطين ، ولا فى كل زمان تُخَصُّ بالأمان ، ولا فى كل بُقْعة تؤهل للرفعة ، ولا فى كل وقت تُناغَى بلحن مُطْرِب ، أو تُناجَى بلسان مُعْرِب . فالبِدارَ البِدار ، إلى محل الأبرار الأخيار ، الذين يحلو بصحبتهم الحنظلُ الحَوْلِىّ [5] ، ويخف برؤيتهم الخفوف عن هذا العالم السُفْلى إلى محل ذلك العَلْوى . ومتى اتهمتنى [6] فى هذه النصيحة فشاوِرْ عقلك ، وإلا فاستنصح أوثق الناس فى نفسك ، وأوضحهم سِمةً فى الشفقة عليك . وإلا فقدِّم الاستخارة لله عز وجل ، فإنه إذا استُهْدِى هَدَى ، وإذا استُنْصِح أَسْدَى ، وإذا فُزِع إليه كَفَل ، وإذا تُوُكِّل عليه سَهَّل ، وإذا طُلِب ما عنده جاد ، وإذا سئل ثانياً وثالثاً أعاد ؛ لايؤوده [7] شئ ، ولايُعوزه شئ ، ولا يفوته شئ . وكيف يؤوده أو يعوزه أو يفوته وهو أول كل شئ وآخره ، ومُبْرِزه ومُظْهِره ومُيَسِّره ، ومُضْمِره ! ذاك الله رب العالمين !

---

(١) شَعَب من باب قطع : جمع ، فرق ، أصلح ، أفسد — ضد .

(٢) رعبه : كسر رُعْبَه وأزاله .

(٣) وَبَل ، يبِل : أمطرَ الوبلَ وهو شديد المطر .

(٤) مأخوذة على وزن اعشوشب من علَبَ : من باب نصر : اشتدَّ وقسا .

(٥) أى الذى بقى عاماً ، ولعله يكون شديد المرارة .

(٦) اتهمه بكذا اتهاماً : أدخلَ عليه التُّهَمَة (كهمزة) ، أى مايتهم عليه .

(٧) آد ، يؤود : أعيا ، أعجز .

يا هذا ! دارت اللغاتُ على مراكز المعانى بفَوْت المُدرِك ، وإدراك الفائت ، بلا رسم معهود ولا أثرٍ مشهود ولا دليل قاطع ورائد صادق ، بل طسم وقسم وحسم ؛ إن جُهل فبالواجب ، وإن عُلم فهو العَجَب العاجب . اللهم إنَّا فى سَكْرة من وارداتك ، وفى حيرة من مجارى أقدارك ؛ وليتك إذ لم تَخُصَّنا بانكشاف العين ، لم تشعرنا التمنى لما لم تَجْرِ به مشيئتك ، ولم يسبق فى معلومك .

إلهنا ! قُدْنا بزمام طاعتك إلى كريم حضرتك ، واعصمنا من كيد كل كائد لنا من أجلك ، وامحُ أسماءنا من ديوان غيرك ، واكتبنا فى المُنيبين(1) إليك ، الذاكرين لك ، المفتخرين بك ، المبتهجين بقربك ، المغمورين بعطائك ، المذكورين بحضرتك ، المتوَّجين بتاج صفوتك ، المخصوصين بالاطلاع على إسرارك وإعلانك ، المطمئنين على بساط خبرك وعِيانك ، ياذا الجلال والإكرام !

رسالة (ب)

اِسمع أيها الجليس المؤانس والصاحب المساعد ، حتى أصف لك تصاريف حالى وَمُتَقَلَّب أمرى ، وجميع مايدل على سكرى وشكواى ، وراحتى وبلواى ، مقيتاً فيها ومقتدراً عليها ومطلعاً على غامضها وواضحها ، ومميزاً لثابتها من سانحها . واعلم أنى مع ذلك كله انتهيت إلى حالٍ لم أشهد فيها إلا النَّعمة ، ولم أُحِسَّ إلّا بالكرامة ، ولم أَطعَم إلّا المِقَة ، ولم أشعر إلا باليد الطُّولى فى الآخرة والأُولَى . وذاك أنى رأيت الفؤاد محشوًّا بالمعرفة ، واللسان لَهِجاً بالذكر ، والإشارة نافذة بالتوحيد ، والقلبَ مُتْرَعاً بالإيقان ، والسِّر مطمئناً

(1) أناب إليه : رجع ، عاد ، التجأ .

بالوعد(١) ، والنفس ممتثلة للأمر والنهى ، والروحَ مشتاقة إلى اللقاء والزيارة ، والأركان ثابتة على الإخلاص [١٥] والاستقامة ، والوجدَ عاملاً عمله بالهزّ(٢) والتذكرة ، والغليلَ متقداً بالحنين والصبابة ، والمسافة مقطوعة بالجدّ له والتشمير ، والصبرَ مستصحَباً مع الأنفاس ، والسلوة قائمة عن زهرات العاجلة ، والأذنَ صاغية إلى النداء ، والهينمة ناعيةً بالنَّجاء الراسخ على الوفاء . فهل بعد سُدّة(٣) النعم والكرامات ، وبعد هذه الآثار والعلامات ، وبعد هذه السِّمات والأمارات ، وبعد هذه المرامات والمقامات ، ما يَهتدى إليه اقتراحُ بَشَرٍ ، أو يكون لأحد من الخلق عنه خبر أو أثر ؟ لا والذى ناجَى الأرواحَ ، بدقائق ما عجزت عن تضمنه الألواح ! هذا وقد أنعم وأكرم ، وتولى بالحسنى قبل هذا الوقت فى القِدم . فهل بعد هذه المقدمات المهيِّجة ، وهذه الأوائل المتوشِّحة ، وهذه الوسائط التى قد أعجزت تفاريقُها عن درك حقائقها دون جوامعها ، والتى أتت على جلائلها ودقائقها — إلا الشكر الذى به تدوم النعَم ، وبه يمترى(٤) المريد من نفائس القِسَم . أليس من جملة هذه النعَم انفتاح باب الشكر على القلب بالتلدُّدِ(٥) ، وعلى اللسان بالتردد . أليس من جملة هذه النعم الاهتداء إلى الاعتراف بالنعَمَ ، والاعتزاء إلى المنعم بالسّر والجهر ، والحدَث والقِدَم . فهات الآن حديثك أيها الإنسان ! هل لك إشراف على هذه القُلَل التى قد تكرّرت الإشارة إليها ، وتردّدت الدلالة عليها ؟ فإن كان لك إشرافٌ ، فأنت

---

(١) أى الوعد بعدم البوح بالسر .

(٢) التحريك .

(٣) السُّدّة : ظُلّة فوق الباب . ويقصد : سبوغ النعم والكرامات .

(٤) امترى الشىء : استخرجه .

(٥) التلدد : التحيُّر .

من المخصوصين بالزُّلْفة ، ومن المُقرَّبين بالأُلْفة. وإن لم يكن لك إشراف عليها ، ولالك إشراف على أنه ليس لك إشراف ، فبُؤْ بنقصك لمبتليك ، وانْفُض أثناء سِرِّك(١) التى تليك ، وهى أعيانُ حقائقِ ما فيك ، فإنك بهذا النفض تصفو من كل دَرَنٍ ، وتنجو من كل غَبَن ، وتجرى على كل سَنَن ، وتنبعث بكل حسن ، وتصير من حزب الله الغالبين [٥ ب] ، وعباده الفائزين ، وأوليائه المُخْلَصين .

قد ناجيتك يا سيدى بلسان النعمة السابقة ، ودَلَلْتُك على موقعها منى فى أوان الحاجة ، وحرَّكْتُك إلى عرفان ما لعله قد اعتراك فيه السهو والغَفْلة ، وبعثتُك على أداةٍ إن استعملتها دامت راحتك ، واتصلت كرامتك ، وعزَّت عليك بك ، وتصفحتك لك ، وأطلعتك عليك ، قضاء لحقك فى الأُخُوَّة ، وتكثُّراً بك فيما يجلُّ عن الأبوة والبنوة . ولم أطوِ عنك ما يتعلق بسدادك ، وينتهى إلى مصلحتك ، لكنى أمسكتُ عما وراء ذلك من حالى ، لا مدامجةً(٢) لك فى الصداقة ، ولا معامجة(٣) لك فى العشرة ، ولكنى لأنى آثرت الاستئثار عما خاننى فيه الاستبصار ، وفاتنى عليه الاستنصار . فإن قلت : وما ذلك ، وما هو ، وكيف هو ، واكْنِ(٤) لى عنه إن لم تُفْصِح ، وأنْمِ به إن لم تَشْرَح ، واقرَع بابه إن لم تَفْتَح . فحق الاسترسال ، بين أهل الوداد ، يقتضى التهيم بكل واد ، والكشف عن كل ماغطاه حُجُب الفؤاد . ولعمرى إن التصافى

---

(١) أى تضاعيف سِرِّك المنطوية فى باطن نفسك .

(٢) دامَجَ : وافق .

(٣) عَمَجَ : التوى فى الطريق يمنة ويسرة . ومعامجة : مسايرة .

(٤) من : أكنى إكناء : سمّى ، تسمية . أى اذكره لى فى صيغة الكناية ، لا التصريح .

بين الشخصين والتناهى بين المتشا كلين يوجبان ذلك ويجدُوان عليه (١) . ولكن مع كل خطرة خَيال ، ومع كل نظرة وبال ، ولكل أَسمانٍ (٢) حال ، ولكل مقام مقال . ومع هذا التقديم والتأخير ، ومع هذا التعريف والتنكير ، ومع هذا التسليم والتنفير ، فإنى أقول :

كيف يصفو سرورُ مَنْ ليس يدرى
أى وقت يسبيه لَحْظُ العيون

وأقول : أُعَلِّلُ فيك النَّفْسَ والنفسُ صَبَّةٌ
إليك ، وما تَعْليلُها عنك نافِعُ

وأقول : تواصِلُنى وتقطعنى وتدعو ثم تمتنع
فلا وَصْلٌ ولا قطعٌ ولا يَأْسٌ ولا طَمَعُ

وأيضاً : ويُؤْنِسُنى وَعْدٌ كوِرْدٍ (٣) بقِيعَةٍ
متى رُمْتُهُ كُلِّفتُ بيداء بَلْقَما
وهل ينفع الوعدُ الصحيح وتحته
عقارِبُ لا يتركن للجَنْبِ مضجعا

[١٦] وأيضاً : يا قابسَ النار من زَنْدٍ تعالجه
اقْدَحْ بِزَنْدِك فى همّى وأحزانى
ما النارُ أسرعُ إلهاباً لِمُوقِدِها
فى العُودِ من زَفْرَةٍ فى قلب حرّان

---

(١) جدا عليه : أعطاه الجَدْوىٰ ، أى العطاء .
(٢) الوِرْد : الإشراف على الماء ، دخله ، أو لم يدخله .
(٣) الأسمان والأسمال : الأثواب البالية . والمعنى : لكل حالٍ لَبوسٌ .

هذا — حاطك الله — دَيْدَنى[١] ، فى حالى ومعْدِنى ، لأمور شَرْحها كارب ، وإن كان لى فيها مآرب ، ولك فى عُرضه مذاهب ومطالب . فبعضها لأنى مُزْعَج عن أوطان السَّلْوة ، مأخوذ بأحكام ما ليس لى عليه عدْوة[٢] ، ولا لى إليه عَوْدة . وان أسْرَرْتُها فى نفسى نمّت عليها ؛ وإن كنّيت عنها بلسانى ، غلب علىَّ بها شَيْنى[٣] ، وإن هممت بشىء منها ، بينى و بينى ، أمحق كلى و بعضى وكيفى وأينى[٤] . فغايتى معك ، عند إشكال قصتى عندك ، أن أقول:

طَرِبْتُ وَلَمْ أطْرَبْ ، ونِمْتُ ولَمْ أنَمْ
ولم تدْرِ ما ألْقَى ، وَلكنَّنِى أدْرِى

عتابٌ ليس ينقطع ، وقلب ليس يرتدع ، وفضاء ليس يتسع ، وبلاء ليس يمتنع ، ورُوحٌ ليس ينتفع ، وأمر ليس يرتفع ، وشخص إن زال لم يزُل خياله ، وحبيب إن غاب لم يغِبْ مثاله ، فالشوق على احتدامه مُحْرِق ، والوجد على التهابه مُقْلِق ، والزمان على عادته جامع مفرِّق . إذا اعتلجَتْ الخواطرُ بالتمنى ، اختلجت النواظرُ بالتظنِّى ؛ وإذا اشتهت الآمال بالتوقع ، التبسَتْ الغاياتُ بالتمنع . وإذا تحركت المطامع بحلاوات الإرادة ، زحفَتْ نحوها كتائبُ اليأس بمرارات الإبادة ؛ وإذا تروّحت الأكبادُ بنسيم العطاء ، زَهقَتْ الأرواحُ بكُرَبِ اليأس ، وإذا اتقدت نار الرجاء بالظن ، خمدت من ساعتها على القنوط باليقين .

---

(١) ديدنى : دأبى .

(٢) عَدْوة : سلطان .

(٣) أى عيبى ينمُّ عن حقيقة حالى ، وإن لم يفصح عنه لسانى .

(٤) الأين : المكان . والمقصود ، أحوالى كلها (يذكر الأعراض فى المقولات) .

وإذا قيل هذا أوانُ الرَّوْح والفَرَح، ختم هناك الويل والجَرَح[1] .

فلا ذِكْرَ إلّا وقد خانه النِّسيان، ولا عِشْقَ إلّا وقد شعَّثه[2] السلو، ولا وُجْد[3] إلا وقد قدح فيه النقصُ، ولا فؤاد إلا وقد كُدِّرَ بالريب، ولا طَرْفَ إلا وقد ازورَّ بالملل، ولا أُذُنَ إلا وقد بَرِمَتْ بالإصغاء، ولا لسان إلا وقد [٦ب] كلَّ من الإسهاب، ولا صبر إلا وقد عَزَبَ عن المساعدة، ولا صاحب إلا وقد ملَّ من المجاملة، ولا عين إلا وقد جمدت من البكاء، ولا بدن إلا وقد فتر من العَناء، ولا خاطر إلا وقد وقف عن السُّنوح[4]، ولا وجه إلا وقد سَمج بالكلوح، ولا بالَ إلا وقد كُسِفَ بالقنوط، ولا حال إلا وقد ثبتت على الهبوط، ولا عِزّ إلا وقد انتهى إلى الذّل، ولا قول إلا وقد عِيب بالتَّكرار، ولا صَدْر إلا وقد امتلأ بالوجيب، ولا أمر إلا وقد استمرَّ على وصف عجيب. فهلمَّ يا سيدى إلى شجو قد أُمِرَّتْ علينا كأسُه، وتقطعت بنا عليه أنفاسُنا وأنفاسُه. فلعل التعاون يجدى نفعاً أو يفتح باباً أو يهدى نسيماً أو يقيم عذراً أو يخفف أمراً أو يصرف نُكْراً أو يزيل عُسْراً أو ينفى خُسراً.

قد طالت النجوى بهذه البلوى التى تليها بلوى، فنَكِرَتُها بطول الصحبة معْرفة، ومعْرِفتُها بشدة الأذى نَكِرَة، وباقيها زائد على ماضيها، وثاويها ألذع من طاريها. وغالب ظنى يا سيدى أنك لمساعدتى على هذا الشجو تؤثر أثراً يَخفُّ به ما بنا، ويُحطّ عنّا ما أثقلنا، ويُبيِّض وجوهنا عند أحبائنا،

---

(١) جَرِح جَرَحا (محركة) : أصابته جراحة .

(٢) شعَّث الشىء : فرَّقه .

(٣) وَجْد : وجود .

(٤) ص : الشيوخ .

ويكفينا شماتة رُقبائنا. وتهدينا إلى الجادة التى منها جسَرْنا[١] وعنها زُلنا. فإذا أراك الله رأياً فيما سألتك، فعرِّفنيه، حتى أُلبسَ لك شعار الشاكرين، وأتلقاك بتحية المساعدين، وأنشر فضلك بين الحاضرين والغائبين، وأجلو عن عينى قذاها عند رؤيتك بالشمال وباليمين. وأنت تفعل ذلك ثباتاً على شاكلتك المحمودة، وجرياً على عادتك المحبوبة، وإيثاراً للسعى الذى تستثمر منه رضاء الله أولاً، ومسرّة الإخوان ثانياً، وشيموعة[٢] الثناء ثالثاً، والمنافسة فى الخير رابعاً، والثبات على اكتساب المحامد خامساً هـ.

الله أسأل أن يزيدك من مواهبه [١٧] الصافيه ما تصير به فردا، ويوردك من شرائعه الصافية ما تزداد به رِباً[٣]. هذا دعائى لك، وثنائى عليك، وظنى بك، ورجائى فيك، وخبرى عنك، فاستثبتنى عليه، ودرّجنى قليلاً إليه، وكن لى كبيراً أكن لك ظهيراً، وزدنى إفضالاً من فضلك أزدك إجلالاً من جلالك بالله! أما ترى هذا التهادى والتمايل فى هذه المعانى، التى تلفظها من ناحية العقل بعد انتشارها على بساط الأُنس، دالّة على صفيّات ودائع الصدور؟ والله لو كان هذا كله هزْلاً لا جدّ معه، أو لعباً لا قصْدَ فيه، أو لغْواً لا تحصيل عنده، لكان ينبغى أن تراه غنيمة باردة، وكنزاً مظفوراً به، وباباً مفتوحاً إلى الرّضا، وطريقاً لاحباً[٤] إلى المنى، ونعمة موافية على غير احتساب. فكيف وهو ينادى صارخاً بصحّة الولاء، وشدة الوفاء، ومتابعة الدعاء، ومواصلة الثناء، ومجانبة الرياء؟!

(١) جسَرَ الرجلُ من باب نصر، جسوراً وجسارة: مضى ونفذ. أو أصلها: جسر نا.

(٢) بمعنى: شيوع.

(٣) الربا بالكسر: الفضل.

(٤) لاحب: واسع.

أيها السيد ! ما أصنعُ [١] والقلب منفطر من شواهد حالٍ غَلِقَ [٢] رهنُها منذ زمان ، وَيَئِس من فكاكه فى كل أوان ، وصار الطمع فى ذلك محالاً أو كالمحال ، وجهلاً أو كالجهل . وإنما أبثُّ فى وقت بعد وقت بعضَ عوارض النفس عند الفيض الشديد والغيظ المديد ، وحين يبلغ العجز آخره ، ويستغرق اليأس ظاهره وباطنه . فإنما أحاول بذلك البثِّ [٣] تخفيفاً ، فلا أزداد به إلا تثقيلا ، وكان ذلك من خدائع الحال ، ومن تعذر المنال . اللهم اعرُجْ بنا إلى جنابك الرَّيِّح [٤] ، وحيّنا بكلامك الطيب ، واستصلحنا لخدمتك ، واخلطْنا [٥] بالملأ الأعلى عندك ، وارحم فقرنا فى غنانا ، واحفظ غنانا فى فقرنا ، ولَذِّذنا بطاعتك كيفما كنا ، وحُلْ بيننا وبين ما يحول بيننا وبينك ، واجعلنا ممن إذا قال صدق ، وإذا عمِل حقق ، وإذا سلك طرق [٦] ، وإذا جَمع فرّق ، [٧ب] وإذا أشار دقّق ، وإذا عبّر رقق ، وإذا خطب شَقّق ، وإذا سار أعنَق [٧] ، وإذا ملك أعتق ، وإذا بحث أعمق [٨] . إنك مَنْ تؤهل مَنْ تريد ، لِما تريد ، ياذا الجلال والإكرام .

---

(١) ص : أصبع .

(٢) غَلِقَ الرهنُ غَلَقاً : استحقه صاحبه ولم يقدر على افتكاكه فى الوقت المشروط .

(٣) ص : احساوك بذلك البث .

(٤) الرَّيِّح : الطيب الريح .

(٥) خلط به : ضمّه إليه .

(٦) طرق : بلغ الغاية التى يرجوها .

(٧) أعنق : أسْرَعَ .

(٨) أعمق البئر ونحوها ، وعمّقها واعتمقها : جعلها عميقة .

رسالة (ج)

وَصلَ كتابُكَ — وَصلكَ اللهُ بالخير وجعلك من أهله — تسألنى فيه عن حالى ، وتستنطقنى به عن ظاهرى وباطنى ، وعن سِرّى وعلانيتى ، وعن سكونى وحركتى ، وعن انتباهى ورَقْدَتى ، وعن قرارى [١] واضطرابى ، وعن يقينى وارتيابى ، وعن تقاعسى وانتصابى ، وعن عللى وأوصابى — وفى الجملة ، عن جميع أمورى وأسبابى ، وفهمتُه بالشرح والتفصيل على ما بى من بلائى وعذابى . فمن لى الآن بوقتٍ ينفَّس حتى أهُذَّ [٢] عليك جُمْلَةً تستوعبك ، وتفصيلاً يحول بَيْنَك وبَيْنَك ، وكتابة تبَدِّد وَهْمك ، وتصريحاً يقيد فهمك ، وبلاغة تملأ قلبك ، وغَفَاء يستأسر لبك ، واختصاراً لا تحصل منه على حرف ، وإسهاباً يغرقك غرقاً بعد غرف ؛ وواضحاً يصلك باليقين ، ومُسْتَغْجِماً يُضِلُّكَ عن الصراط المستقيم . ولو أدركتُ هذا الوقت ، وأصبت هذه الغاية ، وكُنتُ مُزَاحَ العلة ، أريحىَّ الهِمّة ، طَلْقَ الوجه ، سَمِح الطباع ، ملئ النفس ، رخىَّ البال ، فصيح اللهجة ، حاضر الخاطر ، مَرْضِىَّ القول ، حسَنَ الشارة ، خصيب الدارة ، لما استطعتُ بلوغ أوائل حالى ، ولو ساعدَتنى اللغات على اختلافها ، واستجابت لى الخواطر على ائتلافها والتفافها ، لأن أدنى ما لنا ممنوٌّ به ومحظوظ فيه ومراد به ، ومحمول عليه ، ومحلول إليه ، ومغموس فيه ، ومعكوس معه قول القائل :

فقرٌ كفقر الأنبياء وغُرْبَةٌ   وصَبابة [٣] ليس البلاء لواحد

---

(١) قرار : استقرار .

(٢) هذَّ الحديثَ : سرده .

(٣) وصبَّه : أمرَضَه فى وصبه ، أى تعبه .

وجواب مثلك عن مسائلك المختلفة إنما يكون بصدرٍ لا حرَج فيه ، ولسانٍ لا لكنة به ، وهمّ(١) لم تمزقه الرزايا ، وسرّ لم تكتنفه البلايا ، وظاهرٍ لم تختطفه الخطايا ، [١٨] وباطن لم تردفه الحطايا(٢) . وعلى علّاتى التى وصفتها ، وخلّاتى التى رصفتها(٣) ، فإنى أبتدر إليك من جملة ما عناك ما يكون شرحاً لبعض ما بلغك عنى ، وأرجو أن يكون ذلك فى أثنائه إلى ما تريده عُرجة ، ولى فى بث أشجانى إليك به فُرْجة . فاستمع الآن — يرحمك الله — فقد حملتُ على نفسى لك ، اعترافا بفضلك ، وقضاء لحقك ، وإيجابا لمسألتك ، وإيثاراً لطاعتك ، وامتثالاً لأمرك ، وانتداباً لمرادك . فأما حالى فسيئة كيفما قلّبتها ، لأن الدنيا لم تؤاتنى لأكون من الخائضين فيها ، والآخرة لم تغلب علىّ فأكونَ من العاملين لها . وأما ظاهرى وباطنى فما أشد اشتباههما ! لأنى فى أحدهما متلطخ تلطخاً لا يقرّبنى من أجله أحد ، وفى الآخر[ة] متبذّخ تبذّخاً لا يُهتدى فيه إلى رَشَد ؛ وأما سرّى وعلانيتى فممقوتان بعين الحق لخلوهما من علامات الصدق ودنوهما من عوائق الرق . وأما سكونى وحركتى فآفتان محيطتان بى ، لأنى لا أجد فى أحدهما حلاوة النجوى ، ولا أعرىٰ فى الآخر[ة] من مرارة الشكوى . وأما انتباهى ورقدتى ، فما أفرّق بينهما إلا بالاسم الجارى على العادة ، ولا أجمع بينهما إلا بالوهم دون الإرادة . وأما قرارى واضطرابى فقد ارتهننى الاضطراب حتى لم يدع فىّ فضلاً للقرار . وغالبُ ظنى أنى قد علِقتُ به ، لأنه لا طمع لى فى الفكاك ، ولا انتظار عندى للانفكاك . وأما يقينى وارتيابى ، فلى يقين ،

(١) الهمّ : عقد القلب على فعل شيء ، أى النيّة .

(٢) الحطىء : الرُّذال من الآدميين . ولعل أصله : « المطايا » ، بدليل : ترتدفه ، والمرتدف هو الراكب خلف الراكب على المطية .

(٣) رصف : ضمّ بعض الأشياء إلى بعض .

ولكن فى درك الشقاء ؛ فمن يكون يقينه هكذا ، كيف يكون خبره عن الارتياب ! وأما تقاعسى وانتصابى ، فقد وضَحَ لك فى عُرْض شهودى وغيابى ، ومنظوم إطنابى وإسهابى . وأما عِلَلى وأوصابى ، فقد أبَنْتُ عنها فى تضاعيف جوابى وكتابى . وأما أمورى وأسبابى ، فمن أجلها طال خطابى وعتابى . فحدثنى الآن ، يا سَيِّدى ! أين أنت فيا تسمع عما كنت عليه ، وأين أنا فيا قلت لِما أنا مدفوع إليه ! [٨ ب] دَعْنا يا هذا عن هذا وهذا ! إلى متى تتلاقى فنتهادى[١] ، ونتهادى فنتعادى ، ونتناجى فنتفادى[٢] ! وخُذْ بنا إلى باب الله الذى عليه وَقَفَتْ الهِمَمُ ، فالطريق إليه أَمَمٌ[٣] ، وهو لمن يقصده عِلْمٌ يُتلقى بالنِّعَم وَيَشْفِي من السَّقَم ويُغْنِي بعد العُدْم ويُلَذِّذ بعد الألم . فإلى متى نعبد الصنم بعد الصنم ، كأننا حُمُرٌ أو نَعَمٌ[٤] ! إلى متى نسىء ظننا به ، ولم نر خيراً إلا منه ؟! إلى متى نشكو إلى خلقه ، وليس لنا مَعادٌ إلاّ إليه ؟! إلى متى نَشْرُد عنه ، ولا قِوام لنا إلاّ به ! إلى متى نكْذِبُه عن أنفسنا ، وهو أعلم بنا منا ؟! إلى متى نعتصم بغيره ، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد ؟ ! إلى متى نثق بسواه[٥] ، وهو لنا تُجاه ؟! إلى متى نختان[٦] أنفسنا ، كأننا على رَشَد أو غبطة[٧] ؟! إلى متى نستحيي

(١) نتهادى : يسوق بعضنا بعضاً .
(٢) أى يتجنب كلٌّ منا الآخر .
(٣) أَمَم : يسير ، قريب .
(٤) أى حمير وأنعام (ماشية) .
(٥) ص : هى .
(٦) أى نخون .
(٧) ص : عبطه .

من طَوْل(١) مالا يستحيي ؟ ! إلى متى نقول بأفواهنا ماليس فى قلوبنا ؟ ! إلى متى ندّعى الصدق ، والكذبُ شعارنا ودثارنا ! إلى متى نتمادى فى الغَوايةِ(٢) ، وقد فنى العمر بليلنا ونهارنا ؟ ! إلى متى نتنافس بذكره ، وزنانيرنا(٣) فى أوساطنا ؟ ! إلى متى نُخْلِد إلى الدنيا ، وقد دنا منها رحيلنا ؟ ! إلى متى نستظل بشجرة قد تقلص عنّا ظِلُّها ؟ ! إلى متى نبتلع السموم ونحن نظن أن الشفاء فيها ؟ ! اللهم إنّا عليك نُقْبل ، وإياك نسأل ، وإليك نسترسل ، وبك نتوسل ، ورضاك نبغى ، ورحمَتَكَ نرجو ، وعفوكَ نؤمِّل . لا تؤاخذنا بتحريفنا فى العمل ، وبتجديفنا فى القول ، وسهِّل علينا اللّياذَ بك ، وأَفْرِغ على قلوبنا مَحبّتك ، واصطنعنا على عينك ، ولذذنا بحلاوة مناجاتك ، وأهِّلنا لرفع حجابك ، وأَنسنا خَلْقَكَ حتى لايجرى على أَلسِنتنا ذكرُهم بخير يكون شاغلا عنك ، ولا بِشرّ يكون مُبْعِداً منك . وعوّد جباهَنا السجود لك ، وقلوبنا الفكر فيك ، وأرواحنا الشوق إليك ، وجوارحَنا القيامَ على طاعتك ، وأَجِلْ أعيُنَنا [١٩] فى ملكوتك ، واكحُلْها بالاعتبار ، وأَلِّف أسرارنا بك واغمرها بالأنوار . وقرِّبنا من سُرادِقات عِزّك حتى نسطع بروائح كَرامتك ، وأنعم لنا بحروف ربوبيتك حتى نخلص لك وننسى مادونك . إنك إذا شئتَ قرَّبتَ وأدنيت ، وإذا شئتَ طردْتَ وأقْصَيْتَ . لك المِنة التى لا تُطاوَل بها ، والعزّة التى لا تُغالَب عليها ، والقدرة التى لاتجارى فيها ، والحكمة التى لايُبْلغ منتهاها . نُجِدْ علينا بك ، وآمِنّا منك ، وأَوْصِلنا إليك ، وقدِّسنا لك ، وأهِّلنا فى كل حال لما أنت أهله . هذا

---

(١) الطَّوْل : الفضل .

(٢) بالفتح ، ولايكسر .

(٣) جمع زُنّار ، كناية عن الخضوع لله .

– هداك الله – آخر جوابى عن كتابك الذى حرّكتنى فيه مباثّتك ، فإنْ سرّكَ هذا الجنسُ وأعجبك هذا الأُنس ، فواصل ذلك مفيداً لأجرى على عادتى مستفيداً . واعلم أن فى النفس من هذا الحديث حياةَ القلوب ، ومطاوعةَ الغيوب ، ومباينةَ العيُوب ، ومطالبة السُّيُوب (١) ، ولم يتمّ ذلك للجبان الهَيُوب ، الجاهل بالطلوع والغروب ، العاجز عن السُّرَى والدُّؤوب ، فى آفاق هذا العالم المحجوب .

أيها السامع ! ليس كل من رقَدَ حَلَمَ بما يريد ، ولا كلُّ مَن مدَّ يده نال ما يطلب ، ولا كلُّ من ادَّعَى سُلِّم له دعواه ، ولا كلُّ من دعا أجيب ، ولا كلُّ من قرع الباب دَخَل ، ولا كلُّ من استرَقَ السمعَ سلِم (٢) ، ولا كلُّ من استعفى أُعفِى ، ولا كلُّ من قال بدَا (٣) لى ترِكَ ، ولا كلُّ من استرحم رُحم ، ولا كلُّ من تعرَّض (٤) استُخْدِم ، ولا كلُّ من وَصلَ وُدَّ ، ولا كلُّ مَنْ بعُدَ عدِم (٥) ، ولا كلُّ من سأل حُرِم ، ولا كلُّ من ألحَّ أُعطِى ، ولا كلُّ من بكى أُرْضِىَ ، ولا كلُّ من خطب زُوِّج ، ولا كل من ملَك تُوِّج ، ولا كلُّ من رجا أدرك ، ولا كلُّ من مُنِع خاب ، ولا كل من قدِم فقد أُكْرِم ، ولا كلُّ من أُخِّر فقد أُهين ، ولا كلُّ من سبَح غَرِق ، ولا كلُّ من خُوِّف فَرِق ، ولا كلُّ من أُومِن اطمأنَّ ، ولا كلُّ من رُبِّىَ ارجحنَّ (٦) ، ولا كل من توسل قُبِل ، ولا كل من التمس نُوِّل . فى النيب

(١) جمع سَيْب : عطاء .
(٢) أى سلم من الشر الذى يضمر له أو المؤامرة التى تحاك له .
(٣) بدا لى : أى عنّ لى ، فى حال الذنب ، فيعتذر بهذا عنه فيترك عقابه .
(٤) أى عرض نفسه للخدمة عند إنسان .
(٥) أى لم يأخذ نصيبه المقدر له ، وذلك فى حال غيابه .
(٦) أى ليس كل من زِيدَ فيه رجح .

عجائب ، وفى العجائب أيضاً عجائب . كيف لا يكون هذا ، والاستدراج [٩ ب] قائم مع اللحظات ، والتلبيس جارٍ مع اللمحات ، والفَرَحات مطوية فى التَّرَحات ، والتَّرَحات مبنية على الفَرَحات ، والسُّحْرة [١] قيام على أهل اليَقَظات والغَفَلات . فلا العلم باختلاف الأحوال نافع ، ولا الجهل به ضار ، بل ربما ضَرَّ العلم ، وربما نفع الجهل ، وربما نبل بالحنط [٢] ، وربما فات بالتأنّى ، وربما بَعُدَ الدانى ، وربما قرب النائى . فليس لشىء مما تراه عينُك منهاج ، ولا لذى لُبٍّ به سرور وابتهاج . وهذا كله لقدرة صادرة عن غيب مشيئة ، ولمشيئة نافذة ، واردةٍ على شهادة قدرة ، ولحكمة خافية فى آفاق المملكة ، وأحكام جارية على أصناف الخليقة ، وأسرار مجهولة عند البحث والحقيقة . العقول فى خَفِيَّاتها أسرى ، والأحساس [٣] فى جَلِيَّاتها فوضى مبدَّدة ، والعقائد فى التنقير عنها منحلة ، والأقوال فى وصف تشاكُلِها وتباينها مختلفة . فلاجَرَم : لا سِرَّ إلا وهو متهم ، ولا قائِل إلا وهو متوهِّم ، ولا سامع إلا وهو كظيم ، ولا عامل إلّا وهو مُليم [٤] ، ولا قلب إلّا وهو سقيم ، ولا لائم إلّا وهو ملوم ، ولا واجد إلّا وهو عديم ، ولا غنىٌّ إلّا وهو فقير ، ولا عظيم إلّا وهو حقير ، ولا كثير إلّا وهو قليل ، ولا صحيح إلّا وهو عليل ، ولا قريب إلّا وهو بعيد ، ولا هيِّن إلّا وهو شديد ، ولا عالم إلّا وهو جاهل ، ولا عاقل إلّا وهو

---

(١) السحرة : السحر الأعلى ، أو أول السَّحَر .

(٢) نبل : لقط النبل ثم دفعها إلى الرامى ليرمى بها من جديد ؛ والحنْط النَّبْل يرمى بها . والمعنى أنه ربما يلتقط النبل بالنبل ، أى يداوى الداء بالداء نفسه .

(٣) جمع : حِسّ .

(٤) الملوم هو الذى يلام ولا ذنب له ، والمليم هو الذى يأتى ما يستحق أن يلام عليه (« أدب الكاتب » لابن قتيبة) .

ذاهل ، ولا آمن إلّا وهو واهل[1] ، ولا ريّان إلّا وهو ناهل[2] ، ولا مضرور إلّا وهو باهل[3] . خَبَرٌ واللهِ طريف ، وحديث والله عنيف ؛ الفكر فيه يورث الوَسْواس فى الصدور ، والسكون عنه يصدُّ عن الجواز والعبور ، والسؤال عنه يُحمل على التُّهمة ، والجواب عنه يزيد فى الحيرة . فهل رأيت قولاً كلما بَانَ غَمُضَ ، وهل رأيت عِرْقاً كلما سكَنَ نبَضَ ؟ فهل رأيت ناراً كلما أُطفئَتْ اشتعلت ، وهل رأيت كبداً كلما بُلَّت جَفَّت ؟ وهل رأيت سَقَماً كلما عولج أعضل ؟ وهل رأيت بياناً [١١٠] كلما وضح أشكل ؟ وهل رأيت مطلوباً كلّما دَنَا بَعُدَ ؟ وهل رأيت صَداً كلما جُلِي زاد ؟ وهل رأيت شيئاً كلما كُوِّن فَسَد[4] ؟ وهل رأيت فَتْقاً كلما رُتِق اتسع ، وهل رأيت مهجراً كلما استظلَّ أضحى ؟ وهل رأيت مريضاً كلما استَبلَّ[5] نُكِسَ ؟ وهل رأيت وضعاً كلما استقام عُكِس ؟ وهل رأيت أمراً كلما استمر قَعَسَ[6] ؟ هيهات !

غُرَّ امرؤ مَنَّتْه نَفْ سُ أن تدوم له السلامة

أيها الصديق بالسمة ، المخلص بالدعوى ! اسمع هذه البلابل فإنها والله مُحْرِجَة لكل صدر وإن كان مشروحاً ، ومطْرَدة لكل صبر وإن كان ممدوحاً . وإذا سمعتَ فتعجَّب ، وإذا تعجبت فتعجَّب بعد التعجب . فوَحَقِّ الحقِّ

(١) وَهِل يوْهَل : فَزِع .

(٢) ناهل : عطشان .

(٣) بهَلَتْ الناقةُ : حُلَّ صِرارها وتُرِكَ ولدها يرضعها .

(٤) من الكون والفساد المعروفين فى الطبيعيات .

(٥) ص : استقل . استبلَّ من مرضه : برِئ . نُكِسَ المريض : عاوده مرضه .

(٦) قعَس : ثبت ، توقف .

إن السر فيها لمكتوم ، وإن الغيب فيها لمعلوم ، وإن الظاهر منها لمفهوم ، وإن الباطن فيها لموهوم . هكذا وقع الخداع ، وعلى هذا تحيّر الطباع اهـ .

اللهمَّ نوِّر قلوبنا حتى ندرك بها ما أوحشنا منا وآنسنا بنا ، وحيّرنا فينا وسلّطنا علينا . أما إيحاشنا منا فلعلمنا بنزولنا فى ديار مخالفتك ، وأما أُنْسُنا بنا فلغفلتنا عما فاتنا منك ، وأما حيرتنا فينا فبما يراد بنا لك ، وأما تسلطنا علينا فلسعينا فى هلاكنا باليد عند التناول ، واللسان عند القول ، والعَقد عند التفكر. اللهم فسرِّحْنا من قيد هذه الحياة الكَدِرة ، ومن معاناة هذه الأحوال الوَضِرة[1] ، إلى تلك الحياة التى من هبَّ عليه نسيمُها عاش وبَقِى ، ومن فاته ذلك طاش وشَقِى ، ياذا الجلال والإكرام !

رسالة (د)

أحبائى على القُرْب بالتصافى ، وعلى البعد بالتوافى ! جمع الله لكم قواصى المُنىٰ ، وأنالكم بكرمه أفضل الغنىٰ ، وخفف عليكم الاعتصام بأسباب الزُّلفىٰ ، ورفع عن أسراركم مناجاة الشكوى ، وأهبَّ عليكم نسيماً ناعماً من شَرَف المأوىٰ ، [١٠ب] ومتّع أرواحكم بمناغاة المَوْلىٰ ، وأوضح لكم غوامض النجوى ، وكتب أسماءكم وصفاتِكم فى ديوان من سبقت له من الله الحُسنىٰ ، وأذلّ لكم مصاعبَ الأمور ، وتولاكم فى قوارع الدهور ، وزين بكم عِرّاص أهل الحقائِق ، وكفاكم فى السفر والحضر فواجِىء البوائق[2] :

لكل نفسٍ مُنىً وشانٌ   وأنتمُ مُنيتى وشانى

(١) الوَضَر : الوسَخ.

(٢) البائقة : الداهية

لأنى إذا ذكرتكم ذكرت بكم ما أخلق جديده ، وإذا حننتُ إليكم حننت حنيناً ماتزعزع وليدُه ، وإذا وَجَدْتُ[١] بكم وجدت وَجداً مالان شديده ، وإذا هِمْتُ بكم همت هياماً ما تناهى رديده ، وإذا وصفتكم وصفت وصفاً لا يُحْصَى عديده ، وإذا صافحتُ طيفكم صافحت طيفاً لا ينقضى نزوله وصعوده . فعليكم السلامُ من قلب قريح ، وفؤاد جريح ، بلسان فصيح ، وضمير صحيح . فما أشد بكائى بَعْدَكم على بُعْدِكم ! وما أكثر تلفّتى نحوكم ! وما أبلغ تذكرى شجوكم !

مِنَ أىِّ نواحى الأرض أبغى وصالَكُمْ
وأنتم ملوكٌ ما لمَقصدكم نَحْوُ[٢]

كتبت إليكم[٣] يا أحباب قلبي ، ووُرَّادَ شُرْبى ، وطُلّاب قُرْبى ، عن قُرْبٍ يلتهب أسفاً[٤] عليكم ، وشوق يعصر الدموع إليكم ، وبالٍ متحرك عند تمنّى عطفكم ، وليلٍ يتباهى فى مراعاة طيفكم ، ونهار متعب فى توقع لطفكم . فقولوا لى الآن : « كيف التلاقى والمزار[٥] بعيد» ؟ أم كيف التواصل والرقباء أسود ؟ أم كيف العزاء والفؤاد عميد[٦] ؟ أم كيف الصبر والبلاء ممدود ؟ أم كيف التوجه والطريق مسدود ؟! فسُقياً لعيش مضى نضيراً فى ظِلال صحبتكم ، ورَعْياً[٧] لزمان تقضّى حميداً فى مجالس عشرتكم ! ما كان

(١) وَجَدَ به وَتَوَجَّدَ : أولع به وعشقه .

(٢) أى : اتجاه .

(٣) ص : إليك .

(٤) ص : أسفٌ .

(٥) شطر بيت شعر .

(٦) أى معمود : حزين شفّه الوجد .

(٧) رعياً لك : حفظاً لك .

أحلى سمَرَنا معكم ، وما كان أبهج أُنْسَنا بقربكم ، وما كان أملح شمائلنا فى خدمتكم ، وما كان أشهى دلالنا بحضرتكم ، وما كان أشجى نعمتنا بين لا ونعم فى تمنعكم وإجابتكم ! نعم ! وسُقْياً للرسائل التى كانت تجرى بيننا وبينكم ، نعم ورَعْياً [١١١] للوسائل التى كانت تتردد عندنا وعندكم ، — والوشاة على خيبتها فى الظَّفر بتأذيكم [١] ، والعيون موكلة بخضوعنا وتيهكم ، والأنفاس متصعِّدة بالأسى والتلهف من أجلنا ومن أجلكم ، والأكُفُّ مبسوطة إلينا وإليكم تلتمس فضلنا وتفضّلكم ، والأحباب تتهادى بحديثنا وحديثكم : فمِنْ كاذبٍ قد صدق ، ومِنْ صادق قد كذب . وكلٌّ ذلك يحلو بذكركم ، ويحتمل لوجوهكم ، ويُستزاد ، وإن كان لاذعاً لأنه منكم وبكم . مَن الذى يطمع فى نعت ما سلف لنا ولكم ؟ ! ومن يقدر على استيفاء تلك اللطائف التى جرت بيننا وبينكم ؟ وكيف يُؤتَى عليها ؟ أم كيف يُسْلَك إلى غايتها ، وقد كان فى عُرضها ما تجافى عنه اللفظ ، وينأى دونه الوهم ، وخفى عن كوامن الغيب ؟ ! وإنما يتذكر أشياء بقيت رسومها فى النفس بآثار بقيت من بقايا الأُنْس ، ألفها القلم ونظمها الكلم .

فأما ما احتجب عن الظنون ، واستتر عن العيون ، وسبح فى بحرٍ لاساحلٍ له لكان ويكون ، فذاك شىء قد ضُربت دونه الأَسْداد [٢] ، ووضعت عليه الحَنَظَة والأرْصاد ، ولهذا ترنم المترنم ، قال :

سَيْرُ المساكين لا يبدو به أحدٌ   هناك حَيرَةُ هَمَّام ونَفَّار

---

(١) ص : بناويكم ؛ أو صوابه : بناديكم ؟

(٢) الحواجز .

فيا أحبابى ! ارحمونى فى أوصابى ، ودبّروا ما بى ، فإنى لَمُسابى[(١)] .
وإن استوحشتم لتقصيرى مِنّى ، فاستأنسوا بما ألقيته عليكم عنّى . أنا — وحياتكم إليكم — ذوصبابة ، لكنى أشتمل من أجلكم على مهابة ، فارعَوْا ذمام خدمتى لكم ، وحافظوا على ما تحمّلت فيكم ، فقد شربت العلقم فى هواكم ، وداريت العِدى تحملاً لكم ، ولزمْتُ الصمت حتى نسيت الكلام[(٢)] ، واعتزلت حتى قيل هو من الوحش ، وغَضَضْتُ حتى قيل من العُمْيان . لو كنتُ مُدَّعياً فيما أقول ، لكان لى تَحَرُّمٌ[(٣)] بكم وكان نَوْلكم[(٤)] أن تتكرموا . فكيف ، ولى شهود فى محبتكم عُدول : ذوبُ جسم ، وانتكاث بشاشةٍ ، وتصعُّد نَفَس ، [١١ب] وانهمال دمع ، وانتحال[(٥)] صبوة ، وخفَقان صدر ، وذِلّة نَفْس ، وطاعة أمر ، ومواربة حاسد ، ومُقاربة واشٍ ، ومصانعة رقيب ، واستحالة سِحْنة ، واحتمال محنة ، وتردد حشرجة ، وسهر ليل ، وتعب نهارٍ ، ووحشة وُحْدةٍ ، ودهشة فكرة ، وعطشة سفْرة ، ورِقْبة[(٦)] حَضْرة ، وفَجْعة عِيان ، وروعة خبر !

فهذه بيّناتى فى محنتى ، وآياتى فى فتنتى . فأين أنتم من مجازاتى ومكافاتى حسب ما يليق بكم أو بى ! أسألُ الله مادةً من الصبر على محنتى فيكم ، وصُنْعاً

---

(١) كذا ولعل صوابه : لَمُسْبِى ، من أسبأ لأمر الله : خضع ؛ والمعنى أنه ينقاد لهم .

(٢) الكلام هنا بمعنى علم الكلام ، والقرينة فى قوله : «اعتزلت» ، أى صرتُ من أهل الاعتزال أو المعتزلة ؛ و « اعتزلت » بعدها بمعنى توحدت وانفردت .

(٣) أى التجاء إلى حرمتكم ومودتكم .

(٤) يقال : نَوْلُكَ أن تفعل كذا ، أى : حقُّك وينبغى لك أن تفعل كذا .

(٥) انتحال : نحول .

(٦) الرِّقبة بالكسر : الحراسة والتحفظ ، والفزع ؛ والأخير هو الأنسب هنا .

من التوفيق على فتنتي بكم . أيها القوم ! انتسبتُ إليكم ، واعتمدت عليكم ، ونزلت في جوارحكم ، وعبقت بنسيمكم ، وألفتُ تراب أرضكم ، وشربت بكأس وُدّكم ، وعشقت اسمكم ، ولهجت بذكركم ، وقلت أنتم وأنتم ؛ وحُشْتُ[1] القلوب إليكم ، وحشدتُ الجموع على بابكم ، وأذنت في الوصول إلى مجلسكم تعظيماً لقاصدي خدمتكم ، وحجبت عنكم غيرةً على عظيم محلكم ، وسُئلتُ عنكم فمدحتكم ، واسترشدت إلى ربعكم فأرشدت إليكم ، وقيل لي : صف لنا كرمهم ، فأبلغت عنكم ، واستخبرت عن صنيعكم فأوضحت ذلك لهم بكم .

وقيل لي : ما ذا حصّلتَ منذ انقطعتَ إليهم ؟ وماذا كسبتَ منذ تعلقتَ بذيلهم ؟ فرفعتُ عقيرتي وقلتُ : حصّلتُ مكنون الغيب في الشهادة ، وكُسيتُ عزيز الحال في مرجوِّ السعادة ، وغنيتُ بهم غنًى لا أخاف بعده الفقر .

ظاهري الاستقلال بكل وارد ، وإن خفيَ الظهر ، وباطني الاستكمال بكل شارد ، وإن خفي على أهل العصر . استنار صدري بمعرفته ، ونطق لساني بتوحيده ، وخفّت أطرافي لخدمته ، والتطم ضميري بأمواج محبته ، واكتنف أطرافي بوادي إحسانه ولطفه . فما يسنح لي سانح إلا وفيه آية من آيات كرامته ، ولا [١١٢] يبرح فيّ بارح إلا وعليه علامة من علامات برّه ورأفته .

إن قلت فهو مصحوب قلبي ، وإن أمسكت فهو ساكنُ سرّي . إن قدحتُ فهو الذي يُوري[2] ، وإن غرستُ فهو الذي يُنمي ، وإن سألتُ فهو الذي يُغني ويعطي ، وإن سكتُّ فهو الذي يعيد ويبدي ، وإن شكرت فهو الذي

(١) من : حاش الصيدَ يحوشه حَوْشاً وحياشةً : جاء من حواليه ليصرفه إلى الحبالة .

(٢) وَرَى يَرِي الزَّنْدُ وَرْياً : خرجَتْ نارُه ، ضد صَلَدَ (من باب ضرب) .

يفيد ويَزيد ويُسدى . فهذا آخر ما قطعت عليه قولى ، على أنى ما بلغت معشار ما عندى اهـ .

فيا أحبابى ! ما فى هذا القليل الذى نبأتُ به عنكم ما يرعى ذمامى عندكم ، ويخلطنى بصغيركم وكبيركم ، ويكثر بى عددكم ، ويُعْطِف علىَّ أبيَّكم ، ويُفىءُ إلىَّ حافِيَكم[١] ، ويُبِلُّ لهاتى من سَجْلكم[٢] ، ويُقرئنى عُنوان كتابكم ، ويمتِّع طرْفى بالنظر إلى حيطان دوركم ، ويُطرح فى عينى ذَرور محبتكم ، ويكتب اسمى فى عامّة حَشمكم إذ لم يكتب فى خاصّة خدَمكم ، بل إن ظنى بكم لجميل ، ولى على ذلك ضامن وكفيل ، والله على ما أقول وكيل .

يا أحبابى ! إذا قرأتم كتابى ، فتفضلوا علىَّ بجوابى ، فلعلى أداوى بكتابكم ما بقى . فقد نَفَّسْتُ[٣] بالعراء : أرتاع لطنين الذبابة ، وأهيم من حسن ذوى الصبابة . فحالى فى الأحوال عجيبة ، وهِمّتى فى الهمم غريبة . ظاهرى مُبْتَرٌ[٤] لا أملك منه شيئاً ، وباطنى مستعِر لا أجد له فيئاً . أجرَّع الغُصَص كاظماً ، وأتفرَّد بالخلوة هائماً ؛ وإن حضرتُ جميعاً[٥] فبلَبوسِ تجملٍ وتوقٍ ، وإن غبتُ عنهم فببؤس تحمّلٍ وتبقٍ . لا رائد لى إلا وهو يكذب[٦] ، ولا ذا يدٍ عنّى[٧] إلا وهو يعتب ،

---

(١) الحافى : المبالغ فى الإكرام والفرح ؛ القاضى — أو لعل أصلها : كافيكم .

(٢) السجل : الدلو ، العطاء .

(٣) أى خرجت لتنفيس همومى بالعراء فكنت أرتاع .

(٤) مقطوع عنّى .

(٥) بمعنى : جمع أو مجتمع .

(٦) إشارة إلى الحديث : « الرائد لا يكذِبُ أهلَه » .

(٧) عنّى : عندى .

فأنا المُتَشَرِّقُ [١] المقرور ، والمتحرِّق المصرور [٢] ، والقاصد المحجوب ، والرائد المكذوب ، والراصد المكروب . وهذا لأنى أطعت مطامعى فاستعبدتنى ،

ولو أنى قنعتُ لكنتُ حرّاً [٣]

فياسادتى ! بالذى خصكم بالفضل ، وأهّلكم للإفضال ، وجعلكم من أهل التفضّل — إلاّ رققتم لى ، وأهديتم إلىّ رفقاً بى ؛ فقد طال عطشى ، واشتد دَهَشى ، من كَلِم دامٍ ، وسِرّ سامٍ ، وبيت طُفِئ مصباحه ، وباب ضاع مِفْتاحه ، وأمرٍ تقاعس أوله وآخره ، وتنكَّر غائبه وحاضره . فإنى أظن ظناً كاليقين أن من تَلُمُّون شَعَثه ، وتجمعون بَدَده [١٢ب] وتحفظون ضيعته ، انجبر بكُمْ ، وهُدى إلى سواء الصراط بمكانكم ، وعرف ماله وعليه بإشفاقكم ، ووَضَح عنده ما أشكل من حاله بينكم ، لأنّ يدَ الله معكم وليس فوق يد الله يد ؛ وعينه راعيتكم ، وليس بعد عينه عين . فطوبى ! لمن فاز بحظوته عندكم ، وحصَل له ذِكْرٌ فى صحيفتكم ، وجرى اسمُه على أفواهكم ، وأهّله الله لخطرة من خطراتكم ! فذاك المغبوط الذى تشير إليه الأصابعُ ، وذاك الرشيد الذى تُحْنَى إليه الأضالع ، فكونوا عند ظنى بكم لى ، وانفثوا من بركات ريقكم علىّ ، ونوّرونى بفضل شعاع شمس معارفكم ، وبُلّوا رَبَق بِرَشّةٍ من ماء عين كرمكم ، وزيِّنوا ما بدا منِّى بما بدا منكم ، وما خفى عنى بما خفى عنكم . وفى الجملة ، أدرجوا كُلِّى فى كلكم ، حتى تكونوا وأكونكم ، أعنى : بالتصافى والمودة ، والإيجاب والمحافظة ، والحياء والمراقبة ، والإفضال والمساعفة . وهذه إشارات لاتدِق عن أذهانكم ، ولا تفوت فطنكم

---

(١) المتشرّق : القاعد فى موضع القعود فى الشمس بالشتاء . والمقرور المصاب بالقر (بالضم) أى البرد .

(٢) المصرور : الممنوع ، المحجوب عن نوال المطلوب أو ما يُتحرَّق إليه .

(٣) شطر بيت شعر .

فلهذا تلبّستُ بها استعطافاً لكم ، وتكثرتُ بذكرها تقرُّباً إليكم ؛ فلا تخيّبوا رجائى فيكم ، ولا تردّوا كفّى عن فضل ما وهب الله لكم ، ولا تسوّدوا وجهى عند الناظرين إلىّ وإليكم ، وكونوا فوق الظن بكم ، فذاك أعلى لقدركم ، وأرفع لناظركم ، وأشيع للأحدوثة الحسنة عنكم . والسلام عليكم .

اللهمّ إنى كتبت هذه الكلمات إلى أشخاص أنشأتَهم بين عبادك ، واختصصتَهم بلطائف هدايتك ، وجعلتهم أعلاماً لمن أراد أن يهتدى إلى بابك ، ويُنيخ براحلته بِفنائك ، ليَهبوا إلىّ من فَضْلِ ما وَهَبْتَهم ، ويَمُنُّوا علىّ من بعض ما مَنَنْتَ عليهم . وليس مسئلتى إياهم لليأس منك ، ولا لِتُهمَةٍ عَرَضَت فى نفسى لا تليق بك ، ولكن لأن مواجهتى إياك بالاقتراح ، مع إقامتى على مخالفتك ، افتضاح . وهم إذا ما أجابونى إلى طَلِبتى فبأياديك [1] وتوفيقك ولحسن صنيعك . فهم سُفَرائى إليك ، وشُفعائى لديك ، لا لعَطَن [2] ضاق ، ولا لأمرٍ عاقَ ، ولكن الحياء غلب وسرٌّ كَرَبَ . وأنت أطْلَعُ [١١٣] على ما أقول ، لأن علمك مُحيطٌ بكل شىء ، وقدرتك سارية فى كل شىء ، وحَوْلك آتٍ على كل شىء ، لا يختلج ناظر إلا وعنك مبداه ، ولا يعتلج خاطر إلا وإليك منتهاه . جَلَلْتَ ولذلك تُعبَد ، وعَزَزْتَ (ولذلك) تطلب . فأنت الذى لا بمكان دون مكان ، وأنت النازح [3] لا فى زمان قبل زمان ؛ يا مالك الأرواح فى الأبدان ويا مُصَرِّف الإسرار فى الإعلان ، ويا مُدْرِج الأوان فى الأوان ، ويا مبرز الألوان فى الألوان ، ويا ملحق الأكوان بالأكوان ، ويا من هو كلَّ يوم هو فى شأن . إلهنا !

---

(١) ص : فبأديك .

(٢) العَطَن : المُناخ حول الوِرد (أى مورد الماء) ؛ ومنه واسع أو ضيق العَطَن ، أى رحب الصدر أو ضيقه .

(٣) كذا ! ولعل هنا تحريفاً .

إياك نمجدُ ونسبِّح لأنا عبيدك ، بك نقوم وإليك ننتسِب ، وبأياديك نعترف ، وبفضلك نعيش ، وعليك نتوّله ، وفيك نتدلّه . إن بدت مِنَّا خَلَّةٌ فذاك لما نجده من قُوَّة فَيْضك ، وإن بان علينا كَلَّةٌ فذاك لما يصدر عنا من عجز الفطرة . خلقتنا ضعفاء لنُبين عنك ، ثم قَوَّيتنا بمعرفتك لنبيّن بك ، ثم دعوتنا بأصناف لُغَتك لنسكون فى ذُراك فى أهنأ عيش وأنعم بال . فلك الحمد بدءاً وعوداً — حمداً يتجدد على مَرِّ الزمان ، حمداً يتزيّد مع الأنفاس كَرَماً ومجداً ، فإن الحمد إذا خَلَص من شوائبه ، والثناء إذا صفا من روائبه ، كان الحامد محموداً ، والمُثْنى مودوداً . اللهم فأَهِّلنا ونجّنا من المهالك ، واصحبنا فى جميع المسالك إلى بُحْبوحة الممالك ، ياذا الجلال والإكرام !

رسالة (هـ)

أىّ رَأْىٍ لمكذوب ، أم أى عشقٍ لمكروب ، أم أى قرار لمرعوب ، أم أى اطلاع على الغيوب لمن هو محشو بالعيوب ؟ ! هيهات ! هيهات ! لن تُنال المقامات والدرجات إلا برفض الهَنات وما دون الهَنات . إنك إن ظننت أنك بالمخالفة والهوى تُدرك الغاية القصوى ، ظننتَ محالاً ؛ ومن ظنَّ المحال وسكن إليه وقع فى الوبال ودُفع عليه . الأمر جِدٌّ والتشمير واجبٌ ، والداعى مُعْذِر ، والطريق نَهْج ، والعلامة ظاهرة ، والعلة مُزاحةٌ ، والاستطاعة حاضرة ، والنعمة متتابعة ، والإحسان [١٣ ب] غامرٌ ، والبشير صادق ، والنذير ناطق ، والعذر زائل ، واللوم حاصل . فهل بقى بعد هذه الفواتح ، التى عَمَّت الخلق بالصنع والرفق ، ما يكون حجةً أو شُبْهة لأحد فى تَرْكِ طلب العتق من الرق ؟ وهل يجوز لك ، أيها العاكف على الجهالة ، أن تحتج بما لا حجة لك فيه ولا مقالة ؟ يدعوك الله إلى حظك : تارةً بظاهر تنزيله ، وتارة بباطن تأويله ، وتارة

على لسان رسوله ، وتارة بخافى دليله ، وتارة بواضح سبيله ، وأنت مُعْرِض كأنك لا تسمع ولا تعقل ! أما تعلم أنه ما وهب لك السمع والبصر ، إلّا لتعى وتعتبر ، وإلا لِتسألَ وتستخبر ، وإلا لتعلم ماعليك فتشمرّ ، وما لكَ فتستبشر ؟! أما تعلم أنه ما نظمك هذا النَّظْمَ العجيب ، ولا أودعك هذا السرَّ الغريب ، إلّا لأمرٍ بعيدٍ قريب : بعيد إن تصاممت عنه ، قريب إن سارعت [١] إليه ! يعاتبك فلا تُعْتِب [٢] ، ويدعوك فلا تجيب ! ويُنعم عليك فلا تشكر ، ويبتليك فلا تصبر ، ويُحْضِرُكَ قدرتَه فلا تبصر ، ثم تولى وتستكبر ، وتعتقد أنك مستقل منتصر ! هذا — والله — الجهلُ الغالب عليك ، والشقاء المحيط بك ، والشماتة الحاضرة لك . يُقَرّبك فتبتعد ، ويتألّفك فتَشْرُد ، ويطمع بلطف بك فتطمح ، ويقومك فتجنح . فياويلك ! أى بلاء أنت على نفسك ، وأى خاسرٍ أنت فى سعيك ! تبغى رضاء المخلوق ، وتتهاون برضاء الخالق ؟! وما كان المخلوق أنصح لك ، وأذبَّ عنك ، وأقوم بمصلحتك ، وأقدر على الدفع دونك ، وأهدى إلى مُرادك ، وأوفى لك فى عاقبة أمرك . هذا ، والله ، الغُرور ، وآخر هذا الغرور الويل والثبور . انتبه ، عافاك الله ، من هذه الرقدة التى قد استغرقتك بالأحلام ، واعترف بحق الله عليك فى كل مقال ومقام ، واتخذ جُنّةً لنفسك يوم القيامة إلى الخصام . فإن كنت تؤمن بالله على الحقيقة والتمام ، زهّدوك فى الدنيا ورغبت فيها ، ورَغّبوك فى الآخرة فزهدت عنها . [١١٤] وكرروا عليك النصيحة فى الحالين ، فأعرضتَ عنها ، وردّدوا إليك فتأفّفتَ [٣] منها ! فيا مُؤْثِرَ الخلاف على الوفاق ، ويا غائصاً فى بحر النفاق والشقاق ، ويا من ليس له فى الآخرة مِنْ خَلاق .

(١) فى الصلب : إليك ؛ والتصحيح بالهامش .

(٢) أعتب : أرضى .

(٣) ص : فتافقت .

كيف يكون الشقى إلا مثلك ، وكيف يكون المرحوم[1] إلا من سلك طريقك ! أما ترى بشائر الحق كيف تتردد بين أذنك وقلبك ؟! أما تسمع زواجر الحق ، كيف تتكرر على سمعك ولُبِّك ! أما ترى مواهبه كيف تنسكب على قرنك إلى قدمك ! أما ترى قدرته كيف تنفذ فيك ! أما ترى حكمته كيف تبدو منك ! أما ترى داعيه كيف يناديك ، أما ترى رسوله كيف يناجيك ، أما ترى كيف أبرزك من العدم وحفَّك بالنِّعَمِ ، وعلمك ما لم تكن تعلم ، وقدَّمك فيمن قدَّم ، وعظَّمك فيمن عظَّم ، وسألك أن تتقدم فلم تتأهب لأن تَقَدَّم ، وأمهلك لأن تفكر وتشاور وتستظهر فلم تتبين ذلك ولم تفهم ؟! فقد آن لك الآن أن تتقطع حسرةً على حظوظ فاتتك من الله ، وحَسُن بك أن تلطم خدك حزناً على أحوالٍ من نالها سَعِدَ بتوفيق الله . وجب عليك أن تبكى دماً على ماصنعت بنفسك فى إضاعة حق الله . كَذَّبَتْكِ نفسُك فصدقتها ، وعُرِضَتْ لك الآيات والنُذُر فصدَفت عنها ، وذكرتك الأسقامُ والعلل فتناسيتها ، وحدّثك الليل والنهار فلم تُصْغِ إليهما . وأقبلتَ على لذاتك الخسيسة فتحرقت فيها واستكثرتَ بها ، وتمردت على الله الذى دعاك إلى تركها ليعوّضك خيراً منها ه ا .

اللهم إنَّا ندعو خلقك إلى طاعتك ونحنُ الذى دعاك إلى تركها[2] ليعوضك خيراً منها . فلا تؤاخذنا بذلك ، فما إرادتنا فى ذلك إلا أن نحبِّب منك إليهم ، وننشر آلاءك عليهم ، ونعرّفهم ما سبق من رِفدك وفضلك إلى صغيرهم وكبيرهم . فاجبُرْ ما نقص من عملنا فى مَرْضاتك بأفضل من اجتهادنا فى دعائنا إياهم إليك [١٤ ب] ودِلالتنا لهم إلى بابِك من غير جدوى نلتمسها منهم

(١) وكيف يكون المرحوم : مكررة فى الأصل . ويمكن أن يكون قوله « المرحوم » خطأ وصوابه : المحروم أو المرْجوم .

(٢) الضمير يعود إلى « خلقك » .

على ذلك . اللهم إنّا نسألك أن تأجرنا على هذا الحديث ، فإن لم تؤجرنا عليه فلا تؤاخذنا به . فوحقك ما نقصد بما نقول واصفين لك ، وبما نعيد ونبدئ حائشين [١] لهم إليك ، إلا ليسرع مذنب ، ويقلع مصر ، ويستبين ضال ، ويتقوّم زائغ ، ويعتدل رائغ [٢] ، ويهتدى تائه ، ويلين قاس ، ويتذكر ناس ، ويتواضع مستكبر ، وينتبه نائم ، ويصحو منتش ، ويصفو سر ، ويطيب قول ، ويطهر عمل ، ويقصر أمل ، ويتجدد تمهل ، وينفع عدل . فالويل لمن ذكرك لخلقك خادعاً بك ، والويل لمن دعاك إليك شارداً عنك ! ه .

اللهم أنت حبّبت إلينا هذه السيرة ، وأجريتنا على هذه الوتيرة ، فتقبّل عفونا فى العمل ، وزدنا من فضلك بما يأتى على الأمل ، يا خير من دُعى وأكرم مَنْ سُئل ! ه .

أيها المبتدع بالقدرة الإلهية ، والخلق المصطنع بالمشيئة الربانية ، والإنسان المحفوف بالنعمة الملكية ! تأمل مواقع آيانه فيك ، واستنطق شواهد آثاره عليك ، وتصفح متأتّى أياديه عندك ، وانظر بأى فضل خصّك ، ومن أى حال خلّصك ، وإلى أى درجة رقاك ، وبأى رتبة حلاك ، وإلى أى كهف آواك ، وبأى سرّ ناجاك ، وبأى غيب ناغاك ، ومن أى شرّ وقاك ، ولأى غاية بقّاك ؛ وبأى تاج توّجك ، وإلى أى حظ هيجك ، وأى ملك قلّدك ، وأى مشرب صفا لك ، وبأى لطف حاشك [٣] ، وبأى شىء سكّر جاشك [٤] ، وبأى صنع

(١) حاش الصيد وأحاشه وأحوشه : جاءه من حواليه ليصرفه إلى الحبالة .

(٢) راغ يروغ روغاً وروغاناً : مال وحاد عن الشىء ، والاسم الرّواغ كسحاب وكشدّاد .

(٣) حاشك هنا بمعنى اصطادك .

(٤) سكّره (بتشديد الكاف) تسكيراً أى خنقه ؛ والجاش : نفس الإنسان.

أزال استيحاشك ، وبأى صَرْعة انتاشك ، ولأى أمر أعاشك ! خصك بفضل ما اهتديت إلى طلبه بتحكمك ، وخلّصك من حالٍ ما عرفتها بتوهمك ، ورماك إلى درجة ما خطَرَتْ قط ببالك ، وحلّاك برتبة ما حلمَتْ بها نفسُك ، وآواك إلى كهف ما اطمأنّ به [1] قلبك ، وناجاك بِسِرٍّ به تَثبُتُ قدمُك ، وناغاك بغيب به تَضاعفَ طربُك ، ووقاك من شر به تمّ أمرك ، وبقّاك لغاية بها قَرّت عينك ، وتوّجك بتاج به أشارت الأصابع إليك ، وهيجك إلى حظ [2] هو غاية أمانيك ، وقلّدك مُلكاً هو نهاية آمالك ، وصفّى لك مشرباً متى كرعت منه لم تظمأ بعده ، وحاشك بلطف هو الذى جعلك مغبوطاً فى حالك ، وسكّن جأشك بشئ هو الذى أنالك مرادك ، وأزال استيحاشك بصنع أدركت به كل آمالك . فحدثنى الآن واصدُق : هل فى المنعِمين مَن ذا جُودُه ، وهل فى المحسنين مَنْ ذا تفضُّله ، وهل فى المشفقين من ذا رفقه ، وهل فى الكرماء من ذا عطاؤه ، وهل فى المحبّين من ذا نافلته ، وهل فى القادرين من ذا اقتداره ، وهل فى الناظرين مَنْ ذا اختباره ، وهل فى الماضين والغابرين من ذا إيراده وإصداره ؟! ولا ، وحق الحق الذى يلهج به الخلق ! ما يقدر على هذه العجائب إلا هو ، ولا يجود بهذه المواهب إلا هو ، ولا يأتى بهذه الغرائب إلا هو . جلّ معبوداً ومقصوداً ، وعزّ مطلوباً وموجوداً . إن كَنَيْتَ عنه سبق التصريح به ، وإن صرحتَ به غلبت الكناية عليه . وإن عبّرت عن صفاته كدرت العبارة ، وإن أشرتَ إلى ذاته اضمحلت الإشارة . فالزم — هداك الله — حدّك فى العبودية ، واستعصم فى نفسك من آفات البشرية ، وتبرأ من كل ما فضحك من البرية ، ولن تبرأ حتى تطهر من كل خطية ، ولن تَطْهرَ إلا بيدٍ من عنده قوية .

(١) كذا فى الأصل ، ولعل صوابه : ما اطمأن إلا به . أو « ما » زائدة .

(٢) ص : حظك .

يا هذا ! لا مُستَقَرَّ لك إلا بالله ، ولا عَوْدَ لك إلا إلى الله ، ولا توكل لك إلا على الله ، ولا خير لك إلا من الله ، ولا نجاة لك إلا بالله ، ولا منعم عليك إلا الله ، ولا بُدَّ لك على كل حال من الله . فاقضِ ما أنت قاضٍ ، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ، وهي أيام معدودة وأنفاس محدودة . وإن التفتَّ إلى نصيبك من الله أقبلَ اللهُ عليك ، وإن حاسبت نفسك لله أغضى الله عنك ، وإن وهبت نفسك لله حفظها الله لك . وإن تواضعت لله رفع الله قدرك ، وإن جنَحْتَ [١٥ ب] للسِّلْم تقبل الله منك ، وإن لُذْتَ بالله عطف الله عليك ، وإن شكوتَ مابك إلى الله سمع شكواك ، وإن ادّعيته صادقاً أو كاذباً لم يفضحك فى دعواك . هو ألطف بك منك بنفسك ، وهو أصدق لك منك عليك لنفسك ، وهو أرْأفُ بك منك بنفسك . هو الذى دَلَّك على خطأٍ ثم عاتبك على تهاونك فى تحصيلك ، هو الذى أرادك قبل أن تريده ، هو الذى أجابك قبل أن تدعوه ، هو الذى نظر لك قبل أن تسأله ه .

أيحسن بك — بعد هذه اللطائف السابقة ، وبعد هذه النعم السابغة ، وبعد هذه الأيادى المتتابعة — أن يطَّلع مِنْ سرك على سوء ظن به ، أو على إيثار هوى عليه ، أو على تقصير فى خدمته ، أو على استعانة[1] بنعمته ، أو على مخالفته ؟ لا وحقِّ الفتوّة فإنها شعار الكرام .

يا هذا ! إنك لن تقف على حدود هذه المرامى ، وعلى عواقب هذه الأسامى ، إلا بعد أن تخلع نَفْسَك من نفسك كما تخلع قميصك من جلدك ، وكما تخلع جِلْدك من لحمك ، وكما تخلع لحمك من عظمك . وإنما قلتُ هذا لأن

(١) كذا ! ولعل صوابه : استهانة .

المراد عزيزٌ والمرامَ بعيد ، والفهم قاصر ، والهوى متناصر ، والقوة المسعدة غائِرة ، والطبيعة الحاضرة حائرة ، والشهوة بين الإنسان و بين سعادته جارية . وبضاعته فى طلب الربح بائرة . فإن لم تكسب هيئةً لنفسك غير هذا الذى ورثته بمزاجك ، ونشأت عنه بضروب حركتك واختلاجك ، لم تظفر بما يكون سبباً لسرورك وابتهاجك . وهذه نصيحة قد كررتها لك وعليك ، وأردت بها البخوع[(١)] فيك والهجوع منك ، وأنْ تُقْبِل على نفسك الشريفة بإدبارك عن نفسك ، أعنى أن تقبل على نفسك الشريفة الفاضلة المقتبسة من نور عقلك الحائلة بينك وبين جحيم طلعك ؛ وأعنى بإدبارك عن نفسك نَفْسَكَ الأمارة بالسوء الوثابة بالعتو ، الطارحة لك بيد العدو . فافطُنْ لهذه العويصة التى هى إقبالك [١١٦ ا] على نفسك وإدبارك عن[(٢)] نفسك ؛ فإن ظاهر هذا القول يحدث تناقضاً ويورث صدوداً ، وباطنه يحدث اتفاقاً ويورث شهوداً .

اللهم إنا قد تَقَلْقَلْنا فى نَصَبِنا حياء من التعذير فى قضاء حقك ، واضطربنا فى أحوالنا لنكولنا عن حيازة نصيبنا منك فى طلب مَرْضاتك . وإحساساً بهذا القدر قد أوقد على قلوبنا جمراتُ الحَسرة وحَسَرات الفُرْقة ، فلاجَرَم بَغَضَ العيشُ فى هذا البلد الوبىء ، وفى هذا المكان المُقِضّ بين هذا السواد المظلم على هذا البساط الشائك . وبقدر بغض العيش طاب تجرُّع الحِمام مع التوجه إليك ونيل الحظوة منك . فقرِّب اللهم ذلك على أسهل وجه ، وأقرب حين . ياذا الجلال والإكرام !

---

(١) بَخَعَ لى بالحق بُخُوعاً : انقاد ؛ بخع بالحق (من باب علم) : بخاعة وبُخُوعاً : إذا أقرَّ إقرار مُذْعِن بالغ جهده فى الإذعان به .

(٢) ص : على .

رسالة (و)

«وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ، وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ»[1]. يا هذا! أما تسمع هذا الخطاب بحضور بال، ويقظة فؤاد، وفكر ظاهر، واعتبار حاضر؟ أما تجد به ما يجده أهل البصائر من الازدجار؟ أما تستيقن به الارتحالَ عن هذه الدار؟ أما تعلم أنك متقلب بين هذه الأَوْزار[2] التى إن لم تسقطها بالتوبة عنك صِرْتَ حَطَب أهل النار؟ بلى، والله! إنك لتسمع هذا الخطاب وغيره من بدائع ما فى الكتاب، ولكنك بدنسك من الذنوب واحتفائك للعيوب، محجوبٌ عن كل غيب فى الغيوب. تسمع الحق بأُذُنٍ مجّاجة، وتعيه بقلب متخرق، وتتدبّره بعقل سادر، وتقرأه بلسان ألكن. والعجَب أنك أيها العالم الفقيه والأديب النحوى تتكلم فى إعرابه وغريبه، وتأويله وتنزيله، وقصته وشأنه، وكيف ورد، وبأى شىء تعلق، وكيف حكمه فيما خصَّ وعمَّ، ودلَّ [١٦ب] وشمل، وكيف وجهه، وكيف ظاهره وباطنه، ومشتَمَله ورمزه، وماذا أوله وآخره، وأين صدره وعَجُزُه، وكنايته وإفصاحه، وكيف حلالُه وحرامُه، وبلاغته ونظامه، وغايته ودرجته ومقامه، ومن قرأ بحرف كذا وبحرف كذا، — ثم لا تجد فى شىء مما ذكرتك به ووصفتك فيه ذرّة تدل على صفائك فى حالك وإدراكك ما لكَ، بل لا تعرف حلاوة حرف منها، ولا تزال موجوداً فيما دعيت إليه من أوساطها ونواحيها؛ فعلمك كله لَفْظٌ، وروايتك حفظ، وعملك

---

(١) سورة ابراهيم: آية ٤٧.

(٢) ص: الازورار.

Ritual powers

Raymond Jamous

M. E. COMBS-SCHILLING
Sacred Performances: Islam, sexuality, and sacrifice
377pp. New York: Columbia University Press. $31.50.
0 231 06974 X

Morocco is unique among North African countries, and indeed in the entire Arab world, in that its distinctive Islamic character has for many centuries been dependent on the institution of monarchy. Established in the ninth century by a Sharifian dynasty (in Morocco the term signifies descent from the Prophet) this monarchy has endured through a succession of tribally based dynasties from the eleventh century to the fifteenth and thereafter through two Sharifi lineages, the Sa'adians in the sixteenth century and the Alawites from the seventeenth century until the present day.

M. E. Combs-Schilling's ambitious book, which is based mainly on previously published sources, has three objectives. The first and most important of these is an anthropological analysis that attempts to show how the restored Sharifian monarchy equipped itself from the sixteenth century onwards with the values of Islam, maintaining the idea of nationhood through an array of religious and familial rituals.

The second objective is to achieve a historical understanding of the political economy of the Moroccan monarchy through analysis of its international economic and political context (rather than tracing the transformation of Islamic ideology). Having dominated the Western Mediterranean from the eleventh century to the thirteenth, Morocco, weakened by plague, was threatened in the fifteenth by European expansionism to the north and Ottoman power to the east. Without a solid economic base, Morocco was able to find in the Sharifian kings and their rituals a means to resist foreign aggression and to redefine nationhood in cultural terms. "Superstructural strength compensated for infrastructural weakness", writes Combs-Schilling, "and Morocco endured, and endures still." This astonishing claim amounts to proposing that a house may be built on a quicksand yet stand for centuries. Would it not have been more fitting to compare like with like, that is, to look at the political and religious organization of the earlier tribal dynasties that maintained the monarchy for five centuries during the Middle Ages in relation to that of the subsequent Sharifian dynasty?

The final objective of *Sacred Performances*, though, is both more universal in intent and more polemical. Throughout the book the author stresses the way in which the monarchical rituals of the Sharifia, as in other monotheistic societies, play on sexual difference and the role of the sexes in biological reproduction. Only man is in direct relationship with God; women occupy a subordinate role, their existence is ephemeral, part of nature.

These three aims result in three – conflicting – interpretations of the rituals in question. In the first case the accent is on their internal coherence, their power of integration; in the second on their capacity to compensate for economic, military and administrative weakness; in the third on their putative capacity to disguise the realities of power and to legitimate male domination.

The middle part of the book is the most original. The Sharifi kings, we are told, base their legitimacy on their descent from the Prophet, claiming title to the highest authority known to Islam, that of the Caliph. According to this argument, the special position of Morocco, a weak country particularly exposed to threats from outside, is somehow sublimated in this identification with the Islamic community. The author speaks of a return to "mainstream Islam" by the Sharifian kings, pin-pointing three kinds of "sacred performance" where the monarch occupies, directly or indirectly, a central role. The first is the Feast of the Birth of the Prophet, celebrated in one of the royal palaces, which affirms the king as a worthy successor of Muhammad and reinforces the unity and identity of the nation; the second, the marriage ceremony, in which every bridegroom becomes, symbolically, Sultan, ensures that all male Moroccans entering adulthood are able to define themselves in relation to this archetype and insert themselves into the existing patrilineal, patriarchal system. Combs-Schilling singles out a third ritual, the annual sacrifice of a sheep performed first by the king for the community at large and then by each of his subjects, of which she says,

> At the center of the Great Sacrifice is the metaphorically established equivalence of Ibrahim (the father of believers), Muhammad (the final prophet, the conveyor of the complete revelations), the Sharifi (the present guardian of the Muslim community on earth), local communal authorities, and the heads of individual households. All hold the same position within the ritual performance.

For believers these three figures all represent, in some sense, the archetypal man. Muhammad and Ibrahim, or Abraham, are the final referents in an analogy whereby the king, pre-eminent among the faithful, stands for the last of the Prophets and his subjects for the community of belief first established by Muhammad.

It is an intriguing interpretation, but one that provokes serious reservations. It is a pity that the author has not followed the lead of A. M. Hocart's magisterial *Kings and Councillors*, in which he argues that the act of governing and the violence visited by a monarch on certain of his subjects are rituals of the same order as animal sacrifice (in fact Combs-Schilling affirms exactly the contrary). Furthermore, if metaphorical equivalences are important in such rituals, equally important is the differentiation between the two poles of the relation, between Abraham and Muhammad and the king and his subjects. During the ritual moment one moves on from an earlier phase where such equivalences are not yet established to a later one where the participants are distanced from the original point of reference, where identification is suspended the better to appreciate the differences. During the marriage ceremony, for example, the husband-to-be is, initially, single; during the festivities he becomes, temporarily, a sultan-bridegroom; but afterwards he is just a married man, no longer equivalent to the monarch. As such he does not think of himself simply by reference to the figure of the Sultan, the archetype of manhood, he also has a status that is defined by his own community. The patriline he takes his place in is distinct from that of the sovereign: local social institutions are not a microcosm of the community of Moroccan Muslims symbolized in the figure of the Sultan. If it means anything to be a Moroccan, this identity must be located in the relation between these local levels of organization and the Sultan, in the similarities between them and the differences.

The notion of the return to "mainstream Islam" is also questionable. Kings of the royal line are not the only descendants of the Prophet. There is a vast literature on marabouts or saints from Sharifian lineages (some living, and enjoying local, tribal authority; some dead, the object of special cults, or the founders of religious brotherhoods) and their relation to the Sultan. By concentrating on the Sultan Combs-Schilling appears to make him the sole heir of the Prophet; she rejects too quickly Clifford Geertz's characterization of Moroccan Islam (in *Islam Observed*) as a "highly parochial . . . saint-centred complex of rules and worship called maraboutism". Must we choose, in discussing Morocco, between this view of its historical particularity and Combs-Schilling's vision of a universal Islamic community? Would it not have been more worth while to analyse the relation between these two sets of values, local and universal? The uniqueness of Morocco since the sixteenth century lies not in a hypothetical return to origins but in the way it has combined these various local forms of Sharifi Islam within a single natio■

Star qualities

Language of poetic mythology as the principal feature of the Romantic movement.

Romanticism Reconsidered

MLJ - V53 - D'69 - P567

WHR - V19 - Summer '65 - P273

A Study of English Romanticism

MLJ - V54 - F'70 - P131

- Modern Language Journal -

PB
|
M47

Frye treats Romanticism as a change in the language of poetic mythology, the change itself having been brought about by historical and cultural forces and events, the French Revolution.

In "Prometheus Unbound", or in the other essays Frye illustrates his thesis of a change in the

كله رفض ، وتبريمك كله نقض ، ودعواك كلها وقاحة ، وخُلقك كله وَتَاحة [١] ، وسِرّك كله خبيث ، وسيرك فى الباطل حثيث ، وجَهْرك نفاق ، وباطنك شقاق ، وذكرك حيلة ، وسكوتك غِيلة [٢] ، ومعاملتك اختلاس ، وأمانيك أدران وأدناس ، ووعظك خديعة ، واتعاظك ريح ، وبعضك غُثاء [٣] ، وكُلُّك هباء ، وعبادتك رياء ، وحضورك غيبة ، وآخر أمرك خَيبة ، كأنه ليس لك إلى الله أوبة ، لأنك بنيت أمرك كله على المكر والغِيلة ، وعلى الغش والمكيدة ، وعلى الهوى والمطمعة ، وعلى الخساسة والنجاسة ، وعلى الجهالة والنذالة ، وعلى طلب العاجلة دون الآجلة . فلاجَرَمَ بارَ سَعْيك فى حياتك التى لا تعود عليك ، وانبَتَر أملك فى كَدْحك بما لا ثمرة لك عندك . فما أشأم ناصيتك على نفسك ، وما أقلّ رحمتك لروحك ، وما أسخاك بحياتك فى كل ما يَضُرّك ، وما أطوعك لشيطانك ، وما أطوحك فى غَيّك وعُدوانك ! إن عدوّ الله لا يرضى منك إلا بالبعد عن باب الله ، وإلا بالخزى والهوان من ثواب الله ، وإلا بالمقت والخُسران عند ملائكة الله ، وإلا بسواد الوجه عند أولياء الله . يا هذا ! لو علمت ما قد نزل بك ، وما صُبَّ على هامتك ، وما أحاط بك من شقائك — لملأت الدنيا صُراخاً على نفسك ، وسألت النوّاحين أن يساعدوك بالبكاء على ما فاتك . أىُّ مصيبة [١١٧] أعظم من مصيبتك ، وأىُّ بلاء أعظم مما قد استولى عليك ! قلبٌ لا يهبُّ فيه نسيم الوَجْد ، وفكرٌ لا ينتهى إلى تمييز الباطل من الحق ، وعينٌ لا تترقرق بالدمع على الخدّ ، ورأىٌ لا يصح فى الوقوف عند الحد ، ونَفْسٌ لا تبالى بالهجران والصد ، ونصيحة لا تقبَل

(١) وَتُحَ ككرم وَتاحة : قلّ وصار تافهاً .

(٢) الغِيلة : الخديعة والاغتيال .

(٣) الغُثاء (كغراب) : الهالك البالى من ورق الشجر .

على ما فيها من الخير والرُّشْد ، وصديق لا يُشتكى إليه من شيء من هذا العناء والكد ، وصاحب لا يشاور فيما أشكل من هذه الحال فى القبول والرد .
ياهذا ! فُتِنْتَ بهذه الزينة الحائلة ، وذهبت مع هذه العاجلة الزائلة ، فلا نُجوعَ لقولٍ فيك ، ولا أثر لفلاحٍ منك . فاسكُب الآنَ دموعَك على هذه الحال التى قد حصَلْتَ عليها ، وشقّ عليك النزوع عنها . فإن الدموع المنحدرة على هذه الخدود النَّضِرة شفاء للأكباد المحترقة بالندامة والأسف . ألا ترى كيف يقول الأول :

لعلَّ انحدارَ الدَّمعِ يُعقِبُ راحةً
مِنَ الوَجْدِ أو يَشْفِي نَجِيَّ البلابل[1]

سار والله الرَّكْبُ المُجِبُّون ، وتركوك ، ونجا والله المُخِفُّون ولم يلْوُوا عليك ، وحمِد المُدْلِجون السُّرى[2] وبقيتَ تَعَضُّ أناملَك من الغيظ والأسى .
يا هذا ! قد كان القوم أناخوا عندك ، وسألوك الرحيل معهم ، وبذَلوا لك المعونة جُهْدَهم ، وقدَّموا لك راحلتهم ، وجذبوا بَضَبْعِك[3] طاقتهم ، ووعدوك أن يبلغوك غايتهم ، ورفقوا بك وبجميع ما كان عندهم ، ثم خوَّفوك الوحشة بعدهم ، والندم على ما يفوتك منهم ، فأبيتَ وتوانيت ، وجمحت وطَغَيْتَ ، وتعدَّيت وبغيت ، وتفردت برأيك ، وظننت ظنونا كلها عليك . فلما حقّت الحقيقة وجاءت المصدوقة ، أخذْتَ تلوكُ لسانك بالويل ، وتحُكُّ عينك بالإصبع ، وتقول : يا حسرتى على ما فرطت فى جَنْبِ الله .

---

(١) نجيّ البلابل : ماينا جيء المرء من الهموم . والبيت لذى الرُّمَّة . راجع ديوانه نشرة مكارتنى ص ٤٩٢ بيت رقم ٢ ؛ كمبردج، سنة ١٩١٩م / ١٣٣٧هـ .
(٢) مأخوذ من المثل المعروف : عند الصباح يحمد القومُ السُّرى .
(٣) الضبع : العضد .

هيهات ! هيهات ! والله لتصيرنَّ الحسرةُ على [١٧ب] صدركَ جمرةً من النار، تتوقد بالليل والنهار، إلاّ أن يقضى الله فيك، فما(١) أنت أهله. فإليه المصير يا هذا !

هَوِّنْ عليك وكُنْ بربك واثقاً   فأخو التوكل شأنُه التهوينُ
طَرَحَ الأذى عن نفسه فى رزقه   لمّا تيقّن أنه مضمونُ

يا هذا ! الحق أحقُّ أن يتبع، خير الأدوية ما نجع، خير الكلام ما نفع، خير الإخوان من رَدَع. يا هذا ! كيف أصف لك احتراقك في حالك، وتقلبك فى صروف زمانك، وخمولك بين خُلَطائك(٢)، وكسادك عند العارفين بك، وازدراء الصغير والكبير لك، وتقزز الرفيع والوضيع لك، وطرفهم المخفوض لك، وخيبتك منهم إذ [١] طمعت فيهم وانقلابك باليأس عنهم. وأنا فى أشباه ذلك ونظائره، بل فى دَواهٍ تزيد عليه وتُوفى، لو ترجمتُ عنها بكلمة عوجاء، أو رمزة هوجاء لضاقَ فىَّ الثقلان والتقى علىَّ الخافقان، فلا تكونن — عافاك الله — الذى وصفه الأوّل حيث قال له كلمة له :

أطعتُ مطامعى فاستعبدتَنْى   ولو أنى قنعْتُ لكنت حرّا

وما أحسن ما قال الآخر :

حتى متى يسترقُّنى الطمعُ   وليس لى فى الكفاف مُتَّسعُ
ما أوسع الصبرَ والقناعة   للناس جميعاً لو أنهم سمعوا
أما المنايا فغيرُ غافلةٍ   لكلّ حىّ من كأسها جُرَعُ

---

(١) كذا، ولعل صوابه : بما .
(٢) جمع خليط : أى صديق أو مرافق معاشر .

وإنما وَقَفْتُكَ على هذا السرِّ لأنَّ جميع ما يتشكّاه الناس رَجَع إلى الطمع والضَّرَع (١) . اللهم إنا نسألك أن تقطع مطامعنا عن عبادك بالثقة بموعودك ، وتكُفّ استشرافنا لخلقك بالرضا لمقدورك ، وتُضرِّم البُرَحاء فى شوقنا إلى ما قِبلك ، وتجعلنا من خاصتك ، وتأذن لنا فى وصفك ووصف ما ظهر بإرادتك ، وتحول بيننا وبين الالتفات إلى ما سواك بالإقبال على ما يُزْلِفنا (٢) عندك .

[١٨١] ياهذا ! لو ذُقتَ حلاوة عيشك مع ربك ، لعلمتَ أن كل ما عداها باطل ، ولو أشرفت على النَّعيم الذى أعده لخدمه لأيقنت أن كل شىء بعده زائل ، ولو علمنا إلى ما ننتسب لذهب الفخر < بنا > كلَّ مذهب .

بالله ، أما ترانى ! كيف أتراءى لك عياناً ، وكيف أتوارى عنك خبراً ؟ فلا عيانى يخبرك عنّى ، ولا خبرى يصدقك منّى ! خفِيتُ فى بدُوّى لأنى متقلّب فى حالى ، وبدوت فى خفائى لأنى متقلّب إلى أمرٍ عالٍ ، فإذا كلمتك بلسان الظاهر وفيتُ لك وخنتُ نفسى ، وإذا ترنمت لك بلسان الباطن جنيت لك وظلمت نفسى ، لأنى فى الأول هازل كجادّ ، وفى الثانى قابل كرادٍّ . فارحمنى إذا قلت ، وارحم نفسك إذا سمعت ، ومهما شككتَ فى شىء فلا تشكَّنَّ فى أمرك الذى خلُص لك وتنصل بك (٣) ، أعنى الرحيل عن هذه العَرْصة ، التى قد تجرّعتَ فيها ألوانَ الغُصّة ، إلى كنَفَ ربٍّ ، به وُجدت ، وبه عُرفت ، وبه حَيِيت ، وبه سعدت ، وبه عقلت ، وبه رَشَدت وبه أُكرِمت ، وبه أعطيت ، وبه حُرِمتَ ، وبه شُهِرتَ ، وبه سُررت ، وإليه نُسبت ، وإليه انتهيت ، وإليه سعيت ،

(١) الخضوع والاستكانة .
(٢) أزلفُ الشىء : قرّبه .
(٣) بمعنى : خلُص .

وإليه اشتقت ، وإليه سلكت ، وعليه توكلت ، وعليه تولهت . كنفٌ ما أوى إليه أحدٌ إلاّ وجد أماناً من البؤس ، كنفٌ ما سكنه أحدٌ إلاّ فاز بالرضوان ، كنفٌ ما شام برقه أحدٌ إلا وثق بالسحّ الدائم ، كنفٌ ما لاذ به أحدٌ إلاّ تُوّج بالعز ، كنفٌ ما استنشق هواءه أحد إلاّ وُقى كُلَّ سُقْم ، كنفٌ ما ألفه أحد إلا وثق بالكفاية ، كنفٌ ما اطلع أحد على ما فيه إلا سلا عن كل ما دونه ، كنفٌ ما سمع أحد بوصفه إلا هامَ عليه ، كنفٌ ما استقر فيه أحدٌ إلا اختلط بالربوبية . كنف العز والقدس والكبرياء والعظمة والقدر والحكمة والجود والمجد والجلال [١٨ب] والتكرمة والنعمة والبهاء والسناء ؛ كنف لا ظمأ فيه ولا جوع ، ولا نَصَب ولا تعب ، ولا قَذى ولا أذى ، ولا خوف ولا مرض ، ولا عُرْى ولا حاجة ، ولا مِراء ولا لجاجة ؛ كنف عرفه العارفون فهاجروا إليه ، وقضوا حياتهم فى طلبهم [١] ، وتعاونوا على قصده ، وصبروا على كل مكروه من أجله ، فعند ذلك ظفروا بحَبْرةٍ لا غَبْرَة [٢] بعدها ، ووُصْلة لا هجر بعدها ، وفَرْحة لا تَرْحة بعدها ، وأَمْنَةٍ لا خوف بعدها ، وراحة لا تَعَب بعدها . يا تجار الآخرة ! أبشروا بالأرباح الفاخرة ! يا مساكين الدنيا ، أبشروا عند المولى بالغنى والمُنى ! يا قُوَّام الليل بالأسحار ، أبشروا عند الله بمقامات الأبرار ! يا صُوَّام النهار فى الهواجر الواقدة ، أبشروا عند الله بالرضا والكرامة والعاقبة ! أيها المستجيبون لله فى هذه الأحوال الصَّعْبة ، أبشروا من الله بكل رغبة ليس معها رهبة !

يا هذا ! ارفُقْ بعباد الله إذا دعوتهم إليه ، وشَوِّقهم بالآية التى تتابعت على كل بعيد عنه وقريب منه ، ولا تعجب من قلة إجابتهم ، فإن تلك من قِلة

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعل صوابه : طلبه .

(٢) الحَبْرة (وبالتحريك) : النّعمة . والغبرة ضدها .

إخلاصهم فى دعائهم . واعلم أن ما تنطوى عليه من الحق هو الذى ينتشر عنك عند الخلق ، وما تنتسب إليه فى السّرّ هو الذى تدل عليه فى الجهر ، وما تتزوده فى الحضر هو الذى يُقدَّم إليك فى السفر . فانظر أين أنت فى دعائك إلى الله لعباد الله ، فإنك عن هذا مسؤول ، وبه مهجور أو موصول ، وله مردود أو مقبول ، وعلى قدره مَصُونٌ أو مبذول ، وبحسبه معمود أو مسلول ، وعلى حَكّه فى الحق والباطل محمول . عليك[1] الجهد فى إيقاظك إن كنتَ نائما ، وعليك الجهد فى التيقظ وإن كنت حالما . وعلى ذلك فلولا أن الله قد أراد بنا جميعاً الخير وعرّضنا للرشد ما أنطقنى لك بحرف [١١٩] ولا وفقك لاستماع حرف ؛ وقليل الصوب يَبُلُّ كما أن كثير القطر يسيل . وإنما قلت هذا اعترافاً بنعمة الله التى عرضتنا لهذا القول المختلف الوصل والقطع ، المؤتلف الرفع والوضع — والاعترافُ بالنعمة مَدْعاة للزيادة ، والزيادة موقوفة على الاعتراف والشكر عنوان ذلك ، ومن لحظ المنعم بنائله ، استغنى عن تلفيق اللفظ بلسانه . ألا ترى أن مصافحة الضمير بالوداد ، أبلغ من مصافحة اليد بالعِهاد ؟! فإذا وصفنا أنفسنا بالغفلة فقد دللنا على بعض الانتباه ، لأن الغافل لا يشعر بغفلته . فما أوجب الحمد فى هذا المضيق ، وما أنفع الشكر على هذا التوفيق ، وما أحسن الوصف بهذا التدقيق ، وما أبلغ اللفظ بهذا الترقيق ، وما أشرف المرمى بهذا التحقيق ! اللهم إنّا قد أَبْلينا وجُدّدنا فى محبتك ، وسافرنا وحضرنا فى طلب رضاك ، وقلنا وسكتنا واجدين بك ، وسَلِمنا وتَعرّضنا طامعين فى قَبولك ، وصَبَرنا وجزِعنا عند تصاريف قضائك ، وجُزْنا وعدَلنا فى مقاصدنا إليك ، وأصبنا وأخطأنا فى الطاعة لك ، وبالغنا وقصَّرْنا فى جميع أحوالنا معك .

---

(١) ص : على .

فنسألك بإلاهيتك المشتملة على عبوديتنا ، وبقدرتك المستوفية لعجزنا ، وبحكمتك المحيّرة لعقولنا ، وبرحمتك المتلافية لكل خلل منا — <إلا> أغضيت عنا ، وخففتَ علينا ، وقَبِلتنا على عَوارِنا [١] ، وصُنْتنا عن الشفيع إليك ، وأكرمتنا عن اليأس منك ، ياذا الجلال والإكرام !

رسالة (ز)

ياهذا ! بأى قوة أُنعِشك [٢] عن صَرْعتك وأنا على مثال حالك ؟ وبأى حجة أطالبك بالحق وأنا مطالب به فيك ؟ إلا إنى مع هذه الحال المنائة ، [١٩ب] ومع هذه القحة الظاهرة ، أقول قولاً صافيه لك وكَدَرُه علىّ ، إن قبلت وانتفعت ، وراجعت واستمعت ، واستقللت وارتفعت . ياهذا ! القول فى الجملة كثير مختلف ، منتشر مشتهر ، بقى أن يصادف قلباً عَلوقاً ونفساً عشوقاً ، حتى يعشش فيها تعشيشا ويريّشها تريبشا . وأيْن ذلك القلبُ ؟ وأين ملك النفس ؟ هيهات ! عميت الأنباء وخبَت الأنوار والأضواء ، وخَوَت [٣] السماء والأنواء ، وفُقد الصباح وأُدرك العشاء . فلا كبد إلا وهى مقرونة بالحزن ، ولا عين إلا وهى ذارفة عن القلق والفرَق . وعند الحقيقة لامَعاج [٤] إلا إلى الله ، ولا مُعرَّج إلا على باب الله ، ولاظن يَحْسن إلا بالله ، ولا أمل يصح إلا فى الله ، ولا رجاء يستقيم إلا فيما عند الله ، ولا خير يحق إلا عن الله ، ولا توكل إلا على الله ، ولا نجاة إلا برَوْح الله ، ولا أُنيس إلا بكرامة الله ، ولا مَنْفَذَ

---

(١) العوار (مثلثة العين) : العيب .

(٢) أى : أُنهِضك .

(٣) خوت النجوم والأنواء خيّاً : أمحلت فلم تمطر ، كأخوت وخوّتْ .

(٤) عاج : رجع ، عطف .

إلا بهداية الله ، ولا ظفر إلا بنصر الله ، ولا عِزَّ إلا بتعزيز الله ، ولا سُكْنَى إلا فى جوار الله ، ولا أَمْنَ إلّا فى حَرَم الله . ولا تَوجُّهَ إلا إلى كعبة الله ، ولا غنى إلا من خِزانة الله ، ولا فوز بالجنة إلا بتفضل الله ، ولا خلاص من نار الله إلا برحمة الله .

فاعلم علم[١] هذه الجملة تنل حقيقة التفضيل عند الله ، ودع قيل شىء وبَعْدَ الهوى ولا تتخذه شريكاً .

يا هذا تجمَّعْ عن تَفرُّقك ، وتفرّق فى تجمعك ! أتدرى ما أرى تفسير هذا اللغز ؟ أى : احضُرْ عن غيبتك ، وتغيب فى حضورك . هذا أيضاً لغز أنا أكشفه لك بما هو أبين ، فتَحلَّ منه بما هو أزين . معنى ذلك : انفِ عن سِرّك الهمومَ كلَّها حتى تنقى من كل دنس يكون فى الأسر ، ثم اخطب محلك من حضرة الحق بقبول ما يجود به لك ، ثم أفرغ كُلَّك فى شك هذه المنائح التى كلما جلوتها كانت أحسن وأبهى ، [١٢٠] وكلما عرضتها كانت أحلى وأشهى .

يا هذا ! أما ترى فنون الإشارة إلى غايات الحقيقة ، بصنوف العبارة عن الأركان الوثيقة ، دالّة على الآيات الأنيقة ، جامعة للآراء الرنيقة[٢] ؟ فجُلْ فى أطرافها طالباً نفسك فيها ، وغُصْ فى أعماقها محصّلاً لحقيقتك منها ، واجعل بوادى تباشير هذه الأحوال مادّةً لصبرك إن كنت مبتلى ، أو عِدةً لسرك إن كنت مجتلى ؛ وترنّح فى هذا الفضاء الذى قد انخرق لك من هذه الورقات التى هى ألف ورقة متنزَّها ، واقطُفْ من ثمارها ما تدلّى لك ودنا منك ، وتَرَشَّفْ

---

(١) ص : على .

(٢) رنق الماء : كدّره وصفّاه — ضد ؛ فالرنيق هنا بمعنى الصافى .

من عينها ماساغ لك وعَذُبَ فى لَهاتك . وإياك والشكَّ فإنه للقلب مرَض ، وللدِّين عرَض ، والخلق حرَض(١) . وإياك أن تريد إلا وأنت مريد ، فأما إذا كنت مُراداً فتجنب كل إرادة لك فإنها إرادة فيك . واجتهد أن تكون سابقاً متمهلا ، وإياك أن تكون سبوقاً متعجلا ، فإن ذلك عُنوان الفَوْت وآية الحسرة وعلامة الأسف . وامحُ عن سِرِّك الفكر فى كل ما كان أمسِ ، وصِلْهُ بمحو ما يكون فى غدٍ ، فإن ذلك أحضَرُ لبالك فى يومك وأدعى لك إلى إحراز نصيبك من وقتك . والوقت حادٌّ ، فكُنْ من حِدّته على حَذَر ، والحذر هنا أن توكل همك بالعلويات الأبديات الدائمات الباقيات الصالحات الناعمات ، فإن اعتلاق الهم بها استغراقٌ لمحاسنها ، وفى هذا الاستغراق تشبه كبيرٌ بمعانيها ، وفى هذا التشبه بروز بحقائقها ، وفى هذا البروز بحقائقها الفوز بنعوتها ، ومن نعوتها خلودها . فأى إشارة أخلص من هذه ، وأى عبارة أخلص من هذه ! قد صنع لك فيما نعم به عندك ، ولطف بك فيما عرض عليك ، فكُنْ لآلاء الله من الشاكرين ، ولفضله من الذاكرين [٢٠ب]. وزِنْ رجاءك بالخوف وزناً عَدْلاً ، ثم رجِّح الرجاء فإنه أدلُّ على كرم المرجوّ ، وقابل التوكل بالتعرض مقابلة صحيحةً ، ثم اجعل الرُّجحان فى جانب التوكل فإنه أشبه بحال العبد ، وأجِبْ عن مبدأ الوجد ، فإن(٢) كان من آثار الكون النائر الزائل الحائل فلا تَعُجْ عليه ، وإن كان من آثار العلوم الدائم الخالد فارْتَدِ به واتزر ، والتحف عليه ، وثق بأنك إذا أُهِلْتَ للتبختر فى هذه الساحة ، فقد نِلْتَ كلَّ لذة وأصبت كل راحة . وما أقرب هذا البعيد ! وما أسهل هذا العسير ! وما أشد استجابة هذا الوانى ! وما أسرع انحياش هذا النائى !

(١) الحرَض (محركةً) : الفساد فى البدن وفى المذهب وفى العقل .

(٢) ص : فإنه .

رسالة (ز)[1]

أيها الصاحب الغادى علىّ بخشوعه ، الرائح إلىّ بخضوعه ، الملتمس من الحكمة ما قد أفل نجمه ، وتصوّح نبته ، واجتُثّ أصله ، واقتُضِب فَرْعه ، ولم يبق لأهله مَسْكن إلاّ خَرِب ، ولا ماء تيمُّن إلا نضب ، ولا متاع إلا بار ، ولا ثمد[2] إلا غار ، ولا حى إلا مات ، ولا مطلوب إلاّ فات ، ولا باب إلا أُرْتِجَ ، ولا لسان إلا أُلْجِلَجَ ، ولا قول إلاّ بُهْرِج ، ولا مرعى إلا أُمْرِج[3] . فكيف صرت من بين هؤلاء وهذه الأحوال ؟ تسأل عن الأعمال وآفاتها ، وعن الأحوال وعاهاتها ، وعن الأخبار ونهاياتها ، وعن الأسرار وغاياتها ؛ وتلهج بالبحث عن الملكوت المحفوفة بالجبروت ؛ وتديم مسألتك عن كل ما كَمَن فى الشاهد ولاح فى الغائب ، وبرز بغوالب القدرة ، ونشأ عن سوابق العلم ، وتوارَىٰ فى أثناء الإدارة ، وجرى على المساءة والمسرة بالنقصان والزيادة . فإن كنت إنما تبغى — بسعيك وكَدْحك ، وإغلاقك وفتحك ، وإخفاقك ونُجْحك — حظاً من هذه الدنيا المشئومة ، فقد ساء نظرك لنفسك ، ورَدُّك اختيارك [١٢١] فى يومك وأمسِك ، ولم تُؤْتَ إلاّ من إطراد الله لك عن حضرته وإبعاده إياك عن خدمته . وإن كنت إنما تريد مباهاة لأبناء جنسك ، واستطالة على من يشير إشارتك ، وطلباً للعز عليهم فى دعواك ، فذاك والله أدلّ على أنك ممقوت عند ربك ، ومحجوب عن ودائع الله قِبَلَك ، ومحروم فى أوّلك وآخرك . وإن كنت إنما تحب أن يكون لك طرَب على ذكر الحق ،

---

(١) ورد هكذا فى الأصل ، مع أن هذا الحرف ورد رقماً للرسالة السابقة .

(٢) الثمد : الماء القليل .

(٣) أمرج الدابةَ : تركها فى المرعى تذهب حيث شاءت .

واشتياق إلى محل القُرْب ، والتقاط لما ينشر من العين المنبثة فى الخلق ، الكاشفة لسوْآت الصدق ، فأنت والله غريب فى حِلِّك ، وعزيز فى ذُلِّك . فما أحقّ جبهتك بالتقبيل ، وما أولاك فى تأميلك بالتنويل والتخويل . وكأنى بك وقد رُفع عنك الحجاب ، وصُيِّر ما أنت به وَلَهٌ عن العتاب ، وصُرِف عن بالك كوالح الاكتئاب وجوانح الارتياب . نعم ! وكأنى بك وقد وجدتَ نسيم الوصال ، وأغفيت من الإغماض والإيضاح فى طول هذا القيل والقال . نعم ! وكأنى بك وقد تجلّى عليك الملك برُتبته ، وسقيت من دفائن غيبه وشهادته ، وقيل لك : إرْوَ فطالما ظمئت ، واسْعَد فطالما شقيت ، واكتسِ فطالما عَرِيتَ ، وتنعّم فطالما ضنيت ، وابْقَ فطالما فنيت ، وانظر إلينا فقد تجلينا لك ، واتصل بنا فقد اتصلنا بك ، واشهدنا فقد أشهدناك ، واطمئنّ إلينا فقد قبلناك ، وتمنّ علينا فقد حكمناك بعيننا .

تقلبت فى فقرك وصبرك ، وبمشهد منا صبرت على بلواك ومحنتك ، ونحن سبكناك فى اختلاف أحوالك لتصلح لخدمتنا فى آخر أمرك . لم يغب عنا شأنك ، ولم يَخْفَ علينا سِرُّك وعلانيتك . لقد مضغتَ فى محبتنا الحنظل المُنَسّلَ ، واقتحمت الجمر المُسْعَر ، وغرقت فى البحر الأخضر ، وآويت إلى المزابل ، [٢١ ب] وأصبحت كَلّاً على كل كاهل . منعك خَلْقُ الكِسْرَة والحَشَفَة ، وحرموك الخِرقةَ والفَضْلَة ، وابتذلوك بأعينهم ، وآذوك بألسنتهم ، وطردوك من أقبيتهم ، وحقّروك بقلوبهم ، ونفروا منك لما قربت ، وتهلّلوا بسببك لما بعدت ، وسخروا منك عند قولك ، وأهانوك عند سكوتك ، وأنفُوا من مؤاكلتك ، وكرهوا أن يصلّوا معك إلى جانبك . وكنتَ إذا دعوتهم لم يلبّوا ، وإذا حدثتهم لم يجيبوا ، وإذا سألتهم لم يسعفوا ، وإذا حضرت مجالسهم لم يفسحوا . كل ذلك كان منا بمسمع ومرأى ، لم ينطو

عنا منه خردلةٌ ولا ذَرَّة . فقد اختبرنا صبرك ، وعلى ذلك أجرينا أمرك ، ومن أجله « رَفَعْنا لك ذِكْرَكَ ، ووَضَعْنا عنك وِزْرَكَ(١) » . فلا يهمنَّك ما كان ، فقد أفضيتَ إلى عِزّ جوارنا ، وصرت مكرَّماً لدينا ، مصْطَفى عندنا ؛ حكمك نافذ فى مُلْكنا ، وتولك مفتول على خلقنا ، وأَمَلُك مبلوغ بإذننا ، وأُنْسُكَ مُضاعفٌ بقربنا ، وجورك زائد بحبنا ، وكُلُّك منعم بنعيمنا . ولولا ما تجرعت من جَرَع البأساء والضراء لوَجْهنا ، ما كنت اليوم تصير إلى حظيرة قُدسِنا ، ولا كنت تؤهَّل لبسطنا وأُنسنا . ولو أن عبادى علموا ما أُرَشِّحك له وأسوقك إليه وألاطفك به وأنتهى به إلى أجره ، لصرت فتنة عليهم ، لأنهم كانوا يأخذون التراب من تحت قدمك ، ويكتحلون به عند الرمد ، وكانوا يَفْرُشُون لك الخدود حتى تمشى عليها ، ويهدون لك الأرواح حتى تتحكم فيها . إنما أخفيتك عنهم صبابة لك ، وشغلتهم عنك توقيراً إليك ، وعاتبتهم مع ذلك بسببك ، وقلت لهم : لم تحقرون أوليائى بالجهل ، ولم تزدرونهم بالكبر ، ولم تبخلون عليهم بالقليل ؟ أترون أنى زَوَيْتُ عنهم الدنيا وبسطتها عليكم ، لانحطاط قدرهم [٢٢ ب] ، وارتفاع قدركم ؟ إنما عَرَضْتُ بعضَكم لبعضٍ محنةً ، وجعلتُ بعضكم لبعضٍ فتنة . أردت بهم أنهم لا يطمئنوا إلى نعيم العاجلة فأَقْتَرْتُ رِزقهم ، وأوتحت(٢) من الدنيا حظَّهم ، وأحببت أن يلتثنوا فى كل حال يتعذر عليهم إلىَّ ، ويتوكلوا فى كل مايلتبسون به علىَّ ، وليجروا على تدبيرى فى توسعتى وتقديرى ، وأحببت لكم أن تُفيضوا عليهم مما أفضته عليكم ، فتكونوا مُنَعِمين بنعمتى ، وواهبين من فضلى ، لتحوزوا بذلك

---

(١) سورة « ألم نشرح » : آية ٤ ، ٧

(٢) وَتَحَه وأوتحه : أعطاه القليل ، أو قلل عطاءه منه .

مَرْضاتى ، وتستحقوا بها جوارى فى جناتى . فأما أوليائى ، فقد قطعوا أيام الدنيا بالصبر ، وانتهوا إلىّ بالطهارة ونالوا المُنَى . وأما أنتم فأوقرتم ظهوركم بالإثم والعُدْوان ، وأعظمتم الإساءة إلى أنفسكم بالمنع والحرمان ، فهلموا إلينا بالمعذرة إن كانت لكم ، وهاتوا حجتكم إن كانت معكم ، وإلاّ فبعداً وسُحقاً لأمثالكم .

يا هذا ! إلى ها هنا امتدّ نَفَسى فيما بدأت به من إيقاظك وزَجْرك وتنبيهك . وقد قيل : كلام الحكماء إذا كان صواباً كان دواءً . وصوابُ ما سمعتَ غيرُ خافٍ ؛ فإذن هو دواء ، وأنت بك داء ، فاجعله دواءً لدائك ، فعن قليلٍ ما تصير إلى شفائك . قد مضى هذا الفصل على ما تجده فى نفسك ، أو على ما تجده نفسك فيه . بقى الآن أن نتحول عنه إلى غيره ليكون لى فى القول ولك فى الاستماع طُوفان فى أرجاء الحكمة ، ومثاقفة [1] فى ميدان المعرفة ، واختطاف من بروق الربوبية ، وانصراف من عوائق العبودية ، واعتصام بعلائق الخصوصية ، وامتطاء لظهور البشرية ، وأخذ بالتحرّم [2] فيما عاد بالأنس والراحة والأمل والأمنية . فنقول وتسمع ، ونُصرح فتفقه ، ونُكَنِّى فتنقه [3] .

يا هذا ! حَدِّثنى الآن عَنِّى ، واسمعنى منى ، [٢٢ ب] وأَزِلّ حواشى حَدْسى وظنى ، واثبتْ لأصناف فنٍّ وعَنِّى . فقد قابلتك بوجهٍ وَقاحٍ ، وناقلتك بلسانٍ نوّاحٍ ، ووقفت فى حالى بين رجاء إذا أَنِستُ به يئست منه ، وإذا

---

(١) ثاقفه فثَقَفه (كنصره) : غالبه فغلبه فى الحذق .

(٢) التمنع والاحتماء .

(٣) نقه الحديثَ (كفرح) واستنقهه : فهمه .

استوحشت منه رجعت إليه ، وأنا فى عُرْض ذلك لا أدرى كيف أُبْرِد غُلّتى وقد حرّت ، ولا أدرى كيف أُخمد جمرتى وقد التهبت ، ولا كيف أُسكّن زفرتى وقد توالت ، ولا كيف أُنفّس كُرْبتى وقد غالت ، ولا كيف أكُفّ عبرتى وقد سالت ، ولا كيف أُصرِف حيرتى وقد استرسلت : فدائى من دوائى ، وعلّتى من طبيبى ، وبلائى من نعيمى ، وفنائى من حبيبى . وهذا لأنى فرغت من ظاهرٍ قد حُشِى بالشرور إلى باطن قد غُشّى بالغُرور ، فلم يكن فى هذا مَقْنَع ولا إلى ذاك مَرْجع . بقيت والله بين الباب والدار ، يعللنى النسيم إذا رَقْرق ، ويؤنسنى البرق إذا بَرق ، فأقول :

أصاحِ ألم تحزِنْك ريحٌ مريضةٌ ... وبَرْقٌ تلالا بالعقيقين لامعُ
فإن غريبَ الدار مما يَشوقُه : ... نسيمُ الرياح والبروقُ اللوامع

فهذا شدوٌ من حديث إن تُجُوذِبَ طرفاه لم يلتقيا إلى آخر العمر ، ولكن على كل حال قد تذكرنا به شجواً ، وتطلبنا منه صفواً ، وإلى أن ينطق مِزْهر الحق بلسان الصدق فلى ولك به متعلَّل من أفانين ما يُتضايق به ويُتعاشر عليه ، ومن ضروب ما تستغيث منه ثم تفزع إليه . وكيف نبرأ من هذه الأمراض ، وقد نبتنا فى معادن البَلاء ، ودعينا فى بلاد الفناء ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ! هذا صحيح ، لا محيص بالصبر ولا بالجزع ، ولكن بلطفٍ مِنْ عند مَنْ كان به الجزع وله كان الصبر ، فإنه إذا بدت ذرة من عنايته أغنت [١٢٣ ا] عن الجزع والصبر ، وطمست آثار الحجة والعذر ، ورفعت من هذا القطر إلى القطر ، فاستنارت الأشياء المظلمة ، واستبانت الأمور المُبْهَمة ، وتحللت العقود المُبْرَمة ، وتسلّت النفوس المغرمة ، ووُجِدَ ما كانت الأمنية لا تسرى إليه والتحكم لا يطلع عليه ، وصار الخشن ناعماً واليابس

لدنّا ، والقفا وجهاً ، والمعدوم موجوداً ، والبعيد قريباً ، والنازل صاعداً ، والمختلف مؤتلفاً ، والكثير واحداً ، والغائب شاهداً ، والصادر وارداً ، والدّائمُ حامداً ، واللاّهب خامداً ، وتناغت الأشياء بلغة عجماء ولكن مفهومة ، وتلاقت الأحوال بملابس الإيضاح ولكن مكتومة . فهاتِ الآن : أين الجيب الممزق على هذه الأشجان ، وأين الذيل المجرور فى هذه الأوطان ، وأين الخد المخموش على فوت ما بين هذا الخبر والعيان ، وأين الكفُّ المبسوطة إلى هذه الأغصان ، وأين القامة المتطاولة إلى هذه الأعيان ، وأين العلامة المذكورة بهذا الشأن بين أهل هذا الشان ، وأين سر هذا الحديث من علانية مَنْ يقول كان وكان — لا أين ، ولا من يقول : ولا أين اﻫ .

يا هذا ! هذه نبرات قومٍ عن هواجس قد جادها الحق بصور الاختصاص ، فتهامسوا بينهم فى أوقات كان لمتولّيهم فيهم تصرف بحقّ إبداء العين وذمام إنشاء الكون ، فتخافتوا بها متهاجرين ، ونَبَروا عن حقائقها متحاجزين ، وعادوا على سرائرهم مع خلواتهم لميعادهم متناجزين . فإن كنت تعرفهم أو تفهم عنهم ، فاذنُ منهم ، ونوّر قلبك برؤيتهم ، وغامِس روحك فى غديرهم ، وارتَعْ فى روضتهم ، واعتبق بذكاء طِيبهم ؛ وتعلّق بفضل عطافهم ، وتعزّز بذكر أسمائهم ، واصبغ ظاهرك وباطنك بصفاتهم [٢٣ ب] . وإلا فالحذرَ الحذرَ ، فإنك إن دنوت من نارهم جاهلاً بأسرارهم احترقت احتراقاً تعود عنه رماداً . اللهم لولا إغضاؤك عنا فى وصفك ، ولولا سترك علينا فى ذكرك ، ولولا رفقك بنا فى الدُّعاء إليك — لكنا هالكين ، لأنا نَصِفُك صِفَةَ العارفين ، ونعبدك عبادة الجاهلين ، ونذكرك ذكر الحاضرين ، وننساك نسى الغائبين ، وندعو إليك دعاء الناصحين ، ونستجيب لك استجابة الغاشين . فنسألك — بفضلك ورحمتك — أن تسمح لنا وتسامحنا حتى ننتهى إلى رِضوانك وإلى غفرانك . على أنّا لا ننال رضوانك

إلا بغفرانك ، ولا نملك غفرانك إلا برضوانك ، يا أعز من دُعى وأكرم مَنْ أجاب ، يا أول ، يا آخر ، يا ظاهر ، يا باطن ، يا غائب ، يا حاضر ، يا جابر ، يا كاسر ، يا شاكر ، يا عادى ، يا هادى ، يا ناصر ، يا قوى ، يا قادر ، يا وارد ، ياصادر ! نسألك لطائف صنعك وغرائب لطفك ، حتى نجول فى أكناف مملكتك ، متصرّفين بأدبك ، جادّين بإطلاقك ، قائلين بإنطاقك ، حائلين عن مساخطك ، متطلبين لمراضيك ، موحّدين لك ، عارفين بك ، قارّين معك ، قانتين لك ، متوجهين نحوك ، نازلين فى خِططك ، جانين من ثمار كلامك ، واجدين غيب ربوبيتك . اللهمّ إنك أنت مُفجّر عيون القلوب ، وأنت المُطهّر لما فى العيون ، وأنت الواهب لما تَشِحّ به النفوس ، وأنت القابل للبرّ المحسوس ، وأنت القائد إلى المحل المأنوس . فبتفردك إلاّ أفردتنا ، وبعزتك إلاّ أعززتنا . إلهُنا ! إنا نقول ما نقول عن عِىّ وحَصَر ، ونتطاول ما نتطاول عن قماءة وقِصَر ، ونطلب ما نطلب من حاجة وفقر ، ونحمل ما نحمل على قدر الوسع والطاقة . فاجبُرْ كل نقيصة لنا ، وارفع كلّ خسيسة منا ، وأيِّدنا منصورين ، وانصرنا مؤيدين ، وعلّمنا اسمك الأعظم [١٢٤] حتى ندعوك به ممجّدين ، ونتقرب إليك به مُقدّسين . ومهما فعلتَ بنا فلا تفضحنا على رؤوس الأشهاد ، ولا تزعجنا عن وثير المهاد ، ولا تَبْلُنا بعواقب العناد ، يا ذا الجلال والإكرام ! إنك رؤوف بالعباد .

رسالة (ح)

اللهم ! كَثُر غلَطُنا فينا ، وطال لغَطُنا علينا ، واشتد الضعف بنا ، ونادى منادى العز بذّلنا ، وذلّ ذليل الهتْك على فضائحنا ، وامتدت حيرتنا فينا ، وترادفت حسْرتنا منا ، وارتد نظرنا إلينا ، وشَمِت بنا عدوُّنا ، ووجد

السبيلَ نحونا حاسدُنا ، وأصبحنا بين خلقك ملحوظين ، وبالمقت والشنآن موظوبين (١) ، وبالقسوة والعدوان مقروفين (٢) ، بالكذب والبهتان . اللهم ! فَجُدْ علينا منك ما يُسَلِّينا عما حرمتنا منهم ، ومَيِّزْنا بلطيف لطفك عنهم ، وعزِّزنا بعزيز عزِّك حتى لانرى عز العزيز بغير عزك ، وعَدِّ همنا إليك ، واصرف مُهِمَّنا عما لديك ، وافعل معنا فى الآخر نظير ما بدأت به فى الأول ، إنك المجيد الكريم ذو الفضل العظيم .

يا هذا ! إنى أرى ما ترى ، فهل ترى ما أرى ؟ أم أنت من هذا الورى نديم السُّرَى ولا تحمد صباحَ المَسْرَى ؟ أرى جملةً أنوارُ الخلق عليها ساطعة ، وأخبارُ الخلق عنها قاطعة ، وذلك أنها تُضْحِي مصدوقة بلسان التزويق ، وتُمْسِي مكذوبة بلغات التحقيق ، تمرّ فى التهم كالريح ، وتقف حَرُوناً (٣) فى مساكن التطويح ، متوقعة لعلامات التصريح ، أو أمارات التلويح . ومن أعاجيب نعتها ، فى كل مكانها ووقتها ، أنها تتحرك على نفسها ، وترى الزيادة فى نقصها . إن فعلت فعلت سَرَفًا ، وإن تركت تركت صَلَفًا ؛ إن نطقت نطقت تمويها [٢٤ ب] ، وإن سكتت سكتت تيها ؛ إن أمنت أمنت اغتراراً ، وإن خافت خافت اعتذاراً ، وإن أبت أبت اقتداراً ، وإن أجابت أجابت اضطراراً ؛ إن أَلِفَتْ ألفت إغلالا (٤) ، وإن مَلَّتْ ملت استلالا ، إن طَمِعَتْ طمعت مصانعة ، وإن تسلَّت تسلت قانعة . ثم إنها

---

(١) يقال رجل موظوب : أى تداولت النوائب ماله ؛ ووظب عليه داومه ولزمه .

(٢) قرفه بكذا : اتهمه به .

(٣) الدابة الحرون هى التى إذا استُدِرَّ جَرْيُها وقفت .

(٤) أى خيانةً ، من أغلّ إغلالاً : خان .

لا تجد مصحوبها مع اختلاف فنونها إلا علة لها ووبالاً عليها وأخذاً فيها . هذا طَرَفٌ من شأنها . فأما ما يتفصّل منها وينفصل عنها ويتصل بها ويصل إليها فهو يدلّ عن خلس الطرف ، فضلاً عن تصوير ذلك بحرف بعد حرف ؛ عين ترود للقلب ، وقلب يتلوى بأحكام الكرب ، وشوق يوهن أركان الجسد ، وتيه يهيج الحاسد على الحسد ، وينفث النفّاثات فى العُقَد ؛ ونفس لولا طروق الخيال بنواحيها لكانت تزهق ، ورُوحٌ لولا إلمام المنى بحواشيها لكانت تُزْهق ، وحال لولا تكفُّل المولى بنظامها لكانت تمحق ، وحُشاشة لولا صنع اللطيف بها لكانت تحترق . فها أنا قد سبحتُ فى لجة الأفكار ، وصرت منها إلى نوع من القلق :

أضمرتُ نَفْسِىَ فى نَفْسِى كما انطبقت
أجفانُ عينى على الأشفار والحَدَقِ
إن رُمْتُ إدراكَه عَزّتْ موارِدُهُ
وإن قَصَدْتُ خَلاصاً منه لم أُطِقِ
أُحَدِّثُ النفسَ أن القُرْب يُؤْنِسنى
وإن وصلتُ إليه هِمْتُ مِنْ فَرَقِ
لا تعجبن فإنى قد ذَهَيْتُ[1] كما
يُذْهَى سوادُ الدجى من شُقْرة الشَّفَقِ

اسمع حديثى ، وخُذْ من طيِّبى وخبيثى : أشهدَنى الأكوان مزخرفة بأخبار وأعيان ، فتلقلنى من بها تشويقا ، ثم حلْحلَنى[2] عنها توفيقا ، ثم لم ألبث

(١) ذها : تكبّر .
(٢) حلحله عن موضعه : أزاله عنه .

إلاّ هُنيهة حتى أدمجنى فيها وأدرجنى معها . فلما تَسَبْسَبْتُ(١) هناك قليلاً فتحتُ بصراً [١٢٥] كليلا ، وجرّرت حبلا طويلا ، فرأيت هنالك خَلْقاً يعشق خَلقاً ، وَخُلُقاً يقتضى خُلُقاً ، فطلبتُ فِرْقاً فلم أجد فَرْقاً ، ثم أسندت إليه تهاويله وأفاعيله تملساً من إضافة الملك ، وخيفة من مواقعة الهُلْك ، فسلّط على ألسنة مُقَرِّعة بالتقصير ، وأظهر لى أهوالاً مُرَوِّعة بالتنكير ، حتى كأنى نَبَوْتُ عن الكون نُبُوّاً ، وسموت عليه سمواً . فلما أخذ بمُخَنَّقى فى هذا الوقت ، ومنعنى من أن أهتف أو أكشف ، عطفت لائذاً بالاسفار عما دهانى به الاستتار . فلما رآنى كذلك حبسنى فى نفسى ، ودفننى فى رمسى ، وسلبنى روحى وأنسى ، وغيّب عنى قمرى وشمسى ، وحسم حِسّى عن غدى وأمسى ، فقلتُ بلسان العدم : يؤوّلىّ القدم ! أمعاقب فى عشقك أنا ؟ قال : بل معاقب أنا فى صدقك فى عشقك . فقلت : سيدى ! فهل وراء الصدق غاية ، أو هل فوق العشق نهاية ؟ فقال : نعم ! غيبتك عن صدقك برؤية صديقك ، وعُزوبك عن عشقك باستيلاء عشقك . فعندها صرخت مستغيثاً وقلت : فما حيلة من إن أدنيته أبليته ، وإن أخفيته جلّيته ، وإن غرّبته حلّيته ، وإن واريته أريته ، وإن سكّنته هيجته ، وإن قيدته أمرجته(٢) ، وإن آويته أزعجته ، وإن أردته أدرجته ، وإن مقّته استدرجته ، وإن أرويته أعطشته ، وإن ترائيت له أدهشته ، وإن أحوجته خيّبته ، وإن أطلته غيبته ، وإن استدعيته سبيْته ، وإن حركته وَتَفْته ، وإن سترته كشفته ، وإن أمّنته خوفته ، وإن حرمته أسعفته ، وإن سكّيته شغفته ، وإن أتحفته أتلفته ،

(١) تسبسب الماء : جرى وسال .

(٢) أمرج الدابة : تركها تذهب حيث شاءت .

وإن أتلفته شرّفته . فكل الذى منك به عجب ، وكل الذى بى منك شجب ، ولا غير له فما هذا الخبر ، وليس غيره فهل من أثر ؟!

يا هذا ! زيّن حقيقتك بالحق كما تزين ظاهرك بالخلق ، ولا تجهل [٢٥ ب] صِرْف ما بين الزينتين ، فإن إحداهما ظل الأخرى ، والشخص أشرف من الظل لأن الظل تابع له ومنبثٌ عنه ، والظل لا يكون إلا للشخص ، وقد يكون الشخص ولا ظِلّ .

أدرِك الإشارة المدفونة فى العبارة ، والإيحاء الذى فى الإيماء ، والإيماء الذى فى الإنباء ، والإنباء الذى فى الإغراء ، والإغراء الذى فى الإسراء ، والإسراء الذى فى الإيفاء ، والإيفاء الذى فى الإبراء ، والإبراء الذى فى الإشفاء ، والإشفاء الذى فى الإغفاء ، والإغفاء الذى فى الإلفاء .

أما الإشارة المدفونة بالعبارة ، فهى التى تجافت العبارة عنها لأنها استصحبت تركيب الحروف ، ولطفت الإشارة عنها لأنها تنزهت عما يتحكم فى الأسماء والأفعال والظروف . وأما الإيحاء الذى فى الإيماء فسرٌّ حَرُم إعلانُه فى الثانى لما وجب كتمانه فى الأول . وأما الإيماء الذى فى الإنباء فلمشافهةٍ بدت فى عرضةٍ من الحق . وأما الإنباء الذى فى الإغراء فلا يرتقى حتى تكون مناراً للخلق . وأما الإغراء الذى فى الإسراء فلمحو ما دون الأول توحيداً للأول . وأما الإسراء الذى فى الإيفاء فليُذلّل السبيل لسالكيه إلى المحل الأعلى . وأما الإيفاء الذى فى الإبراء فليصحّ الطلوع على المراد بلا حاجز يُؤذى ولا ظن يَقذِى . وأما الإبراء الذى الإشفاء فليعتدل التقاتل من أجله[1] الذى همت الدموعُ بالعرق[2] والتهبت الضلوع

(١) كذا ولعل فيه تقديماً وتأخيراً أصله : التقاتل الذى من أجله همت …

(٢) كذا ، ولعل أصله : الغُرَق جمع غُرْقه ، مثل الشربة من اللبن .

بالحَرَق . وأما الإشفاء الذى فى الإغفاء فهو من باب اللطيفة التى طال فى الفحص عن حقيقتها الخوضُ ، ونَضَر من أجل الإقبال على معرفتها الروض . وأما الإغفاء الذى فى الإلفاء فالعجيبة التى حار بسببها البصر وعُدِمَ على ذلك كل وزر عصر . هذه جُونةٌ لا يفتحها — عافاك الله — هؤلاء العطارون ، أعنى الذين بِعرَقهم يَسْهَكُون (١) ، ويدفأون ويسخنون ، ويَرْقون ويركبون ، ويمزجون ويخلطون ويغلظون . هذه جُوْنة (٢) لا يملكها إلا العارفون ، ولا يتطيب منها إلا الواجدون [١٢٦] ، ولا يظفر بها إلا الواصلون ، ولا يتجر منها إلا الغرُّ المحجلّون ، ولا يعبق بريحها إلا الأفراد الموحّدون : وَحّدوا فوَجدوا ، وتوجّدوا فاتحدوا اهـ .

يا هذا ! أين نحن ؟ حدثنا عنا فقد طحنا . ما هذا ، وليس لنا من هذا الديوان إلا الحديث ، ولا من هذه الجُونة إلا الخبر ؟ فكيف بنا لو عاينا هذا المخبر ، وشاهدنا هذا المنظر ، وقطعنا هذا المِعْبَر ، وظفرنا بهذا المحبر ! الله أكبر ! الله أكبر ! من أحبنا أفلس ، ومن أبغضنا توسوس ؛ هذا سرورنا ، من شاء يلومنا . هذا غداؤنا وعشاؤنا ، فليكمد حُسّادنا وشُنّاؤنا (٣) اهـ

يا هذا ! خلِّ جنبيك لرامٍ   وامضِ عنه بسلام
مُتْ فداءُ الصمت خيرٌ لك من هذا الكلام

أتدرى بأى شىء أولعت ؟ أتعلم عمّن أخبرت ؟ أتشعر بمن عرفت ؟ ألك خبر عمن هو أوّلك وآخرك ، وغائبك وحاضرك ، ومطلقك (٤) ، ومفرقك وجامعك ،

---

(١) السَّهَك : ريح كريهة ممن عَرِق ، والفعل سهك من باب فرح .
(٢) الجونة بالضم : سُلَيْلَة مغشّاة أدماً تكون مع العطارين .
(٣) جمع : شانىء .
(٤) كذا ولعل هنا نقصاً .

وضارك ونافعك، ومُغرِّبك ومُبْعدك، ومصوِّبك ومصعدك، وفاتقك وراتقك[1]، وظاهرك وباطنك، وخافيك وعالنك؟ بل هل لك خبر عمّن كأنه أنت وليس بك، وكأنك هو ولست به؟ بل فيك منه، وعليك عنه، أعنى كأنه أنت لما دعاك واجتباك، وخاطبك وناجاك، ووفاك حقك واصطفاك؛ — وليس بك، لأنك مع الغنى محتاج، ومع الاعتدال منعاج[2]؛ — وكأنك هو لأنك متطاول إلى نعوته، وشديد العشق لمشافهته باقتناء المعارف، والصبر على المخاوف، والتعرض للمتالف؛ — ولستَ به لأنك مع هذا الجهد المبذول ترجع إلى حد مرذول، وتتميز بشكل ليس له قَبول. بل فيك منه، لأنه لولا منائحه[3] قِبلك ما عرفته، ولولا أنك عرفته ما وصفته، ولولا أنك وصفته ما اشتقت إليه [٢٦ ب]، ولولا أنك اشتقت إليه ما تهالكت عليه. وفى الجملة، لولا أثره فيك ما عرَفْت نفسك عن سواه، ولا ذوّبت كلك فى هواه. وهكذا عليك عنه لأن الآثار فيك بيّنة، والأخبار عنك متظاهرة — أعنى بالآثار ما أنت به خَلْق، وأعنى بالأخبار ما أنت به رب. فالحظْ الآنَ هذه الأسرارَ بعين لم تخلق من لحم، ولا رُكّبت من شحم، ولا جُعلت على طبقات، بل بعين — إلا أن هذه بالإطلاق فى حالَىْ الغنى والإملاق — هى العين التى سحرت العيون، هى العين التى نضبت من أجلها العيون، هى العين التى بها جرت العيون، هى العين التى لها دمعت العيون، هى العين التى اغرورقت عند ذكرها العيون، هى العين التى فاضت منها العيون، هى العين التى انتهت إليها العيون،

---

(١) ص: فاتقك وأرتقك.

(٢) أى مُعْوَجّ.

(٣) جمع مَنيحة: أى نِعَم وهبات.

هى العين التى ليس لها جفْن ولا أشفار، ولا حجاب ولا طرف ولا اختلاج ، هى العين التى غضّت لها العيون حياء ، ثم حدّقت العيون نحوها استجلاء .

يا هذا ! كم تعذبنى وتؤذينى ، وتحجبنى عن مصالح شؤونى ، بشرح فتونى وفنونى ! والله ما تحل لك ، ليس هذا من حق الصحبة ، ولا من ذمام العشرة ، ولا من حسن العهد فى الصداقة . أبقِ عَلَىَّ لى ؛ وإلاّ فأبقنى لك . ما هذه المطالبة الشديدة ، وهذه الهزة المتلذة ، وهذه الفظاظة المستعملة ، وهذه القسوة المتكلفة . أرسل حافى (١) واطلب منى ما أملك ، ولا تَشُقَّ علىَّ فلست من حجر ولا من حديد . « كم تحملون على ضعفى فأحتمل » . تستنطقنى فى المعرفة ، وتحوّلنى إلى التوحيد ، وتحاذّنى فى البيان ، ولا تقابلنى بالرفق ، وتجرى كأنك جواد ، وتقف كأنك كودن (٢) ، وتوهم كأنك حر ، ثم تعجز كأنك عبد ، وتَمُدُّ باعك إلى ما يقصر عنه ، وترمى بوهمك إلى ما يُفْرَق منه .

ما هذا بالرأى السديد ولا بالهدى الرشيد ، ولا بالحزم الجميل ، ولا بالعزم المهيد . سَلْ — هداك الله — عن آفات الأعمال ، وعن وساوس الضمير ، وعن فلتات الجوارح ، أعنى اللسان عند انطلاق لفظ ، واللحظ عند [٢٧ ا] تسريح لحظ ، وما شاكل ذلك من جِلسة غير لائقة بالعبد ، وتُكَأة غير مستحبة من ضعيف ، ومن رقدة فى غير حينها أو فى غير مكانها ، أو من أدب قد ساء ، ولا بُدَّ من الانحراف عنه والرياضة دونه عن نيةِ التائث فى العبادة ، وعن حال رائث فى تحقيق الزّهادة ، ونسل عرَض فى طلب الزيادة .

(١) كذا ولعلها : حسابى .
(٢) الكودن والكودنى : البغل والبرذون .

فأما المعارف والإلهيات وما هو فى حوزتها ويجرى فى جملتها فما يحل أن تكابر فى عليها ، ولا أن تجاذبنى إليها ؛ ولا يحل لى أيضاً أن أعقد بينى وبينك جسراً من الحياء فتتعابر عليه على وقاحة لا تليق بنا فى السؤال والجواب . لم لا نقبل على أنفسنا فنقوّم منها ما قد انآدّ من هذه الأخلاق الفاسدة ، والعادات الخبيثة ؛ حتى إذا نقّينا من أدناسها ، واستضأنا بأقباسها ، وتلهّينا بأنفاسها ، واختلطنا بناسها ، حينئذ نروم من هذا الحديث حرفاً بعد حرف على طريقة أهل الأدب الحسن ، وعادة ذوى الحِكَم والفِطَن ؟ اللهم قيّض لنا منك ما يقفنا على صراطك المستقيم ، ويؤمّننا من الزلل فى سواء الجحيم . قدّر يا قديم ، يا حليم ، يا كريم ، يا ذا الجلال والإكرام !

رسالة (ط)

اللهم ! روّح صدورنا بنسيم ودّك ، واغمر أرجاء قلوبنا بغوامر من رِفدك ، وأذِقنا حلاوة برّك ، وملّكنا مقاليد ملكك ، وجُد علينا بك ، وخلّ بيننا وبينك ، وجلّ أبصارنا إليك ، واغضض أعيننا عن غيرك ، وأسلفنا كرامتك ، وسهّل مقادتنا فى الإيجاب لك والاستجابة لك والصبر معك . واجعل أرواحنا مغارس معرفتك وألسنتنا قواطف وصفك [٢٧ ب] ونعتك فى قدرتك وحكمتك ، وإذا عطشنا فروّنا ، وإذا ضعفنا فقوّنا ، وإذا اعوججنا فسوّنا ، وإذا ضجرنا فآونا ، وإذا اعتللنا فداونا ، وإذا كدرنا فصفّنا ، وإذا دنسنا [اسنا شا][1] فنقّنا ، وإذا فسدنا فاستصلحنا ، وإذا أنكرناك فعرفنا ، وإذا جهلناك فعلّمنا ، وإذا تعسّرنا عليك فسهلنا ، وإذا افتقرنا فأغننا ، وإذا بنّا منك

(١) كذا ، ويلوح أنه خطأ مضروب عليه .

فصلنا بك ، وإذا التوينا عليك فقومنا لك . أيها الصاحب المؤثر للطائف البر ، الكاتم لغوامض السرّ ، الحافظ لأعيان الغيب ، الطاهر من أدران الريب ، الشاكر على اليسير من النعمة ، الراعى للقليل من الحرمة ، المتمكن فى درجات المعارف ، المنجوُّ من سكرات المتالف ! متى انفتح بصرك لطلب حياة نفسك ، وانشرح صدرك فى تعرف كمالك وفضلك ، وانجاب عنك غبايتك ، فبدت لروحك منك غايتك ، وحنَّ فؤادك إلى الفحص عنك بما يحقق يقينك ، ويجمع لك صفتك ، ويحرس عليك سَمْتك ، ويوجدك بك ، ويصفيك منك ، ويبوئك لمن هو أولى بتصريفك ، وأملك لتصريفك ، وأعلم بصرفك ومتصرفك — فقابل ذلك كله بالقبول ، واستعِنْ عليه بالصبر ، وصِلِ الصبر بالاستسلام ، وامزُج الاستسلام بالتوكل ، وحَلِّ التوكل بالمحبة ، وثبِّت المحبة بالصدق ، وجُل فى أثناء الصدق بالاخلاص ، ومُجْ فى الإخلاص بالوجد ، وجُدْ فى الوجد بالموجود ، فهناك مكانك ومَعانك(١) ، وهناك سِرارك وعِلانك ، ونكرانك وعِرفانك ، وولايتك وسلطانك ، وحجتك وبرهانك ، وهناك أنت أنت سلالة المعرفة ، ومُصاص(٢) التوحيد ، وصفو الحق ، [١٢٨] وعين العين وكنه الكُنْه ، فلعلك إذا شخصتَ عنك بانسلاخك ، وانسلختَ منك بشخوصك ، وباينتك مباينة ، وعاينتك معاينة ، وكنت فيما كنت غير كائن تصلح لمنادمة من هو أولك وآخرك ، وتؤهل لمواصلة من هو وليُّك وناصرك .

هذا ذَرْوٌ من النجوى فى هدايتك وإرشادك ، ونُبَذ من الشورى يجديه السبيل إلى استقامتك وسدادك ، فإن هشَّت لها روحك وثاب إليها عقلك ،

(١) المعان : المباءة ، المنزل .

(٢) المصاص (بضم الميم) : خالص كل شىء .

وثبت عندها سرك ، وانخذل عنها اعتراضك ، وانجلى دونها امتعاضك ، فازدد منه ازدياداً ، لا تنفِرْ قواك عن القبول ، ولا تَحُلَّ عُراك عن القيام بالفروع والأصول ، ومتى سمعت — فى مطاوى حالك ومناشرها ، وفى مباشر شؤونك ومعاشرها — هاتفَ العقل فلا تحفِل به ، ومتى أحسست فى مُفترَقِ حالك ومجتمعها ، وفى مظعن مُناك ومرتعها ، بهاجس الحس فلا تَعُجْ عليه ، ومتى أوجست فى معتقدك ومعتمدك ، وفى مفاتحك ومغالقك خيفةً من تسويل نفس وتزيين هوى — فلا تَفْرَق منه ولا تنجذب إليه ، بل تقبَّل كلمة أخرى ، ففيها صحتك وسلامتك ، ورفعتك وسعادتك . اصْفُ من كدر النفس العائقة لك عن معانى القدس اللائقة بك ، فإن فى صفائك اتصال بقائك ، وفى كدرك دوام فنائك ؛ ولا تركب بحر البحث فتغرقَ ، ولا تَغُصْ على عمقه فتتوَى(١) . إن عجزت فلا تستعفِ استعفاء المتخوفين ، وإن مرضت فلا تستشف استشفاء المُترفين ، وإن مَلِلْتَ فلا تستكفَّ(٢) استكفاء المتعيِّنين(٣) .

يا هذا ! إن كنت تسمع ما يسمع فاقبله واستبشر به [٢٨ ب] . وقم عليه بالحق ، وكُنْه بالصدق ، ولاحظ أمام ذلك قديمَ إحسانه إليك وغريبَ امتنانه عليك ، وغامر أياديه لك ، وصوافى مواهبه عندك : كيف أظهرك بقدرته البالغة ، وكيف قلَّبك فى نِعمه السابغة ، وكيف عجنك من صنعته الرائعة ، وكيف دلَّك على معرفته البارعة ، وكيف قرَّبك من حقيقته الشاسعة ، وكيف آمنك من سطوته القارعة ؟ يحوشك بهذه الأعاجيب إلى نفسه حوشاً بعد حوش ،

---

(١) توى تَوىً (كرضى) : هلك .

(٢) استكفَّ الشيء : استوضحه بأن يضع يده على حاجبه كمن يستظل من الشمس .

(٣) المعيِّن : الذى يتكهن عن طريق الطير .

وينوشك بهذه الأساليب إلى أنسه نَوْشاً بعد نوش . كل ذلك لتعرف لحظك ولفظك ، وتُحْرِز نصيبك ، وتبادر < إلى > مالك ، وتنفى شينك ، وتنتقى زينك ، وتدخر ما يأخذ بيدك ويجذب بضبعك[1] ، ويرفع من طرفك ، ويُعْلى من كعبك ، وينجو[2] لنفسك ؛ ولتكون مستضيئاً بمصباح دينك ، مستديراً[3] متجلبباً بجلباب عبادتك ، متسربلاً بسربال زهادتك . وأنت على عادتك فى الفتور والنفور ، مؤثراً لخاوض الظلمات على النور . لم ذلك ، ولم ذلك ، وفيم ذلك ، وعلام ذلك ؟ أما أزاح علتك ؟ أما وفّر طاقتك ؟ أما نَهَجَ سبيلك ؟ أما وضّح دليلك ؟ أما رفق بك ؟ أما أخذ بيدك ؟ أما أنعم إليك ؟ أما أحسن إليك ؟ أما حباك فى وهمك ؟ أما ساخ فى سرك ؟ أما سكن حَرَمك ؟ أما قبل برّك ؟ أما قدّم إسعافك ؟ أما نظّم ألطافك ؟ أما قذى عينك ؟ أما أمدّ لونك ؟ أما آثر نجاك ؟ أما قدّم غِياثك ؟ أما نصر وليّك ؟ أما خذل عدوك ؟ بلى ، ولكن الإنسان لربه لكنود[4] ، ولآياته عنيد ، ولنعمه جحود .

أيها الممتع المؤنَس ، والمفرّج المُنَفِّس ! أما سمعتَ من قال : أين تُقتطَفُ ثمار العُتْبى ؟ فقيل له : حيث تُغْرَسُ أشجار البلوى . فقال : فمتى [١٢٩] يُقضى ذمام الصحبة ؟ فقيل له : إذا سكن فى مساكن الغربة ، يتجرع الكُرْبة بعد الكربة . يا هذا ! لا تكذبنّ ولا تخدعن ولا تقمرنّ[5] ولا تسحرن . فالحديث ذو شجون ، والحال مختلفة الفنون ، والأمر فى الجملة مظنون ، والإنسان فيما بينهما مغبون

(١) الضَّبْع : العَضُد .

(٢) ص : منحوا .

(٣) كذا ، ولعل هنا نقصاً .

(٤) كفور بنعمة ربه .

(٥) قَمِرَ الرجلُ (من باب علم) : تحير بصره من الثلج ؛ أرق فى القمر .

مفتون. ولكن على كل حال: كَلَحُ الظاهر خير من بُغض الباطن، وعَتْب اللسان أخف من حقد القلب، وحياةٌ بشكٍ خير من موت بيقين، وقليل ينفَدُ خيرٌ من كثير [1] يتسنّه، ومتوِّهٌ بعلم أشفق من مرشد بجهل، ونفاق ببُقيا أجدى من تجاليح [2] باستِئصال، وقابلٌ لعذر أرحم من مُتَجَنٍ لغير ذنب، وشاهد بتعريف أبلغ من غائب بتسويف، وخادع بميان أنصح من محقق بخبر. هذا كلامى بعد ثقة أضرّت بى، ومِقَةٍ سلبت لُبِّى، وحالٍ تناجيك وتحاجيك وتشاكيك وتباكيك. وُصِل الجد بالمزح، ومُزِج العذب بالملح، وخلط العتب بالصلح، ليكون أغرب فى غرائب العبرة، وأذهب لعجائب الفكرة.

يا هذا! إن سهر طرفك فاجعله يراعى محاسن وجهه، وإن رقد جفنك فليلهو بطيف خياله، وان ألحّ فؤادك فليستمتع بالطمأنينة إليه، وإن توالى خبطك فليتفضل بشهاب قبس منه، وإن اعوجّ لسانك فليرحم حالك معه، وإن استنّ شكرك فليُعلَمَ مُضاعَفُ برّه عندك، وإن حرِج صدرُك فليُهْدِ أريحيته إليك، وإن ارفأن [3] جأشك فليُذِقْك خصوصية أنسه بك. دع ذا أيضاً، فالحدُّ أمضى من أن يستراح إلى هذا، واستيقن أنه هو الخصم والحَكَم، وقوله الفَصْل والحِكَم، وأنه بك أبعدك منك، ولك شوقك إليك. وفيك ظهر، وعنك استتر، والظهور والاستتار [٢٩ ب] صفاتك، وليست فى الجملة غيره،

---

(١) التسنُّه: التكرُّج، يقع على الخبز والشراب. وطعام سَنِه: أتت عليه السنون. وخبز مُتَسَنّه: متكرّج. وكَرِج الخبز كفرح، واكترج وكَرَّج وتكرج: فسد وعلته خُضْرَة.

(٢) التجاليح: التصميم والإقدام.

(٣) رفأ الرَّجُلَ: سكّنه؛ ورفأ بينهم: أصلح؛ وأرفأ: جنح وامتشط ودنا وأدنى وحابى ودارى.

لكن ليس هو فى التفصيل إياك . فإن خبَّرت عن الاسم بالاصطلاح كان ضلالاً منك ، وإن خبَّرت عن المعنى بالمعقول كان وبالاً عليك ، وإن خبَّرت عن المعنى والاسم كان محالاً عندك ، وإن قلت المعنى أصل فالاسم فرع عليه ، وإن قلت : الاسمُ أصلٌ فالمعنى غير مشارٍ إليه ، وإن قلت : المعنى والاسم أصلان فأيّهما يعول عليه ! وإن قلت: الاسم والمعنى فرعان، فأين الأصل الذى تقف لديه ! هيهات أن يكون مُخبراً بلسان ، أو مضمراً بجنان ، أو مطوياً بقلب ، أو ملوياً بلب ، أو موهوماً بحدس ، أو مهموساً بهمس ، أو ملموساً بنفس ، أو محسوساً بحس ، أو معقولاً بعقل ، أو موجوداً بعيان ، أو مفقوداً بمكان ، أو موسوماً بزمان ، أو مُحرَّفاً بنعت ، أو مُعرَّفاً بوقت ، أو مصرَّفاً بلفت . حشو القلوب منه التخييل المحض ، ونهاية الإنسية منه التمثيل البحت ، والحق من وراء ذلك على التحصيل الصرف .

أيها السامع ! هذا ديوانٌ مانُضَّ ختمه منذ ختم ؛ هذا بابٌ ماقرع مذ أغلق وأبْهِم ؛ هذا مقال ما استنبط علمه مذْ كُتِم .

يا هذا ! أنَّى وجدت من هذا التنميق والتزويق وطراً فاقضه ، وإن فاتك فسلِّم لأهله ولا تَقِفْه ، لأن المعترض على الخلق متعرض لخزى الخالق ، فكيف المعترض على الحق ! والمستزيد من الناس ممقوت ، فكيف المستزيد من إله الناس ! جَهْدُ المُقِل فى هذا الشأن كثير ، وإفضال المُثْرِى فيه خطير ، وزُخرف القول فيه غرور ، وتحبير اللفظ فيه تحيير ، وهتك الستر فيه افتضاح ، وكتمان الحال فيه إيضاح . مقاد القول فيه سهل ، مرادُ القائل فيه صعب ، الرجاء فيه ممدود [٣٠ ا]، والحق به مصمود ، التلبيس فيه تأنيس ، التحريش فيه تنعيش ؛ الخُلف فيه إنجاز ، الذلُّ فيه إعزاز ؛ الدَّرْك فيه فوات ، الموت فيه حياة ؛ الزمان فيه بالحق ممتد بلا زمان ؛ والخلق فيه عن الحق مرتدٌّ بلا بيان ؛

السلامة فيه غنيمة ، فكيف الغنيمة ؟ فيه [1] ربوبية ، فكيف الربوبية ؟ البعض فيه كل ، فكيف الكل ؟! أوه ! التبس الجهر بالكتمان ، وامتزج الخبر بالعيان ، واشتبه العدم بالكِيان ، واختلطت الكرامة بالهوان ، واعتلق الفقدان بالوِجْدان ، وغار البيان فى البيان فحلّ البيان ، واستنار الشأن فى الشأن فعزَّ الشأن . فلا جِيدٌ إلا وهو عاطل بعد التحلى ، ولا حق إلا وهو باطل بعد التجلى ، ولا مُزن إلا وهو سحٌّ بعد التولى . ولا قلْب إلا وهو عاشق بعد التسلّى بحكم لا مردّ له ، وسلطان لا قبل به ، وقضاء لا متنفَّس فيه ، ورقّ لا عتق معه ، وأسر لا فَكاك منه ، وعَتْبٍ لا عُتْبى [2] بعده ، وكَرْب لا تنفس عنده . فما أقول وما أصنع إن كان لسان التناجى محصوراً ، وزمان التهادى مقصوراً ؟! فهلمّ حتى نتشاكى ونتباكى ، لعلنا نُبَرِّد غليلاً أو نشفى عليلاً أو نجد إليه سبيلا . فقد صرنا إلى حد العطَب ، مُذ استمرّ بنا كَيْدُ الزمان واستتبّ ، وانتهينا إلى حريم اليأس وعرَصةِ القنوط ، لا يُجاد لنا بعزاء ، ولا يُفاض علينا صبرٌ ، حتى كأنّ الذنب كله لنا ، وحتى كأنا شقينا بنا وحُرِمنا منا أو بُدّ لنا عنا . ها أنا أصرخ وأقول : يا كيد الزمان ، ويا نكَد الأيام ! عُوجا على رسم جسمى فخذا حظكما منه بقَسَمى ورَسْمى ، فما لكما فى ساحة هواى له مَسْكَنٌ ولا مرْبَع ، ولا لكما فى حل عُقَد حُبّى له مأمول [٣٠ ب] ولامطمع . فنابذانى وخالفانى وحاربانى ، فما لكما منى إلاّ ما تريان ، ولا لكما عندى إلا ما تسمعان . يا نسيم رَوح الاجتماع ، انصرف مودَّعاً بأطيب لذة الشكوى . تباعد مَغرِباً

(١) كذا ، وواضح أن هنا نقصاً .

(٢) العُتبى : الرضا .

إن شئت أو مَطاعاً . يا حلائل النجوى أحرِمى ! يا بوازغ القلب اسلمى ! يا نيران الهجر توقدى ! يا مضاجع البلوى تمهّدى ! يا غاية المنى تباعدى ! يا مقادير الدهر تراقدى ! يا حلاوة الهوى أمِرّى ! يا عاذلتى على جنونى اهدَئى عنى وقَرّى ! يا مناهل العيش تكدّرى ! يا معارف الغيب تنكّرى ! يا حسرات القلب تحرّق ! يا أستار الضمير تهتّكى ! يا معالم الأنس بِيدى ! يا عُقَب الهوى زيدى ثم زيدى ! يا مصائب الدنيا اقصدينى وانزلى بى ! يا عجائب الدهر والأيام تعجّبى منى ! أتُرى برّدْتُ غليلاً طالما عهدته يَغْلِى ؟ أترى دَيناً طال ما يُقضى به مَطْلى [1] ؟ أترى بلغتُ غاية نزعت إليها بجَوْرى وعدلى ؟ أترى تخلصت من معدن ضاق على بعضى وكلّى ؟ أترى وصلت إلى من أفنيت له عمرى فى حِلّى ورَحْلى ؟ أترى أشفى غليل من أفنيتُ له فيه عِزّى وذلّى ؟ والله المستعانَ أخشى . — والله ما لى من هذا القول إلا عناؤه ، وما لى من هذا المعنى إلا هباؤه ، ومالى من هذا المدّ والجزر إلا غُثاؤه [2] . أستغفر الله من زلة أبكتنى دماً ، وأستقيله عثرةً أوردتنى سقماً ، وأسترحمه لعبرة قتلتنى ندماً أو سدَماً . اللهم اكفنا مُؤْنة قولٍ لا نُراد به ، وغائلة معنى لا تصح فيه ، وغِبَّ أمرٍ لا تكون عنده . اللهم اصرف عنا الشيطان وتعويله [3] ، والهوى وتسويله ، والباطل وتعاليه ، وأرِنا منك الحق لنتوخاه بتوفيقك ولطفك اللذين هما تمام كل شىء وبهجة كل شىء .

---

(١) مَطْلُ الدَّيْن : التسويف به ، كالامتطال والمِطال والمماطلة .

(٢) الغُثاء : الزَّبَد .

(٣) أى التعويل عليه والاعتماد .

[١٣١] رسالة (ى)

يالسانَ الوقت ، وواحدَ هذا الورى ، وعينَ الزمان ! اسمع حديثي عن شوقٍ إليك لاهبٍ ، ووَجْد به غالب ، وعين نحوك رانية ، ونفسٍ فى يدك عانية ، وكلٍّ عندك رهين ، وبعضٍ بسوء إغفالك له مُهين ، وجُلٍّ إذا سُبر كاسِد ، ودَقٍّ إذا فُتِّش فاسد ، وحالٍ إن قام خطيبها بشرحها فُضِحَ وافتضَح ، ووديعة إن طلبها صاحبها جُرِحَ واجترح ، وَرأيٍ كلما صُفِّىَ كَدَر ، وكلما عُرِّف نكِّر ، وأمرٍ فى الجملة لاينادى وليده ، وسرٍّ فى التفصيل لاتتناهى وفوده . ومما قد زاد فى بلواى(١) هذا الخطاب وحاشنى إلى هذا الكتاب أنّى قانط من عَوْدك إلى معهودى منك ، مرحومٌ فى حالتى التى مِلْك زمامى فيها لك ، طامع فى أريحيةٍ تحرّكك ، وفتوّةٍ تُتْعِبُ راقدَ نشاطك ، وتطلعُ على شمس رحمتك ، وتجلى(٢) على كرب الفتنة بك . وما اشتملت علىّ هذه الأمور التى كنيت عنها لنيّة تغيّرت منى فيك ، ولا لسبب اقتضانى ذاك لتقصيرك ، ولكن لأنك مُعلًّى عن محلّ الهابط ، ومصونٌ عن التفات ما يبتذلك ، ومرادٌ بالخصوصية التى هى غاية آمال الخلق . فهنّاك من أعطاك ما أعطاك ، ورقّاك من سقاك من سُقْياك ، وأعاذك من عين تخيِّل النهار ليلاً ، وتقلّب السرور وَيْلاً ، وتجعل القطر سيلاً ، وَطَرَحَ فى قلبك رقةً على من يناديك من بعيد فلا تحفظه ، ويناجيك من قريب فلا تلحظه ، ويسألك أن تعينه على أن يَحْيَىَ لك ما طاب لك ، ويموت فيك إذا أردْتَ ذلك واخترت . وهذا دعاء إن سمع منى كان حظك فيه أسنى من حظى ، وقسطك منه أوفر من قسطى ، لأنك تُعرف

---

(١) كذا ، ولعل أصله : بلوى .

(٢) كذا فى الأصل !

بالفضل [٣١ ب] الذى وهب لك ، وتُشْهَر بالكرم الذى وفر عليك ، وتتلذذ بالشكر الذى هو مطلوب الخلق . فأَمِّن الآن — أحاطك الله — على دعائى ، وقَرِّب أُذُنَك من ندائى . خذ بيدى من بلائى ، فلأَنْ أبقى فى خدمتك وأزكى على طاعتك أشرف لك من أن أموت على هذا الكمد بلا رَوْح ساعة ، ولا فرح لحظة ، ولا نيل نعمة ، ولا تحقيق عِدَة[1] ، ولا تعاليل بنظرة ، ولا إقالة عثرة ، ولاستر عورة ، ولا قبول عِذْرة . فالجلالة والرفعة والكرم والرياسة فى إحياء مثلى واستبقائه ، لا فى إفنائه وإردائه[2] . سيّدى ، انظر إلىّ ! سيدى ! أقْبِلْ علىّ . حبيبى ! ادْنُ منى ! صاحبى ! احفظ عنى . وإذا نظرت فارحم ، وإذا أقبلت فتكرم ، وإذا دنوت فجُدْ ، وإذا حفظت فخذ . وإنما أردِّد فى هذا المكان لسانَ التلطف حتى تعيد علىّ ما فقدته من التعطف ، وإنما أُكلِّف عينى البكاء حتى تنعم عليها بفرحة اللقاء ، وإنما أعذِّب روحى بالشوق إليك حتى تملكها بالأنس معك . وإنما أعيد فنون القول وأبدى ، حتى تتفضل بما ملّكك الله وتُسْدى . وإنما ألهج بذكرك عند القريب والبعيد ليكونوا شفعائى عندك ببذل المزيد . هذا على أنى ، وإن لم أقل بلسانى حرفاً ، فإن فؤادى يفيض بما فيه غرفاً فغرفاً ، لأنه طافح بجفائك ، نازح عن وفائك ، عارٍ من عطائك ، حالٍ بولائك ، فانٍ ببلائك ، باقٍ ببقائك ، متَنَاه فى وصف عَلائك ، ومستغيث بالله من شدة غلائك . فهذا حديثى إذا سكتّ ، وذلك شأنى إذا نطقت . فقل لى الآن : كيف المنجى من هذا القضاء الغاصّ ، وكيف الخلاص ولات حين مناص ! وهل الرجوع بعد هذا كله إلا إلى إطراق يلهب الأحشاء ، ويذرى الدموع [٣٢ ا] الغزار ، ويسد باب رَوْح الحياة ؟ أو إلى تهلّل وجه بالتصنع

(١) العدة : الوعد .

(٢) أردى فلاناً : أهلكه .

وإنشاء حركة بين الإجابة والتمنع ، ولفظ مَدارُهُ على الزخرفة ، ومعنى مجازه إلى السفسفة ، وليس بعد هذا القول قول ، ولا وراء هذا السكوت سكوت . اللهم غَفْرِى ! بلى [١] ! هناك ما يطوّح نطق كل ناطق ويستغنى سكوتَ كل ساكت بواردات من ناحية الحق ليس يهلك فيها شىء من رسوم الخلق ، وإنما هى هبّات نسيم [٢] زفّت فترنحت ، ولطفت فتسنّحت . من رام الخير عنها تاه ، ومن حدّث نفسه بالظفر شاه . وكيف يكون ذلك وإنما هو كتمان فى وجدان (وكتمان فى [٣] وجدان) ، ونكرة فى عرفان ، وعِرْفان فى حدثان ! فالزمان لا يرسمه سَيحاً ، والخاطر لا يجتاز سَنْحاً ، واللفظ لا يقوم به وزناً ، والمراد لا ينقاد له حَزْناً ، والدعوى لا تمرّ به وهماً ، والجدال لا يحصّله فهماً . ذلك شأن لا يلوذ به نبأ ، ولا يَطُورُ [٤] به حُلْم ، ولا يُنفر عنه بأَيْن ، ولا يستعان عليه بكيف ، ولا تستعمل فيه لِمَ ؛ جلّ فدق ، ودق فجلّ — أعنى جلّ فى نفسه فدق على من رامه [٥] ، ودقّ فى لطفه فجل على من سامه . فطوبى لمن بُصّر فأبصر ، وأُشهِد فشَهِد ، وجُلّى عليه فَعَايَنَ ، وخُصَّ به فتلذذ ، ووُهب له فتنعّم ، وأُهّل له فنال ، واحتبى منه فأدرك . نعم ، وطُوبى لمن سمع به فسأل عنه ، وقيل له فسعى من أجله ، وشُرّق فى محلّه فاشتاق ، ورُغّب فى حظه فنشط ، وهُزّ إليه فاهتز . نعم ! وطوبى أيضاً لمن عجز عن هذا كله فتمنى ، وسأل عنها فتأوّه ،

---

(١) ص : عضرى بلى هناك .

(٢) زفت الريح : هبت فى مُضِىّ .

(٣) كذا فى الأصل . وقد كان : وجدان فى . . (كتمان) ثم ضرب عليه .

(٤) طار به يطور طَوْراً وطَوَرَاناً : قربه — يقال : «أنا لا أطور بفلان» أى : لا أحوم حوله ولا أدنو منه .

(٥) ص : رام .

وسمع وصفه فحنّ إليه ، والتذّ بحديثه فجنّ ، وتدلّه بوهمه فتنزع [1] ، وتوله بوجده فتوسع . يا هذا ! أتظن أن هذا أمر قليل وشأن حقير ؟ والله طالت زافرت الزافرين ، وبسببه [٣٢ ب] سُكِبت عبرات الباكين ، ومن أجله سَهِرَتْ عيونُ المشتاقين ؟ ولولا ذاك قرّت النفوس وسكنت الحركات وهدأت الأعضاء ، وخفت المؤن ، وزال التشكى ، وسقط النزاع ، وذهب الأنين ، وفُقِد الرنين ، ورفع الحنين . هيهات ! وأنّى لك بذاك والمهج تذوب خوفاً من فراقه ، والخدود تالطم حسرة على الفائت منه ، والجيوب تشقق حرقةً على ما عهد عليه ، والآمال تَغلغلُ إلى ما لعلها لا تصل إليه . فهل يبقى بعد هذه ترنم بلحن ، أو تنغم بشجو ، أو تطاول إلى مذكور ، أو تقاعد عن سرور ، أو تحدث بما يُجدِى ، أو تخلص بما يُرْدِى ويُنْدى ؟! بدأتُ فى محادثتك على مذهب المترسّلين الذين يبنون بُنْيانهم بالثقة واليقين ، فنشبْتُ معك فى فنونٍ تضلّ فيه ضروب الخلق أجمعين . وهذا أيضاً من رواجع القصة ، وتوابع الإشارة ، وطرائف ما يبدو من باحة الغيب فى ساحة الشهادة ، ويغيب من ساحة الشهادة فى باحة الغيب . فإن طُلِب فات ، وإن حُقِّقَ طاح ، وإن يئِسَ منه قابل ، وإن تُحيّر فيه استوسع ، وإن أعرضَ <عنه> تعرّض ، وإن تُعرِّض له أعرضَ . فكيف أصفه لك وأنا معذب بالزمن منهُ معك ، لأنى أذكرك معجباً بك ، وأشتاق إليك نازعاً نحوك ، وأنشر فضلك تلذذاً بذكريك ، وأنت على سهوك أو على تساهيك ، أو على لهوك أو على تلهيك . فإن كان مالغوتُ [2] ظناً منى فيك فارفعه ببشر منك عند اللقاء ، أو بتهنئة عند العطاء ، أو برأفة عند البلاء ، أو برحمة عند اللأواء ، أو بفرجٍ عند البأساء ، أو برقة عند الضراء ، أو ببرقة عند الظلماء ، أو بزورة

(١) ص : فزع .

(٢) ص : مالغول ؛ أو تغوّل ؟

عند شدة الغماء . وإن كان حقاً فاعترف بتقصيرك فإنه أبقى لشرفك ، وأنقى لسرفك ، وأدعى إلى حسن العِدة عنك ، وأقرب إلى اعتقاد البُقيا منك . فما تقول — أبقاك الله — فيمن يُقنعه منك اعتراف بتقصير إن كان ، أو إحسان بيسير إن [١٣٣] وجدتَ إليه الإمكان ؟ وليس بعد هذه الملاوذة(١) مستزاد ، ولا دونه لباغى الحياة مستراد . فاعطف — يرحمك الله — على شيخ قد تحكم فيه البَلْوى ، وأقام بين الحياة والردى ، لا يذوق أحدهما على تمامه ، فيكون فى ذلك رَوْحه ونعيمه ، أو ما يحزن عليه صديقه وحميمه . فياويح مَنْ هذا ذِكْرُه ، وعلى هذا ظاهره وباطنه ، وإلى هذا الكنَف عَوْده وبدؤه ! ما أحوجه إلى نائحة تبكى عليه ! وماذا تُغنى النائحة ، وماذا تنفع الباكية ؟ هل فى ذلك إلا تعبٌ لا يرد نفعاً ولا يدفع ضُراً ؟ وبعد هذا الأذان والتكبير ، وبعد هذا التقدير والتقرير ، وبعد هذا التكسير والتحسير ، إن تأخذ معى بحكم الفتوة التى هى فوضى بين أهلها ، بها يتوادّون وعليها يتحابون ، ومن غرسها يقطفون ، وعلى عرشها يعكفون ، وإلى أركانها يعطفون ، وإلى قُللها يَعْرُجون ، ومن أبوابها يخرجون ويلجون . فإنك إن بَخِلتَ علىّ بهذا القدر ذهب عشق لك فى الهباء ، وحصلت من حالى معك على العزاء . وتلك والله قاصمة الظهر ، وآبدة الدهر . والله يهديك إلى التى هى أشبه بمحاسنك ، وأجدى فى عُرْض فضائلك . هـ .

اللهم لا تؤاخذنى بإقبالى على خلقك ، وبمسألتى إياهم على ما هو عتيد عندك ، وبتواضعى لهم فيما أجده حاصلاً قِبَلك ، فإنما ذلك فَزَعٌ مِنّى إلى كل من ادّعاك وتحلّى بحبك وانتمى إلى خدمتك ، وبفضل حبى لك أحبّ كل محب لك ، ولفرط وجدى بك أجد بكل واجد بك ، أنت المُطّلع

(١) اللوذ واللياذ والملاوذة : الاستتار بالشىء والاحتضان به .

على خَبْأ الضمير ، والمحيط بكل مستور ، والمصافى كل من صافاك ، والموالى كل من والاك . لك الفضل فى الثانى لأن لك الفضل فى الأول ، وأنت الموجود فى كل زمان ، والصاحب [٣٣ ب] لكل إنسان . لا تخفى عنك ذرّة ، ولا تفوتك خَطْرة . تجزى بالحسنة أضعافها ، وتمحو السيئة عن أصحابها ؛ لك الآلاء الخفية ، والأيادى الجليلة ، والآثار المكشوفة ، والأخبار المعروفة ؛ والأنفاس عليك تتحرّق ، والجباه من أجلك تتعرّق ، والعيون إليك بالشوق تترقرق . لك مع كل رُوح رَوْح ، وفى كل قلب تقلّب ، وعلى كل فؤاد رقيب ، ومع كل نفس منفّس ، وإلى كل بعيد مقرب ، وفى كل موجود دلالة . طُلبت فلم توجد ، ووُجدت فلم تُعرَف ، وعُرفت فلم تُوصَف ، ووُصفت فلم تُلْحَق ، وشوهدت فلم تُدْرَك . وكيف لا تكون كذا وفوق ذا ، ونحن لا نحيط ببعض خلقك على خوافى ما نظن فيه من حكمتك ، وبوادى ما ظهر عليه من قدرتك ؟ وإذا كان عجزنا عن ذلك يفضحنا عندنا ، ويردنا علينا ، ويوارينا فينا ، ويخجلنا منا ، ويعكسنا إلينا ، — فما قولنا فيما خلا ذلك مما لا نحسّه بمشاعرنا ، ولا نلحقه ببصائرنا ! على أن مشاعرنا بك تُحِسّ ، وبصائرنا بك تلحق ، وكلنا لك وإن كنت أعرتنا ذلك ، وكلنا بك وإن كنا مفترين بذلك . ولّيتنا بأمرك ونهيك ، ثم وَلِيتنا بعلمك وإرادتك ، فعلينا أن نؤدّى ما تقدّمتَ به إلينا ، وليس لنا أن نعترض عليك فيما تفرّدتَ به دوننا ، لأنك مالِكُ قليلنا وكثيرنا ، ومصرِّف أولنا وآخرنا ، والحاكم بما تراه فينا مما ساءنا وسرّنا . يا أحكم الحاكمين ! ويا أرحم الراحمين ! لك البَسْطة ، ولنا بها الغبطة . فقِنا منك السَّخْطة ، وإن وقعنا فى الورطة ، ونُشْنا فى السقطة .

إلهنا ! إنا لا نملّ من مواجهتك ، ولا نروّى من مناجاتك ، ولا نسلو عن حبنا لك ، ولا ننسى أبداً ما توالى علينا من نعمتك . فنحن نذكرك

سراً وجهراً [٣٤ ا] ، وحُلماً وانتباهاً . وعلى كل حال تلوّنتْ بنا ، وفى كل مكان تغيّرَ علينا . إليك ننتسب ، ورضاك نكتسب ، وأرواحنا فى طلب ذاك نحتسب . فَصِلْنا بتوفيقك ، ولا تُعَرِّنا من إحسانك ، ولا تُحوجنا إلى أحد من عبادك . يامن إذا أغنى أقنى ، وإذا أقنى أبقى ، وإذا أعطى أسنى ! ياذا الجلال والإكرام ! هـ[١] .

يا هذا ! لك أحوال فى يقظتك ومنامك، وحركتك وسكونك ، وغضبك ورضاك ، وأخذك وعطائك ، ووحدتك ولقائك ، وحرصك وعفافك ، وقبضك وبسطك ، وعلمك وجهلك ، وريائك وإخلاصك . فاجتهد أن تكون فى يقظتك ومنامك ناظراً إلى الله بالخشية والحياء ، وفى حركتك وسكونك أن تكون وازناً لها بالعدالة التى تحفظ عليك ما لك ، وتنفى عنك ماليس هو لك ، وفى غضبك ورضاك أن تكون ثابتاً على سَنَنٍ : لايزدهيك الرضا ولا يستغرقك الغضب ، وفى أخذك وعطائك أن تكون : حاضر الذهن متوقّياً من الغلط لك وعليك ، وفى وحدتك ولقائك : جامعاً لما لك فى قضاء الحق عنك وتغافلك عن قضاء الحق لك ، وفى حرصك وعفافك : متحاجزاً عن كل ما يشينك ، وفى قبضك وبسطك : على ماسلف القول فى نظائره معك ، وفى علمك وجهلك مستسلماً لمن هو أولى بك منك ، وفى ريائك وإخلاصك : آوياً إلى مالكِ زِمامِكَ وخُطامِك . اللهم إنا نروع[٢] عنك بجهلنا الذى ابتليتنا به ، ونريغ إليك بعلمنا الذى كاشفتنا به ، ونقف حيارى بين أمرك

---

(١) هنا ورد فوق حرف هـ : « نسخة أخرى » . وأقناه الله : أغناه وأرضاه وأعطاه ما يقتنى من القنية .

(٢) راع الشىء يروع ويريع رُواعا (بالضم) : رجع ؛ — راغ إلى كذا : مال إليه سرّاً ، وفى الكتاب العزيز : « فراغ إلى آلهتهم » — أى ذهب إليها خفيةً .

الذى استصلحتنا عليه ، وبين علمك الذى أدرجتنا فيه . وأعجب من هذا كله أنك بَصَّرتنا فواتح الأحوال [٣٤ ب] ، وأغشيتنا عن خواتم الأعمال ، فمتى حاولنا دَرْكَ القريب بَعُد ، ومتى تطاولنا إلى لحوق البعيد قَرُبَ . فلا ما نناله يؤنسنا بالاستمتاع[1] به ، ولا ما يفوتنا يؤنسنا من نيله بعد الاجتهاد فيه . إلهنا ! ما أعجب أسرارك فينا ، بل ما أعجب شواهدك علينا ، بل ما أعجب جُملتنا فى تفصيلنا ، بل ما أعجب تفصيلنا فى جملتنا ! كلَّفتنا معرفتك ، وحجبتنا عن كُنْه حقيقتك ، وشوقتنا إليك ، ثم سَدَدْتَ طريقنا . فوحقك لا بَرِحْنا ولا سَنَحْنا ، ولا هدأنا ولا سكنّا ، حتى نَصِلَ إليك ، ونقف بين يديك ، ونقول بما لديك ، وننظر إلى وجهك الكريم نظراً يوجب لنا رِضاك عنا ، وإقبالك علينا ، ونسمع كلمتك العليا : « أوليائى ! إنما أتعبتكم لتستريحوا ، وإنما أشقيتكم لتسعدوا . سِرّى فيكم غريب ، وشأنى معكم عجيب ، فاستبشروا الآن » — والسلام . اهـ .

رسالة (يا)

سألتنى — رَفق اللهُ بك ، وعطَف على قلبك — [و] أن أذكر لك الغريب ومِحَنَه ، وأصفَ لك الغُرْبة وعجائبها ، وأمرّ فى أضعاف[2] ذلك بأسرارٍ لطيفة ومعانٍ شريفة ، إمّا مُعرِّضاً ، وإمّا مُصرِّحاً ، وإما مُبعِّداً ، وإما مقرِّباً . فكنت على أن أجيبك إلى ذلك . ثم إنى وجدت فى حالى شاغلاً عنك ، وحائلاً دونك ، ومُفرِّقاً بينى وبينك . وكيف أخفِض

(١) ص : الاستاع .

(٢) أى : تضاعيف وثنايا .

الكلام الآن وأرْفَع، وما الذى أقول وأصنع، وبماذا أصبر، وعلى ماذا أجزع؟ وعلى العلات التى وصفتها والقوارف التى سترتها أقول:

إنَّ الغريبَ بحيث ما حطَّتْ ركائبُه ذليل
ويدُ الغريبِ قصيرةٌ ولسانُه أبداً كليل
[١٣٥]والناس ينصُرُ بعضُهم بعضاً، وناصِرُه قليل

وقال آخر:

وما جَزَعاً مِنْ خَشْيَةِ البَيْنِ أخْضَلَتْ(١)
دُموعى، ولكنَّ الغريبَ غريبُ

يا هذا! هذا وصفُ غريبٍ نأى عن وطنٍ بُنِىَ بالماء والطين، وبَعُد عن أُلَّاف له عَهْدُهم الخشونة واللين، ولعله عاقرهم الكأسَ بين الغُدْران والرياض، واجتلى بعينه محاسن الحدَق المِراض؛ ثم إن كان عاقبة ذلك كله إلى الذهاب والانقراض، — فأين أنت عن قريب قد طالت غربتُه فى وطنه، وقلّ حظه ونصيبه من حبيبه وسَكَنه؟! وأين أنت عن غريب لاسبيل له إلى الأوطان، ولا طاقة به على الاستيطان؟! قد علاه الشحوب وهو فى كِنَّ، وغلبه الحزن حتى صار كأنه شَنٌّ(٢). إن نطق نطق حزنان منقطعا، وإن سكت سكت حيران مرتدعا؛ وإن قرب قرب خاضعاً، وإن بَعُدَ بعد خاشعاً؛ وإن ظهر ظهر ذليلاً، وإن توارى توارى عايلاً؛ وإن طلب طلب واليأسُ غالبٌ عليه، وإن أمسك أمسك والبلاء قاصد إليه؛ وإن أصبح أصبح حائل

(١) خَضِل (من باب فرح) خَضَلاً، وأَخْضَلَ واخضَلّ واخضوضل: نَدِىَ وابتلّ، فهو خَضِل وخاضل.
(٢) الشَّنّ (وبهاء) القِرْبة الخَلَق الصغيرة، والجمع: شِنان.

اللون من وساوس الفِكَر ، وإن أمسى مُنْتَهَبَ السر من هَوَاتِك السِّتْر ؛ وإن قال قال هائباً ، وإن سكت سكت خائباً ؛ قد أكله الحُول ، ومَصَّه الذبول ، وحالفه النحول ؛ لا يتمنى إلا على بعض بنى جنسه ، حتى يفضى إليه بكامِنات نفسه ؛ ويتعلّل برؤية طلعته ، ويتذكر لمشاهدته قديمَ لَوْعَته ؛ فينثر الدموع على صحن خده ، طالباً للراحة من كده .

وقد قيل : الغريب مَنْ جفَاه الحبيب . وأنا أقول : بل الغريب من واصله الحبيب ، بل الغريب من تغافل عنه الرقيب ، بل الغريب من حاباه الشريب(١) ، بل الغريب مَنْ نُودِى مِنْ قريب ، بل الغريب [٣٥ب] من هو فى غربته غريب ، بل الغريب من ليس له نسيب ، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب . فإن كان هذا صحيحاً ، فتعالَ حتى نبكى على حالٍ أحدثت هذه النفْوة ، وأورثت هذه الجَفْوة :

لعَلّ انحدارَ الدَّمْعِ يُعْقِبُ راحةً   من الوَجْد أوْ يَشْفِي نَجِيَّ البلابل(٢)

يا هذا ! الغريبُ من غَرَبَتْ شمسُ جماله ، واغترب عن حبيبه وعُذّاله ، وأَغْرَبَ فى أقواله وأفعاله ، وغَرَّب فى إدباره وإقباله ، واستغرب فى طِمْرِه(٣) وسِرْباله . يا هذا ! الغريب من نطق وصفُه بالمحنة بعد المحنة ، ودلّ عُنوانه على الفتنة عُقَيْبَ الفتنة ، وبانت حقيقته فيه فى الفينة حدّ الفينة . الغريب

---

(١) الشريب : من يشاركك فى الشرب ؛ من يستقى أو يسق معك ؛ النديم ، ويقصد به نديم المحبوب .

(٢) هذا البيت لذى الرُّمّة (راجع دايونه ، نشرة مكارتنى ص ٤٩٢ بيت رقم ٢ . كمبردج سنة ١٩١٩ م/١٣٣٧ هـ) .

(٣) الطِّمْر : الثوب البالى ؛ والسربال : القميص ، أو كل ما يلبس .

من إن حضر كان غائباً ، وإن غاب كان حاضراً . الغريب من إن رأيته لم تعرفه ، وإن لم تره لم تستعرفه . أما سمعت القائل حين قال :

بِمَ التعلُّل ؟! لا أهلٌ ، ولا زمنٌ
ولا نديمٌ ، ولا كأسٌ ، ولا سَكَنُ[(١)]

هذا وصفُ رجل لحقته الغربة ، فتمنّى أهلاً يأنَسُ بهم ، ووطناً يأوى إليه ، ونديماً يَحُلُّ عُقَدَ سِرِّه معه ، وكأساً ينتشى منها ، وَسَكَناً يتوادع عنده . فأما وصف الغريب الذى اكتنفته الأحزان من كل جانب ، واشتملت عليه الأشجان من كل حاضر وغائب ، وتحكمت فيه الأيام من كل جاء وذاهب ، واستغرقته الحسرات على كل فائت وآيِب ، وشتّته الزمان والمكان بين كل ثقة ورائب ، — وفى الجملة ، أتت عليه أحكام المصائب والنوائب ، وحطته بأيدى العواتب عن المراتب ، فوصفٌ يَخْفَى دونه القلم ، ويفنى من ورائه القرطاس ، ويشلُ عن بَجْسِه[(٢)] اللفظُ ، لأنه وصف الغريب الذى لا اسم له فيذكر ، ولا رسم له فيُشْهَر ، ولا طىٌّ له [١٣٦ ا] فينشر ، ولا عُذْرَ له فيعذر ، ولا ذنب له فيغفر ، ولا عيْبَ عنده فيُسْتَر . اهـ .

هذا غريبٌ لم يتزحزح عن مَسْقِط رأسه ، ولم يتزعزع عن مَهَبِّ أنفاسه . وأغربُ الغُرباء من صار غريباً فى وطنه ، وأبْعَدُ البُعداء من كان بعيداً فى محلّ قُرْبه ، لأن غاية المجهود أن يسلو عن الموجود ، ويُغْمِض عن المشهود ،

(١) السكن (محركةً) : كل ما يستأنس به .

(٢) وَشَلَ يشِلِ : قلّ وضعف وافتقر ؛ ومنه الوَشَل : الماء القليل . والبجس : تفجرُ الماء ، ومنه : عين بجيس : غزيرة .

ويُقْصى عن المعهود ، ليجد من يغنيه عن هذا كله بعطاء ممدود ، ورِفْدٍ[1] مرفود ، وركن موطود[2] ، وحَدٍّ غير محدود .

يا هذا ! الغريب من إذا ذكَرَ الحقَّ هُجِرَ ، وإذا دعا إلى الحق زُجِر . الغريب من إذا أسندَ كُذِّب ، وإذا تطاهر[3] عُذِّب . الغريب من إذا امتار لم يَمِرْ[4] ، وإذا قعد لم يُزَرْ . يا رحمتا للغريب[5] ! طال سفره من غير قدوم ، وطال بلاؤه من غير ذنب ، واشتد ضَرَرُه من غير تقصير ، وعظم عناؤه من غير جدوى !

الغريب من إذا قال لم يسمعوا قوله ، وإذا رأوه[6] لم يدوروا حوله . الغريب من إذا تنفّس أحرقه الأسى والأسف ، وإن كتم أكمده الحزن واللهف . الغريب من إذا أقبل لم يُوَسَّع له ، وإذا أعرض لم يُسْأل عنه . الغريب من إذا سأل لم يُعْطَ ، وإن سكت لم يُبْدأ . الغريبُ مَنْ إذا عطس لم يُشَمَّت[7] ، وإنْ مَرِضَ لم يُتفقد . الغريب من إن زار أُغلِق دونه البابُ ، وإن استأذن لم يُرفع له الحجاب اهـ .

الغريب مَنْ إذا نادى لم يُجَبْ ، وإن هادى لم يُحَبَّ . اللهم إنَّا قد أصبحنا غُرَباء بين خلقك ، فآنسنا فى فِنائك . اللهم وأمسينا مهجورين عندهم ، فصِلْنا

---

(١) أى : عطاء مُعْطى .

(٢) وطيد ، ثابت .

(٣) تنزه عن الأدناس . أو أصلها : تظاهر (بالظاء المعجمة) ؟

(٤) مار عياله يمير ميراً وأمارهم وامتار لهم : جلب لهم الطعام .

(٥) تذكر لبيت على بن الجهم :

يا رحمتا للغريب بالبلد النازح ماذا بنفسه صنعا !

(٦) ص : راوده .

(٧) التشميت والتسميت : الدعاء للعاطس .

بحِبائك (١) . اللهم إنهم عادَوْنا من أجلك لأنا ذكرناك لهم فنفروا ، ودعوناهم إليك فاستكبروا ، وأوْعدناهم بعذابك فتحيّروا ، ووعدناهم بثوابك فتجبّروا ، وتعرّفنا بك إليهم فتنكّروا ، وصُنّاك عنهم فتنمّروا ؛ وقد [٣٦ ب] كِعْنا (٢) عن نذيرهم ، ويئسنا من توقيرهم .

اللهُمّ إنّا قد حاربناهم فيك ، وسالمناهم لك ، وحكنا لهم عنهم لوجهك ، وصَبَرْنا على أذاهم من أجلك ؛ فخُذْ لنا بحقنا منهم ، وإلّا فاصرِفْ قلوبَنا عنهم ؛ وأنْسِنا حديثهم ، واكفنا طيِّبَهم وخبيثَهم .

أيها السائل عن الغريب ومحنته ! إلى هٰهنا بلغ وصفى فى هذه الورقات . فإن استزدتَ زِدْتُ ، وإن اكتفيتَ اكتفيتُ ، واللهَ أسألُ لك تسديداً فى المبالغة ، ولى تأييداً فى الجواب ، لنتلاقى على نعمته ، ناطقين بحكمته ، سابقين إلى كلمته .

يا هذا ! الغريب فى الجملة من كله حُرْقة ، وبعضُه فُرْقة ، وليلُه أسف ، ونهارُه لَهَف ، وغداؤه حزَن ، وعشاؤه شجَن ، وآراؤه (٣) ظِنَن ، وجميعه فِتَن ، ومفرِقه مِحَن ، وسِرّه علَن ، وخَوْفُه وطَن .

الغريب من إذا دعا لم يُجَب ، وإذا هاب لم يُهَب .

الغريب مَنْ < إذا > استوحشَ استُوحِشَ منه : استوحشَ لأنه يرى ثوب الأمانة ممزقاً ، واستوحِش منه لأنه يجد لما بقلبه من الغليل مُحْرِقاً .

---

(١) الحباء (بكسر الحاء) : العطية ؛ مهر المرأة .

(٢) كِعْت عنه أكيع وأكاع ، كَيْعاً وكيوعة : إذا هبته وجبُنْتُ عنه ، فهو : كائع ، وهم : كاعة .

(٣) ص : ورواه . وظِنَن جمع ظِنّه بالكسر : تُهمة . أو : ورؤاه ؟ جمع رؤية .

الغريب مَنْ فَجْعته مُحْكَمة ، ولوعته مُضْرمة .

الغريب من لِبْسته خِرْقة ، وأكلته سَلْقة ، وهَجْعته خفقة .

دع هذا كله ! الغريبُ من أخبر عن الله بأنباء الغيب داعياً إليه . بل الغريب مَن تهالك فى ذكر الله متوكلاً عليه . بل الغريب من توجّه إلى الله قالياً لكل من سواه . بل الغريب من وهب نفسه لله متعرضاً لجدواه .

يا هذا ! أنت الغريب فى معناك .

أيها السائل عن الغريب ! اعمل واحدة ولا أقل منها ، وإذا أردت ذِكْرَ الحق فانْسَ ما سِواه ، وإذا أَرَدْتَ قُرْبَه فابعُد عن كل ما عداه ، وإذا أردت المكانة عنده فَدَعْ ما تهواه لما تراه ، وإذا أردت الدُّعاء إليه فَمَيِّزْ مالك مما عليك فى دعواه . — طاعاتك كلها مدخولة ، فلذلك ما هى ليست مقبولة . هممك كلُّها فاسدة ، فلذلك ما ليست هى [١٣٧] صاعدة . أعمالك كلها زائفة ، فلذلك ما ليست نافعة . أحوالك كلها مكروهة ، فلذلك ما ليست هى مرفوعة . ويلك ! إلى متى تنخدع ، وعندك أنك خادع ؟ وإلى متى تظن أنك رابح ، وأنت خاسر ؟ وإلى متى تدّعى ، وأنت منفّى ؟ وإلى متى تحتاج ، وأنت مكفى ؟ وإلى متى تبدى القلق ، وأنت غنى ؟ وإلى متى تهبط ، وأنت عَلِيّ ؟ ما أعجب أمراً تراه بعينك ، ألهاك عن أمر لا تراه بعقلك . الحمار أيضاً يرى بعينه ولا يرى بغيرها . أفأنت كالحمار فتعذر ؟ فإن لم تكن حماراً ، فلِمَ تتشبّه به ؟ وإن كنت ، فلِمَ تدّعى فضلاً عليه ؟ وإذا لم تكن حماراً بظاهر خَلْقك وصبْغتك ، فلا تكُنْه أيضاً بباطن نيتك وجِليّتك . قد والله فَسَدْتَ فساداً لا أرجوك معه لفلاح ، ولذلك ما أدرى بأىّ لسان أحاورك ، وبأى خُلُق أجاورك ، وفى أى حقيقةٍ أشاوِرُك ، وبأى شىء أداورك ؟ — سِرُّك كُفران ، ولفظك بُهتان ، وسُرورك طغيان ، وحزنك عِصيان ،

وغناك مرح وبَطَر ، وفقرك ترح وضجر ، وشِبَعُك كظّة [1] وتُخمة ، وجُوعك قنوط وتُهَمه ، وغَزْوك رياء وسُمْعة ، وحَجُّك حيلة وخُدْعة ، وأحوالك كلها بَهْرَجٌ وزَيَف ، وأنت لا تحاسب نفسك عليها : هَلُمَّ ، ولا : لِمَ وكيف اهـ .

ما أسعد من كان فى صدره وديعة الله بالإيمان فحفظها حتى لا يسلبها منه أحد ! أتدرى ما هذه الوديعة ؟

هى والله وديعة رفيعة هى التى سبقت لك منه وأنت بَدَدٌ [2] فى التراب لم تجمعك بَعْدُ الصورةُ ، ولم يقع عليك اسم ، ولم تُعْرَف لك عَيْن ، ولم يَدُلَّ عليك خبر ، ولا يحويك [3] مكان ، ولم يَصِفْك عِيان ، ولم يُحِطْك بيان ، ولم يأت عليك أوان . أنت فى ملكوت غيب الله ثابتٌ فى علم الله ، عُطُلٌ [4] من كل شىء إلا من مشيئة الله [٣٧ ب] . تُرَشَّح لمعرفته ، وتُلحظ فى صفوته ، وتُؤَهَّل لدعوته . فما أسعدك أيها العبد ! فهذه العناية القديمة من ربك الكريم الذى نظر لك قبل أن تنظر لنفسك ، وأيّدك بما لم تهتد إليه همتك ، حتى إذا نَشَر مَطْوِيَّك ورَتَق مُفَتَّقك ، وجمع مفترِقَك ، وقوَّم مُنْأَدَك [5] ، وسوَّى مُعْوَجَّك وفتح عينك ، وطرح شعاعها على ملكوته التى جعلها قُبالة بصرك ، وعَرَّفك نفسك ، ودعاك باسمك ، وشهرك بحكمته فيك ، وأظهر قدرته عليك ، وعجّبك وعجّب غيرك منك ، ولاطفك ولطف لك ، وبَيّن لك مكانتك إذا أطعت ، ومهانتك إذا عصيت . وثَبْتَ على شهواتك فتناولتها ، وعلى لذاتك فانهمكت فيها ،

(١) الكظة (بالكسر) : البِطْنة .
(٢) أى : متفرّق .
(٣) ص : يحوك .
(٤) عُطُل (بضمتين) : متجرد ، عارٍ عن .
(٥) المنأدّ : المعوجّ .

وعلى معاصيك (لمن هذا حديثه معك) فركبت سنامها ، ولم تفكر فيما خلفها وأمامها . ولمّا قيل لك : اتَّقِ الله ! أَخَذَتْكَ العِزَّةُ بالإثم ، وبُؤْتَ فيما فيك من نعم الله عليك تَهِرُّ [1] على ناصحك ، وتهزأ بالمشفق عليك ، وتُحاجُّه بالجهالة ، وتقابله بالكبرياء والخِيلة [2] . إنك عندى لمن المسرفين ، بل من المجرمين ، بل من الظالمين ، بل من الفاسقين ، بل من المطرودين ، بل ممن قد تعرّض لأن يسلبه الله ما أعطاه ، ويجعل النار مأواه ، حتى يصير عبرة لمن وراءه [3] اهـ .

يا هذا ! أَحَجَرٌ أنتَ ؟ فما أقسى قلبك ! وما أذهبك فيما يغضب عليك ربك ! أبينك وبين نفسك تِرَةٌ [4] أو كيد ؟ هل يفعل الإنسان العاقل بعَدُوِّه ما تفعله أنت بروحك ؟ لا ينفعك وعظ وإن كان شافياً ، ولا ينجعُ فيك نُصْحٌ [5] وإن كان كافياً ! اللهم تفضل علينا بعفوك إن لم نستحق رضاك . يا ذا الجلال والإكرام !

---

(١) هرّ الكلبُ : نبح وكشّر عن أنيابه .

(٢) الكبرياء .

(٣) أى وراءه ، يتبع سيرته .

(٤) تِرَة : ثأر .

(٥) ص : نصحاً .

أركان المعرفة

من الإشارات الإلٰهية (يب)

[١٣٨ ا] العلم بلاء ، والجهل عناء ، والعمل رياء ، والقول داء ، والسكوت هباء ، والنظر عَداء ؛ وكلُّ ذلك سَواء . فأما بلاء العلم فلأنه يهوِى بصاحبه[١] إلى لُجج الفكر . وأما عناء الجهل فلأنه يقْحِم صاحبه فى شِعاب[٢] النكْر . وأما رياء العمل فلأنه يجلب على صاحبه جميع الكد . وأما داء القول فلأنه يَصُبُّ العُجْبَ على أهْلِهِ فى كل قبول ورد . وأما هباء السكوت فلأنه يُعرِّى صاحبه من كل فائدة . وأما عَداء النظر فلأنه يعود على صاحبه بكل آبدة . وأما سَواء كُلِّه فلأنه عِلْمٌ لذوى النُّهى باحتمال كله . فهات الآن حالاً ليس للعلم فيها نسب ، ولا للجهل فيها سبب ، ولا للعمل فيها بقِيَّة ، ولا للقول فيها خبِيّة[٣] ، ولا للسكوت معها عِلاوة ، ولا للنظر عندها علاقة ، ولا لكلّه فيها استواء ، ولا لبعضه منها التواء . وأين تلك الحال وكيف ؟ وهل تقف عليها بعَدْل أو حَيْف ؟ وهل تصل إليها برمح أو سيف ؟ وهل تقدر أن تتمنّاها بـ « لعل » أو « سوف » ؟ فإذا كانت هذه الحال تتنزه عن التمنّى فى ضمائر النفس ، فكيف يستطاع الامتلاء بها على صحة الإرادة والحقيقة والقيس ؟ هى والله حال ذابت عليها الأكباد ، ومَرّت على هذا الحديث فى نعمتها الدهور والآباد . هى والله حال زَهَقت عليها النفوسُ والأرواح ، وأتى على نعمتها المساء والصباح . هى والله عَلَتْ عن الصفات والرسوم ، كما نزلت الصفات والرسوم عنها . هى والله حالٌ

(١) ص : بصاحبها .

(٢) جمع شعب (بكسر الشين وسكون العين) : الطريق .

(٣) خبيّة : شئ مخبأ ، والجمع : خبايا .

سَبَح فى لجتها فكر كل نحرير فلم يصل إلى ساحل ، وطار فى هوائها وَهْمُ كلٍّ متمكنٍ فلم يقع على طائل . هى والله حال إن حلمْتَ بها أيقظتك ، فإن استيقظت عنها حلمت بك . هى والله حال [٣٨ ب] برزت بالجبروت ، وخفيت فى الملكوت ، فلا الكلام يقع فى وصفها أو تمنيها ، ولا السكوت . هى والله حال مَنْ ذاقها عرف ، ومن عرفها وصف ، ومن وصفها انتهى ووقف ، ومن انتهى عنها وتوقف ابتدأ الحنين إليها وتشوّف . دع هذا أيضاً ! واسمع شجو لبيبٍ كرِه المُقامَ فى هذه الدار التى قد امتلأت بالذئاب ، فقال :

نَظَرْتُ فلم يَعْلَق بعينى سِوى القَذَى
وجُلْتُ فلم أَجلِب لنفسِى سوى الأذَى
ولم أرَ وجهاً مستحقاً لـ « مرحبا »
ولا وجهَ أمرٍ مستحقاً لـ « حبّذا »
رأيتُ شِرار الناس يُمضون حكمهم
على الجانب الأدنى إلى الشر منفذا
ويَسْعَوْن فيه نحو أبعدِ غايةٍ
وإن كان وجهُ الخير أقربَ مأخذا
وواصلتُهم حتى سئمتُ فلم أجد
سوى هجرهم مِنْ وَصْلهم لِيَ مُنْقِذا
يَعُدُّون ، عند السخط ، حِلمِى مهانةً
ويَسْمُون يوم الحَفْل عارِضَتِى بَذَا[1]

(١) بذاء : فاحشة ؛ يَسْمُون : أصلها : يَسمِون .

ويَغْلون من أرخى لهم من عِنانه
بسوطٍ ، ويستخذون للمرء ذى الشَّذا [١]
فقد ترَكَ الوعظَ اللبيبُ لأنه
إذا هُذَّ [٢] قول البِرّ ظنوه قد هَذى
وما يصنع العَيْنُ العليم بشحذه
إذا لم يجد فى جانب السيف مَشْحَذا
فخذْ نائياً عن سمتهم متحرِّزاً
وسِرْ بينهم من شَرِّهم متعوِّذا
وعِشْ هكذا طولَ الحياة فربَّما
سَلِمْتَ عن الأشرار إن عِشْتَ هكذا
وصِلْ حيوانَ الأرض ، لا من ارتدى
على صورة الإنسان منها أو احتذى
فإن تبلُ هذا الجنسَ تَبْلُ أشدَّها
خبيئةَ أحقادٍ وأبلغها أذى

[١٣٩] ودع هذا أيضاً بعد أن تَرْتعِى زَهْرَه ، وتجتنى ثمره ، وترِدَ أوّله وآخره ، وتعرف ظاهره وباطنه . وعُدْ بنا إلى حديث الأعمال وآفاتها ، وإلى حديث الأفكار ومنافاتها ، وإلى حديث الأذكار وموافاتها ،

(١) الشذا : الأذى والشر . يقال لكل شىء يؤذى : شذا . ويقال : أنى لأخشى شذاة فلانٍ : أى شرّه .

(٢) الهَذّ : القطْع .

وإلى حديث العبودية وصفاتها ، وإلى حديث الربوبيـة ومصافاتها . وأما الأعمال فمشوبة ، وأما الأفكار فمُريبـة ؛ وأما الأذكار فمعوقة ، وأما العبودية فمحوقة ، وأما الربوبية فسحيقة . هذا نَعْتٌ على الاختصار والإيجاز ، فإن أردت أن تَشْبع بعد هذا وتَرْوِيَ[1] ، وتتخلص من فنون القول وتكتفى ، فتجرَّع مرارة الدنيا ، وتجنَّب حلاوة الشكوى ، وتلذذ بصُعوبة البَلْوى ، فلعلك تُؤهَّل لخالصة النجوى ، بالنظر فى أشعار الهدى ، من ديوان العلىّ الأعلى . لا ناصح لك إلا من نفى عنك الكدر ، وجلب إليك الصفو ، ولا مرشد إلا من أخذ بيدك من الظلمات ، وهجم بك على النور ، ولا مشفق عليك إلا من دعاك إلى حاله بعلمه لا بقوله ؛ ولا خادع لك إلا من زخرف لك علمه بقلمه . تنكَّب سبيل الغاوين ، واهجر عرَصات المذنبين ، واسهر ليلك مع المتهجدين ، وتشبه بأهل الدين المتين ، واعتبر بالماضين ، واعلم أنك منهم فى الباقين ، وكاثر البكّائين ، وداخل فى جملة الواجدين ، وانطق عن زمرة الله رب العالمين ، وانف عنه سوء ظن الظانّين ، وتقرَّب إليه بذم العاصين ، وأصْفِ طاعة الطائعين ، وامتَح حزبه الغالبين ، وانظر إلى قدرته على الخلق أجمعين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين .

يا هذا ! إلى كم أستميلك إلى حظك ، وأتقلّب معك إلى مرادك ؟ ! لستُ منك إن لم تُعِنّى على ذلك ، ولستَ منى إن سلكتَ طريق المهالك . أمن العدل أن أنصحك وتَغُشّنى وأرِقّ لك وتقسو علىّ ، وأريد بك الحُسْنَى [٣٩ ب] وتكايدنى ، وأهوى لك الجميلَ وتُعنِّتَنِى ، وأدُلّك على رُشْدك وتضلّ عنى ، وأقيمك على المحجة فتتقاعس علىّ ؟ إنْ هذا إلا شقاء قد سبق إليك دونى . البُعْدَ منك البُعْدَ ! البراء منك البراء ؟ الويلَ لك الويلَ !

(١) ص : تردى .

الخيبةَ لك الخيبة ! لمثلك سُعِّرت الجحيم ، وأُعِدَّ لمثلك العذاب الأليم ، وبك أُغرى المُقْعَد والمقيم ، وبمثلك سق الحميم ، ولمثلك هيئ العذاب الأليم . لا ترجع فى أمورك كلها إلى رعاية لوقت أو مصارفةٍ فى نَفْسٍ ، واحتياط فى دِين ، أو أمانة فى معاملة ، أو جهادٍ لهوى ، أو كبت لشيطان ، أو فَيْئَةٍ إلى التقى ، أو رجعة إلى الهدى ، أو طَفْرةٍ إلى النُّهى ، أو هجرة للعِدَى ، أو فعلة للآخرة دون الأولى . — ها أنا قد أعرضت عنك حياء لك . ها أنا قد استوحشت منك خوفاً عليك . ها أنا قد أعذرت جهدى وطاعتى إليك . ها أنا قد غسلت يدى من فلاحك . ها أنا قد يئست من صلاحك . أهكذا يكون من عرف الله سراً أو جهراً ؟ أهكذا يكون من اعترف به رياء أو إخلاصاً ؟ أهكذا يكون من تطاعم إحسان الله غائباً أو حاضراً ؟ أهكذا يكون من ذكر الله سراً أو جهراً ؟ أهكذا يكون من اشتاق إليه ساكناً أو متحركاً ؟ أهكذا يكون من أحبه متسلياً أو متهالكاً ؟ أهكذا يكون من دعا إليه صادقاً وكاذبا ؟ أهكذا يكون من تمرّغ فى نعمه صباحاً أو مساء ؟ أهكذا يكون من بودى بالآية مُشبَّهاً أو نائماً ؟ أهكذا يكون من تلاطف شاهداً وغائباً ؟ أهكذا يكون من يحافظ على حظّه راضياً أو عاتبا ؟ أهكذا يكون من هو محتاج مع من هو غنّى ؟ أهكذا يكون من هو عاجز مع من هو قوى ؟ أهكذا يكون من هو عبد مع من هو سيّد ؟ أهكذا هكذا أبداً إلى أن ينكسر القلم عند الكتابة ، وإلى أن يعيا اللسان [١٤٠] عند الخطابة ، وإلى أن يهيم القلب فى وادى المهابة ، وإلى أن تفقد الروح فى فلاة الغيابة ؟ !

يا هذا ! قد وَصَفْتُك ووصفت غيرك معك وأنا غيرك ؛ فى وصفك وصفى ، وفى وصفى وصفك ، حتى نتعاون على نيل هذه الخيرات بالمبالغة فى الطاعات ، والمداومة على العبادات ، والمبادرة للساعات ، والحذر من الآفات ، والهرب

من العاهات ، والثبات على رفض الشهوات ، والإعراض عن اللذات ، والتوجه إلى خالق الحيوان والنبات . فإنه إذا رأى إخلاصنا فى فقرنا إليه وتعاوننا على طلب ما لديه ، أخذ بأيدينا ، وجذب بنواصينا ، وأطلعنا على ما فينا ، وكان لنا ناصراً ومعيناً ؛ إنه كريم فصدِّق ، ورحيم فحقِّق ، وجواد فثِقْ . سَلْه فإنه لن يُفْتَحَ باب المسئلة منه إلا ويُدِرّ أخلافَ برِه من لَدُنه . معاملته قد جُرِّبت وحمدت ، وأخباره شاعت فصدقت ، وشواهده بانت وانتشرت ، ونعمه واصلت فدامت . إنْ توعَّدك فإنما يخوّفك ، وإن وعدك فإنما يشوّقك ، وإن عاتبك فإنما يشرفك ، وإن كرر عليك فإنما يعرّفك ، وإن فرّقك فإنما يؤلّفك ، وإن أخذ منك ، فإنما يسلّفك . كلٌّ فِعْلِه عجيبٌ ، وكل شأنه غريب ، وكل ما تريده منه قريب ، ليس له فى هذه الصفات شريك ولا ضريب . حَلُمَ عنك ليغضب عليك ، وغَضِبَ لئلا يحلم عنك ، ووَصَفَكَ حتى كأنك منه ، ودعاك حتى كأنه محتاج إليك ، ولاطفك حتى كأنه لا بُدَّ له منك . وأنت فى جميع هذه الأحوال سادر هادر ، لا تَلْوِى على فائتك من رضاه ، ولا تبالى بما تجنى عليك يدك . لم هذا ولماذا ؟ ألك ربٌ غيره ؟ ألك مولى سواه ؟ هل رأيت الخير قطُّ إلا منه ؟ هل هدأت قطُّ إلا معه ؟ هل وصل إليك برٌّ إلا عنه ؟ هل كان لك قِوام إلا بقدرته ؟ هل كان <لك> انغماس إلا فى نعمته ؟ هل كان [٤٠ب] لك مدارٌ إلاّ على مشيئته ؟ هل كان لك رجاء إلا فى رحمته ؟ هل كان لك نجاةٌ إلاّ بعصمته ؟ هل كان لك رَسْمٌ إلا بجوده وسَعَته ؟ هل كان لك اسم إلا بتسميته ؟ هل كان بك غنًى إلا عن نُصْرته ؟ هل كان لك التفات إلا على عقْوته (١) ؟ هل كان لك استقلال بغير كفايته ؟

---

(١) العقْوة : شجر ، وما حول الدار ، والمَحلة ، كالعقاة : والجمع عِقاء .

هل كان لك مخرج من ولايته ؟ هل كان لك بيان عن إلاهيته ؟ — لا والله ! أين أنت بالنسبة التى لك منك إلى ذرة من خلقه لو شاء لأبرز منها ما يحار فيه بصرك ، ويتبدّد عليه عقلك ، ويضمحل دونه كُلُّك وبعضك ، ويبيد عنده شاهدك ورَسْمك ! إلزم — عافاك الله — حدَّك ، وطالب نفسك لله بما له عندك ، واحرص على أن تكون عبداً حقاً : فإنه إن وَجدك عبداً حقاً لم يَرْضَ لك حتى يجعلك ملكاً حقاً . هذا سِرُّه فيك ، ومُراده لك . فافْطُن ودَعِ الكسل ، واطمأنِنْ .

اللهم إنّا بك — فلا تُلْهِنا عنك ، ولك — فلا تسلِّط علينا غيرك ، وإليك — فلا تصرف وجوهنا دونك . إياك نرجو ونخاف ، وسواك نكره ونعاف ، وإليك نسعى حافدين [1] ، وجنابك نرعى وافدين ، ونُعْماك ننشر على الأقربين والأبعدين ، وبحقك نتهادى بين المريدين والعارفين ، وفيك نتحير والهين داهلين [2] ، وفيك نُرَغّب الزاهدين الشاكين ، ورحمتك نرجو محتاجين مفتقرين ، وعن ربوبيتك نُنَفّر واجدين مُرَجّين ، وبصحبتك نفتخر بهجين وفرحين . يا هذا ! ارحم غربتى فى هذه اللغة العجماء ، بين هذه الدهماء الغبراء ، وتعجّب من بدائى فى هذه الفلاة الغبراءِ بين الأرض والسماء . فلا أحد [3] يجيب مساعداً أو معيناً حتى كأنه [4] أوطان المعرفة قد خلت من سكانها ، ومنازل العبادة قد خلت من قُطّانها ؛ وحتى كأن القدرة مع بُدُوّها خافية ، والحوادثَ مع تكرّرها متجافية . أين العقول الحصيفة ؟ أين القرائح الصافية ؟

---

(١) حَفَد يحفد حَفْداً وحَفَداناً : خفّ فى العمل وأسرع .

(٢) دَلِه يَدْلَه (من باب فرح) : ذهب فؤاده من هَمٍّ أو وَجْد .

(٣) ص : أحداً .

(٤) كذا ! ولعل صوابه كأن .

أين الأذهان المتوافية ؟ أين الألسن الفصيحة ؟أين الأخلاق السجيحة [١] ؟ أين الأيدى المبسوطة الى الخيرات ؟أين التّواصى بالنصائح والعظات ؟أين الإقبال على إنجاز العِدَات ؟ أين ملازمة الأساطين فى المساجد لانتظار الصلاة بعد الصلاة ؟ أين الخوض فى استبانة المعارف عند سوانح الخطرات ؟أين محاسبة الأشرار عند خائنة [٢] الأعين فى النظرات بعد النظرات ؟أين الأعين الراشحة بالعبرات عند تذكر العثرات فى عقِبَ العثرات ؟ أين الندم القارح للأكباد [التى] على الفَرَطات [٣] بعد الفرطات ؟أين الحُرَق المتوالية على ما سلف من التقصير مع الحسرات على الحسرات ! اللهمّ فسَلِّمنا من هذه الكُرَبات المتصلة بالكُرَبات ، ياذا الجلال والإكرام !

---

(١) السجيحة : السَّمْحة

(٢) خائنة الأعين : ما يسارق من النظر إلى ما لا يحلّ .

(٣) فَرَطَ (من باب نصر) فى الأمر ، فَرْطاً : قصّر فيه وضيّعه حتى فات .

ذم التفضيل بالغاشية والحاشية
من الإشارات الإلهية (يج)

ألاَ قارعَ لباب الله ؟ ألا قاصد إلى الله ؟ ألا راغب فيما عند الله ؟ ألا عائف لنَهْيِي الله ؟ ألا قابل لأمر الله ؟ ألا هائم فى الله ؟ ألا واجد بالله ؟ ألا متوكل على الله ؟ ألا مناجى لله ؟ ألا باذل لرُوحه فى الله ؟ ألا ناظر لنفسه مع الله ؟ ألا آخذ بخُطام سِرِّه بحق الله ؟ ألا محاسبَ لنفسه على حقّ الله ؟ ألا متوجهٌ إلى ما عند الله ؟ ألا خاطب لما عند الله ؟ ألا مسرور بتوحيد الله ؟ ألا نادم على ما فرط له من مخالفة الله ؟ ألا مشير بالحقيقة إلى الله ؟ ألا معظِّمٌ لشعائر الله ؟ ألا مقتدى بسُفَراء الله ، ألا متبجبح فى روضة الله ؟ ألا شارع فى غدير الله ؟ ألا واثق بالله ؟ ألا طامع فى وعد الله ؟ ألا خائف من وعيد الله ؟ ألا راحم لعباد الله ؟ ألا عامر [٤١ ب] لبلاد الله ؟ ألا مُنْتَحى [١] لِفناء الله ؟ ألا ناشر لكلمة الله ؟ ألا داعى إلى الله ؟ ألا مجيب لله ؟ ألا شفيع لعبد الله إلى الله ؟ ألا مُشْفِقَ من خيانته على نفسه من الله ؟ ألا ذاكر بالتحقيق لله ؟ ألا عابد بالإخلاص لله ؟ ألا شاكر على النعمة لله ؟ ألا صابر على البلوى لوجه الله ؟ ألا مصغى لعتاب الله فى كتاب الله ؟ ألا مشتاق إلى رِضْوان الله ؟ ألا منافس فى طاعة الله ؟ ألا مُتَحوِّل عن أوطان المخالفة إلى جوار الله ؟ ألا راضى بقضاء الله ؟ ألا محدِّث عن الله ؟ ألا دالّ على قدرة الله ؟ ألا باسط للرجاء فى عفو الله ؟

يا هذا ! خلت العِراصُ [٢] من ناس كانوا إذا تنفّسوا أحرقوا الحجب بينهم وبين الله : تيهاً به ، وثقة بوعده ، ورضاً بفعله ، وحظاً فى اختياره ،

(١) ص : منتح .

(٢) جمع عَرْصَة : كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء .

وتسليماً لحكمه . كانوا إذا برّزوا لك صفحاتِ وجوههم رأيت تباشيرَ الخير عليهم ، وروائد[١] الصدق معهم ؛ وكانوا إذا ذكروا الله تقلقلت ضمائرهم بألوان الشوق إلى المصير إليه ، وإلى القيام بين يديه . أين أولئك ، وأين هم ! وكيف ذهبوا بأسْرِهم حتى لم يبق منهم ديّار ولا صافر ولا نافخ ضَرَمة[٢] ! فلهذا حالَ نورُ الدين ، وقل التلذذ بوجدان اليقين ، وقحِلتْ الأسرارُ عن ندى الغيب المكنون ، وبُلى كل أحد بالظنون والمظنون ، وصار « كل حزب بما لديهم فرحون » . فإنّا لله وإنّا إليه راجعون .

ياهذا ! عدّ عن ذكر قوم بانوا بأشخاصهم وأرواحهم وإن كانوا قد أبقوا عندنا من تراثهم ما يشوقنا إلى اللحاق بهم هم ، واسمع ما أخصك بذكره وأريد نفسى أيضاً معك فى عَرْصةٍ إذا نفَحَتْ فى صدرك نفحة من نفحات روض الأُنس من العالم الأعلى فارقد عليها ، وتلذّذ بطعمها ، واستدمْ نسيمها من معدنها ، وشِمْ مُزْنتها من سمائها . ولا سبيل لك إلى ذلك [١٤٢] إلا[٣] برفض الرذائل كلّها : قليلها وكثيرها ، وتحلّى الفضائل بأسرها : دقيقها وجليلها . وهذه صورة الإلٰهية متى حركتَ نفسك إليها وحُلّيت بزينتها ، وبرَزْتَ ببهجتها ، وزارتك ملائكة السماء بالتحية بعد التحية ، وأهدت إليك العطية بعد العطية ، — كَرُمْتَ بين البَرِيّة ، وصِرْتَ إذا دَعَوْتَ أُجِبْتَ ، وإذا تمنيت أصَبْتَ ، وإذا توهمت حققت ، وإذا أومأت اكتفيت ، وإذا أشرْتَ بلّغْتَ ، وإذا قلت كان قولك مسموعاً ، وإذا سعيت كان سعيك مشكوراً ، وإذا عملت كان عملك مبروراً . وقد ذكرت لك الفضائل جملةً بالاسم العام ، وكذلك الرذائل ،

---

(١) جمع رائد .

(٢) الضَّرَمة (محركة) : الجمرة ، النار .

(٣) ص : الى .

وما أحوجك إلى تصنيفها من طريق الإيجاز إن تعذر كشفها على طريق الإشباع والإبراز. منها — عافاك الله ! — الشجاعة ، وهى التى بها تقهر كل ماتوعر منك وتُلين كل ما يَعرم[(١)] عليك. وكل هذه الشجاعة — التى تتخذها قَعودك[(٢)] ، وتجعل عليها قيامك وقُعودك — تمكنك أن تقهر ما أردت مما عداك ، لأنك إذا قَدَرْت على نفسك فأنت على نفس غيرك أقدر ، وإذا جُرت فى خاصتك[(٣)] فأنت عن خاصة غيرك أجور . — ومنها العدالة ، التى إذا صارت لك صورة اكتسبت بها بهجةً إلاهية ، لأنك تملك بهذه الخلة التساوى ، والتساوى من الوحدة ، والوحدة هى التى إليها الشوق ، وعليها وَلِه الخلق . — ومنها الحلم ، وهو الذى يُحلّيك بحلية ربانية ، إذا بدوت بها طُووعت وخودمت وقوربت وحمدت . والحلم من الخصال المرقية للبشر عن صفات النوع . — ومنها الكرم ، وهو الذى به قِوامك فى نفسك ، وعليه مَدارُكَ مع بنى جنسك . — ومنها الرأفة ، وهى التى تثنى إليك أعناق الجبابرة . — ومنها [٤٢ ب] الجود ، وهو الذى يكمّلك الكمال اللائق بك بقدر طاقتك .

و <إذ> قد انكشفت لك أيضاً الفضائل بأسمائها الخاصة وحدودها العامة ، فقد انكشفت لك أيضاً الرذائل بأسمائها الخاصة ورسومها العامة — أعنى أنك إن نظرت إلى الشجاعة التفتَّ إلى الجُبن ، وإذا أشرت إلى الكرم فقد أومأت إلى اللؤم ، وإذا ذكرت الحلم فقد زَهّدْتَ فى السفَه ؛ وإذا ما كَنَيْتَ عن الجود فقد صرحت بالبخل . فلهذا قلت : إن بانكشاف الفضائل انكشافَ الرذائل ، وكذلك بانكشاف الرذائل انكشافُ الفضائل . ولا تأخُّر ، لأن التأخر

(١) عرم كنصر وضرب وكرم وعلم ، عَرامة وعُراما ، فهو عارم وعرم : اشتد .

(٢) القعود بالفتح : من الإبل ما يقتعده الراعى فى كل حاجة .

(٣) ص : خلصتك .

والتقدم بالزمان والمكان ، وليس هناك زمان ولا مكان . فإن قلت : والتصاحب أيضاً فى الزمان والمكان . فالجواب أن هذا غلط ، إلا إذا سلطت إرادتك على قوابل الحس ، لأن التصاحب صورة مأخوذة من الوحدة ، والوحدة بها يكون غيرها متوحداً ، ولا تكون به هى وحدة . وهذا كلام زَلِلْنا به عن مكاننا الذى كنا واقفين عليه . ولا عجب ، فإن المعانى إذا تدفقت بالعزّ رأيت الحروف تتبدد بالذل ، لأن تلك من المبسوط الأول ، وهذا من المقبوض الثانى . فلهذا ما شَنُعَ هذا الفعل ، وحسُنَ العذر ، ووجب بعدهما الغفْرُ والقبول على عادة أهل التفضّل . وإذا كان قولهم[١] :

وفى كلّ شىء له آيةٌ تَدُلُّ على أنه الواحدُ

صحيحاً ، فلا شك أن أصناف الحيوانات وضروب الجمادات على هذا . وبقى أن نفهم عنها نطقها ، فإن بعضها ينطق بالشكل والقدر ، وبعضها بالحلية والصورة ، وبعضها بالحرف والصوت ، وبعضها بالنقصان والكمال ، وبعضها بالعقل ، وبعضها بالحس ، وبعضها بالتركيب من الجميع ، وبعضها بالفعل الوارد عليه . فإذا صدَقَتْ رغبتك [١٤٣ ا] فى البحث عن هذه الغرائب التى لدَّتك[٢] فى نفسك وفى جنسك ، بانَ لك حينئذ ، بالعيان واليقين ، ما كنت غافلاً عنه بالشك والظنون ، واستفدت من ذلك نوعاً من التوحيد لا تجده فى قاصٍ[٣] المحلة وحاكم البلدة ومتوسط الخصومة ومفتى الجادة ؛ بل هو نمط

(١) البيت لأبى العتاهية راجع ديوانه : « الأنوار الزاهية فى ديوان أبى العتاهية » ، ص ٧٠ س ٢ . طبعة اليسوعيين . بيروت سنة ١٨٨٦

(٢) لدَّه : حبسه .

(٣) كذا ! ويمكن أن يكون أصله : قاضى ، بدليل قوله : حاكم ، متوسط الخصومة .

قد خصّ الله به أعيان عباده ، وأعلامَ خلقه فى بلاده ، فلهم بهذه الخصوصية منازل الملائكة وكرامة أولى العزم من الرسل . وكيف لا يكون هذا النعْتُ تاماً ، وهذا القول عاماً ، ونحن نعلم أن استخراج الذهب من معدنه أشرفُ من جمع البَعْر من عِطْنه ! وإذا كان الله تعالى كما قال : « وما قدَرُوا الله حقَّ قدْرِه »[1] ، فلأن يجتهد فى وصفه بكل ما كان دالاً عليه وداعياً إليه وموثقاً به ومؤمناً منه كان أولى وأوجب ، والتوحيد من ناحيته أعلى وأمجد . فلهذا وشِبْهه عثَرْت بتلك الكلمات الروائع فى سمتها غير هائب من كل حاضر وغائب ، وسامع وطالب.

يا هذا ! إن الله عمّ بنعمته وخصّ بفضله ، وجعل العامّ فوضى لا تَزاحُم عليه ولا تنافُس فيه ، وجعل الخاص مصروفاً إلى أهليه . فانظر فى حالك مميزاً بين مالك منك ، وبين ما عليك فيك ، فإن كنت من الذين عمّتهم نعمته — فأنت قانع بذلك لا تتوق إلى أكثر منه — فأنت على شأنك غير ملوم ولا مذموم . وإن كنت من الذين خصّهم فضلُه ، وبك نزاع إلى تخليص ذلك منك وإظهاره عنك ، حتى يبرز لعينك ، ويتجلى لبصرك ، ويصح به التنافس لك ، فاجتهد أن تتصفح عالَمَ ربك المجيد فتعرفَ منه ما بَطَنَ وما ظهَر ، وما أُعلِن وما استتر ، وما جلَّ وما دقَّ ، وما فعل وما انفعل ، وما نطق وما صمت ، وما ضرَّ وما نفع ، وما دبَّ وما مشى ، وما انتصب وما انتكس ، [٤٣ ب] وما ضاق وما اتسع ، وما استدار وما استقام ، وما اختلف وما ائتلف ، وما صعد وما هبط ، وما لزم قراراً واحداً وما دار كل مدار ، وما تغير وما جل عن أن يتغير ، وما حسن وما قبح ، وما أَنِس وما نفَر ، وما عاد وما فرَّ ، وما انتظم وما التأم ، وما خَصِب[2] وما أجدب ، وما اعوجّ وما اعتدل ،

(١) سورة « الأنعام » : آية ٩١

(٢) من بابى : علم وضرب.

وما أراد وما كَرِه ، وما قَرُب وما بَعُد ، وما بلى وما بقى ، وما سَعِدَ وما شقى ، وما نزل وما رَقِىَ ، وما اختلط وما استقلّ ، وما احتاج وما استغنى ، وما نمى وما نقص ، وما طار وما سبح ، وما حقّ وما بَطَل ، وما صفا وما كدر ، وما رطب وما يبس ، وما زان وما شان ، وما كان وما يكون ، وما لم يكن ولا يكون . وإذا عرفت هذه الأشياء عرفته بها من [كل] ناحيةِ دلالتها عليه ، وعرفتها به من ناحية صُنْعه لها . وبهذه المعرفة تستوضح غوامض حكمته ، وتستجلى غوالب قدرته . وبهذه المعرفة تشهد منافذ مشيئته فى مجارى إرادته . فإذا ائتلفت لك هذه المعارف ائتلافاً وصارت معرفة واحدة ، علقت به على يقين وعيان . فحينئذ لايكون فى نوعك من هو أكرم منك عند الله ، ولا أوجه عنده إلا مَنْ كان له نصيب مثل نصيبك وولاية كولايتك . وهذا شيء ليس باللعب ولا بالأمر الحقير ، ولا بالحديث الخفيف . فتعالَ حتى نفرض أن هذه المعرفة حَصَلَتْ لواحدٍ من عباد الله الذين قد طبقوا الأرض . أليس ينبغى أن يكون له الشَّفُّ (١) والفَضْل والمزيّة ، والإبراز والتبريز ، والتقدم على الباقين الذين يجرون بالشكل والتخطيط والرسم والتحديد مجراه ، وينطلق عليهم اسمه . فلم لا تكون — عافاك الله — هذا الرجل ، ولم لا أكونه أنا ؟ ولكن أقول ذلك . فما أنت أسعد بقبُولك منى بقبولى ممن هدانى لهذا ودَلّنى .

يا هذا ! أنت ربما فَضَّلْتَ حِماراً على حمار وبَغلاً على بغل وفرساً على فرس وهِرّة على هرة [٤٤ ا] وكذلك الحيوان (٢) كله — فلم لا تفضّل إنساناً على إنسان ، وإذا فضّلت إنساناً على إنسان ، فلم لا تفضّله بالفضائل والأخلاق

---

(١) الشف (ويكسر أوله) : الفضل والنقصان ، ضد .

(٢) فى هامش الأصل عند هذا الموضع : خامس .

والعادات والأفعال ، ولـكن تفضله بالدراهم والدنانير ، والثياب والضّياع ، والغاشية والحاشية ؟ إنك إذاً لمن الظالمين ، لأنك قد جهلت الفاضل : مَنْ يكون ، والفضل : ماذا يكون . إن كنت لم تجهل الفاضل ولا الفضل ، فكن الفاضل واكتسب الفضل ، فليس بين العلم والعمل سور ؛ وإن كان سورٌ فليس من حديد ؛ وإن كان من حديد ، فالحديد أيضاً يعالج بما يلين به ويَستجيب له .

يا هذا ! صارف نفسك فى أنفاسها وفى خواطرها ، فإن لم تقدر ففى نيّاتها وَعزَماتها ، فإن لم تقدر ففى مقاصدها ومراصدها ، فإن لم تفعل ففى أفعالها واختياراتها ، فإن لم تقدر ففى أبدالها وفيما يقوم مقامها ، فإن لم تقدر فأَكْبِرْ نائحة تنوح عليك فإنّك [1] فى الأحياء ميت كما كان غيرك فى الأموات حيا .

ما أغرب هذه الإشارة ! وما أخص هذه العبارة ! ولـكن أين الذين يدورون ويحضرون فيسمعون ، بل أين الذين يسمعون فيعقلون ، بل أين الذين يعقلون ويحصّلون ما يعقلون ! فكم كلمة عُقلت ، ولـكنها من ذلك شَرَدَت ، فطالت عليها الحسرة والندامة . إن الـكلمة تطلب مقرّها الموافق لها ؛ فإذا صادفت سكنت ، وإذا لم تصادف جالت فى آفاق النفوس دائبةً إلى أن تجدَ مكانها اللائق بها . وإذا نطق بها من لا ينتفع بها فذاك أيضاً لتبرّؤها عن صدر الناطق وقلة رضاها به ، وقلقها إلى غيره . وأسرار الإنسان فى نفسه ، وأسرار نفسه فيه غريبة بديعة ، لا تستوعب بتحصيل ، ولا يوقف منها على تفصيل . ولهذا يجب البحث والنظر على طول الزمن ، فإن الفائدة مع الزمان بطول الإعسار وشدة الاختيار . إلهنا ! [٤٤ ب] زاغت الأبصار حين سرحت نحوك ، وارتدت خاسئةً حين رامتك ، وحارت الألباب حين فحصت عنك ، وانكفأت

(١) ص : فإن .

على أعقابها فُرْقَةً منك : فالأحساس[١] تنزّه عنها لأنها أحسن من أن توجد بها، والألباب تحيّرها فيك لأنها — على كل حالٍ — خلقك ، ولست تأذن لخلقك إلا فى لزوم حده وطاعته لك . فقد أضرّ بنا تنزُّهك فى الأول وتحيرك فى الثانى ، ولذلك ما قد تَبَرّمْنا بهذا الشوق الدائم ، وبهذه الحركة المتصلة ، وبهذا النزاع القائم اﻫ .

إلهنا ! فإن لم يكن محالاً من أحد هذين الوجهين فَجُدْ علينا بذلك ، وإنا لديك شاكرون وله مستحقون . وإن كان محالاً ، فنحن أعلم بك من أن نسألك المحال و نطلب مالا يجوز أن يُطلب . فَأبْرِدْ أكبادنا من حَرّ الشوق إلى ذلك بالقناعة والتسليم حين تثبت لك على الصراط المستقيم ، راضين بما قسمت ، شاكرين لما وهبت ، متقبِّلين لما تفضّلت ، مفوضين إليك ، راغبين فيك ، عالمين بأنّك المنعم الأول والمحسن الأفضل . اللهم احذف عن ألسنتنا فُضولَ القول معك ، خاصةً فى وقت مسئلتك . واجعل هيبتنا لك بقدر توكلنا عليك ، ولا تجعل بعض أقاويلنا وبالاً ، ولا بعض عقائدنا ضلالاً ، فإنا لا نقول إلا ما أنت أهله ، ولا نعتقد إلا ما أنت أولى به ، ياذا الجلال والإكرام !

رسالة (يد)

إلهنا ! لا حمد إلا لوجهك ، ولا إتقان إلا لفعلك ، ولا نفاذ إلا لحُكْمك ، ولا بهجة إلا لعالمك ، ولا نور إلا ماسطع من لَدُنْك ، ولا صواب إلا فى قضائك ، ولا حلاوة إلا فى كلامك ، ولا قوام إلا بتأييدك ، ولا تمام إلا بترتيبك ، [١٤٥] ولا صلاح إلا بتهذيبك ، ولا مضاء إلا بتسبيبك ، ولا سكون

(١) يوجد فى هامش الأصل بعد هذه الكلمة : تحيرها .

إلا فى فِنائك ، ولا هناءة إلا فى عطائك ، ولا حكمة إلا فى أنبائك ، ولا أُنْسَ إلا مع أوليائك ، ولا نَشْرَ إلا لآلائك ، ولا بصيرة إلا بإلهامك ، ولا سكينة الا بإلمامك ، ولا حجة إلافى أحكامك ، ولا تدبير إلا بين نَقْضك وإبرامك ، ولا وصف إلا لك ، ولا وُجْد إلا بك ، ولا توكل إلا عليك ، ولا رحمة إلا منك ، ولا تهالُك إلا عليك ، ولا خير إلا عنك ، ولا شرف إلا بتشريفك ، ولا استبانة إلا بتعريفك ، ولا اهتداء إلا بتوقيفك ، ولا إجابة إلا بتلطيفك ، ولا رُشْدَ إلا فى تكليفك . إلهنا ! فبقدرتك التى أتت من وراء خلقك ، وبحكمتك التى اشتملت على جميع بريتك ، وبمشيئتك التى نفذت فى كل عبادك — إلا آنستنا بعبادتك ، وأمْدَدْتَنا منها بزيادتك ، وأذقتنا عذوبة القرب منك ، وخالطتنا بالذين اجتبيتهم لخدمتك ، فإنك إذا فعلت ذلك بنا فقد صرفت عنا غائلة كل غائل ، وأمّنتنا كيد كل ما حل[1] .

إلهنا ! كيف نطلبك وأنت قبل الطلب موجود ؟ أم كيف نجدك وأنت بعد الطلب مفقود ؟ لست مفقوداً بالدين ولكنك مفقود عن الدين ، ولست موجوداً بالعقل ولكنك موجود للعقل ، وليس يلتبس أمرك إلاّ على من حجبته عنك ، ولم تؤهله لمعرفتك ، ولا رأيته مستحقاً للإشارة إليك . مقَتَّه فجهلك ، وحجبته فجحدك ، وأنكرته فأنكرك .

إلهنا ! بحرمة هذه السابقة منك إلينا إلا ألحقتنا بعصابة الأتقياء عندك ، وحشرتنا فى زمرة الأولياء قِبلك ، وخصصتنا بعد هذا وهذا بما لا نُحْسِن أن نتمناه ، ولا نجسر على أن نتخطاه .

---

(١) محل به (مثلثة الحاء) ، مَحلاً ومِحالاً : كاده بسعاية إلى السلطان .

يا هذا ! إذا سمعت مثل هـذه الصفات [٤٥ ب] ، بمثل هذه السِّمات ، على شكل هـذه اللغات ، فاستشعر العظمة ، فإنك بهـذا الاستشعار تستحق التكرمة ؛ وهذه المعارف بهذه النعوت هى سلاليم قلوب العارفين فى الترق إلى ساحة الربوبية الغاصّة بأحكام الإلهيّة ، فهيئ — عافاك الله — لنفسك سُلَّماً منها ، واحرِص على الترقى عليها ، فإذا حصلت هنـاك فتبَحْبَح كيف أردت ، وتبوّأ حيث شئت ، فقد نجوت من الدنيا وآفاتها ، وتخلّصت من هذه الدار وعاهاتها ، وفُزْتَ بنعيمٍ لا نفاد له ، وخلودٍ لا آخر له ، وعزٍ لا ذل بعده . حبيبى ! أما ترى ضيعتى فى تحفّظى ؟ أما ترى رقدتى فى تيقظى ؟ أما ترى تفرق فى تجمعى ؟ أما ترى غُصّتى فى إساغتى ؟ أما ترى دعائى لغيرى مع قلة إجابتى ؟ أما ترى ضلالى فى اهتدائى ؟ أما ترى رشدى فى غيّ ؟ أما ترى عِيِّى فى بلاغتى ؟ أما ترى ضعفى فى قوّتى ؟ أما ترى عجزى فى قدرتى ؟ أما ترى غيبتى فى حضورى ؟ أما ترى كونى فى ظهورى ؟ أما ترى ضعفى فى شرفى ؟ أما ترى سخافتى فى زماتتى[1] ؟ أما ترى غشى فى نصيحتى ؟ أما ترى عنائى فى راحتى ؟ أما ترى دائى فى دوائى ؟ أما ترى بلائى من مولائى ؟ أما ترى علىّ هذا إلى أن يفنى الورى ، وينفَدَ الثرىٰ ، ويفقَدَ السرَىٰ ؟

يا هذا ! لو توحّدتَ عن كثرتى ، أو تفردتَ عن صحبتى ، أو لزمت حجتى بدل شبهتى ، أو رفضت سهوى[2] على شدة سهوى[2] ، لأبصرت الطريق واضحاً . وكان دعائى لك بعد سبق إلى الإجابة ، ونصحى إياك بعد انتصاحى لمن عداك ، ولكنى ممنوٌ مبلوٌ منحوٌ ممحوٌ : ممنوٌ بنفسى ، ومبلوٌ بجنسى ؛ منحوٌ بعادتى ، ممحوٌ بآفتى ؛ فلهذا قد أصبحت مفضوحاً عند كل ناظرٍ إلىّ

(١) زمُت (كـكرم) زماتة : وَقُرَ ، والزِّميت الوقور .

(٢) ص : شهوى .

وواقف عليّ ، وصرت عَلَماً بالخَلْق بالدعوى العارية من البرهان ، والحجة الملفقة بلا بيان . إن استترت ذُكرت ، وإن انتشرتَ [١٤٦] شهرت ، فقد بقيت مكدوداً مهدوداً ، ليس معى تعلل بالوعد ولا تقلقل من الوعيد . أتدرى لم هذا كله ؟ أقول لك : « لم » بينى وبينك جاريةٌ على سبيل الخبر والاستخبار ، وعلى وجه التحفظ والاستظهار . هذا كله لأنه أبدأ لى الحركة والسكون ، وصرف بينهما كل ما كان ويكون ، فغرقت العيون فى العيون ، واختلطت الظنون بالظنون ، وأشكل أمر الغابن والمغبون ، وحصل الخلق تحت الحال لا يدرون ولا يعقلون . عمّ التلبيس ، فغمض الفرق بين التعميم والتخصيص . فلا جَرَمَ ، إن قال قائل : هل هو ؟ — أجيب بما يحيّره . وإن قال : لم هو ؟ — أجيب بما يخيّبه . وإن قال : كم هو ؟ — أجيب بما يُخرِسه . فما الحيلة والسِّتْر مُسْبَل ، وليس له رافع ، والعجب[(١)] واقع وليس له دافع ، والشك معترض وليس له مانع !

يا هذا ! دع سَكْران الهوى حتى يتهادى فى سُكْره ، ودع مقلّد الحال حتى يتمادى فى نُكْره ، ودع مدبر الخلق حتى يوصف بذكره ، ودع المحتاج حتى يموت على حاجته ، والمريض حتى يتناهى فى دَنَفه ، والدَّنِف حتى يفضى إلى تلفه ، — فليس إلى البُغية سبيل ، ولا على دَرْك الرضا دليل . للعقل صلف شديد ، فإذا قُدْته إلى التقليد جمح ، وللحسّ برق ظاهر إذا أشرت له إلى التسمح ثاب وعاد ، وثبت واعتاد ؛ والإنسان بينهما أسير ، إن أراد طاعتهما حادّاه وشاقّاه ، وإن مال إلى أحدهما اجتمعا عليه ودقّاه . فكيف يطيب عيش مَنْ يفيض صدره بهذه الحفائظ ، ويغلى سِرُّه بهذه المغائظ ! ما يطيب والله لحظة عين . الحديثُ أطول من هذا ، ولكنْ فى فمى ماء . على أنى

---

(١) ص : العجائب .

قد سقت العبارة هكذا وهكذا ، شرقاً وغرباً ، وجنوباً وشمالاً ، وأرضاً وسماءاً ، فلم أدع للكتابة قوة إلا عصرتها عند العثور عليها ، ولا للتصريح علامة إلا ونصبتها حين وصلت إليها . وإشفاقى على من لا يفهم لكدر طباعه ، أو لبلادة فهمه ، أو لغالب جهله ، أو لعصبية تعتريه شديدة ، لأنه يفسد وقد قَصَدْتُ صلاحه ، ويَغْوى وقد أردت فَلَاحه . إنّا لله وإنّا إليه راجعون . أصبحت :

. . . كأنى ذُبالةٌ نُصِبَتْ   تُضىء للناس وهى تحترقُ (1)

لعلك تقول بغفلتك وقلة تجربتك وقصور نظرك : فلو سكتَّ فى الجملة كان أصلح من هذه الاستغاثة المكرّرة ، ومن هذا العويل الطويل ، ومن هذه البداءات المعترضة ، ومن هذه الطرق المختلفة . فالجواب عن قولك : إنك لو أحسست بالداعى إلى هذا القول ، وبالمهيِّج على هذا التهويل ، لكان عذرى عندك مبسوطا ، وكان اعتراضك عنى مقبوضا . ولكنك لا تحسّ ، ولا أظنك تحس . والله ما نَبَسْتُ من هذه السطور الكثيرة والورقات المتصلة بحرف إلا بعد الخناق الشديد وعصر الفؤاد بالكره ، وإلا بعد التلويح فى المنام ، وإلا بعد الإلقاء والإلمام ، وإلا بعد الاعتراض فى المقام والمقام . وكاد روحى يخرج فى هذه الحال التى كانت تعَرّض ، فرأيت الخطر بالبَوْح مع هذا الحث المتوالى أهونَ من هذا الصمت مع هذا البعث المتعالى. فنبستُ كما ترى . على أنك لو أنصفت ، علمت أنى فى كل ذلك واسطةٌ مستخدَم ، ومُستعارٌ مستقدم ، ليس لى فى أطرافه أثر إلا ما يتعلق بالنسج والفِحاء (2) ، والنقش والإنباء . والدليل

(1) من بيت شعر للعباس بن الأحنف . راجع ديوانه ص ١١ س ١٩ . طبع مطبعة الجوائب . قسطنطينية ، سنة ١٢٩٨ هـ .

(2) فحا بكلامه إلى كذا : ذهب إليه . ويقصد بالإنباء : التعبير واللفظ .

على ذلك أنى نظرت فيه كله بعد ارتفاعه ، فما وجدتنى فى موضع منه : لا بالذوق من الباطن ، ولا بالشوق من الظاهر . فإن صدقتنى فى هذا الخبر ، فقد قضيت حق الذمام الجامع بينى و بينك فى الطريقة ؛ وإن كذبتنى فما لى بعد هذا حيلة على الحقيقة .

يا هذا ! دَعْنى من هذا وهذا ! قلت نعم وقلت ، وأشرت وكَنَيْتُ ، وسميت وكتبت ، وحاججت ولا ججت ، وبقَّيْتُ [١٤٧ ا] واشتريت ، ومحوت وأثبتُّ ، وجمعت وفرّقت ، ونَصَحْتُ وغَشَشْتُ ، ومَحَضْتُ ومَذَقْتُ[١] ، وعسّرت وسهّلت ، وصدقت وكذبت . كأن ياذا أنت مسيطرٌ علىّ ، وأنت مطالب فِىّ ، « لكم دينكم ولى دين[٢] » . ما هذه النفاسة[٣] ، ما هذا الحسد ، ما هذه المغايظة[٤] ؟ هل فيكم من بَرَزَ له من بين سِنّى قلمه هذا كله أو بعضه ؟ ثم لا فخر بالإمساك ، لأن الإمساك قد يكون عن قدرة كما يكون عن عجز . وأقول أيضاً قول الآخر على شكل آخر حتى يكون أقدّ[٥] لحشا الحاسد ، وأضرَمَ لنار الكمد[٦] ، وأقتّ لكبد المنافس . نعم سَيِّدى ! نَطَقْتَ بالحق ، ونطقت للحق . وما نطقت ولكنه أنطقنى ؛ على أنه ما أنطقنى حتى خصنى ، وما خصنى حتى أذن لى ، ولا أذن لى حتى حلانى تحلية الخطباء

(١) منق الود : لم يُخْلِصْه .

(٢) سورة « الكافرين » : آية : ٦

(٣) من نفس (من باب عَلِم) عليه كذا ، أى : حسده عليه .

(٤) ص : المغايضة (والخطأ من السامع) .

(٥) أفعل تفضيل من قدّ : قطع .

(٦) لعل أصله : الكامد ، والكَمَد هو الحزن الشديد ومرض القلب منه — كَمِدَ : كفرح ، فهو كامد وكَمِد وكميد .

الذين لا يجوز لهم صعود المنابر إلا بعد أدوات يستعينون بها ، وهيآت يتحلون بها . فهكذا جرى أمرى وأعلا وأمجد ، فليجد من شاء ، « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء [1] » . إلى متى أداريك وتماربنى ، وأرابيك وتواربنى ، كأنى جوزة تدفعنى كيف شئت ، وتسيمنى بما أردت .

يا هذا ! عدّ عن هذا أيضاً . فإنك إن أخذت فى اقتصاصه وسياقته طال ولم يدخلك فيه ملل ، لأنه يجرى مجرى شفاء الغيظ ، وأمور الدنيا أحقر وأزرى من أن يُوهب لصوابها وقتٌ يمدح به ، أو يفرغ لخطاها زمان تذم فيه .

يا هذا ! عدّ بنا إلى متن التوحيد ، وإلى عُمق المعرفة ، وإلى عُقْبان [2] الوجد ، وإلى آخر مدى التوكل ، وإلى العلل العارضة فى هذه الأحوال ، وإلى الواضحات الواردة بالإشكال ، وإلى المشكلات الصادرة بالداء العُضَال . فإن الخَوْضَ فى هذه الأشياء أنفع من المهاترة فيما كنّا فيه ، لأن الكلام مع الخصم من المهاترة [٤٧ ب] والمناظرة والمذاكرة . فأما المهاترة فبابٌ ينشأ من التنافس وإيثار الغَلَبة . وأما المذاكرة فالمقصود بها طلب الفائدة ، كالرأى المعروض على العقول المختلفة إلى أن يقع الاختيار عليه بعد الاتفاق . وأما المناظرة فمتوسطة بين المهاترة والمذاكرة ، قد تفضى إلى المنافسة ، وقد توجد بها الفائدة ، وهى كالفكاهة بين العلماء . فإذا سلمت هذه العبارة ، فتعال حتى نقول : متن التوحيد مشاهدة الواحد بالضمير المعتقد على الآخر ، على مباينة كل ماسواه . وعُمْقُ المعرفة سكون النفس إلى المعروف بما لابس النفس من الأنس . وعُقبان الوجد هو أن كل ما عدا من الوجد ، به بدا . وآخر مدى التوكل غُنْية صاحبه برؤية المتوكل عليه عن كل ما اقتضاه التوكل

(١) سور : « الملك » : آية ٥٩ ؛ « الحديد » : آية ٢١ ؛ « الجمعة » : ٤

(٢) العُقْبان (بضم العين) : العاقبة .

فى الأول . وأما العلل الواردة فى الأحوال فهى عبارة عن الآفات الناشئة من النفس الأمّارة ، وعن الآفات الفاشية فى الكون . وأما الواضحات الواردات بالإشكال فكلُّ ماسُمِعَ مما اقتضى لِمَ ، فوقَع الحجاب عنه . وأما المشكلات الصادرة بالداء العضال فهى المقابلات للواضحات الواردة بالإشكال لأنها تصدر عن نيات مَشوبه وطويات مُريبة .

فهذا ما اعتَنَّ[1] من القول فى هذا الوقت . وإذا بَسَط الزمانُ كفَّه وأعرضَ طرْفَه ، أتينا على هذا كله ببيان أشفّ من هذا وأشفى ، وضممنا إلى جميعه ما يكون داخلاً فى شكله وناهضاً بحمله ، إن شاء الله . فلا يردَعَنَّك لفظ يكون قاصراً عن مرادك فى الحال ، فإنك إذا عدت النظر عاد ذلك القاصر بالغاً وذلك المتضائل ضخماً .

ياهذا ! جرِّد عزيمتك فى تطْرية ذهنك ، وتطهير نفسك ، وتقذية[2] عينك ، وتنقية قلبك ، وتحلية روحك ، وتوقية بعضك ، وترقية كلك ، فإنك [١٤٨] مطالب بعد قليل بأن تناجى ربك بلا واسطة بينه وبينك . فانظر كيف تكون فى هيأتك وحجتك ، ومعذرتك ومكانتك ، وانبساطك واحتشامك — فإنك إن لم تأخذ عَتاد الأمر قبل إطلاله أعجلك إطلاله عن إرساله على حاله . وبهذا جرت العادة ومرَّ الدهرُ واستتب الأمر ، فلا تجعل التقصير ديدناً لك فليس كل وقت يحتمل ذلك ؛ واحذر نفسك وحذِّرها منك ، فإنك إذا ضممت حِذْرك إلى تحذيرك نصحتك وثبتت لك . هذا منتهى قولى لك فى هذا الجزء بعد التياث

---

(١) عَنَّ الشىء يَعِنُّ ويَعُنُّ عنا وعَنَناً وعُنوناً : إذا ظهر أمامك واعترض — كاعتَنَّ .

(٢) قَذّى عينه تقذية وأقذاها : ألقى فيها القَذى ، أو أخرجه منها ، ضد — والمقصود هنا المعنى الأخير .

وتقاعسٍ اعترضانى بك ومنك . فاسعو[1] أبقاك الله بما أمرتك بذلك وبما نهيتك عنه من أجله ، والسّلام .

اللهمّ إن بحرَكَ إذا عطمط[2] مَوْجُهُ وهال الواقف منه على الساحل ، فكيف مَنْ هو فى وسطه يترنح به الموج وتتهاداه الريح ! اللهمّ فسلِّمنا كيفما شئت ، واهدنا للتى هى أقوم عندك وأرْشَدُ لديك . فاحفظنا إذا قلنا ، فإنما نقول لك ولوجهك ؛ وألهِمْنا إذا سكتنا ، فإنما نَسْكُتُ مِنْ أجلك ولعظمتك . وإذا كنت لها[3] فى حالتى القول والسكوت ، أمِنّا بعدهما بعفوك إن نزل أو نَضِل[4] .

ياذا الجلال والإكرام !

رسالة (يه)

أشرقت الأكوان بالأشباح ، وشَرُفَتْ الأعيان بالأرواح ، وتجلت أسرارُ الحقّ فيها بين الافتراح والارتياح ؛ وتناجت النفوس على بُعْد الديار بما تتخافت فيه الأفواه على قرب المزار ، ووردت على الناظرين خوائن الأبصار ، والتقت فى الغيب سوانح الإقرار والإنكار ، وقيل لصاحب الشوق : هِجْ وَلَهاً وَعِبْ عَلَهاً[5] ؛ وقيل لصاحب الوجد : زِدْ نَمَداً أو مُتْ كَمَداً ؛

---

(١) كذا فى الأصل فهل أصلها : فاسعد ؟

(٢) لم نجدها فى معاجم اللغة ، إنما وجدنا عطمط (بالعين) ، والعطمطة تتابع الأصوات وحكاية الصوت : عيط عيط . ولهذا يمكن أن تكون هذه حكاية الصوت : عيط ميط .

(٣) كذا ! ولعل أصله : لنا .

(٤) نَضِل كفرح : هُزِل وأعيا ؛ والمقصود هنا قلّ أو لم يأت . أو تقرأ : نَزِلَ أو نَضِلَ .

(٥) عَلِه كفرح : تحيّر ودهش ، وجاء وذهب فزعا .

وقيل لصاحب العيب : اخسأ مهيناً ، وانأ مشيناً ؛ وقيل لصاحب الحب : هات بياناً ، وأبْرِزْ برهاناً. فعندها لحظ اللاحظون بعين الصدق ، ولفظ اللافظون بلسان الحق شنآنَ الحال ، واضمحلال المقال ، والتواء المنال . فناجوا فى السرائر ، وباحوا بالضمائر ، ورفعوا رقوم البواطن والظواهر ، وافترقوا عن الألفة ، وتكثروا بالوحدة ، وخيّموا بين سواحل التجنى وبلاغ التمنى ، فما مكثوا مطمئنين ولا لبثوا مُرْجَحِنّين . حتى هاجت دواعى المنى ، وماجت سواعى الهوى ، فمن طائحٍ فى البحر غريق ، ومن تائه فى البر بلا رفيق . على أن حفظ الحال مع الشتات والإهتات (١) أولى من إهمالها وإرسالها بالعناد والإعنات ، ولأن يُكان (٢) فى الهوى بحكم التشتيت خير من أن يُكانَ فى السلوة بحكم الاجتماع . السّلوة مجانبة ، والهوى مكاتبة ؛ السلوة سهو الرُّوح ، والهوى روض الروح ؛ والسلوة طَرْد ، والهوى تحريش (٣) ؛ السلوة إعراض ، والهوى استعراض . وهل تعرضتَ للهوى إلا بعد أن عرضك ، فتعريضه قبل تعريضك ، ودعاؤه قبل إجابتك ، ولطفه قبل استلطافك ، وعطفه قبل استعطافك . وليس الهوى فى هذه القصة حظ النفس أو حظ الحس إلى الحس . لا وحقّ الحق الذى برَأ الأشياء ثم برىء منها ، وخلاها ثم خَلّى عنها ، وأبانها ثم بان فيها ، وأفاضها ثم فاض عليها . ما المراد بالهوى هناك ، ما يراد بغير ذاك ؟ إلا بيضاء (٤) مترادفة بالعادة ، متصادفة بالإفادة . فالأسماء مطروحة بالتوقيف ، والمعانى مأخوذة بالتعريف . الأسماء مختلفة بكدر الخلق ، والمعانى

(١) الهت : تمزيق الثياب والأعراض .

(٢) كان يكين : خضع ، وأكانه الله : خضّعه وأدخل عليه الذل .

(٣) التحريش : الإغراء . ومنه : حرّش بين القوم : أغرى بعضهم ببعض .

(٤) كذا : بمصا !

مؤتلفة بصفو الحق . الأسماء مسموعة بلسان التفرقة ، والمعانى مسموعة بلسان الجمع . الأسماء متنافية باللغات ، والمعانى متصافية بحكم الصفات . أما تعلم أن الأنس بالمعانى على إيثار الحق ، مُقَدَّم [١٤٩] على الاستيحاش فى الأسماء لتنافيها على إيثار الخلق ؟ الأسماء محدودة بالأفهام ، والمعانى معدودة بالإلهام . فإياك أن تلحظ المعانى بعين الاسم فتعطب ، وإياك أن تعطى الاسم ذات المعنى فتتعب ، وإياك أن تعطى المعنى رسم الاسم فتكذب ؛ وإياك أن تفرق بينهما فتتهم ، وإياك أن تجمع بينهما فتوهم . ههُنا زَلِقَتْ أقدام المتكلمين ، وانتكست أعلام المتحذلقين ، لأنهم « سَعَوْا فى آياته مُعاجزين » (١) ، ونظروا فى الآية مستهزئين ، وركنوا إلى عقولهم مفتخرين متعززين ، فنكصوا على أعقابهم خائبين خاسرين . إن كنت من أهل الغُصّة فتجرّع بالتسليم مرارة الغُصّة ، إن أردت أن تلحق بالملأ الأعلى فذُبْ بين البلاء والبِلى ، إن كنت من أهل المحنة فلا تنظر إلى المِحنة ، ولكن انظر إلى المِنّة فى المحنة .

يا هذا ! افحص عن ودائع الحق فيك ، وانفُضْ خزائنه قِبلك ، واشهد آلاءه عندك ، واطلب مزيده بالشكر على ما نوّلك . فإذا أعوزك الشكر فاعترف بالعجز عن القيام بما أمرك . فوّض إليه ما زوى عنك علمه ، وطُوى دونك حكمه ، وسُتر عن عقلك حكمته ، وأظهر على جملتك قدرته . إن أوحشك خفاء الحكمة ، فاستأنس بظهور القدرة . إن أدهشك فضاء الإلهية فاستأمن إلى حد العبودية . إن غاظك انفراده بعلومه منك وإرادته فيك ، فاسكَن إلى ما ألبسك من أمره ونهيه . واعلم أنه إن اطّرد عليه اعتراضك لم يصلح أن يكون إلهاً لك . وإن سمع فيه قولك ، لم تصلح أن تكون عبداً له .

---

(١) سورة « الحج » : آية : ٥ ، سورة « سبأ » : آية ٥

ياهذا ! انظر إلى زينة الكون مستظرِفاً، وفكِّر فى دواوين ملكوته مستعرِفاً، وانتبه عن رقداتك متخوفاً ، ثم انتبه فى انتباهك متوقفاً ، ثم احكم على نفسك مترفرفاً . ولن يُفْتَحَ لك هذا الباب ، ولا يُبْسَطُ لك هذا البساط [٤٩ ب] حتى تصحب كونك بفراق كونك ، وتبيد فى عينك عن عينك ، وتنأى عن شاهد زَيْنك وشَيْنك ، وتمحو أثر المكان فى أينك ، وحتى يبقى « أنت » منسلخاً عنك ، ونعتك منفسخاً عليك ، وحتى ترى أن مَطارِبك بالتمنى معاطبك بالتمادى ، ومآلِفك بالعيان متالِفك بالخبر . فإذا بلغت هذا الحدّ ، لم يبق بينك وبينك [١] ضد ، ولا نِد . فَرِدْ ، حينئذ ، بحره الطّامى ظامئاً ، ورِدْ روضه الناضر [٢] ناظراً ، فإنك تذوق بغير مذوق ما لم يَذُقْه مخلوق اهـ .

يا هذا ! إن عاقك العجز المبذور فيك عن تناول الجوهر المنثور عليك ، فارْعَ زهرة الأمانى متعللاً ، وتشبث بعلائق التوحد مترسلاً ، ونُحْ على نفسك نوح الثَّكول ، وكاشفها مكاشفة النَّصوح العَقُول [٣] ، وافتتح أمرها بأن تفطمها عن عادتها وتَكْظِمها عن حِرَّتها ، وتخدمها مستخدماً لها . فإذا صرخت عليك فاضحةً لك ، فامتهنها صائناً لها ، وذَلِّلها طالباً لغيرها ، وانْسُبها إلى غَيْرَتها ، واستُرْ عليها ما فى طيِّها — فإنها إن لم تطعك كل الطاعة ، لم تشنع عليك كل الشناعة . يا هذا ! ارفق قليلاً ، والحقْ معنى جليلا : احتجب عن الجهل بالحلم ، وغُضَّ عن الفهم بالوهم ، وانقر الذكر بالفكر ، واطلب المزيد بالشكر ،

(١) لعل أصلها : بينه ؟ أو المعنى أنه وصل إلى الاثنينية التى تنقلب عما قليل إلى التوحيد بين الأنا والأنا ؟

(٢) ص : الناظر ناظراً — وقد وضعت الظاء مكان الضاد إما خطأ من الناسخ ، أو اشتباهاً منه وهو يسمع من مُمْل ينطق الضاد كالفرس .

(٣) العَقول : المدرك الفاهم للأمور . والنَّصوح : الناصح . الثَّكول : الثكلى .

وأخفِ المكر فى الأمر ، وامزُج الصحو بالسُّكْر ، وألِّف ما بين العذل[١] والعُذْر ، وشرِّف القول بالفعل ، وتردَّد بين الفصل والوصل ، ثم ارقَ على الكل فى الكل ، فإن محقق الكل فوق الكل . أتدرى ما الذى وجدت فيما وجدت ممن أوجد كل واجد ما وجد ؟ وجدت الجملة العويصة على الجمهور هى التفصيل المشكل على الأفراد ، والحال المفروضة بالكمال هى النهاية المنقوضة بالتحقيق عند الخواص ، فأنا عند العيان قائم مع البُهْت[٢] ، وعند الخبر واقف مع التهْمة ، ومع النصيحة متمسك بالاستفشاش . إن قلت قلت متحسراً [١٥٠] وإن سكت سكت متحيِّراً ، وإن نظرت نظرت متنمراً ، وإن أغضيت أغضيت متذمراً ، وإن سَكَنْتُ سَكَنْتُ متهوراً ، وإن تحركتُ تحركتُ متشوِّراً[٣] .

فأنا كما قال بعض العارفين :

عرفتُ <الحبَّ>[٤] لما صار كلى   بدا من كله صبّاً عميدا
أشرت إليه من أَمَمٍ[٥] لأنى   أمِنْتُ من الهوى فيه صُدودا
فتِهْتُ به عليه إذ حبانى   بمعناه ، وصِرْتُ به وحيدا
أنِسْتُ به لبُعْدِ الخلق منى   فقد أصبحتُ موجوداً فقيدا
معَادى أنت فى وهمى وحتّى   بأن أصبحت مُبْدىً المعيدا
وقالوا : قد وصلت . فقلت : قولاً   أكون به غَوِياً أو رشيدا
ظننتم أننى أدركت معنى   وأنَّى يُدْرِكُ العدَمُ الوجودا

(١) العذل : اللوم .

(٢) البهت والبهتان : الكذب ، الافتراء .

(٣) تشوّر : فعل فعلاً يستحيا منه .

(٤) ناقص ، هو أو ما فى معناه ، حتى يستقيم الوزن .

(٥) قريب .

يا هذا ! هذا لسان التصوف ، والتصوف اسم يجمع أنواعاً من الإشارة وضروباً من العبارة ، وجملته التذلل للحق بالتعزز على الحق [١] . ياهذا ! حواجز الكون معترضة دون على [٢] النش بزينة الكون ، لأن مدار الكون على تقلّب وتفلّت يصيران بهذا الغير إلى مَدْخلٍ ضيّق . وحكم المدفوع إليه حكمه ، لأنه من نتاجه ونسجه ، وغِراسه وسقيه . وإنما يوحّد الحق الأحد الواحد بعد الواحد بما يهب له من الغيب فى الغيب ، حتى يُطهِّرَ ها هنا من الريب والعَيْب . وهذا مرام بعيد ، وأمر صعب ، ومحنة عمّت وشملت ، وبليّة أظلّت من فوق وأقلّت من تحت . فقل لى : متى تجلى بنات الصدور على هذه الشرائط ؟ ومتى تقوى عزائم الصبر على هذه البسائط ؟ — ليس إلا التلمظ بحلاوة النجوى ، والعزوف عن مواطن الشكوى ، والأنفة من كشف آثار البلوى ، — إلى أن تعطف عواطف ، وتلطف لواطف ، فيشتفى حرّان ، ويهتدى حيران ، ويرْقأ دمع ، ويصفوَ سمْع ، وينْقى من العين [٥٠ ب] ما كدّرها ، ومن النفس ما غيّرها ، ومن الطّرْف ما أقذاه ، ومن القلب ما آذاه اهـ .

أفدِى والله هذه الفنونَ ، المستخرجة من هذا المعنى المصون . أفدى والله عيناً باتت تدمع من خشية الله . بل أفدى والله نفساً ظلت خاضعة مهيبة هيبة لله . بل أفدى والله لساناً تلجلج بالاعتذار إلى الله . بل أفدى والله قلباً ما يزال خافقاً من حياء الله . بل أفدى والله قدماً زلّت على الحركة فى سخط الله . بل أفدى والله يداً كَفّتْ بنانها عن تناول ما لم يُبِحه الله .

---

(١) كذا فى الأصل . والتعزز يأتى بمعنى اللوم والتعظيم ، ضد . ويجوز أن يكون الأصل هو : التعزز على الخلق .

(٢) كذا ! ولعلها : دون البصيرة على ...

بل أفدى والله روحاً تهالكت وَجداً على أولياء الله . بل أفدى والله نعمة أديتْ بها حقوق الله . بل أفدى والله عقلاً اشتاق إلى موعود الله . بل أفدى والله كَبِداً أوثر على الراحة لوجه الله . بل أفدى واللهِ الحديثَ عن الله والحياةَ مع الله . بل أفدى والله خاطراً يسنح مبشّراً بذكر الله . اللهم هَبْ لنا حال القائل :

ما إن تنفستُ إلاَّ خطرتَ أنت ببالى
ولا رميتُ بطرفى إلا وكنتَ خيالى
وما ذكرتُك إلاَّ وَجَدْتُ وجداً بدا لى

اللهم وَقوِّنا بعزيمة الراجعين إلى بابك ، وبَيّض وجوهنا عند مناجاتك ، واغمرنا بمواد مواهبك ومنحك ، وآونا إلى كنَف أمْنك بالأمن منك ، وأمْطِر علينا سحائب جُودك وعطفك ، ووفقنا لأقْصَدِ السبيل إليك ، وخفف علينا فى كل الأمور التوكلَ عليك ، وسهِّل علينا طِلاب ما أعددته لأوليائك لديك ، واسلُبْنا مِنّا ، وشَرِّدنا عنا ، وخُذْنا لنا ، وبقِّنا علينا ، ولا توالنا بالنعم استدراجا ، ولا تمهلنا بالتطاول احتجاجا ، ولا تؤاخذنا بَياتاً [1] ، وارحمنا إذا صرنا عظاما ورُفاتاً ، وجُدْ علينا إذا صدر الناس أشتاتا . إليك وكَّلنا كُلّنا ، وعليك طرحنا كُلّنا . يامن هو أرحم بنا مِنّا ، وأنظرُ لنا من أنفسنا ، وألطف بنا من آبائنا وأمهاتنا . امْحُ عنا صفاتنا باستيلائك ، ثم خَلِّنا علينا فيك بولائك اهـ .

---

(١) بَيات : اسمٌ من بيَّتَ العدوَّ : أوقعَ به ليلاً من دون أن يعلم .

[٥١ ا] رسالة : (يو)

اللهم إنى أسألك الحمدَ ، والرضا عنك ، والسكون إليك ، والثقة بك ، والقرار معك . فإن فى الحمد لك زيادة ، وفى الرضا عنك قُرْبة ، وفى السكون إليك توكلاً ، وفى الثقة بك إخلاصاً ، وفى القرار معك مصافاة . فأَجِرْنا[1] من عَيْب يَمَصُّ النفسَ صباح مساء ، وأَعِذْنا من كل ما لا طاقة لنا به فى ظلام وضياء ، واصرفنا عن كل سُمعة ورياء ، واكشف عنا كل بلاء وعناء ، واعمُمْنا بكل عطاء وحِباء ، واخصُصْنا بكل ولاء وآلاء ، وحُل بيننا وبيننا حتى نكون لك على الصفاء والنقاء ، بعد الفناء فى دار البقاء ، فإن الحيلولة بيننا تُصفِّى صفاتِنا ، وتطيِّب حياتنا ، وتكثر تحياتنا ، وتدنينا من فِنائك ، وتؤهلنا لوفدك[2] وعطائك ، وتصل بيننا وبينك بلطفك وعلائك ، وترسمنا فى زُمرة أوليائك وأصفيائك .

أيها المسترق للسمع، المتوالى فى هذا الجمع! إذا سمعتنى أدعو الله ، فثق بحسن ظنى به ؛ وإذا رأيتنى أدعوك إليه ، فثق بخالص نصحى لك ؛ وإذا وجدتنى أذكر الله ، فاعلم أنى أريد التقرب إليه ؛ وإذا صادفتنى أصف الشوق ، فتيقن أنى أريد بك أخذ العتاد والأُهْبة ؛ وإذا لحقتنى أشير إلى المحبة ، فاعلم أنى أهيجك على المواصلة ؛ وإذا رأيتنى أعيب الدنيا ، فاعلم أنى أريد أن أصْرف عنها نظرك[3] . أما سمعت الحكيم كيف يقول : إنى رأيت عواقب الدنيا فتركت ما أهوى لما أخشى . ففكرت فى الدنيا وجدّتها فإذا جميع جديدها يبلى ،

---

(١) أجاره الله من العذاب : أنقذه منه .

(٢) كذا ! ولعل صوابه : لرفدك .

(٣) بالهامش : نسخة : بصرك .

وإذا جميع أمورها عُقَبٌ (١) بين البرية قلّما تبقى ؛ وإذا بها صَرْفٌ يُعدّ لنا فى كل موضع زَهْرةٍ أفعى . وبلوتُ أكثر أهلها فإذا كل امرئ فى شأنه يسعى . ولقد نظرت فلم أجد خُلُقاً أعلى بصاحبه من التقوى . ولقد طلبت فلم أجد أحداً بأعزّ ممن قنع ولا أغنى . ولقد مررت على القبور فما ميزت بين العبد والمولى .

[٥١ ب] ما زالت الدنيا منغصة لم تُعرِّ صاحبها من البلوى .

يا هذا ! إذا وجدت طبيباً يجمع لك بين الحِذق والنُصح فارفع إليه داءك ، واعرِضْ عليه عِلّتك ، واصدُقه عما تقدم من غيبك ، فى مطعمك ومشربك ، حتى يصدقك عنك ويخبرك منك ، ويتلافاك لك ، ويسقيك ماينفعك ، ويحميك مايضرك . هذا إن كنت تحس بدائك ، وتحنّ إلى شفائك ، وتعلم أنك مطبوب ومحتاج إلى قيّم بك ومُرْفِق لك . [(٢) وما أحسن ما ألمّ بهذا المعنى بعضُ الممتحَنين (٣) ، فقال : أجيرونى من الكمَد المُعنِّى . وإن لم ترفقونى فارفقوا بى . يا هذا ! دعنى من دائك وعلتك ! أين أنت ممن مرتبتك فى همتك ، وهل لك فضل فى قوتك (٢) .] ومن لك بأمنك فى خيفتك ؟ أتراك تفرق فى حالتيك بين ذِلّتك وعِزّتك ؟ إن كان عندك لهذه المنازل علامة فاستبشر ، فقد جعلك الله من أهل الكرامة . وإن كنت غريباً منها فالزم باب الندامة ، فلعلك تهدى إلى الغنيمة أو إلى السلامة .

يا هذا ! اختلط الإفصاح باللُكنة ، وتلاقى النعيم والمحنة ، والتبست الغباوة بالفِطْنة ، وانتقضت عهود الرغبة والرهبة ، وصار الاستئناس من أحكام الجهر فى مقادير الاستيحاش من أحكام السر ، والشفاه ذابلة والصدور حامية ،

(١) يتعاقبونها واحد بعد آخر فلا تدوم لواحد .
(٢) ما بين المعقوفتين من هامش الأصل .
(٣) أى الذين أصابتهم محنة .

والقلوب متلظية ، والعيون غرق بالدموع ، والخدود ملطومة بالأكُفّ ، والوجوه مخموشة بالأظفار ، والجيوب مشقوقة بالأيدى ، والفوائت متمنّاة بالُحرق ، والعِيانات مشوبة بالَحسَرات ، والأكباد مفتتة بالعبرات ، والأحشاء ملتهبة بالزفرات ، والنظارة متحيرة عن هذه النوازل ، والأعداء شامتة بهذه الدواهى ، والأخبار مرفوعة بهذه الشناعات ، والديوان ناطق بهذه الفضائح ، والمأتم منعقد بهذه النوائح . فاللائم ملوم والحامد مذموم ، والمعزّى ثاكل والسّالى متطاول ، والزاهد محاول والراغب متناول . فيالك[1] من هرج ومرج قد وقع فيهما أهل هذه العبارة والإشارة ، بلا أمارة ولا أثارة : بلا أمارة من حلم يكف طلائع البأساء ، ولا أثارة من علم يزفّ عرائس السراء . يا هذا ! إذا دهمَ [١٥٢] مثلُ هذا الأمر المُشْكل ، وحار له اللب ، وعزب عن تصريفه الرأى ، فلم تجد هَضْبة تقيك إذا نحوْتها وعلوتها فانخلع من صفاتك[2] التى قد عادت عليك وبالاً ، وأورثتك حيرة وخبالا . ولقد أجاد من فسّر هذا المراد بظاهر من القول يزكو فى نفس المستمع إذا كان لنفسه نصيحاً[3] وكان فى سعيه نجيحاً ، حين قال :

وإذا جهلتَ فلم تجد خَبَراً — فَسَلِ الزمانَ فعنده الخبرُ
وإذا نظرت تريد مُعْتَبَراً — فانظر إليك ففيك مُعْتَبَرُ
أنتَ الذى لا شىء منه له — وأحقُّ منك بمالكَ القدَرُ
صُوَرٌ خُلِقْنَ من التراب معاً — يبقى التراب وتذهب الصُّوَرُ

(١) كذا ، ولعل أصلها : فياله .

(٢) ص : حفاتك !

(٣) نصيح : ناصح . ونجيح : ناجح .

يا هذا ! ما أجنحك [1] عن كل حظ لك فى مسرّتك ، وما أجمحك على كل حال هى عليك فى مضرّتك ! فيا أيها الحاسى سَمّه بيده ، ويا أيها الساعى على نفسه بحتفه ! إلى متى تغترّ وأنت تظن أنك غير مغترّ ؟ إلى متى تُدْبِر وأنت عندك أنك مُقْبِل ؟ وإلى متى تَصِمّ وأنت فى حسبانك أنك تَسْمَع ؟ وإلى متى تَعْمَى وفى تقديرك أنك مُبْصِر ؟ وإلى متى تحسب أنك رابح وأنت عين الخاسر ؟ تقول : خُذْ يومك [2] ، وانتهز لذتك ، وبادر ساعتك ، ونل إلى إرادتك ، وابلغ آخر ما فى نفسك ، فإنك ميت على قليل ، وهالك فى أول الرعيل . صدقت يا جاهل فى وقتك ، فالآن وجب النظر فيما بعد هذا الحديث . فليست الغَارة إلا فى هذه الغرارة ، ولا ترك الحَزْم إلا فى تقديم هذا العزم ، ولا العَقْد البَوارُ إلا فى هذا البِدار ، ولا الدمار إلا على هذا القرار . أرجع فأقول : لعل عذرك مقبول ، فإن النفس أمارة بالسوء ، والشياطين مستحوذة بالكيد ، وقرين السوء متسلط . [٥٢ ب] فالإلْف والعادة جارية على سَنَنها ، والإرادة جادّة على عَنَنِها ، والمعالجة عارضة بِفِتَنِها . فأين تجدك أو أين نجدك ؟ ذهبت قبل أن جئتَ ، وهلكت قبل أن سلمت ، وبطلت قبل أن حققت ، وبِنْتَ قبل أن كنت ، وفقدت قبل أن وجدت ، واعوججت قبل أن استقمت ، وهبطت قبل أن علوت ، وثكلت قبل أن مُتِعت ، وغبت قبل أن شهدت ، وعُزِلت قبل أن وليت ، وأمسيت قبل أن أصبحت . فيا أيها الجانى على نفسه ، الجارى [3] فى يومه على حكم أمسه ! أما تظن أنك مبعوث ، وعلى البعث محثوث ؟ هذا إن لم تعلم باليقين أن الطين ربما نفع ،

---

(١) جنح عن كذا : مال وعدل .

(٢) كأنها ترجمة حرفية للقول اللاتينى المشهور : ! Carpe diem

(٣) فى الأصل : الحارى .

وربما حمل على الاستظهار وأمتع . فمالى أدعوك وأنت نافر ؟ لعلك عند الله فى حكم كافر . ولم أقطع زمانى بك من غير جدوى تنطق بفلاحك ورجعتك ؟ ها هنا وصية ، فيها لك نصيحة وفية ، فتقبلها عاملاً بما فيها بعد أن تقف عليها عاقلا بما فيها ، غير مُداجٍ لنفسك ، ولا خادع لها عن حظك — كما قال الأول :

استُرْ بصبرٍ خَلَلَك والبَسْ عليه سَمَلك[١]
وكُلْ هزيليك على الـ راحة واشرَبْ وشَلَك[٢]
إذا اعترتك فاقةٌ فارحل برِفْقٍ جَمَلك
وارغب إلى الله م ونِطْ بما لديه عَمَلَك
وآخِ فى الله وصِلْ فى دِينه من وَصَلك
رزقك يأتيك إلى حين تُلاقِى أَجَلك
مالُكَ ما قدّمته وليس ما بعدك لك
وللزمان أَكلةٌ إذا اشتهاها أَكَلَك
وللرَّدَى قوسٌ فإن رماك عنها قتلك
يا ربِّ إنى راغبٌ أدعو وأرجو نَفَلَك[٣]
أنت[٤] حَفِىٌّ لم تُخِبْ دعوةَ راجٍ أملك
فأعطِنِى مِنْ سَعَةٍ يا من تعالى فَمَلَك !
سُبحانك اللهمّ ! ما أجلّ عندى مَثَلَك !

---

(١) السَّمَل : الخلق البالى .
(٢) الوَشَل : الماء القليل .
(٣) النَّفَل : الهبة .
(٤) الحفىّ : العارف الشيء حقّ معرفته . وربما كان الأصل هو : الخفى .

أما ترانى يا هذا كيف أداريك بالرفق ، وأواريك بالحذق ؟ أدعوك بالنثر إلى أن تنتثر عما قد زيفك وأفسدك ، ثم أعطف عليك بالنظم إلى ما قد شرَّفك [٥٣ ب] ورفعك . ولا تعجب من فراغى لك فإنى مُوَكَّلٌ بك من قِبَل من هو أملك بى وبك ، فلعلك إذا أجبتَ ندائى ، وفهمت دعائى ، درجتُ معك ، وسلكتُ منهجك ، وتحليت بحليتك ؛ فإنى من حيث أناديك مجاب ، وأنت من حيث تجيب منادَى . فإذا التأمتْ الكلمة والكلمة بالدعاء والإجابة ، صار الداعي مجيباً ، والمجيب داعياً . وإذا صحت هذه الإشارة كنت القائل وأنا السامع ، وكنت إياى فى هذا الذكر الجامع . فبادر بدار الكيِّسِ لتستبيح ، وتأنَّ تأنِّى المتنفس لتستريح ، فالخير كله أمامك — وأنت تجد ما أقول حقاً إذا شهدت مقامك . اللهم زدنا طُمأنينة إلى ذكرك ، وزدنا خوفاً من مكرك ، واغمِسنا فى بحر نعمتك وشكرك ، واعلُلنا بعد النَّهَلَ (١) من حبك ، ولا تغُرَّنا بخلقك فى خلقك ، وصلنا بتأييدك فى معرفتك ووصفك ، واقطع بيننا وبين العادلين (٢) بك والشاكِّين فيك والناكثين لعهدك والمكذّبين بوعدك . وصافحنا بيدك ، وكافحنا بوجهك ، وقدِّسنا بنورك ، وحلّنا بشعارِ مرْضاتك ، وعلّنا إلى معادن كرامتك ، وهيِّمنا (٣) فى الوجد بك ، وغلِّب علينا التوكل عليك ، وألهمنا الانتساب إليك ، وكن حافظنا بقدرتك ، ومحفوظنا بتأييدك . وقبل هذا كله فآنسنا يا ربنا خلقَك ، فقد أشجونا فيك ، وكذَّبونا فى وصفك لك ، وأجلبوا (٤) علينا بسببك ، ورمونا عن قوس

(١) علَّ ، يَعُلّ ويعِل ، علاً وعَلَلا وتعلّة : شربَ ثانية أو تباعاً . وعلّه : سقاه كذلك . ونَهِل يَنْهَلُ نَهلاً : شرب أول الشرب . والنَّهَل أول الشرب .

(٢) عدَل فلانٌ بربّه : أشرك .

(٣) هيّمه الوجد : جعله ذا هُيام .

(٤) أجلب القوم : تجمعوا من كل وجهٍ للحرب .

واحدة لاعتزازنا بك، فا كفيناهم كيف شئت، وأرحنا منهم كيف أردت. فما لنا عيشٌ إلا معك، ولا لنا مأوى إلا عندك، يا إله الخلق أجمعين!

قد تجشمت لك — متبرعاً — هذه النصائح، فتجشم لنفسك — متسرعاً إلى — القبول، فإنك بذلك أحظى مني؛ ودع عنك الهُوَيْنا فإنها مَدْحَضَة لكل قدم، ومَعْثَرة لكل خابط، ومَهْواة [٥٣ب] لكل جهول. ولا يغرنك ما يواتيك من حظوظك التي يغبطك عليها بنو الدنيا، فإن ذلك إلى اضمحلال. فاجتهد في استبانة أمرك، وتعرَّف خاصة ما يعنيك، وزُجَّ يومك بما طفَّ [1] وكفَّ، واعمل على أنك عابر سبيل وقافِي دليل، فإنك إن لم تفعل ذلك هلكتَ، وإذا هلكت فقد فُتَّ [به]، ولو انكسرت لرجونا لك الانجبار، ولو افتقرت لطعمنا [2] لك في اليسار، ولو ضللت لتعبنا لك في الإرشاد. فأما إذا هلكت وفُتَّ، فمَنْ لنا بك ومَنْ لك بنفسك! هيهات! ولك أمر قد خرج عن مُستطاع [3] غير مستطاعِ البشر، وزلَّ عن حيلة ذوي الحيل، واليوم أنت حاضر ولك السمع والبصر، وأنت بحمد الله على خطر، فلا غَرَرَ، فابذُر واحرُث واسقِ وحافظ. فعَنْ قليل إذا حال الحَوْلُ أتاك أوان الحَصاد، فحينئذ تُسَرُّ وتبتهج، وتعلم أنك قد أصبت فائدة ما كنت به تَلْهَج. أما أني لو عقلت أمري، لما أعرضت عن أسْرى [4]، لخروجي إلى الشغل بك، والإشبال [5] عليك. وما عليَّ منك؛ والله لو نجوت ما كان ذلك نافعي، ولو نشبت ما كان ذلك

(١) طفَّ منه الشيء: دنا.

(٢) لعله: طمعنا.

(٣) أي عن غير قدرة بني الإنسان.

(٤) ص: اسوى.

(٥) الإشبال: أشبل عليه: عطف عليه وأعانه.

ضارّى : كل شاة برجلها تُناط ، وكل حَرَمٍ فبعزّة يحاط . أنا والله فى أمر لا يُنادَىٰ وليده ، ولا يرجى جهيده ، ولا تُنْشَد ضالّته ، ولا تؤمن غائلته ، لأنى مع طىّ مستورٍ بيقين ، وضمير محشوّ بفتون ، وقلب مقلب على فنون ، إن نبست من خبرى بحرف ، سُقيتُ كأسَ حتف . فلا جَرَمَ كلامى كله كِناية ، وإشاراتى كلها مُدْمَجة ، وبيانى من أوله إلى آخره فَهاهة ، والتُّهَمة علىّ مشتملة ، والآفة بى محيطة ، والبال قلق ، والجو أكْلَف (١) ، والسر أغلف ، وأنا أهرِف بما أعرف وبما لا أعرف . اهـ

اللهم إليك أشكو ما نزل بى منك ، وإياك أسأل أن تعطف علىّ برحمتك . فقد وَحقِّك شددتَ الوَثاق ، وضيّقتَ الخِناق ، وأقمت الحرب بينى وبينك . [١٥٤ ا] فبحقك وبعزّتك إلا أرخيت وتغمدت ، وأحسنت وتفضلت ! فقد كدنا نحكى عنك ما يُبعدنا منك . ولو حكينا ذلك لكان فى حلمك ما يسعك (٢) ، ولكنا نخاف خلقك الجاهلين بك فإنهم يضيقون عما تسع ، ويجهلون ما تعلم ، ويبخلون ما تجود ، ويغصّون (٣) بما تسيغ . اهـ

ياهذا ! طهِّر نفسك من الحُرقة على فائت الدنيا ، وقدِّس نفسك من الأسف على ما لم ترزق فى الأولى ، وتطامن لحكم الحق وإن شقّ عليك ، فإن ذلك أنهضُ بك وأشد لاستقلالك وأنْظَمُ . بدد همّك فى سِلك نزاهتك ، وانثُرْ عن كاهلك كلّ ما أثقلك فى مقصدك ، وكُنْ لنفسك بنفسك تجد أُنسك فى أُنسك .

---

(١) الأكلف : الذى تعلوه حمرة كدرة — يقصد مكفهر .

(٢) كذا فى الأصل ، ولعله : يسعه .

(٣) غصّ يَغَصّ ويغُصّ بالطعام والماء : اعترض فى حلقه شىء منه فمنعه التنفس ، فهو غاصٌّ وغصّان . وفى الأصل : يغصون ما .

وإياك و « لو » فإنها مَزْلقة . وإياك و « لعل » ، فإنها مغلقة . وإياك والتمنى ، فإنه [(١)] مَقْلقة . وإياك والهوى فإنّه مَعْلقة . وإياك والتُّهمة ، فإنها مَغْرَقة . وعليك بالفكر الصحيح ، والرأى الصريح ، والصاحب النصيح ، فإنك بهذا وأشباهه تنعم سراً وجهراً ، وتملك بطناً وظهراً . ومهما شككت فلا تَشُكَّ فى رحيلك عن هذا المكان إلى ذلك المَعان [(٢)] . فاجْهَدْ أن تكون مقبولاً لا مردوداً ، ومجموعاً لا مفَرَّقاً ، وعَبِقاً لا ثقلاً ، وساطعاً لا كاسفاً ، ومطمئناً لا حَرِجا ، وواثقاً لا متّهماً ، ومُسلِّماً لا مُعْتَرضاً ، وباقياً لامنقرضاً . قرن الله جَهْدَك بالتوفيق ، وعصمك بالحياطة ، وهداك بالحق إلى الحق — والسلام .

رسالة (يز)

الحمد لله الفرد الذى عنَت له الوجوه ، وحارت فى كُنهه الألباب ، وطاعت لأمره المَعاسِر ، واستتبّ على إرادته المياسر .

ياهذا ! قدِّم إلى حضَرى [(٣)] شخصك ، وأخِّر عن فهم مقالتى نَقْصَك ، وقرِّب أذنك ، وفرِّغ بالك ، وحصِّل عقلك ، ومَكِّنْ قلبك [٥٤ ب] ، واستوقف حِسَّك ، واحفظ باليقظة نفسك ، واعص طبعك ، وانْس رَفْعك وَوَضْعك ، واعرِفْ الحق فيما أُنْبِذَ إليك ، فقد أرسلت القلم ، وقلتُ ما سنح غير منقبض ولا محتشم ، ولا متحمِّد ولا مُتَذمِّم . واعلم أن سوابق زفرتى فى الحال من دفين وجدى به ، وبوادر عَبْرتى عليه من مكين شوق إليه ،

(١) ص : فإنه .
(٢) المَعان : المنزل — ويقصد به هنا : الآخرة .
(٣) الحضر : الحضرة .

وثوابت كَمَدى معه من ملاهب أسفى على ما يفوتنى منه . فلهذا لانصاف[1] عندى ولا عدل ، ولا لوم عليه ولا عذل . وقتٌ[2] ينفض ما أودعه الحق من أحكام قدرته ، شاهداً بآثار حكمته ، والثقلان تحت الملكة تحسن السياسة والإيالة ، وفى نجوة من الهلكة بجميل الحراسة والإيالة ، لا مُبدّل لآياته ولا مُعقِّب لكلماته وهو الحق المبين ، الفعال لما يشاء ، المصرّف على ما يريد . يُفرّق والسر فيه تأليف ، ويَجْمع والحكم فيه تفريق . عجبٌ ينفرد به ، ولطيفةٌ لا توجد إلا منه ، وأمر لا يمضيه غيره ، وحكم لا يقضيه سواه . هنالك لا مجال للعقل ، ولا مسرى للوهم ، ولا ثمرة للتحصيل ، ولا فائدة فى البحث ، ولا غاية للطلب . حارت الأبصار عنه كلالا ، وزاغت البصائر فيه تيهاً وجلالا . المستأنس به على خطر ، والمستدرَج عنده هالك ، والذاكر له غافل . بلى ! سَلْ لُطفه ، واطلب عطفه ، فإنه إن رأى فقرك رحمك ، وإن شهد أَوَدَك قوّمك ، وإن شاهد تضاؤلك عظّمك ، وإن رأى حاجتك وفاقتك سَوّمك[3] . وإياك والاعتراض عليه أو التعرض له ، فإنه متى شهد ذلك منك سامك خسفاً ، ونسفك نسفاً ، وقشرك قشراً ، ووشرك وَشرا[4] . اعتقد محبته ولا تُبدِها : لا مصرحاً بها ولا كانياً عنها ، لأنك إن أبديتها مزجتها ، والمزج كَدَر ، وإن كتمتها صُنْتها والصون

---

(١) كذا ! ولعلها : لا إنصاف .

(٢) أى أن الزمان يفض أسرار القدرة الإلهية ، بوصفه المَعْرِض الذى تتبدى فيه المخلوقات .

(٣) سوّمه : ملّكه .

(٤) وَشَر (من باب : ضرب) الخشبة بالميشار (غير مهموز) لغةٌ فى أشرها بالمنشار : إذا نشرها .

صفو . واشهد آلاءه راعياً لحقه فيها بالشكر ، فإنه لا يستر عليك حقه حتى ترعى حقك . ثم يعينك على المطالب ، ولا يستدعيك إلى ماله حتى يوفر عليك مالك [١٥٥] ، ثم يفسح لك فى المَقْصِدِ . لطائفُهُ تَجِلُّ مضافة إلى الخلق ، وعظائم الخلق تَقِلُّ مردودة إلى موجبات الحق ، لأن الأولى شائعة بالكمال ، ناطقة بالتمام ، شاهدة داعية إلى الإخلاص ؛ والثانية واقعة على درجات النقص ، مغمورة بأسباب التقصير . وهذا تميز بلفظ مستعار ومجاز مستعمل وقول ضعيف ؛ وإلا فالآية ظاهرةٌ بسلطانها ، عالية ببرهانها ، راجعة إلى رَوْح اليقين من العارفين ، وسلامة التسليم من المريدين . وفق الله الجميع وجعلك منهم ولا أفردنى عنك ، وأنطقك بلسان آلائه ، وحرسك بعين وَلائِه ، وثبتك على مناهج صفَائِه . فوحقك ما استرسلت هذا الاسترسالَ ولا خليت عِنان القول على هذا المقال ، إلا لأنى ناجيت بك نفسى ، وجبرت بما وهب الله لك نقصى . ولم أقصد ظلمك ، ولا استثرت علمك ، ولا أدميت كَلْمك [١] ؛ فإنه ليس يخفى عليك من هذه العبارة إلا ماتجده فى باب الإشارة . فلا عليك ولا بأس بك . ثق بالله ، واسكُن إليه ، وتولَّهْ فيه ، واعتمد عليه ، واسكن [٢] له ، واطلب المزيد لديه : فلأن يُصيبك هو خيرٌ من أن ينعمك سواه .

واعلم أنى شاهدك وإن كنتُ غائباً عنك ، وواجدك وإن كنت طالباً لك ، لأنى لم أفقد منك إلا مراسم الأحْساس التى تتصرف بها عين الراس . فأما المعنى الذى به أ كاتبك منبسطاً ، <ف> هو الذى به أ نقبض عنك مُسْتحيياً . فاسكت عما تقلّبت فيه بعدك من أحوال لا تخصّ بلفظ ، ولا تحصّل بحفظ ،

(١) الكَلْم : الجرح .

(٢) كذا ، ولعلها : واستكن ، حيث تقدم : واسكن .

فالسكوت عنها أحلى ، والإقبال على غيرها أولى . ألستَ سالماً فى نفسك ، معافىً فى بدنك ؟ فقد ترقّى إلىّ ما أشركنى معك فى الألم ، وشبهنى بك فى السقم . ألست جامعاً لأطرافك ، مقبلا على شأنك ، فقيراً إلى فقير يطلع عليك ، مفضـلاً على فاضل ينقطع إليك . فإن كنت كذلك ، فأنت بحمد الله كذلك [٥٥ ب] . فحمّل أبا فلان من ثقل سلامى ما يُطوِّحه ، لا بل لقِّه [١] من طيب كلامى ما يروِّحه . فقد أفرط علىّ فى محبته ؛ فأنا والله مقصِّر فى أداء لوازم حقه . ولا تتعرّض لأبى . فلانٌ ألصقُ بكبدى وأعرق فى كمدى من أن تـكون رسولى إليه ، وأقرب إلى سرّى وأقدر على نفعى وضرّى من أن تـكون دليلى عليه . بلّغه الله سؤله ومنحه مأموله . ولستُ أدرى بأى شىء أقرّد فلانا ، فقد ورثت منه حسرة [٢] لا تنوء لى بها نعمة ، وإن شاء الله ردّنى إليه وزوّدنى من آثار فضله ، وهو القادر إذا أحبَّ ذاك . وإياك بعد هذا أن تُطيف بفلان ، فلى معه خطوب : تركنى يا سيدى مشغول القلب به عاشقاً لفضله ، وأعاننى على مفارقته بانقباضه . ولو لزمنى لأفدته ، ولو جزَم علىّ لخدمته ، فما رأيت مثله زاده الله ولا نقصه . وفلان لا يفوتنَّك السلامُ عليه ، فقد أولانى من جميل ذكره ما الله مكافِئُه . وبعد أن تخُصّ هؤلاء فاعمُمْ بأجمل تحيةٍ سائر ذوى الفضل من الصوفية ، فإنهم ملوك الدنيا وسادة الآخرة . ولست أدرى كيف الوجه فى تسليمة خفيفة على فلان ؛ والاختبار والاختيار فى ذلك إليك ، فإنى فارقته مستوحشاً منه ، متعجباً من أخلاقه ، حزيناً على عقله ، لأنى وجدته تاركاً لأحكام المروءة ، جاهلاً بحقوق الدعوى ،

---

(١) لقّى فلاناً الشىءَ : طرحه إليه .

(٢) فى الأصل كأنه مشطوب على الحاء .

شديد العُجب بما هو عليه . وله من قلبى مكانة من السنّ والعقل (١) ، والعلم والفضل ، والرياسة والإشارة . وما أدفعه دفع زاهد فيه ، ولا أطلبه طلب من لاغنى [بُدّة] (٢) عنه . ولقد نشرت على فلان أحواله ، وصوّرت له أموره ، فبقى مبهوتاً ، وقال فيما قال : أعمى الله عيناً لا تقرّ بك ، ولا صان نفساً لا تُقِرّ بفضلك . وهذا كلام لو افتُدِى به ما تحويه يده ويفده يومه وغده ، كان هو الرابح الغانم . وإذا أَبىَ فهو الخاسر الغارم . وما قصدت بهذا تهجينه ، فهو شيخ له حق وعليه حقوق . ولكن قصدت تنبيهك على الواجب [١٥٦] ، فإن تفصيل الأشياء واجب بحكم الرسم وقضيّة الشاهد . فأما إذا صحّت الولاية ، ودامت الغَلَبة ، وسَطَعَ نورُ الحق ، وسَطَا سلطانُ القدرة ، فحينئذ المعذرةُ مبسوطةٌ ، والحال فى تلونها مضبوطة ، لأنها بأطراف الحقيقة منوطة ، وبدين الحق محوطة . دَعْ ذا ، واقبل منى كلمة واحدة : لا تسكُنْ إلى الدنيا فإنها وَحْشةٌ ، والقلوب فيها مستوحِشة . أستغفر الله إلا من محبتكم ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ما صحب ليلٌ نهاراً ، أو أرسلت السماء مدرارا .

يا هذا ! اسمع وَصْفى لحالٍ ملتحمة . النظام والله محمود . ويعزّ علىّ أن أقنع بالوصف دون المشافهة مجتنياً ثمرة الأنس بك ، مقتبساً غرر الفوائد منك ، مجدداً عهود المودّة معك . وليست هاهنا معذرة : لى أن أستند إليها ولك أن تعتمد عليها ، إلا مالكَ القضاء وحاجزَ القدر وسبباً من الأسباب الإلٰهية وسرّاً من الأسرار التى تجرى بها المشيئة .

---

(١) وردت فى الأصل مضروباً عليها .

(٢) ص : بدة — بمعنى أبداً ؟ والبِدّة : الطاقة ، يقال : « ما له به بِدّة » — أى طاقة .

وبقى بعد هذه الخطبة أن أقرع باب التسليم ، وأفزع فى أضعاف ذلك إلى من له الأمر القويم ، فلعله يسهّل وييسّر ما قد طال الشوق إليه ، وتضاعف الأسف عليه . ولو ذكرت النزاع وادّعيت الحنين وصُلْتُ بالصبابة وتأهبت بالاشتياق — لعلّانى غبارُ التملق وحصَر لسانى فرطُ العىّ ، وكان قُصاراى التقصير ، ووقف أمرى على العجز والقصور . ولأنْ أستشهد ضميرك المرضىّ والشاهد الزكىّ والمخبر الصادق والمبلّغ المبين ، خيرٌ لى وأليق بى وأجدى علىّ من أن أتعاطى نمطاً أفتضح به ، وأركب طريقاً أعثر فيه ، وأبارى من انقطع دونه . على أن شوقى إلى محاسن فضلك وغرائب علمك وظواهر خلقك وبدائع فطنتك وروائح حلمك وبدائه [٥٦ ب] حججك ، شوقُ الفاقد لواحدها . وإلى الله المرجع ، وإليه المعتمد فى فتح أبواب الأنس وبَلّ غلل النفس . وما أحوجنى إلى جسارة بانبساط يرخّص لى معك فى التصرف ، وينيخ البلاغة على طريق التصوف . فقد اغترفتُ من بحرك ما يسع من ينازعنى فى أمرك ، ويزاحمنى فى ذكرك ، فإنك بحمد الله مشتمل على شأن عظيم ، ومحيط بسر مكتوم . يلزم من قد هبّت عليه ريحك وفاضت عليه رائحتك أن يلزم فِناءك ، ويعتقد ولاءك ، ويجرى على سنن مرضاتك ، مجتهداً فى بلوغ مسمّاتك . وهيهات أن تُنال المعانى بالأمانى والتوانى . بلىْ ! إن هذا الحق لمواد الصدق ، وبث المواهب من عين الإفضال ببوادى التفضل على غير اقتضاء لحقيقة الشكر ، ولا تصفح لعواقب الصبر . فلعمرى إنه ليحلو العشق ويطيب الحديث وتحمد المقالة ويحسن الذكر وينشر لسان الصدق فى الآخرين ويَحِقّ الأخذ بهدْى الأولين. فأما والحاجة تلزم ، والفاقة تعم ، والضرورة ترد ، والشهوة تغلب ، والشبهة تستحكم ، — فالقول تمويهٌ ، والرأى معكوس ، والشكر تملق ، والصبر علة ، والابتداء غرور ، والعاقبة نور ، والكل أسف ، والجميع كلف . والناس رجال:

مِنْ خَلِيّ — مع أحكام إلفه وغوالب عادته — لا يرعى على نفسه ولا يَمَلُّ المواعظ من سمعه ؛ ورجل وقف بين الأمور محاسباً فطال حسابه وضاق جَنابه ، فخلط ورجّى وتمنى ؛ ورجل ادّكر واعتبر فبكى واستعبر ، وقال وحسّر ، ثم سكت وتحسّر . حَفِيَ — أنار الله صدرك — القلمُ وفني القرطاس وحَصِرَ(١) اللسان ، وما فى النفس من طيب محادثتك يتدفق كالعين الفوّارة والسحاب الموّارة . عليك سلام الله ما اقترن مساءٌ بصباح واتصل ضياءٌ بمصباح ، وعلى من [١٥٧] يليك ويواليك قَدْرَ تهالكه فيك ، ورحمته وبركاته .

يا هذا ! اسمع بآفة أخرى : الهوى مَرْكبى ، والهُدَى مَطْلبى ، فلا أنا أنزِل عن مَرْكبى ، ولا أنا أصل إلى مطلبى . ولعل انقطاعى عن مطلبى إنما هو لاعتلاقى بمركبى ، بل هو كذاك وفوق ذاك : علم يَصِحُّ بكل بيان ، وحجة تَضِحُ فى كل أوان ، وأنا بينهما مأخوذ عن حقيقة الخبر بتمويه العبارة .

وإذا سمعت خطابى وفهمت عتابى فمتعنى بإرشادك لى ، وزودنى مما أفاء الله عليك ، لعلّ دواءك يقع على دائى فأتخلص قليلاً من نفسى التى قد صادفت الشيطان ، وهوت فى غروره عند كل أمر وشأن ؛ وإلا فَنُحْ علىّ باكياً ، فقد جاء من أمر الله ما لا مَرَدَّ له ، وأظلّ من قدرته ما لا قِبَلَ لأحد به . ومتى أرشدتنى بعد طمعك فىّ ، أو نُحتَ علىّ بعد يأسك منى ، فقد قضيتَ حقَّ الأُخوة ، وبِنْتَ بين معارفك بفضل المزية . يا لِلّه ! أما ترى شجوى فى كلامى ؟ أما ترحمنى لما بى من غرامى ؟ أما تعجب من حَيْرتى من خلفى وأمامى ؟ أما تقودنى إلى كرامتى وسلامتى بخُطامى وزِمامى ؟

أسألك بحق الحق إلاّ جُدتَ علىّ بما استطعت من ذلك ، فما فزِعْتُ

(١) حصر كفرح : أصابه عِيٌّ .

إليك إلا بعد أن صَفِرَتْ يدى منى ، وإلا بعد أن انقطع رجائى من علمى وظنى ، وإلا بعد أن خاننى ابتلائى بأَيِّ وأَنى . ومَنْ فَزِع إليك خليقٌ بأن ينال بغْيته على يديك ، وأنت الجواد بالحق ، المعتاد للصدق .

اللهم لا تجعل خطابى لبعض خَلْقك حجابا ! فوحقك ما أفعل ذلك إلا منافسة بك ، وإلا استهداء إليك ، وإلا عشقاً لحلاوة ذكرك ، وإلا ظهوراً بِسمَةٍ من سِمات حكمتك ، وإلا تحلّياً بما زان عند ملائكتك ، وإلا شوقاً بحيازة المكانة عندك . فرُبَّ كلمةٍ لك نافعةٌ عندهم ، ورُبَّ صفةٍ لك شريفةٌ بينهم ، ورُبَّ حكمةٍ بالغةٌ لك على ألسنتهم ، [٥٧ ب] ورُبَّ فضيلةٍ مستملاةٌ من أخذهم (١) . ولولا هذه المعانى والوجوه ، ما الذى كنتُ أرجو منهم إذا شافهتهم ، وماذا كنتُ أتوقع عنهم إذا سألتهم ؟ إنما أخاطبهم من أجلك ، وإنما أسالمهم بسببك ، وإنما أستمشطهم (٢) لأُملى عليك ، وإنما أتقرب إليهم لأقرب منك . ولولا أنت ، ما كان لهم فى عينى خطر ، ولا لهم فى نفسى وطر . أنت المراد وأنت المطلوب ، وأنت المقصد وأنت المحبوب ، يا ذا الجلال والإكرام !

يا هذا ! كُنْ ذاكراً لما قد ألقيتُه إليك فى هذا الجزء من وصف العبارة

---

(١) ص : أُخدهم (بسكون الخاء وفتح الهمزة) . ويصح أن يكون الأصل : أَحدهم .

(٢) كذا ! فهل معناه : أطلب منهم المَشْطَ لنفسى — كناية عن تبادل الأنس والألفة فيما بينه وبينهم ؟ أو أصلها : استمسطهم — أى أطلب إليهم مسطى ، ومسَطَ الشىء (من باب نصر) أخرج ما فيه — كناية عن أنه يسمح لهم بالانتفاع به ؟

والإشارة ، فإنك تجد به ما يُقِلّك إذا نهضت ويُظلّك إذا ضَحَيْتَ[١] . ومهما لاح منك أو لاح لك فيك أو لاح لك عليك ، فإياك أن تَسْهُو عن قلبه وتقليبه حتى يتبين لك ما أنت له مما أنت عليه . واجعل أساسك الأثبت ودِعامتك الأرسخ ألاّ تكذب نفسك بالباطل ، ولا تكذبها فى الحق ، واجتهد أن تخلُوَ من أشغالك . وإذا خلوت من أشغالك ، فاعطِفْ على نفسك واخلُ بها . وإذا خلوتَ بها ، فاعلم أن رقيب الحق ناظرٌ إليك ومُرَفْرِفٌ فوقك ، وأنك بعينه التى لا تنام ، وفى قبضته التى لا تُرام ، وحرَمِه الذى لا يضام .

اللّهُمّ إنك جوّلتنا فى آفاق مُلْكِك ، وأنطقتنا بلسان قدرتك ، وأدرجتنا بضعفنا فى قُوّتك ، وأسكنتنا عند مشاهدة عظمتك ، وحُلت بيننا وبين أمرك ونهيك بسوابق علمك ومشيئتك ، وجمعت بيننا وبين مرادك بغالب قضائك ولازم حجتك . اللهم فكما ملَّكْتنا فارفُقْ بنا ، وإذا رفِقْت بنا فأعتقنا ، وإذا أعتقتنا فاقبَلْنا ، وإذا قبلتنا فكن لنا ، وإذا كنت لنا فكن معنا ، وإذا كنت معنا فأنت أنت ياولىّ الحمد !

اللهم إياك نقصد بآمالنا ، وعليك نُثْنى بصنوف أقوالنا ، ورضوانك نبتغى بأعمالنا ، وإليك نرجع فى اختلاف أحوالنا ، [١٥٨] وعليك نُلِحّ فى طلبنا وسؤالنا ، لأنك لكل راجٍ ملاذٌ ، ولكل خائف معاذ ، ندعوك دعاء المضطرين ، ونتعرّض لك تعرّض المُعْتَرِين[٢] .

---

(١) ضحا الرجلُ يضحوا ضحواً وضُحُوّا وضُحيّاً : برز للشمس .

(٢) اعترى فلاناً : غشيه طالباً معروفه .

رسالة : (يح)

يا هذا ! قف عليَّ قليلا واعتبر فيَّ طويلاَ . ثم إن كان فى أخلاقك طهارة ، ولك فى إيثار الحسنى بطانة وظهارة ، فتعطَّف عَلىَّ برقةٍ من قلبك ، ورحمة من نَفْسك ، فقد أصبحتُ مغتوتاً [1] فى كل رَكِيَّة [2] ، ومفتوناً بكل ثَنِيَّة [3] ، ومطروداً عن كل منهل ، ومحدوداً بين كل سهل وجبل . إن رَمَقْتُ رُشِقْت ، وإن تطاولت قُمِعْتُ ، وإن سكتُّ شَنُعْتُ [4] ، وإن نطقت كذبتُ :

وما مَرَّ بى بالصبر مَنْ ليس وَجْدُه
كوجدى ، ولا إعلانُ حالى كحاله
فإن أَفْقِدِ العيشَ الذى فات باللِّوى
فَقِدْماً [5] فقدتُ الظلَّ عند انتقاله

سهوٌ قد غمرنى ، وحالٌ قد حال بينى و بينى ، وغفلة أتت على زَمّى [6] وحلِّى ، وغائب طالت غيبته عنى ، وحاضرٌ نال ملله منى : فلا وعده جالِبٌ لى فرحاً ، ولا وعيده صارِفٌ عنى ترحاً [7] ، ولا سِراره مُهْدٍ إلىَّ رَوْحاً ، ولا جهاره ممسك

(١) غتَّ الشىء فى الماء وغطّه : غمسه وغوّصه فيه .
(٢) الركية : البئر ذات الماء ، والجمع ركايا ورَكِىّ .
(٣) أى مضلّلا فى كل واد وثنية وطريق .
(٤) شَنُع يشنُع : قَبُح .
(٥) أى : قديماً .
(٦) أى زم الرحال ، والحل : أى الإقامة ؛ أى أتت علىّ فى الظعن وفى الإقامة .
(٧) السرار (بكسر السين) ضد الجهار (بكسر الجيم) : أى الكتم ، ضد الإظهار والإفشاء .

دونى نوحاً ، ولا مداراتى نافعة ، ولا ممارأتى دافعة ، ولا صبرى عائد بالجدوى ، ولا جزَعى ناقصٌ من البلوى . حَسْرة راكدة بين الجوانح ، وفترة جامدة بين الجوارح ، وعَبْرة واكفةٌ على الجيب بالحسرات ، وعبرة واقفة فى القلب من الجمرات . ومالى ملاذُ بالذى أبلى ، ولا أسأل العافية إلا من قد أطال الضَّنَى! . هو مالكُ الظل إن شاء قلّص وإن شاء أسبغ ، وهو العالم بالحال : وإن شاء قطع ، وإن شاء بلّغ . صبراً على النائبات صبراً ! ما صنع الله فهو خير .

يا هذا ! ذرّت الشمس بحقائق الوجد الظاعن من غير صد القلب المقيم فى ساحة الروح ، فضاقت به الأرض بما رَحُبَتْ ، [٥٨ ب] واشرأبّتْ الأبصار نحو الغاية المصمودة (١) ، فثابت خاسئة حَسْرَةً لما دَهَمها مِنْ عِزِّ مَنْ له العزّ حقاً ، وبيده ملكوت كل شىء عدلاً وصدقاً ، وهو مُصَرِّف العالمين نقضاً وثيقاً ، ومُظْهِر الأعاجيب رتقاً رفيقاً . ربوبية لا تليق إلاّ به ، وإلاهيّة لا تنبغى إلاّ له ، وقدرة لا تسلم إلاّ إليه ، وحكمة لا تصح إلاّ ممن له منزلة لديه .

يا هذا ! اختلف اللغات فى تصاريف أحوال فِعاله ، وتشتّتَتْ الهمم فى غرائب ما بدا من إيضاحه وإشكاله ، حتى قال قائل :

وإنى لأرجو قُرْبَكم ووِصالكم ولكننى عما أُريدُ بعيدُ

إرادة مشوبة ، وحال مختلفة ، وعلامات مُتّهمة ، وطمأنينة قلقة ، ومعرفة مدخولة ، ولغة عجماء ، وعين طموح ، ولفظ جريش (٢) ، وخُلق عَسِر ، وبال

---

(١) صمَد يصمُد صَمْداً وصمّد : فلاناً وإليه وله : قصده . يقصد : الغاية المقصودة .

(٢) جرَش الشىء : لم يُنعم دَقّه ، فهو جريش أى خشن .

خائر، وقول كلما رام استنارة ازداد ظلاما ، وقلب كلما حاول خموداً ازداد احتداما . فطُوبَى لمن هو من هذه الشَّكِيَّة (١) فى نجوة ! وطوبى لمن إذا طلب وجد ، وإذا لم يجد عُلّل ! وطوبى لمن إذا فقد سلا ، وإذا عَدِم قلى (٢) ! بل طوبى لمن بوشر فؤاده ببرد اليقين ، وحُلِّيَ بحلية المتقين ، وصِين فى خاصته عما عليه جميع العالمين ! بل طوبى لمن نُفِثَ فى رُوعه الأمنُ ، وكُفِى فى معاملته الغبْن ، وأغضى عما عليه الجفنُ ! بل طُوبى لمن إذا تنفس الصُّعَداء تذكر السُّعَداء ، وإذا انتبه أبصر الضياء ، وإذا رقد تخيل النجاء ! هتفت الهواتفُ فخفت المخاوفُ ، وبرقت البوارق فشرقت الشوارق ، وسحت السحائب فنابت النوائب . حفيظة مذودة بالصبر والعزاء ، وهمة مرفوعة عن الصفراء والبيضاء ، ونفس آنفة من كل ما رأته العين وصادفه الحسّ وحار فيه البصر وأتى عليه الوصفُ وانتهى به الحد .

يا هذا ! أطْلِق عِنانَ هِمّتك فى ميدان راحتك ، واستعفف فى ظاهرك ، واستشرف فى باطنك ، فإنك بأحدهما تكسِبُ عزوفا ، وبالآخر تنال معروفا . وارْعَ حمى التوحيد ، فإنه مجود بالغيث الربوبىّ ، وتيقّن بأن راعى هذا الحِمَى إذا سمن لم يهزل [١٥٩] ، وإذا رَوِىَ لم يعطش ، وإذا اكتسى لم يَعْرَ ، وإذا استظل لم يَضْحَ ، وإذا أومأ لم يعوَّر (٣) . وكيف يكون ذاك ، وبعضه مدرج فى كله ، وكله مدمج فى بعضه ! على أن بعضه كلٌّ بعين الجميع ، وكلّه بعضٌ بعين التفرقة . وهذه صحيفة قد طويت منذ زمان . لأن الأذهان غلظت عنه ،

---

(١) الشكية : الشكوى .

(٢) أى إذا افتقر كره الشىء المفتقر إليه .

(٣) عوَّرَ فلاناً : صيّره أعور .

والعقول خاسئة[١] دونه، ولم يزده الإعراب إلا عُجمة، ولا الإنارة إلا ظُلمة، ولا التشعيب إلا ثَلمة، ولا الكشف إلا تغطية، ولا التبصير إلا تَعمية. وهذا لأن الحق غارَ فى هذا الوقت أن تكون أسراره مبتذلة وأسبابُه منتحلة، وله فى كل وقت تدبيرٌ لا يُحاط به، ولا يُطَّلع على غيبه، وإنما نطقنا لرائحة به، عَبِقْنا فناحَتْ عنَّا على غيرنا. فأما الطيب الذى له هذه الرائحة فهو فى صدور دونها وعور[٢]:

خليلىَّ قد فات الهوى غير أننى
إلى المَيْث[٣] من أكناف رَمَّان[٤] نازع
وإنى متى ما أذكر الحىَّ لا يَزَلْ
بعينىَّ من أطراف كفِّىَ وازِعُ
أهيم إليهم صبوةً ليشوقنى
مآلِفُ عهْدٍ للهوى وودائعُ

يا هذا! أَخْلِص ونادِ تُجَبْ، واقصد توفَّق، وانْوِ تُعَنْ، وجرِّد عزيمتك عن شائنات الخلق تلبس به زائنات الحق. ومهما ونيت فيه وفترت عنه وقصرت دونه، فإياك والشركَ به والإفكَ عليه. ولست أريد بالشرك شرك الجاهلين، ولا بالإفك إفكَ المخالفين، فإنك تَمَسُّ بهما جميع أهل الدين. وإنما أعنى بهما ما خفى ولطُف، لا ما ظهر وكَثُف. فإن أردت المثال

---

(١) خاس الرجلُ: كذب، ذلّ. والمقصود هنا: قصّر.
(٢) جمع وَعْر: وهو ضد السهل.
(٣) المَيْث والميثاء: الأرض السهلة، وموضع بالشام، والمقصود هنا الأول.
(٤) رَمَّان كشداد: جبل لطىء.

ألقيت إليك ، وإن أحببتَ النص أطلعته عليك : وهو أن يفصل من أملك فيه ما يكون غيره مأمولا لك به ، أو يسرى من رحابك إلى سواه ما يكون ملوماً عليه .

يا هذا ! إنما خاب أملك فيه لأنه لم يصف من كدر غيره كما ردّ طاعتك عليك لأنها لم تُنَقَّ من الرياء . فاجتهد — عافاك الله — أن تُقِلَّ العمل لِأَنْ تُحَقِّقَ [١٥٩ ا] الإخلاص ، فإن مَنْ حَقَّقَ الإخلاص صار من أهل الاختصاص . ومن صار من أهل الاختصاص ، غار الحقُّ عليه من العام والخاص .

يا هذا ! ما أعجبنى وإياك ! أُقرِّبُك إلى ما أنا بعيد منه ، وأكسوك ما أنا عارٍ عنه . فلو جعلت مكانَ دعائى لك إلى حظك إجابة منى إلى حظى ، كان ذلك أرفق بى وأبَرَّ بى . ولكننى ممتحَنٌ بالقول ، فإن كنت أنت أيضاً ممتحناً بالسماع ، فقد خسرنا جميعاً ، لأنَّا قد خلونا ، فى حالتى القول والسماع ، مما يملأ الصاع ، ويسلك بنا البقاع ، ويُحِلّنا تلك الرِّباع [١] ، ويخلصنا من هذا السِّباع [٢] اهـ .

يا هذا ! غِبْ من سماع قولى بمسموعه ، فلعلى أيضاً أغيب عن قولى بحقيقة مقولى . فإن قلت لى : لو بدأت فى قولك بالتحقيق ، لحصلت فى سماعى على التصديق ، — كان لك ذلك . ولكن ماذا يضرك تيهى فى قولى عند اهتدائك فى سماعك ؟ لا تجعل عِثار غيرك عذراً لك فى عِثارك ، ولكن فى طريقتك التى أنت عليها على استمرارك . وخذ بحقك فى آناء ليلك ونهارك . وأنل ضميرك بين سِرارك وجهارك [٣] ، وسِمْ نفسك بما لا تخفى به عند شرارك وخيارك ،

(١) الرَّبع : الدار بعينها حيث كانت ، والجمع : رباع ورُبوع وأربُع وأرباع .

(٢) السباع : ككتاب : التشاتم .

(٣) أى بين سرك وجهرك .

واجتهد أن تعرف الحق عند إيرادك و إصدارك[1] . وإياك أن تبيد بين عارك ونارك ، فإنك بعين من يشهدك فى حالتى صحتك وقرارك ، ويرقيك بين إقبالك وإدبارك . فإن صَمَدْتَ صَمْده[2] قَبِلَكَ وأرَادَكَ ، وإن وليت عنه ردَّكَ وأبادك . وكيف لا وهو فى الأول قد أبْدَأك وأعادك ، وأمدك وأفادك ، وساقك وقادك !

يا هذا ! أمالك خاطر فى هذه البلاد ؟ أمالك رائد فى هذا المراد ؟ أمالك بياض فى هذا السواد ؟ أمالك شوق إلى هذا الانقياد ؟ أمالك حياء من هذا[3] الارتداد ؟ أمالك سكون عن هذا[3] الاعتداد ؟ أمالك لِينٌ عن هذا الاشتداد ؟ مَنْ هذا الذى وفى فنَدِم ؟ من هذا الذى صفا فقدُم ؟ [١٦٠] من هذا الذى طلع فغاب ؟ من هذا الذى طمع فخاب ؟ من هذا الذى وصل فانقطع ؟ من هذا الذى رفع فاتّضع ؟ من هذا الذى أشار فثاب[4] ؟ من هذا الذى عرّف فعاب ؟ من هذا الذى وجد ففقد ؟ من هذا الذى صلح ففسد؟ من هذا الذى نفق فكسد؟ من هذا الذى حقق فهُجّر[5] ؟ من هذا الذى صَدَقَ فحُقّر ؟

---

(١) ص : إصدارك وإيرادك — ولكن السجع يقتضى الترتيب الذى اخترناه.

(٢) أى قصدت قصده .

(٣) ص : هذه .

(٤) ص : فباب ! وباب لفلان صار ملازماً لبابه ، ولا معنى لهذا هنا . فإما أن تكون : فثاب — أى رجع بعد أن أشار ، وهو أيضاً لا يعطى معنى واضحاً . أو : فبار : أى هلك — ويكون المعنى هو : من ذا الذى نصح ودل على وجه الصواب ، ثم هلك ؟ أو يكون أصله : من هذا الذى اشتار (أى جنى أو استخرج الشىء) فبار ، أى : كسد . وهنا لا بد من تغيير قوله بعد : «فعاب» إلى كلمة تنتهى بحرف راء اتباعاً للسجع : مثل : فغار — أى من الذى عرّف فغار — أى لم يعرف من هو .

(٥) التهجير : التحقير . والمُهجّرات : القبائح .

اللهم إنا نقول ما نقول وأنت تعلم ما نقول قبل أن نقول ، ونعمل فتحيط به قبل أن نعمل ، فأنت أوّلنا فى كل قول وعمل ، وآخرنا عند كل رجاء وأمل . فكما كتبْتَ أسماءنا فى ديوان المرحومين ، وإن لم نكن من المستحقين : أعمالنا سيئة ، ولكنها تضيع فى أوائل عفوك ؛ وأقوالنا كبيرة ، ولكنها صغيرة فى أوائل استحقاقك .

إلهنا ! قد صبرنا على مرارة عِشْرَة خَلْقك ، فلا تحرمنا حلاوة مواصلة ما يصلنا بك . كادُونا بسببك ، فحلُمْنا عنهم من أجلك ؛ وعادَوْنا فيك ، فاحتملناهم لوجهك .

إلهنا ! ما لنا ذنب إليهم إلا ذِكْرُناك (١) لهم ، ولا لنا جناية عليهم إلا أنّا أعززْنا بك بينهم . حسدونا ، لأنّا عرفناك فوصفناك ؛ وقرفونا (٢) ، لأنّا قصدْناك فصدّقْناك . إلهنا ! كما ابتليتنا بهم لِنصفوَ لك ، فارحمهم لئلا يكدروا بنا . وكما أريتنا قدرتك فيهم ، فأرِنا عفوَك عنهم ، واجعلنا وإياهم فى زُمْرَة الواصلين إليك المقبولين لديك .

ياهذا ! عليك بدعاء الله فإن الدعاء من الله بمكانٍ : فإنه يَصِلُه عن فاقة العبيد خاطياً (٣) عزة الملوك ؛ فاجعله ديدَنك فى مُتقلَّبك . وإياك وملالته ، فما فُتح باب الدعاء على أحد إلاّ دلّ ذلك على أن الله يحب أن يسمع كلامه . وربما أخّر الإجابة لتدوم الضراعة ؛ والويل لمن ييأسَ من رَوْح الله مع سعته ، أو قنِط من عفو الله مع اشتماله . والدعاء جامع للحال والحقيقة ؛ والوجد والاستكانة ،

---

(١) أى : ذكرنا لك أمامهم . — أو صوابها : ذكرنا إياك لهم ؟
(٢) قرفونا اتهمونا .
(٣) أى : متجاوزاً .

والعبادة والعبارة . أما الحال فإنها تربّت [١] الإنسان فى [٦٠ ب] محل السائلين [٢] ، وأما الحقيقة فإنها تروّح عن قلوب الصادقين ، وأما الوجد فإنه يستخرج عن اليقين ، وأما الاستكانة فإنها تهوّن ما يبدو على صاحبه المسكين ، وأما العبادة فإنها تؤدى حق التكاليف على ماورد به الكتاب المبين ، وأما العبارة فإنها تقف صاحبها على مَدْرَجة المتلطفين المترفقين . وما لهج بالدعاء أحدٌ إلا رأى فى عاقبة أمره ما يسرّ النفس ، ويجرّ الأنس . وما رفضه أحدٌ إلا كان قاطعاً للعصمة بينه وبين ربّ العالمين . أترى رافض الدعاء بأى شىء يحتج ، وبماذا يتعلق ؟ وإلى أى ركن يستند ؟ وبأى شىء يتعلل ؟ ولو لم يكن فى الدعاء إلا التلذذ بالمواجهة ، والتنعم بالمشافهة ، وإلّا خَرْقُ الحجب ، ورفع القُنُع ، والدنوّ من الباب ، ومخالطة أولى الألباب ، لكان فيه مَقْنَع . فكيف وفيه مناجاة تقضقض الجبارين [٣] ، وتهالُلٌ يرفرف على اليقين ، وتعرّض للسيب من ربّ الخلق أجمعين . وما ألهم الدعاء أحداً إلا كان ذلك عنوان خير عليه ، ودليل فضيلة به . فإن قلتَ : أنا أسلّم ولا أدعو ، وأتوكل ولا أسأل ، وأُكِل ولا أتعرض ، — فإن تسليمك دعاء ، وتوكُّلك مسألة . ومن وُكِل إلى كافٍ فقد بالغ فى الثقة . فهل هذا كله إلا ما أومأنا عليه ، وعلقنا آنفاً بوصفه ؟ ! لا تتجافَ — فديتك — عن بدائع هذه الطريقة ، فتجافها باد « لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » [٤] .

---

(١) التربيت : التربية ، وضربُ اليد على جنب الصبىّ قليلاً لينام .

(٢) من قوله : فى محل . . . إلى قوله : . . . يستخرج : مطموس شيئاً فى المخطوط لوجود تسويد عابث بالحبر عليه .

(٣) ص : الجبارم . وتهالُلٌ : تهليل وتسبيح . والسَّيْب : العطاء .

(٤) سورة « ق » : آية ٣٦

أما الإشارة بالقلب فإلى صفاء به ، وأما الإشارة بالسمع فإلى حضوره . وأما الوصف بالشهيد ، فإنه كناية عن اليقظة : قد يكون حاضراً من هو كالغائب ، وقد يكون سامعاً من هو كالأصمّ . فالشهيد جامع لكل ما فى الحال ، ومشير إلى الغاية المقصودة بالكمال . وهذا لسان يُعْرب إلا عند المؤيَّدين من أهل اليقين الذين عانوا هاهنا فعاينوا هناك .

اللهم إنا لو وفّينا الحياء منك حقه لم نواجهك متلوثين بلطائخ الدنيا ، [٦١ ا] مُدِلّين بالقول ، مُقِلّين من العمل ، عارين من الحقيقة ، بعيدين مما يوجب الوثيقة . ولكنا على ذاك نُعيذ أنفسنا من اليأس من رحمتك ، لأنك قد حظرت ذلك علينا ، ودعوتنا إلى حُسْن الظن بعفوك ، وإلى جميل عُقْباك فى آخر أمرك .

اللهم فكُنْ لنا أكثر منا لأنفسنا ، ودافع عنا غوائلنا علينا ، وإذا تهتّكنا فاسْتُرْنا ، وإذا تفرقنا فاجمعنا ، وإذا غفلنا فأَنْبِهْنا ، وإذا أعرضنا فأقبل بنا ، وإذا فسدنا فأَصْلِحْنا ، وإذا بعدنا فقرّبنا . أنت القادر ونحن الضعفاء ! أنت الواجد ونحن العدماء ! أنت الغنىُّ ونحن الفقراء ! يا ذا الجلال والإكرام !

رسالة (يط)

يا قوم ! مالى وما بالى ! وما الذى غيبنى عن حالى ، وشغلنى عمّا لى ، حتى صرت أقدح بزَنْدٍ مُصْلِدٍ [١] وأنفخ فى غير فحم ، وأنادى من ليس بحاضر ، وأنصح من ليس بقابل ، وأحيّى من ليس يعقل ، وأهيم فى وادى الظن ، وأخبط فى أشَبِ [٢] الوهم . وأرى أنى قد أدركت الفائت ، وحصّلتُ العزم ،

(١) أصلد الزَّند ، وصلد صلوداً : صوَّت ولم يُورِ (أى لم يخرج شرراً) .
(٢) أى : اختلاط الوهم .

وملكت النفس ، وأحرزت المأمول ، وبلغت الغاية التى إليها سعى الساعون ، وفى سَرْحها رعى الراعون . أما فيكم من يقابلنى بوجهه ، ويقاولنى بما عنده من غيبه وشاهده بالحجة والشبهة ، لعلى أرى بيُمنه ما قد غُيبتُ عنه ، وأدنو بهدايته إلى ما قد بعدتُ عنه ! فقد والله توالى تَعَسِى ، وخرجتْ بالحسرات نفسى ، وطال التفاتى من كدر يومى إلى صفاء أمسى .

يا قوم ! فإن لم تأخذوا بيدى فإلى من أَكِلُ أمرى ، وعلى من أعرض وفائى وغدرى ، ولمن أفرض احتجاجى وعذرى ! أنتم أهل صَبوحى وغُبوقى ، وعلى خدمتكم ومودتكم وشّجتْ عروقى ، وبمساعدتكم ومقاربتكم اتسعتْ خروقى ، وفيما بينكم اشتدت رعودى وبروقى ، وعندكم بارت بضاعتى وكسدت سوقى . فبالحرمة السالفة إلا سمعتم صراخى ، وسددتم فاقتى ، ورحمتم ضعفى ، وعطفتم عَلَى عَظْمٍ بالٍ وقلب [٦١ ب] خالٍ وبلاء متوالٍ . إلهى ! لا خير فى خلقك ، فكن لى أنت بما أردت . فالصبر على البؤس معك أمتعُ من النعمة بتعرُّض (١) غيرك ، يا ذا الجلال والإكرام !

رسالة (ك)

أيها الحيران فى سعيه ، والسكران فى رَعْيه ، والمتغافل عن حظه ، والمتجاهل بين لحظه ولفظه ، والمتكاسل عن خدمة ربه ، والمتحامل على حبه بحبه . تصفح سِرَّك بعقلك ، واحكُمْ على نفسك بِعَدْلِك ، وتجمَّعْ عما قد تفرقت فيه ، وتَفَرَّق عما قد تجمّعت له . واستيقن أنك مَرْعِيٌّ لا مُهْمَل ، ومطلوب لا متروك ، ومحفوظٌ لا مُضاع ، ومقيَّدٌ لا مطلق ، ومربوطٌ لا سُدًى (٢) ،

(١) أى النعمة التى تأتى عن طريق غيرك .

(٢) السُّدَى : المهملة من الإبل .

ومُلجم لا مُخْلَى . وإذا وضح لك اليقين بذلك ، فانظر أين أنت منك ، أعنى مالك فيك ، وما عليك بك . فبهذه الموافقة الصادقة تلحق تلك المرافقة السامقة ، وبهذه الحركة القائمة تنال تلك البركة الدائمة . فهيا يا هذا ! جُهْدَك لقبول تحاياه ، وكن منك على بالٍ لملك تغنى بعطاياه ، وإياك والحِران (١) والتعذر فى أمرِ جدواه لك ، ونَجْواه بك ، وبلواه منك ، وشكواه فيك ، وعدواه عليك . ضاعف خشيتك لتأمَن ، ورقق دمعتك لتسكُن ، وعفِّر خدَّك لتُرْحَم ، وابسُط يدك لتُكْرَم ، وابتذل نفسك لتعزّ ، وابذُل رُوحك لتحرز (٢) .

يا هذا ! وَجْد بالمعنى الطالع عليك ، الغارب فيك كالبادى منك ، المحيط بك الحاصل لك ؛ فإنك إذا وجدتَ وُجِدَ بك ، وإذا وُجد بك جاد عليك ، وإذا جاد عليك أغناك ، وإذا أغناك نلت غاية مُناك .

يا هذا ! ثق بأنك لا تفوز بقربه إلا ببعدك عن كل ما كان غيره قاطعاً عنه وشاغلاً دونه . وتذكر فى أضعاف حالاتك معارِضَ أفعالك ومقالاتك وقل : سلام [١٦٢] على نسيم كان يصل من الحبيب ، إلى قلبٍ كلٍّ عنه كلُّ طبيب . نعم ! وسلامٌ على رَوْح كان يُهدى لعلامة القبول والرضا ، صار كرباً بحسرة على فوت ما مضى . بل سلامٌ على ليل كان يلتقى طرفاه بأُنْس ، يفتن عليه الجن والإنْس . بل سلام على لحظٍ كان ينتعش به العابر ، ويتجدّد بنوره الداثر . بل سلامٌ على حرم كان لا يدب فيه واشٍ ولا رقيب ، ولا يحل به ظنين ولا مُريب ؛ بل سلام على رسائل كانت تَرِد بعَتْبٍ يحترق

(١) حرنت الدابة كنصر وكرم حراناً بالكسر والضم فهى حرون ، وهى التى إذا استُدِرَّ جَرْيُها وقفت .

(٢) أى : لتحصَّن .

به القلب ، ولُطْفٍ تحيا به الروح . بل سلامٌ على علامات كلما طرق خيالها هاجت البلابل ، وتقطعت السلاسل . بل سلام على مصافحة كانت الكبد بها تذوب ، وعلى معانقةٍ كانت الأمانى بها تثوب . بل سلامٌ على مجلس كان ممتائاً بحديث حلو جرى مع الحبيب ، ليس لأحد من الخلق فى تعريضه وتصريحه نصيب . بل سلامٌ على يقظة كانت مقصورة على الشوق إليه والوَجْد به . بل سلامٌ على رُقادٍ كان الحلم يَعرضه ويجلوه بأ كثر مما كانت النفوس تتمناه وتهواه . يا هذا :

ما لِعينى كأنها بعـدَ حُبّى ... حُشِى الصَّابَ جفنُها والمـآقى !

عزّ والله علىّ ذاك عياناً ، وعز أيضاً علىّ خبراً ! نعم ياسيدى ! إن سألتنى عن هـذه الحال ، فإما أن أطويها عنك حياء ، وإما أن أنشرها رياء . وفى الجملة ، تجلّت سماؤها ، وتنقلت أفناؤها ، وعاد مَحْضها سَجَاجا[١] ، وعَذْبها أُجاجا ، ولينُها لجَاجا[٢] ، وروحها سَموماً وهَاجاً ، بعد ما كانت برداً وسلاماً ، ومغبوطة إعظاماً وإ كراماً ، — لاجَرَمَ[٣] أصبحت كمن وصف لحالى حين قيل فيه :

كأنَّ فؤاده كُرَةٌ تَنَزَّى[٤] ... حِذارَ البيْنِ ، لو نفَعَ الحِذارُ !

يا هذا ! أما حان لنا أن نستحيي من العكوف على المخالفة ؟ أما وجب بعدُ أن نهجر [٦٢ ب] هذه العادة القبيحة فى المقارفة والمقاذفة ؟ !

---

(١) السَّجاج : (بفتح السين المشدّدة وبعدها جيم خفيفة) : اللبن الذى رُقق بالماء . والمحض هو اللبن الخالص غير المخلوط بشىء .

(٢) اللَّجُ : المكان الحَزْن من الجبل ؛ فيكون معنى اللجاج هنا : الصلب .

(٣) لا جرَم : صار حقاً أن ...

(٤) أى تنزى : تتوثب ، تتسرع .

نُؤَمِّلُ عيشاً فى حياةٍ زهيدةٍ   أَضَرَّتْ بأبدانٍ لنا وقلوبِ
وما خيرُ عيشٍ لايزالُ مُفَزَّعاً   بفَوْت نعيمٍ أو بموت حبيب !

أملٌ يضُرّ، وظاهر يغُرّ، وباطن يعُرّ [١]، وكلٌّ يمر، بما يسوء ولا يسُرّ.

دع ذا ! أَخْلَقَ الدِّينُ، وعمّت الفحشاء، وأُفْسِدَ العلماء، وفشا الجهل، وظهر الغيّ، وتكاشف الناس، وفُقد الصدق، وغَلَبَ الجهل، وكثرت الجرأة، وصار ذكر الله لغواً على الألسنة، وخوت القلوب من الفكر بين السيئة والحسنة. فلا جرَمَ عاد عِتابنا لهم بينونة، وإمساكنا عنهم دينونة. فما ندرى ما نصنع، ولا ندرى إلى من نفزع. والمؤمن إذا قصرت يده عن المعروف، وأمسك لسانُه عن الزجر، وكلّتْ عينه عن النظر، وضعفت مُنّتُه عن الإنكار — تمنى الرَّحْلَ عن هذه الدار المحشوة بالنار والعار، إلى الدار التى هى دار القرار. فقد جمدت العيون فما تدمع، وتكبّرت القلوب فما تخشع، وكَلِبت [٢] البطون فما تشبع، وغلبت الشِّقوة فما تنزع، وعاد نهار الدين ليلاً، والتلذذ بالعلم حَرَباً [٣] وويلاً. ولله أمرٌ هو بالغه ولو شاء لجمعهم على الهدى « ولو شاء ربُّكَ لآمن مَنْ فى الأرض »، « ولو شاء الله ما اقتتلوا » [٤].

يا هذا ! إنما نتنفّس بهذه الكلمات كما يتنفس المملوق [٥]، ونهذى بها

---

(١) عرّ فلاناً يَعُرّه : أصابه بمكروه.

(٢) كلب : كفرح : أصابته شدة وضيق.

(٣) حَرِبَ حَرَباً : كَلِبَ واشتد غضبُه.

(٤) الآية الأولى من سورة « يونس »، رقم ٩٩ ؛ والثانية هى من سورة « البقرة » رقم ٢٥٤.

(٥) إما أن يكون من مَلَق (من باب نصر) فلاناً بالعصا : أى ضربه، ويكون المعنى هو : المضروب ؛ وإما — وهذا هو الأرجح هنا — من قولهم فرَس مملوق الذّكر : حديث عهد بالنّزاء.

كما يهذى بها المألوق (١) . وإلا فما نحن ممن وصفناهم ببعيد . وكيف وكيف نبعد عنهم وهم الجيران فى المحلة ، والمجتمعون فى المسجد ، والمعاملون فى السوق ! والله إنى لأظن أن هشاشاتنا فى وجوههم ، ومساعدتنا على أمورهم ، وسعينا فى حوائجهم ، وطمعنا فيما فى أيديهم ، ومداراتنا لهم ، ورفقنا بهم ، من الكبائر العظيمة والخلائق اللئيمة والعواقب الوخيمة . نسأل الله أن يرفع عن ألسنتنا ذكرهم ، وينسينا (٢) أمرهم ، ويميزنا عنهم ، ويخلصنا منهم ، حتى نلجأ إلى الله الذى هو الوَزَر (٣) والملجأ ، وبعونه [١٦٣] ينال الفوز والمنجى . هلك من تاه عنه وضل دونه ، واهتدى مَن عرَفه وحبا نحوه ولاذ به وأسلم وجهه له . فُديتَ ! — صاحبُ هذا النعت ما أظرفَه وأظرفَ حديثه ! وما أسعده وأسعد من ساعده !

ياهذا ! أما ترى كيف أديرك من باب إلى باب ، وكيف أصف لك حالاً بعد حال ، وكيف ألقى إليك فناً بعد فن ، وكيف أقوِّى رجاءك حتى تكاد تطمئن ، وكيف أغلِّب يأسك حتى تكاد ترجحنّ ؟ وكيف أناغيك بالسلوة عن الدنيا ، وكيف أسارُّك (٤) بأعاجيب المولى ، وكيف أجذبك إلىّ تارة ثم أنجذب معك أخرى ، وكيف أردّدك بين حلاوة لعلّ ومرارة عسى ؟! فإن كنت قد فهمت شغلى بك ، فاهمُمْ (٥) بشغلك بنفسك ، ولا تنتظر من غيرك أن يكون لك فوق ما أنت لنفسك . واعلم واحدةً ، فما بعد هذا بِغْية فى التنبيه ،

(١) المألوق : المجنون . والأَوْلَق : الجنون ؛ والمُأْوْلَق : المجنون .

(٢) ص : ينسنا .

(٣) الوَزَر (محركةً) : الجبل المنيع وكل معقل ، والملجأ والمعتصم .

(٤) سارّه فى أذنه : أفضى إليه بالسر .

(٥) فعل أمر من : هَمَّ ، يَهُمُّ .

ولا دونها حجة فى التمويه : ليس من الله بدٌّ على حال ، فاجعله منك على بال . واعلم أنه واسع الرحمة يتغمّد (١) ويعفو ، ولكنه أيضاً شديد العقاب يطرد ويجفو ، وإذا جفاك فما لك بعده بارٌّ ، وإذا ساءك فما لك بعده سارٌّ .

هذا قولى لك فانتصحنى ، فلو قد شغلت عنك بخاصتى لم تسمع هذه النغمة من غيرى : ولم تطرب على هذا اللحن من سائر إخوانك وإخوانى . فالوقت كدِر ، والأمرَ عكِر ، والحالُ قذِر ، والقولُ مُكرَّر ، والفعل مُنكَر ، والبناء مهوَّر ، والوجه وقح ، والخلق وَتِح (٢) ، والغفلة غالبة ، والأحداث سالبة . وأثبتهم قدماً أشدهم ألماً ، وأوسعهم علماً أوحشهم كَلِما ، وأكثرهم دعوى أقلهم رَعْوى (٣) . فقل لى الآن : هل لك مرجع إلا إليك ، وهل لك بك مستعان إلا عليك! دع عنك أمسك فإن فكرك فيه وَسْوَسة ، ودع عنك أيضاً غدَك فلست على بَيِّنَة من ظفَرِك به . خذ بعِنان نفسك فى ساعة وقتك إلى حظك التى تجمل بك فى عاجلتك عند الناظرين إليك ، وتجملك فى عاقبتك عند [٦٣ ب] الطالبين عليك ، واسعَ لهذا المقام المحمود فلذلك فليتنافس المتنافسون ، « ولمثل هذا فليعمل العاملون » (٤) .

اللهم إنا إليك نفزع ، وفى رياضك نرتع ، وصوتَ رضاك نتوقع ، وثوبَ خدمتك نتدرَّع (٥) ، < وبفنون الثناء عليك نتذرع > (٦) ، والجلال

---

(١) تغمّده الله برحمته : غمره بها .

(٢) تافه ، قليل ؛ ومثله الوتيح ؛ والفعل ككرُم : وَتاحة ووتوحة .

(٣) الدَّعْوى والدَّعْو والدَّعْوة (ويثلثان) والرُّعوى (بالضم) والارعواء والرُّعيا : النزوع عن الجهل وحسن الرجوع عنه .

(٤) سورة « الصافات » : آية ٥٩

(٥) أدّرع الثوب : لبسه .

(٦) موجود بهامش الأصل .

وجهك نتضرع ، وباب جودك وإحسانك نَقْرَع ، ومرارة ما يفوتنا من فضلك الواسع بتقصيرنا نتجرع . اللهم اجعل أمارة قَبولك لنا ومنا وفينا أن تُخْرِسنا إلا من ذكرك ، وتزمّننا[1] إلا فى طاعتك ، وتُعْمينا إلا من النظر إليك ، وتبعدنا إلا من النزول بِفنائك ، وتفقرنا إلا من الفوز بعطائك ، وتضعفنا إلا من الظَّفَر بأعدائك . قد وجهنا أمانينا إليك ، ووَقَفْنا آمالنا عليك ، ووَحَّدْناك كما أَعْلَمْت ، ومجَّدْناك كما أَلهمْت ، وقصدنا فى طلب رِضوانك فيما بين ذلك . فعُدْ بفضلك علينا ونحن سائلون ، فقد جُدْتَ بفضلك فى الأول وما كنا سائلين . ومزيداً بالإحسان تَمِّم ، ومن كان أهلاً للكرم على عبيده خصص وعمم .

يا مولانا ! منك تعلمنا ما قلنا ، وبك اهتدينا فيما سألنا ، وإياك أَمَّلْنا فى قصدنا . وهذا لأنَّك أولُنا وآخرنا ، وغائبنا وحاضرنا ، ومالكنا وناصرنا ، وباطننا وظاهرنا ، وطالعنا وغاربنا ؛ وأنت كُلُّ كُلِّنا وحامِلُ كُلِّنا والفاتح بابَ الجود علينا ، والطالب لنا أن نسألك ما عندك برغبتنا ورهبتنا ، والعالم بضعفنا واستكانتنا ، والآخذ بأيدينا عند عَثْرتنا ، والسائح فى ضمائرنا على كل حال نتقلّب عليها ، والشاكر لنا على بعض خدمتنا . فياولِّى النِّعَم ، ويا مُحَرِّك الهمم ، ويا واهب القِسَم ، ويا مذكوراً بالكرم ، ويا معروفاً عند جميع الأمم ، ويا موجوداً على بُعْدٍ وموجوداً على أَمَم[2] ، ويا مُناجى بصنوف الكلم ، ويا معبوداً على القِدَم ، ويا منشِئاً من العدم ، ويا جاعلاً من شئت كالعَلَم ، ويا من « علّم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم »[3] ! جُدْ علينا بنا ، اهدنا إلينا ،

(١) أى تبقينا زمناً طويلاً .

(٢) أمم : قريب .

(٣) سورة « العلق » : آية ٤ ، ٥

وأوضحنا لنا . [١٦٤] قد بَلينا فجدَّدْنا ، وتَلَّينا فسدَّدنا [1] ، ونُكِبنا فأنعشنا ، وانجرَدْنا فرَمَّشنا [2] ، وتعسّرنا فسهلنا ، وتعقدنا فحَلّلنا ، ونُكِرْنا فعرَّفنا ، وجُهِلنا فعلّمنا ، وقلِقْنا فسكَّنا ، واستوحشنا فآنِسنا ، وبَعُدنا فقرَّبنا ، وتُبْنا فاقبلنا ، وبَدَّنّا [3] فكوّنا ، وضعفنا فقوّنا ، وزَهِدْنا فرَغّبنا ، ورَغِبْنا فزهّدنا ، وسلَوْنا فشوّقنا ، وأُصبنا [4] فعزّنا ، وضللنا فاهدِنا ، وعُطِّلنا فحَلِّنا [5] ، وأُغفَلْنا فسمّنا ، وخُذِلنا فانصُرْنا ، وهبطنا فرقّنا ، ووقعنا فخلصنا ، وعطِبْنا فارحمنا ، وبُذِلْنا فصُنّا ، وزُغْنا فقوّمنا ، واعوججنا [6] فسوّنا ، ورَقَدْنا فأيقظنا ، وسألنا فأعطنا ، وقصَّرنا فاحتملنا .

إلهنا ! إليك سافرنا فكن غنيمتنا ، وعليك توَكّلنا فكن عِصمتنا ، ولك ذَلَلْنا فعزِّزنا ، وبك وجدنا فجُد علينا ، وإليك اشتقنا فأوصلنا ، وإياك عبدنا فشرّفنا ، وعنك حدّثنا فصدّقنا ، وإليك دعونا فأعِنّا ، وفيك تولّعنا فارحمنا ، وعليك تدلّعنا [7] فاخصصنا . أيها الصاغى بأذنك إلى شرح هذه الحُرَق [8] ، العاجب من اختلاف هذه الأسماء والصفات

---

(١) سدّده : قوّمه وجعله مستقيما .

(٢) من أرمشَ الشجرُ : أورق ، أى تجردنا من أوراقنا كأننا شجر ، فاجعلنا نورق من جديد . أو يكون أصلها : رَيّشنا : بمعنى : اكسنا بالريش .

(٣) بدّن تبديناً : أسنّ وضعُف .

(٤) أى : فجعنا بفجيعة فاجعل لنا عزاءً عنها .

(٥) العاطل : المتجرد أو العارى عن الشىء ؛ والمتحلّى عكسه .

(٦) ص : اعوجنا .

(٧) فى « تاج العروس » للزبيدى : « المُدلّع كمعظّم : المتربى فى العز والنعمة ؛ — مولّدة ، والاسم الدّلاعة بالفتح » .

(٨) جمع حُرْقة وهى الحرارة ، والمقصود : الأمور الصعبة الشديدة .

والعُلَق [1] ! الزَمْ حدَّك فى العبودية التى فُطِرْتَ عليها ، إلى أن تصطفق من أمر الألوهية التى عساك تُرقى إليها ، فإنك إذا لزمت ما عليك بالتكليف ، أهدِىَ إليك ما تستحقه بحق التشريف . وإياك أن تحيد عن حدّك صاعداً أو نازلاً ، فإنك إن فعلت ذلك محى اسمك من ديوان الخدم ، وطُرِدْتَ إلى هوة الهوان من ذروة الكرم ، وقيل لك : اخسأ عن مرابع المُقرَّبين ، وابعُدْ عن حضَرات المستخلَصين ، فإنك لا تصلح أن تطأ بساط الملوك مع سوء الأدب وقلة المبالاة والشرود مع الخلاف وترك ماتقدم إليك بلزومه وركوب مازجرت عن التعرض له .

اللهم إنا نلوذ بك عائذين ، ونعوذ بك لائذين ، ونسألك أن ترشّحنا للزُلفة عندك بحسن القَبول منك ، ياذا الجلال والإكرام !

رسالة (كا)

[٦٤ ب] أيها المستأنس بالوحشة ، الغائص فى الدَهْشة ! أما لك من صَرْعتك نَعْشة ؟ أما لك إلى حظك عند الله عَطْشة ؟ لعلك واثق بعاجلتك الغائلة الزائلة : ألم تسمع قول الحكيم : رُبَّ واثقٍ خجل؟ لعلك آمن من غائلتك: ألم يبلغك : رُبَّ آمنٍ وجلٍ ؟ ياهذا ! أسلمت نفسك فى يد عدوك ، ووليته تدبيرك ، وسلطته على روحك ، كأنك مُكايِدٌ لمن يُحبُّ فلاحك ، ويبغى صلاحك . ليس هذا من الحزم المأخوذ به ، ولا من الاحتياط المعمول عليه .

انتبه ! فقد طال رقادك . وأنِبْ إلى الله فقد تمادى عنك . واعتبر حالك بغيرك فقد اشتدّ سهوك . أتظن ، يا عاجز ، أنك تُخلَق هذا الخَلْقَ السَّوِىَّ ، وتُمنَح هذا العقل الزكىّ ، وتُعطَى هذا العلم الرَّضِىّ ، وترزق هذا الوجه الوَضِىّ ،

---

(١) جمع عُلقه : علاقة .

ثم تمْرُجُ فى شهواتك مَرْجاً[(١)] خالعَ العِذار ، جاهلاً بما يجرى بالليل والنهار ، غيرَ مُطالَبٍ بما لك وعليك ، ولا معاتَبٍ بما فيك ولديك ؟ — لقد رأيتُ خلقاً كثيراً ، وعرفتُ صغيراً وكبيراً ، فما رأيت أجنى منك على نفسك ، ولا عرفت أوهى منك فى طلب أيْسك[(٢)] . أما آن لك أن تقلع عن هذا الإضرار ؟ أما وجب عليك أن تستحيي من مخالفة الله فى الجهار والسِّرار ؟ أما تشعر بغايتك بين الإيراد والإصدار ؟ أما ترى القارعة بعد القارعة آناء الليل وأطراف النهار ؟ أما تأنف من مصاحبة الأشرار ؟ أما تشتاق إلى مجالسة الأخيار ؟ أما تحب أن تكون حبيب الملك الجبار ؟ حدثنى : بم تثق ، وبم تصول ، وبم تحتج ؟ فأى شئ تقول ؟ الوعد يشوّقك وأنت ساهٍ ، والوعيد يخوّفك وأنت لاهٍ ؛ والعتاب يوافيك وأنت ذاهل ، والعلامة تلوح لك وأنت جاهل ؛ والعبرة توقظك وأنت ناعس ، والداعى يَرْفُقُ بك وأنت متشاكس ؛ والناصح يَصْدُقُك وأنت جامح ، والصديق ينصحك وأنت جانح ؛ والحجة تتوكد[(٣)] [١٦٥] عليك وأنت مُعْرِض ، والحكم يَنفُذ فيك وأنت معترض . فما أبدأك عن حيازة نصيبك فى عمرك بسعيك ! وما أهواك فى مهابط الردى فى حياتك بيدك ورجلك ! وما أعندَك عن سبيل الرشد فى مَهلك بسوء تحفُّظِك ! وما أغفلك عن حظك فى عاقبتك ! إن أنت إلا بلاء عن[(٤)] نفسك ، وحجاب بينك وبين روحك وأُنسك ، وغيم كثيف بين قمرك وشمسك ، وبرزخ قوىّ

---

(١) مَرَجَ مَرَجاً (كفرح) : قلق واختلط واضطرب . ومرَجَ يمرُج (ككتب) : خاض فى كذا أو رعى فيه .

(٢) الأيس : القهر . يقصد : ليس أضعف منك فى طلب ما تقهر به الناس وتسمو به عليهم .

(٣) توكّد : تأكّد .

(٤) كذا ! ولعلها : على .

بين طهارتك وقدسك ! قد آن لك أن تتوب من هنواتك التى أصبحت من أجلها نادماً سادماً [١] ، وآن لك أن تتوب إلى سيرتك الحسنى التى كانت [٢] عليها قاعداً أو قائماً .

يا هذا ! بادر واصطبح بِعَدُوِّك قبل أن يغتبق بك عَدُوُّك ، إن غدوت إلى الربح مختاراً وإلا راح بك الشقاء إلى الندم مضطراً [٣] . أما أرى فى يدك إلا التمنى ، والتمنى رأس مال المفاليس ؟ أين الحاصل الموثوق به ؟ أين الحجة الثابتة ؟ أين البيِّنة المزكَّاة ؟ أين الذخيرة النفيسة ؟ أين الاستظهار النافع ؟ أين الاحتياط المحمود ؟ أين الأخذ بالوثيقة ؟ أين الحكم المسجّل ؟ أين الخير المعجّل ؟ أين الإدلال بالكفاية ؟ أين العذر فى الجناية ؟ هيهات ! اضمحل كُلُّك ببعضك ، وهَلَك بعضُك بكلك ، فلا كُلَّ لك الآن ولا بعض . تاهت بك التوائه ، واشتبهت عليك الشبائه ، كلما احتجت طلبت ، ولما طلبتَ فقدت ، لأنك بِنتَ بك ، ثم لنت لك ، ثم احتججت [٤] عنك ، ثم استمليت منك ؛ فلما جاءت الحقيقة بادت رسومك وصفاتك ، وانمحت نعوتك وسِماتك . ومن كان مثلك لن يبالى [٥] الله فى أى وادٍ هلك . لا عين تدمع بالاعتذار ، ولا يَدَ ترفع إلى الله بالاستغفار ، ولا قلبٌ يخضع عند تصرف الأقدار ، ولا نفس [٦٥ ب] تخشع لما فاتها من التذكرة والاستبصار . إنما هو قِحَة

(١) السَّدَم (محركةً) : الهمُّ ، أو مع ندم ، أو غيظ مع حزن ؛ سدم (كفرح) فهو سادم وسَدْمان .
(٢) كذا فى الأصل ، ويصح إذا وقفنا عليها . أو لعل أصله : كُنْتَ .
(٣) ص : مصيطرا .
(٤) يمكن أن تقرأ هكذا ، ويمكن — وهو الأرجح — أن تقرأ : احتجبت .
(٥) ص : يبال .

وجرأة، وتجليح [١] ومكابرة، ودعوى ومجاهرة، وعجز واستطالة، حتى إذا «التفّت السّاقُ بالسّاقِ إلى ربّك يومئذٍ المساقُ» [٢] حصلت وقد جفّ ريقك عن الكلمات وانسد طريقك فى الظلمات، وحينئذ تقول: «ربِّ أرْجِعونِ لَعلّى أعملُ صالحاً فيما تركْتُ» [٣]. كلاّ! أما كان لك يا هذا، فيما سلف من عمرك < و > ما يُلْتفى [٤]، التفاتةٌ منك إلى نجاتك؟ ألم تسمع تنزيل الحكيم العليم، وقول العزيز الكريم: «أوَلَمْ نُعمِّرْكُمْ، ما يتذكّرُ فيه مَنْ تذكّرَ» [٥]. بلىَ! والله، لكن ران على قلبك ما كسبت يداك، وخدعكَ [٦] عدو الله وأرداك [٧]. فاتبع الآن مَن ملّكْتَه قيادك، ووهبت لمراده مرادك، فإنك من الخاسرين.

اللهم فارحم فاقتنا إلى كفايتك، وألبسنا جناح رأفتك، واعطفْ علينا برحمتك، ووكّل أبصارنا بمواقع قُدْرَتك، وأنطق ألسنتنا عن بدائع حكمتك، واستعمل جوارحنا بطاعتك، وسرّح أرواحنا فى معادن مِنْحتك، حتى نستريح من هذا الكرب الجاثم فى صدورنا حسرة على ما يفوتنا من رضوانك وتقبّلك؛ واصرِفْ أطماعنا عن خَلْقك، واجمعها فى عطيتك بكرمك. فما أشقانا إن جهلناك! فما أجهلنا إن خالفناك بعد أن عرفناك! وما أحسن حالنا

(١) التجليح: الإقدام والتصميم.

(٢) سورة: «القيامة»: آية ٢٩ — ٣٠

(٣) سورة «المؤمنين»: آية ١٠١ — ١٠٢

(٤) التفى: وجد.

(٥) سورة «الملائكة»: آية ٣٤

(٦) ص: خدعت. أو تصح على تقدير «عدو الله» نعتا للمخاطب.

(٧) ص: أرادك.

إذا ذكرناك ! وما أقربنا منك إذا دعوناك ! وما أسعدنا بنجواك ! وما ألهجنا بذكراك ! وما أنعمنا فى ذراك ! وما أجحدنا لسواك ! يا من هو بلا إحاطة وإدراك . إلهنا ! إنَّ مرضنا كان بك ، فاجعل شفاءنا على يدك ؛ وإن خلافنا لك كان بقضائك ، فاغفر لنا الآن بتفضلك وحِبائك [1] ؛ وإنَّ زَيْغنا كان بعلمك بنا وحلمك عنا ، فاجعل تقويمنا الساعة [١٦٦] بلطفك عندنا ، وتفضلك علينا . لا نَملِك إلا ما مَلَّكتنا ، ولا نُملِّك أيضاً ما ملَّكتنا إلا إذا أمددتنا وأرْفَدْتنا [2] . لك الآلاء الجسيمة ، والنَّعماء العظيمة ، والأيادى الكريمة ، والخيرات الحديثة والقديمة .

لاطِفْ قلوبنا بالفيئة إليك ! سَهِّل علينا فى كل الأمور التوكلَ عليك . وعرِّفها حُسْنَ التأنى فى طلب ما لديك . قُدْها صافية من غيرك إلى بابك . احْشُها باليقين والخشية . املأها بالسكون والطمأنينة . عوِّدْها الرجاء والخوف . شُبْها بالمحبة والشوق . هى بيدك فقلِّبها كيف شئت . اللهم فَشَأْ ما يُرْضيك عنها ، وقلِّبها على ما تريد منها . هى أوانيك فينا وأهدافك عندنا ، فاملأها بخالص ذكرك ، وأصِبْها بالأمن من غضبك ، يا واحد ! — إنما أزِلُّ فى كلامى لك أيها الإنسان من فن إلى فن ، وأطفر من وطن إلى وطن ، لأن المرامى فيما أحاول وصْفه بعيدةٌ نازحة ، والأحوال فيها سانحة بارحة . فكل ما أُحَبِّره مطموس ، وكل ما أُجَدِّده ملبوس ، وكل ما أقوِّمه معكوس . وذاك لأن العورة فى القول بادية ، والرقباء من دونه منادية . فإن أخذت بعد هذا كله فى السكوت ،

---

(١) الحباء : العطاء .

(٢) الإرفاد : الإعانة والإعطاء .

جاءت (١) الفكرة متقدة بالوسواس، والخاطرة (٢) مترددة مع الأنفاس. فما حال من إن قال كان قوله رَدّاً ، وإن سكت كان سكوته هَدّاً ! نعم، وإن برز كان بُروزه تعرُّضاً وتحككاً ، وإن كَمَن كان كمونه تمرُّضاً وتمعكاً (٣) . نعم، وإن كَنَى (٤) كان كنايته مغالطة، وإن صَرّح كان تصريحه مُباهتة . نعم ، وإن أشار كانت إشارته جهالة . نعم، وإن عبَّر كانت عبارته ضلالة . فما حال مَنْ ذا حالُه، وما جواب مَنْ ذا سؤاله ! — غالته والله الغُول، وبقى حيران فيما يكتم ويقول . جهدٌ والله قليل الجدوى ، وأمرٌ والله مقرونٌ بالبلوى . فإلى الله مَنْ أوّله وآخره الشكوى ، فإنه نعم الناصر [٦٦ ب] والمولى ، فى الآخرة والأُولى . وأعود فأقول : اعتبرنى فلكَ فىَّ معتبر ، واستخبرنى فلكَ عندى مستخبر . ثم إذا اعتبرت <و> استخبرت فقِسْ عِيانك على عيانى ، وانظر أين إسرارك من إعلانى ! وأين بَوْحك من كتمانى ! وأين مكانك من مكانى ! لعلك تطلع على شأنك أو شأنى ! يا من رآنى وكأنه لا يرانى ! أما ترانى كيف برانى ، ثم أرانى ما أرانى ، ورآنى فيما رآنى ، ثم استرآنى فاسترعانى ، ثم قال : لن ترانى ، أو ترانى بأن لا ترانى .

فخُذ بى الآن، يا صاحبى، فيما تسمع، أو خذ بى لما تعرف إن لم تسمع ، أو خذ لى ما تسمع إن لم تعرف . هيهات ! ضاق اللفظ ، واتسع (٥) المعنى ،

---

(١) فى الهامش : « نسخة : جاءت الفواحش » .

(٢) ص : الخاطر .

(٣) تمعَّك : تمرَّغ .

(٤) كَنَى به عن كذا ويكنو كناية : تكلم بما يستدلُّ به عليه ، أو أن تتكلم بشىء وأنت تريد غيره ، أو بلفظ يجاذ به جانبا حقيقةٍ ومجاز .

(٥) فى الهامش : واتسق .

وانخرق المراد ، وتاه الوهم ، وحار العقل ، وغاب الشاهد فى الغائب ، وحضر الغائب فى الشاهد ، وتنكرت العين منظوراً بها ومنظوراً إليها ومنظوراً فيها . فكيف يمكن البيان عن قصةٍ ، هذا إشكالها ؟ وأين الدواء ، والعلة هذا عُضالها ؟ اليأسَ اليأسَ ، القُنوطَ القنوطَ ! الويلَ الويلَ ! اللهم إلا أن يُجلّيها لوقتها من هو أولها وآخرها ، وواردها وصادرها . دع هذا أيضاً فإنه ألذع من جِمرِ (١) الغَضَى ؛ وخذ فيما يتلافى ما مضى ، ويُحدِث فى المستقبل بعض المراد إن لم يكن كل الرضا . كن رقيبك على نفسك تكن نفسُك رقيباً عليك ، فإنكما إذا تراقبتما استغنيتما عن كل رقيب عليكما ، وخذ حقيقتك بالصبر فإنه مِلْح الحال ، ولا ظفر لمن لا صبر له ، ولا نجاة لمن لا أناة معه . ثم اجتهد بعد ذلك أن تستيقظ بين النيام وتنام بين المستيقظين ، فإن استيقاظك بين النيام يفرغك لنفسك ، ونومك بين المستيقظين يرقيك (٢) لحظّك . وهذا [ان] رمزٌ إن فطَنْتَ له كان لك راحة ، وإن غُيِّبْتَ عنه كان وتاحة .

اللهم إنّا قد أكثرنا القول فيك ثقةً بك ، لا جرأة عليك ، وافتتنا فى الخبر عنك حباً لك ، لا اغتراراً بك . فقابل ثقتنا بك بالتحقيق ، وحبّنا لك بالتصديق ، فنعم الرفيق أنت ونعم الشفيق . وإذا قابلت ذلك بما سألناك ، [١٦٧] فزدنا من فضلك ما أنت أهله ، وإن لم نكن نحن أهله يا أهل التقوى وأهل المغفرة .

---

(١) الجِمرُ من حرّ القيظ أشدّه ؛ ونار الغضى (والغَضَى شجر معروف) أجود الوَقود عند العرب .

(٢) يمكن أن تقرأ : يرنهك ، وهو تحريف لعل أصله : يرهنك ، بدليل قوله قبل : يفرغك .

يا هذا ! إن فتح عليك باب الربوبية باستيعاب العبودية ، ورُقّيت إلى الحرية بعد ذلة الرق فى الخدمة ، شاهدت عجائب وعجائب ، ورأيت غرائب وغرائب . فإن قلت مثل ما قيل لك : وأين مثل ذلك وأين ما قاربه ؟ أدناها أنك ترتعى[1] حدائق الأمن ، وتَشَمُّ نواضر الأزهار ، وتشهد العقولَ سائرةً فى هوادج الكرامات نحو الأرواح المقدسة بالطهارة ، وتسمع معاتبة الأحباب على شجو يسحر الألباب ، ويقطع دون الحق كُلَّ حجاب ، ويفتح كل باب . هذا ذَرْوٌ[2] من الحديث عن هذا المقام الذى وصل إليه بعضُ الكِرام ، ثم وراء ذلك أيضاً ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، لأن العين إنما تألف المحدودات ، والأذن إنما تحدُّ المرسومات ، والقلب إنما يخطر عليه ما جرت به العادات[3] . فأما ما يعلو عن هذا كله ، علواً لا بمسافات ومجازات ، فلا خبر عنه إلا بالإيماء اللطيف ، أعنى الإيماء الذى يَلْطُفُ عن الوهم ويأنف من الحس ، ويستغيث من الشكل والضدّ — فبذلك الإيماء يمتلىء سِرُّ العارف نوراً ، ويتقد بحرِّه ناراً ، ويكون الوجد به وجد السائحين فى أعماق الملكوت ، ويكون الذوق له ذوق الوالهين ببوادى الحق .

ولولا أن الرب سبحانه يُمسك العقول عن التهافت ، والأرواح عن التهالك ، والنفوسَ عن التطاوح ، والقلوب عن التمارج[4] ، لتبدد منها الشمل المكموم الملموم ، وانتثر عنها الأمر المنظوم ، وتزايلت الأشياء عن سِماتها القائمة عليها ، وتعاندت عن صفاتها الثابتة بها . فإنما يمسكها لسابقِ علمٍ له فيها ونافذِ تدبيرٍ

(١) يرتعى : يرعى .

(٢) ذرو : من ذرا يذرو : أطار وأذهب .

(٣) ص : العبادات .

(٤) أى : الاختلاط .

منه عليها ، له الحكم وإليه المرجع . اللهم إنا نعتسف هذه الطُرُقَ الوَعْرة ، ونصبر على مَشَاقِّها بالجوع والعرى [٦٧ ب] والو[1] حدة لنخرج منها يوماً إلى نورك الذى أضاء عالمك ، وفيه برز غيبك ، وعليك دَلَّ فِعلُك ، وإليك أشار أثرُك . فنسألك بهذه القدرة أن تقبلنا ولا تردنا ، وصِلْنا ولا تَصُدَّنا ، يا ذا الجلال والإكرام !

رسالة (كب)

اللهم اكفِنا كلَّ مُكايدٍ لنا فيك ، واقمَع عنّا كلَّ عدُوٍّ لنا من أجلك ، واشغل عنا كلَّ شاغل عنك ، وألِّف بيننا وبين كل مؤلِّف بيننا وبينك ، وأحسِن جزاء كلِّ من صرف وجوهنا إليك ، وأكرِم كلَّ من حدثنا عنك . وإذا كنا نحب من يدعونا إليك من أجلك ، فكيف لا نحبك إذا قبلتنا خدَماً لك ، وشملتنا بأياديك ومِننك ! كَذَبَ من ادّعى محبتك ثم التفت إلى سواك سراً وجهراً ، اختياراً أو قهرا .

إلٰهنا ! قدرناك حق قدرك ، لم نطف بذكرك ، ولكنا نذكرك بإذنِكَ كما ألقيت إلينا على لسان الصدق عنك . فاسمعنا إذا ذكرناك ، وأجبنا إذا دعوناك ، وأعطِنا إذا سألناك ، وزِدْنا من فضلك ، إنك كذاك وفوق ذاك .

أيها الجوهر الشريف ! أُجِلُّك عن شناعة الخطاب فى التقرب إليك ، لأنى وحقِّ الحق مخلصٌ فى ولائك والاعتماد عليك ، وثقتى بهذا الممنوح العزيز قدره العظيم شأنه تلاطفنى ملاطفة المنبسط ، وتشفق علىَّ إشفاق الوالد المحب ، وليس هذا أخصَّ صفاتى فيك ، ولا غاية مالى منك ، ولكن العبارة قد تخون مطلقها فى اشتمالها على غير المعتقَد ، وسقوطها دُوَيْنَ الغرض المعتمد . فما الحيلة لمن كلف ذاك ، أعنى كلّف ما لا يطاق ، وحرِّم بخدائع الحس قبول ذلك !

---

(١) ص : والرحده ! !

ومحقق الحقائق ومسهِّل الطرائق شاهدٌ على صادق دعواى فيك كما هو شاهد لك فى خصائص ما وهب لك ، لأنك — بلا كاف التشبيه ولا هاء الكتابة — فردٌ فى تفردك ، واحدٌ فى توحدك . هذه خطبة الحق على منبر التفضيل ، وليس لى علم فيها أقتبسه ولا حظٌ ألتمسه ، إنما ألوذ به لِياذَ الصَّبِّ الوامق ، ثم أعوذ به [١٦٨] عِياذ الموتور الحانق .

اسمع ، أيها الإنسان ، بِدْعاً من الكلام ، وغريباً من المعانى . فإنى أقول : لاحت بوارق التمنى فسمت نحوها نواظرُ الافتقار ، وتهيأت صور المعنى تبدو فتقطعت عليها أكباد الأحرار ، وأذعنت النفس الإباءة [١] على مداهشها ، تروم حيلةَ المشار إليه مستوفاة بقضايا الحس ، والحس حاكم مُرْتش ، وخابط خبط عشواء ، فى ليل مُدْلِهِمّ . وإنما انخدع به من وزن حقائق مطالبه برأيه المتَّهم ، وخاطره الكذوب . وقد طالت الشكية ، ودامت البلية ، وتضاعفت الرزية ، فى تسلسل قول لا يَبْرُزُ معناه مِنْ خَلَلِ حجبه [٢] ، وانقلب الفصيحُ المِقْوَلُ عَيِيّاً [٣] فى كشف المراد على الغاية . فالإشارة كأنها نِكاد [٤] ، والعبارة على الأيام تزداد ، ونار الوجد على اضطرابها تبيدُ رسومَ العقل بتحصيله ، فتردُّ جُمَلَ القول بتفصيله ، فلا حُرَق الخلوة تلتقى سكونَ السلوة ، ولا أسباب الصولة تتصل بمواد الدولة . فهل يحسن أن يكون [بقول [٥]] مَقْطَع القولِ عَيّاً وعجزاً ، ومنتهى الطلب خيبة وإخفاقاً ، وغاية البحث يأساً وتسليما ، ومردودُ الجواب

---

(١) الإباءة : الإقامة — يقصد استمرت النفس فى دهشتها .

(٢) أى لا يظهر معناه من خلال أستاره وألفاظه التى هى بمثابة الحجب له .

(٣) عَىَّ بالأمر وعيى كرضى ، وتعايا واستعيى : لم يهتدِ لوجه مراده أو عجز عنه ، عياً وهو عيَّان وعياء وعىٌ وعيىٌ ، وجمعه أعياء .

(٤) من قولهم : أرضون نكاد : قليلة الخير .

(٥) نرجح أن تكون هذه الكلمة زائدة .

زجراً وانبهاراً ، وثمرة التحقيق حسرة وتحيراً ؟ هذه عِلّة عوراء ، وشُبْهة عمياء ، وحجة طامسة ، ومَحَجّة دارسة . ومحاسن الحال موقوفة على طلب المولى ، وغاية الفكر مصروفة إلى ابتغاء الأخرى . ومنذ قريب حدثتنى الأيامُ عن كُنْه أفعالها ، المضافة بالمجاز إليها ، أن أول الأمر اغترار ، وهذه رتبة السواد ؛ وأوسطه قناعة العلم ، وهذه فضيلة ذوى البحث ؛ وآخره نكِرة فى تحقيق ، وهذه منزلة الأَيِف والندامة والتلف . فأين من لا أين له ؟ أم كيف من لا كيف له ؟ هيهات ! زاغت الأبصار ، وبليت الخواطر ، وافتُضِحَتْ السرائر ، وانعكست الأوائل على الأواخر ، [٦٨ ب] وغارت العين فى منابعها ، ورُدَّ القول فى وجه القائل ، وكسر التحصيل فى نحر العامل ، وقيل للسامع : صُمّ ! لعلك تنجو ، وللقائل : اخرَسْ ! فعساك تسمو ، وللناظر : غَمِّضْ ! فلعلك ترنو . فهذه أعلام الحق قد علتْ إلى مراتب التطويح ، وصار مصير الفضل إلى رتبة الظن وهُجْنة الكذب ، وسخافةِ الحال ، وضعفِ المُنّة ، وانتكاث القوة ، والتياث الهيئة . كل ذلك من عِشْق الآفة وإيثار الزهرة والتعرض لما لا يصفو بحيلة ، « بكلٍّ تداوينا فلم يَشْفِ ما بنا » (١) . على ذاك فِيَّ سكونُ القلب بالرضا

(١) نصف بيت شعر . وأصله :

وقد زعموا أن المحب إذا دنا   يَمَلُّ وأن البعد يشفى من الوجد
بكلٍّ تداوينا ، فلم يشف ما بنا   على أن قربَ الدار خيرٌ من البعد

وينسب إلى ابن الدمينة (راجع ديوانه ، شرح الهاشمى ، المنار سنة ١٩١٨ ، ص ٢٨) ؛ وراجع كذلك « الأغانى » ج ١٥ ص ١٤٩ (طبعة الساسى ، القاهرة سنة ١٣٢٣ هـ) ؛ وراجع « الحماسة » ج ٣ ص ١٤٥ (القاهرة ، سنة ١٢٩٦ هـ) . ونسبه القالى فى « ذيل الأمالى » (ج ٣ ص ١٠٤ ، القاهرة سنة ١٩٢٦) إلى يزيد بن الطثرية . وورد منسوبا إلى مجنون بنى عامر فى ديوانه (ص ٤٠ ، القاهرة سنة ١٢٩٤ هـ) .

أجدى من قلق الاعتراف باللسان ، وظنُّ العلم أنفع من يقين الجهل ، والسكوتُ مع التسليم أحمدُ من النطق مع التفتيش ، وتمحق [١] الوقت بالتهاون أهدى إلى مراد المعنى من مصارفة الزمان بحسن التوهم . أليس القول فى منشأه عن العين الثابتة ، يزاحم الصمت فى مورده على الأشخاص البائدة ؟ بضروب المشاكلة وصنوف المماثلة قد بان أن كل المعنى بعضٌ ، وبعضَ المغزى كلٌّ ، وأن كل ذا وبعض ذا منقسم ، وأن المنقسم منقوص . فهل كل بعض المعنى إلا كبعض كله ؟ وهل بعضُ كلِّه إلا ككل بعضه ؟ وهل كله فى اللفظ إلا على غاية التفريد ، وبعضه على نهاية التشتيت ؟ هذا نوح القلوب على مذاهب أسرارها ، ومأتمُ العقول على فوائتها . عندها يطيب البكاء الطويل ، بالويل والعويل ، من منابع قلب قد جف بالوجد والغليل :

لعلَّ انحدارَ الدَّمْعِ يُعقِبُ راحةً   من الوَجْدِ أو يَشْفِي نَجِيَّ البلابل [٢]

قُتل الخرّاصون ، الذين هم فى غَمْرَةٍ ساهون ، وهَلَكَ الخدّاعون الذين هم فى عَرْصة الباطل لاهون . ما فائدة البكاء إلا استراحة ! لا جَرَمَ قد ضيق عليه الفكرُ ساحةَ الإصابة فَدَمَعَ وقَطَرَ وهَمَعَ ، وسال ومَطَرَ ، ولم يجد مساغاً لريقه ، ولا فضاء لطريقه . ولقد أحسن ماشاء بعض المُحنَّكين فى قوله حين قال :

---

(١) محقه (كمنعه) : أبطله ومحاه ، كمحّقه فتمحّق وامتحَقَ وامّحق . على أن الأقرب هنا هو أن يكون الأصل (وهذا يمكن أن يقرأ فى المخطوطة أيضاً) : مَحْقُ .

(٢) بيت شعر لذى الرُّمة من قصيدة له مطلعها :

خليليَّ عُوجا مِنْ صُدور الرَّواحِلِ   بِجُمْهُورِ حَزْوَى فابكيا فى المنازل

راجعها فى ديوانه ص ٤٩٢ بيت رقم ٢ ، نشرة مكارتنى Macartney ، كمبردج سنة ١٩١٩ م — ١٣٣٧ هـ .

[١٦٩] إذا خِفت صعوبة أمر فاصْعَبْ له تذِلَّ لك مراكبُه ، وخادع الوقت عن أحداثه .

سيدى ! ليس بموفَّق من توسل بغير الافتقار إليه ، ولا بمعانٍ من رجع إلى غير الاعتماد عليه . اليأس معه أروحُ من الرجاء فى سواه ، والصبر على بلواه أفضل من التعرض لنجواه . أطلتُ وما أطلت ، وقربتُ وما أصبت . فليتنى احترقتُ بنار الوجد ، ولم أستضئ بنور العلم . أم ليتنى قطعت الوقت بحسن الفعل ، ولم أفْنِ العمر بزُخْرف القول . أم ليتنى غرِقْتُ فى بحر التسليم ، ولم أركب برَّ التنفير . أم ليتنى سلكت فجاجَ العمَى ، ولم أعلُ قُلَل البصيرة . أم ليتنى انطويت على غُصَص الفَوت ، ولم أبُح بسرائر الحال . أم ليتنى خليت الوقت يردّدنى فى أرْجوحة المحنة ، ولم أهتِكْ بنات صدرى على رؤوس الخَلْق . أم ليتنى لم أُكلَّف أسبابَ التعريض ، إذ مُنِعْتُ لذاذة الرواية والتصريح . أم ليتنى أصبت قائلاً يفهم ، إذ حُجِبْتُ عن سامعٍ يفهمُ . أم ليتنى كُفيت مؤونة الطلب ، إذ حرمت فضيلة الدَّرْك . أم ليتنى عزُلت عن باب الهذيان ، كما قد ضُربت بلوافح الحرمان . هيهات ! قول يرِقُّ ، ومعنى يلطفُ ، وكلام يدِقُّ ، وحقيقة تشْرِق . والخَلْق فى خوضهم يلعبون ، وفى طغيانهم يَعْمَهُون ، والمحترسون مما يضرهم قليلون ، وطلَّاب الشفاء مما ضرَّهم كثيرون . وإنما تفضَّلت الأشياء بهيآتها ونعوتها ، وأسمائها وصفاتها . فأما الخاصة التى فيها فواحدةٌ ، لظهورها من حال القدرة متصرفةً على أذْلالها[1] ، متشاكلة فى إقبالها وإدبارها . هذا لسان التصوف ، والتصوف معناه أكبر من اسمه ، وحقيقته أشرف من رسمه . ولذلك المنطيق المقدم عند أهله إذا أصغى إلى علمه ،

(١) ذِلّ الطريق : محجّته ، أى ماوُطِئ منه وسهل ؛ والجمع : أذْلال ، ومنه : « أمور الله جارية على أذْلالها » ، أى : على مجاريها .

واحتال فى تحصيله، رجع إلى نفسه خاسئاً وهو حسير، يرى حروفاً تشيع بحلاوتها فى نفسه، وأغراضاً [٦٩ ب] ترتفع بلطفاتها عن تصور إدراك عقله؛ وأربابُ القلوب وذوو العقول وأهل المحبة يملكهم اللائح، ويقهرهم اللامح، ويأتى عليهم الجزء الذى لا يتجزأ، ويستوفيهم الوهم الذى لا يتراءى.

هذا خبرهم على ما يقتضيه المخبر عنه. فأما قواعدى [١] التى بنيت عليها أمرى، وأركانى التى [٢] أسندت إليها شأنى، فأشياء لا يحويها شرحُ كتاب، ولا يستغرقها بيانُ خِطاب، لأنها مشتبهة المناظر، متلونة البواطن والظواهر، ولكن جملة تَنُمّ على التفصيل. إنى حشوت وقتى بالظَّلَف [٣] والتنزه اللذين يعمُران حالَ النفس بالرياضة والتهذيب، ثم رفعت التهمة من الاعتقاد والضمير التى تربّى الآفة وتذيب الخاطر وتُضِلُّ الرأى؛ ثم حلتُ ساحة الرسوم متربعاً على توفية العمل بقدر الوسع وبذل الجهد؛ ثم أشعرت قلبى خوفاً لا لُبْثَ معه على شىء، وطالبتها بالصبر على المهانة والذل، وخاطبتها بعد ذلك بأشياء: وعدتنى فى بعضها صلاحاً، وذهبت فى بعضها جِماحاً. ثم أنبْتُ [٤] مرتاعاً إلى من نَهَجَ السبيل بالآلاء والنعم، وأوضح الدليل بالأنباء والحكم، فقلت: مولاى! أنت أنت لا شىء غيرك! الإشارة إليك باللسان نقص وعجز، والتوجه نحوك بالقلب فضل وعز، والإعراض عنك خذلان وبوار، والإقبال عليك مَسارٌّ ومَبارٌّ. تباركت وتعاليت، وتعظمت وتناهيت، أسألك بغاية افتقارى إلى ما عندك أن تُحَلِّينى بغاية افتخارى معك.

---

(١) ص: قواعد الذى.

(٢) ص: الذى.

(٣) ظلف نفسه عن الشىء يظلفها (من باب ضرب): منعها من أن تفعله أو تأتيه، أو كفها عنه.

(٤) ص: انثنب.

سيدى ! قد صرّفتُ القول فى هذه المخاطبة بين أشاوَى (١) لها عمقٌ بالأعشار ، وبين عبارة لها متُغلغَلٌ فى غوامض الأسرار . وإذا قرأتها فارْعَ حق فيها ، وحَسّن ظنّك بى فى عرضها ، وتداركنى بما أحببت منها ، فإنى غنىٌّ عن كل أحدٍ إلاّ عنك . وإقرارى عليك بهذا ، يوجب عليك التفضل علىّ ، والإحسان إلىّ .

وبعدُ ، فإنى أوصيك — متبرعاً — بما أرجو أن أكون به قاضياً لحق الصفاء فى المودّة بينى وبينك ، ومستلهما به شوقك [١٧٠] على الأيام التى تجمعنى وإياك ، أو تحدث فُرْقة على العادة التى لها مع غيرى وغيرك : لا تَذَبْذَبَنّ فى عزماتك التى يلوح رشدك فيها ، فإن ذلك يثبطك ، ويعْقِل همتك ، ويَجُرُّ خيل (٢) الندم فى التأنى عليك بك . بل إذا هممت فعانق ، وإذا عانقت فالزم ، وإذا لزمت فاستسلم . فإن همك فى الأول محرِّك نحو المقصد ، ومعانقتك وجدان للمراد ، ولزومك استثبات للحال ، واستسلامك تفويض إلى من يحفظك فى المحل . ومهما عجزت عن شيء فلا تعجزن من تطهير القول وشَوْفه (٣) ، وتنقيته وغسله وتبصيصه ، فإنه آنية الحق يَضع فيه ذخائره ، ويلقى عليه أنواره ويطهره ، وهو إصلاح الفكر ونفى الهم والبراءة من المقاذر (٤) ، والتنحى عما يُوسّخ النفس ويُبْعد الأنس . فإنما كُلُّك قلب ، والباقى منك تابع له ، وبسوانحه تتصرف ، وبصوارفه تتماسك ، وبدواعيه تتهالك . فإذا كان تقياً جلياً نقياً ذكياً كانت حركاتك موزونة بالناموس الإلهى ، وسكناتك معدّلة

---

(١) ص : أشاو — وأشاوى : جمع شيء .

(٢) أو : حبل ؟

(٣) شفْته شَوْفاً : جلَوْته ؛ ودينارٌ مَشوف : مجلوٌ . والتبصيص : الترشيح .

(٤) القاذورات .

بالغيب الحكمى . وأقل مالك فى هذا المصباح إذا وقد لك أن تعدم الشك فى الأشياء لامتلائك باليقين ، وفيضك بالسكون ، ونظرك إلى ما كان ويكون ، بغير فاصلة من زمان ، ولا حَيلولة من مكان . هيهات ! بلغتُ هذا المكان بقلمى ، وقد خنقتنى العبرة تذكراً لهذه الأحوال من قوم شاهدتهم مُذ أربعين سنة ، كانت صفحات وجوههم مبشِّرة بالخير المطلوب ، ومقاديرُ حركاتهم ناطقة بالحق الذى هو آخر ما يُكدّ له ويُسعىٰ إليه ، وشواهدُ ألسنتهم ناصحة لكل سامع له من نفسه يقظة ، وعليه من عقله حَفَظَة ، وله إلى الله عز وجل التفاتة ، وقد قيل : — وآخِرُ ما يبقى من الذاهب الذِّكْرُ — . وقد قيل أيضاً :

تذكرتُ شيئاً قد مضى لسبيله ... ومِنْ حاجة المحزون أن يتذكرا

[٧٠ ب] اللهم اشغَلْنا بذكرك عن ذكر غيرك ، وإذا حركتنا لنذكرك فحركنا أيضاً لنشهد ذكرك لنا، فلولا ذكرك لنا ماذكرناك، ياذا الجلال والإكرام!

رسالة (عج)

اللهم اصنع لنا ، والطف بنا ، وافككْنا من أسْرنا ، واجبُرْنا مِنْ كَسْرنا ، وحوِّلنا من عُسْرنا إلى يسرنا . فجودك فائض ، وخزائنك ملأى ، وحكمك نافذ ، وملكك عظيم ، ورحمتك واسعة ، والطريق إليك رَحْب . يا هذا ! تضرَّع إلى ربّ له خَضعَتْ الرِّقابُ ، وعَنَتْ الوجوهُ ، وحارت العقولُ ، وجالت البصائر ، وله بان كلُّ شىء (١) ، وإليه انتهى كل شىء ، وعليه وقف الأمل ، وفى فِنائه أناخ الراجى ، — فإنك إذا تضرعت إليه سحّت سماؤه عليك ، وامتدّ ظله السَّجسج لك ، وائتمر لك كل شىء ، واستفاد منك كل شىء . إنك إن ذقت حلاوة وصاله ، وآويت إلى عريش كرمه لم تصبر ساعة واحدة عن ذلك النعيم

(١) فى الهامش : « صح : وبه وجد كل شىء » .

الخضل ، والفِناء الخضر ، واليسار الدائم ، والأمر القائم ، والبر المتصل ، والمراد الحاصل .

يا هذا ! إلى متى تنافس أهل الدنيا فى الدعوى ، لِمَ لا تنظر إلى حالك فى العُقْبى ! لم لا تسلك الطريقة المثلى ؟ لم لا تلتبس ما أريك بالحسنى ؟ ماذا يجيء من هذا التهافت وهذا [١] الذّلة وهذا الجهل ؟ كأنك ما رأيت بعينك عَبْرة ، ولا حصَلَتْ لك بِشىء خبرة ؟ أما تستحيي تستخدم عقلك ، الذى هو أشرف مِنَح الله عندك ، لشهوتك التى هى أفضح الأشياء لك ؟ وما فى قضاء وطر ساعة ، وما فى نيل لذة منقطعة ، يبقى عارها ويرتهنك وِزْرُها ؟ يا عدوّ نفسه ! يا جانياً على روحه ! يا جالباً لحتفه بيده ! يا شارباً للسّمّ بكأسه على علم منه ! ما أراداك [٢] لنفسك ! وما أطرحك لبدنك فى عذابك ! ما ألهاك عن شأنك ، وما أقسى قلبك على مهجتك ، وما أذهلك عن رشدك ! وما أركبك لمطية غَيِّك ، وما أصفق وجهك فى خلافك ! وما أصلب حدَقتك [١٧١] لإصدارك ، وما أضيق عذرك عند احتجاجك واعتذارك !

يا هذا ! الحديث أُكْنَى عن الغاية مما يقرع أذنك ، أعنى أنه شىء بدا فى الأول من سابق العلم ، وسرى فى الثانى على رادف الحال . فاتفق الأول والثانى ، لأن الأول أوجب ، والثانى وجب . فلهذا غمض البيان فى ديوان التكليف ، واختلف القول عليه من الوضيع والشريف . فقال هذا : إنما أتيت من اختيارك الردىّ . وقال ذاك : إنما أتيت من اختيار القوى العزيز . فلما لج [٣] اللحائين هذين القائلين ، جنحا إلى الصخر ، وقالا : فما نصنع ؟

(١) كذا ، ولعل صوابه : هذه .

(٢) ص : ما أراك دك .

(٣) لاحيته ملاحاة ولحاء (بكسر اللام) : نازعته .

فقال العارف : سلَّمنا ما نجهل ، وقبلنا ما نعلم ، ولا نجمع بين الإساءة والاحتجاج ، ولا نصل المخالفة باللَّجاج . الخلق له والأمر له ، والخلق عبارة عن كل ما تراه موجوداً بحس وعقل وظن ووهم وشك ويقين وعلم . وما أشبه ذلك والأمر تصريفه بالدواعى الباعثة ، والبواعث الداعية ، وبالصوارف المانعة وبالموانع الصارفة ! فهل بعد الخلق له فى الذى هو له والأمر الذى هو أيضاً له « قال لك » أو « قيل لى » ؟! بلى عجزى عنى هو الذى فدَمَ فمى ، وأخذ بكظمى ، وألجأنى إلى ندمى وسدَمى ، وشوّقنى إلى بطلانى وعدمى ، بعد إحساسى بما سبق من ثبات قدمى على ما استتبّ فى قدَمى . ولولا هذا العجز لكان لى مجال فى القول ومجاز إلى الدرك ، ولكن جلَّ من لا يطاول ، ولا يقاول ولا يُغاول[1] ، ولا يجادل ، ولا يعادل ولا يزاول . له اليد الطولى ساء أم سر ، والحجة الوضحى حلا أم أمرّ .

يا هذا ! ليس للعبد إلا ما هو به عبدٌ ، فإن جُنَّ قليلاً وظن أنه رب ، فهناك هلاكه وبُطوله وهبوطه وسفوله . عَدِّ أيضاً من هذا ، وخذ حديثى : إمّا جملة لا تشفيك شرحاً ، وإما تفصيلاً لا ينفى عنك بَرْحاً ، ولا يَدمل[2] منك قرحاً ، ولا يحمى لك سرحاً [٧١ ب] ، ولا يجلب إليك فتحاً ، ولا يخفف عليك متحاً . وذاك أنى حِمْت حول الورد فما وردت ، وتعرضتُ لنيل المكانة فما أهلت ، واستغثتُ فما أغِثْتُ ، ودعوتُ فما أُجِبْت ، وسألتُ فما أعطيتُ واعتذرتُ فما قبلتُ ، واحتججتُ فما مكنتُ ، وطلبتُ الجادةَ فما هُديتُ ، وأصِبْتُ فما عُزِّيت . فبقيتُ هكذا بالعراء مبروز الصبر ، معزوز الدَّحر[3] ،

(١) المقاولة : المبادرة .

(٢) دمل (كسمع) : برئ كاندمل ؛ ودَمَلَه يدمُله الدواء : شفاه .

(٣) الدَّحْر : الطرد والإبعاد ؛ والمعزوز : الشديد .

قد نقِب خُفّي ودَمِي إِطْلِي[1] ، وذهب أكثرى وبقى أقلى . فلو قيل لى يوماً : نعم كان منك كذا أو كذا فلهذا أنت على ذا وذا ، لكان ذلك مثالاً لعينى أتعالل به ، وتَعِلّةً لنفسى أتمثل له . لكن جرى ذلك كله بعزة سلطان ، وقدرةِ ساطٍ[2] ، وعلوّ يد ، واستبداد قديم . على أنى إذا أنصفت اعترفتُ بالنعمة فى أضعاف هذه البلية ، لأنها أخَنَتْ وأبقَتْ ، ونالت وأسأرَتْ ، وتطرفت وتعَدّتْ ، وحَزّت وجارت ، وجرحت وآست ، وقرحت ودملت ، ورعدت وبرقت . ولو أتت على الأصل والفصل ، وذهبت بالدِّق والجِلّ ، من كان يتدارك ومن كان يعترض ، ومن كان يقول : لِمَ ، ولِمَ محذوفة فى مخاطبة الملوك ، ومن كان يقول : كيف ، وكيف مرفوعة عن مواجهة الأرباب ؟ ! إنما لِمَ وكَيْفَ للعزيز إذا أدب به الذليل ، وللسيِّد إذا قوم عليه العبد ، وللرفيع على الوضيع إذا أثبت عليه الأمر . فأما من علا عن هذا كله ، فكيف يقابل بما لا يجوز معه ، ولا يؤذن له ! هيهات ! قصر الفهم ، وطال الوهم ، واضطرب الحسُّ ، وثبت[3] العقل ، وسبَحَ العلم ، واعتلى اليقين ، وتَزحزح الظن ، واقتحم الشك ، وعرض الإيجاس[4] ، واعترض الإلباس ، واشتد بين هذا وهذا الياسُ . فأما قصور الفهم فلأنه رَكَن إلى الطبيعة ، وأما طول الوهم فلأنه نَدَّ عن قرار القلب . [١٧٢] وأما اضطراب الحس فلأن منشأه من الأعراض . وأما ثبات العقل فلأنه يستملى من الحق . وأما سبْحُ العلم فلأنه محيط بكل شىء . وأما اعتلاء النفس فلأنه من العالم العلوى . وأما تزحزح الظن فلأن مصدره

(١) الإطل (بالكسر وبكسرتين) : الخاصرة ، والجمع آطال .

(٢) من سطا يسطو : اعتدى بشدّة .

(٣) أى رسخ إدراكه .

(٤) أوجس فى نفسه : أحسّ وأضمر — والمقصود : أحسّ الشك والخوف .

من اعتنان [١] القلق . وَأما اقتحام الشك ، فلأنه صنعة الإنسان . وَأما عرَض [٢] الإيجاس فلأنه من روادف الحال . وَأما اعتراض الإلباس فلأنه من تمام جميع ما سلفه . ولما كان الإنسان دَنِسَ الجيب ، مُتَّهم الغيب ، معْدِن الرَّيْب ، ومقرّ العيب ، توالت عليه ومنه وفيه هذه الأمور الشائنة ، وهذه الأحوال المتشاحنة . وإنما يُنقَّى ويُطهَّر فى الثانى بالقيام على وظائف التكليف ، وحدود الأمر والنهى ، وقبول ما يسير به مُترَقباً به . واجعلها كلها إماماً لك : تطلُب سعادتك فيها ، وتستبين مقامك منها ، وتعرف قيمتك بها ، لأنها صياقل الأنفس الصدئة ، ومجالى الأخلاق الكدرة ، وهوادى الآراء الضالة ، ومُرِيح [٣] الألباب الغادية ، وساقى النصول الكليلة ، وشافى الأرواح العليلة ، ونصائح القلوب الذاهلة .

فاطلب لنفسك التائهة منك ، أو اطلب فى نفسك المهلكة لك فى هذه الفِقَر الملفوظة من أفواه العارفين ، المقطوفة من أشجار الواجدين ، المسقاة من الماء المعين ، فى المقام الأمين . واجعل ديدنك معاتبة النفس فى الليل وخاصة فى السَّحر الأعلى ، فإن شَمْلَ الفكر لا يكون قد تصدَّع ، وبال النفس لا يكون قد تبلبل ، والأحْساس تكون خاثرة ، وفى خثورة الأحْساس زُكُوُّ [٤] الرأى ، [٧٢ ب] واشتعال الصواب ، وورود الحق ، ونفور الباطل ، وتبيان المشكل ، ووضوح الغامض ، واستبانة للصحيح ، وبرؤ السقيم ؛ وإذا غلبت عليك

---

(١) اعتنّ : اعترض .

(٢) ظهور . وأوجس : أضمر ، ومصدره الإيجاس . يقصد : أما ظهور المضمر فهو من لوازم الحال وتوابعها .

(٣) ليست واضحة تماماً .

(٤) ص : زكوا . وزكا يزكو زكاءً وزُكُوّا : نما .

هذه الحالُ بهذه الصفة رأيت أيضاً فى منامك ما يزيدك بصيرةً فى يقظتك ، كما كانت يقظتك على هذا النعت سبباً قوياً فى صدق رؤياك .

إنّ(١) الحق يُناغى العارف فى رؤياه ، للصفاء الذى يكون عليه فى تلك الحال ، فيتزود منها ما تصير به اليقظة مضاعفة . فهناك يرى العارفُ الغيبَ شهادةً ، والمستور مكشوفا ، والمظنون مستيقنا . هذه حال مذكورة بين أرباب القلوب وأصحاب الخرق السائحين فى هذه العرصات تزجية للوقت ، وتقطيعاً للزمان ، وتعليلاً للنفس ، واعتداء بالاعتبار ، وانتجاء(٢) بالسرار ، وانتحاء بالجهار ، وقلقاً إلى الصدار إلى دار القرار . فلا تنكر نعتى لها ، وبعثى عليها ، فقد لاحت لى منها أشياء طريفة ، وأمور بديعة ، لولا أنّ هذه الورقات أرفع قدرها عن رسمها فيها ، لَوَسَمْتُها معجباً منها كما عهدتها عاجباً بها ؛ وغيب الله عز وجل ليس بمحدود ، وباديه غير مردود ، ومتواريه غير معدود : وأوّل هذه القصة فى تهذيب الأخلاق ، ووسطها فى أخذ العبر من جميع الآفاق ، وآخرها الوصول إلى الله العزيز الخلاق . والإنسان نصفان : نصفه خَلْق ونصفه خُلْق ، فإذا صلح نصفاه <فقد>(٣) كمل ما هو به إنسان . فأما نصفه الأول الذى هو به خلق فهو أيضاً على نصفين ، أعنى أنه بالصبغة الأولى على وتيرة لا يزالُ له عنها ، وبالكلفة الأخرى فله رفع ووضع . وكذلك هو بالنصف الثانى ، الذى هو به ذو خلق ، فعلى نصفين : فالنصف الأول هو التشبُّه بالصبغة الأولى حين كان بها خلقاً ، [١٧٣] وبالنصف الثانى هو الذى به يصير أحسن الناس خلقاً ، وأقبح الناس خلقاً . وهذا كلام ، وإن لم يكن فى حومة التوحيد ، فإنه لا يُستغنى عنه عند قصد تلك الغاية ، لأن العارف بالله الواجد لله والقاصد إلى الله والمتهالك فى الله

(١) ليست واضحة تماماً .

(٢) انتجاه : خَصّه بمناجاته .

(٣) بالهامش : « صح : فقد » أى : فقد كمل ماهو ...

والمنتسب إلى الله والذاكر إلى الله والواصل إلى الله والمتصل بالله لا يخلونَّ من معالى الأخلاق وعوالى الهمم وشرائف العادات وغرائب الأفعال وبدائع الأحوال . وهذا ، قال قائل منهم ، — وقد أكثروا عنده ذكر الدنيا — : أما أنا فإن تُقبِل الدنيا علىَّ لا آخذها أخذ الأشِرِ البَطِرِ ؛ وإن تُدبر عنى ، لا أبكى عليها بكاء الخرِف المُهْتَر [١] . وقلت لأبى حنيفة الصوفى ببغداد : كيف أنت ؟ قال :

كُلّما قلتُ : غداً موعدُنا ؟ ضحكت هِنْدٌ ، وقالت : بعد غد [٢] !

يا هذا ! إنما احتجتَ إلى تهذيب الأخلاق لأنك معجونٌ من عقاقير كثيرة ، ومركبٌ من أضداد متعادية ، وأشكال متوافية . وكانت قبلُ كأنها أنت ، وكنت بها لأنها فيك ، فلهذا احتجت إلى ضم نشرها وَلَمِّ شعثها وتألُّف شاردها ، وإصلاح فاسِدها ، وتقويم أعوجها ، وإرشاد أهوجها . فإذا صلحت أخلاقك ، حسنت آدابك . وإذا حسنت آدابك ، شرُفت همك . وإذا شرفت همك ، طابت مآربك . فعندها تصلح لخدمة الملوك ولحضور خلواتهم ، وسماع نغماتهم ، وحفظ كتاباتهم ؛ وعندها ينزل عليك الوحى الخاص فيما تصير سعيداً به . ولا تُبالِ [٣] ، عند حصول هذا الشعار ، أن تجوع وتَعْرَى ،

---

(١) المهتر بفتح التاء : من ذهب عقله من كبر أو مرض أو حُزْن .

(٢) البيت لعمر بن أبى ربيعة فى قصيدته التى مطلعها :

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفَتْ أنفسنا مما تجد

والرواية المشهورة لهذا البيت هى :

كلما قلتُ : متى ميعادنا ضحكت هندٌ ، وقالت : بعد غد !

راجع ديوانه ص ١١٦ البيت رقم ٢ نشرة بول اشفرتس Schwarz ، ليبتسج سنة ١٩٠١ م / ١٣١٨ ﻫ

(٣) ص : تبل .

وتظمأ وتضحى ، وتطرد وتخفى ، وتهان وتنفى ، وتعاب وتُقْفَى (١) ، فإن ذلك كله صنع من الله لك ، لأن فيه تجلية لرشدك وإلقاء لحبلك على غاربك ، وتركاً لك ولحالك ، وإسقاطاً للعوارض عنك ، وتوفيراً على المهمات [٧٣ ب] لك . فإن الخلق شغل فى شغل على شغل ، وما شُغِل أحد بالخلق فوصل إلى الحق ، لأنهم لا يَدعون أديماً إلا فَرَوْه (٢) ، ولا صحيحاً إلا عَرُّوه (٣) ، ولا نابهاً إلا شرُّوه (٤) ، ولا هارباً إلا قرُّوه (٥) ، ولا خليطاً إلا مَرُّوه (٦) ، ولا جَدداً إلا كَرَوْه (٧) . والبلوى عظيمة . وحسبك أنهم يشغلون صاحب الدنيا عن الدنيا ، فكيف يتركون صاحب الدين مع الدين ! هذا ما لم تجرِ به منهم عادة ، ولا لاهم فيه حفاوة . فلهذا واترتُ فى هذا الجزء الكلامَ فى الأخلاق وتهذيبها ، فإنك بذلك تصفو بعد التهذب . ثم ليس بعد الصفو إلا ما إذا بدا من الحق بادية وانك (٨) ، وجمّلك وأطلعك على الغيب وأشهدك ، وأصدرك وأوردك ، وصرت

---

(١) قفاه يقفوه قَفْواً وقُفُوّاً : قذفه بالفجور صريحاً ورماه بأمرٍ قبيح . والاسم القِفْوة والقُفَى .

(٢) فراه يفريه : شقّه .

(٣) عَرّه : أصابه بمكروه وساءه .

(٤) شَرّه شُرّاً (بالضم) : عابه .

(٥) أى جعلوه يقرّ : يسكن ويقف .

(٦) جعلوه مُرّاً .

(٧) الجَدد : الأرض الغليظة ، وما استرق من الرمل ووجه الأرض . وكرا الأرض يكروها : حفرها .

(٨) الوانك : الواكن : وَنَك فى قومه : تمكّن فيهم . ووكن الطائر بيضه وعليه ، يكِنُه : حضنه .

من الذين أنعم الله عليهم على طريق الإخلاص من ناحية الاختصاص — فهنيئاً لك إن وجدت هذه الحال بجهدك إن وفقت له بتوفيقه، وأن تجتهد فيه. والله محقق كلِّ أمل، ومزكّي كلِّ عمل، بمنّه وجُودِه.

رسالة (كد)

اللهمّ ارفقْ بنا رفقاً يحفظنا لنا، واطّلِعْ علينا اطّلاعاً يأخذنا عنا. واهدنا إلينا، وأرحنا منا، وخبِّرنا عن دائنا، وجُدْ علينا بدوائنا. وامحُ عنا آثار الخلق الفانى، وأودعنا أسرار الحق الباقى، وسلّمنا من كل عائقة عنك، وقِنا كلّ بائقة [1] منك، ولاطف ضمائرنا بروْح لُطْفك، ودبّر ما بدا لنا بتوالى عطفك، واحْمِ حريمنا من هبوب نسيم غيرك، واملأ أسرارنا بغرائب برِّك وخيرك. إنك خير المنتجعين، وأجود الأجْوَدِين، وأكرم الأكرمين.

يا هذا! إذا تمنت نفسُك بقاء الأبد، فلا تسكُنْ إلى أحد، ولا تنخدع بسبَد ولا لبَد [2]. إذا هفا بك الشوق إلى غاية مجهولة، فارْقَ فى معارج الوجد إلى نهاية مُسلّمة. إذا سوّلَت لك نفسُك نسبة إلى [١٧٤] فعل بشاهد الكسب [3]، فانسبْه بالتفويض إلى جارى القدَر. إذا استعرْتَ عبارة الغائب فى الشاهد

---

(١) البائقة: الداهية.

(٢) السبد (بالتحريك): القليل. واللُبَد: الكثير. ويقال: ماله سَبَد ولا لَبَد (محركتان) أى: لا قليل ولا كثير.

(٣) «الكسب: هو الفعل المفضى إلى اجتلاب نفع أو دفع ضر. ولا يوصف فعل الله بأنه كسب، لكونه منزهاً عن جلب نفع أو دفع ضر» («التعريفات» للشريف الجرجانى). والكلمات الواردة هنا: الكسب، التفويض، العادة، الخ، كلها اصطلاحات كلامية.

بالعادة ، فلا تطردها[1] على وجهها فى الغائب . إذا استغرقتك رؤيةُ الاختيار ، فالتفت إلى وارد أحكام الاضطرار . وإذا حشيت بغالب الاضطرار ، فلا تنكر مجلوب ما ساقه إليك الاختيار . وإذا عرفت منادى الكل ، فلا تميز الاختيار من الاضطرار . وإذا بدت لك العين بالوحدة ، فلا تنسب مقداراً إلى مقدار على طريق الاستكثار . وإذا طاب لك المقام فى وطن ، فاعلم أنك بَعُدتَ عن آثار المعدن . وإذا ملكك النزاع إلى مكان من غير سكنى ذلك المكان ، فاعلم أنك قد رشحت لشأن من الشأن . ياهذا ! إذا أمكنتك المشافهة فلا تقبل منه المتوسط ، وإذا توسط لك بنفسه فقد أغناك عن سواه . إذا سارّك بغيبه ، فقد صانك عن علانية غيره . إذا قربك المشوق ، فاحتجب عن تقريب المعشق . إذا غشيك المذكور ببادى ذكره إياك ، فَزُلْ عن ذكرك إذكار المُذكِّر لك . إذا استكتمك المَلِكُ سِرَّ المملكة ، فلا تشافه فى طيه من يعرضك للهلكة . إذا فاجأك الحبيب بمحاسنه ، فالْهُ عن الرقيب مستمتعاً باللحظ . وإذا ناجاك الحق بما يَدِقُّ عن الفهم ، فلا تحاكمه إلى نقص العقل . إذا عدا عليك الحس بالاستحالة ، فاعدُ عليه بسلطان الحق . إذا فتنك العقل بدقائق البحث ، فاستقبله بحقائق التسليم . إذا أعجبتك النفس فى الطاعة ، فعرفها استحقاق المطاع . إذا خدعك الشكر برؤية النعم عن طلب المزيد ، فانتفِ بذلك عن رؤية المنعِم . إذا حدّثتك نفسُك بالوصول ، فكن على حذَرٍ من مكر المُوصِّل . إذا سما بك الرجاء إلى الطمأنينة ، فاهبط إلى ساحة [٧٤ ب] الخوف بالقلق . إذا رصدك الهوى بتسويله ، فاجبهْ سائله بالرد ، وعامل غريمه بالتسويف . إذا لاح لك شاهد الحق منك ، فواصله بشاهده فيك . إذا استعجمت عليك مراسِم الظاهر ، فأيدها

---

(١) أى لا تجعلها مطّردة .

بحجج الباطن . إذا ساعدك الوقت بخوادع اللذات ، فخفّفْ توابع التبعات . وإذا سرفك [1] منظرٌ من مناظر الكون ، فتكبّر عليه بزينة الصون . إذا زخرفتْ لك العينُ شاهدَ الوجدان ، فاستند أنت إلى رُكن العرفان . إذا نغّمَ لك بألحان التوحيد ، فاطرب عليه بأصناف التمجيد . إذا عكسك حاضر الأمانى فى مدارج التوانى ، فاطّرِدْ أنت بثابت المعانى . إذا ادّعى عليك المحال بشواهد التمويه ، فابرُزْ أنت بحقائق التعريف والتنزيه . إذا أضلُّوك بأوائل الأحساس ، فاهتد أنت بثوانى العقول . إذا كدُّوك بمطالب التعريض ، فاسترح أنت بحقائق التفويض . إذا أراحوك من لوازم الظاهر ، فاكْدُدْ نفسك أنت ببوادى الباطن . إذا حرموك على وجه الاختيار ، فتلقَّ ذلك بشدائد الاضطرار .

لعمرى لقد وصفت شأنا يعز عن الوصف ، ويعزبُ على الواصف تملياً عن دَنَس اللسان بحدود اللفظ . ولكن ما يصنع من إن بذَلَ رُدَّ عليه ، وإن بَخِلَ طُلب منه ، وإن تقرّب نسب إلى الملق ، وإن أمسك أُحصِى فى زمرة الأباعد . رَقْدته [2] غِرار ، ودموعه غِزار ، وقوله وبال ، وسكوته إثقال ، ووحدته وحشة ، وفكرته دهشة ، وصحوه سكر ، ونصحه مكْر ، ولسانه ذِكر ، وربحه وكْس [3] ، وزيادته نقص ، وطيّه عَرْض ، وإبرامه نقض .

يا هذا ! تجمّع عن تفرقك ، وتفرق فى تجمعك ! أتدرى ما تفسير هذا اللغز ؟ أى : احضر عن غيبتك ، وتغيب عن حضورك . هذا أيضاً

---

(١) سرفه : جعله يخطىء ويجهل .

(٢) أى : نومه يكون غراراً ؛ والغرار : القليل من النوم .

(٣) الوكس (كالوعد) : النقصان والتنقيص (لازم ومتعد) ؛ ووُكس الرجل فى تجارته وأُوكس (مجهولين) كوكس (كوعد) وأوكس ماله : ذهب .

لغز آخر أنا أكشفه لك بما هو أبين ، فتحلَّ منه بما هو أزين . معنى ذلك : انفِ عن سِرّك الهمومَ كُلَّها حتى تنقى من كل [١٧٥] دَنَس يكون في الإنْس . ثم اخطب مجلسك من حضرة الحق بقبول ما يجود به لك . ثم أفرِغ كلك فى شكرك هذه المنائح التى كلما جلوتها كانت أحسن وأبهى ، وكلما عرضتها كانت أحلى وأشهى .

يا هذا ! أما ترى فنون الإشارة إلى غايات الحقيقة ، بصنوف العبارة عن الأركان الوثيقة ، دالةً على الآيات الأنيقة ، جامعة للآثار الرشيقة ؟ فجُلْ فى أطرافها طالباً نفسك فيها ، وغُصْ فى أعماقها مُحصِّلاً لحقيقتك منها . واجعل تباشير بوادى هذه الأحوال مادّةً لصبرك إن كنت مبْتلى ، أو عُدّة لشكرك إن كنت مُختلَى ، وترنح فى هذا الفضاء — <الذى> قد انخرق لك من هذه الورقات التى هى ألف ورقةُ ، متنزّهاً ، واقطُفْ من ثمارها ما تدلّى لك ودنا منك ، وتَرشّفْ مِنْ عينها ما ساغ لك وعَذُب فى لهاتك . فإياك والشك فإنه للقلب مرض ، وللدين عرَض ، وللخلق حرَض[١] . وإياك وأن تريد إلا وأنت مُريد . فأما إذا كنت مُراداً ، فتجنب كل إرادة لك ، فإنها إبادة فيك منك . واجتهد أن تكون سابقاً متمهلاً ، وإياك أن تكون مسبوقاً متعجلا ، فإن ذلك عُنوان الفوت وآية الحسرة وعلامة الأسف . وامْحُ عن سِرّك الفكرَ فى كل ما كان أمس ، فَصَوْله يمحو لك ما يكون لك غداً . فإن ذلك أحضر لبالك فى يومك ، وأدعىٰ إلى إحراز نصيبك من قُوتك . فالوقت حادّ ، فكن من حِدّته على حَذَر . والحذر هنا أن يكون همك بالعلويات الأبديات الدائمات الباقيات الصالحات الناعمات ، فإن اعتلاق الهم بها [٧٥ ب] استغراقٌ لمحاسنها . وفى هذا الاستغراق

(١) الحَرَض (محركة) : الفساد فى البدن وفى المذهب وفى العقل .

تشبُّهٌ كثيرٌ بمعانيها . وفى هذا التشبُّه بروز لحقائقها . وفى هذا البروز لحقائقها الفوز بنعوتها . ومن نعوتها خلودها . فأى الإشارة أخلصُ من هــذه ؟ وأى عبارة أخلص من هذه ؟ قد صنع لك فيما نعم به عندك ، ولطف فيما عرض عليك ، فكن لآلائه من الشاكرين ، ولنِعَمه من المستحقين ، ولفضله من الذاكرين . وزِنْ رجاءك بالخوف وزْناً عَدْلاً . ثم رَجِّح الرجاء فإنه أدلُّ على كَرَم المرجوّ . وقابل التوكل بالتعرض مقابلةً صحيحة . ثم اجعل الرُّجحان فى جانب التوكل ، فإنه أشبه بحال العبد . وابحث عن مبدأ الوُجد ، فإن كان من آثار الكون البائد البائر الزائل الحائل فلا تَعُجْ عليه ؛ وإن كان من آثار الغد الدائم الخالد فارْتَدِ به واتّزر ، والتحف به واعتطف عليه ، وثق بأنك إذا أُهِّلت للتبختر فى هذه الساحة ، فقد نلت كل لذة وأصبت كل راحة ! وما أقرب هذا البعيد ! وما أسهل هذا العسير ! وما أشد استجابة هذا الآبى ! وما أسرع إيحاش هذا النائى ! إنما هو رقدة كالحُلْم ، وحُلْم كاللمح . ثم الاطلاع على نعيم كُنّا نتهالك هاهنا بشبائهه ، لا بحقائقه ، ونحن على أسمائه لا على معانيه ، ونظن أنا قد وجدنا عزيزاً وملكنا نفيساً . وأىُّ عزٍ لما يبتذله الليل والنهار ! وأىُّ عز لما يتخوّنه [1] القياس والمقدار ! وأىُّ شرفٍ لما لا يثبت فى لحظة على حال ! له فى كل آنٍ اسمٌ ، وفى كل أوان رَسْم : أعنى أنه يقال له : غريض [2] وذابل ، وجديد وخَلَقٌ ، وشاب وهَرِم ، ومقْبِلٌ ومُوَلٍّ . فإن الأمثال بمثله مضروبة ، والأدلّة على نظائره منصوبة ، ولكن القلوب

---

(١) تخوّنه : تعهده ، ونقصه ، ونسبه إلى الخيانة — والمقصود هنا : أى ما ينطبق عليه المقياس والمقدار ، أى : ما هو محدود .

(٢) غريض : نضر .

عن التحقيق بمعرفتها [١٧٦] محجوبة ، والنفوس مع طلب ذلك منها وفيها مكروبة .

يا هذا ! عَضَّ على ناجذك عند مرارة الكدر العارض ، فإنه كَلْفَتَة لافت أو عَطْفَة عاطف . فإن ذلك يُهَوِّن عليك الصبر ، ويُفْسح منك الصدر ، ويزيدك ثقة بالعِوَض ، وزهادة فى هذا الغَرَض . يا هذا ! إن كنت تحب نفسك فلا تحفِر لها مُغَوَّاتها [(١)] بيدها ، ولا تكسبها عارها بجهدك . واستيقن أن محبة النفس فى معرفة النفس ، وأن <فى> معرفة النفس استكشافاً لمحلة القُدس ، أعنى أنك إذا ألهجت بذلك عرفت الله الذى به قِوام النفس ، وإليه مصير الجن والإنس . وفى هذه المسألة دقائقُ من البحث وغوامضُ من النظر وغرائِبُ من الجواب . ولكن لا قوة لى على نشرها ، ولا ثبات لك على استماعها . فقد اتفقنا على الفُسولة [(٢)] بسوء الاختيار ، أوجرينا على المكر بحكم الاقتسار . فقل لى الآن : ما الحيلة لى حتى أبدى ماعندى ، وما الحيلة لك حتى تحصل عنى مسامعى بجهدك وجهدى ؟ والله لولم تظفر من هذه الأجزاء إلا بجزء واحد ، بل بورقة واحدة ، بل بسطر واحد ، لكان الغنم معك والربحُ فى يدك ، وكُنْتَ فى مناط الثريا اتصالا بالسعادة ، وعند العَيُّوق [(٣)] اطلاعاً على الحقيقة . فكيف وقد استكثرت منها وظفرتَ بها كلها ، وهو ما ارتفع إلى هذا الوقت قدر ألف ورقة . فجدد لنفسك نشاطاً لقراءتها ، والتبحر لمعانيها ، والاغتراب فيها ، والتصرف فى أوائلها وثوانيها ، والإلمام بأطرافها وحواشيها . فإنك بتجديد هذا النشاط تمشى على ذلك البساط ، وتؤهل لعجائب الانبساط ،

(١) المُغَوَّاة (مشددةً) المُضِلَّة : كالمَغواة كَمهواة ، والجمع مُغَوَّيات .

(٢) الفسولة : الرذالة والحقارة . والفعل : فَسُل ، ككرم وعلم وعُنِى .

(٣) العَيُّوق : نجمٌ أحمر مضىءٌ فى طرَف المجرة الأيمن يتلو الثريا ، لا يتقدمها .

حتى يقال لك كن خليفتنا [٧٦ ب] فى مملكتنا ، ومُصرِّفَ الكون بأمرنا وإذننا . ياهذا ! إذا اعتراك الرَّيْبُ فى هذا المسموع ، فاحتط لنفسك بالرجوع إلى قلبٍ سليمٍ من الهوى ، مفعَمٍ بالنُّهى . ثم استثِره فإنه يهديك إلى صراط مستقيم ، بلا تعلّمٍ ولا تعليم ، ولا تكلم ولا تكليم . وإن كنت قد كفيت الريب ، — وإنما تزيحك لعائقات عادتك ، وباقيات قربائك الذين سحبوك على الضَّرَّاء بالغرور ، وقرَّبوك بالأمانى على الدهور ، — فإن ذلك يَمّحِى عنك بعزمة أواه أوهمة مُنيب ووَنية (١) صارم وكد يسير . فتهيأ ذلك ، فإن المراد مَطْلب والمراد مَكْسَبْ (٢) . ودع قوْلَك ورأى أم وأخت ، وأب وابن ، وخال وخالة ، وعم وعمة ، فإن هذا من غبن الشياطين (٣) ووسواسه ، ومن دقيق حيله وإغوائه (٤) وإلباسه ه .

وقد قال عيسى بنُ مريم ، عليه السلام ، وهو رُوح الله ، للحواريين : « إنكم لن تُدْرِكوا مَلَكوت السموات إلا بعد أن تتركوا نساءكم أيامى (٥) وأولادكم يتامى » (٦) . وهذا رمز وراءه رمز ، وإشارة فوقها إشارة ، وعبارة حولها عبارة . ولكن التقىّ مُلْجَم ، ولا بد من بعض السكوت ؛ كما أنه لا بد من بعض القول ، ومن قال كل ما عنده فقد باء بغضب من الله ؛ ومن سكت عن كل ما عنده فقد تعرض لطَرْد الله . إن لكل شىء حداً ، ولكل أمر

---

(١) الوَنيَّة : الفترة والتعب (ضد) ؛ والفعل : ونى ينى وَنْيا ووُنيّا ووناء ووَنْية ونِية ووَنًى .

(٢) كثب عليه : حمل وكرّ .

(٣) كذا ، ولعلها : الشيطان .

(٤) فى الكلمة تشابك واضطراب فى الأصل ، كذا : والوعوابه .

(٥) الأيِّم والجمع أيامى : من لا زوج لها ، بكراً أو ثيباً .

(٦) إنجيل « لوقا » ، أصحاح ١٤ : ٢٦ ؛ أصحاح ١٨ : ٢٩ ، ٣٠

قدراً ، أعنى : لـكل قول آخر ينتهى إليه ، ولا يجوز أن يزاد عليه ؛ ولـكل سكوت حدٌّ يُبْلَغ إليه ، ويوقف عنده . أما سمعت بعض العارفين يقول : قَبِلَ مَنْ قَبِلَ بغير علةٍ فأدناه ، وردَّ مَنْ رَدَّ بغير علةٍ فأقصاه . فلا التامُّ عنده بمقبول ، ولا الناقص عنه [١٧٧] بمردود ، ولـكن له الخلق وإليه الأمر[١] . هذا باب — عافاك الله — كلما قُرِع زاد رتاجاً ، ومَشْرَب كلما خاض صار أُجاجا . والاحتياط فيه ترك الأمر على صُنْعه . فإن بقى على فنونه ، فذاك ؛ وإن نضا عنها[٢] فذاك . اللهم إنا إليك نفزع [إليك] ضارعين ، ولك نضرع محتاجين ، وإياك نخاطب منبسطين ، وعنك نُمْسك هائبين ، وعلى بابكُ ننيخ[٣] طالبين ، وبنارك نصطلى مقرونين[٤] ، وشريعتك نَرِدُ لاهثين ، وبك نعتصم متحبرين[٥] ، وإليك ننتسب مفتخرين . وهذه حرمات أنت أوْلى من رَعاها ، وأحُق من حفظها لنا وأَنْماها ، ياذا الجلال والإكرام !

شعر: كلما انقضى سَبَبُ عاد لى به سَبَبُ
تضحكين لاهيةً والمحبُّ ينتحبُ
تعجبين من سقَمِى صِحّتى هى العجَبُ[٦]

---

(١) فى سورة «الأعراف» آية ٥٤ : «ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين» .

(٢) نضا عنه : تجرد .

(٣) ص : ننح . فيجوز أن تكون : ننيخ أو ننبح .

(٤) كذا ولعل أصلها : مقرورين ، أى مصابين بالقر وهو البرد .

(٥) كذا ، ولعل أصلها : متحيرين .

(٦) هذه من أبيات لأبى نواس (راجع ديوانه ص ٣٦٦ طبع مصر سنة ١٨٩٨) فى قصيدته الرقيقة التى قالها فى أوائل صباه ، ومطلعها :

حامِلُ الهوى تعِبُ يستخفُّه الطَّـرَب

رسالة (كه)

اللهم إن معرفتنا بك بُعدنا [١] عنك ، ومخالفتنا لك تؤنسنا منك ؛ وإناختنا بِفنائك يطعمنا [٢] فى رَوْح رضوانك ؛ وإصرارنا على الشرود عنك يحول بين رجائنا وتفضلك . فارجم [٣] تذبذبنا بين اليأس والقنوط ، واكفِنا خطر الترجح بين الصعود والهبوط .

أيها الهائم الملتاح ! كم تتلذذ ، وربُّك بين يديك ؟ أيها العامل المكدود ، كم تغتر وقد أحبَط رؤياك عملك عليك ؟ أيها القارُّ المطمئن كم تنعم ، والمزعج قد أطلَّ على رَبْعك ؟ أيها الواعظ المُدِلُّ ، كم تهدى وأنت فى وادٍ من حقيقة وعظك ؟ أيها الساكت بالغى ، كم تظن أنك سالم من العتب ؟ أيها الناطق باللسان ، أين شعارك [٧٧ ب] الذى يشهد لك بالصدق ؟ أيها المفكر فى الملكوت ، أين مرماك منك فيما للحق عليك ؟ أيها الجائب للبلاد بزاد وبغير زاد ، أين غنيمتك من السفر ؟ أما والله لو صحبك فى قولك لزايلك الرياء فى فعلك ، ولو ذُقْتَ حلاوة من تناجيه بسرك لُوشِّحت بالثقة فى عبارتك . لأنما [٤] تَمَلُّ العبادة لأنك محجوب عن الزيادة . ليست معاملتك مع من لايطلع على غيبك ،

---

(١) كذا ، ولعل أصلها : « تبعدنا » فى مقابل قوله : تؤنسنا . والمعنى هو أننا كلما ازددنا بك معرفة شعرنا ببعدنا عنك ، أى ببعد الفارق بين المخلوق والخالق ، أو ببعد ما نفعله مما يجب علينا فعله بإزائك .

(٢) ص : يطعمنا . وهو تحريف ظاهر .

(٣) كذا فى الأصل بالجيم ، والرجم هو القتل والقذف واللعنُ والشتم والطرد . أو لعل أصلها : فارحم (بالحاء) ، وهو الأرجح هنا .

(٤) كذا ولعلها : إنما .

ولا يتصفح منافذ سرك ، ولا يعلم ما أنت عليه وما أنت إليه وما أنت فيه وما أنت به هيهات ! أنت آنيته ، وفيك وديعته ، وعندك آيته ، وعليك طليعته . أنت رقيبه على نفسه[١] وأنت لا تشعر ، والشاهد عليك وأنت لا تذكر . فانظر كيف أخفاك فيك ثم أظهرك لك ، وطواك عنك ثم نشرك عليك — حتى ترُمّ[٢] جوارحك إذا أردت ، وتَضُمّ سوانحك إذا قصدت نجواه لتعلم أنك مرشح لأمرك . إن صبرت على زلازله فى أوائله صِرْت من الأبرار الذين « لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاهُمْ يَحْزَنُونَ »[٣] . وإن جزعت فلن تفوت إلا نفسك ، وما يهلك على الله إلا هالك . تصبح طافيا وتمسى راسيا ، وتتقدم نشيطاً وتتأخر ناصباً ، وتظن أنك على الربح : ألا فى الخسران أنت راجع ، وإلى غير ما شوقت إليه نازع ؛ فإن < كان > الخبر منك مبهما ، فادلل بلسانك على عيبك ، وأَذْلِ بحجتك على نفسك ، فكفى بك حسيباً عليك .

ياهذا ! أتدعى أنك مُحِبٌّ لمولاك ، وأنت متلطخ ببلواك ؟ أتزعم أن بينك وبين الحق وُصلة ، وأنت عاكف على بساط الخلاف والمعصية ؟ بادر ، ياهذا ، وكذِّب نفسك من نفسك ، من قبل أن يُكَذِّبك من لا قِبَلَ لك بتكذيبه ، فإن مناظرتك به فى ضميرك أخف عليك [١٧٨] من مناظرة من « يَعْلَمُ خائِنَةَ الأَعْيُنِ وما تُخْفِى الصُّدُورُ »[٤] . يا هذا ! لا تعرَ من لَبوس الإيمان قد زيِّنت به ، ولا تعوِّر عين اليقين وقد شربت منه ، ولا تشرُد على متالفك وقد رُبِّيت فى بِرّه ، ولا تغترّ فى طلب نجاتك وقد مُكّنت منه . وكيف لم يكن

---

(١) كذا ولعل صوابه : نفسك .

(٢) رم الشىء : يرِمه ويرُمُّه : أصلحه .

(٣) سورة « يونس » : آية ٦٣

(٤) سورة « المؤمن » : آية ٢٠

من هذا ومن غيره وقد دُعيت ونوديت ، وكوشفت وبودئت ، وحُفظت ورعيت ، وسوررت ونوجيت ، ووصلت ونوغيت ؟ فأما الدعاء فبالرسول ، وأما النداء فبالكتاب ، وأما المكاشفة فبالعبر ، وأما المباداة فبالألطاف ، وأما الحفظ فبالرقباء ، وأما الرعاية فبالمدافعة ، وأما السرار فبالإخلاص ، وأما المناجاة فبالتكرمة [1] ، وأما المواصلة فبالتشريف ، وأما المناغاة فبالتعريف. فحصِّل الآن — عافاك الله — قيمةَ هذه الحال التى ردّدك فيها ، وطهّرك بها ، وأظهرك عليها ، وخصّك بالمقام المعلوم منها [2] ، والحظ فى أضعاف هذه الأحوال مقرك ، فقد رفع ذكرك ، وقوّم أمرك ، وأسبَل سِتْرك ، وأوضح عذرك . فإنك إن حصّلت هذه الأوائل حصّلْتَ على ما وراءها بين الشواهد والدلائل ، وتخلَّصت من جميع الأهوال والبلابل ، وقَرَرْتَ فى مغانى أهل الفضائل ، وسمعت ترنماً ينبئك [3] كل ما تقدم ، وطربت طرباً يذهلك عن كل ما تعلم ، ثم سقيته [4] بكأس لا تظمأ بعدها أبداً ، وأويت إلى بقعة لا تزعج أبداً عنها ، واختلطت بأرواح لا كثافة لها ، ونطقت بلغة لا عهد لك بها ، وحَلُمْت بكرامة لا هبوب منها ، وحُلّيت بحيلة [5] لا تكشف بعدها . فما ذاك يمنعك عن الشوق بعد هذا الوصف الذى تسمع ؟ وماذا يصدُّك عن الوجد بعد هذا النعت الذى ترى ؟ وماذا حجبك فى [٧٨ ب] إعراضك عمن هذا عطاؤه لك ، وهذا نبأه عنك ، وهذا تلطفه بك ، وهذا عرضه عليك ؟

---

(١) عند هذا الموضع بالهامش : معروف .

(٢) كذا ، ولعل صوابه : وإن حط .

(٣) كذا ، ولعلها : ينسيك .

(٤) كذا ، ولعلها : سقيت .

(٥) كذا ، ولعلها : بحلية .

يا هذا ! دَعْ ما كان خبرا عنك ، ومدارة لك . وخُذْ متَفَهِّماً ما أنا ممنُوٌّ به ، ومدفوع إليه . فإن دَقَّ عليك فيه لَفْظٌ ، أو نَبَا عنه تحصيل ، فسامح ، فالقليل أحَرُّ من ذلك ، والضر أظهر مما هناك . نعم ! حبيبى دعانى فلما أجبت طردنى ، وقَرَّبنى فلما دعوت أبعدنى ، ومنّانى فلما توقعت حرمنى ، وحكمنى فلما اقترحت خيبنى ، واستنطقنى فلما نبست أخرسنى ، ودلنى فلما استدللت توّهنى ، وقال : كن لى تكنى ، وجُدنى تجدنى ؛ وأرانى فلما تأملت أعمانى ، وأمرضنى فلما استشفيته أضنانى . فلما دفعت إلى هذه المحارج (١) ، وضللت عن طرق المخارج ، قلت محدثاً لنفسى : أترى هذه لِمَهُ وفيمَهْ وعَلامَهُ ؟ فأُجِّج على منى ناراً لا يُطفأ لهبها ولا يخمد جمرها ولا ينقطع شررها ، وقيل لى : اقتحم باختيارك مُتْلَدَةَ أيها (٢) ، وإلا أصليناك مُكْرَهاً عليها . قلت : نعم ! أقتحم طاعة وائتماراً ، ولكن طيّبوا قلبى بسر أمرى ، وعرفونى ما بى من حُلْوى ومرى . فقيل لى : لو أهّلناك لهذا لما أحرقناك بهذا . مَنْ أذِن لك فى البحث عما طويناه ؟ من أباحك المسئلة عما رويناه ؟ من جرّأك على قرْع باب مُذْ أغلقناه ما فتحناه ؟ مَنْ أطمعك فى مرعى مُذْ حميناه ما أبحناه ؟ ومَنْ هوَّن عليك رَفْع سِترٍ مذ أسبلناه ما رفعناه ؟ أتظن أنك شريكنا فى الملك ، أو رقيب علينا فى التدبير ، أو قادح فى إرادتنا بالاعتراض ؟ خلقناك عبداً فتبرّيت (٣) لتكون رباً ، ولو لا أنا نعلم من أين أتيت فيما كان منك لأبدْناك ، وجعلناك رميا فى مغناك . لكنا نعود عليك بالمِنّة عليك ، كما بدأنا ما طيّه لديك . فاحترس

---

(١) جمع محرج ، يقصد الأمور المحرجة .

(٢) كذا ! ويمكن أن يفسر بمعنى : متلد : ما هو قديم ، وما نتج عندك من المال ؛ يقصد : اقتحم أى شىء يكون لك ومن نتاجك .

(٣) كذا ! ولعل صحته : فانبريت .

الآن منا لحرسك بأنفسنا ، وثق بأنك نجوت من مقام دَحْضٍ لولا عَطفُنا وتوفيقنا لك لـكنت من [١٧٩] الهالـكين . فانظر : هل لك منا محيص إذا أردناك بما لا يوافقك ، وهل لك منا مانع إذا خصصناك بحلية الربوبية ؟ فيا ساهياً عن نفسه ، ويا لاهياً عنا بفرط أنسه ، كيف ترى قدرتنا عليك ، وتصريفنا لك ، وإحاطتنا بك ، واستباحتنا إياك ، وتمكننا منك ، وتملـكنا لناصيتك ، وإشرافنا على دانيتك وقاصيتك ؟ إن لك فى بعض هذا معتبراً فسيحاً ، وتوبة نصوحاً .

اللهم إنّا نفتتح كلامنا بذكرك ودعائك استعطافاً لك ، ليكون نصيبنا منك بحسب تفضلك لا بحسب استحقاقنا ؛ ونختم أيضاً كلامنا بما بدأنا به رغبةً فى رحمتك لنا وتجاوزك عنا ورفقك بنا وإهدائك ما لا ندريه ولا نتمناه إلينا . ونسألك ، إلهنا ! أن تجعلنا فى كَنَفٍ من ضمانك ، فقد رمانا خَلْقُكَ عن قوسٍ واحدة ، وقذفونا بألسنة حِدادٍ ، وقصدونا بسواعد شِداد ، لأنا ذكرناك لهم ، ودعوناهم إليك ، وعبّرنا عنك أن يكونوا جاهلين بك ومخالفين ، وقد غرقوا فى نعمك ، واعتزوا بكرمك ، وتـكبروا من أن يكونوا من خدمك . اللهم استصلحهم لعبادتك ، وخذ بأزِمّتهم [١] إلى بابك ، وإلّا فاستأصلهم بقدرتك ؛ فقد احترقنا بنارهم من أجلك ، وفقدنا كُلَّنا بينهم بسببك . فأنت مُحَرِّكنا إليهم ، وأنت مُفتِّرُهم عنا ، وأنت معاتبنا فيهم ، وأنت طاردهم دوننا . وهذا لسرٍ [٢] لك فينا وفيهم ، ولغيب لك عندنا وعندهم . إلا أنّا قبل أن نتعرض للسر بالظن ، وقبل أن نلم بالغيب بالعَنّ [٣] ، نفزع إليك

(١) جمع زمام .

(٢) ص : لَيس . وصوابه ما أثبتناه بدليل ما يرد بعد : نتعرض للسر بالظن .

(٣) العَنّ : ما يعن ، أى يظهر .

قالين لهم ، هاجرين لبقاعهم ، متباعدين من رِباعهم [١] ، متعيِّفين [٢] لطباعهم ، متنزهين عن باعهم وذراعهم ، عالمين بأن العيش معك أرقُّ ، وأنت بتأميلنا أولى وأحقّ ، وإن كان معنى هذا الموصوف بالمقايفة أشد علينا وأشق . إلٰهنا ! قد وقعت البينونة بيننا وبين خلقك فلا تصلها بالبينونة بيننا وبينك ، فإن ذلك شديد . وإذا أردت بنا عقاباً فاجعله [٧٩ ب] مادون هجرك لنا ، فإن الهجر مَجْلبة للمقت ، والمقت مَدْعاة للهوان ، فالهوان عذاب شديد وعقاب أليم .

يا هـذا ! نزّه طرفك عن النظر إلى غير الله ! شرّف فكرك بالفكر فى عظمة الله ! بيّض وجهك بالصبر على عبادة الله ! أخلص عملك من الشرك بالله ! أطرب نفسك بأغانى ملكوت الله ! اقرَعْ صباحَ مساء بابَ جودِ الله ! تعرض لوَبْل المواهب الهاطلة من الله ! اذنْ حتى تصغى . أصْغِ حتى تسمع . اسمع حتى تفهم . افهم حتى تعقل ، واعقِل حتى تشرف ، واشرف حتى تبْقى . وابقَ حتى تنعم . وانعم حتى تسعد . واسعد حتى تنق . وانقَ حتى ترقى . وارْق حتى لا تشقى .

يا هذا ! أما ترى نِعَمَ الله عليك نازلةً ، وخيراتِه إليك واصلة ومبارَّه [٣] لديك متكاملة ، تارة فى اليقظة وتارة فى المنام : [فإنه] أما فى اليقظة فإنه يجلو عليك هذا الملك البسيط حتى تشهد الكواكب المتلألئة بالليل ، الجارية بحقائق المشيئة ، الدانية على سَنَن الإرادة مع عجائب غيرها . وأما فى المنام فإنه يعرض

(١) جمع ربع : مسكن .
(٢) أى : كارهين .
(٣) جمع مبرّة .

عليك الأمور لعبارتها [١] ، فاجتهد أن تعرف المغزى فى جميعها . على أن مايشكل من جنس ما لا يشكل ، وَمَن آلَ إلى فطنة وذكاء نفسٍ عَلِمَ أن مشكلة ما أشكل لا لأن الإلهية فى هذا المكان غريبة ، والبَشَرية مشهورة ، والغريب مُتَجَنَّب ، والمشهور مستصحب . عزّت الأنباء ، وغرّت الأهواء ، وتبددت الآراء ، وغصّت الأرض والسماء ، وكل فلك عند الحق سواء . لأن الأنباء به عزت ، والأهواء بقوته غرّت ، والآراء لهيبته تبددت ، والأرض والسماء بنوره غصت ، — فلاخبر عنه ، ولامخبر إلا هو ، ولامستخبر سواه . العجب العجب ! أين نحن ! ويلك ! وما هذا الذى قد تُوسوس به ؟ وما هذا الذى تتهالك عليه ؟ إن كان إيانا فلم نغفل [٢] عنه ، وإن كان غيرنا فلم نشغل بالنار ، وإن لم يكن ذا وذا ، فما هذا الويل [٣] الذى علينا منه .

[١٨٠] ياهذا ! هو هولا بانقسام الإشارة النفيسة [٤] ، ولـكن هو هو بالتئام الإشارة العقلية . وليس أيضا كذلك ولـكن إلى هٰهنا انتهت المسالك ، أعنى مسالك النفس النازعة [٥] نحو الأمور البازغة [٥] ، ومسالك العقل النيّرة نحو الغاية ، ومسالك الوهم السانح نحو المرام الأبعد ، ومسالك اللفظ المزخرف نحو المطلوب الأشرف ، ومسالك الإرادة المتلظية [٦] نحو الخير المطلق ، ومسالك المُنْية المحلوم بها نحو الواحد الأحد .

---

(١) أى : تفسيرها .

(٢) ص : نعقل .

(٣) غير منقوطة .

(٤) كذا ، ولعل صوابه : النفسية .

(٥) ص : النارعه .

(٦) تلظى : تلهب .

يا هذا ! إن ثَبَتَ عقلك فى المداحض [١] ، ولاح لك فى أثناء هذه المعارض، فأنت المراد بأمرٍ ليس دونه عارض، ولا وراءه فارض، وإن تحَلحَلَ [٢] بوزن حبة خردل فاعلم أنك بعيد من مواصلة الأول ، بل بعيد من معرفة مادون الأول .

يا هذا ! عليك بطلب [٣] الجنة حتى تعانق فيها الحُور العِين ، وتُسقَى بكأس من مَعين [٤] ، وتستخدم الوِلْدان المُخلَّدين ، وعليك بالهرب من النار الموقدة التى لا طاقة بك عليها ، ولا نعمة لك معها . ودعنا حتى نرعى فى وادى المحبة ، ونجتنى ثمار المعرفة ، ونتبلّل بصَوْب الاتصال ، ونستريح من ضروب القيل والقال ، ونشهد مَنْ به أنارت الشمس ، ولعزته خضع الجن والإنس ، ونُناجى من به غنينا عن خلقه ، وإليه لجأنا بعد أداء حقه ، وإياه عبدنا بيقين لاشوب فيه ، ونحوه قصدنا بإخلاص لا ريب فيه ، وعليه شققنا جيوبنا بوجدٍ لا غبار عليه ، وفيه تولّهنا ولهاً لا شبيه له . فإن كنت منا ، وفهمت لغتنا ، وتصرفت فى ديواننا ، ونطقت بلساننا ، وكتبت بأقلامنا ، فلك ما لنا وعليك ما علينا . وإن تكن الأخرى ، فاكفِنا مؤونتك ، فقد وهبنا لك كلك وبعضك ، ووفرنا عليك أحمرك وأصفرك . فتمتع — كيف شئت — بأهلك وولدك ، وظُنَّ [٨٠ ب] ما شئت بمن خالفك وباينك ، فلست منّا ولسنا منك .

---

(١) المداحض : المَزَلّات .

(٢) تحلحل : زال عن موضعه .

(٣) ص : بطالب .

(٤) ماء معيون ومعين : ظاهر جارٍ على وجه الأرض .

اللهم إن القلم قد تَعَرَّم [١] فى نعت قصتنا معك ، واللسان قد طُفِئ فى تشقيق اللفظ بذلك ، وفيض الوهم قد طفح على أصبار [٢] القلب ، وأنت أول ذلك وآخره ، وخافيه ولائحه ، فاستُر ذلك علينا حتى لا نُفْتَضَحَ على رؤوس الأشهاد الذين لا يعرفون نسبنا منك ، ولا يقفون على سببنا معك . وصُنَّا عندك فى محل المصافاة ، وقِفْنا بآرائك موقف المناجاة ، وآثرنا وقدمنا ، وأدِّبنا وقربنا ، وإلا فالطُفْ بنا وارحمنا . وقبل ذلك كله وبعده ، أَجج خواطرنا بنار الذكر لك ، وعجِّج ألسنتنا بنغمات تمجيدك ، ولا تُفتِّرنا عن الانتصاب بين يديك ، ولا تُذِقْنا مرارة البعد عن فنائك ، ولا تَبلُنا بالاستحسار عن عبادتك ، وقيدنا بقيد محبتك ، وأطلقنا فى رياض الوجد بك . وإذا عَثَرْنا فقابلنا بالنعشة ، وإذا سهونا فارْدُدْنا إلى التَّذْكِرة ، وإذا بَغَيْناك فامْدُدْنا بالتسديد ، وإذا قصدناك فاعمُمْنا بالتأييد .

يا هذا ! لو لم يَمُرَّ لك فى جميع هذه الأجزاء إلا ما فى هذا لكفاك وأوفى على مرادك . فطالعه بقلب رقيقٍ ، واشرحه بلسان فتيق [٣] ، وارتع منه فى روض أنيق . والسلام .

---

(١) تعرّم العظمةَ : نزع ما عليه من اللحم . يقصد أنه قد استنفد ونحل فى وصف قصته مع الله .

(٢) الصُّبْرُ (بالكسر والضمّ) ناحية الشئ وحَرْفه ، والجمع : أصبار .

(٣) يقال : رجلٌ فتيق اللسان : أى : حديده . وقد وردت فى الأصل بالثاء ، وهو تحريف .

رسالة (كو)

اللهم حقِّقنا فيما نتصدّى مخبرين عنه ، وحققه فينا إذا حاولنا أن نستفيد منه ، وبيِّنّا لنا حتى نستعدّ لخدمتك ، وأبِنّا منا حتى نصلح لمحبتك ، وأرِنا منك ما يستوفيك فى غوامض معرفتك . ومهما سبق من تقصير فى ذكرك ومصيرٍ إلى أمرك ، وتشاكٍ فى الصبر على بوادى قدرتك ، فتغمده بسترك ، وامحه بتجاوزك .

ياهذا ! إذا دعوته بلسانك ، فجرِّد دُعاءك بخالصة قلبك فطهِّره من شِرْكك. وإذا وصفته بعلمك ، فنزِّهه عن جهلك . وإذا أخبرت عنه ببيانك ، فخَفْ مقته لك على بُهْتانك . وإذا توجهت إليه برجائك ، فاستصحب مادة قوية من تسليمك . واعلم قبل كل شيء وبعده أن أحكام هذه القصة عجيبة ، وأعراضها غريبة ، وشرائطها وثيقة ، وملاحظها أنيقة ، ومراعيها مُحْلَوْلية ، وآفاتها مستولية ، وعلى قدر الصبر على الشدائد والمكاره يكون الظفر بالمطالب والمنازه . ومن أحكامها العجيبة أنّ إحسانك ربما استحال إساءة ، وتقرُّبك ربما عاد تباعداً . وتحت هذه الحال ضروب من المحنة ، وفنون من الفتنة ، أدناها: تظن أنك مقبول وأنت مردود ، وتحسب أنك موصول وأنت مطرود . ومِنْ أعْراضها الغريبة أنه: يراد منك السكون بالتعويض فتتحرك بالتعريض ، وتُراد منك الطمأنينة والدَّعة فتستهلك نفسك بالاجتهاد والمشقة . ومن شرائطها الوثيقة أنك لاتنفكُّ عن العبودية التى بها تصحّ نسبتك إلى الربوبية ، ولا تستطيع أن تتنفس مرةً واحدةً على شيء من المملكة إلا بإذن مَنْ أظهرك فى المملكة ؛ ومن ملاحظها الأنيقة أنك لا تُسَرِّح طرفك فيما علا وسفل ، وفيما وضح وأشكل ، إلا أصبت منه منظراً يسبيك بالحيرة ، وعجباً ينتهبك

بالغيظ والحسرة . ومن مراعيها الحلولية : أنك لا تذوق شيئاً من هذه الخضرة ، ولا تسمع ولا تُبْصِر ، ولا تشم ولا تلمس ، إلا حال بينك وبينه حتى تنكر عينك : أىْ نَفْسك ، وأَيْنَك : أىْ مكانك ، وأصْلك : أىْ ما أنت منه ، وفصلَك : أىْ ما أنت إليه ، وحالَك : أى ما أنت به ، وحاصلَك : أى ما أنت عليه . ومن آفاتها المستولية أنك إن بحثت لم يَزِدْكَ البحث إلاّ عَمىً ، وإن شربت لم يزدك الشرب إلا ظمأً — وهذه وأمثالها وأمثال أمثالها إلى أن تنقطع نفسك لفظاً ، ويتقد فؤادك غيظاً : يُديرك ويدور بك ، ويسلط الوسواس عليك ، ويبددك فيك ، ويشتتك بك . ومن أجل هذه الصفات [٨١ ب] اختلط العرفان بالإنكار ، وتشابه الإيراد والإصدار ، وارتدّت الأنفاس فى الصدور ، بحرارة كحرارة النار ، وتجامحت الحقائق بالإبطال والإظهار ، وصار للعجب النهارُ كالليل والليلُ كالنهار .

يا هذا ! إن صعّبْتَ عليك الوصف فهو صعب ، وإن سهّلتَ فهو سهل . فأما صعوبته فلأنك غدور كفور ، وأما سهولته فلأن ربك غفور شكور . وإذا كانت القصة على هذه الشاكلة المشكلة ، فكيف يكون حالك فى حالك ؟ وكيف تكون فيما أنت به كائن ؟ وكيف تبين عما أنت به بائن ؟ اللهم غفراً ! كاد الرجاء لكرمه يُغْرِى بمخالفته ، وكاد الخوفُ من غضبه يقْنِط من رحمته . وهذا مقامٌ ما وقف عليه أحد إلا زلت قدماه ، وجُهل منه مأواه ، واعتاص(١) دونه منتهاه ، وذبلت دون الرِّىِّ به شفتاه .

يا هذا ! السعيدُ من استطبَّ لسُقْمه ، وسعَى فى طلب عاقبته ، وقام بالحق للحق على خطرات باله وهواجس نفسه ، وتلذذ بالفقر ، وتنعم بالاستكانة ،

---

(١) ص : اغتاض .

ووجد بالعدم ، وأدرك بالفوت ، وصح بالمرض ، وحيي بالموت ، وروى بالعطش ، وانتبه في الدهش ، وجاد بالموجود ، واستقل بالمفقود ، وأنس بالوحشة ، واستوحش من الأُنس ، وقال وهو ساكت ، وسكت وهو قائل ؛ وإنما كان السعيد مَنْ هذا بعض حديثه ، لأنه لبس الأعيان بحقائقها ، وعَرِى من الأكوان وعلائقها ، وتطاول إلى النجد الذى لا وصول لأحد إليه إلا إذا جذب الحق بضبعه[(١)] ، وكان هو الدافع عنه ، والرافع له ، والغائر عليه ، والناظر إليه . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ما على المحسنين من سبيل . وما أحسن ماهتف به بعض أُصحابك حين سَمَتْ همته إلى هذه الذرى ، تاركاً لجميع ما عليه الورى ، حيث يقول :

إلهنا ! إن ذكرناك أنسيتنا ، وإن أشرنا إليك أبعدتنا ، وإن اعترفنا بك حيَّرتنا ، [٨٢ ا] وإن جحدناك أحرقتنا ، وإن توجهنا إليك أتعبتنا ، وإن ولّينا عنك دعوتنا ، وإن تركناك أزعجتنا ، وإن توكلنا عليك أكلفتنا ، وإن فكرنا فيك أضللتنا ، وإن انتسبنا إليك نفيتنا ، وإن أطعناك ابتليتنا ، وإن عصيناك عذبتنا ، وإن انقبضنا عنك بسطتنا ، وإن انبسطنا معك طردتنا . فالسوانح فيك لا تملك ، والغايات منك لا تدرك ، والحنين إليك لا يَسْكُن ، والسلوُّ عنك لا يمكن . فارحمنا فى بلوانا بك ، واعطف علينا فى صبرنا معك ، والطُف بنا لانقطاعنا إليك ، وعاملنا بالكرم الذى أمرتنا باستعماله بين خلقك ، واصرِفْ عنا كلَّ صارف عن بابك ، وأجِلْ نواظرنا فيما برز بقدرتك ، وخواطِرنا فيما بَطَنَ من حكمتك ؛ وإذا دعوناك فأجِبْنا ، وإذا دعونا إليك فأعِنّا ، وإذا استجرناك فأجِرْنا ، وإذا أعطيتنا فهنئنا ، وإذا حرمتنا فصبِّرنا ، وإذا أذنت لنا فأوْصِلنا ، وإذا أطمعتنا فصِلْنا ، وإذا كدَّدْتنا فأرِحنا .

(١) الضَّبْع (مثلثة) : الكنف والناحية ، وهو فى ضبع فلان : أى فى كنفه .

يا هذا ! إذا كان من يفقد غيره يبكى فيعذر ويسمى ثا كلاً ، فما هذا السهو فى اللهو ، وما هذه الغفلة والعطلة ! أما سمعت القائل يقول :

الدهر يصرع أهله سُوَقاً[1] ويصرعهم ملوكا
والموت شيء قد نفت عنه حقائقُه الشكوكا
والبَغْى شرُّ رواحل الدُّنيا وأكثرُها بُروكا

والله لو لم يكن هٰهنا واعظ ولا موقظ إلا الموت ، لـكان الحزم فى أخذ العتاد له . فـكيف ومِنْ دونه أهوالٌ ، ومن ورائه أهوال ! وقد قال من قال :

نَعَى لك ظِلَّ الشبابِ المشيبُ
ونادَاكَ باسم سِواكَ الخُطوبُ
فَـكُنْ مُسْتَعِداً لِداعى المنونِ
فكلُّ الذى < هو > آتٍ قريبُ
[٨٢ ب] وَقَبْلَكَ داوَى المريضَ الطبيبُ
فعاش المريضُ ومات الطبيبُ
يخافُ على نَفْسِهِ مَن يتوبُ
فـكيف تَرَى حالَ مَن لا يَتوبُ ؟!

أما ترانى يا هذا كيف أرددك بين هذه المحايل[2] مدارياً لك ، ورافقاً بك ، وآخذاً بأطراف الشفقة معك ، لتفىء إلى حظك ، وتنقاد لُرشْدك ، وتحن إلى نعيم

(١) السُّوقة (بالضم) : الرعية ، للواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، أو قد يجمع (كما هنا) : على سُوَق (كصُرَد) .

(٢) المحالة والحيلة والاحتيال والتحيُّل : الحذق والقدرة على التصرف . والجمع للأول محايل . اللهم إلا أن يكون أصلها : مخايل (بالخاء المعجمة) ، جمع مخيلة ، أى : مَظِنَّة .

لا انقطاع له، ورَوْح لا رَوْح له فوقه، وربٌ لا رب سواه، وجنة عرضها السموٰات والأرض؛ إن حُرِمتها حقت عليك كلمةُ العذاب. تارة أُزهدك في هذه الزينة الخادعة التي ما حَمِدها مُؤْثِرُها، ولا نَعِمَ الواصل إليها، ولا نجا مِنْ كَرْبها مَنْ لاح بظلها ودخل تحت كُلِّها. وتارة أُرغِّبك فيما عند الله من النعيم المقيم، والرضوان العظيم. وتارة أُحبِّبُ إليك ربَّك لتُسارع إلى طاعته وتأوِي إلى حظيرة أمنه. وتارة أُنفضك[1] عليك فيكون نظرك عائداً إليها[2] بثمرة إذا أكلتها حلَتْ لك، وإذا أسغتها نَعِمَ بالُك.

وتارة أُعرِّفُك آفات أعمالِكَ وعِلْمِك وضَرَرَ أحوالك وفسادَ أهلِ زمانك لتستيقظ فتدرى أين قَدمُك، وكيف صمتك، وفيما ذا صَمْدُك، وعلى ماذا قَصْدُك، وهل لك منه هِمةٌ مشايعة، ونَفْسٌ طائعة، وإرادة تابعة. وتارة أبسط رجاءك، وأنشر أملَكَ، وأفتِقُ طَمَعك، وأُقرِّب مطلبك حتى تتطاول راغباً ولا تنقمع هارباً، ويكونَ ذاك سبباً قوياً إلى انتعاشك من سَقْطتك، وباباً مفتوحاً إلى مُنْيَتِك.

وتارة أُسلِّط الخوفَ عليك، وأجلب عساكره إليك، لأصرفك بذلك عن كثير مما أنت به ملتبس، وفيه منغمس: فإن في الخوف قبضاً من المَخوف، كما أن في الرجاء بسطاً في المأمون. وتارة أُجمِجم لك بالخطرات، التي تفكهك بأسرار المحبة، وتموِّج عليك بَحْرَ المعرفة، وتُبْدى لك مَخِيلة[3] التوحيد، وتريك الحق موجوداً، وتحدث بينك وبينه عهداً معهوداً.

(١) ص: اىعصك علك.

(٢) الضمير يعود إلى: «حظيرة أمنه».

(٣) مخيلة: مَظِنَّة، والجمع مخايل.

وتارة أجرِّد لك اللفظ من عِقال التعويص ، لترتقى من حضيض التعميم إلى قُلّة[١] التخصيص .

وتارة أمزُجه عليك لتفرق بين ظمئك وريِّك ، وتقر على فرق ما بين بيانك [١٨٣ ا] وعِيِّك ، وتطلب فائتك بما عندك من كيفك وأينك وأيِّك .

وتارة أستوفيك حتى لا تبقى ، وتارة أُوفِّيك حتى لا تستقى[٢] . فانظر إلى نظرى لك ، وإلى رِفْقى بك ، وإلى فراغى لمصلحتك وقيامى بمنفعتك . واسمَعْ ما قال الآخر :

عيبُ ابن آدمَ ما علمتَ كثيرُ ... ومجيؤه وذهابه تَغْرِيرُ
ياساكنَ الدنيا ! ألَمْ تَرَ زهرة الدُنيـــا على الأيام كيف تصير ؟
بل ، ما بدالك أن تنال من الغنى ؟ ... إن أنت لم تقنع ، فأنت فقير
يا جامعَ المالَ الكثيرَ لغيره ... إن الصغير من العيوب كبير

اللهم لا تَستدرجنا بالقول عن العمل ، ولا تَفْتِنّا باليأس بعد الأمل . اللهم إن إلٰهيتك بحرٌ لا ساحل له ، وطَوْدٌ لا قُلّة[١] له ، وأُفقٌ لا غاية له . وهممنا قاصرة عن نعتها إلا إذا واصلتنا بالإلهام ، وعجزنا أظهرُ علينا من أن نطمع إلا بالإلمام أو شبيه بالإلمام . اللهم إنا وصفنا إلٰهيتك ، وطوينا فى الوصف عبوديتنا لك . فنهاية حظنا من إلٰهيتك ، مع عجزنا الظاهر ، أن تلهمنا ذكرك ، وغاية نصيبنا من عبوديتنا لك أن تستخلصنا لنفسك .

---

(١) القُلّة : أعلى الجبل والرأس والسنام أو أعلى كلِّ شىء .

(٢) أستوفيك : أطلب منك أن تفى حتى لا تبقى على شىء . وأوفيك ... : أعطيك ما فيه الكفاية حتى لا تستقى من الغير .

اللهم فافعل كلا الأمرين بنا ، فإنك فوق ذلك عندنا ، وصُنْ أسرارنا معك عن أعدائنا فيك ، الحاتين (١) لورقنا من أجلك ، الهاتكين لأستارنا بسببك ، الحاسدين لنا على ما أنطقتنا به من آثار نعمتك وغرائب حكمتك ، المتنكرين علينا من أجل خبرنا عنك وإشارتنا إليك . اللهم فاشغَلْهم عنا لنفرُغ لك ، وفَرِّغنا لك لنشتغل عنهم بك . اللهم ازمُمْنا (٢) عن مخالفتك ، واعمُمْنا (٣) بموافقتك ، وانظِمنا على ابتغاء رِضْوانك ، والمُمْ شَعْثَنا بضروب إحسانك ، واختم أعمالَنا برحمتك وغُفْرانك ؛ وخَوِّضنا فى بحار العلم بك ، واكشف لنا عن سُبُحات (٤) وجهك ، واستخلصنا لخدمتك ، وأَهِّلنا لمؤانستك ، واستعمل جوارحنا فى طاعتك ، واملأ جوانحنا من محبتك ، واجعل طريق معرفتنا بك [٨٣ ب] على السكون إليك ؛ وذَوِّقنا حلاوة الثقة بكرمك ، وهَيِّئ مؤونتنا على توحيدك ، واقلِبه لنا حياةً عندك ، ياذا الجلال والإكرام !

رسالة (كز)

أطال الله أيها الشيخ بقاءك ولا غبطةَ فى البقاء ، وأدام صفاءك وكلُّ العيش فى الصفا (٥) ، وأيدك فى تناول الحق من معادنه ، وقدّم قدَمك إلى ديار

---

(١) حتّه : فركه وقشره فانحت وتحاتّ .

(٢) زمّه يزُمُّه : شدّه ؛ وزم البعيرَ : خطَمَه .

(٣) عمّه بالعطية : شمله بها .

(٤) سبحات (بضمتين) وجه الله : أنواره .

(٥) إما أن تكون ممدودة ، وحينئذ يكون : « كلَّ العيش » منصوبة بالفعل : « أدام » ؛ أو تكون مقصورة ، جمع صَفاة أى الحجر الصلد الضخم ، وحينئذ تكون : « كل العيش » مرفوعة على الاستئناف لأنها مبتدأ ، ويكون المعنى هو : كلُّ العيش فى خشونة وقسوة وصلابة وشقاء .

الصدق ومساكنه ، وفضّلك بأفضل الفضل ، وأشرفَ بك على أشرف الشرف ، وأحسن إليك بأحسن الإحسان ، وأكرمك بأكرم الإكرام ، وأنعم عليك بأنعم الإنعام ، ونصبك قُدْوَةً بين الأنام ، على تطاول الليالى والأيام . ولاطفك فى السر ملاطفة المُشفِق الرؤوف ، وعاطفك فى الحمد [١] معاطفة المرفق العَطوف . وغمر صدرك بمعانى القرب والأنس ، ورفع قدرك عن لواطخ [٢] الجن والإنس ، وعاد عليك بأقسام التنزيه ، وأغار فيك بأحكام التنبيه ، وكفاك مؤونة المؤونة بمعونة المعونة ، ولا جلب إليك محنته ولا قدّر عليك فتنته ، وفعل بك ما هو أولى به منك بنفسك . نعم ، وحرس خصائص مواهبه عندك ، ولطائف منائحه قِبَلك ؛ وفكّكَ من قيد نفسك ، وسلَبك مدانس [٣] بنى جنسك ؛ ورقّاك عن مواطن التنبيه إلى مشاهد الحجة ، وطوقك بطوق البهاء ، وتوّجك بتاج العلاء ، وأعطاك عنك ، وأفناك منك ؛ وأقبل بك إليه ، وهجم بكلك عليه ؛ وأشهدك أسرارَ الخلق ، وآنسك بمواد الحق ؛ وحط عنك ثقلَ الوَسْواس فيه ، وجذب دُونك مبادئ الهواجس عليه . وجعلك تسكت معتبراً ، وتقول صادقاً ، وتفعل مصيباً ، وتعتقد واجباً ، وتهتدى طوعاً ، وتحتوى نفعاً ، وتسامُ مطاقا ، وتُكلَّف مُستطاعاً ، وتُؤَمّن خائفاً ، وتخوّف آمناً ، وتُرغّب زاهداً ، وتُزهّد راغباً . فإذا فعل ذلك بك ، فلا متّعكَ اللهُ بغيره ، ولا ألجأك إلى سواه ؛ ولا أحسن إليه إلا لك ، ولا سلّط عليك بُعده ، ولا أذاقك صدّه . ولا أزل بك القدَم ، ولا استتبَّ [٤] لك الهم .

(١) كذا ، ولعلها : فى الجهر .

(٢) معرّات .

(٣) مدعاة الدنس .

(٤) كذا ! ومعناها هنا : جعلها تضعف ، والموجود فى المعاجم التى راجعناها : أتبَّ الله قوّته : أضعفها .

فإذا فعل ذلك بك ، فأخرس [١٨٤] الله لسانى وأنفذ أسْر خاطرى منه ، وكفانى هُمومَ طَلَبه بوِجْدانه ، وخوف فراقه بطغيانه ، وجعلنى ناطقاً بالسكوت عنه ، وساكتاً بالحيرة فيه ؛ ومتحيراً بالتسليم ، ومسلماً بالالتجاء إليه ، وملتجئاً بالاعتماد عليه . و بلغنى القرار الذى لا يشوبه اضطراب ، والغاية التى لا يحدها بِعاد ولا اقتراب ، والنهاية التى لا يتحكم فيها خطأ ولا صواب . حَرَسك الله ! لولا رقيب من رقباء هيبتك ، ونقيب من نقباء سطوتك يحرسان نَفَسى ويحبسان نَفَسى لأطلقتُ فى الدعاء لك والثناء عليك عِنانا وعنانا ، وأبديت فى النزاع نحوك شانا وشانا . ولكن التصافى الذى انتسج بيننا ، والتوافى الذى انتهج عندنا ، يقضى عليه ولا يقتضيه ، وينحو شَطْره ولا يستدعيه . فالحمد لله الذى أوْلَى فىَّ منك مالا ينال إلا بتوفيقه ، ولا يصاب إلا بتيسيره — حَمْدَ مَن علاه عجزُه عن شكره بالانقياد لأمره والاستبسال فى يده والثقة بوعده . وصلى الله الواحد الحق على العارف المحض .

وسآخذ فى حديثى وما يختص بشأنى وينتهى إليه أمرى . وأعلمك أنى فى حساب لا ينتهى ، وعتاب لا ينقضى ، لأنى ألوح كالبرق المنتشر فلا أضئ ولا أستضئ . أتوارى فى الظلام كالمستتر فلا أُغْنَى ، ولا أُغْنى . وقد عرفت آفتى ووقفت على علتى ، وفَطَنْتُ لمحنتى ، وهى أشياء : فأعلاها وأعداها الكون لأنه محطّ البلاء ، ومَغَارُ[١] الحِدْثان ، ومَجْلب الصروف ، وفُرْضَة[٢] الغير ، وعمق الكدّ ، وأول الغيظ وثانى الانكار وثالث المحو . فأما ما أدناها وأوباها فطابى للمحال ، وتعلقى بالفانى ، وانخداعى بالعارض ، وإعراضى عن النفيس ، وندائى على نفسى باسم التمام وأنا عين النقصان ، وجرأتى

(١) المَغار والمُغار والمَغارة والمُغارة (بالفتح والضم فيها جميعاً) : الكهف . والجمع : مَغاور ومَغارات (بفتح الميم) .

(٢) الفُرْضة : الثغر .

على الدعوى بفقد البرهان ، وتشرُّدى فى القول مع ضعفى وتقصيرى فى الفعل ، وإطالتى الهذيان على غير وزن ولا تحذير . فإذا أنصفت فأنا الضائع المضيع ، والخامل المجهول ، والصَّلِف [١] الذليل ، والطالب المبتلى ، والوارد المُخْلى ، والعاجز المتقاوى ، والمُتَرَدِّى المتعالى ، والألكن المِهذار ، والمتوهم المُعَنَّى ، والحاوى بلا بعير ، والمتمالك بلا فتيل [٨٤ ب] ولا نقير . كِبْرٌ قد سَدَّ طُرُقى ، وعُجْبٌ أتى على جُلِّ أمرى ، وعِلْمٌ قد صار وبالاً عَلَىَّ . وحِرْمانٌ كأنه حليفى أو حَرِيفى [٢] ، ومراد قد جدَّ فى التولى عنى ورسخ مثاله فى صدرى ، وحقيقة ضمّت وما فعلت ، ولاحت وما ثبتت ، وأبرقت وما سكبت . وحَقٌّ لا يُبقى علىَّ ولا يَذَر ، وخُلُق لا يشاكلنى ولا يَقْرُب منى . ومجموع ذلك كله فى حروف أقولها : قد تعلق كُلّى بواقع لارجوع لغايته ، ومُتَوَقّع لايقين فى لحاقه ، وحاجزٌ قد اتكأ علىَّ بآواقه [٣] ، وأخذ بالمخنق منى فى وَثاقه ، وحظر على العقل تفتيشه ، وعلى اللسان تكشيفه . والبلاء أجمع من باب أنا أفتحه ، وإن كان مقفلا ، وألجه وإن كان شديداً معضلاً ، وأفْسُرُ [٤] وأروح به ، وأشجّع نفسى بسببه . أُعْلِمك — منحك الله السُّؤل ودَرْكَ المأمول — أن الجملة المأخوذة علينا المَشُوقة بالعقل والشرع إلينا : الوقوف على المقاصد بحقائقها من غير ريب يقدح ، ولاشبهة تسنح . وقد سَلِمَتْ هذه الجملةُ فى البديهة واستمرت ، لكنها قلقت فى الروية [٥] واقشعرت ، لأن البديهة تشبثتْ بحكم القول والتسليم للفطرة

---

(١) المتكبر ، المدعى .

(٢) حريفك : مُعاملك فى حرفتك collègue .

(٣) الأَوْق : الثقَلُ والشؤم ، والجمع : آواق .

(٤) الفسر : الإبانة وكشف المُغَطَّى ، كالتفسير ، والفعل كضرب ونصر .

(٥) ص : الرويه .

الحانية إليه ، والعادة النامية إليه ، والكمال المرجو منه ، والاحتياط الحاكم به . وأما الروية فإنها وقفت على محل البحث وطريق الفحص وباب التحكم ، ونقضت سوالح التقليد ، ولم تقتنع فى القصة إلا بأشد التوكيد ، لأن مادتها عقل موثوق برأيه ، ومحكوم بشرفه ، وجميلُ الأولى والعقبى منتظر من جهته . ولكن وقع التدافع والتصانع لعِلَلٍ أخرى ، وهى اختلاف القوى وشتات الهِمَم ، وتباينُ الأحوال ، وتروُّح المقاصد ، والتياث المراد ، ونفى الرسم والاعتبار . هيهات ! هيهات ! لن يصفو العمل حتى يصح العلم ، ولن يصدق الخبر حتى يتحقق العِيان ، ولن تفيض الحكمة حتى تطول التجربة ، ولن يحمد الذكاء حتى يسلم الطبع ، ولن يُجْدى القولُ حتى يتصل الفعل ، ولن يعتبد(١) الحرّ حتى يزُال عنه الضرُّ ، ولن يُملَّك الإنسان حتى يُغْمَر بالإحسان ، ولن يتحلى بالخير حتى يتعرّى من الشر . ولن توجد القناعة حتى يُعدم الحرص ، ولن يُؤلَف الكمال [١٨٥] حتى يُرْفضَ النقص . ولن يُعرف حُلْوُ السعادة حتى يذاق مُرُّ النَّحْس ، ولن يُهتدى إلى المعروف حتى يَضلَّ عن المُنْكَر ، ولن يُعرف الحق حتى يُتَبَرَّأ من جميع الخلق ، ولن تُسكَّن حُرق الحرمان حتى يُتمكَّن من بَرْد الوجدان . ولن تنقطع سلسلة الهَدَمان ، حتى يُدرِكَ الثأرُ من الزمان . وهذا حديث لا يكون ولا كان اهـ .

أطلت — < أطال > الله طِوَلَكَ(٢) — مِن غير طائل ، لأنى لم أصف من حالى مراسمها ، ولا من قصتى مَقاسِمها ، وسحبتُ القول على مساحب الثقة ومناكب المِقة(٣) ، من غير مغالاة بِسِره ولا مبالاة بشَرِّه . وفى الجملة

(١) الاعتباد : الاستعباد .

(٢) يقال : طال طِوَلُك وطِيلُك وطُولُك وطَوْلُك : أى مكثك وعمرك .

(٣) المقة : المحبة .

قد استندت إلى الحسنى منتظراً لحميد العُقْبى ، دائراً مع الأخف الأسهل ، ثابتاً فى كنف النزاهة وضمان الحيلولة (١) ، مستشعراً من طوارق الحِدْثان راحة وأمْنَةً ، نائباً عن مواقف الخِزْى والإذلال ، قانعاً بالمستيسر من الحال ، عالماً بما قال الحكيم بعد الحكيم . أفمن يقبل هذا معرفة ، ويشتمل عليه يقيناً ، كيف يجر على الخَشاء (٢) نفسه ؟ أم كيف يملك اللئام عرضه ؟ أم كيف يسوق إليهم رجاءه ، ويصوغ لهم مدحه وثناءه ؟ هذا خَلْفٌ من العمل ، وعَكْسٌ من الرأى ، وإيثار للجهل ، ورجوع إلى الأخسّ ، لا يختاره عاقل ، ولا يرضى به فاضل . وأنا على التغافل عن ذكر شوقى إليك وحنينى نحوك لعلمى بأن ذلك لا يُمليه خاطرى ، ولا فَجَّرَه (٣) لسانى ، ولا رسمه قلمى ، ولا نقله كتابى . ولا عجب ! فإنه ميراث أُنْس ، ووليدة مَوَدّة ، أنشأهما فضل قد وَحّدك الله به ، وجميلٌ قد جعلك من أخص أهله ، ولا زالت المحاسن تحبو إليك ، والفضائل تزدحم عليك ، والقلوب تَحِنُّ نحوك ، والآمال تنعقد بك ، ولا زلتُ لحقك مراعياً جهْدى وطاقتى ، وإلى مُرادك مسارعاً قوتى واستطاعتى ؛ ولا حرمت منك مادة تحفظ مهجتى ، وتحوط بغيتى ، لأفوز مستمتعاً بذكرك ، مسرعاً إلى أمرك ، متشرّفاً بصنوف (٤) ما يرد من جهتك ، متشوّفاً إلى ما يصدر عن وجهتك ، عليك طيبُ سلام الله ورَوْح تحيته ، ما اعتلج خاطر ، واختلج [خاطر] ناظر .

---

(١) المناعة .

(٢) الخشا : الزرع الأسود من البرد ؛ والخشاء (وهو الأقرب هنا) : الجهاد من الأرض ؛ والجهاد (كسحاب) الأرض الصلبة لا نبات بها .

(٣) ص : محره .

(٤) ص : بالصنوف .

رسالة (كج)

اللهم قُدْنا بعزيمة الراجين إلى بابك ، وبَيِّضْ وجوهنا عند مناجاتك ، واغمُرْنا بمواد مواهبك ومِنَحك ، وآونا إلى كنَف أمْنك بالأمن منك ، وأمْطِر علينا سحائبَ جُودك وعطْفِك ، ووَفّقنا لأقصد السبيل إليك ، وخَفّف علينا في كل الأمور التوكلَ عليك ، وسَهِّل علينا طِلابَ ما أعددْته لأوليائك لديك ، واسلُبْنا منا ، وشرِّدنا عنا ، وخُذْ لنا ، وبقِّنا علينا . ولا توالنا بالنعم استدراجاً ، ولا تُمهلْنا بالتطاول احتجاجاً . ولا تؤاخذنا بياتاً[(١)] ، وارحمنا إذا صِرْنا عظاماً ورُفاتاً ، وجُدْ علينا بكرمك إذا صدر الناس أشتاتاً إليك ، وكَلْنا كُلَّنا وعليك طرَحنا كُلّنا ، يا من هو أرحمُ بنا منا ، وأنْظرَ[(٢)] لنا من أنفسنا ، وألْطفَ بنا من آبائنا وأمهاتنا . امْحُ عنا صفاتنا باستيلائك ، ثم خلّنا علينا فيك بولائك .

ياهذا ! اسمع لغة أخرى على وجه التعويض ، مترجمة ببيان منسوب إلى التلخيص ، وتَصرَّفْ فيها بين مُبْهَم يحارُ لُبُّك منه حتى تبقى مدهوشاً ، وبين واضح يُعِزُّ نفسك حتى ترْقَى مَنْعُوشا .

يا هذا ! إذا ذكرته فاذكره واجداً به . إذا وجدته[(٣)] تجِدْ ذكراً له . على أن الذكر وجدٌ أيضاً ، ولكن من ناحية العبادة . والوجد ذكر أيضاً ،

---

(١) بَياتاً : ليلاً . يقصد : على غِرّة .

(٢) نَظَره وانتظره وتنظّره : تأنّى عليه .

(٣) من الوجد ، فِعْله : وَجَد ، يجِد .

ولـكن من ناحية الاستفادة . والوجد مُسْتَغْرِق للصفات كلها بالمحو ، والذكر مُسْتَفْرِشٌ (١) للسِّمات كلها بالزهو . فإذا اصطرع الذكر والوجد كانت الغلبةُ للوجد ، لأن الذاكر قد يذكر وهو غير واجد ، والواجد لا يجد إلا وهو ذاكر . على أن هذا الذكر ليس من مراسم اللسان ، ولا من مناسم الفكر ، ولـكنه أوّل من المذكور ، وثانٍ من الذاكر . فأما الوجد فيرتفع عن تجديده بنظم لفظ ، وترتيب حرف ، لأنه صوت من حضرة الحق بِغشيان (٢) روحانى ، ومباشرة ربانية ، وإذا وافى توفى (٣) ليستوفى ، وإذا استوفى فقد علا على المراد وأوفى (٤) اهـ .

يا هذا وما وصفى لك الذكر بغرائبه ، والوجد بغوالبه ، وما يدور عليهما بحوالبه (٥) وجوادبه ، وأنت إلى أن تذوق حلاوة ركوعك وسجودك بصدق النية وطهارة الطوية أحوجُ ، وبما عاد [١٨٦ ا] عليك من ذلك أبهى وأبهج ! ولـكن ما أصنع ! لعل وصفى استراق لى ، واعتياق منّى عما هو أخص بى وأجدى علىّ . وإذا كان تدبيرى إلى غيرى ، فسيئتى وحسنتى تشتركان فى الحدوث ، وتعتزيان إلى المشيئة ، وإن كانتا تفترقان فى الاسم ، وتتباينان بالنعت . فيا عجباً من فكّ هو أَسْر ، ومن أَسْر هو فكٌّ ، ومن تخليةٍ هى حصْر ، ومن حَصْر هو تخلية !

---

(١) أى : يستعرضها ويبسطها .

(٢) أى : وارد ؛ مِنْ : غَشِىَ الأمرَ يغشاه : إذا جاءه ؛ أو من : غَشِى الأمر : باشره .

(٣) أوفى فلاناً حقَّه : أعطاه وافياً ؛ ووافاه فاستوفاه ، وتوفاه : أى أعطاه وافياً .

(٤) أوفى : زاد وأشرف .

(٥) الحالب : ما يُدِرُّ ويعطى ، والجاذب : الماحل .

فإن نَبَسْتَ بكاف أو ميم ، أو بحاء أو بجيم ، فُدِمَ [١] فوك بل فُضَّ ، وردم كلك بل رُضَّ [٢] . فلاجَرَمَ لا إشارة ولا عبارة ، إلا على وجه الاستعارة والإعارة ؛ والله المستعان !

رسالة (كط)

اللهم إنّا لا نصلح بوجه حتى تصلحنا ، ولا ننجو حتى تنجينا ، ولا ننال ما نتمناه إلا بعد أن تُقرِّبه إلينا ، وتهيِّئه لنا وتؤهلنا . فافعل ذلك ، اللهم ! فإنه لا يكبُرُ عليك شيء ، ولا يضلّ عنك شيء . ومهما كان منك فلا يكونن المقت والإعراض ؛ فإن ذلك شقاء الأبد وشماته الأعداء .

اللهم إنّا قد عادَيْنا الجاهلين بك فوالِنا لمعاداتنا لهم فيك ، وَصَدَّقنا المخبرين عنك فأخبرنا على ذلك بفضلك ، و بَيِّض وجوهنا بالنظر إلى وجهك ، وحيِّنا برضوانك إنك أهلُ ذلك .

اللهمّ هذه أشعارنا وأبشارنا [٣] تبيت معترفة بأنك إلهُنا وخالقنا ، وكافلنا ورازقنا ، ووَلِيُّنا وهادينا ، وناصِرُنا وكافينا . ليس لنا ربٌّ سواك ، ولا إله غيرك . فبهذه المعرفة الثانية وبهذه المسئلة الثانية إلا رؤُفت بنا وعطفت علينا ، وحُلتَ بك بيننا وبيننا ، حتى نكون لك بلا أنفس أمّارة بالسوء ولا مُسَوِّلةٍ بالهوى ولا خوّانة فى الطاعة .

---

(١) فَدَم فاه وعليه بالفِدام يفدِم وفدّم : وضعه عليه . والفدام (ككتاب وسحاب وشدّاد وتنُّور) : شيء تشدّه العجم والمجوس على أفواهها عند السقى .

(٢) الرضُّ : الدقُّ والجَرْش . وردم الثُّلْمة : سدّها كلها . وتردّم ثوبَه : رَقَعه .

(٣) جمع شعر وبشرة .

يا هذا اعتاصت والله الغاية على الغاية ، وانتهت النهاية إلى النهاية ، وأدرجت الآية فى الآية . فلهذا ماصار الدواء داء ، والأسْو جراحاً ، والعطاء سَلْباً ، والبلاغة عِياً ، والرَّشاد غَياً ، والنَّشْر طياً ، والقَبول رَدّاً ، والوِصال صدّاً ، والتمام نُقْصاناً ، والرجحان وَكْساً (١) ، والتوجه استدباراً ، والتبسم استعباراً ، والربح خُسْراناً ، والزيادة نُقْصاناً ، والرِّضا سُخْطاً ، والأمر فُرُطاً (٢) ، والمستقيم محالا ، والثابت مزالا ، والطاعة ذنباً ، والإجابة قلباً . وعلى هذا إلى أن ينفد القول ، ويضمحل [٨٦ ب] الاسم ، ويبيد الفعل ، وينحرف الحرف ، وينسى التأليف ، ويطوى الضمُّ ، وينشر النشر ، وتفنى العبارة ، وتزول الإشارة ، وإلى أن يقال للقائل : قل فلا يقول ، ويقال للسامع : اسمع فلا يسمع ، ويقال للمتحرك : اسكُنْ فلا يترمرم (٣) ، ويقال للساكن : تحرك فلا يتهمهم (٤) .

يا هذا ! دع أيضاً هذا ، وتعالَ حتى نتعلّل كيفما خيلت . فكل حقّ مُعَلَّل ، وكُلُّ كثيرٍ مقَلَّل ، وكل عزيز مُذَلَّل . طيِّبْ بيتك الذى أنت ساكنه حتى تنعم بالحق مُدِلّا ، ولا يجاورنَّك فيه من لا تأمن غِيلته (٥) حتى تسلم على الخلق مُجِلاً ؛ ومهما سهوتَ عن شىء فلا تَسْهُ عنك ، فإنك إنما تَعْرِفُك بأن تسأل عنك وأنت المسؤول والسائل . هكذا رتبك الملك ، وبهذا أرادك

---

(١) الوكس : النقص .

(٢) فَرَط فى الأمر يفرُط : قصّر فيه وضيّعه .

(٣) يقال : ترمرموا : أى تحركوا للكلام ولم يتكلموا .

(٤) الهمهمة : الكلام الخفىّ ، وتنويم المرأة الطفلَ بصوتها ، وتردُّد الزئير فى الصدر من الهمّ ، وكل صوت معه بحح . والمقصود هنا : التحرك .

(٥) الغيلة (بكسر الغين) : الخديعة والاغتيال ؛ وقتله غيلة : خدعه فذهب به إلى موضع فقتَلَه .

المريد ، وإلى هذا دعاك الداعى . إلا أنك فى أحد طرفى السؤال والإجابة عبد ذليل ، وفى الآخر ربٌّ جليل . فافطُن لما فيك بما بك ، واحرُسْ بابك بما لك ، وغِزْ على مالك بما معك ، واصفُ بما معك لما عندك ، وأَضِفْ ما عندك إلى ماعند من هو عندك ، واطلع على الفضاء الذى بين ما ومَنْ ، ثم أَخْلِص إلى الغاية القصوى منهما بشيراً ونذيراً ، شاكراً وعذيرا (١) . على أنى بعيد الطمع من رشادك لانهماكك فى غَيّك وفسادك ، وشدة غُلَوائك فى أَخْذ عُدَّتك وعَتادك ، وإصلاح زادك فى يومك لمعادك . وإنما بَعُدَ طمعى لأنى أجدك مستهاماً بظاهر الحياة الدنيا ، مستهيناً بباطن ما أنت صائر إليه بعد هذا الذى ترى . وكيف لا أكون بعيد الطمع ، سيئ الرجاء ، كليل الأمل ، وليس على وجهك سَحْناء (٢) الزاهدين ، وعلى شمائلك سكون المُخْبِتين (٣) ، وعلى أطرافك خُشوعُ العابدين ، ولا فى حركاتك هدى الصادقين ، ولا فى كلماته صدق المهتدين ، ولا فى لحظاتك حلاوة المُشاهِدين ، ولا فى أوقاتك ما يَدُلُّ على أنك من المستيقظين ، ولا فى معاملتك ما يشهد بسلامة المُعاملين ! ظاهرُك أعبث من باطنك ، وباطنُك أخبثُ من ظاهرك ، وإشارتك أنكَدُ من عبارتك ، وعبارتك أفسد من إشارتك ، وكُلُّك مستغيث من [١٨٧] بعضك ، وبعضك هاربٌ من كُلِّك ، ولَيْلُك يضجّ من نهارك ، ونهارك يبرأ إلى الله من ليلك .

---

(١) العذير : العاذر ، والحال التى تحاولها تعذَر عليها ، والنصير .

(٢) السَّحْنة والسَّحْناء (ويحرّكان) : لينُ البَشَرة ، والنعمةُ ، والهيئة ، واللونُ .

(٣) اخبت : خشَع وتواضَعَ .

ثم إنك بعد هذا كله بصفاقة وجهك وبذاءة لسانك ، وقبحتك [١] فى سخف عِبادتك ، تدّعى منازل الصادقين ، وتبحث عن ضمائر النبيين ، وتسأل عن أسرار الملائكة المُقرّبين ، وتُهجِّن مراتب المختصين ، وتعترض على أفعال رب العالمين ، كأنك شريك له فى خلق الخلائق أجمعين ! سوْأةً لك ، وبراءة منك ، والويل لِمَنْ أجرّك رَسَنَك [٢] من قُرنائك .

أما تستحيي ممن خلقك فسوّاك ، وأرشدك فهداك ، وتممك وقوّاك ، وأعطاك وهنّاك ، ثم وعدك ومنّاك ، ثم خصّك واجتباك ، ثم عَلاك وحلّاك ، ثم رقاك وحيّاك ، ثم ملّكك وولّاك ، ثم أحضرك وآواك ، ثم استخلصك وتولّاك ؟ ! فأىّ أياديه قد شكرت ، وأىّ آلائه قد نشرت ، أم أى إحسانه ذكرت ؟ هيهات ! هيهات ! إنك لفى ضلالك القديم ، وخبالك العظيم . بالله أيها السامع لا يروعنك ما أصفك به مُهجّناً لك ، وخافضاً من قدرك ، وقادحاً فى عرضك ، وغامزاً فى فنائك ؟ فوحقِّ الحق الذى به حَقَّ كُلُّ حَقٍ ، وبه استحقَّ ما استحقَّ كُلُّ مُحِقٍ : إن مُكلمك لشر منك كثيراً ، وأقدم منك فى الضلال بعيداً ، وما ينطق بما تسمع إلا ليكون ذاك حجة عليه وَبالاً بين يديه . ولولا أن ذاك كذلك ، لكان له فى استماعه من نفسه شاغلٌ عن استماعه لغيره ، وهى محنة كما ترى وبلاء كما تسمع . فهلم فاندُبْه ، وإن كان حياً فى الظاهر ، فإنه ميت فى الباطن . وعدِّد مخازيه فإنها بادية ؛ وقل فيه ، فإن فيه مُتَّسعاً للمقال . واجعل إشرافك على تقصيره وإصراره وجهله بمقداره ، سُلّما لنفسك ، وباباً إلى طلب السلامة من جميع بنى جنسك . فإن واعظك إذا كان

---

(١) كذا ، فلعل أصلها : قبحك ، أو : قحتك .

(٢) أجرّه رَسَنَه : تركه يصنع ما يشاء .

بهذه الحالة المُخْزِية ، وعلى هذه المرتبة الهابطة ، فكيف حالُ من هو متمادٍ فى غروره ، متهالِكٌ [٨٧ ب] فى شروره ؟ عنده أن الحزم كله فى معاطاة الكأس بعد الكأس ، وشرب الخمر بعد الخمر ، ونيل الشهوة بعد الشهوة ، وبلوغ اللذة بعد اللذة ، ولو بَحْرق الدين ، ولو بمفارقة المسلمين ، ولو بترك الحياء بين جميع المُبْصِرين والسامعين ، ولو على رؤوس الأشهاد من الصالحين والطالحين . هذا والله الضلالُ البعيد ، والخُسْران المبين .

أيها السامع ! قد قلت ما تسمع واعظاً لك بالنصيحة ، وناصحاً لك بالموعظة ، وعاطفاً على نفسى بفضل القول لك ، وفيك . فإن كنتَ وجدتَ بَرْدَ ذلك فى صدرك ، وثَلَجاً[١] ببعض اليقين من نفسك ، فاتخذنى صاحباً لك ، لعلى أجد بذلك شيئاً مما وجدته ، ولعلى أنال به ذَرْواً مما نلته ، فإن أيادى الله مختلفة المصادر والموارد ، ومتباينة المبادئ والعوائد[٢] ، وليس بضائرٍ أن يُسْعِدنى الله بك لقبولك منى كما أسعدك بقبول ما نجع[٣] فيك من قولى . ولئن قلت ما قلت مزخرفاً ، وقبلت ما قبلت مخلصاً . فرحمك الله بى آخذاً بيدك ، ثم رحمنى محسناً إلىّ . إنما يجب أن يرفع الله درجتك عَلَى واعظك ، لحُسْن تقبلك ، ثم يجعلك مشفعاً فى واعظك . إن ذلك لشرف بيّن ، وكرامة عالية ، ومنزلة ما مثلها منزلة . اهـ .

فالبِدارَ أكرمك الله البدارَ ، إلى منازل الطاهرين الأبرار ، المخصوصين بالحق فى السِّرار والجِهار ، الصابرين للحق عند اختلاف الأحوال فى الاضطرار والاختيار ، والمَحَابّ والمَسَارّ .

---

(١) ثلجت نفسى (كنصر وفرح) ثلوجاً وثَلَجاً (محركةً) : اطمأنت ؛ وثلج (كخجل) : فرح .

(٢) جمع عائدة : فائدة .

(٣) ص : نجيع .

أيها الصاحب المدل بالملَح والمؤانسة ، الباعث على المباراة والمنافسة ، القائم بشروط الوفاء ، المتجلى بحقائق الصفاء ، الناظر إلى الدنيا بعين القلاء والعفاء ، فى زمان قد أفل فيه نجم الحق ، واجتُثَّ أصلُ الخير ، وغار ماء الإيمان ، وانمحى رسم الدين ، وتناسى فيه أهلُه العُرْفَ[1] ، وتلاقوا بينهم بالنُّكْر ، وسقط التعبير على التقصير ، [١٨٨] وَبطل التشمير بالتعذير . اسمع هينمة[2] نفس قد طال نزاعها[3] إلى وطن عنه صدرت آمنة مطمئنة ، ثم انقطعت دونه خائفة مرجحنة بألوان العجائب التى تقلبّت فيها ، وبليت بها ، وارتكضت عليها ، وتنكَّرتْ لها ، حتى ضلت عن عيْبها ، وغَرِقتْ فى رَيبها ، وباءت بسخط الله .

شرَّفها بالأمر والنهى فخالفت ، وعرَّضها للنعيم المقيم فأبت ، وأنِفَت . لا جَرَمَ الآن قد انتبهت لحظها الذى حُرِمَتْ ، ووقفت على جنايتها التى تقدَّمتْ . فهاهى ، دَهْرَها ، تسكبُ الدموعَ على فائتٍ ليس له رجوع ، وتتقطع حسراتٍ على هناتٍ كانت منها واهنات[4] . فهِجِّيراها[5] فى ليلها ونهارها قولها : إلهى ! بك أعتصم منى ، وإليك أفرّ عنى ، وإياك ألحظ بكُلِّى وبعضى ، وإليك أدين بتطوعى وفَرْضى ، وعليك أُقبِل بوجهى ، وعندك أهدأ بحقيقتى ، وأنت أحق بى منك[6] ، وأملكُ لى ، لأنك أَوْلَى وأحرى بالخلق .

---

(١) العرف : المعروف .

(٢) الهينمة : الصوت الخفىّ .

(٣) النزاع : الشوق .

(٤) ص : وهتان . ولم نهتد لوجهها فصححناها كما ترى .

(٥) يقال : هذا هِجِّيراه واهجيراه وهِجِّيره وأهجورته وهجرياه : أى : دأبه وشأنه .

(٦) كذا ، والأوضح أن يكون أصله : مِنّى .

وباطنى وظاهرى بالتصريف والتهيئة ، وحُلى وانتباهى بالعقيدة والطَّوِيَّة ، وفكرى وذكرى بالمعرفة والتصفية ، ووجدى فى وجدى بالحقيقة فى الحقيقة ، وروحى فى روحى عند الغاية المصدوقة ، ومرامى فى مرامى على الجرح والتزكية ، ومرادى بخالص القصد والنيّة ، ومنتهى عِنادى [1] وإيثارى بصادق البديهة والروية . فلا تصريح لى فيك إلا هو تعريض انبساطاً معك ، ولا تعريضَ لى إلا وهو تصريح غَيْرَةً عليك ، ولا إطناب لى فى نعت إلٰهيتك إلا لتشيع عنى ما وجدته بك ، ولا إيجاب لى فى وصف شأنك إلا لتغلب صبابتى فى كل مايكون خبراً عنك ، أونبأً بالإيماء إليك ، وهَمْساً فى الظن بك . أنت عِزُّ الكون ، ومالك الدهر ، ومُصَرِّف الكل ، ومُقَلِّب الكل ، ومبدى الدّق والجل . بل أنت الموجود فى كل شىء لا كما يوجد ما دام بك وافتقر إليك ، ولكن كما توجد أنت وليس واجدك سواك ... ... واجد بك [2] وواجد منك . فأما واجد بك ، فلأنه وجد عينه بك . وأما واجد لك ، فلأنه وجد وجده من أجلك . وأما واجد منك ، فلأنه وجد مابه وجد ما وجد من جهتك ؛ فأنت المحيط وأنت المشتمل ، [٨٨ ب] إلا أن أحاطتك بالقدرة واشتمالك بالمعونة ؛ وكلٌّ ماخلقك بالمجاز ، فلك بالحقيقة ؛ وكلٌّ ما لسواك بالأثر ، فلك بالعين . والإشارة التى هى إليك ، هى منك . والذاكر الذى هو لك ، هو بك . والوجد الذى هو منك ، هو بك . والوجد الذى هو بك ، هو منك . ولم تختلف هذه الحروف إلا لحاجة الخلق إليها فى الكون ، وإلا فالمعنى واحد مؤتلف متفِق لا يُرَنِّق [3] عليه لبسٌ ،

(١) ص : عبادى .

(٢) يلوح أن هاهنا تنقص الجملة : « وواجد لك » ، لأنها ترد بعدُ .

(٣) رنق عليه : رفرف ؛ رنق النوم فى عينيه : خالطهما .

ولا يمر به حن ولا أنس ، ولا يبتذله طرف ، ولا يؤثر فيه صرف ، ولا يوضحه لهم [1] ولا فعل ولا حرف .

أيها السامع هذه الغرائب ! جهْد الجاهد فى معرفته نكرة ، وبلوغ الغاية فى وَصفه حيرة ، وفى الإعراض عنه [2] بوار وتلف ، وفى التعرض له عناء وكَلَف ، وفى التذبذب بين الإعراض والتعرض أسى وأسَفٌ ، وهلاك وتلف . فوا عجباً منى !

صرتُ كأنى ذبالة نُصِبَتْ تضىء للناس وهى تحترق [3]

يا هذا ! لو غفَل الرقيب قليلاً لاستمع [4] الطرف باللحظ ؛ ولو برَد الغليلُ قليلاً لانتفع القلب بالوعظ ؛ ولو سكن لهيب الشوق لسلك الطريق إلى الحبيب ، لأن الشوق إذا استوعب المشتاق حَصَرَه عن قصد مَنْ إليه طال الاشتياق . على أن السُّلوَّ معترِض ، واليأسَ متحكِّم ، والصدر خافق ، والعجز حاصِر ، والمُنى خطر [5] ، والقول فصل ، والنصيب عدل ، والبال كاسف ، والمَحلّ حَرِج ، والعادة مُسَلَّطة ، والقرين خاذل ، والطريق وَعْر ، والزاد نَزْر ، والعهد منكوث ، والسير محثوث ، والمانع مبثوث ؛ والرائد كذوب [6] ، والمحرك خلوب [7] ؛ والأنف راغم ، والهوى مسئولٌ ، والظاهر مُعَلَّل ،

---

(١) كذا فى الأصل ! ولعل صوابه : اسم .

(٢) البوار : الهلاك .

(٣) بيت شعر للعباس بن الأحنف ، وقد مرّ من قبل .

(٤) كذا ، ولعلها : استمتع .

(٥) ص : حطر .

(٦) إشارة إلى الحديث النبوى : الرائد لا يَكْذِبُ أهله .

(٧) خلب (كنصر) خَلْباً وخِلابة وخِلاباً : خدعه كاختلبه وخالبه . فالخلوب هو الخادع . والمحرك يقصد به : من يحثك على فعل شىء .

والباطن مُخبَّل ، والقائل متأوِّل ، والسامع متحوِّل ، ووراء هذا كله مُتقَوِّل ومُتَقوَّل . أيها الراغب فى العاجلة ، الزاهد فى الآجلة ، المغتر بآل[١] الضحى ، الغافل عن دَوْر هذه الرَّحى ! ما هذا التغير الذى أنت آلفه ، وما هذا السهو الذى أنت مُخالفه ، وما هذا [١٨٩] الإصرار الذى يُخْبِط الأصل والفرع ، وما هذا التسويف الذى يخالف العقل والشرع ، وما هذا الرأى الذى عاقبته الويل والحَرَب[٢] ، وما هذا السعى الذى قد بار[٣] باللهو واللعب ؟ ! انتبه يا غافل !

(١) الآل : السراب .

(٢) الحرب : مصدر حَرِب (من باب علم) : الويل .

(٣) كذا ، ومعنى بار : بَطَل وفسد . ولعل أصله : باء .

استعلام الفطانة من الإشارات الإلهية

أيها الصاحب المحاوِر، والصديق المجاور! كيف أتكلم، والفؤاد هائم بكل واد، والخاطر خال من كل حادٍ وهادٍ؟ أم كيف أشكو، والسر ظاهر بادٍ؟ أم بأى شيء أتعلل وكل ما أجده مُرَدَّد ومُعادٌ؟ أم على مَنْ اعتمد وكلُّ أحد أراه فهو لى ضِدٌّ ومُعادٍ؟ أنفاسى متحرقة بالحسرات، ودموعى مترقرقة بين النَّعَرات [1] والزفرات، وكبدى مشتعلة على المناظر والهيئات، ويقظتى جارية على الرسوم والعادات، وأحلامى عارية من كل ما له حاصل وثبات، ونفسى رهينة بالسيئات، مفتونة بالسوانح والخَطَرات، مغبونة عن الحسنات والصالحات.

الجهات دونى منسدّة، والوجوه أمامى مُسْوَدَّة. إن قلتُ، قيل: هذا زورٌ وبهتان؛ وإن أشرتُ، قيل: هذا [2] بَوْرٌ وعُدوان؛ وإن سكتُّ، قيل: هذا سهو ونسيان. فليت من ابتلانى بما لا طاقة لى به، رحمنى بما لا غنى لى عنه؛ أو لَيْتَ من طردنى عن بابه، أهّلنى لعتابه؛ أو ليت من جرّ عنى مُرَّ فراقه، أخطر على بالى حلاوة لقائه. أو ليت من غمسنى فى بحر البَلْوى، طرحنى إلى ساحل المنى. أو ليت من حطّنى عن درجات المخدومين، رقّانى إلى مقامات الخَدَم. أو ليت من حظر على البَسْط عنده، لم يحظر علىَّ التبصبص [3] له. أو ليت من قطع عنى عادتى منه، لم يُملِّكْ مقادتى غيره. أو ليت من منعنى بَرْدَ الرضا

(١) النعرة: صوت فى الخيشوم. أما النُّعَرة (كهمزة) فمعناها: الخيلاء والكبر والأمرُ يُهَمُّ به.

(٢) البَوْر: الهلاك.

(٣) بصبص الكلبُ: حرّك ذنبه. وهنا يقصد: الاحتفال والتعلق.

لم يشوني بجمر الغضا . أو ليت من تركني هكذا سُدى [٨٩ ب] ، لم يفضحني في مجالس العِدَى [١] » !

آه من أنفاسٍ تتحقق بأسرار الحق في عرَصات الغيب على بُسُط التململ ، حيث ليس للعبارة فيه نصيب ، ولا [٢] للاشارة فيه تقريب !

آهٍ من قول مردوم ، وقائل محسود ، وقاصد مطرود ، وباذل مجهود ، وسائل محذود ! آه من زمان متنكر ، وصديق متغير ، وعدوٍّ متنمِّر ، وجارٍ متنمر ، ومعامل مُسْتَنْفِرٍ !

آهٍ في الجملة من مكان نابٍ بالمستوطنين ، ومن مسؤولٍ آبٍ للسائلين المستعطفين ! إلى من يفزع طريدُ المحبوبين ؟ وبماذا يحتج من زُجِر عن محل الحاضرين ؟ وإلى ماذا يلجأ من غُمِرَ بالظلام ، ومنع من الاستراحة إلى الأماني والأحلام ، وجعل آية بين هذا الأنام ؟ إذا ظهر بصفاته التي أُعيرها قمعوه ، وإذا تفرق في زخارف الملك جمعوه . فإذا سأل رَوْح ساعة في العمر منعوه ، وإذا غاب بأشجانه وأحزانه شيَّعوه ، وإذا حضر برفقه ولطفه شمَّتوه [٣] وأسمعوه . فكله من بعضه في بلاء ، وبعضُه من كله في عناء ، وآخره مع هذا وغيره إلى شقاء . إن وَصَلَ هُجِر ، وإن سأل زُجِر ، وإن ادّعى طولب ، وإن استرسل عوتب ، وإن قال : لا أدري ! قيل هذا تحاجز ، وإن قال : أدري ، قيل هذا تعزز ، وإن ولّى استقبلوه ، وإن أقبل وَلَّوا عنه . عِنادٌ ولكنه عجب ، وكناد [٤] ولكنه ذو طرب ، وعَنوة [٥] ولكنها ألذ من الصلح ، وغُرْبة ولكنها

(١) الأعداء .

(٢) ص : وإلا .

(٣) شَمّت فلاناً : خَيّبه .

(٤) كنادّ : كنود : كافر بالنعمة .

(٥) العنوة : الاغتصاب والقهر .

أطيب من الوطن ، وغضَب ولكنه أحلى من الرِّضا ، وحرمان ولكنه أرْوَحُ من العطاء ، وجفاء ولكنه ألطف من البِر ، ورَدٌّ ولكنه أشرف من القَبول .

يا هذا ! إن الحقّ ما نبّهك على هذه الغوامض إلا وقد قدّسك عن سائر العوارض ، وما هتَك دونك هذه السواتر إلا وقد أطلعك على تلك السرائر ، ولا أوحشك من رق العبودية إلا وقد هَيّأ لك خِلْعة الحرية ، ولا كدّرك بما يصحّ منه فى هذا الشاهد إلا وهو يريد تصفيتك فى ذلك الغائب . أما لك فى هذه الأحوال العجيبة فطانةٌ ! أما لك من لُبِّك وتجربتك ظهارة أو بطانة ؟ أما لك مما ترى فيما لا ترى عِبْرة [١٩٠] ؟ أما لك مما تشهد بما لا تشهد خِبْرة ؟ أما لك بما تجد بما لا تجد حجة أو عِذْرة[١] ؟

ياهذا ! إنك لمراد بأمر عظيم ، ومرُشَّح لسر مكتوم . فالجِدَّ الجِدَّ ! فكأنك وقد بلغت الحد إنما هى حياة ذات أنفاس ، وحال دائرة بين طمأنينة ووَسْواس . فإن أغضيت عنها آنفاً منها ، ولم تحلم بها عائفاً لها ، ولم تكمد عليها مستغيثاً بما فوقها ، رفعوك إلى حظيرة القدس وتوجك[٢] بتاج الروح والأنس ، ورَدّوْك[٣] رِداء المخصوصين ، وأنْسَوْكَ جميع ما قاسيته بين العالمين ، وخاطبوك بلفظ التشريف ، وأعفَوْك من كل توقيف وتعنيف ، وقيل لك : تحكم باقتراحك فلا حائل بينك وبين أمنيتك ، وابلُغْ غاية ما تجد بوهمك فلا خيبة لك بعد ما سلف منك . فى أيامك ما غنى[٤] بأسرار صدرك ، فطالما تكسرت فى حجب الكتمان عندك ، وكل ذلك كان بعيننا وتحرُّكنا . أولك وآخرك

(١) العذرة (بالكسر) : المعذرة (مثلثة الذال) .

(٢) كذا فى الأصل ، ولعل صوابه : توجوك .

(٣) ردّيته الثوب تردية : ألبسته إياه .

(٤) ص : ماغنا .

فيها ولو شئنا لكفيناك ، ولكنا رقيناك بما صفيناك ، لتكون عندنا[1] على ما أردناك . وإن أنت لم تُغْضِ عن هذه الزهرة الحائلة ، ووَكَلْتَ بها طَرْفك وقَصَرْتَ عليها سعيك ، وجعلتها همَّك وبالك ، ووهبت لها سرك وجهدك ، جعلوك حَطَبَ جَهَنَّم . وحينئذ لا أبعد الله غَبَرَك[2] .

اللهم إنّا نرتاح لذكرك على تَلَوُّننا فى مخالفتك[3] لك ، ونرتاع من مكرك على علمنا بجودك وكرمك . فهب ارتياعنا من مكرك لارتياحنا لذكرك ، وزِدْنا من عندك ما هو لائقٌ بمجدك ، ولا إذْنَ لنا فى طلبه منك . جودُك أسبق إلينا بفنون العطاء من تضرُّعنا إليك بأصناف الدعاء . مننت علينا فى الأول فكان ذاك كما منك ، وستمُنُّ علينا فى الآخر بمثله لأن آخرك شبيه بالأول ، وأولك شبيه بالآخر ، بل أولك آخرٌ وآخِرُك أول . فمَنْ كُلُّه واحد ، وهو على ذلك شاهد ، كيف يخاف عليه ، أم كيف يرتاب بما عليه ، أم كيف يقنَطُ من رحمته ؟ « ومَنْ يَقْنَطُ مِن رَحْمَةِ رَبِّهِ ، إلا الضَّالُّونَ ! »[4] .

إلهنا ! نحن عبيدك ، متصرفون على إرادتك ، مُتَقَلَّبون بين مشيئتك وحكمك ، مترددون بين قدرتك وحكمتك ، آملون روادفَ عطفك [٩٠ ب] ورحمتك ، معترفون بسوابغ نعمتك وإحسانك ، خائفون من عواقب سطوتك ونقمتك . فقلِّب ، يا إلهنا ! رجاءنا على يأسنا ، وغيِّب خوفنا فى إيتاء أمْننا ،

---

(١) أو : عبدنا به .

(٢) الغَبَر (محركةً) : التراب ، ولعل هذا كناية عن الشخص نفسه أو أثره . يعنى : لا أبعد الله شخصك .

(٣) كذا ، ولعل أصله : مخالفتنا لك .

(٤) سورة « الحجر » : آية ٥٦

واهتِفْ بنا إذا سهونا ، وأيقِظْنا إذا رقدنا ، وادعُنا إذا أفَرْنا[1] ، وارؤف بنا إذا ضعفنا ، وشرِّفنا إذا اتضعنا ، وأورِدْنا إذا ظمئنا ، وأوقدنا إذا طفئنا ، وأطْيِبنا[2] إذا خبُثْنا ، وتألَّفنا إذا شرَدنا ، وتكرَّم علينا إذا لؤُمْنا ، وذكِّرنا إذا نسينا ، ولطِّفنا إذا كثُفْنا ؛ وفى الجملة ، قربنا منك إذا بعدنا عنك ، وصِلْنا بك إذا انقطعنا عنك ، فإنك مالِكُ نواصينا فى الشهادة والغيب ، ومُدَبِّر أدانينا وأقاصينا فى الرَّوْح والكَرْب .

إلهى ! كلُّ ما أقوله فأنت فوقه ، وكلُّ ما أُضمِره فأنت أعلى منه ، فالقول لا يأتى على حقك فى نعتك ، والضمير لا يحيط بكنهك . وكيف نقدر على شىء من ذلك ، وقد ملكتنا فى الأول حين خلقتنا ، وقدرت علينا حين صرفتنا ؟ فالقول وإن كان فيك فهو منك ، والخاطر وإن كان من أجلك فهو لك . من الجهل أن أصف بغير ما وصفتَ به نفسك ، ومن سُوء الأدب أن أعرِّفكَ بغير ما عرَّفْتنى به حقيقتك ، ومن الجُرأة أن أعترض على حُكْمك وإن ساءنى ، ومن الخِذْلان أن أظُنَّ أنَّ تدبيرى لنفسى أصلحُ من تدبيرك . كيف يكون هذا الظن صوابا والعجز منى ظاهرٌ ، والقدرة منك شائعة ؟ ! هيهات ! أسلمتُ لك وجهى سائلاً رِفْدَك ، وأضرَعْتُ[3] لك خدّى طالباً فضلَ ما عندك ، وهجَرْتُ كل من ثَنَى[4] بى إلى غيرك ، وكذَّبْتُ كلَّ من أيأسنى

(١) أفر يأفر (من باب ضرب) أفراً وأفوراً : عدا ووثب .

(٢) أطيبه : جعله طيباً .

(٣) أضرع له مالاً : بذله له ؛ أضرع فلاناً : أذلّه ؛ فالمعنى هنا : بذلت وأصغرت لك خدّى . وفى الأصل : أصرعت (بالصاد المهملة) ، فإن كان ذلك هو الأصح ، فمعناه جعلته لك صريعاً ، أى مطروحاً خاضعاً .

(٤) ثنى به : انحرف ومال وجنَح .

من خيرك ، وعاديت فيك كلَّ من أشار إلى سواك . أنا أنسى ما جُدت به علىَّ فى القدم ، حيث أنا ليس [1] وفى العدم ، ثم ربيتنى بين القِسَم والنِّعم ، ثم ألبستنى قميص معرفتك ، وفغَرت [2] فمى بذكرك ، ثم أكملتنى [3] بمناجاتك ، ثم أذنت لى فى الدعاء لك ، ثم أمرتنى بالدعاء إليك ، ثم رشحتنى لحفظ أسرارك ، وأطلعتنى على نجودك وأغوارك بغرائب أخبارك وآثارك . إنى إن نسيت هذه اللطائف ، [١٩١] وسَهَوْت عن هذه الطرائف ، لمِمَّن لا خير له فى حياته ، ولا زاد له بعد مماته .

اللهم إنَّا إن ذكرناك فبتوفيقك ، فإن [4] وصفناك فبتأييدك ، وإن لُهينا عن بعض ذلك فلنفوذ حكمك فينا وأمرك . أيها الأخ الراغب فى الخير ، والصاحب المُجانِبُ للشر ! إن تكفلتُ لك وصفى ووصفَ زمانى وزمانك ، وما قد دُفِعنا إليه فى شأنى وشأنك ، كان ذلك شاغلاً للوقت عما هو أَوْلىٰ به ، وأعْوَدُ إلينا بالجدوى منه . فتعالَ حتى لا نشتكى ولا نتألم ، ونهب أنفسنا لبلايا < غير > هذه ، فمن قليل ننتقل إلى ما تعلم وأعلم . فليس من المروءة أن نشكو صديقاً إذا قصَّر ، ولا من عِزَّة النفس أن نجزع من عدوٍ وإن بالغ . وما فقر أيام ، وبؤسُ ساعات ، وتغيُّر إخوانٍ ثقاتٍ وغيرِ ثقاتٍ ، حتى يصح هذا الصحيح ونفنى زماننا بالأسى على الفائت ! ما أحوجنا — عافاك الله — إلى الإعراض عن هذه الأعراض والأمراض ، بالإقبال على ما فيه إعداد الزاد للمعاد ! فمن قليل تقف هذه المطية بالكلال فننزل عنها إمّا إلى الرشد والغبطة ،

---

(١) ليس : معدوم .

(٢) فغره (من بابى قطع ونصر) يفغره : فتحه .

(٣) ص : ألملتنى ؟

(٤) كذا ، ولعل أصلها : وإن .

وإمّا إلى البلاء والوَرْطة . فهلمّ أيها الإنسانُ حتى لا ننطق إلا بما فيه فائدة ، ولا نعمل إلا ما له ثمرة وعائدة ، وندع الدنيا حتى تجمح بأبنائها وعُشقائها ، ونكون نحن من عُتقائها وطلقائها .

أيها الإنسان ! تنبّه فقد طالت الرَّقْدة ، وانتعِشْ فقد استمررت فى السَّقْطة ، واستأنس فقد أفرطت فى الوَحْشة ، وخذ حِذْرَك فقد أحاطت بك الشِّقْوة ، واسلك (١) نفسك من نفسك تنج نفسك من نفسك لنفسك . فما بعد الفضيحة التى أنت عليها فضيحة ، ولا بعد النصيحة التى تسمعها نصيحة !

اللهم اغننا بتنبيهك عن تنبيه خَلْقك ، وغَيِّبْنا فى مَشْهد رِضوانك عن عبادك ، وأشْهِدْنا فى غيب ملكوتك كلّ ما غاب عنا باحتجابنا عنك ، واغضُضْ أبصارنا إلا عن النظر إلى وجهك ، وازمُمْ خواطرنا [٩١ ب] إلا من السنوح فى مُرادك (٢) لإلهيتك ، واجعل أول قولنا عندك : « الحمدُ لله الذى أذْهَبَ عنَّا الحَزَنَ ، إنَّ ربَّنا لغفورٌ شكُورٌ (٣) » .

اللهم إنا ربّما تركنا دُعاءك وقد علمنا أنّا إذا كنا فى وصفك فقد استغرقنا ذاك وتجاوزنا مما هناك ، لأن وصفك بما أنت أهله فوق دعائنا بما نحن نطلبه ، وإنما دعاؤنا حظ لنا منك ، ووصفنا لك نصيبك منا . وإذا وافقناك فيما تستحقه واصفين ، قابلتنا عليه بما نأملُه وبما لا نأمله غير داعين . ونحن إذا وصفناك فإنما نستنشق نسائم ربوبيتك من أوطان

---

(١) كذا ، ولعل الأصح : اسلُلْ ، ومنه قول امرئ القيس فى معلقته :

فسُلّى ثيابى من ثيابك تَنْسَلِ

(٢) المراد (بالضم) والمستراد : الموضع الذى ترسل فيه الإبل للرعى مقبلةً ومدبرة .

(٣) سورة « فاطر » : ٣٤

معرفتك بوسائط هدايتك . وإذا دعوناك فإنما نشكو إليك دوينا [١] الجاثمة على قلوبنا من خوف فِراقك ، ومع هذا وذلك فإنا نسألك .

اللهم [٢] أن تَقبَلنا على عِلّاتنا ، وأن تَسُدّ منا خَلّاتنا ، وأنْ تقيلنا [٣] عثراتنا ، وإن تَسْتُرَ علينا عَوْراتنا ، وأن تُبَدّل سيئاتنا حسناتٍ ، وأن تُغْضِى عن هفواتنا ، وأن تهب لنا رضاك منا فى جميع حالاتنا ! فحاجتنا إليك فوق حاجة النبات إلى القَطْر ، وفوق حاجة الموتى إلى الرَّوح ، وفوق حاجة الطالب إلى الوِجْدان [٤] .

اللهم فاجعل قولنا لك مسموعاً ، وفِكْرنا فيك مرفوعاً ، ودعاءنا لك مُجاباً ، وعلمنا بك صواباً ، وغَيْبَتنا فيك صادقة ، وشواهدنا بآلائك ناطقة ، وآثارك عندنا باقية ، وأياديك لدينا صافية ، وألسنتنا بذكرك [بذكرك [٥]] مأخوذة ، وبصائرنا فى اليقين مشحوذة . ياذا الجلال والإكرام !

رسالة (ال)

اللهم حِطْنا حياطةً لا يهتدى من أجلها عدوُّها إلينا ، وأَحِطْ بنا إحاطة تستهلّ بها سماء جُودك علينا ، وآتنا منك مالا نتوقعه ولا نحتسبه ، وصِلْنا من فضلك بما لا نستحقه ولا نكتسبه ، وكن دليلنا ، وأنْهِج [٦] سبيلنا ،

---

(١) ص : دوننا . والدوىّ يظهر أنه جمع داء : مرض . أو لعل الأصل : ذنوبنا .

(٢) هنا أضمر قوله : إنا نسألك ، أى : اللهم إنا نسألك أن . . .

(٣) من : أقال الله عثرته : أنقذه منها .

(٤) مصدر من : وجد الشىء يجده .

(٥) كذا مكررة فى الأصل .

(٦) أَنْهَجَ : أوْضَحَ .

واحفظ كثيرنا، وكثِّر قليلنا، واشفِ عليلنا، وارحم أنيننا وأليلنا[١]، وامدُدْ حَوِيلنا[٢]، وواصل تخويلنا وتنويلنا. إنك أهل كل جود، [١٩٢] وراعى كل موجود. وإذا أردت بنا ما لا طاقة لنا به، فاصرفه عنا بنظرك الرحيم، ورِفْقك القديم، وعِزّك العظيم، فإنا إليك ذوو فقر، وأنت عنا غنىٌّ كريم.

يا هذا! لُذْ بالله مجتمعاً عن تفرُّقك، واضرَعْ إليه منظوماً عن أشتاتك[٣]، واعرِضْ عليه ذاك الذى خفْت منه فَناءك، وغمِّض عن كل زهرةٍ راقتك فى هذه العَرْصة، لعلك تُؤهَّل لما هو أرأف منها وآنق — فما تناهت القدرة ولن تتناهى. إن عرفت فحوى هذا الخطاب فقد نجوت من عُقبى هذا الخَطْب؛ وإلا فأنت العَطِبُ المشموت به، والطالح المذهول عنه. قال:

فإن تَنجُ منها تَنجُ من ذى عظيمةٍ وإلا فإنّى لا إخالُك ناجيا

رجل ضعيفٌ، وهاجرة مُحْرِقة، وبرٌّ قفر، وعطش قديم، ورشأ[٤] قصير، وعمق بعيد. كيف الوصول إلى الرِّىّ والحال هذه! آه! الآن توافيك معونةٌ ممن أنت تميمنه: فيبرق الجو، ويبعث النسيم، ويُندّى الهواء فيصل إلى كبدك ما تنعم به؛ ولعلك تستقل بوجدانه، وتستغنى عن فقد ما أنت مُبتلى بطلابه. فيا لها راحة وسكونا وقُرّة عينٍ وطيبَ نفس وبلوغَ مراد، إن جعلت

(١) ألَّ المريض والحزين يَئِلُّ ألًّا وألَلاً وأليلاً: أنَّ، وحَنَّ، ورفع صوته بالدعاء، وصرخ عند المصيبة.

(٢) الحويل والمحالة والحيلة والتحيُّلُ: الحِذْق وجودة النظر والقدرة على التصرّف.

(٣) ص: أسبابك. لكنا رأينا أن الأصح هو ما أثبتناه، بدليل قوله قبلُ: تفرقك.

(٤) الرشأ: حبل الدلو، وقصر الرشأ: كناية عن قصر الباع.

لهذا الذى سمعته أهلاً . ولست تكون هذا المذكور بهذا الوصف إلا بعد أن تُطلِّق الدنيا ثلاثاً ، وتُعْرِضَ عنها طلقا ، ثم تقبل على طليق نفسك من شهواتها الذميمة وعاداتها الفاسدة وقرنائها المُضَلِّلة ، ووسواسها[1] الباطلة ، ثم تأخذ بعِنانها نحو الذكر واللَّهج به ، والطَّوف عليه ، والاشتمال عليه ، والصدق والإغراق فيه ؛ ثم تجعل عمرك نوماً ، ونومك حلما ، فلا يقظة لك بعد ذلك إلا عند الله الذى إليه طال شوقُك ، وبه هام فؤادك ، ومن أجله هجرك أقربوك ، وبسببه عاداك مُحِبُّوك . ذاك الذى لا تخسر تجارتك معه ، ولا تبور بضاعتك[2] عنده ، ولا تخشى نفاد ما يعطيك ، ولا ترى خُلفاً فيما سبق إليك به وعده . وهناك تعلم أنك به وصلت [٩٢ ب] إليه ، وبتوفيقه نلت مَرْضاته ، وبنعمته تهنأت بنعمته ، وبقدرته اطَّلعتَ على قدرته ، وبحكمته وصلت إلى حكمته . وهناك تعلم أنك كنت منصوحاً بداعيك إلى بابه ، ومكتوفاً بأياديه عند استجابتك لأمره ، ومشهوداً بما شهدت فى الثانى بإشهاده ، ومرفوداً بما انتهيت إليه من إرفاده .

أفما تحب بعد هذا البشير والنذير ، أن يكون لك من نفسك ناصح وعذير ؟ أفما ينبغى بعد هذه العثرة بعد العثْر أن يكون لك انتعاش واستقلال ؟ أفما تحن بعد هذا التلطف والترفق إلى قرارك الذى لا فرار لك دونه ؟ بلى ! والله ، قد آن وقته ، وانكشف غطاؤه ، واتضح سبيلُه ، وأبلغ داعيه ، ومدَّ الصوت مناديه ، ولم يبق إلا : لَبَّيك وسَعْدَيك ، فإن الخير كله بيديك ولَدَيْك .

يا هذا ! إن كنت غريباً فى هذه اللغة فاصْحَبْ أهلَها ، واستَدِمْ سماعها ، واشغَلْ زمانك باستقرائها واستبرائها . فإنك بذلك تقف على هذه الأغراض

(١) كذا ، ولعله : ووساوسها .

(٢) فى الأصل : قضاعتك .

البعيدة المرامى ، السحيقة المعامى [١] ، لأنها إشارات إلٰهية وعبارات إنسية ، إلا أن العبادات [٢] الإنسية ليست مألوفة بالاستعمال الجارى ، وأنت محتاج إلى أن تألف فى الأول بطول السماع ، ثم تتصعّد من ذلك إلى الإشارات الإلٰهية بسط الذراع ورَحْبِ الباعِ ولُطْفِ الطباع . وما أحراك بنيل هذا كله إن خَلَصْتَ نيتك من شوائبها ، ونقيت طَوِيّتك من روائبها [٣] ! فأما شوائبها التى وقعت الصَّرِيحة [٤] بها فهى تَرَجْرُجها وتمجمجها بخطرات الدنيا وبلايا هذه الحَسَاسات التى تُرى تارة بالعين ، وتُذاق تارة بالفم ، وتُلمس تارة باليد ، وتُتمنى تارةً بالقلب ، ويُهجر من أجلها القريب ، ويُقطع الرَّحِمُ ، ويجاب البلد النازح ، ويُتَوَخّى بالسانح والبارح ؛ وهذه كلها متعرّقات النيّات . — وأما روائبها [٥] التى سلفت الكناية عنها فهى نظائر الشوائب ، إلاّ أن مداخلها ربما اختلفت ، ومآتيها ربما تشابهت . فالحازم مَنْ أخذ زِمامَ فكره فكبحه عن سبيل غيه ، وجذبه إلى طريق رُشده ، [١٩٣] فإن الخطر عظيمٌ شديد ، مُتضاعَف صعب . وإنما هان النظر فى هذه العقبى لسواتر الغفلة التى هى من سُوس [٦] الفطرة ومن تُوسِ [٧] البِنْية ، ومِن كَدر الطينة ، ومن تشاكس الخليقة .

---

(١) المُعَمّيات .
(٢) كذا فى الأصل ، ولعل الأصح : العبارات (بالراء) .
(٣) أى : مما يريبها ويجعلها متهمة .
(٤) كذا فى الأصل وهى غير واضحة تماماً .
(٥) ص : روايتها .
(٦) السوس (بالضم) : الطبيعة والأصل .
(٧) التوس (بالضم) الطبيعة والخيم (الأصل) ؛ ويقال : هو من تُوس صِدق ، أى : أصل صدق . وتُوساً له وجوساً : دعاء عليه .

وكيف لا يكون الخطر على ما وصفت ، والمُنال منه فوزُ الأبد ونِعَم الدهر ورضا الرب واتصال البقاء وطيب العيش ورَوْح الحياة ، والفائت منه خُسْرُ الأبد وشقاء الدهر وسخط الرب واتصال الشِّقوة وخُبْثُ العيش وكَرْب الحياة ! ثم لا واسطة بين هذين بوجهٍ ، < و > كما لا واسطة كذلك أيضاً لا طَرَف ، لا من هذا الوجه ولا من ذلك الوجه . فما أولى اللبيب المتبصّر فى أمره ، المَعنِيّ بشأنه ، المفكرُ فى مآله ومَرَدّه وعاقبته ، أن ينقيَ عينه من قذاها ، ويتحمّل فى هذه القصة بعضَ بلواها ، فإنه إذا فعل ذلك فقد أخذ بالحزم : حزمِ أهل العقل ، وفاز بالعزم : عزمِ أولى الفضل .

ما أشوقنى والله إلى أن أرى مُريداً له من القراءة وِرْدٌ ، ومن الركوع والسجود وظيفةٌ ، ومن الصمت والفكر قِسْطٌ ، ومن التسبيح والتهليل ساعةٌ ، ومن التفكر فى الملكوت سَهْمٌ ، ومن الرغبة فى الموعود حِرْصٌ ، ومن الإشفاق من الوعيد فَرَق ! هذا ، والله ، أضعف شوق وأقله[1] ، وأنزر حنين وأقله[1] . فأما الشوق الأعظم ، والحنين الأعمُّ فإنما هما إلى عارف قد تربّع إلى سرير الرضا ، واطمأنّ إلى ركن الثقة بالمولى ، وشهد الغيب من وراء سِتْر الضنا . فإن قال فعنه ، وإنْ سكَتَ ففيه ، وإن تحرك فله ، وإن سكن فبه ، وإن اشتاق فإليه ، وإن تهالك فعليه . له مع نفسه شأن ، ومع الحق شأن ، ومع الناس شأن : فأما شأنه مع نفسه ففى تصفيتها مِنْ كَدَرٍ حَجَبَ من الله ؛ وأما شأنه مع الحق فاستملاؤه منه كلَّ ما سهّلَ الطريق إلى الله عز وجل ؛ وأما شأنه مع الناس فكلُّ ما عاد بالجدوى عليهم من الرقة والرحمة

---

(١) كذا : أقله ، فى كلتا الحالتين .

والرأفة واللطافة عند الدعاء إذا تكرّر منه ، وعند الإباء إذا تردد منهم [1] . فهذا أيضاً هذا .

يا هذا ! ما قَيَّضَنِي الله بنطق [٩٣ ب] لك على هذا التهذيب والتقريب ، وعلى التصعيد والتصويب ، إلا لتكون حجة عليك إن لم تقبل ، ومحجةً لك إن قبلت . فإن قلت لى أيضاً على وجه العذر [2] فهو أيضاً حجة عليك ومحجة لك ، فقد صدقت وما أحلت [3] . ولكن أين أنت منى ، ومن أين تقف على خبرك عنى ؟ أنا نطقت بهذه الألغاز بعد سبعين سنة وقد تحطمت قَنَاتى وتكمشت شَواتى [4] ، وتفللت صَفاتى [5] ، واضمحلت صِفاتى ، وبليت لُحْمتى وسَداتى ، وفقدت شهواتى ولذّاتى ، ومُنيت بموت أحبتى ولِدَاتى ؛ فنطقتُ وغالبُ الهوى مغلوب ، وشاردُ الحزم مألوف ، وغُراب العزة واقع ، وجناح الكِبْر مكسور ، ورَبْع اللهو طامس ، وماء الشبيبة ناضب ، وهدير العادل

---

(١) ورد هذا الموضع هكذا فى الأصل : إذا تردد منهم . فهذا أيضاً . يا هذا ! ما قيضنى الله بنطق لك على هذا الإباء إذا تردد منهم . فهذا أيضاً هذا يا هذا ما قيضنى الله بنطق لك على هذا التهذيب والتقريب . . .

(٢) ص : العنه .

(٣) أى لم تقل محالاً .

(٤) الشواة : جِلْدة الرأس .

(٥) الصَّفاة : صخرة ملساء ، يقال فى المثل : ما تَنْدَى صَفاته ؛ وفى حديث معاوية : يضرب صَفاتها بمعوله ، هو تمثيل ، أى : اجتهد عليه وبالغ فى امتحانه واختياره ؛ ومنه الحديث : لاتُقْرَع لهم صَفاة ، أى لاينالهم أحدٌ بسوء . والمقصود هنا : تشقق وانحل كيانى .

ساكن، وعُود الهوى عاسٍ[1]، ورَوْض المنى خاوٍ، وبَصَر الغيّ مكفوف، وريش الغرامة منتوف، وعازب العقل رائح، ورائح الجهل سارح. وأين أنا منك، وأين أنت منى! فهذا جوابك التى[2] أجابنى إليه بغيتك.

فأما ما وراء هذه مما هو عند الله، من القبول والرد، والذم والحمد، فذاك سِرٌّ لا تمرّ بجنباته، ولا تتعرض لِهَنَاته، لأنه من الأمور التى له فيها إمضاء وتوقيف، وإنهاء وتعريف، وإرعاء وتصريف. وإنما الذى هو علينا بحكم العبودية، وبعجز البشرية أن نقف عند الأمر إذا صدر، وعند النَّهى إذا وَرَد، فنجرى فيهما بالامتثال والانتهاء، لنكون بهما طائعين، وإلى غاية طلبه منّا جارين، وفيما يعرض لنا من التقصير مستغفرين، وفيما يصفو من الشاكرين، وفيما يكدر من الخائفين.

يا هذا! قد سمعت فنوناً من القول فى المعرفة والتوحيد، والتوكل والزهد، والعبادة والوجد، والشكر والصبر، والوسوسة والخَطْرة، والدعاء والمناجاة، والتفويض والتقييض، والرضا والسخط، والورع والتقى، والحجا والنُّهى، والرقدة والهَبّة، والمراد والمريد، والصلاح والفساد، [١٩٤] والسر والجهر، والقرب والبعد، والانبساط والانقباض، والإقدام والإحجام، والبلاغة والبِرّ، والريا، والإخلاص، والتحقيق والتلبيس، والتخنيق والتنفيس، والتكدير والتخليص، وماهو فوق هذا بدرجات، وماهو دون هذا بمسافات[3] —

(١) عسا الشيخ يعسو عَسْوا وعُسُوّاً وعُسيّاً وعَساء، وعَسِى عَسىً: كبر. وعَسا النباتُ عَساء وعُسواً: غلظ ويبس.

(٢) كذا فى الأصل!

(٣) ص: بسافات.

فهل وجدت نفسك فى شيء منها تاماً أو ناقصاً ، زائداً أو قالصاً [1] ؟ وهل مرت بك فى عُرْضها صفتك فهششت لها ، أو كَلَحْتَ [2] بها ؟ فإن كنت قد وجدت ذلك وحمدته ، وكان كما أمَّلْتَه وتمنيته ، فهنّأك الله ذلك ، وبارك لك فيه ، وصانك من عوارض الفساد ، وأكرمك بأسباب الرشاد . وإن كنت وجدته ، ولكن لا على ما حمدته بل على ما ذممته ، فبادر بالإقلاع ، فإن الزمان شديد الفوت بالفُرص ، كثير الغَشْى بالغُصص .

يا هذا ! توقف قليلاً ، وتفكر طويلا ، فإن توقفك يُحضِرُك بالك ، ويَصقُل فهمك ، ويَشْحَذُ بصيرتك ، ويُحِدُّ [3] ما كَلَّ منك . وفكرك يبحث عنك ويَعْرِضُك عليك ، ويريك من أنت ، وما أنت ، وكيف أنت ، ومن أين أنت ، وعماذا أنت ، وعلى ماذا أنت . فإن فِكْراً تنتجه هذه الأمور الشريفة ، وهذه الأحاديث الطريفة ، وهذه الإشارات اللطيفة ، لَفِكْرٌ قد صافحه الله بيد التوفيق ، ونظر إليه بعين التأييد ، وليس أحَدٌ بهذا [4] الفكر إلا فاز قِدْحُه ، ووجب مدحه . فإن هذا عُنوان نجاته ، ومن دلائل نَيْله لمَرْضاته .

اللّهم ارحم رَوْعاتنا فى أطراف هذه الإشارات ، من اختلاف هذه العبارات . فوحقِّك ما ندرى كيف ندعوك ، وبأى شيء نتقرب إليك ،

---

(١) قَلَص : انكمش ، و— الظِّلُّ عنى : انقبض . والفعل من باب ضرب : قلص ، يقلِص قلوصاً . أو يجوز أن تكون العبارة : رائداً (بالراء) أو قالصاً . وحينئذ فإن قالص تكون بمعنى غثاً وانقبض ؛ يقال قلصت نفسه : أى : غثت .

(٢) كلح (كمنع) كُلوحاً وكُلاحاً (بضمهما) : تكشّر فى عبوس ، كتكلّح .

(٣) أى : يجعله حاداً .

(٤) ص : هذه .

وعلى أي وجه نطلب رضاك ، وأيَّ باب نقرع حتى يُؤذن لنا بالوصول إلى حضرتك . فارفع عنا هذا الرَّوَغان (١) وتعب (٢) هذا الطوفان ، واهدنا إلى سواء السبيل ، إنك على ذلك قادر وجوادٌ به . قد طال بنا النصَب ، واشتمل علينا الوَصَب ، وأنت المرجوُّ لفك هذا القيد ، والمأمول لتعديل هذا الميد (٣) .

يا هذا ! أما يعطفك عليَّ من فضلك عاطف ؟ أما يبعثك على الرحمة لى من فنونك باعث ؟ [٩٤ ب] فتقول : والله لأسمعنَّ قول القائل ، ولأسبُرَنَّ (٤) عقلَ هذا العاقل ، حظيت بقبوله وسَبَقتُ إلى الزُّلفة عند الله به : فإن كان رُشداً ، يخرج من أذن ؛ وإن كان غياً ، فما ضاق مخرج كلام دخل من أُذن . ولو فعلتَ — عافاك الله — هذا به ، وقلته لنفسك فى خلوتك ، أرحتنى من تعب كثير ، ورَقَيْتَ معى إلى محل كبير ، لأنا كنا نتعاون على رفض هذه الخسيسة التى قد جعلَتْ على أبصارنا غِشاوة ، وضربت على أرواحنا إتاوة ، فنحن هالكون بها لأنا متهالكون فيها . وليتها مع هذه المخازى والعيوب ، وهذه المعاير والذنوب ، دامت إن لم تخلص ، أو خلصت إن لم تدم . وأين ذلك وهى بحيلولتها دالّةٌ على زوالها ، وزوالها جارية على حيلولتها ! فما أعمى بصرَ مَنْ يرى هذه العيوب عِياناً ، ثم يعطيها بيده عِناناً وذماماً وخُطاماً ، ثم ينقاد

---

(١) راغ الرجلُ رَوْغاً ورَوَغاناً : مال وحاد عن الشيء ، والاسم كسحاب .

(٢) كذا : تعب ! فهل صوابه : نُغَب — والنغب جمع نغبة (بالفتح والضم فى أوله) وهى الجُرعة — بدليل قوله : الطوفان ؟

(٣) ماد يميد ميْداً وميَداناً : تحرّك وزاغ .

(٤) السبر : امتحان غور الجرح وغيره .

إلى محل العطَب وشقاء الأبد غير عائج على فكر، ولا ناظر إلى خلف، كأنه بهيمة أو كالبهيمة. وإن إنساناً يرضى أن يكون بهيمة أو كالبهيمة لقد رضى بسخط الله عليه ومقته، لأنه قد كفر النعمة وجحد المِنّة. والسلام!

رسالة (لب)

اللهم كن عند ظنّنا بك، وامحُ عنّا فُرُطاتنا[1] معك؛ وإذا أنطقتنا فألهمنا النجوى، وإذا أسكتّنا فاملأنا بالتقوى. وإذا استعملتنا فارزقنا البقيا والرعوى، ياذا الجلال والجمال والإكرام، وياذا النوال والإفضال!

ناجِ أسرارنا بجبروتك، وأشرح قلوبنا فى ملكوتك. أهّلنا لمؤانستك. اخصُصْنا بمخالصتك. اجعل حلمنا كلّه بك، وتقدّسنا كله لك، وثناءنا كله عليك، وإشارتنا كلها إليك، وصبرنا كله معك، وقرارنا كله عندك. لاتفرق شملنا من حضْرتك، بعد ما جمعْتَ شملنا على معرفتك. لاتبلُنا بجفْوتك بعد ما [١٩٥] أذقتنا من حلاوة بِرّك وكرامتك. لا ترْمِنا بهجرك، بعد ما عرّضتنا لوصلك. لاتهتك سِتْرنا بغضبك، بعد ما أنطقتنا بتوحيدك، وأشربت قلوبنا من محبتك، وملكتَ آمالنا بقدرتك، وأطعمتنا فى نعمتك. ياولىّ الخير ومُتيحه، وواهب المأمول ومُنيحه[2]! صلّ على صفيّك المخصوص بفضلك، المبعوث إلى خلقك، المنعوت بعلامتك، المقلَّب فى كرامتك — صلاةً تزيده بها رَوْحاً وريحانا، وتعرّفنا بركة ذلك سراً وإعلانا، إيمانا وإيقانا، بمنّك وفضلك.

(١) جمع فُرُط (بضمتين): وهو الاعتداء والأمرُ المجاوَز فيه عن الحد.
(٢) أى: معطيه، يقال: مانيحه الله بخير، أى: ما أعطاه.

أيها السامع بالأُذُن ، هل لك شِرْبٌ من هذا المسموع بالقلب ؟ أيها الحاضر بالشخص ، هل لك حاصل من الأُنس ؟ أيها الواجد بالشوق ، هل لك حنين الذوق ؟ أيها المعجب باللفظ ، هل لك نصيب من المعنى ؟ أيها المُدِلُّ بالعبارة ، هل لك حقيقة فى الإشارة ؟ أيها المسحور بالبلاغة ، هل لك بلاغ إلى الغاية ؟ أيها المفتنُ فى العلم ، هل لك علامة من المعلوم ؟ أيها المولع بالبحث عن العجائب ، هل وقفت على عجيبة العجائب ؟ أيها العاشق للغرائب ، هل وصلت إلى غريبة الغرائب ؟ ما أخوفنى أنك منافق عليم اللسان على ما نطق به ديوان النبوة فى وصف إنسان بعد إنسان ؛ وإن لم تكن ذاك فى الماضى فلا تَكُنْهُ أيضاً فى الآتى ، والزَمْ حدَّك فى أمر رُشْدِك ، وانته عن كل صاحب يُغْويك واستوصِ بنفسك خيراً ، فإليك انتهى الخبر وعليك وقف الأثر . فكن وَلِىَّ نفسك فى حياتك ، ووصيَّها بعد وفاتك . ولا تَكِلْ مصلحتك إلى غيرك ، فإن عنايته تُقَصِّر عنك ، ورعايته تعجز دونك . فحينئذ تندم فلا تنتفع ، وتأسى فلا ترتجع . هذا لسانُ الناصح لك ، إن أمرٌ مسموعُه اليوم ، حلا مقبولُه غداً . وإن ثَقُل مقوله الساعة ، خفّ معموله بعد قيام الساعة .

يا هذا ! إن شكوتُ إليك خاصة أمرى ، ونشرت [٩٥ ب] عليك حقيقة سِرّى ، رحمتنى أو مقتّنى . ما تقول فيمن نَشْرُه طىّ ، وبلاغته عىٌّ ، ورشده غىّ ، وكله فى كله لَىٌّ وزَىّ (١) . إن وَرَدَ وَرَدَ لاهثاً ، وإن صَدَرَ صدر لاهثاً . إن عهد عهد ناكثاً ، وإن حلف حلف حانثاً . إن انتبه انتبه عائثاً ،

(١) مصدر زواه يزويه ، زَيًّا وزويًّا : نحّاه فانزوى ؛ وزوى سرّه عنه : طواه . ولى : مصدر : لواه يلويه ، ليًّا (بفتح اللام وكسرها) وليانًا (بفتح اللام وكسرها) .

وإن هجع هجع عابثاً . إن قرع الباب حُجِبَ وردُّ ، وإن تعرّض [تعرّض][1] للوصل جُنِبَ وصُدَّ . فحدثنى ماحيلتك منه وما حيلته فيك ! أخذ الله بأيدينا إلى حظيرة رِضْوانه ، وأسْبل علينا سَجْفَ[2] غُفْرانه ، فى جوار أوليائه وأصفيائه ، حيث نسمع مناغاة الملأ الأعلى فى الجنة التى هى المأوى ، عند سِدْرة المنتهى ، حيث لا أذى ولا قَذَى ولا شذى .

يا هذا ! عجبى من سَتْر محفوف بكل فن ، ومن غَيْب مرجوم بكل ظن ، ومن ظاهر محلى بكل طُنٍّ[3] ، ومن باطن مجوَّف فى كل كِنٍّ . بل عجبى من مَشاهِدَ[4] الفرَحُ بها مع رؤيتها مضمحل ، ووَاتِبُ[5] الأُنس بصحبتها مشمعلّ[6] ، ومعنى الحق فى أقطارها مستقل ، ودليل الخلق على أدبارها مستدل . بل عجبى من راضٍ قد باء بأحكام السخط ، وعادلٍ قد ناء بأسباب الشَّطَط ، وقائل قد ملكه سلطان الغلَط ، وساكت قد أفضى به الاعتبار إلى الفُرُط . بل عجبى من حركة جانبت السكون ، ومن سكون صَحِبَ كَوْنَ كل مايكون ، ومن فن استدرجَ سائرَ الفنون ، ومن عين استوعبت أعيان

---

(١) كذا فى الأصل مكررة .

(٢) السَّجْف (بفتح السين وكسرها) والسجاف (ككتاب) : السِّتْر ، والجمع سُجوف وأسجاف . وأسبل : أرخى .

(٣) الطُّن (بضم الطاء) : بدَنُ الإنسان وغيره ، والجمعُ أطنان وطنان .

(٤) ص : شاهد .

(٥) أى : ثابت ، من : وتب يتِب وتباً : ثبتَ فى المكان فلم يزُل .

(٦) اشمعلّ : أشرف ؛ والقومُ فى الطلب : بادروا فيه وتفرقوا ؛ والإبلُ : مضت وتفرقت مرحاً ، وشمعل : تفرّق . يقصد : أن مستقر الأنس قد تفرّق وتشتت .

الميمون . بل عجبى من اختلافٍ نُظِمَ به كلٌّ مؤتلِف ، ومن ائتلافٍ شَتَّتَ كلَّ مختلِف ، ومن منكرٍ غيّره كلٌّ معترف ، ومن معتصمٍ نازعه كلٌّ مقترف . بل عجبى من لسان مفتون بالعبارة ، وقلبٍ تاهَ فى أوائل الإشارة ، وحالٍ استحالت بين الإمارة والأمارة (١) . بل عجبى من شبح اختُرِع موجوداً ، واصطُنع كرماً وجوداً ، وزُيِّن بالتكاليف ركوعاً وسجوداً ، [١٩٦] وطرح فى بحر البلوى فناء وبُيودا (٢) . بل عجبى من لفظ محلًّى بالزين ، ومعنًى جلَّ عن كَيْفَ وأين ، وعينٍ أشكلت على كل عين ، وزَخْرَفَ عنها الخبرُ بكل كَذِبٍ ومَيْن .

يا هذا ! التَّرجُمان حاذق ، والرائدِ صادق ، وكُلُّ الكلِّ عن الكل ناطق ، وجميعُ الجميع بالجميع فائق ورائق . ولكن شاهد السمع غائب ، وحاضر القلب هائِب ، وآمل المنى خائب ، والوقت بضروب أحداثه نابت آئب .

يا هذا ! أتدرى من الذى عاف عن الكون ، وجل عن الصَّوْن ، وأتى من وراء كل بحث دقيق ، واستخفى إشارات الألسنة بأنواع التكذيب والتصديق ؟ هو الذى علل الفانى بالفانى ، وأزعج هذه المعانى ؛ هو الذى إن ريم بالإثبات انتفى ، وإن حووِل بالبقاء صفا ؛ وإن لوطف بالطاعة شرف ، وإن كوشف بالسر أتلف ، وإن وقف مع باديه جرّ وعرّ ،

(١) الأمارة والأمار (بفتحهما) : الموعد والوقت والعَلَم والعلامة . والإمارة (بكسر الهمزة وقد تفتح) : المُلْك والسلطان .

(٢) مصدر من : باء يبيد ، بَواداً وبَيْداً وبياداً وبيوداً وبيدودة : ذَهَب وانقطع . وبادت الشمس بيوداً : غربت .

وإن تُعرِّض لخافيه ضرّ ومرّ ؛ هو الذى يريك حقائق الأشياء دون الحق تخييلا ، ويمزُجك بحقائق الأشياء فيما فوق العقل تحويلا .

يا هذا ! إن لحظت أمره أتعبك ؛ وإن شهدت إرادته عذّبك ؛ وإن هتكت حجابَ حكمته حيّرك ، وإن كايدت رقيب قدرته طيّرك ، وإن شهدت معانيه فيك أغرقك ، وإن أعرت نفسك من نفسك نفساً أحرقك ، وإن أنكرته أبادك ، وإن أقررت به أعادك ، وإن توكلت عليه أرادك ، وإن اقتبست منه أفادك .

يا هذا ! انظر إلى سحائب الحق كيف سكبَتْ عجائب الوَدْق ! وكيف استوفى بِصَوادق الجبروت صفات الخلْق ، حتى لم يبق فى مذموم الكذب ما ينافى تنزُّها عنه ، ولا فى محمود الصدق ما يصافى تشبهاً به . بلى ! بقيت عين مغرورقة بمساكب الدموع ، مع نفس قد احترقت بملاهب الضلوع ، بين خيال إن لاح أضنى ، وإن ثبت أفنى ، وإن خاب أغنى وأقنى .

يا هذا ! ارجع إلى لغات المطالبة بالشكر على إبراز جملة محشوة بالحياة ، ثم انظر إلى حيرة العقل فى سِرّ هذه الحياة . [٩٦ ب] ثم اعجب مما صحب الكون من مادة الحياة ، فإنها لغات مختلفة مؤتلفة على لسان قد قام خطيباً بنشر أصحاب النعيم ، وذكر فنون أصحاب النسيم . فإذا فرغت من ذلك — وأنّى لك بالفراغ ! — ، وبلغتَ هنالك — ومَنْ لك بالبلاغ ! — ، فالتفتْ إلى هاتف الحقائق بالعجز عن مقدار الواجب فى تصاريف ما بدا به [1] من عجائب الإلهية ، فبهذا ونظائره تشرف على عيوب العبودية نعم ؛ — ومما يَسْرق [2]

---

(١) ص : يدابه .

(٢) يقال : هو يسارق النظرَ إليه ، أى : يطلب غفلةً لينظرُ إليه .

عينك ، ويملك عليك أينك . فأما ما صرفه بالاختيار مقصوراً على الأخطار والأقدار ، مردداً بين الجزع والاصطبار ، فذاك ما ليس للخلق فيه نظام ولا نِثار (١) . نعم وأما ما سطا بحقائقه مبايناً للعقول ، وملك بالآية مطابقاً للعقول ، فكُنْهُهُ (٢) يعزّ عن مشارب وهم الواهمين ، وإن كان لائح ما وقع الخبر عنه موجوداً فى مشارب إلهام الملهمين .

يا هذا ! لقد قصصت (٣) أثرى منى ، فضلات خبرى عنى ، وصُلت بما صحبنى على ، فما ازددت إلا نفوراً إلىّ . طلبته فوجدتنى ، فلما وجدتنى وجدته لى ، فلما وجدته عَدِمْتنى . وسكتُ عنه فخبّرنى عنه ، وخبرت عنه فسكّتنى ، وأعززته فأذلنى ، فلما أذلّنى أعزنى . فلما شهدت العزّ بزّنى ، وعشقته فهيمنى ، فلما شكوت عنه تيّمنى . طوانى فنشرنى ، وظهر لى فبهرنى . وكوّننى فمحقنى ، ثم كاننى (٤) فحققنى ، فلماحققنى ، حقق لى . فلما حقق لى ، حقّ حقُّه بعدم حق .

أيها القائل البائح ، والسامع (٥) النائح ! كيف أنفكُّ من وَجْدى بمن أوجدنى وَجْدى (٦) بوَجْدى ؟ أم كيف أعزب عن قصدى ، وقد وشّحنى بقصدى فى قصدى ؟ أم كيف أذِلُّ بجهدى ، وقد أمدنى فى جهدى بجهدى ؟ أم كيف أتنجز (٧) وعدى فى وعدى ، وقد وعدنى بخُلْفِ وعدى ؟ أم كيف أهدأ

---

(١) النُّثار : ضد النظام . وهو مصدر : نثر الشىء ينثُره (بضم الثاء وكسرها).

(٢) ص : فكنه . ويصح أيضاً .

(٣) قص الأثرَ ، قصاً وقصيصاً (من باب كتب) : تتبعه .

(٤) كان الغزْلَ : غزَله . والمقصود أنه كوّنه .

(٥) والسامع : مكررة فى الأصل .

(٦) كذا !

(٧) تنجّز الوعدَ : طلب إنجازه .

في صَدْري وقد أفناني لمّا أفنى وِرْدي ؟ أم كيف أتهنّا [١٩٧] بوردي[(١)] وقد شغلني وفدي عما كان به رِفْدي ؟ أم كيف أرْوِي عمّن فات روايتي ؟ أم كيف أتراءى لمن قد طاحت معه رؤيتي ؟ أم كيف أروّى فيه ، وقد حدّ رؤيتي ؟ أم كيف أروّى به ، وهو سبب ظمأى بفقد رِيّي ؟ أم كيف أركن إلى قولي ، وقد استهلك فيه معناي ؟ أم كيف أقر معه ، وقد أبلاني بمن هو سواي ؟ بل كيف أصحبُ الذات ، وقد جهلت الصفات ؟ أم كيف أدّعى جهل الصفات وقد ناولتني السمات ؟ أم كيف أقف على السِّمات ، وقد اشتبهت عليَّ السِّمات ، وضربت في تخليصها وتلخيصها بأحكام الشتات ، وحسرات النيات[(٢)] ؟ هيهات ! هيهات ! التبست الهَنات بالهنات ، وأُمْزِجَتْ اللغات باللغات ، وحصل الخلق في الخلق من الحق على الفوات . نعم يا سيدي ! حدثني إن الحديث من الفَرِيّ[(٣)] . كان من ذلك أني تعرّضت لأسرار الملوك ، وأمعنت في إدمان السلوك ، فأشرفت على أمواج بحار الشكوك . فإن قلت لي : ما الذي انتسب إليك من هذه الأهوال ، ولصق بك من تلك الأحوال ؟ — واجهتُك بوجه صفيق ، وناجيتك بلسان ذَلِيق ، وقلتُ : بدا حتى تجلى للبصر ، ثم غاب حتى <لا> عين ولا أثر . فإن جحدتَ ما شهِدْتُ كابرتُ العقلَ والعقلُ حُجة ، وإن حققتُ ما حكيْتَ استحققت القتل ، والقتل محْنة ؛ وإن مِلتُ إلى موقف ثالث طال بي المطل ، والمَطْل كريه . أتدري ما السر ؟ السرُّ أن يحتاج كلّك في كلك بتمزيق بعضك على بعضك ، ليكون فناؤك في فنائك طريقاً إلى بقائك في بقائك . وهذه وحقّ الحق لغة مشكلة ،

(١) ص : يوودني .

(٢) ص : النبات .

(٣) الفرى كغنى ، يقال : هو يفرى الفرىّ : أي : يأتي بالعجب في عمله .

وحالٌ معضلة ، والعقول بينهما مهملة . متى كان البقاء ثمرة الفناء ؟ متى كان البقاء سبيل الفناء ؟ أين المشرق من المغرب ؟ أين المنعَّم من المعذَّب ؟ أين الوجدان من العدم ؟ أين الحَدَث من القِدَم ؟ أين الثريا من الثرى ؟ أين اليقظة من الكرى ؟ أين السماء من الأرض ؟ أين الطُّول من العَرْض ؟ أين العَرَض من القَرَض ؟ أين ما ليس له أَيْن ، من عين أشرقت به كل عين ؟

يا هذا ! مَنْ طمسَ أعلام الحسّ وركبَ رواحل الأُنس ، لحق رفائض[1] [٩٧ ب] الهمس ، وشهد ولائم العرس . من استباح الجَزَع عن حِمَى قلبه ، فليلتجئ إلى من هو صَوْبُه بعينه فى غيبه[2] . من انسلخت نفسه من نفسه ، فقد ظفر بغاية أنسه . من انتفى عنه عِلْمُ الغيب بقوادح الرِّيَب ، فليستأنف أوائل التوحيد ؛ من شهد مُعاجزةً فى مطالبه ، فليلزم حدود العبيد .

يا هذا ! ذهب اللفظ المنمَّق ، فهات الآن المعنى المحقَّق . طال القولُ المُزَيَّن ، فحصِّل المراد المُعَنَّن[3] . كَثُرتَ العبارة ، فحقِّق الإشارة . تَرَدَّد الهذيانُ ، فقرِّب أنت البيان .

يا هذا ! اغترب عن وطنك المألوف بالعزم الصحيح إلى وطنك بالتحقيق ، وإن كان قد اتصل به التلويح ؛ وثِقْ بأنّ مروىّ ذلك المكان أشرفُ من مَرْئِيّ هذا المكان . والسلام !

---

(١) رفض الإبلَ : تركها تتبدد فى مرعاها ، فهى رافضة ورَفَض (ويحرّك) ، وجمعه أرفاض . وهنا جمعه على رفائض .

(٢) أى من هو قُبالته هو بعينه ، فى غيبه ، أى فى عالم الغَيْب ، و « هو » تعود على الله .

(٣) عَنَّ الكتاب وعَنْونه : كتب عنوانه . وعَنّه : جعل له عنانا . أى المراد المحدود المقيد المعيّن ، لا الممتد الواسع .

رسالة (لج)

أتاح الله لك من غيبه ما لا يحلم به أملك ، وصرف عنك كل ما يحول بينه وبينك ولذك بخطابه إذا ناجاك . ومتّعك بنعمته إذا خصك . وجعل ظاهرك (١) ينطق عنه تحقيقاً ، وباطنك يوقن به تصديقاً . ورقّاك إلى ذروة عُلّيات (٢) الحق ، فبها تَصَنَّيك ، وأحكامه تتصرّف فيك ، وأنتَ فى خافى ذلك وباديه تشهد آلاءه شاكرا ، وتتقلّب فى أثنائها شاكراً ، مُسلِّماً وصابراً .

كتبتُ إليك فى أواخر شهر رمضان ومُسْتَقْبَل العيد عن حالٍ ذات ألوان ، ما أرضاها مكتومةً عندى لما أعرف من غوائلها وبُرَحائها ، فكيف أرضاها مكشوفةً عندك بغُلوائها وعُدَوائها (٣) ؟ وإذا لم يكن إلى كتمانها فى خوالج الصدر سبيل ، ولا على الإفصاح على علاتها دليل ، فلا أقل من ذكر بعض فنونها بالكناية التى ، إن لم تَشْفِ غُلَّة ولم تُبَرِّد فؤاداً ولم تمتع روحاً ، فإنها تؤنس نفساً قد أشفقت على العَطَب ، وتُجَبِّرُ أركاناً قد تحلحلت (٤) بالتعب والنَّصَب . فمن أوائل تلك الكناية أنى قد قابلت العيد بصبابة لا ينادى وليدها ، وترحة (٥) لا أطمع فيما يبلى جديدها ، وغرام كلما خمدت ناره ، [١٩٨] وسكن أواره ، رَدَفه (٦) ما يُنْسى الأول ويُذهل عن المستقبل . وما أحسن ما قال الأول :

---

(١) ص : ظاهرتك .

(٢) العُلِّية (بضم العين وكسرها) : الغرفة ، والجمع : العلالى .

(٣) العُدَواء : المركب لا يطمئن من قعد عليه ؛ الشغل يصرفك عن الشئ .

(٤) حلحله : أزاله عن موضعه .

(٥) وتقرأ أيضاً : وزحة .

(٦) أى : تبعه .

<و> كمْ تجرّعتُ منْ غيظٍ[1] ومنْ أسفٍ
إذا تجدّد حُزنٌ هوّنَ الماضي
وكم غضِبتُ ، فما باليْتُ غضَبي
حتى رجَعتُ بقلبٍ ساخطٍ راض

والعجب من رُوحٍ تصر على هذا العذاب الأليم بلا تنفيس يعتقب ، ولا تأنيس يرتقب . وكيف لا يكون حالى هكذا وحبيبى هاجرى ، ومَنْ أهيم بهواه سالٍ عنى ، وقد بقيت مرجوماً من أعزّتى ، كما صرت مرجوماً من أحبّتى ! فها أنا أقول :

لِيَهْنِئْ العبدُ : مَنْ له وطنٌ   يأوى إليه ، ومَنْ له سَكَنُ
ومَنْ له الأهل والبنونَ ومَنْ   بلادُه منه منْزِلٌ قَمِنُ[2]
لا المُفْرَدِين المُطرَّدين ومَنْ   يعتاده الهمُّ فيه والحَزَنُ

وقد قطعتُ حداداً لا ألبسه[3] فى هذا العيد الذى أقبل علىَّ بالحدِّ[4] والحديد ، وبالعذاب الأليم الشديد . فلو رأيتنى وأنا أمشى إلى المُصلَّى شاحبَ الوجه ، غُرابى الشَّعار ، راغم الأنف ، ناكس الرأس ، كليل اللسان ، خافض الصوت ، ظاهر الاستكانة ، — لرأيت منظراً يُبْكِى العين الجامدة ، ويُحرّك الطِّباع القاسية ، ويبعث الرحمة من كل أحد : أمّا من الصديق فبحق الصداقة

---

(١) ص : غيض .
(٢) قمن : قريب .
(٣) كذا ! ولعلها : لا ألبسه .
(٤) الحدّ : ما يعترى الإنسان من الغضب والنزق . الحديد : بمعنى الشدة .

والمِلح ، وأمّا من العدوّ فبفرط ألم السَّقام والقَرْح . ولو سمعتنى وأنا أنشد قول الأول :

قالوا : سُرِرْتَ بيومِ العيدِ ؟ قلتُ لهم :
ولا علمتُ به ، والواحدِ الصَّمدِ !
لما تيقّنْتُ أنّى لا أعاينكم
غَضَضْتُ طَرْفى فلم أنْظُرْ إلى أحَدِ

— لعجبتَ . فكيف يكون حال من هو فى عيده محزون ، ومما تقدم من جرائره (١) خامل مدفون ، وفى جميع حالاته مفتون مغبون ! قد تضاعف فى عيده بلاؤه ، وزاد عناؤه وشقاؤه ، وأدهى مما به وأمرّ أنه لا سامع لشكواه ، ولا ناصر لبلواه ، ولا مقبل عليه فى نجواه . قد خذله [٩٨ ب] أنصاره ، وأسلمه أحبابه ؛ قد تُرِكَ غريباً ، فريداً وحيداً حزيناً مبهوتاً سليباً (٢) . فهو بين هذا الجمع الكثير مُسكَّرٌ (٣) على عرفانه ، وساكت على بيانه . إنْ نَظَرَ نَظَرَ من طرفٍ خفى ، وإن نطق نَطَقَ بلسانٍ عربى ؛ وإن هَمَّ هم بقلب مَنْسِيّ ، وإن نهض نهض بكاهل مَلْوِى ، وإن حَسَرَ حَسَرَ (٤) بطباع غَوِىّ ، وإن أوَى أوَى إلى رُكْنٍ وَهِىّ (٥) . فهذا حديثى ومقالى ، فى عيدى

---

(١) جمع جريرة : ذنب .

(٢) السليب : المستلب العقل .

(٣) ص : مشكر . وسُكِّرَ : حُبِس . فالمعنى أنه محبوس على ما يعرفه ، لا ينطلق به بين هذا الجمع الكثير .

(٤) حَسَرَ (من باب قعد) : أعيا وكلّ وتعب .

(٥) وَهِىّ : واهٍ ، ضعيف .

وجمالى ، لاجَرَم قد جعلت الشجو سِربالى ، والكآبة عصابتى ، واللومَ — لومَ النفس — دَرْبى ، والاستعانة بالتضرع حالى :

ليس عيدُ المحبِّ طَوفَ المُصَلّى ووقوفاً بالجمع والوجدان

بل عيده أن يتوارى بحاله ، ويَسْحَرَ بما دُفع إليه من زِياله(١) ، ويعثر إذا خطا بأذياله ، ويمسح عينه بطرف كُمِّه ، ويتخلى بِهَمِّه وسَمِّه(٢) ، ويرفع إلى حنينه كَبِدَه المحترقة بحبه ، ويعرض عليه ما أثَّر فيه من عتبه ، ويسأله الإقالة بما استمرَّ به من خَطْبه . فلعله إن رُحم فى أمره انكشف الغطاء عن قلبه ، وانحلّت عنه عُقْدَةُ كَرْبه . ثم ينشد :

للناس عيدٌ ، ولى عيدان قد جُمعا :
وجهُ الحبيب ويومُ الفطر إذ حضرا
فالحمد لله — شكراً — لا شريكَ له
إن المزيد لَمَرْجُوٌّ لِمَنْ شكرا

فطوبى لهذا البائس المسكين ، ولهذا الغريب المستبين ، إن فاز بمنية نفسه ، ووجد ضالته فى أُنسه ، وذهل عما مرّ على رأسه فى أمسه ! ولله فى غيب سره وسر غيبه فنونٌ الخلقُ فيها يضلون ، وعن لَحاق حَرْفٍ منها يعجزون ، ويُسَلِّمون ذلك كله ويستسلمون . وإنى مع ما وصفتُ به شأنى بأول قلبى لقوىُّ الرجاء ، سمينُ الأمل ، بعيد الهمة . وما ذاك بى إلّا من قِبَل مَنْ أنا إليه

---

(١) زايله مزايلة وزيالا : فارقه . وسحر كمنع : تباعد . وزيالة اسم بلد ، ذكره التوحيدى نفسه فى رسالته « فى الصداقة والصديق » (ص ٤١ س ١٦ ، س ١٨ ، نشرة الجوائب ، قسطنطينية سنة ١٣٠١ هـ) ؛ لكن لا نحسبه يقصده هنا .

(٢) أى : يخلو إليهما ، والهم : الحزن . « السم » كناية عن المصيبة وما فى معناها .

مُشوّق ، وعنه مُعوّق ، وبحبّه مُطوّق . فإذا حرّك رجائى ، فقد أراد خلاصى من بلائى ؛ وإذا بعث أملى ، فقد عرضنى لزكاء عملى . وقد ألقيت إليك خفيّتى ، ونشرت عليك طِويّتى ، فقِفْ عليهما [١٩٩] برقّة الصديق للتصديق ، وأجبنى عنهما بما يدل على الخالصة والتحقيق ، وتجنب معى استطالة الأغنياء واستقالة الفُكراء (١) ، واسلُكْنى طريقَ الأخلاَّء الأوِدّاء ، وخاطبنى بلسان البُلغاء والحكماء حتى أفهم عنك إرادتك ، وآخذ منك بالشكر زيادتك ، لِأهب (٢) نفسى غاية العمر لك ، وأريك من حاضرى وغايتى مساعدةً تنسى معها ذوى الأرحام المتاصرة ، وتعجب منها مع هذه الأحوال القاصرة عن الغايات التى إليها بكّرَ المُبكّرون ، وبسببها هَجّر المُهجّرون (٣) ، وعنها أخبر المخبرون ، وعليها لُطمت الخدود ونُزِفت العيون .

وامزُج عتابك بالرضا لأسلم على جمر الغضا . وإذا أمرتنى بأمر ، فاستعمل الرفق حتى يخفّ علىّ امتثاله ؛ وإذا نهيتنى عن شىء فلاطفنى حتى ليُسارع استعماله . وصِفْ لى أيضاً مِنْ حالك ما أكون بمعرفته شريكك ، وأحمد الله على ما وهب لى من شفقتك ، واذكر لى كيف خرجت أنت إلى هذا العيد ، ومَنْ صَحِبَكَ من خِلٍ ووديد ، وهل خطر ببالك ما أنشأت هذه الرسائل له من بعيد ، أم غير ذلك مما يجوز أن يقف عليه مثلى من العبيد . فبالله إلاَّ صدقتَنى إذا خاطبْتَ ، وشفيتنى إذا كاتبت ، وأبقيت علىّ إذا عاتبت ، وقصدت نصحى إذا قاربت ، وآثرت نجاتى إذا باعدت ، وطلبت فى الجملة

---

(١) كذا ! وحينئذ لعل المقصود أن تكون جمع : فكِير كسِكّيت . أو لعلها محرفة وأصلها : فقراء ، بدليل قوله : الأغنياء .

(٢) ص : لواهب .

(٣) هَجّر القومُ : ساروا فى الهاجرة .

إنشالى (١) ، فقد اكتنفتنى الوحشة ، وبلّتَ كبدى بندى قولك فقد ذبحتنى العطشة ؛ ومهما أتيت فى أمرى شيئاً فلا تدعنى من يدك ، ولا تُخلّنى من وعدك ورِفدك ، ولا تقصِم ظهرى بإعراضك ، ولا تُضيّق صدرى بانقباضك . وثق بأنى قد سرحت لحظاتى إلى ما يردُ من جهتك ، ولا قرار لى دون ذلك ، ولا صبرَ عندى إلاّ بعد أن تميد وتبدى علىّ من فضلك وإنعامك ، فقد علمتُ أنك كهفى إذا أوَيتُ ، وشمسى إذا أصبحت ، وقمرى إذا أمسيت ، ونجمى الذى أهتدى به إذا ضللت ، ومسرةُ نفسى إذا اغتممت ، وقُرّة [٩٩ ب] عينى إذا اهتممت ، ونظامى إذا انتثرت ، وناصرى إذا انتصرت ، وحاضرى إذا غبت ، وظاهرى إذا بطنت . وما رُزقتك إلاّ بدعاء السَّحَر ، وإلا (٢) بالحجّ والنُّسك ، وإلا بالتضرع عند الحطيم (٣) وزَمزَم . أفأغفل عن نعمة الله علىّ بك ، وأسهو عن شكر الله على ما منحنى منك ، وأذهل عن حظى الصائر إلىّ بمعرفتك ، وأكفُر بسالف إحسانك وفضلك ، وأحرِم نفسى ما أنتظره من غدٍ من تأييدك ونصرك ؟ هذا ما لا يكون ، ولا تُطيف به الظنون ، ولا يجهله المتوه المجنون . إنى بك لغنىّ ، وفيك هائم ، وعليك مُتولّه ، وإياك أطلب جدّى واجتهادى ، وإليك أبادر مع كل هادٍ وحادٍ ،

---

(١) ص : السالى . ولم نهتد إلى وجه الدقيق ، فأصلحناه كما ترى بمعنى : انتشالى ، أى إنقاذى .

(٢) ص : ولا .

(٣) الحطيم : حِجْر الكعبة ، أو جواره ، أو ما بين الركن وزمزم والمقام ، وزاد بعضُهم الحجرَ ، أو من المقام إلى الباب ، أو ما بين الركن الأسود إلى الباب إلى المقام حيث يتحطّم الناسُ للدعاء . وكانت الجاهلية تتحالف هناك .

وبفضلك أتحدث فى كل مقامٍ ونادٍ. وهذا قليل فيما تستحقه علىّ، وتستوجبه لدىّ، لأنك تخبرنى عن البناء العظيم، وتدلُّنى على الصراط المستقيم، ثم لا ترضى لى حتى تداوينى عند كل داء بما يَحْسِمه، وتقابلنى عند كل أَوَدٍ بما يُقوِّمه.

إذا وجدتنى متهالكاً فى الوعد عذلتنى بالوعيد، وإذا وجدتنى سادراً فى العوائق جذبتنى إلى الدواهى. وإذا وجدتنى أغيب عن حظى بالعادة أشهدتنى فائتى بالحضور. وإذا وجدتنى أهذِرُ فى القول قرنتنى بالعمل. وإذا وجدتنى أجهل قدرى فى أمرى، عرفتنى مجهولى فى السر والجهر: فى سِرٍّ لا يُطوى عنى فيه النصحُ، وجهرٍ لا بأس لى فيه من التَّجنح. فمن لى بمثلك؟ ومن لى بمن يقاربك؟ أنا أُحِلُّك منْ يدى، وأسلو عنك وعلىّ معى؟! هيهات! هذا ما لا يكون، ولو كان ما كان له كون به يدوم. أنا – أكرمك الله – إلى نظائر هذه المشافهة[1] [فهو] مرتاح، ولكننى من التثقيل عليك مرتاع؛ وبقدر ارتياحى وارتياعى أتقدم بين يديك فى مخاطبتك محتاجا، وأتأخر عنها مهتاجا. وإذا حدثتَ لى فى معروف ذلك ومُنكَرِه حدثاً، استظهرت لنفسى فيه بما يدنينى منك، ويُحلّينى [١٠٠] بعينك، ويجرى لى بالخير لسانَك، ويَعرضنى عليك، ويُفيدنى منك. وهذه حالٌ اصطفاك الله بها، وأحوج غيرك إلى طاعتك فى اقتباسها. ولله الشكر على ما أفردك به، واستفردك له، وعلى ما جعل لك إليك من تقويم كل رابغ[2]، وتعديل كل زائغ، وتهذيب كل قائل، وإغناء كل سائل. وهذه درجة الأنبياء الذين هم بين الله وبين الخلق، فهنأك الله هذه النِّعمة بالتنعم فيها، وخفف عليك

(١) كذا فى الأصل بهذه الزيادة!

(٢) ربغ الرجلُ: كان فاجراً ماجناً، فهو رَبِغ (ككتف).

إمدادنا ومعونتنا بها . فإنّا إلى ما نصل به من جهتك محتاجون ، ولما يصل إلينا من برّك وتفضلك شاكرون ، ولله فيما خوّلنا من هذه المودّة والمساهمة حامدون . فإن رأيتَ أن تتصدّق علينا بزمانك الذى فيه يمكنك جوابنا متفضلاً بما يريك الله فى أمرنا فى التوجع لنا إذا أصبنا ، وفى التنبه لنا إذا غفلنا ، وفى شحذ بصائرنا إذا أكلت فينا ، وفى الأخذ بأيدينا عند عثراتنا ، وفى الاهتمام بنا إذا رفعنا ظُلاماتنا — فعلتَ إن شاء الله .

أيها الطالع علينا من بَلَدِك النازح ، والمستحثُّ على ضعفنا بالبارح والسانح ! أما تعجب من رقة هذا اللسان المشكل الواضح ؟ أما ترغب أن يكون لك منه نصيب راجح ؟ فإنْ حرّكتك هِمّتك إلى هذا حَشّتك [1] إليه ، ونزعتْ بك النية إلى هذا الذى أقبلت بك عليه ، فخذ أُهْبَةَ ذلك .

أتدرى ما الأُهبة ؟ هى أن تجدّد العزيمة فى نفسك من قاذورات هذه الدنيا ، ثم تصل العزيمة بالصريمة [2] فى الصبر على واردات البلوى ، ثم تُطهّر بباطنك نفسك ، ثم تتستّر بباطنك لظاهرك ، ثم تعتمد إلى الحق معتقداً ، وتثابر على العمل معتمداً ، وتَظْلِف [3] نفسك عن شهوات المَرْأَى والمَسْمَع مجتهداً ، وتجعل الهمّ كله هماً واحداً ، فإن صاحب الهموم الكثيرة مُشتّت البال ، ضعيف النحيزة [4] ، مغلوب بأول رابق [5] من الدنيا ، مخدوع عند أول سانح من الهوى . وصاحب الهم الواحد ، عاضٌّ على الناجذ صَبُورٌ عليه صبر

---

(١) حشّ الصيدَ : ضمّه من جانبيه .

(٢) الصريمة : العزيمة .

(٣) ظلف نفسه عن الشىء (يظلِفها ، من باب ضرب) ظَلْفا : كف عنه .

(٤) النحيزة : الطبيعة .

(٥) ربقه فى الأمر : أوقعه فيه .

الماجد ، ومتلذذ به [١٠٠ ب] تلذذ الواجد . وهذا واضح عند من له خِبْرة يسيرة ، وتجربة قصيرة . أعنى أن الإنسان يعلم بأدنى تماسك يرجع إليه ، وأقل سبب من التميز يتعلق به ، أن الهمّ إذا كان واحدًا تلاحقَتْ به القوى ، وساعد على رِفْدِه النُّهى ؛ وقدر صاحبه أن ينجو من كَرْبٍ إذا كَرَب ، ومن واثب إذا وثب ، لأن الشكيمة تشتد فى الدفاع ، والروية تحتد فى الامتناع . فأما إذا تشتت السّر فى أودية الأمانى ، وضلّ الرأىُ فى اجتناب الشهوات ، وكلّ الحدّ عن مقاومة الخادعات ، فإن الإنسان يُؤتَى عند ذاك من مَأْمَنه ، ويُوحَش فى مَأْنَسه ، ويفْقَر أغنى ما يكون فى حسابه .

اللهم إنا لا مَقْصَر لنا عنك ، ولا مَطْلَب لنا دونك ، ولا مَذْهب لنا وراءك . فبحرمة ذُلّنا فى حاجتنا إليك إلّا أعززتنا بالوصول إلى حضرتك ، وفككتنا من أيدى خلقك ، وكنت لنا بفضلك ، وعُدْتَ علينا برحمتك ، ياذا الجلال والإكرام !

رسالة (لد)

اللهم إنى أشكو إليك شاهداً جَذوعا ، وغائباً مقطوعا ، وحالاً بين هذين لسنا ننفكُّ منها نُزوعا ، ولا نستسهل عنها رجوعا ، ولا نجد لأنفسنا فيها خشوعا ولا خضوعا .

اللهم فاجمع هذا الشَّمْلَ المُبدَّد ، واكفنا مؤونة هذا اللفظ المُردَّد ، بالمعنى المقوم المسدّد ؛ وإنما نعيد السؤال ونكرره لعلمنا بأنك القادر الممجّد .

اللهم إنّا كما نعجز عن وصفك بما أنت أهله ، نستحيي أن نسألك ما نستحقه . ولولا أنك تحرك منا الساكِنات عند التوجه إليك ، وتُسكِّن منا كل متحرك عند تعظيمك وإجلالك ، لما كنا نتذبذب هذا التذبذب

فى هذه الأحوال المختلفة بالعيان ، ولا كنا تسبسب[١] هذا التسبسب فى هذه الأمور الملتبسة بالعِىّ والبيان . ولـكنّا بك ، لأنّا لك ، ومعك ، لأنا منك ؛ وعلى كل وجه فإليك المفزع ، وإلى بابك المرجع . [١١٠١] فانفِ عن رجائنا حوائمَ[٢] اليأس ، واصرفْ عن حاضرِنا وغائبنا خوالب الوَسْوَاس .

يا هذا ! قد طال نَشْرِى عليك مَطْوِىَّ هذه القصّة بضروب من العبارة ، وصنوف من الإشارة ، رغبةً فى شعلةٍ تبدو منك ، وطمعاً فى نجابةٍ تنطق عنك ، ونظراً إلى إثارة الحق فى سِترٍ يَطّلع عليك ، وأنت على طينتك جامد لا تذوب ، وخامد لا تلتهب ، وراكد لا تهبُّ ، وميّتٌ لا تتحرك ، وباهتٍ لا تبصر ، ونشوان لا تفيق ، وكثير لا تتوحد ، وكَدِر لا تصفو ، ومنقبض لا تنبسط ، ومَدْعوّ لا تَحْضُر ، ومسؤول لا تجيب ، ومنصوح لا تقبل ، وغادٍ لا تروح ، وثاكل لا تنوح ، وكاتم لا تبوح .

يا هذا ! لا تُرَعْ[٣] فما أقربنى منك ، وما أشبهنى بك ، وما أشد انخراطى فى سِلْكك ، وما أسفرنى عن نقابك ، وما أسكننى فى كهفك ، وما أطيرنى بجناحك ، وما أفوهنى بلسانك ، وما أرْنانى[٤] بطرفك ، وما أحملنى لثقلِ مثل ثقلك ! لـكنى مُمتحن من باب آخر فقد كفيتهُ وغنيتُ عنه ، وهو أنى مستنطق بما إن خالفت فيه كان دَمارى ، وإن استحقرت به كان ويلى منه .

هذا بعض حديثى على تقطّعه وانبتاره ، وبابٌ من شأنى على تشعبه وانتثاره .

(١) تسبسب الماء : سال .

(٢) مايحوم .

(٣) فعل أمر من : أراع : خَوّف .

(٤) أفعل تفضيل من رنا يرنو بطرفه : أدام النظر بسكون الطرف .

فما بقى فى ديوان قصتى أن قيل : ياهذا تزحزح عن هذا المكان قليلاً حتى نتناجى بلغة أخرى ، ونتهادى النصح بها على طريقة هى أَوْلَى بنا وأحرى .

من استأذن على الله أذن له . مَنْ قَرَعَ باب الله دخل [١] . كيف تنتفع بالنصيحة ، وأنت مقيم على الفضيحة ! خَوْفُ الله جُنَّةٌ من كل كارث . معرفة الله روضة من رياض العقل . ما أنطق الليل والنهار [و] لو استمع إليهما وفهم عنهما ! كم من عقل أسير عند هوى أمير ! الجدل فى الدين مَطْرَدة لليقين ! الاتّباع خير من الابتداع ! الابتداع أخطر من الاتباع ! النية عِرْق ، والخير شجره ، والعمل به ثمرته . الشريعة مأدُبة الله [١٠١ ب] للعباد . السُّنَّة حلية الديّانين . التوحيد حياة النفس . المعرفة الفوز بالقدس . من تبع هواه فقد عبد غير الله . أكْرِم نفسك ما أعانتك على طاعة الله . أهِنْ نفسك ما عاقتك عن خدمة الله . الويل لمن ضاقت رحمة الله — مع سعتها — عنه . لك من الله نسبٌ أصحُّ من نسبتك إلى أبيك ، فاحفظه فإنه ينفعك . إذا ضللت عن حكمة الله فقف عند قدرة الله ، فإنه إن فاتك من حكمته ما يشفيك ، فلن يفوتك من قدرته ما يكفيك . سُقْ عقلك إلى ملكوت الله ، ولا تُقْحمه فى جبروت الله . إذا استأثر اللهُ بشىء فالْهُ عنه . إذا تلطّخت بعار فارحضه [٢] عنك بالإنابة . أنت بين هادٍ يقودك وحادٍ يسوقك ، ففيمَ تثبطُك وتبطؤك ؟! ليس للغواية غاية تقف دونها جهْدك . لا تحكم عن نفسك إذا غبنتك ، ولا بغضها إذا أرشدتك . اجعل الجِدّ كله فى إعداد الجواب . يوم المسألة عُرْضتك لبقاء الأبد . ربُّك يحسن اختياره لك ، فلا تتعرّض أنت لفناء الأبد

(١) فيه التفات إلى ما ورد فى إنجيل لوقا ١١ : ٩ .

(٢) رحَضَ الثوب يرحضه (من باب فتح) رَحْضاً ، وأرحضه : غسله .

بسوء اختيارك لنفسك . من انقطع إلى غير الله وكلّه الله إليه . من صلَح مع الله لم يَفْسُدْ مع غيره . من حارَب الله حُرِب [١] ، ومن سالم الله سلِم . أَصدَقُ الكلام كلامُ الله . كيف ينجو من الله طالبُهُ ! كيف يضيع مع الله كافله ! ما أقربَ العبد من الله إن فطَن لما فيه ! لله عندك وديعة ، فاحفظها وتوسّل إليه بها اﻫ .

المعرفة مصباح القلب . التوحيد نورُ الله فى قلب العبد . التوكّل حِصْن المؤمن . الوجد حقيقة الحال . العقل رسول الحق . الظَّلَفُ [٢] غُرَّةُ النفس . الظرف عنوان الطهارة . الصمت روضة الفكر . اللفظ ثمرة الإرادة . الإرادةُ تصوّر القلب . الأريحية هِبَة الكرامة . الكناية همس الفؤاد . التصريح بروز المراد . العمل شعار البدن . العلم شعور الروح . الوصف تبيان الموصوف . الموصوف غاية الواصف . [١١٠٢] الخطر التنزيه عن الدنس . الإباحة علم التصرف فى الملك . الطمع رقّ ، لكنه خدّاع ؛ واليأس عِتق ، لكنه قطّاع . العقل صُعود ، ولكن إلى أعلى عِلّيين . والهوى حدور [٣] ، ولكن إلى أسفل السافلين . يا هذا ! مرَّ أيضاً هذا الفن فلا والله أن أدرى كيف انتشاؤك به ، وكيف ارتشافك له ! وكيف انتعاشك عليه ، وكيف انتعاشك منه ! فإن كانت الغلبة لروحك اللطيف ، فلا شك أن حظك من كل ما مرّ هو الحظ الشريف . وإن كان الحظ لبدنك الكثيف ، فلا شك أن حظّك من جميع هذا الحظ الطفيف . فاسترسل الآن فى نفسك باحثاً عن أمرك وخبرك ، فعساك تظفر بمرادك ونظرك وعِبَرك ، فإنك ملك فى ملك ؛ فانفض الملك ناشراً ، وانشرهُ

---

(١) حرب (بالبناء للمفعول) الرجلُ مالَه : سلِبه .

(٢) الظلف : النزاهة .

(٣) حدَر يحدر (بكسر الدال وضمها) حدْرا وحدوراً : نزل وهبط .

ناقضاً ، وقابله مُداريًا ، ودابره مقابلاً ، وياسره معاسراً ، وعاسره مياسراً ، وتقلّب طالباً ، وتطلّب مُتقلباً . فإنك تصعد باختلاف هذه الحالات فى سلاليم هذا[1] العالم المنضود بالحكمة ، المنظوم بالقدرة ، المنقوش بالزينة ، المزيّن بكل حلية مخزونة .

يا هذا ! مداراتى لك مداراةٌ لنفسى ، دعائى لك استكانة منى ، واستكانتى استجابةٌ إلى حظى . فاستجابتى إلى حظى بلوغٌ إلى غايتى ، وبلوغى إلى غايتى فوزى بمن أنا به وهو لى . — إذا بلغ اللفظ هذا الجد[2] ، فالرأى البرىءُ من العاهة السليمُ من الآفة ، أن تَداولَ[3] بالسكوت الذى هو أعطىٰ للمكشوف ، وأكنىٰ عن المألوف ، وأغنىٰ بالمعروف . تأمّل مخزون قول بعض العارفين ، فإنه قد هتف بشأن عظيم عن محل فى أعلى عِلّيين . قال : إذا رأيت الله عز وجل يؤنسك بذكره ، ويوحشك من خَلْقه ، فقد أرادك . وإذا رأيته يؤنسك بخلقه ، ويوحشك من ذكره ، فقد طردك . وقال آخر : يا تُجّار الآخرة ! أبشروا بالأرباح الفاخرة ! لا تَمْهُرُ الدنيا دينك فإن مَنْ مَهَرَ[4] الدنيا دينه زفت إليه بالندم والسقم والألم . وقال آخر : حَمِيَّةُ[5] العارفين [١٠٢ ب] حَمِيَّةُ المرضىٰ ، ونومهم نوم الغَرْقَى ، وندمهم ندم الهلكىٰ . وقال آخر : من دواعى المقت ذمُّ الدنيا فى العلانية ، واغتنامها فى السر . يا هذا ! انظر فى كم مِرْقاة

---

(١) ص : هذه .

(٢) كذا بالجيم ، ولعل صوابه بالحاء .

(٣) أى تتداول .

(٤) مهر المراة يمهرها (بفتح الهاء وضمها) مَهْراً ، وأمهرها : أعطاها ، أو جعل لها مهراً .

(٥) أو : حِمْيَة ؟

قد علّيتك ، وفي كم بساط قد خطّيتك ! وكم ثمرة عرضتها لك ، وبكم جهة لاطفتك ! وبكم عبارة شافهتك ! وبكم ضرب عالّتك ! ومن كم وجه أردت الخير بك ! وفى كم طريق سلكتك ! وعلى كم ثَنِيَّة أطلعتك ! وفى كم بحر غمستك ! وأى شمس أطلعت عليك ! وأى كنز أحضرت بين يديك ! فبادر إلى حظك ولا تَلْوِ على غيره . فإن النَّفَسَ وإن كان ممتداً فإنه مرتد ، والزمان وإن كان متصلاً فإنه منفصل ، والوقت وإن كان مساعداً فإنه خاذل ، والكتوم وإن كان جَلْداً [1] فإنه باذل .

يا هذا ! الحركة فى نوع السكون ، والسكون فى هيئة الحركة ، وأنت بينهما مطحون على رفق ولين ، وليس لك عنهما مُنْفَرَج ، ولا إلى غيرهما مُنْعَرَج . فخذ بِخُطام نفسك إلى غايتك ، فلا شفيق لك ولا رفيق ؛ وكن كما قالت البدوية لما وضعت ذات بطنها ، ولم يكن لها من يعينها على شأنها : «تخرَّسى [2] يا نفسُ لا مُخَرِّس لك» أىْ [3] : اصنعى الخُرْسة بنفسك لنفسك ، فليس لك من يتولى ذلك على العادة القديمة .

يا هذا ! ارفع طَرْفَك . أَجِلْ فكرك . أَطِل اعتبارك . اصدُقْ نفسك . اعبُدْ ربك . اهجُرْ غاشَّك . أَطِعْ نصيحتك . طَهِّرْ سِرَّك . ارقُبْ رسولك . أَصلِح فاسدَك . أَلِمّ شَعَثك . جدّد خَلِقك . جرِّد نيتك . هاجر إلى مولاك .

---

(١) الجلد (بسكون اللام) : الشديد القوى .

(٢) الخُرْسة والتَّخْرِسة : طعام النُّفَساء نفسها . وتخرَّسَتْ النُّفساء : اتخذت الخرسة لنفسها . وقوله : « تخرّسى يا نفسُ لا مُخَرِّس (وفى الرواية الشائعة : مخرسة) لك » ، هو مثل يضرب فى قيام المرء بحاجة نفسه إذا لم يكن من يقومُ له بها .

(٣) ص : أنّى .

بابن شهوتك . عاد شيطانك . أجب داعيك . إرْعَ راعيك . قدّم زادك . كَثّر عتادك . ثبّت أياديك . وَتّر وطائك . كشّف غطاءك . افهمْ وتفهّمْ ، واعلم وتعلّم ؛ وبيّن وتبيّن .

اللهم صِلِ التوفيق بقولنا ، والتصديق بعملنا ، والتحقيق بقلوبنا ، ولا تكلنا إلى حولنا وقوتنا ، ولا تحُلْ بيننا وبين ما يقرّبنا منك ، ويدنينا من بابك ، ويجيرنا من عذابك ، [١١٠٣] ويهدى إلينا رضوانك ، ويُفيض علينا غفرانك .

يا هذا ! أرْوِدْ [1] فالأمر غريب ، وارفقْ فالشأن عجيب ، واتخذ الصبر جُنّة فالخطب عظيم ، وقل الحق فالسرّ كليم ، واسبح فى بحر الأحوال فالساحل بعيد ، وتشبث بالهادى فإنك سعيد .

يا هذا ! إذا ترنموا لك بغيب التوحيد على ألحان المعرفة فاشخص عن مكانك ، واشتقْ إلى معانك [2] ، وانقطع عن أقرانك ، وانسلخ عن شانك فى شانك . وليس يكمل لك هذا الرأى ، ولا ينصع فى نفسك هذا النصح ، حتى تقشِر جُملتك قشرا ، وتنشر تفصيلك نشرا ، ثم تطوى معناك طيا ، وترتدّ عن غيّك شيئاً فشيئا . وما أهون هذا التدبير بالوصف ، وما أسهل هذا الإرشاد باللسان ، وما أغزر هذا المنر بالقَرْض ، وما أعزّ هذا المراد بالعَرْض ! هاجت الأسرار ، وماجت الأحوال بين الإيراد والإصدار ، ووَزَنَ كل شى بالاختيار والاضطرار . سقى الله ليلاً كان يلتقى طرفاه على زِفّ [3]

---

(١) تحتها فى الأصل : أورد . والأول هو الصحيح ، فقوله : أرْوَدَ إرواداً ومَرْوداً ومُرْوداً ورويداً ورويداء — فى السير : رفق واتأد وتمهّل .

(٢) المَعان : المنزل .

(٣) الزف : الصغير من الريش . أو لعل أصلها : الرّف ؟

بنات الصدور من معادن الغيث بوسائط العلم على بساط الحقيقة ، بلا قذى من قاذٍ [1] ، ولا شَوْب من شائب ، ولا همّ من هامّ ، ولا نَبْزٍ من نابزٍ ، ولا هفوة من هافٍ ، ولا ضجرةٍ [2] من جافٍ ، ولا وَهْمٍ من واهمٍ ، ولا ضَرْبة من ساهٍ . ما كان أحلى تلك الشمائلَ عند اختلاف الحركات ! وما كان أحلى تلك النوائلَ عند ائتلاف السكنات ! وما كان أحلى تلك القُبَل عند تناول الثمرات ! وما كان أشفى لتلك الغُلل مع تواتر الوَصَبات ! وما كان أضوأ تلك الوجوه عند المباسم المؤنسات ! وما كان أسعد تلك القلوب عند اتصال المُبشّرات !

يا هذا ! الزمْ سَمْتَك فى سيرك ، وزِدْ فى تشمير ذيلك ، وواصل نهارك بليلك ، واتقه عن مُجاورك ، وأبَهْ [3] لمحاورِك ، وتحصّن من نفسك فى نفسك ، وتبرّأ من جنسك فى بنى جنسك ، واشهد الغيب وغب عن الشهادة ، واحفظها عند بروز الحق الذى إذا بدا لك أباد ، وإذا أحبّ أعاد [١٠٣ ب] وأفاد .

---

(١) القذى : جمع قذاة ، وهو ما يقع فى العين والماء والشراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك . قال صاحب « لسان العرب » : « وفى الحديث : يُبْصر أحدكم القذى فى عين أخيه ، ويَعْمَى عن الجِذع فى عينه » ضرب به مثلا لمن يرى الصغير من عيوب الناس ويُعيِّرهم به ، وفيه من العيوب ما نسبته إليه كنسبة الجذع إلى القذاة . وهذا الحديث هو الآية المشهورة الواردة فى انجيل لوقا (أصحاح ٦ : آية ٤١) .

أما قَذى ، يقذى — متعدياً — فنادر ، أورد صاحب « اللسان » عليه شاهداً واحداً هو قول الأصمعى : لا يصيبك منى ما يَقْذى عينَك (بفتح ياء يقذى ونصب عينك) .

(٢) ص : صخره من حاف .

(٣) من أبَه يأبه (كفتح يفتح) أبْهاً له : فطن له .

وإياك وملابسة الكَوْن فإنها تؤديك إلى الفُرْقة والبَيْن . وعليك بالتجريد والتفريد ، وعليك بهجران كل شيطان مَرِيد .

يا هذا ! أتدرى مَنْ شيطانك ؟ أنت شيطانك ، وأنت الذى سهوت عنك بعد ما بَدَوْت ، وغربت بعد ما طلعت ، وبعُدت بعد ما قرنت ، واستوحشت بعد ما أنِسْت ، واستبْدَدت بعد ما استعنت ، فآل أمرُك إلى الخسْر والضَّياع ، ووقف حالك على الغبن والخداع ؛ وليس هذا من علامات عمارات الرِّباع (١) ، ولا من آمارات خصب البقاع ، وليس فيه أيضاً ما يدل على بياض وجهك عند من به ثباتك ، وإليه صراطك ، وعليه عَرْضك ، وعنده مثواك ، وهو مالكك ومصرِّفك ، وهاديك وكافلك ، وفى عاله يبسطك ويقبضك ، وتحت مشيئته جَرَيانُك وسَرَيانُك ، وإليه مصيرُك ومآبك .

يا هذا ! إن كنت مصاباً ، فأين الحزن والجَزَع ؟ وإن كنت مستفيداً ، فأين الفرج والتمتع (٢) ؟ وإن كنت حائراً ، فأين الدليل والهادى ؟ وإن كنت جائراً ، فأين التأبّى والتفادى ؟

إذا سما بك العزُّ إلى علياء التوحيد ، فتقدّس قبل ذلك عن كلِّ ما له رسم فى الكون ، وأثر فى الحس ، و بيان فى العِيان . فبالتقديس يمكنك أن تعانق البادى من ذلك المحل بكُلّك وبعضك . ليس الأمر باللعب ، وليس الحقيقة بالتمنى ولا المطلوب حيث تظن ، الظن هناك يدهدهك (٣) ، والوهم يُسَفِّهك ، والخبر يعصمك ، والاستخبار يُنَوِّهك ، والتسليم يُؤمِّنك ، والاستسلام

---

(١) جمع ربع : مسكن .
(٢) ص : التمنع .
(٣) دهده الشىء : قلبَ بعضَه على بعض .

يحفظك ، والوصف يغلّطك ، والكشف يشططك (١) ؛ والاستمرار يُذلّك ، والاستهتار يُضِلّك ، هناك فنون أنت منها فى عراء لا مؤنس لك فيه :

غُرّ امرؤٌ مَنّتْهُ نفسٌ أن تدوم له السّلامه

اقتصّ من نفسك فقد قتلتك ، ثم أَقْصِها منك بعد قتلها . قتلتكَ بالتسويل (٢) ، وقتلتها بالتعويل (٣) ، [١١٠٤] فكان قَصْرُ كما (٤) التضئيل والتخييل .

اللهم إنا نَرْمى إلى خلقك بما تُلقيه فى رُوعنا من هذه الزجرات المُنَبِّهات ، والعظات النافعات — قصداً منا لانتفاعهم بنا ، وإراغةً (٥) منا لاجتلاب حظهم إليهم باجتهادنا ، وليكون ذلك كله جِلاءً لبصائرنا ، وشحذاً لما كَلَّ منا ، وتنشيطاً لما فَرَّ عنا ، ونظماً لما تناثر دوننا . ونحن نسألك أن تُسَدِّدنا فى مقالنا ، وتعيننا فى فعالنا ، وتوجّه إلينا توفيقك الذى لا يُضِلّ مَنْ سلك نحوك ، ولا يُعمِى من قال عنك ، ولا يخطىء من أشار إليك ، ولا يُخَيِّب من سألك ، ولا يُضَيِّع من توكل عليك .

إلٰهنا ! لولا أنّا نجد من رَوْح هذا الحديث ما يبعثنا على مناغاة عبادك ما انبعثنا لذلك ؛ ولولا أنّا نرجو به وبأمثاله تقرُّباً إليك ومكانة لديك ،

---

(١) شط فلاناً ، شطاً وشطوطاً : شق عليه وظلمه . أما شَطّط تشطيطاً : فمعناه : بالغ فى الشطط ، وهو لازم كما ترى . فهل هنا تحريف من الناسخ ، وكان الأصل : يَشُطُّك ؟

(٢) بأن تسوّل لك نفسُك أموراً خبيثة .

(٣) التعويل : الاعتماد على الغير .

(٤) يقال : قَصْرُك أن تفعل كذا وقصاراك (بفتح القاف وضمها) ، وقَصيْراك وقصاراك (بضم القاف فيهما) أى : جُهْدُك وغايتُك .

(٥) أراغ الشىء : طلبه وأراده ، كارتاغه .

ما تقرّبا[1] عن سرك المخزون ، ولا نطقنا عن غيبك المكنون . وكان إعراض مَنْ أعْرَضَ عنك هيّناً علينا ، وهلاك مَنْ هَلَك عن حظه سهلاً عندنا ؛ ولكنا نرى فى ذلك ما ترينا ، فيرى غيرنا منه ما يكون زيادتنا فى مقامتنا ، وسبباً للرفق فى سعادتنا ، وباباً مفتوحاً إلى الفوز الذى طال فى طلبه سعينا ، وأنْفِدَ فى تحصيله وسعنا . يا ذا الجلال والإكرام !

رسالة (له)

اللهم إنّا قد بذلنا دون طاقتنا فى طلب ما عندك ، فهب لنا تأييداً منك حتى نستنفدها فى حِيازة رضاك ، فإنك إن وكَلْتنا إلينا عجزنا ، وإن تركتنا علينا تحيّرنا ، وإن كنتَ لنا فيما بينك وبيننا فُزْنا . وكيف لا نطلب فائتنا منك وأنت[2] المفيت ؟ وكيف لا نحاول فائدتنا عندك وأنت المفيد ؟ وكيف لا نشهدك فى كلنا وبعضنا وأنت المحيط ؟ جلّ شأنك عند كل شأن ، ودقّ سرك عن الإسرار والإعلان ، وغَنِيتَ عن أن تُعْرَف بدليل وبرهان ، لأنك قبل كل أُثرةٍ[3] وعيان ، وبعد كل إيضاح وبيان . فمن ذا ينعتك وأنت تفوت النعت ، ومن ذا يجحدك وأنت مالك الوَقْت !

[١٠٤ ب] أيها الصديق المشفق ، والصاحب الموالى ، والمشتكى المساعد ! [و] < اسمع > ماغشينى من عِيانى وخبرى فلعل حُسنَ الاستماع منك ينفى عنى وحشة قد كدّتنى وآذتنى ، وردّتنى عن مقاصدى وأرْدتنى . فلو انكشف عنك

(١) كذا فى الأصل ، ويمكن أن يكون صوابه : تقربنا من .. أى اقتربنا أو اقترنا لسرك .. أى أطقناه .

(٢) أفات فلانٌ الأمرَ فلاناً : أذهبه عنه .

(٣) الأثرة (بضم الهمزة) : نقل الحديث وروايته .

غطاء أمرى ، وبدا لِتَصَفُّحِك وجهُ عذرى ، أشرفتُ على حقيقة عُرْفى ونُكْرى ، وتجلَّت عندك خالصةُ سِرّى وجهرى . وكنت أُكفى مؤونة الاعتذار ، كما قد كُفِيتُ غائلة الاغترار ، وعلانه[1] الاختيار والاضطرار .

قد أصبحت مرضوض البال ، مخفوض الحال ، زِمِنْ معنى قد ولهنى على خيال ما مضى ، وأذهلنى عن الكأس الذى غرا[2] ، واستعارنى بالفكر فى المستقبل الذى لعله لا يُحَسّ ولا يُرَى ، لا جَرَمَ أُسقى ممزوجاً وأستَسْقى صِرْفاً ، وأهَبُ حياءً ، وأُكافأ حتفاً ، وأعد ما أعد حقاً ، ولا أجِدُ ما أوجد إلا خلْفا[3] . على أنى إن <تحركتُ> تحركت مستقيلا ، [وإن أمسكت أمسكت ممرعا الان[4]] ، وإن سكَتُّ سكَتُّ مُسَلِّماً ، وإن قلْتُ قُلْتُ متأدباً ، وإن سكنت سكنت متهيباً ، وإن طلبت طلبت متضرعاً ، وإن أمسكت أمسكتُ متفزعاً . فأين الآن مالى فيا[5] علىّ ، أو أين ما بى بما فىّ ؟ فيا بُشراى إن كان المراد مستجيباً ، والسعى نجيحا ، والتمنى حقاً ، والمطلوب مدركا ! ومرحباً بالخيبة إن كانت مربحة ، وبالحرمان إن كان غاية ، وباليأس إن كان أحرى ، — فقد قيل : القتل أعفى من الأسر . عجباً من سِرٍّ أناف على العلانية بالحقيقة ، وعلانيةٍ تمزقت بالبحث عن الجليلة والدقيقة . بل عجباً من خبَرٍ استعلى

---

(١) كذا ! ولعل صوابه : عُلاثة : من التعلث ، وهو التمحل والتعلق وترك الأحكام .

(٢) فى الأصل : عرا ، (بالعين) ولم نر له هنا معنى مناسباً ، فآثرنا أن يكون صوابه : غرا (بالغين المعجمة) ، وغرا : أى برد ماؤها .

(٣) الخلف (بفتح الخاء وضمها) : الباطل .

(٤) هذه الجملة لا شك زائدة ، لأنها وردت بعد قليل .

(٥) ص : فما .

على العِيان ، وعيانٍ توارى بالخبر بلا بيان ! وأعجبُ من ذا وذا أننى أراه بعين الرّضا فى الغضب ، فيا ويلى منى أو ممن أنا به فى كنفى وأينى ! ماذا أريدبى ؟ وماذا أريغ (١) نحوى ؟ وأىّ قضاء غُصَص بعيْنى وشجوى ؟ أثبتنى (٢) لى ثم أبطلنى ، وعطَفَنى علىّ ثم خطبنى منى . فلو أنه حين أثبتنى أمدنى ، لكنتُ بالرضا محسوداً ؛ أو حين عطفنى على بقائى ، لكنت بالمنى مقصودا . ولكن، وهب لى ما وهب من غير حاجة منى إليه ، ثم أخذ منى ذاك بعد إلْفى له ووَلَهى عليه ؟ قدرة لا تحاط ، وحكمة لا ينال منتهاها ومُشْبِه منتهاها، ومشيئة لا يدرك مداها ، وحَيْرَةٌ مُسلَّة فى أولاها وأُخْراها . ولولا شدة النفس الكذوب ، وجماح الطَّمَع الوَثوب ، لكان اليقين تلو الإيمان ، والتسليمُ قَبْلَ البرهان ، والثقة فى الخبر قبل الشهادة بالعيان ، لأن المنعم بدأ بالنعمة قبل الاستحقاق ، فأسلف العتق قبل الاسترقاق ، فسبق الجودُ بما أوفى على التحكم ، وأتت الجملة بما زاد على التفصيل . فويلى من جهلى بجهلى ، بل ويلى من علمى بعلمى ، بل ويلى من كلى وبعضى ، بل ويلى من طُنّى (٣) وغُرْضى ! بل ويلى من قالى وقيلى ، بل ويلى من طلبى وسُؤْلى ، بل ويلى من وَلْى وعَوْلى مِنْ عَوْلى . عَيشَ زمنٌ بالحقائق ، وشاهدٌ صَرّح بالعوائق ، ومُحَصِّل الرمز والصّراح حيران حرّان بين الروائق والبوائق (٤) .

يا هذا ! إن فهمت هذه اللغة من هذا الديوان على هذه الكناية فقد فزت ما (٥) تريد لأنك لا تصغى إلا إلى ناطق ، ولا تقع إلا على شاهد ، ولا تقترن

---

(١) أريغ : طِلب .

(٢) ص : اثبتى .

(٣) الطُّن : الجسم . أو لعل صوابها : طولى ؟

(٤) الروائق : ما يروق ويعجب ؛ والبوائق : جمع بائقة : داهية .

(٥) كذا ! والمألوف وفى المعاجم : فاز بكذا .

إلا بمُنصِح ، ولا تستنيم إلا إلى مرشد . وعند ذلك تحُول وحشتك أنساً ، وتزول دهشتك رأساً ، وتتبرأ من كل ليتَ ولو ، وكيف وأين وعسى .

يا هذا ! أحْصِ أركان نعمته عندك ، وأصناف أياديه قِبَلك ، ثم اعترف بأنه أولها بالجود وثانيها بالمزيد وآخرها بالدوام . فإنك إن سهوت عن الإحساس بنعمته لم تصلح أن تكون فى المخصوصين بخدمته ، ومن لم يصلح لخدمة الملوك لم يُؤَهَّل لأسرار القلوب ، ولم يوثق به فى عوارض الأمور فى جملة مانبهتك عنه [(١)] وحركتك إليه .

إنه وهب لك حياة بها تحس وتلذ ، وبها تعيش وتنعم ، وبها تتحول وتسكن . ثم وهب لك قلباً جعله معْدِن توفيقه ، ومأوى الطمأنينة به ، وكهف الإيمان بربوبيته ، وحرَم الأُنْس بمناجاته ، ومنبع الخواطر فى مناغاته . ثم وهب لك عقلا به وَصلك بنفسه ، وبه أطلعك على غيبه ، وبه عرض عليك بدائع ملكه وعجائب كونه ، وبه استخلصك لمخاطبته ، وبه حاشك [(٢)] إلى حظك فى معاينته ، وبه منعك من نكرته ، وبه عمك فى معرفته ، وبه وعدك لتملك ، وبه وعدك لئلا تهلك ، وبه ربّاك وغذّاك ، [١٠٥ ب] وذرّاك وروّاك ، وبه كلّفك وشرّفك ، ولطفك وَطرّفك ، وما لا تحصيه فكرا ، ولا تلم به ذِكْرا . ثم وهب لك لساناً تذكره وتذكر أسماءه ، وتصفه وتصف آلاءه ، وبه تنشر عجائب قدرته ، وتستخرج دقائق حكمته ، وتستنبط جسائم نعمته ، وتستدعى عواطف رحمته ، وتتعرض للطائف رأفته . فانظر كيف

---

(١) ص : ايه . ويمكن أن تقرأ : إيه ! لكن آثرنا أن نرى فيها تحريفاً صحته ما أثبتناه .

(٢) حاش الصيدَ : جاءه من حواليه ليصرفه إلى الحبالة ، كأحاشه ، وأحوشه ، والإبل : ساقها .

ركّبك وقسّمك ، وكيف جمعك ونظمك ، حتى تحس بروحك وتنعم ، وتهتدى بعقلك وتعلم ، ويطمئن قلبك ويسلم . فهل منعمٌ له هذه الأوائل والثوانى ، وهل قادر على هذه الأسرار والمعانى ، وهل أحدٌ يرقى إلى هذه المغانى ، ويشهد هذه العيون الروانى ؟ هيهات ! أنت مغرور بالآمال والأمانى ، مخدوع بالأشغال والتوانى . فليتك إذ عرفت < عرفت > محلك منذ جنحت إلى ما يجلب الرحمة إليك ولا يوكل الغيظ بك .

يا هذا ! توكل وخَفْ ، وارجُ وسَلِّم ، وارضَ واصبِرْ ، واشكُر واطمع ، وأخلِصْ وتيقن ، وأحْبِب وثِقْ ، واعرِفْ واسترح . فإنك إذا توكلت خائفاً آمنك كافياً ، وإذا رجوت مسلماً قبلك مصافياً ، وإذا رضيت صابراً قربك متقبلا ، وإذا شكرت طامعاً زادك مكافئاً ، وإذا أخلصت متيقناً ، اتخذك مناجيا ، وإذا أحببت واثقاً ، أبرزك عيناً ، وإذا عرفت مستريحا استخلفك واحداً . وإذا بلغت هذه الذروة العليا ، فقد اعتصمت بالعروة الوثقى ، ولا يبقى بعدها لك ما يكون اقتراحاً منك ، وتحكماً لك ، بل يصل ذلك بنظائره مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فهَلُمّ — عافاك الله — إلى حضرة العز ، وبساط الكرامة ، ومجلس الأُنس ، وسُدّة الغنيمة ، وفضاء الروح ، وسُرَر الأمان ، وساحة الإلهية ، وبُحبوحة الربوبية ، حيث الكون بما فيه عدمٌ ، وكلّه بما عليه حُلْمٌ .

يا هذا ! ارحم نفسك لنفسك ، واطلب حظّك لحظك ، وحصّل غدك من يومك ، وتفرد بخوائضه (1) أمرك ، ودع عنك ما خياله عاجلٌ عيانا ، ووباله آجلٌ إيمانا . أما تمتعض من وقوعك فى فخ الهوى وحبالة الشهوة وشرك

---

(1) كذا !

الشيطان بسببٍ ظاهرٍ لا ثبات له، وزِبْرِجٍ [1] لا صنعةَ فيه، وعارض [١٠٦ا] غيثٍ لا لُبث معه، وظل لا مُعرَّج عليه . وهبك اغتررت وفَوْداك [2] بحكيان الغُرَاب، فما عذرك الآن وقد نبا عنك الخضاب؟ لا عذر إلا سوء العافية، وقلة النظر وفساد النية . وإلا فالمنادى بعيد الصوت، رخيم [3] الجِرْم، لطيف النصح، حسن الهداية، شديد الشفقة . لكنك فى سكرتك عامِهٌ [4]، وفى صحوتك من خُمارك والِهٌ . فإلى هذا، متى تستقل والفرص تمر مر السحاب، والندامة والحسرة تجتمعان فى العواقب؟ أتدرى ما قال الواعظ النصيح، وهو أبو الدرداء؟ قال: البِرُّ لا يبلى، والوزر لا يُنسى، والدَّيان لا ينام؛ فكن كيف شئت، فكما تدين تدان .

اللهُمَّ إنا نسألك عصمةً بها نصل إليك، وتوفيقاً به نثق بك، ولطفاً إذا جُدْت به استرحنا بنا معك . فقد أُتينا من حيث إن احتججنا به كَسْرَته علينا، وإن سكتنا عنه رجونا أن تُحْسِن بفضلك إلينا . على أنه لا يليق بنا إلا ما يليق بالعبد، ولا نتوقع من جهتك إلا ما نتوقع من جهة السادة . والعبد، وإن أساء أدبه جهلا وعبطة [5]، فإن المولى لا يؤاخذه أخذاً محتاجه [6] .

---

(١) الزبرج: (بكسر الزاى والراء): الزينة من وشىٍ أو جوهر، والذهب، والسحاب الرقيق فيه حمرة .

(٢) الفَوْد: معظم شعر الرأس مما يلى الأذن، وناحية الرأس، والناحية .

(٣) الرخيم: السهل المنطق، اللين .

(٤) العَمَه (محركة): التردد فى الضلال، والتحير فى منازعةٍ أو طريق، أو أن لا يعرف الحجة . والفعل: عمه (كمنع وفرح) عَمَهاً وعُموها وعُموهة وعَمَهاناً، وتعامه؛ فهو عَمِهٌ وعامه، والجمع: عَمِهون وعُمَّه (كرُكَّع) .

(٥) كذا! ويمكن أن يكون: عبطة، أى تعسفاً واعتباطاً، أو غيظة .

(٦) كذا! ولم نهتد لوجهه إلا تأويلاً .

اللهم إنّا لا نخاف حِقْدك ، ولا نخشى جَوْرك ، ولكنا نخاف عدلك ونرجو فضلك . ونحن وإن كنا أهلاً لعدلك الذى يأتى علينا ، فإنك أهلٌ لفَضْلك الذى يتم به إحسانُك إلينا . أيها السامع ! أما ترى تناثرى فى كلامى ، وترجُّحى فى مقامى ، وقصورى لتلونى عن مرامى ؟ هكذا أجدنى فيما أقول ، وعلى ذا أرانى مما أصول . فحدثنى عنك وعن حالك ، واصدُقْنى عن غايتك ومآلك ، لعلى أجد بك ما لا أجد بى ، وأُحَصِّل عنك ما ليس يحصل منى . فقد طال لَهْثى وارداً ، وتضاعف لهفى صادراً ، وعظم شغفى شاهداً ، وامتد نَفَسى بالحسرة غائباً ، وتردد قولى مملولاً ، وعاد حَدّى مفلولا . كأنى وبال علىَّ ، أو كأنى آفة فىَّ ، أو كأنى بلاء عندى . ليس يخلص لى رأىٌ فى وجدان ما أطلب متلطفاً ، ولا يصفو إلىَّ مُرادٌ فيما أقضيه عنى متكلفاً . قد اكتنفتنى المصائب فى فَوْت المطلوب وعزة المطلوب ، واستولت علىَّ الوساوس فى نفى ما لا سبيل إلى نفيه ، فبُذِل التالد والمكسوب ، فأنا البارك المتجعجع [1] ، والتارك المتشعشع [2] ، والقائِل المُمَدَّد ، [١٠٦ ب] والساكت المتلدد [3] . إن ظهرتُ بالرسم لزمنى حدُّ النفاق والشِّقاق ، وإن بَطَنْتُ بالحقيقة حُمِلت على تكليف ما لا يطاق . وإن تظلمت قيل لى : جنيت على نفسك بالجهل فاستحققت العقاب ؛ وإن تشفعتُ بالواسطة قيل لى : قد آن أن تنقطع بك الأسباب ، وتَشْمَتَ بك الأعداء ، ويرحمك الأحباب .

---

(١) تجعجع : ضرب بنفسه الأرض ، مِنْ وَجَعٍ .

(٢) يقال : تشعشع الشهر : أى بقى منه قليل . — يقصد هنا أنه هو التارك مع أنه لم يبق منه إلا القليل .

(٣) تلدّد : تلفت يميناً وشمالاً وتحيّر متبلداً .

أما تعلم أن المُستغاث إليه فى شُغل عنك ، ولكلٍ فى حقيقته حقٌ يعنيه ، وأول يبديه ، وآخر يُبْليه ، ووسط يفنيه ويفنيه .

أما تعلم أن كل شىء مما تكلفه لغيرك موصول بالكفاية ، ولكن ليست الكفاية موصولة بالنهاية ؟

أما تعلم أن المراد منك لا يدين لك به ، والعلم بك على خلاف ما تظنه منه ؟ فمفروضك لك مردود عليك ، ومفروضك منك ممدودٌ إليك ؟ أما تعلم أنك مخدوع بالسراب عن الشراب ، ومحجوب عن الوصال بالعتاب ، ومطالب بما لا تحقُّه وهماً < و > لا تظفر به فهْماً ولا تنال منه سَهْماً ؟

أما تعلم أنك أعْريت جنبَك لكل رامٍ بدَعواك التى قد فضحتك بين الأنام بهذا الكلام الذى ليس دونه ولا فوقه إلاّ كلام . فإن كان ذوق أو وجد ، أو شهود أو انكشاف ، أو لَحْظٌ أو إدراك ، أو أثر أو خبر ، أو حاصل أو راحة ، فأين علامة استقلالك به ، ودلالة كالك فيه ؟ وأين ما بوشر به فؤادك صِفاحاً[(١)] ، وبشر به روحك كفاحاً ؟ وأين ما يؤخذ منك فيما يوجد بك ؟ وأين [على] ما يوجد لك مما يوجد فيك ؟ وأين النطق الإلهى ، والبيان الربانى ، والنظر الذى إذا امتد شُعاعه من العين أحرق الكون بجميع ما فى الكون ؟ وأين القدرة التى بها تقلب الأعيان ، وفيها تفرق الدهور والأزمان ؟ وأين الحكمة التى بها تستأمن العقول الخاصة ، وبها تستولى على فضائل الخاصة والعامة ؟ وأين الفهم الذى به تملك الوجوه والنواحى ، وبه تُضْرَبُ الدوانى والتواصى ، وتأمر الكون فيقف ، وتشير إلى كلٍّ فيَجِفُ[(٢)] ، ثم ينبعث فتصِفَ ، وينتهى فتعرف ؟ إن كنت لم تبلغ هذا المدى فلا تتعرض

---

(١) صفاحاً : مصافحة .

(٢) من وجف (من باب ضرب) وَجْفاً ووجيفاً ووجوفاً : اضطرب .

بجهلك للرَّدَى ، والزم حدك فيما أنت مرفوق بك فيه ، ومرحوم عليه به . فإنه إن اشتعلتْ عليك نارُه لم تطفأ بِبَحْرِك ، وإن حمى عليك أُواره لم يسكن بقوتك وحَوْلك . والله المستعان ، وعليه التُّكلان (١) .

رسالة (لو) [١١٠٧]

يا هذا ! أما ترى كيف نُصِبَ كُلُّ شيء تُجاه عينك لتبصر ، وقُبالة قلبك لتفكَّر ، ورُدِّد على مشاعرك وإحساسك لتعتبر ، ولُطِفَ بك فى الأول والثانى لتثق وتنتظر ؟ فأبيت إلا اللجاج الذى به هَلَك مَنْ تقدمك وأنت تراه ، وعاندت نفسك حتى كأنك عدوُّك . إن أنت إلا بلاء عليك ، وإن أنت إلا ميؤوس منك . الويل لك منك ، والحسرة لازمة لك بك ! أما لك من شراب الدنيا صحوٌ ؟ أما لك من أقذارها أَنَفة ؟ أما بك حاجة إليك ؟ أما لك ذرة من الشفقة عليك ؟ أما تشهد هذه الآثار التى يجلوها عليك الليل والنهار ؟ أما تعاين هذا الاختلاف الدائم بين الإيراد والإصدار ؟ أما تستبين الفرق بين مدارج الإعلان ومناهج الإسرار ؟ أما تبحث عنك ؟ أما تعرف إياك ؟ أما تَحِنُّ إلى مأواك ؟ أما تشتاق إليك ؟ أما تَفْرَقُ (٢) من فاجئات الغيب ؟ أما تستحيي من الاشتمال على العَيْب ؟ إلى متى هذا الأُنْس بالوحشة ، وهذا الاعتراف بالنَّكِرة ، وهذا الذهاب فى المَضَلَّة ، وهذا الزهد فى الحظ ، وهذا التجليح (٣) بالبخت ، وهذا الاعتقاد للباطل ، وهذا الاستشهاد

---

(١) التكلان (بضم التاء) : الاتكال ، الاعتماد والتفويض .

(٢) تخاف .

(٣) جلَّح على الشيء : أقدم إقداماً شديداً . وجلَّح فى الأمر : صمم وركب رأسه .

بالزور ؟ أين التوقع للموت ؟ أين الإعداد لما بعده ؟ أين الفكر فيما له طائل ، إذا جاء الحق وزهق الباطل ؟ أين لائمة النفس على التفريط ؟ أين قَبول الهُدى من الناصح ؟ أين الرضا بالمقدور ؟ أين الاستسلام للحكم ؟ إين إمساك اللسان عن الفضول ؟ أين سلامة الصدر فى الأمور ؟ أين الشفقة على زمان الحياة المنصرم ؟ أين الشوق إلى البقاء الدائم ؟ أين الاعتبار بهذا العالم ، القديم بقدرة الناظِم ؟ أين التزود لهذا الطريق الشاسع ؟ أين الاحتياط فى أمرٍ لا محالة واقع ؟ لِمَ تُكْذِبُ نفسك ، وأنت تغضب إن كَذَّبك غيرك ؟ لم تغمسها فى البلاء وأنت (١) تطالب بها فى جميع معاملاتك ؟ لِمَ تُوقد نار الغضب عليك (٢) وأنت لا ترضى بمثله من مثلك ؟ لم تحول بينك وبينك ، وأنت المتهالك فى ذلك ؟ لم تخالف العقل فى نفسك ، وأنت تحتج به على سواك ؟ لم تنقض العادة فى خاصتك ، [١٠٧ب] وأنت تطالب بها فى جميع معاملاتك ؟ لم توقد نار الغضب عليك حتى تحترق بها ؟ لِمَ تُشاقّ (٣) الحق حتى يفارقك عند حاجتك إليه ؟

يا هذا ! « أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقونَ خَيْرٌ ، أَمِ اللهُ الواحِدُ القَهَّارُ » (٤) ؟ فلِمَ تَعْبُدُ هواك ، وتَذِلُّ لشهوتك ، وتتحمل الأذى فى البلوى فى حظ ساعة تبقى عليك تبعاته ، وتنأى عنك لذاته ، وتدع السعى (٥) ؟ فعاله مَرَدُّه عليك ، وثمره (٦) لك على الدوام والسرمد والخلود والأبد .

---

(١) فوقها : معتاد أو : معاد .

(٢) فوقها : دهاها ؟

(٣) من المشاقة : أى : المنازعة .

(٤) سورة « يوسف » ، آية : ٣٩

(٥) غير واضحة تماماً فى الأصل .

(٦) ص : ثمرُه .

أما سمعت بعض الدعاة إلى الله كيف قال فى أمثاله ومواعظه : لو كانت الدنيا من ذهبٍ فانٍ ، والآخرة من خزفٍ باقٍ ، لكان ينبغى أن يُرغب عن الأولى ويُزهد فيها ، وتُطلب الأخرى ويرغب فى الآخرى ؛ فكيف والأمر على العكس ، بغير شك ولا لَبْسٍ : إن الدنيا من خزَفٍ فانٍ ، والآخرة من ذهبٍ باقٍ . أَشهَدُ أن أمراً يعوق عقولنا عن هذه الغاية التى قد جلّت عن الخبر وبادت على العيان لعجيبٌ ، وأن سبباً أوْرَثنا هذا الجهل لغريب ؛ وأشْهد أن حكم الله نافذ ، وقضاءه ماض ، وإرادته سابقة ، ومشيئته معيَّنة ، وعلمه خافٍ ، وأن الخلق على تلك المناهج يَصْعدون ويَتحدّرون ، وإلى تلك المعارج يَعْرُجون وينقلبون . فطوبى لمن سبقت له منا الحسنى ، فسلك الطريقة المُثلى فى هذه الحياة الدنيا ، ثم ارتفع إلى الدرجة العليا ، واختلط بالملأ الأعلى ، غير معرَّج على ما ترك ههُنا وخلف ، بسروره بما وجد هناك مما قدم وأسلف . فقد نظَرْتَ — عافاك الله — ونظرنا ، وعرفتَ وعرفنا ، وبان لك كما بان لنا : أن مدار الأمر منا والأخذ بالأحوط عندنا إنما هو فى اللياذ (١) بالله والفزع إلى الله ، والاستسلام لله ، والتصرف بين يدى الله ، بخلع الحول والقوة إلا بالله ، والهرب من أوطان عدو الله ، والتعلق بهَدْى أولياء الله ، لعلنا نحوز مَرْضاة الله فى جوار الله .

اللهم إنك شاهدنا ، وشاهدٌ فينا ، وشاهدٌ بنا ، وشاهد علينا . فبحرمة شهادتك التى قد اكتنفتنا منك ، وبقدرتك التى أبرزتنا [١٠٨ ا] لك ، وبجلالتك التى حقّقتْ فاقتنا إليك ، وبنورك الذى سطع علينا منك ، وبنعمتك

---

(١) الالتجاء إليه ، أو الاستتار والاحتضان به ، كاللواذ (مثلثة : اللام) . والملاوذةُ : الإحاطة . والملاذ : الحصن .

التى غمرتنا بك ، وبرحمتك التى جمعتنا على بابك ، وبسلطانك الذى قهرنا[١] لعزك ، وبالخير الذى توالى عندنا من جهتك ، وبكلمتك التى سمعناها على لسان المُبلِّغ عنك ، وبسرك الذى حجبتنا عنه بحكمتك — إلاّ بشَّرْتنا برضاك عنا ، ومحوْتَ بكَرَمِك صحائفَ ذنوبنا ، وبدلت سيئاتنا حسناتٍ ، ورفعتنا إليك درجات بعد درجات ، وأقررت عيوننا بالنظر إلى وجهك ذى السُّبُحات[٢] ، وعمَمْتنا بالكرامات ، وخصَصْتنا بما لا نصل إليه بالصوم والصلاة والحج والغَزاة[٣] ، فلا[٤] بشىء من الأعمال والقُرُبات ، بل بفضلك وجودك اللّذين أتيا على الطلبات والرغبات ، وزادا[٥] عليها مقامات وبَسْطات بلا غايات ولا نهايات .

إلهنا! هذه آمالنا فأعطِناها ، وهذه أمانينا فبلِّغناها ، وهذه عطاياك فهنِّئناها .

اللهم إنك إن دعوتنا فى الظاهر بلسان تكليفك ، وغمرتنا بضروب حججك ، وأسمعتنا محكم آياتك ، وشملتنا بأنواع خيراتك ، وملكت نواصينا بقدرتك ، وظاهرت[٦] عندنا المخبرين عنك المرشدين إليك . لكنك ، يا ربنا ! طويت عنا إرادتك بنا ، وأخفيت حِكَمك لنا وعلينا ، فبقينا حيارى متسكمين ، وسُكارى مُتدلِّهين . وهذه ربوبيتك المُسَلَّمَةُ لك ، وسلطانك المردودُ إليك ، لامُعارِضَ لك ، ولامُتحكِّمَ عليك . لكنا ، يا ربَّنا ! لا نستطيع

---

(١) ص : قهرتنا .

(٢) سُبُحات وجه الله : أنواره .

(٣) أى الجهاد فى سبيل الله .

(٤) كذا ! ولعلها : ولا .

(٥) ص : زاد .

(٦) ظاهر فلاناً : سنده وأيده وأعانه .

حِفْظَ أنفسنا على طرائق أمرك ونهيك إلا ببوادى صُنعك ولُطفك. فاكنُفْنا، يا إلٰهنا! بالعِصمة، واحفُفْنا، يا ربنا! بالنِّعمة، واعطِفْ علينا، يا سيدنا ومولانا! بالرحمة، حتى نحوز رضاك، وننال الفوز الأكبر فى دُراك.

أيها الرفيق المؤانس، والصاحبُ المُلابِس! إلى متى تطالبنى بالكلام فى هذا النَّمطِ وأنا على ما تعرف من ضيق صَدْر، وتقَسُّم فكر، وغُروب لُب، وذُهول بال، وتشتُّت رأى، وخاطرٍ عقيم، وفؤاد سقيم، ومصائبَ فى الدين والدنيا متوالية، وآفات فى الصباح والمساء متواترة؟ لا جَرَمَ إن وعظتُ استحييْتُ من الله مِنْ قلة [١٠٨ ب] اتعاظى، وإن هَدَيْت خجلتُ من شدة ضلالى، فإن بَيَّنْتُ قطعت عن البيان سوء استبانتى. فإذا كان كُلّى وبالاً علَىّ، كيف يكون بعضى فائدة لغيرى؟ إلى الله نشكو ما حلَّ بنا منا. فقد والله طالت البلوى، واشتدت النَّجوى، وقلت الدعوى؛ فإنه أولى من شُكى إليه، وأحقُّ من تُوُكِّل عليه.

اللهمّ إنه لا غَنِىَّ إلا من أغْنَيْته، ولا مكْفِىَّ إلا من كفَيْته، ولا محفوظ إلا مَنْ حفِظْتَه — فأغنِنا واكْفِنا واحفَظْنا. وإذا أردت بقومٍ سوءًا فميِّزنا عنهم، يا أرحم الراحمين!

إلٰهنا! الرغباتُ بك موصولة، والآمالُ عليك مقصورة، والخدودُ لقدرتك ضارعة، والوجوه لوجهك عانية [١]، والأرواح إليك مشوقة، والنفوس إلى كهف غيبك مَسوقة، والأمانى بك منوطة، والأيدى لجودك مبسوطة، والهِمَمُ إلى طلب مَرضاتك مرفوعة، وآلاؤك عند جميع الخلق مشهودة ومسموعة. فآتنا اللهم من لَدُنْك ما لاق بكرمك، وانْفِ عنّا ما قد نفانا

---

(١) عنا، يعنو: خضع.

عن بابك ، واشرح صدورنا للثقة [١] بك ، ووفقنا لما يُبَيِّض وجوهَنا عندك ، ويُطيل أَلسنتَنا فى تحميدك وتمجيدك ، يا نعم المولى ونعم النصير !

اللهم أَفْرِغ علينا من رحمتك ذَنوبا [٢] ، واجعل لنا فى مسالك مَرْضاتك طلوعاً [٣] وغروباً ، وأَنِلْنا من لَدُنْك هدى وبشرى و نصيبا ، واحفُفْنا برضوانك بعد أن تغمدنا برحمتك وغفرانك . إنك ذو الجلال والكرامة ، فى هذه الدار ودار المُقامة [٤] .

أيها الإنسان الذى قد شَقِى فى هذا الحَرّ الواقد ، والهواء الراكد ، بالجوع والعطش ، صائماً ، هل لك خبر عنك فيما أُريد بك ؟ وهل لك إحساس بما سيق إليك ؟ أم أنت من الجاهلين ، بل الغافلين عنك ؟ ما أخوفنى عليك ! وأشدّ يَأْسى مِنْ فلاحك ! طال جوعُك وعطشك فى صومك ، ولا تدرى ما حاصلك فى غدك من يومك ، وما الذى عاد إليك بقصدك ورَوْمك [٥] ؟ أظن أنك مغرور ، وعلى ما أصبت به غير مأجور ، وبما طلبته ووجدته غير مسرور . وهذا لأنك مسلوب الإخلاص فى العبادة ، قليل النشاط فى الاقتداء بالسادة والقادة . [١١٠٩] تتيقظ فى أمور الحياة الدنيا ، وتحلُم بأحوال الدار الأخرى . وليس هذا من رأى أُولى النُّهى والحجا ، ولا من عادة ذوى الورع والتقى . بل اصحَبْ عاجلتك بالحِلْم حتى تستيقظ فى آجلتك بالعلم ،

(١) ص : لثقة . ويجوز أيضاً .

(٢) الذنوب (بفتح الذال) : الدلو الملأى ، والحظ والنصيب . والجمع : أذْنِبة وذنائب وذِناب .

(٣) ص : طوعاً . وهو تحريف ظاهر .

(٤) دار المقامة : دار البقاء ، أى : الآخرة .

(٥) مصدر : رام ، يروم : رغب .

أعنى العلم الذى لا شَوْب فيه من الشكوك ، ولا غِشاء على صاحبه من الذنب ، ولا أثر فيه من الظنون ، بل هو يقين حق وحق يقين ، لمثله جَهَد الجاهد رائحاً وغادياً ، ومن أجله زَهِد الزاهد ناهياً ودانياً . فاطلب نفسك أيها الصائم فى هذه المواطن : فإن كنت بها ثاوياً ، وفى عرَصاتها متبختراً ، ومن أغصانها جانياً ، — زانتك العبادة ، وشملتك العصمة ، ودَرَّ عليك خِلْفُ (١) التوفيق . وإن كنت عنها بعيداً وعن أسبابها ساهياً ، شَمِت بك عدوُّ الله ، وتجنبك عباد الله ، ومقتك ملائكة الله ، ورفضك كلُّ خَلْق الله . لا تُظِلُّك سماء إلا بالصاعقة ، ولا تُقِلُّك أرضٌ إلا بالفاقرة (٢) ، ولا ترمقك عين إلا بالزراية ، ولا يذكرك لسانٌ إلا بالغواية ، ولا تصافحك يد إلا بالكراهة . فاذخَرْ — هداك الله — مختارة لا بوار لها ، وانْحُ غايةً لا لُبْثَ دونها ، واستشعر الرَّغَب فيما أنت عليه تَنَلْ الدَّعة فيما تنتقل إليه . واحصُرْ فَلَتات لسانك فى صومك ، وحركات قلبك فى نيّتك ، وخواطر سرك فى ضميرك . واعلم أن الله على قدر ذلك يُجْزِل مواهبك ، ويفتح مذاهبك ، ويُريك فى نفسك ما يتضاعف به الشك ، ثم يطويك عن الدنيا وآفاتها ، وينشرك للآخرة وبركاتها ، ويحبب إليك خيراتها وبهجاتها . قد أقبلتَ (٣) العيدَ ، ولبست الجديد ، فهل أنت واثق بما عرج منك إلى الله الحميد المجيد ؟ إن كنت واثقاً غير مغرور ، وآمناً غير خائف ، ومطمئناً غير مستوفز (٤) ، فما أسعدك بما كان منك ! وما أغبطك بما أفضيت إليه ! — وإن كان الأمر على غير هذا النهج ، فما أولاك بالنوح

(١) حلمة ضِرْع الناقة .

(٢) الفاقرة : الداهية الشديدة ، كأنها تكسر فِقَر الظهر . والجمع : فواقر .

(٣) جعلته قُبَالتك ، أى : استقبلته وجعلته مقبولاً لديك .

(٤) استوفز استيفازاً فى قعدته : قعد غير مطمئن ، وكأنه يتهيأ للوثوب .

على نفسك ! وما أحوجك إلى استئناف أمرك ! وأغلبُ ظنى أنك فى الحالة الثانية راسخ ، وللحال الأولى ناسخ . وقد قيل لبعض السلف : متى يكون العيد ؟ فقال : كل يوم [١٠٩ ب] لا تعصِى الله فهو عيد . اهـ .

حبيبى ! للناس عيد بالعادة فى الخروج من الصوم ، ومراجعة الأكل والشرب والتنعم . فإن كنت منهم ، فما أخسَّ حظك فيما كنت متقرباً به إلى ربك ! وإن باينتهم ، فما أفوز قَدَحك فيما أنت مخصوص به عند ربك ! فهات علامتك التى هى علامة القبول ، وإلا فابْكِ على ما فاتك بكاء المُعْوِلة الثَّكول اهـ .

أتدرى ما العلامة ؟ العلامة أن ترى نفسك يوم العيد ذليلة بالشكر ، لِهَجة بالذكْر ، مستبسلة بالصبر ، خاضعة بالتوجه ، متواضعة بالتنزُّه ، متبدِّلة بالتوبة ، مُقْلِعة عن الحَوْبة [١] ، راغبة فى ذخائر الحق < و > الصادقين من الخلق .

فإذا اشتملْتَ على هذه الصفات ، وعلى ما كان من جنسها من سائر الجهات ، غشيتْكَ الملائكةُ بالتحية ، ومَسَحَتْ ناصيتك بالبَرَكة ، وكانت شفعاءك عند الله . فعند ذلك يُلْبِسك [٢] الله شعار الهدى ، ويهيئك للصواب فى القول والعمل والتقى ، ويبثّ محبتك فى صدور أهل الحجا ، ويُبلِّغك الغاية القصوى ، متمسكاً بالعروة الوثقى .

يا قوم ! إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هى دار القرار . تأمّل هذا الكلام بعقلك كلّه ، فإنه جماعُ كلِّ نصيحة ، ونظامُ كلِّ موعظة ،

---

(١) الإثم .

(٢) ص : يلبسه .

وباب كلِّ نجاح ، وطريق كل فلاح ، ومَنْهَجُ كلِّ صلاح . فإذا تبصرت ما فى ضمنه ، فثُبْ إلى المكان الذى دُعيت إليه ، ولا تَكْسَلْ كسَلَ الجاهل الغَوِىِّ . والسلام !

رسالة (لز)

اللهم إنك إن طردتنا عن بابك فبأجرامنا (١) التى هتكنا بها سِتْرَ حُرُماتك . وإن قبلتنا على هَنَاتنا ، فبكرمك الذى لم نزل نتوقعه منك . وإن لم تطردنا ولم تقبلنا ، استهانةً بنا وازدراءً لنا ، وقَّحنا (٢) وجوهنا ، وأطلقنا ألسنتنا ، وقلنا : على من تردُّنا ونحن عبيدك ؟ وإلى مَنْ تَكِلُنا ونحن خَلْقك ؟ تولَّنا كيف شِئْتَ ، ساخطاً وراضياً ، فقد استسلمنا وسَلَّمنا . وقد علمنا ، يا إلٰهنا ! أنك لا تعاملنا بعد هذا الانقياد والاستخذاء ، وطَرْح الكاهل فى الفناء [١١١٠] بعد الفناء ، إلا < بما > أنت أهله فى الجود والكرم والإحسان الذى سبقْتَ به إلينا فى القِدَم . وكيف نيأس من رَوْحك ، أو نقنط من رَحْمتك ، بعد ما أهَّلتنا لمواجهتك ، وأذِنْتَ لنا فى مشافهتك ، حتى وجدناك بما عرفناك ، ثم سألناك على ما وعدناك . فكن لنا عند هذا الظن ، فإنك عند ظن عبدك .

يا هذا ! أين الحياء من الله الذى أنعم عليك بَدْءاً وعَوْداً ؟ وأين الخوف من الله الذى إن سطا ، أباد وأفنى ؟ أمَا تأخُذ حِذْرَك مِمن إن شاء سَلَّطك عليك ،

---

(١) جمع جُرم : ذنب .

(٢) وقَّح وجهه : صيَّره وقحاً ؛ ويقال : رجل وقح الوجه ووَقاحُه : صُلْبه ، قليل الحياء ، والأنثى: وَقاح .

فهتّك (١) عضواً عضواً ، وبدّدك شِلواً شِلواً (٢) ، وجعلك عِبرة لكل ناظر بعين ، ومثلاً لكل سامع بأُذُن . اتقِ الله تجدْ ثمرته حُلوة ، وعاقبته محمودة ، فإنك إن لم تتّقه اتقاهُ غيرُك بما تراه من إنزال بأسه بك ، وأخذِه لك . ثم تغترّ بمالك : فلو شاء ، لأفقرك قبل المساء ، وأحوجك إلى أقلّ الخلق ؛ أو بقوّتك : فلو شاء لأعجزك عن أصغر البَقّ (٣) . إنك غيرُ مُبْقٍ على نفسك ، ولا واصف لما بك لطبيب يجود بدوائه عليك . أيها الباحث عن غيب هذه الشهادة ، بلسان النُّسك والزهادة ، تلَقّ محبته لك برَوْحك ، وأنعِم بنسيم وُدّه تجد راحتك ؛ وانفِ عن همتك كلّ ما نفاك عن حظك ؛ واخطُطْ على قلبك بقلم العلم حقائقَ الحُبّ بعلائق الوجد ، متبرئاً من كل ما راق العين ، واسترقّ السمع ، واستعار المشاعر ، وحال بينك وبين السرائر ، فإنك متى رأيت هذه الرِّباع (٤) الخِصْبة ، ووردتَ هذه المناهل العَذْبة ، وتعطّرْتَ بهذا الجو الندِيّ والهواء الرقيق عطفْتَ عليك بك ، ورجعتَ إليك منك ، وأدركتَ مافاتك ، ووُلّيتَ بلدك ، وصِرْتَ أذناً سميعة (٥) ، وعيناً ناظرة ، ولساناً خطيباً ، وقلباً واعياً ، وروحاً طيباً ، وشاهداً مقبولاً ، وغائباً منتظرا .

يا هذا ! الطريق مختصر ، والدليل واضح ، والشوق متوقد ، والسرار (٦)

---

(١) هتّ الشيء (من باب نصر) : كسره وفتّه .

(٢) الشلو : العضو من أعضاء اللحم .

(٣) هو الحشرة المعروفة ؛ ومفردها بَقّة . وهى البعوضة أو دويبة مفرطحة حمراء مُنْتِنة .

(٤) جمع رَبْع : وهو الدار بعينها حيث كانت ، والمنزل ، والموضع يرتبعون فيه فى الربيع .

(٥) ص : سمعية !

(٦) السِّرار : ضد الجهار .

مرفوع ، والثقال مجموع ، والشمل منتظم ، والحبل ملتئم . ولكن بَقِى أن تحبب إلى مَالكَ بما فيك ، وتعافَ ما يُغويك ويُرْديك ، فإنك متى تبوأتَ هذا المكان ، وتربعت فى هذه [1] المغانى ، ترنمت واجداً بقولك :

[١١٠ ب] مكانُك من قلبي هو القلبُ كلُّه
فليس لشيْ فيه غيرك موضع
وذِكْرُك روحى بين جلدى وأعظمِى
فكيف ترانى — إن نسيتُك — أصنع !
إذا كدتُ أُخفِى ما أُجِنُّ من الهوى
تكلّم من سرّى بجفنِىَ أدمُعُ

١٠ دعنى أيضاً من هذا ، فقد والله بالغت فى الأذى . أما تعلم أن الزّرداب [2] فى السرداب ، والخناجر [3] فى الحناجر ، والسواد فى العواد ، والمكاوى على المطاوى ، والمناشر على المباشر [4] ، والمَعالق [5] على المخانق ، والعلاقم [6] فى الحلاقم [7] ، والمناصل فى المفاصل ، والفواتل [8] على المقاتل ، والمشاقص [9]

(١) ص : هذا .

(٢) الزرداب : هو ما انحدر من السيل .

(٣) ص : الحناجر .

(٤) مصدر ميمى بمعنى البَشَرات .

(٥) الأشياء التى يُعَلّق منها المخنوق .

(٦) مصدر ميمى من علقمَ الشىء : كان مُرّاً .

(٧) جمع حلقوم .

(٨) بمعنى الحبال المفتولة .

(٩) جمع مِشْقَص : نصلٌ عريض .

على الفرائص ، والأوتاد على الأكباد ، والنار فى العار ، والنُّدوب[١] فى القلوب ؟ إن كنت لا تعلم ، فتعلَّمْ ، وإن كنت تعلم فتكلم ، وإن كنت لا تتكلم فاستسلم . طاشَ — واللهِ — الحلمُ عند ما لاح من أسرار هذا العلم ، حتى لو قوبل الدعاء بالرد ، وعومل المُواصِل بالصّد ، وتعدى فى جميع الأحوال كلَّ حد ، لكان العذر بيّناً ، والعَذْلُ هيناً ، والشانىء مُحتملا ، والقريح[٢] مُدْملا .

يا هذا ! لا تذكره ناسياً ، ولا تنسه ذاكراً . فإنك إن ذكرته ناسياً حجبك بك ، وإن نسيته ذاكراً عجّبك منك . بل اذكره ذاكراً ، ولن تذكره هذا الذكر حتى تنساك[٣] فى ذكرك ، وتفقدك فى أمرك ، فحينئذ يستولى عليك مذكوراً قبل ذكرك له بذكره لك . على أن هذا الذكر توسُّل واستعطاف ، والمرء من ورائه ووراء ما وراءه . وليس هناك ذكر ، لأنه ليس هناك نسيان ، إنما هو اتصال ومواصلة ، ووصال ووُصْلة ، وحديث يأتى على كل حديث ، وأمر يجلّ عن كل أمر ، وشأن يَعْزُبُ عن كل [كل][٤] ذى شأن . وكيف لا يكون كذلك وفوق ذلك بما لا منتهى لذلك ، والربوبية تسرى أنوارُها ، والبشرية تضيق أقطارها ، والنفْسُ تبدو أخبارها ، والغاية يعرف إضمارها ، والحال يَبْرُزُ عوارُها ! فمن ذا الذى يرى بَصَرُه هذا التلاميع[٥]

---

(١) الندوب جمع ندب (محركةً) : أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجرح .

(٢) القريح : المقروح ، الجريح ، والجمع : قَرْحى وقراحى . والقَرْح (بالفتح ويضم) : البثر إذا ترامى إلى فساد . والمدمل : المُبْرَأ . ويمكن أن تقرأ : متدملا .

(٣) أى تنسى نفسك .

(٤) كذا مكررةً فى الأصل !

(١) كذا ! وتلمّع البرقُ وغيرُه : أضاء .

فلا يَغْشَى ؟ ومن ذا الذى يجد هذه الروائح فلا يَنْشَى[١] ؟ ومن ذا الذى تكتنفه هذه الأعاجيب فلا يلتاع ؟ ومن ذا الذى تتردد على سمعه هذه الأحاديث فلا يرتاع ؟ [١١١ ا] ومن ذا الذى يُسْقَى من هذا الشراب فلا يَسْكَر ؟ ومن ذا الذى يُحَدِّق طَرْفَه إلى هذه المناظر فلا يَسْدَر[٢] ؟ ومن ذا الذى يشهد هذه الصورة فلا يَعْشَقُ ؟ ومن ذا الذى يُحْرَم التلذذ بها فلا يَقْلَق ؟ ومن ذا الذى يُؤَهَّل لهذه الحال فلا يبتهج ؟ ومن ذا الذى يُزَحْزَحُ عنها فلا يَنْشَنِج[٣] ؟

واشوقاً إلى قوم تلهّبت أكبادهم شوقاً إلى الله ! واشوقاً إلى قوم فارقتهم أرواحهم وَجْداً بالله ! واشوقاً إلى قوم تبلغوا بالحَبْو والزحف إلى الله ! واشوقاً إلى قوم امتلأت قلوبهم بمعرفة الله ! واشوقاً إلى قوم طلبوا الراحة بالتعب حِباء[٤] لله ! واشوقاً إلى قوم طلّقوا الدنيا وزَهْرتها غنىً بالله ! واشوقاً إلى قوم باينوا الكون وما فيه استقلالاً بالله ! واشوقاً إلى قوم صافحت أرواحهم يدَ الله ! واشوقاً إلى قوم سبقت لهم الحُسْنى من الله ! واشوقاً إلى قوم ضاقت عليهم الأرض بما رَحِبَتْ[٥] نزاعاً إلى الله ! واشوقاً إلى قوم راحوا إلى مصدور[٦] ليس فيها غير الله ! واشوقاً إلى قوم قالوا لله ، وسكتوا لله ، وتحركوا إلى الله ، وسكنوا مع الله !

آه ! ماذا ينفعنى شوقى إليهم إذا لم أكن منهم ؟ وماذا يجدى علىّ نزاعى نحوهم إذا لم أُعْرَف بينهم ؟ وماذا حاصِلٌ مِنْ ذكرهم إذا كنت مجهولاً

(١) نَشِى ريحاً طيبة (أو عامٌ) يَنْشَى نشوة (مثلثة النون) : شمّها .
(٢) سَدِرَ الرجلُ (من باب فرح) سَدَراً وسَدَارةً : تحيّر .
(٣) تشنَّج جلدُه وانشنج : تقبض .
(٤) حبا فلاناً كذا وبكذا : أعطاه . وحبا الشىء له : اعترض .
(٥) رحب المكانُ (من باب علم) رُحْباً ورحباً ورحابة : اتسع .
(٦) كذا ! فلعل أصلها : صدور ؟

عندهم ؟ وماذا يُغْنِى عنى انتسابى إليهم إذا كنت منفياً عنهم ؟ وماذا يبقى معى من تعذرى بهم إذا كنت ذليلاً فيهم ؟ فما حيلة من إن اشتاق بحُسْنِ ظَنِّه عاقه سوء فِعْلِه ، وإن حَنَّ بفرط صبابته تقاعس بسالف جنايته ، وإن قال كان عِيُّه فى بلاغته ، وإن جَرَعَ[1] كان شَرَقُه فى إساغته ، فليس يصفو له حالٌ إلاّ تكدر ، ولا يتسهل عليه مُراد إلا تعسّر ، ولا يصح أمانُه لا فى سَفَرٍ ولا حَضَرٍ .

يا هذا ! إن الذى صَمَدُكَ إليه ووَلَهُكَ فيه وإيماؤك نحوه وإعجابُك منه : حاضره غائب ، وغائبه حاضر ، وحاصله مفقود ، ومفقوده حاصل ، والاسم فيه مُسَمًّى ، والمُسَمَّى فيه اسم ، والتصريح به تعريض ، والتعريض به تصريح ، والإشارة نحوه حجاب ، والحجاب نحوه إشارة . وهذه قصة لا تعرف إلاّ به ، وحال لا تُعْزَىٰ إلا إليه ، وشأنٌ لا يوجد إلاّ له . وإنه بأَنَ من الأشياء بما هو به هو ، وبانت الأشياء عنه بما لا يكون به ، فائتلفت الأسماء والمعانى حسب ما وجدت [١١١ ب] انصبابها منه ، واختلفت أيضاً حسب مافاتها ما كانت تكمل به . فوقفت الأشياء كلها بين الاختلاف والائتلاف ، وجلّ هو عنها بما ليس فيها اختلاف وائتلاف . فلهذا وشِبْهِه فُقِدَتْ الأشباه والأضداد فى تلك الساحة لعلوّه منها ، وغناه عنها ، ووُجِدَتْ ها هنا الحاجةِ بعضِها إلى بعضها ؛ وتلك الحاجةُ هى السِّمَةُ الواضحة ، والعلامة البائحة بأن الذى أحوجها هو الذى غَنِيَ عنها ، وأن الذى غَنِيَ هو الذى برىء منها ، والذى برىء منها هو الذى قَدَرَ عليها وصرّفها ، وأجراها وَوَفَّقها ، وأسماها ووصفها ، وعرّفها وعرّفها ، ووَضَعها وشرّفها ، وأهّلها وكلّفها ،وسوّاها وحرّفها ، وبدّدها

(١) من باب قطع : جرع الماء جَرْعاً ، وجرِعه من باب فرح : ابتلعه بمرّة . وشرق (من باب علم) الرجلُ بريقه أو بغيره من المائعات المشروبة : غصّ .

وَألَّفها ، وثقَّلها وخففها ، وكَشَفها ولَطَّفها ، وأبرزها وكَنَفها [١] ، وأقامها وعَطَفَها [٢] . أفيكون هذا النعت ، إلا لمالِكِ الوقت الذى جلَّ أن يكون له فوق أو تحت ؟ أفما ينبغى لك ، إذا عرفت هذا السيد ، أن تبغى ما يصلك به أو ما يوصلك إليه لتكون عزيزاً به ، مَرْضياً عنده ، مأموناً على سِرِّه ، مجاباً إذا لَبَّيْتَ ، مقبولاً إذا شَهِدْت ، محفوظاً إذا غبْت ، مرعيّاً بعينه كيفما حالت بك الحال ، وآل بك المآل ؟ بل إذا أنفْتَ [٣] على هذه الدورة الإلٰهية ، وأشرفت على هذه الروضة القُدُسية ، فلا يحول بك حالٌ عن حال ، ولا يكون لك حال ؛ وإنما الحال عبارة عن معهود غير مشهود ، وهناك إذا صِرْتَ إليه مشهودٌ غير معهود ، إلا أنك تستعير هاهنا أسماءك التى هى حَدُّك ، فتستعير بها أعراضاً ترتفع عن حَدِّك . ولولا التشابه بين المَصْدر والمَوْرِد ، وبين المَشْهد والمَعْهَد ، وبين المَرْصَد والمَقْصد ، لكانت العلائق تنقطع ، والحقائق ترتفع . وهذا يُباين الحكمة المبثوثة فى عالمك ، ويخالف القدرة الموجودة لعينك وقلبك . وبهذا وأمثاله قَوِىَ رجاء العالمين ، واشتد شوقُ العابدين ، واستولى الحنين على العارفين ، وانقاد عِنان المشتاقين ، واستخذى [٤] أهل [٥] السمٰوات والأرضين ، وإلى هنا انتهى قول القائلين ، وعنده وقف عِلْمُ العالمين ، وعليه طافت أرواحُ الواهلين [٦] ، وإليه انتهى سَعْىُ الخلق أجمعين .

---

(١) كنَفه تكنيفاً : أحاطه .
(٢) أمالها .
(٣) أناف على الشىء إنافةً : أشرف وطال وارتفع .
(٤) استخذى استخذاءً : خضَع — (وقد يهمز) .
(٥) أهل : مكررة فى الأصل .
(٦) وَهِلَ (من باب علم) يَوْهَلُ وَهَلاً ، إليه : فزع .

أيها السامع ! هذا شِربٌ قليل الوُرَّاد ، ورَبْع عديم السُّكان ، لأنه توحيد بَحْت ، وتجريد مَحْض ، وهو العطاء الذى [١١١٢] لا يُؤهَّل إلا من ارتضاه اللهُ مِنْ عباده ، وجعله عَلَماً فى بلاده . فإنْ صَحَّ لك عَزْم ، وحضرك عَرَم(١) ، ولاح لك نور ، وانجاب عنك غرور ، وشاع فيك حبور وسرور ، فجِدَّ فى هذه المناهج سالكاً إلى تلك الغايات التى قد شَوَّقَتْ إليها بكل ما أدرك طَرْفُك وسمعته أُذُنك ، وحواه قلبك ، وبالجملة بكل مشاعرك التى هى شعائر الله عندك ، وآثاره قِبَلك ، وروائده إليك ، وهواتفه بك ، وطوالعه عليك ، وتوابعه منك ؛ فإنك متى جعلت التروّح بهذه الأحاديث الغريبة دَيْدَنك ، فعما قليل تصير ممن إذا قال باح ، وإذا سمع ارتاح ، وإذا فكر طاح ، وإذا اعتزم ساح ، وإذا عَبِق فاح ؛ بل تصير ممن إذا هَمَّ مَلَك ، وإذا تمنى أدرك ، وإذا رنا لَحَظَ ، وإذا وجد حفظ ، وإذا تحرك حَنَّ ، وإذا سكن اطمأن ، وإذا اقترح نال ، وإذا سُئِل أنال ؛ ربوبيته غلبت على البشرية ، وبشريته بادت فى الربوبية . — ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

فاتحة مقاصد القوم أن يقال : الحق خَفِىٌّ لكنه جلى ، وجلىٌّ لكنه خفى ، والجلاء والخفاء اسمان شاعا به ، لا حكمان جريا عليه ، وحيلتان ظهرتا منه ، لا معنيان حلاَّ فيه . إن أردت النجاة فاعبده ؛ وإن أردت الاتصال به فاقصده ، وإن أحببت أن تجده فاعرفه ، وإن تمنيت أن تعرفه فجِده(٢) .

يا هذا ، لُطْفُ الحق يحول بينك وبين الإعراض عنه ، وعُنْفُ الخلق يحثك على الاعتراض عليه . الحق وَشْى ، والخلق حشو ، والوهم نفى ، والوصف لغو . الحق أقرب من أن يشار إليه ، وأبعد من أن يُطَّلَع عليه ؛ لأن قُرْبه

(١) عَرِمَ الرجلُ (من بابى علم وضرب) : اشتدّ .

(٢) فعل أمر من : وجد الشىء يجده : جِدْه .

ليس بتدانٍ ، وبُعْده ليس بتناء . مواهب الحق متصلة ، وأسباب الخلق منفصلة ، وليس هذا الترتيب عبارة عن محايز (١) ، ولكنه إشارة إلى عينٍ من غير كيف ولا أين ، ولا تمويه ولا مَيْن (٢) : عينٍ هى ينبوع العيون ، وحقيقةُ ما كان ويكون ، على اختلاف القلق والسكون . يا هذا ! الكل بادٍ منه ، وقائم به ، وموجودٌ له ، وصائر إليه .

اللهم إنّا رضينا فى الأول عن أنفسنا على مذهب المغترين ، وسخطنا فى الثانى عليها على طريقة المستبصرين ، فقابلنا على ذلك بما يحفظنا لك ، ويُحظينا لديك ، ياذا الجلال والإكرام !

رسالة (لح)

[١١٢ ب] اللهم إنّ وسائلنا إليك وذرائعنا لديك : إلى إخلاص معرفتك ، وحسن الثقة بك ، وفَرْط الاستسلام لك ، وجميل الثناء عليك ، ولطيف النَّجْوَى معك ، وشريف العبارة عليك ، وغريب الإشارة نحوك . فنسألك — بفضلك وجُودك وكَرَمك ومجدك — أن لا تردّ وسائلنا ، ولا تُهين ذرائعنا ، فإنها صَدَرَتْ من قلوبٍ محشوةٍ بمحبتك ، ونبتت فى صدور ممتلئةٍ برعايتك ، وهى التى تستحقها بألوهيتك ، وتجد السبيل إلينا بعبوديتنا لك ، وأنت أكرمُ من أن تنبذها فى وجوهنا ، ولا تقبلها بحسن رعايتك لنا منا .

يا هذا ! جدِّد نظرك فى أمرك ، وجوِّد فكرك فى شأنك ، فقد علتْ السنُّ ، ورَكَّتَ الكَبْرة (٣) ، وصرت تتحرك بأنين ، وتسهر برنين ،

(١) جمع حَيْز : المكان .

(٢) المين : الكذب .

(٣) ركك الشىء : ضَعُف ؛ ركك الرجلُ : جَبُن . الكَبْرة (بسكون الباء) : كبر السن .

وتتذكر زمانك الأول بحنين ، فالجد قد وقع فى التحرك عن هذا المحل الذى طال فيه كَدُّك ، واتصل شقاؤك ، وتغيرت بك حال بعد حال ؛ والربح معك فى هذا التحول ، لأن معك توحيداً تضيق عنه الأرض والسماء ، ومعرفةً تطابقه فى ضروب الشدة والرخاء ، وتوكلاً يتلقاك بالكفاية ، وإشارةً تهدى إليك العناية ، وإيماناً هو قُرَّة كل عين ، وإيقاناً يزيد على كل زين ، وطمأنينةً هى (١) كنز ، وخوفاً هو حرز ، ورجاءً هو فوز . فلا تُخرِجَنَّ صدرَك بهناة كانت منك فى عُرْضها ، فإن تلك لا تُطَمْئِنُ المعالم ، ولا ترفع الأصول ، ولا تعمل فى القواعد ، ولا تأتى على الأسس . وأى موقع لقطرات شىء كريه فى بحر لُجّى يغشاه مَوْجٌ من فوق موج ! مَنْ مِثْلُك — ونفسُك بريئةٌ من الشِّرْك ، وقلبك نَقِىٌّ من الكذب ، ولسانك بليل بالذكر ، ورُوحك غائص فى الفكر ! أنت والله المحسود المغبوط ، بل أنت المحفوظ المحوط . ستبلغ إلى حضرة ربك فتصادف رَوْحاً ورَيحاناً ، وسكونا واطمئنانا ، وتلقى هناك أولياءه مقدَّسين مُقرَّبين . يتقلبون فى النعيم المقيم ، فتحدثهم مستأنساً بهم ، وتذكر نعمة الله عليك وعليهم ، وتسمع من قولهم : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، وتصف ما كنت فيه هاهنا من أصناف الأذى ، وتشكر الله على نجاتك منها وانسلالك عنها وما عاضك عنده من الرضا والقبول اللذين هما فوق الذهب الأحمر والورق الأبيض والسِّلْك الرقيق والتطعم اللذيذ . وليس هذا ببعيد . وإنما بينك وبينه نومة ، ثم انتباهة ، [١١١٣] ثم التبوُّء من الجنة حيث تشاء آمِنَ السِّرْب ، طيب الشُّرْب ، رخِىّ البال ، رفيع الناظر ، مُجتبَى بتحية الأَمَنة (٢) ،

(١) ص : هو .

(٢) جمع : أمين .

مُتلقًى بالسلم والسكينة ، فى حبوة (١) موصولة بحياة ، ونعمة موقوفة على نعمة ، وكرامة مشبوعة بكرامة ، وسلامة مشفوعة بسلامة .

يا هذا ! قابل تَشويقى لك بالشَّوْق منك ، وواصِل أذكارى لك بالتذكر ، واقبَلْ نصيحتى بالشكر ، فإن راحَ القلوب وهِزّة الأرواح وطُمأنينة النفوس فى قَبول النصائح ورفض القبائح . وصِلْ قبولك منى ما تسمعه بالزيادة فى الركوع والسجود ، وبالثبات على معرفة المعبود المقصود ، وبالكَدْح فى كَسْب مايرضيه من العبيد ، — واثقاً منه بحسن النظر فيما ساء وسَرّ ، أو نفع وضَرّ ، أو أحلا وأمَرّ . إن مَضْغ الحنظَلِ الحَوْلِىّ على بسالته ومرارته قليلٌ فى طلب الدار العَلْوية ، والنومَ على المزابل ومجاورة الكلاب سَهْلٌ مع المصير إلى حيث لا مَرَض ولا عَرَض ، ولا آفة ولا عاهة ، بل الانتحار وفتّ الكبد وزَهْق الروح هَيِّنٌ إذا كان ذلك طريقاً (٢) إلى رضا الله الذى هو مالك الأولين والآخرين ، ومُدبِّر الخلائق أجمعين . اهـ .

يا هذا ! تقلّب متنعماً فى هذه الرياض التى قد ازدهرت بالعلم الحق ، والحكمة البالغة ، والنصح الحاضر ، والإرشاد الحسن ، والموعظة الحلوة ، والدعوة الجامعة . وخذ نصيبك من ناظرها فى المنظر ، وطيبها فى الرائحة ، وحُلْوها فى المذاق . فإن ذلك عليك غاية بالجدوى ، ومُخَفِّفٌ عنك ما تجده من ثِقل البَلْوى ، ومُقرِّب لك إلى فِناء باب المولى .

لعلك تشكو قلبك وتجد التواه عليك ، وتراه مخالفاً لك . فلا عجب ! ولكن داره ، فإنّ قلبك أنت ، وأنت قلبك ، وقد رأيت غيرك يضجّ من قلبه ويشكو ما يناله من كَرْبه ، حتى قال فى وصفه متضجراً بفعله :

(١) الحبوة (مثلثة) : العطية .

(٢) ص : طريق .

قلبي إلى ما ضرّني داعِ يُكْثر أحزاني وأوجاعي
كيف احتراسِي من عدوّيْ إذْ كان عدوى بين أضلاعي ؟!

وقال آخر قد زاد على الأول :

هذا فؤادى وطَرْفى قد سببا لِيَ حَتْفِي
[١١٣ب] فكيف أحذرُ يا قومُ م مِنْ فؤادِي وطرفى !

صَدَقَ الرجلان : فالأول وجد[١] عدوه فى نفسه فاستصعب الخلاصَ منه ؛ ولعمرى هو صعب ! وأما الثانى فجمع بين فؤاده وعَيْنه ، واستغاث منهما ، وذكر أنهما قد أضافاه إلى حَتْفه ، وهذا كله للفسولة[٢] والخوَر ، والركاكة والكسل . وإلا لو صدقت النية وجدَتْ المِرّة[٣] وخلصت العزيمة ، لكان قهر القلب إذا عتا سهلاً ، وغَضُّ العين إذا طمَتْ قريباً . ولكن النيات مدخولة[٤] ، والعزائم ضعيفة ، والتمنى غالب ، والنفس مسوّلة ، والطباع خوّارة . وفى الجملة توفيق الله غير مُسْتَبْدَع ، وتأييده غير مشتمل ، فكيف يكون حال من هو موكولٌ إلى حوْله الضعيف ، ورأيه السخيف !

هذا والعادة على نعتها جارية ، والقرناء[٥] على غشهم مارُون ، فلا ترى عينٌ للخير مجْلِساً ، ولا للتناصح مَشْهَدا ، ولا للتعاون على البِرّ والتقوى مجمعاً ، حتى كأن الشريعة ما وردت بمراشدهم ، والسياسةَ ما قامت بمصالحهم .

(١) ص : صدق الرجلان فى الأول فوجد .. وهو تحريف ظاهر .

(٢) فُسِل (على المجهول) فَسالة وفُسولة : كان فَسْلا ، والفَسْل : الضعيف الرَّذل الذى لا مروءة له ولا جلد ؛ وكل مسترذل ردىء .

(٣) المِرّة (بكسر الميم) : قوة الخَلْق وشدته .

(٤) المدخول : مَنْ طرأ على عقله دخَلٌ (وهو ما يدخل الإنسان من فساد فى العقل أو فى الجسم ؛ أو المكر والخديعة) ؛ المهزول ؛ العيب .

(٥) أو القرباء .

حتى كأنهم إنما فُضِّلوا على البهائم بالعقل ، لا للعاقبة التى لا بد من الصيرورة إليها ، لتعجل اللذات فى هذه الدار الزائلة الفانية التى ما حَمِدَها أحد : لا مَنْ طَلَبَها فلم يجدها ، ولا من وجَدَها ، ولا من زهد فيها بغير خِبرته لها ، ولا من بلغ غاية مراده منها . فقد رأينا هذه الضروب ، فكلهم ذمُّوها وكرهوها ، واقشعرُّوا من دواهيها ، وأتَوا من فجائعها ، وراحوا إلى الله بوجوهٍ باسرةٍ [١] ، وظهورٍ ثقيلةٍ ، وأكُفٍّ خالية ، وآمالٍ خائبة ، وظنونٍ كاذبة ، وشقاوة غالبة .

وليس عجبى من هذه الحال بعد المعرفة بأمرها والحيرة بشأنها ، ولكن عجبى من تهافت المتهافتين فيها ، وتهالك المتهالكين عليها ، وتسرُّع المتسرعين إليها ، وانخداعهم بأحمرها وأصفرها منها ، وظنهم أنَّ من فاز بالدنيا فهو الغانم ، ومن فاتته فهو الشقىُّ ، وليس ينقضى هذا العجب ولا ينتهى إلى آخر . والله المستعان !

يا عاشق الدنيا بِجِلْ [٢] لا تجهلَنْ فيمن جهِلْ

فكل ما أحيا قتل

يا جامع المال ! قارِبْ وانظرْ هل جَمَعَ غيرُكَ جَمْعَك وبلغ إرادتك ، فماذا كان أخراه ؟ [١١٤] يا مشتهراً باللهو واللعب ! قد أفنيت تشبيبك [٣] فى ذلك ، فما حاصلك ؟! يا ساعياً فى الشر والفساد ، اجعل لنفسك غاية تقف عندها . يا شاكياً لربه [٤] إلى خلقه بقوله : رزق قليل ، وحظى نزير ، وحالى قاصرة ، وحاجتى متصلة — لا تفعل ، واستيقن أنه ناظرٌ لك فى حالتى عُسرِك ويُسْرِك ، وأنه أعلم بتدبيرك وأحفَظُ لمصلحتك . لا تتهمه

(١) بَسَر (من باب نصر) ، بَسْراً : كَلَح ، فهو باسر .

(٢) كذا !

(٣) التشبيب : ذكر أيام الشباب واللهو والغزل .

(٤) كذا ! ولعل الأصح : ربَّه .

فى قضائك ، ولا تنقبض من تدبيره . فما زوى عنك ما تريده بخلاً عليك ، ولكن لأمرٍ جليله دقيق عندك ، ودقيقه جليل [١] فى نفسك . ولن تعرف حقيقة ما تسمعه منى إلا بأن تتحقق أنك عبد . فإذا تحققت أنك عبد ، تحققت أنه مَوْلىً . وإذا تحققت أنه مولى ، تحققت أنه ليس بين المولى والعبد حِقْد ولا تِرَة [٢] ولا طائلة . فإن دَبَّرك بما يلائم طباعك ويوافق هواك فذاك ، وإن دَبَّرك بغيره فذاك . أنت عبد ومُسْتَخْدَم ومُدَبَّر ، ولمولاك فيك مُراد ، وذلك المراد غَيْب ، وليس لك أن تَدُقَّ بابَ الغيب ، وتستشفَّ ما وراء الحجاب ، وتدنو إلى مَحَلٍّ لم تؤهل له ، ولم يُؤْذَن لك فى الوصول إليه . فهل تُبْقِى بعد هذا كله مع هذا الجِماح والطِّماح [٣] ، والغيظ والكمد ، والتطويل والتهويل ، إلا ما تسلم به عاجلاً وآجلاً : عاجلاً من بلاء يَهُتُّك [٤] به ، ويجعلك مشاراً إليه بين خلقه ، وآجلاً بغضبه وإيعاده [٥] وسُخْطه وعذابه ؟ إنك < إن > لم تسدد الفكر فى هذا وشِبْهه ، شَمِتَ بك من هو دونك .

يا هذا ! عُدْ بنا إلى ذِكْرِ قومٍ قطعوا أيام حياتهم بالصبر المُرّ ، وتجرعوا مرارتها بشدة الشكائم وقوة الصرائم ، وطووا ما انتشر منها بالثقة الموقنة والطمأنينة التامة وطلب الزُّلْفة عند من له السلطان والعظمة والقدرة والعزة ، ورأوا أن مابذلوه من أنفسهم دون ما أحرزوه [٦] لأنفسهم ، وما جروه إلى أنفسهم

---

(١) ص : جليله .

(٢) الترة : الثأر .

(٣) الطماح (بالكسر) : الكبر والفخر .

(٤) هتّ (من باب نصر) العِرض : مزّقه .

(٥) أوعده إيعاداً : تهدّده .

(٦) ص : أحرزه .

فوق ما أطلقوه من أنفسهم ، وأنهم بصبرِ أيامٍ قصيرةٍ أدركوا ما أمّلوه ، وبتحمل أذى فَتَقَضٍ نالوا ما تمنوا . فتعالَ حتى نلبس شِعارهم ، ونَلْزَمَ هَدْيَهم ، ونتوخى وحيهم ، ونقتفى إِثْرَهم ، ونأخذ عِنانهم ، ونرضى بما رضوا ، ونحيا كما حَيُوا ، ونهوَى ما هَوُوا ، ونرمى إلى غرضهم فإنه منصوب ، وندين بدينهم فإنه محسوب . وإذا كان الطريق نَهْجاً ، والسالكون فَوْجاً ، والعمل خفيفاً ، [١١٤ ب] والزمان نصيراً ، والغُرْم قليلاً ، والغُنْم كثيراً ، والمعونة حاضرة ، والنيّة طاهرة ، والزاد موجوداً ، والمنهل آهلا ، والمَسْلَك آمناً ، والسماء مُصْحية ، والليل مُقْمِراً ، والنجوم زاهرة ، والسُّرى (١) متصلةً ، والصباح محموداً ، والبلاغ قريباً ، فما الذى يقعد بالمسافر عن قطع المرحلة وطى السهولة إلا سوء الاختيار وقلة النظر لنفسه فى الإيراد والإصدار ؟! والله ما هو إلا إغفاءة عن هذه الدنيا الجافية الغليظة القاسية الغادرة الفانية الفاجئة (٢) النكدة ، ثم المُنْقَلَبُ إلى الله الكريم ، وجناته المحفوفة بالنعيم ، وصُحْبة ملائكته المقربين . فلِمَ هذا كله ، وعلامَ هذا كله ؟!

من غَصَّ داوَى بشُرْب الماء غُصّتَه
فكيف يصنع من قد غَصَّ بالماء ؟!

---

(١) السرى : سير عامة الليل ، مؤنث ويذكر : يقال : أعجبنى وأعجبتنى سُراه . وقوله هنا يذكّر بالمثل المعروف : عند الصباح يَحْمَد القومُ السُّرى : مثلٌ يضرب لمن يحتمل المشقة رجاء الراحة ؛ ويضرب أيضاً فى الحث على مزاولة الأمر والصبر وتوطيد النفس .

(٢) فَجأه وفَجِئه (من بابى علم وقطع) والثانى أفصح : فَجأً وفَجأة وفُجاءة : هجم عليه وطرقه بغتة من غير أن يشعر به ، — فهو فاجئ .

اللهم إنا نرى الطريق سهلاً قريباً إذا نظرنا إلى تفضُّلك علينا وإمدادك لنا ورأفتك بنا ، ونراه عسراً بعيداً إذا فكّرنا فى إصرارنا على مخالفتك وقلة انقيادنا فى طاعتك ، ودوام عكوفنا على سخطك ، وسوء نظرنا فيما بيننا وبينك ؛ فنحن بين النظرين على ترجح وترنّح ، لا استقرار لنا ولا ثبات ولا زاد . إلّا ثنّيتَ بإحسانك فى الثانى كما بدأت به فى الأول ! فإنك إذا فعلت ذلك ، وَجَدْنا ما ضلّ عنا ، وأدركنا ما فاتنا ، ونعمنا وسعدنا ، وحسَدَنا غيرُنا كما كنا نحسد غيرَنا . وما يَكْبُرُ عليك ذلك ، فقد عرفت فقرنا وحاجتنا ، وعجزنا وفاقتنا . وإن اختيارنا لا يعبق بالصواب إلا إذا أرشدته ، ونظرَنا لأنفسنا لا يظفر بالنُّجح إلا إذا سدّدته . فكل ذلك لا يتم إلا بك ، ولا ينتظم إلا بمعرفتك .

يا هذا ! قد صرّفتُ لك القولَ فى فنونٍ من العبارة على ضروبٍ من الإشارة ، جذباً لضَبْعك [1] إلى المحل الأعلى ، ورفعاً لطَرْفك إلى الحد الأقصى ، ورفقاً بك فى كل ما تَفْرَقُ منه وتَخْشى ، وتقديماً للحزم فى أمرك بإرشادك وتنبيهك . فكُنْ معينى على نفسك كما كنتُ معيناً لك فى اجتلاب أُنْسك . وعلى أىّ حال كُنْتَ ، فلا تَثِبْ [2] على محارم الله منتهكا ، ولا تقْسُ على عباد الله محتكما ، ولا تنس حظك من الله معترما [3] ، ولا تنس ذكر الله متهاونا ، [١١١٥] ولا تبحث عن مكنون غيبه مُقْدِما ، ولا ترتكب مخالفته مجاهدا ، ولا تترك التوبة فى كل حال مستظهرا ، ولا تَسَلْ غيرك مستخبراً ، فإنك أعلمُ بدِخْلَتك ، وصالحتك

---

(١) مهملة النقط فى الأصل ، فاخترنا أن تقرأ هكذا ؛ والضبع (مثلثة الضاد) : الكنف والناحية ، ويقال : هو فى ضبع فلان : أى : كنفه وناحيته .

(٢) مضبوطة هكذا فى الأصل .

(٣) اعترم وتعرّم علينا : أشر ومرح وسطا .

وطالحتك ، وفائدتك وغائلتك ، وعائدتك وعاديتك . بل الإنسان على نفسه بصيرة . وصادقٌ من يدعوك من الدنيا إلى الآخرة ، ومن الخَلْق إلى الله ، ومن الشهوة إلى العفة ، ومن الكسل إلى النشاط ، ومن الغفلة إلى اليقظة ، ومن الإهمال إلى الحزم ، ومن السُّكْر إلى الصحو ، ومن الخُرْق (١) إلى الرِّفق ، ومن الهوى إلى العقل ، فإن أكثر الناس نجوا بقرنائهم (٢) ، كما أن أكثرهم هلكوا بقرنائهم (٢) ، للتدبير الواقع بينهم ، والتناصح المرفوع عنهم ، والتكالف (٣) الذى يصطلحون عليه فى كل حال ، لا جَرَمَ يتورطون فى عواقبهم ويتمنون الرَّجعة إلى أحوالهم ، فيكون ذلك كله غروراً منهم وجهلاً بهم ، ونعوذ بالله من الشقاء إذا أظلّ ، والحَيْن إذا أقبل ، والعُسْر إذا استمر ، ومن البلاء إذا استقر .

فالله اللهَ فى نفسك الضعيفة ، لا توردها إلا بعد الثقة بصَدَرِها ، ولا تُصدِرْها إلا بعد الأمْن من ورودها .

يا هذا ! هذا كله هَيْنمةٌ (٤) لقومٍ قد فقد سوادهم فى عصرك من بين من ترى . كانوا يديرونها بينهم كصحيفة منشورة : ينظرون فيها ، ويتعرفون ما فى حواشيها . فإذا رأوا حَسَنَةً سُرُّوا بها غير بَطِرِين ، وإذا رأوا سيئة نَدِموا عليها مستغفرين ، ولم يعودوا إليها مجتهدين . فاليومَ قد نُسِيتْ هذه الهينمة وأُخِذَ فيما لا عائدة له ألبتةَ : مِنْ شَتْمِ عِرْضٍ وذِكْرةِ (٥) شعرٍ وحَسَدٍ

---

(١) الخرق (بالضم) : ضد الرفق .

(٢) كذا فى الموضعين ! ولعل أحدهما : بقربائهم .

(٣) تكلف بعضهما أمور بعض . وقد تقرأ : التكاذب .

(٤) الهينمة : الصوت الخفىّ .

(٥) الذكرة (بكسر الذال) : ضد النسيان .

صاحب وفرحٍ بإرجاف ، وإظهارٍ لسخط وتطاول بكبرٍ ، وتبسُّطٍ في نُكْرٍ ، وتقبض عن عُرْف [1] . لاجَرَم إذا رأيت ذادينٍ وعقل ، رأيته شاحب الوجه ، خفيض الصوت ، ضئيل الجسم ، كليل الحد ، قليل النشاط ، شديد التبرم بالحياة ، كثير الحنين إلى الوفاة . يتكلف إذا تكلم ، ويتحمل إذا نهض ، ويتباعد إذا دنا ، ويغتمُّ إذا قضى . قد يئس من الحياة وطيبها ، ورفع الطمع عن عَود الشريعة إلى مائها الحلو المذاق ، وإلى زينتها الأولى ، وإلى عهدها الأول . فهذا وما أشبهه قد بَهَتَه وكَرَبَه وحالَ بينه وبينه ، [١١٥ ب] فهو كالغريب بين الناس : يعلم ما هم فيه ، ولا يعلمون ما هو فيه ، مشغولٌ بنفسه ، معتذراً إلى الله تعالى من عجزه عن إقامة مناره ، وإظهار شعاره ، على غاية اختياره ، ونهاية اقتداره ؛ للتائبين شأن ، وله شأن والسلام !

رسالة (لج = لط)

إلهنا ! إلهنا ! كيف نسهو عنك وأنت تُجاهِنا ، وتواصِلُنا بالنعم بعد النعم ، وتَغْمُرُنا بغرائب فنون المواهب والقيم ، وتناغي أسرار قلوبنا بصنوف اللغات ، وتنشر علينا عجائب الملكوت على اللمحات ، وتلاطفنا في كل حال من الحالات ، بما هو أعودُ علينا من الحياة الموصولة بالحياة ! نسألك — بجلال وجهك ، وغامض غيبك ، وخفيَّات ملكوتك — أن تُوَفِّقنا لشكرك ، وتهيئنا لقبول مزيدك ، حتى إذا أحسسنا بذاك من فضلك ، نعمنا في توخي مَرْضاتك وغنينا به عن جميع خلقك .

إلهنا ! أنت الكهف عند الشدائد ، والمُنْتَهى عند الأوابد . ذَلَّ لجبروتك السهلُ والجبل ، وطاب من أجلك اللوم والعَذَل ، وزكا بتوفيقك العلمُ والعمل ،

(١) أي : معروف .

وانقاد لأمرك الإنْس والجن ، واستوى فى إدراك كُنْهِكَ اليقينُ والظن . قد تعرضنا لجودك ، وشِمْنا بَرْقَ عطائك ، ووردنا شريعة فضلك ، ورفعنا قلوبنا بالإخلاص إليك ، وتوكلنا فى سرائنا وضرائنا عليك . فيضَك نلتمس ، ونورَك نقتبس ، وفى بحر أياديك ننغمس . اللهم فتمم النعمة علينا ، بأن تكفينا مؤونة خلقك التائهين عن بابك ، المُصِرِّين على مخالفتك ، الجاهلين الجاحدين لنعمتك ، المخدوعين بزخارف عالمك ، المغرورين بخوافى استدراجك . فقد عادَوْنا من أجلك ، وحسدونا لما خصصتنا به من وحيك وتأييدك ، وحاولوا بُعْدنا عنك ، وسعوا فى إبادتنا وإبارتنا ، لأنّا دعوناهم إليك ورَغّبناهم فيما لديك ، وفطمناهم عن ارتضاع الدنيا المشئومة ، وعَنُفْنا بهم عند احتقابهم للأوزار الثقيلة . وفى الجملة ، مللناهم ومَلّونا ، وضاقت صدورنا بهم وصدورهم بنا . فكما فَرّقْتَ بيننا وبينهم بما وهبت لنا وحَرَمْتَهم ، فَرِّق أيضاً بيننا وبينهم حتى لا نحس بهم إذا سبعونا [١] ، ولا نحفل بقولهم إذا سبُّونا ، ولا نكترث لنكايتهم إذا قصدونا ونصبوا لنا .

[١١١٦] أيها السامع ! هذه مناجاتى لربى مع أخوات لها عندى . فإن حركك العشق الربانى ، وحفز سِرَّك الشوقُ الإلهى ، وهبَّ فى فضاء صدرك النسيم القدسى ، فتبلَّغ إلىّ واحمل ثقلك علىّ حتى تصدر غنياً بلا مال ، وعزيزاً بلا عشير ، ومستقلاً بلا معين ، وحيًا بلا آفة ، وواجداً بلا عدم ، وكافياً بلا فناء ، وفرداً بلا رقيب ، وتاماً بلا نقص ، ومسروراً بلا هَمّ ، ومشروحاً بلا كَرْب ، وطالعاً بلا غروب ، وصاعداً بلا نزول ، ومنظوماً بلا انتثار ،

---

(١) سبعَ فلاناً (من باب قطع) : شتمه ووقع فيه ، وقيل : عضّه بأسنانه .

وملوماً بلا انتشار ، ومَرِحاً بلا بَطَر ، ومُدْرَكاً بلا عُسْر ، ومقبولاً بلا رد ، وموصولاً بلا صد ، ومُنْعَماً عليه بلا تنغيص ، ومحبواً بلا تنقيص .

نعم ! فديتك ! هذا حظك منى إن قادك التوفيق إلىّ ، وأوفدك السَّعْدُ علىّ . وإلا فأنت من خُشارة[(١)] هذا السواد الذى لايبالى الله فى أى واد هَلَكْتَ ، وعلى أى جانب وَقَعْتَ .

يا هذا ! دَعْ ما وَقَر فى أُذنك من جملة ما هَذَيت به عليك ، وحَصِّل الآن ما أقول : فإنه الوصف الذى شملنى ، والنعت الذى ملكنى ، واطلب نفسك فى جَنَابه[(٢)] ، وتصفح عن أصلك وفصلك بعلاماتك ، فلعلك تأخذ بيدى عند عثرتى ، وترحمنى لانسكاب عبرتى . فأول ما أقول واصفاً لحالى فى سرى وعلانيتى : استرقنى عن عيانى خبرى[(٣)] ، فها أنا بين العيان والخبر بلا عين ولا أثر . ولقد صبرتُ على الاسترقاق ، لولا أنه اتصل الآن بالاسترقاق ، فقد وحَقِّ الحق ذُبْتُ كمداً ، ومدت ومداً[(٤)] ، ومارست كَبَداً[(٥)] ، حتى لحظت أحداً فرداً صمداً . فالآن شوقى إلى عَيْن تبسط خبرى ، وإلى خبر يحقق عينى ، فأرتقى من ذاك إلى أن أبين فى كونى ، وأتبرأ من شَيْنى إلى زينى ، وأخلُصَ إلى حرمٍ ساكنُه مطمئن ، ومنتجعُه مختضم ، واليقظان فيه متنعم ، والحالم به

---

(١) الُخشارة (بالضم) : الُخشار : وهو الردىء من كل شىء ، وسَفلة الناس ودونهم .

(٢) ص : حنابة .

(٣) وقد أصلحت فى النص هكذا : استرقنى فى عيانى خبرى .

(٤) وَمِد عليه : غضب وحمى . وماد يميد : مال . والنص كما أثبتنا . وقد يجوز أن يكون صوابه : ومدت ومدا .

(٥) الكبد (محركةً) : الشدة والمشقة .

مغتنم ، والراضى به مَرْضى ، والمستكتفى به مكفى . هناك هناك ! وما أدراك ما هناك ! هناك غيث رذاذه وابل ، وقليله كثير ، وصعبه منقاد ، وعدمه وِجْدان ، ونقصانه رُجْحان ، وبعضه كل ، ونثره نظم ، ولحظه نُطق ، وعبده سيِّد ، وفقيره غنّى ، وكريهه شهىّ ، ووَعْره وطىء ، وغريبه آهل ، ومصدوره باهل (١) ، ووارده ناهل ، وظلامه نور ، وصوْبه درور ، وكله سرور ، وبعضه حبور.

يا هذا ! [١١٦ ب] زلتُ عن رسم حالى ، لاختلافى فى مقالى وفعالى ، وغيبتى فيما عَلىّ عمّا لِى . وهذه أمارة سوء ، وكسوفُ ضوء ، وخلوف نوْء . فما أصنع ؟ البرق خطوف ، والمُزْن قذوف ، والمركب قطوف (٢) ، والسائق عنيف ، والقائد شئوف (٣) ، والنفس عزوف . إن شكوتُ ما بى لم يَسْمع ، وإن سمع لم ينفع ، وإن نفع مع الحال يقطع ، وإذا قطع زاد الوجع . فيا عجبا ! أين العطف والرأفة ، وأين الرقة والشفقة ! وأين البقية (٤) والرحمة . هيهات ! النعشة عند العِثار معدومة ، والدهشة عند النثار مكتومة ، والشهادة فى الغَيبة مجهولة ، والغيبة فى الشهادة محمولة . وكل هذا عجب ، وكل عجب من هذا شحب (٥) . فهل عندك يا أنيسى حيلة فيما ذكرت ؟ بل هل عندك خبرة بما طويت ونشرت ؟ بل هل تقف على عويص هذه الترجمة الإلهية ؟

---

(١) المصدور : الراجع ؛ والباهل : المتردد بلا عمل ، أو قليل الحظ من الشىء .

(٢) القطوف : الدابة التى تسىء السير وتبطىء ، والجمع : قُطُف .

(٣) غير واضحة تماماً . وشئِف الرجل (بالبناء على المجهول) : فزع وذعر فهو مشئوف . وشئوف صيغة مبالغة .

(٤) غير واضحة فى الأصل .

(٥) من الشحوب : وهو تغير اللون من الهم أو هو الهم نفسه أو لعله : شَجْب (بالجيم المعجمة) : الحاجة والهمّ .

بل هل لك طريق إلى ترجمة هذه العويصة الإنسية ؟ إنه يسبق إلى ظنى أنك من لفيف هذا السواد ، الذين يتقلبون فى البلاد ، بلا زاد ولا عتاد ، ولا مَراد ولا ارتياد ، ولا اعتياد ولا اعتداد ، ولا انقياد ولا اقتياد . رؤوسٌ وعمائم ، وأكتاف وطيالس وأكمام ، وتبختر وأذيال ، وتسحُّب <وإدلال> ثم لا لفظ منقًّى ، ولا لحظ موقًّى ، ولا أرى له عقْبًا ، ولا مرأى له تقوى ، ولا علم له مُقْتَبَس ، ولا عمل له مُلْتَمَس ، ولا استظهار لغدٍ ، ولا أسَفَ على أمْسٍ ، ولا انتباهَ لُحكْمِ الوقت (١) ، ولا أسىً على فائت ، ولا ندم على تقصير ، ولا تلافِ لممكن ، ولا قيام بِواجب ، ولا تثاقل عن ممتنع ، ولا إحساس بالمهِمّ ، ولا احتفال بالمُسَلِّ . إنما هو حرص خنزير ، وتبصبص كلب ، وروَغان ثعلب ، وافتراس أسد ، وجهل حِمار ، وعادة ذئب ، ونوم فهد ، وحقد جمل . لعمرى إن عُمْراً انقضى بهذه الأخلاق لعمرٌ مشؤم على صاحبه غير ذى غبطة (٢) فى جميع أمره .

يا هذا ! ارجعْ إلى سِرِّكَ الذى تحت حُجُب صَدْرِكَ ، وانظره : هل تجد لهذا الكلام مصافحة له أو أثراً فيه ، أو مَدَقَّة ببابه ، وإلماماً بحافاته ، أو حوماً فى عرَصاته ، أو وجداً فى نغماته ، أو حنيناً إلى نبراته ، أو نزاعاً إلى خطَراته ، أو ولهاً على سَوْراته (٣) ، أو طلباً على نقراته ، أو دنواً من [١١٧ ا] حجراته ،

---

(١) حكم الوقت : هذا من اصطلاحات الصوفية . والوقت هنا هو ما يصادف الصوفى من تصريف الحق له دون ما يختاره لنفسه . ومنه قولهم : فلان « بحكم الوقت » ، يعنون أنه مستسلم لما يبدو له من الغيب من غير اختياره (راجع الكمشخانلى : « جامع الأصول فى الأولياء » ص ٣١٢ ؛ القاهرة سنة ١٣٢٨هـ) .

(٢) مهملة النقط فى الأصل .

(٣) السورة (بفتح السين) : الشدة .

أو سبحاً فى غمراته . فإن كنت تجد ، فأنت والله المخصوص بالمنحة الكبرى ، المعموم بالنعمة العظمى ، المُرَشَّح للغاية القصوى ، المراد بصادق البُشْرىٰ ، المذكور فى الملأ الأعلى ، المأخوذ بيده إلى سِدْرة المنتهى ، المقرَّب إلى الذروة العليا بلا عدوى ولا دَعْوىٰ .

وإن كنت لا تجد ما وصفت لك بهذا البيان الصريح وهذا اللفظ الصحيح ، فأنت والله اللقِىُّ[(١)] الشقىّ ، المطرود من باب الكرامة إلى فِناء الهوان وعذِرة[(٢)] الذلّ وساحة الحَسْرة . قد ركِبَتْكَ الوَحْشَةُ ، ومَلَكَتْكَ الدهشةُ ، وزايلتك النَّعْشة ، وحالفتك الرِّعْشة . فأطِلْ البكاء ، وأجِدّ اللطم ، وتَجرَّع مرارة الكأس ، المُتْرَعِةِ بالحسرة واليأس . وليت البكاء نفعك ! وليت النوح أجدى عليك ! وليت الحسرة أفادتك ! وليت الندامة نفعتك !

هيهات ! فُتّ فَوْتاً < لا > دَرَكَ بعده ، وبِنْت بيُوداً[(٣)] لا عَوْدَ معه ، والعثرة غير مُقالة[(٤)] ، والمِحْنة غير مُزالة ، والحال غير محالة . وبعدُ وقبل : فإن أمكنك أن تكون يقظان فلا تنعس ، وإن استطعت أن تَقْرَع الباب فلا تكسَل ، وإن قَدَرْتَ على تلافٍ وإن كان يسيراً فلا تَنْكُصْ ، وإن وجدت سبيلاً إلى الاعتذار فلا تعجز ، وإن كان وراءك حُجة فلا تحسبن ، وإن اهتديت إلى ذُخْر فلا تبخل ، وإن كنت من أمرك على بصيرة فلا تجهل . الحازم — أخذ

---

(١) رجل لقِىّ (كغنى) : أى مُلْتَقَى فى الخير والشر ، وأكثر استعماله فى الشرّ .

(٢) العذرة (بفتح فكسر) : الغائط ومجلس القوم وأردأ ما يخرج من الطعام ، وفناء الدار . . . وكلاهما يصلح هنا .

(٣) باد يبيد (من باب ضرب) ، بيداً وبيُوداً : هلك .

(٤) من : أقال العثرة : خلصه منها .

الله بيدك — من شمّرَ واتخذ الليل جِملاً وعبَرَ . وعرفان الفتور فى المهم مؤدٍ إلى التلف ، والتقصير فى حيازة الحظ من أسباب الحرمان . ومهما أخذت وتركت ، فلا ترْضَ لنفسك بالهوينا فى أمرٍ عاجلَتُهُ زَيْنٌ وآجلته أمن . وثق بأن العمل محفوظ ، والعلم من دونه ملفوظ ، وأنت من بينهما مبهوظ ، والحساب دقيق ، والجزاء مرصود ، والغاية مع بعدها قريبة ، والرقيب عتيد ، والاهتمام شديد ، والخبر صحيح ، والوعد صريح ، والوعيد فصيح ، والرحيل جد ، والظن كذوب ، والمرء دؤوب ، والصبح مُنْجَلٍ ، والمدى مبلوغ ، والقول كثير ، والنصح قليل . وكلُّ عيْنٍ فلها شغل بمنظرها : أنيقاً كان أو غير أنيق ؛ وكل أذن فلها ذهول بمسموعها : مُطْرِباً كان أو غير مطرب ؛ [١١٧ ب] وكل نفس فلها شَدْهة بمعشوقها : مستحقاً كان أو غير مستحق . فإذا صحّ اعتزامك على تخليصك من سِرِّك فابدأ بعينك واغضضها عن مناظر الدنيا ، ثم بأُذُنك فاسدُدْها عن أخبار السُّفْلى ، ثم بنفسك فازممها[١] عن استشعار البلوى ، ثم بلسانك فاكففه عن إعادة الشكوى ، ثم صِرْ أَحْصَنَ حِصْنٍ بينك وبين كل ما خبّلك أو حبّلك[٢] ، أو خدعك أو سحرك أو قَمَرك[٣] ، ولن تقدر على هذا إلا بعد رياضةٍ لنفسك الزُّعَرَة[٤] ، ومفارقة عادتك الوضِرة ، والتنزه عن الأمور القذرة .

فإن وجدت مع هذه الحال التى أنشأتها فأنِسْت بها صحابةً يعينونك

---

(١) من زم البعير : خطمه (وزم من باب نصر) .

(٢) بمعنى احتبلك : أى أوقعك فى الأحبولة .

(٣) تعدية للفعل : قمر الرجلُ : تحيّر بصره من الثلج ولم يبصر فيه .

(٤) الزُّعَرَة (بضم الزاى وفتح العين والراء) : طائر لا يرى إلا قلقاً ، استعير هنا للنفس القلقة المضطربة .

بالعلم الحق ، ويساعدونك على العمل الصالح ، ويغذونك بالرأفة ، ويأخذون بيدك عند الزيغة والوَرْطة ، فاذهب فإنك من الذين أنعم الله عليهم ، ونظر بالتوفيق إليهم . فحينئذ شجرتك تُورِق ، وأغصانُك تلدِن(١) ، وفَنَنُك يخضرّ ، وثمرتك تحلو ، ورَبْعك يزكو ، ونارك تذكو ، وناصيتك تعلو ، وباعك يطول ، وصوابك يدوم ، وخِطاؤك يزول ، وسَهْوك يفارق ، ويقظتك تعانق ، ويُمنك يحضر ، وبركتك تكثر ، وقلبك ينقى ، وذكرك يبقى ، وقدرك يَرْقَى ، ومَلَكك يأنَس بك ، وشيطانك ييأس منك ، وعينك تقرّ ، ونفسك تُسَرّ ، وخيرك يَدِرّ ، ورُشدك تلزم ، وغيُّك يَنْهزِم ، وكُلُّك يَسْعَد ، وبعضُك لبعضك يشهد .

فيالك من مُلْك سيق إليك ، ويالك من شمسٍ طلعت عليك ! اللهم كما وفقتنا لنصيحة غيرك(٢) ، فوفِّقنا لنصيحة أنفسنا حتى نبدأ بالأهم فالأهم من أمرنا ، ولا يُشْغَل بالُنا بالأعم عن الأخص ، ولا نلهوَ عن الأنفسِ بالأخسّ ، واجعلنا عند الدعاء إليك من المستجيبين لك ، وعند ذكرك من الواجدين بك ، وعند موافقتك من المتهالكين فيك ، وعند مخالفتك من التائبين إليك ، وعند الشدائد من المتوكلين عليك .

اللهم كما هديتنا لهذا البيان الذى فُقِد من جمهور عبادك فاهدنا للاخلاص فيه ، ووفقنا للعمل به ، واجعلنا إذا ذكرناك وجدناك ، وإذا وجدناك [ذكرناك ، وإذا ذكرناك وجدناك(٣)] عرفناك ، وإذا عرفناك أطعناك ، وإذا أطعناك رَعَيْناك ، وإذا رعيناك حفظناك ، وإذا حفظناك اشتقناك ، وإذا اشتقناك رأيناك ، [١١١٨] وإذا رأيناك ارتضيناك ، وإذا ارتضيناك أرضيناك .

---

(١) لَدُنَ الشىء (من باب ضرب) لدانة ولدونةً : كان لدناً ، أى ليناً .

(٢) كذا ! ولعل صوابه : غيرنا .

(٣) كذا فى الأصل مكررة !

إلهنا ! كُنْ لنا فوق ما نتمناه لأنفسنا ، واعصمْنا من كل ما يُسْخطُك علينا ، وأجرِ ألسنتنا فى تمجيدك وتوحيدك وتقديسك وتمجيدك[١] وتنزيهك وتعظيمك بما يكون نوراً فى صدورنا ، واملأ قلوبنا من محبتك وبموافقتك ما يكون قرة لأعيننا ، وضَرْحاً[٢] لأقذاء عيوننا ، وبرداً تتلذذ به أسرارنا ، ورَتْقاً لكل حجاب بيننا وبينا . ومهما أتيت فى أمرنا ، فلا تطردنا ولا تمقتنا ، ولا تُزِغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، ولا تجعلنا فتنةً للذين جهلوك ، وشردوا عنك ، وكَفَرَوا أياديك ، وجحدوا نعماءك ، ولا تُشْمِتْ أعداءك فيك بنا . وفى الجملة ، ارحمنا فى التفصيل ! أكرمنا يا ذا الجلال والإكرام !

رسالة (لد = م)

اللهم إنّا نخشع لك لأنذين بك ، ونخبر عنك مُتَحَرِّين فيك ، وندعو إليك مُقَصرين فيك . فارحمنا رحمة المولى لعبده ، واعصِمْنا من حيث لا يبقى لما أنت أهله ، ياذا الجلال والإكرام ، والمجد والإحسان والرفد !

بالله أيها الصديق المخالف ، والصاحب المكانف[٣] ! أما ترى انتثارى فى كلامى ، ووقوعى دون مقصدى ومرامى ، وتلعثمى فى عبارتى ، وتعثرى فى إشارتى حتى كأنى أحنث[٤] من حالى أو عُزِّيت فى مالى ! هنا والله شعار

---

(١) كذا فى الأصل ولعلها مكررة أو صوابها : تحميدك .

(٢) ضَرَحَ الشىء (من باب قطع) ضَرْحاً : دفعه ونحّاه .

(٣) كانفه مكانفة : عاونه .

(٤) كذا فى الأصل ! ولم نجد إلا : تحنث من كذا : تأثّم منه .

المرحومين وحيلة المقصِّرين . ولا عجب من عي العبد فى وصف سيده ! فمن وَجْدُه كوجدى وكنايته كنايتى وإيماؤه إيمائى يحصر [1] وإن كان بليغاً ، ويتبلَّد وإن كان متحفظاً ، ويغيب وإن كان حاضراً ، ويعجز وإن كان قادراً ، ويحار وإن كان ناظراً ، ويكلّ وإن كان سائراً .

يا هذا ! لن تقدر على النظر فى هذا الديوان إلا لحساب تقدمه بينك وبين نفسك على مؤامرة لك فيها رُشْد وغبطة ، واستظهار وحَيْطة . فإنك إذا نويت هذه النية ، وأخلَصت فيه الروية ، وأحكمت عليه الطوِّيَّة اطَّلَعْتَ على النجد ، وامتلأت بالوجد ، واستغنيت بالمشافهة عن السَّفرة ، وكُفيت مؤونة الترهيب والتحذير . ما الذى يقعد بك عن هذه الذُّرَى العالية ، وعن هذه الغايات المتناهية ، وقد تتالت عليك العِبَرُ [١١٨ ب] والغِيَر ، والتقى عندك الخبرُ والأثر ، وحصَل قِبلَك الظاهرُ والباطنُ ، وأملى عليك الغابر والراهن ، وشهدتَ فى خلال ذلك المتحرك والساكن ؟ وقرَّ فى عقلك كلُّ ما يتمخّض به الليل والنهار ، فأين يُذهب بك عن هذه الآيات المتشابهة بالحق ، عن هذه الأمارات المتحدِّية بالصدق ، وعن هذه النعم المتصلة بأصناف الخلق ؟ أفيها شىء خلا من الحكمة ؟ أم فيها شىء عَرِىَ عن النعمة ؟ أم فيها شىء فات القدرة ؟ أم فيها شىء نبا عن المشيئة ؟ أم فيها شىء سكت عن الدلالة ؟ لا والذى أنطقنى بلطفه ، وأسمعك برحمته ، ما ترى عينك إلا مَحْلَماً ، ولا تجد إلا نفسَك مُعَلِّماً ، وإن عقلاً يصدأ عند هذه الآيات لسخيف ، وإن لساناً يعيا عن وصف هذه الأسرار لضعيف .

---

(١) أى يصيبه الحَصَر : وهو العىّ .

ياهذا ! الطودُ ذو قُلَّة شامخة ، والبحر ذو أمواج ملتطمة ، والغَيْضَة ذات دَغَل أَشِب [١] .

فحدثنى الآن : بِم يُدِلُّ المُدِل ، وعلامَ يعتمد المعتمد ؟ فبذا موحشى بمراده ، وحاملى على مكروهى بين إصداره وإيراده !

لا أتاح الله لى فَرَجاً يوم أدعو منه بالفـرج

وجدتُ ما وجدت منه ، وعَدِمْتُ ما عدمت به ، وقلتُ ما قلتُ له ، فكلى لى بالاستعارة وله بالحقيقة . فإن شاء بقّى ونَعّم ، وإن شاء أبلى وأسقم ، لا اعتراض للعبد على المولىٰ ، ولا عار على العبد وإن رُدِّد بين البلوى . ألا ترى الأول يقول :

العبد عبدك فاحكم فيـه واحتكم
واعدِلْ وجُرْ غيرَ مأخوذ بلا ولم

ويحك ! كيف تحكم بِلِمَ على خالق لِمَ ؟ أم كيف تحتج بالحجة على مظهر الحجة ؟ أم كيف تدُلُّ بالعقل على منشيء العقل ؟ أم كيف تباهى بالعلم واهبَ العلم ؟ أيها الإنسان ! لو عَرِيتَ من جلبابه الذى به زينك ، وخلوتَ من فضله الذى به أمكنك ما أمكنك ثم حصلت حقيقتك ، كنت هباء منشورا ، أو غُثاء [٢] منشورا ، لولا أنه « خلقك فسوّاك فعدّلك » [٣] ، متى كنت

---

(١) أشب الشجر (من باب علم) أَشَباً : التف ؛ فهو أَشِب . والدغل (محركة) : الشجر الكثير الملتف ، واشتباك النبت وكثرته .

(٢) غثاء (كغراب وزُنّار) : الزبد ، الهالك ، البالى من ورق الشجر المخالط زبد السيل .

(٣) سورة « الانفطار » : ٧

تستقل بذاتك ؟ وكيف كنت تشرف على صفاتك ؟ وبأى شيء كنت تميز مالك منك ، وما عليك فيك ، وما عندك بك ؟ هذا سِوى ما عرض عليك من آثار مُلْكه ، وأحضَرَه بين يديك من أسرار غيبه ، حتى ناداك بلسان السَّفر ، وناجاك بعدُ فى كل أمرٍ يَسِيرٍ [١١١٩ ا] وعَسِيرٍ ، وأهّلك لما وجدك به من بين هذا الصغير والكبير ، بالبشير والنذير ، مرة فى الخاطر بالضمير ، ومرة بالبيان الواضح الشهير .

اشهَدْ يا هذا غرائبَ نعمه عندك وكُنْ له من الشاكرين ، وانشر آلاءه بين عباده وكن من الحامدين ، فإنّ الشكر مفتاح المزيد ، والحمدَ بابُ التوفيق . ومهما حضرت فلا تقصِّر فى حفظ ما منحك ، وطلب الفضل من عنده بقدر ما فتح عليك ، فإنك بِعُرْض خيره مادمت تصغى إلى هذا النمط — فلعلك تعتبر . واعلم أن الاعتبار روضةُ العارفين ، والتفكر فى ملكوت السمٰوات والأرضين من عادة عباده المخلصين . فلا يشغلنك من هذه العوائد شاغل .

يا هذا ! التصفح يرُيك حُسْنَ الثناء فى مقابلة حُسْنِ الخُلق ، ويفيدك من المعرفة التعظيم ، ويَبْسُطُك فى سلطانه بحلية الاختصاص ، ويُشرّفك بمادنا إلى ما نأى حتى تأخذ العتاد ، وتقدم الزاد ، وتعمل لدار المهاد . ها أنا أشتاق مُهَيَّماً إلى محل < عنه > صدرت ، وأهذى بحالى مُتَيَّماً على من به وجدت ماوجدت . فلا فى شوقى سكون أتعلل به ، ولا لى فى هذيانى استقلال أرْجِعُ إليه ، لأنى مُغَفَّل فى الأول ، ومخدوعٌ فى الثانى ، وهالك فى الثالث . وإنما يغلب هذا المعنى علىّ لأنى أرى طلوعى على ما أطلعه غروبا ، واستحقاق فيما أتظاهر به سرابا . فما حيلة من إن علن كتم ، وإن نادى رحم ، وإن انتثر نظم ، وإن وجد عدم ! له منه سرٌّ خاف عليه ، وفيه به خوف لاطمأنينة معه . وإن شكا عجّزوه ،

وإن تجلد مقتوه ، وإن صرّح طردوه ، وإن كنّى عاندوه ، وإن ساعد استثقلوه ، وإن نافر استحملوه [1] ، وهو فى عُرْض ذلك يقول :

لا أستطيع نزولاً عن مودتكم
أو يَصنَع الدهرُ بى غيرَ الذى صنعا

فأى فَكاك لأسير قد أسلمه أحبّاؤه ، ولو فُكَّ لكان أسْرُه فى فكاكه ، ولو نجا لكان وقوعه فى خلاصه ؟ وكيف لا يكون كذلك وهو ذو شَجَنٍ مُخامر يُقلقه إذا أطرق ، وذو حُزْن ظاهر يحْرِقه إذا نطق ، فلا قرار له إلّا على نزوع ، ولا سكون به إلا على تفزع ، ولا عجب ممن حاله هذه الذى يبكى العيونَ مسموعُها ، ويُطيل الحيرة منظرُها . ولكن العجب من استسلامه فيها ، وتلذذه بما يتوالى عليه من لواذعها [١١٩ ب] وخوادعها . وهذا خبره ، وعلى هذا سَمَره ؛ إلا أن يأتيه الفرج من جهة من أبلاه بما أبلاه ، ويكشف عنه الضُّرَّ ويتولاه . جُلُّ حديثه إذا خلا أن يقول : إلهى !

لو أشْرَب السُّلوانَ ما سُلِّيتُ
ما بى غنىً عنك وإن غَنِيتُ

ومن غريب شأنه أنك إن بشرته بالعتق اغتم ، وإن حدثته عن غيره أعرض ولم يستتم . والناظر إليه راحم هو فيما فيه مغتبط . فواعجبا من أسرار الحق فى أعماق قلوب الخلق ! لكل أمرئ شأن مخصوص وهوية : إما زائد ، وإما منقوص الإلهية . لا يمسح بالوهم ، ولا يقدر بالفهم ، ولا يُشْرح بالعقل ، ولا ينال بالترجمة . وهل يجوز ذلك ، والعبودية لا نسبة لها إليها ، ولا سبيل لها عليها ؟ إنما هى حيلة عجز ، وجِبِلَّة عوَز ، وديدن حاجة ، ومعدن لجاجة ، وقطب كون ، ومدار فساد ، وباب حيلولة ، وجانب زيلولة ، ليس لها ثبات ، ولا عليها

(١) استحمله نفسه : حمّله حوائجه وأموره ؛ وسأله أن يحمل . واستحمل : قوى على الحمل وأطاقه .

معوَّل لدى ثبات . حتى إذا طلعت عليها شموسُ الرحمة ، وكنفتها يدُ العصمة ، وغذتها كفُّ الشفقة ، تطاولت بعد تطامُنها ، واستقلت بعد انخذالها ، ومَرّت على خُيَلائها بما صحبها من غُلَوائها . فعند ذلك يظهر الشكر الصحيح بشرط الإيمان القوى ، أو يغلب الكفر الصريح بحكمة الشِّرْكِ الغَوِىّ .

فيا عجبا من أول هذا الأمر ! ووا حزنا من آخره !

طاحت الألباب المفتوقة بفنون الصواب ، وانحلت الأحقاد بما غلب على جميع الأشهاد ، وبادت الكينونة فى البيدودة [1] ، وبدت البيدودة فى الكينونة ، فصار المَحْوُ رَسْماً مشهودا ، وعاد الرَّسْم أمراً محدودا . فإن قلتَ : « لِمَ » ازدروك ، وإن قلت : « نعم » اعتروك ، وإن تبرأت منهما انتهبوك حتى لا يبقى لك . — هذا نبأوك وأنت تشمخ بأنفك وتنثنى بعِطْفك ، وتظن أنك قد أَوَيْتَ إلى كنف يُعِزُّكَ ويحرزك . وإنما ذلك غرورٌ منك بهذه المناظر المزخرفة ، وتعلُّلٌ بهذه العادات المستسخفة . أين أنت عن سُكْرٍ فى صحوك ، أو عن صحو فى سكرك ، فتذوق طعماً لم تعهد مثله فيما خلا من زمنك ، فتفئَ هناك عن خفائك لمن به قويت على ذلك لمن ينسلّ من إهابك الذى به نكرت عينك [2] ؟ حتى إذا استتبَّ هذا كله وبعضه ، حقت عليك كلمة الله بالخصوصية ، وأشرفت على ما سيق لك من الخير فى الحال [١١٢٠] الأولية . فيا بَرْدها على الفؤاد ! ويا طربا على القُرْب بعد البِعاد !

أيها السامع ! هذا كله تأنيس لك من الحق ، لأنك مستوحَشٌ بنفسك التى أطعتها فعصتك ، ووَفَيْتَ لها فغدرت بك ، ونصرتها فخذلتك ، وتابعتها

(١) الفساد والفناء ؛ من باد : يبيد .

(٢) أو : غيبك ، عيبك .

فأردتك ؛ وهى النفس الموصوفة . فإن أنست به وبما جرى فى غُرْضه فالحظ إليك راجع ، والنورُ فيك شائع ، والأَرَج منك ساطع . وإن ترعنت[1] فأنت الخاسر الدّامر[2] ، والحائر البائر — والسلام .

اللهم إنّا قد قابلناك بوجوهنا فحيّنا ، ومُتْنا فى محبتك بين أيديك فأَحْينا ، وبُدِّدْنا عن بابك بالجهل فاجمعنا ، واتضعنا بملامسة الهوى فى مخالفتك فارفعنا ، وكن لنا دوننا فإننا وإن كُنّا كُنّا بعجزنا وضعفنا ، وإذا كنت لنا أغنيتنا عنا وأفدتنا منا وبَصّرتنا لنا . فلم لا ندعوك بلسان الضَّرَع تاركين لأسباب المكر والخَدْع ، ناصحين لأنفسنا عند النَّجع[3] والرَّجْع ، لعلك ترحمنا رحمة تُسَلّينا عمن سِواك ولا لعلّ . فإن يدك بالعطاء أبسطُ[4] من ألسنتنا بالدعاء ، وسَبْقَك بالتفضل أقدمُ من بِدارنا بالتذلل . وإنما هى كلمة تقولها بالعادة التى أجريتنا عليها ووسمتنا بها . وإلا فإنك ترحم وتعطف ، وتصنع وتلطف ، وتعدل وتُنْصف ، وتعطى وتُسْعف ، وتهب وتُتْحِف ، وتحبو وتشرّف ، شئنا أم أبينا ، كنت لنا أو علينا .

يا هذا ! قد اختلفت المناجِي[5] ، وتباينت المغازى ، وتباعدت[6] المرامى ،

---

(١) صرت أرعن .

(٢) ص : الذامر . وصوابه ما أثبتنا . والدامر : الهالك — من دمر (من باب نصر) دموراً ودماراً ودمارة : هلك .

(٣) يقصد التوجّه والإنابة إلى الله .

(٤) أشد بسطاً وسعة .

(٥) بالجيم المعجمة ، جمع منجى : مكان الخلاص .

(٦) ص : تساعدت . السياق يقتضى ما أثبتناه .

وتنازحت[1] المساعى . فهل لك فى جليل ذلك أو دقيقه ؟ لَسْتَ ، إذا ادعيته ، صَحَّ لك ؛ وإذا تشرفت به سلم فى يدك . أوهل لك فى قليل ذلك أو كثيره علامة تدل على عبوديتك بالتحقيق ؟ لست أعنى عبودية الخلقة ، وما وجدت عليه من الخور والركاكة ؛ بل أعنى عبودية الخدمة والأدب ، وما إذا ثَبَتَ عليه كان لك زلفة ، وحلت إليك ألفة ، وحَذَف عنك كُلْفة . فأما الزلفة فمكسوبة بالشفقة الظاهرة الغالبة ، والنصيحة الحاضرة الغائبة ؛ وأما الأُلْفة فبتأكد الحُرْمة ورسوخ العَهْد وثبات الذِّمَّة . وأما حَذْفُ الكُلْفَة فبالترويح المأمول ، والتنزيه المسؤول . ومن اختار هذه ، أعنى الزلفة ، بحقيقتها ، والألفة بخالصتها [بخالصتها[2]] ، وكُفِى الكلفة بما فيها ، فقد عُلِّىَ إلى مُعَلَّاةٍ ليس للناظرين إليها إلّا حَسَدُ مَنْ ملكها ونالها .

يا هذا ! إن كنت وَجِعاً فأين تأوهك ؟ وإن كنت مريضاً فأين أنينك ؟ وإن كنت مهجوراً فأين استيحاشك ؟ وإن كنت موصولاً فأين استئناسك ؟ وإن كنت قريباً فأين علامتك ؟ وإن كنت بعيداً فأين حزنك وحسرتك ؟ وإن[3] كنت مريداً فأين اجتهادك[4] ؟ وإن كنت واجداً فأين سكرتك ؟ وإن كنت تائباً فأين إخلاصك ؟ وإن كنت متوكلاً فأين تفويضك ؟

---

(١) صارت نازحة : بعيدة ، ومنه قول على بن الجهم (راجع « ديوانه » نشرة خليل مردم ص ١٥٤ ، دمشق سنة ١٩٤٩) :

وارحمتا للغريب بالبلد النازح ماذا بنفسه صنعا !

(٢) كذا مكررة فى الأصل !

(٣) ص : وأين . وهو تحريف ظاهر .

(٤) فى الهامش صح [وإن كنت مراداً فأين استقلالك ، وإن كنت عارفاً فأين انبساطك ، وإن كنت غريباً فأين انقباضك ؟] .

وإن كنت مُدَّعياً فأين شاهدك ؟ وإن كنت شاهداً فأين دعواك ؟ وإن كنت محتاجاً فأين تبصبصك ؟ وإن كنت غنياً فأين صولتك ؟ وإن كنت ممتحناً فأين حزنك ؟ وإن كنت آمنا فأين طمأنينتك ؟ وإن كنت خائفاً فأين خفقانك ؟ وإن كنت زاهداً فأين عفافك ؟ وإن كنت راغباً فأين مبذولك ؟ وإن كنت مترنماً فأين لحنك ؟

يا هذا ! لا تَكْذِبَنَّ نفسك فلا تحملنّها على أن تُكَذِّبك ، فإنكما إن تكاذبتما هلكتما ، كما أنكما إذا تصادقتما حييتما . فأما تكاذبكما فهو فى قبولك خداعها ، وفى قصدها خداعك . وأما تصادقكما فهو فى أخذك الحذر منها فى انقطاع طمعها منك . وهذه مشاكسة بينك وبين نفسك ، لا بينك وبين غيرك ، فانتبه لها ، واعمل فى تنقيح شوكها ، وفى استفاءة[1] ما شَرَدَ عنها ، وفى نفى ما ركد عليها مُفْسِداً لها . فإنك بهذه العناية بك منك بك ، ولك فيك ، تبلغ غاية لا تنال بها هواك ، وتُدْرِك بها مُناك .

رسالة (هـ = ما)

كيف أتكلم والفؤاد سقيم ؟ أم كيف أترنم والخاطر عقيم ؟ أم كيف أصبر والبلاء شامل ؟ أم كيف أجزَع والعناء حاصل ؟ أم كيف آنس بالصديق والصديق مُداجٍ ؟ أم كيف أسلو عن الإِلْف ، والإلف مُناح[2] ؟ أم كيف أثق بما نقّ من الخير وقد كَذَّبنى ما حُقّق بالعيان ؟ أم كيف أسكُن إلى الانتباه وقد أقلقه المنام ؟ أم كيف أستريح إلى المنام و < قد > لعبت بى الأحلام ؟

(١) استفاءه : طلب فيئه ، أى : رجوعه وعودته .

(٢) ناحاه مناحاة : صار أحدهما نحو الآخر ؛ وهنا بمعنى نحا الواحد عن الآخر ، أى : انصرف . أو أصلها : مُناجٍ ؟

نَفَس يتردد بالحُرَق فى جوانح قد تهتّكت بالأمانى ، وجمرة تتوقّد بالحسرات كأنها سير السوانى (١) ، فما تنفع الراحة المأمولة مع الكَرْب اللازم ، وماذا يجدى الرجاء الكذوب مع الخطب المتفاقم ؟ الويل لمن أُعرض عنه الحق ! والويل لمن بُلى بالخلق ! وكيف لا تعظم البلوى بالخلق على من هو أيضاً [١٢١ ا] من الخلق ؟ !

يا هذا ! الضلوع مشوية بالأَسَى والحَزَن ، والأكباد متهرية بأنواع الآفات والسقم ، والأرواح ذائبة بضروب الحسْرة واليأس — فلا إلى الخلوة مَعاج (٢) ، ولا بالمجالس ابتهاج . ليل يَكُرّ بهمّ ناصب ، ونهار يَمُرّ بكَرْبٍ لازب ، وعينٌ إذا رمقت بهتت ، ونفس إذا تمنت تعنت (٣) ، وروح إذا هشت عذِّبت ، وأعراض بين هذه الأحوال ليس لها لُبْثٌ فتعرف ، ولا لها رَيْث فيصرف . وعلم مع ذلك كله لا ينفع ، وعمل لا يصح ، وإشارة لا تَصْدُق ، وعبارة لا تتحقق ، وحُجّة إذا لاحت طاحت ، وشُبْهة إذا وردت ركبت ، وقولٌ كلما طال عَنّى ، وسكوت كلما امتد أضنى وأفنى . فالسِّلْم حربٌ ، والرَّوْح فى كَرْب ، والمستقيم مُعْوَجّ ، والخاطىء على الساحل ملتج (٤) ، والوقت كدر والزمان غَبِر ، والراجى قانط والصاعد هابط . فقل لى الآن :

---

(١) السوانى جمع سانية ، والسانية : الناضحة وهى الناقة يستقى عليها من البئر ؛ وفى المثل : سير السوانى سَفَرٌ لا ينقطع .

(٢) مصدر ميمى من عاج يعوج عَوْجاً ومعاجاً بالمكان : أقام به .

(٣) ص : معنت . وهو تحريف صوابه ما أثبتنا . وتَعَنّى الرجلُ تعنيا : نَصِبَ وناله العناء ؛ وتعنى الأمرَ : قاساه وتجشمه .

(٤) التجّ البحر : غمر واضطرب ، التجّ الظلام : التبس ؛ التجت الأصوات : اختلطت .

بمن أتعلق ؟ ولمن أتملق ؟ وماذا أقول ؟ وأى شىء أسمع ؟ وفى أى شىء أفكر ؟ وبأى ركن ألوذ ؟ وفى أى واد أهيم ؟ وعلى ماذا أعرّج ؟ وإلى ماذا أنتسب ؟ قد بنت عنى بما بان منى ، وازدهيت بما ازدهى علىّ . فلا جَرَم الاستطالة غالية ، والكِبْرُ متساط ، والرَّوْم محال ، واليأس وبال ، والتحدث جسارة ، والتريث خسارة . ومع هذا كله فأينما كنتُ من بلاد ، فلى إلى وجهه التفات . أما تعلم :

أنّ الوداعَ مِنَ الأحبابِ نافلةٌ للظاعنين إذا ما يَمَّموا بلدا
ولست أدرى ، إذا شط المزارُ غداً ، هل تجمعُ الدارُ ؟ أم لا نلتقى أبدا ؟

يا هذا ! استعفيتك من الكلام فاعلم أن فيضى زاخر . وإذا حضضتك على السماع فاعلم أنّ نحوى نازح[١] . وإذا أنشدتك بيتاً فاعلم أن إشارتى وراءه ، وإذا رَوَيْتُ لك حكاية فاعلم أن مغزاى دونها . وإذا أبرزت لك العين فاعلم أن مرادى عرفانك بها . وإذا سترت عليك الغاية فاعلم أن قصدى استعدادُك لها . وإذا صرحت بالمعنى فاعلم أنى حائشك[٢] إليه ، وإذا كَنَّيتُ لك عن الفحوى فاعلم أنى مُشفِقٌ عليك من غائلة الحال التى أنت مُبْتَلى بها أو ستبتلى بها .

فانظر كيف تدبيرى لك وكيف جُودى عليك ! فلا تشهدنى فيما أقول ، ولا تعجب منى فيما تسمع . فإنما هذا كله قِسطٌ من الحق فى حلية [١٢١ ب] القبض ، وإيحاش من الخلق فى شكل الإيناس ، وبَعْثٌ لغرائب نسيم الغيب

(١) النحو : المقصد ؛ نازح : بعيد ؛ أى اعلم أن مقصودى بعيد ليس هو الظاهر المتبدّى لك .

(٢) حاش الصيدَ يحوشه حَوْشاً : جاء من حواليه ليصرفه إلى الحبالة ؛ وحاش الإبلَ : جمعها وساقها .

فى قضاء الشهادة حتى تطيب الأنفاس، وتحيا به القوامس[١]، ويقع التنافس، وترق أخلاق، وتطمئن قلوب، وتقشعر جلود، وتطرب أرواح، وتُفصِح ألْسُنٌ، وتلين جوارح، وتمتلئ صدور، وترنو عيون، وتُبْصر وجوه، وتكف أيد، وتخف أقدام، وتبرد أكباد، وتحلو شمائل، وتُبْتَغى شواكل[٢]، وتزول غوائل، وتكثر نوافل، وترد نوائل، وتخرس عواذل، وتنثر فواضل، وتدرك طوائل. وعلى هذا مما لايجرى به ولا يشرحه قلم، ولا ينتظم بتنميقه كَلِم، ولايظهر بمخزونه ومكنونه عِلْم. فخذ الآن لحالك إن كان لك فى هذه اللغة عبارة، أو هبّت فى حجاب صدرك من هذا الحديث إشارة. وإذا وجدت بحالك ذلك فاستَمِلْ من وَجْدك بوَجْدِك حتى تحضر غائباً وتغيب حاضراً وتُغْمِض مُبْصِراً، وتبصر مُغْمِضاً، وتحيا مُكْرَماً وتُكْرَم مُحْيياً لا تستغرب هذه المناجاة فإنها والله ضاحيةٌ عند من «ألقى السَّمْعَ وهو شهيد»[٣]. أتدرى ما ضمير هذا الحرف؟ لعلك تدرى، ولكن ليس لك لسان يجْرِ مع الإلقاء التسليمَ، والسَّمْع القبولَ، والشهادةِ الوُجْدَ، بل الإلقاء الإيناذ، والسمع الارتياح، والشهادة الكُنْه، بل الإلقاء الدنو[٤]، والسمع السمو، والشهادة الدنو[٤]. أما ترى بالله هذا التشقيق فى هذا المضيق؟ والله لو وثقت بإدراكك، وسكنت إلى نيلك، وظننت أنك تذوق وتجد وتشم وتشهد، لقلت فى عنوان هذا الأمر العجيب، ما يُسَلِّيك عن متنه الغريب. على أنى إن أمسكت فلمالكٍ لا بد من أن يطاع، وإن أطلقتُ فلسرٍ لا بد من أن يذاع.

(١) قامسه: مقامسة وقماساً: فاخره وغالبه؛ قامس فلاناً: ناظره وباحثه.

(٢) جمع شاكلة: مثال.

(٣) سورة «ق»: ٣٧

(٤) كذا فى كلا الموضعين فى الأصل، ولعل أحدهما: الرنو.

يا هذا ! طالت الديدنة ، واشتدت النجوى ، وتكرر التشاور ، والقلب فى خلال ذلك واجب[١] ، والطرف عليه واجم ، والظهر والرحيل أزف ، وربك بالمرصاد . وما أولانا مع هذا الأمثال المضروبة ، وهذه المياه المسكوبة ، وهذه القباب المنصوبة ، وهذه الغايات المطلوبة ، بأن ننتهى حيث انتهى بنا ، ونقبل ما قيل لنا ، ونصدق من أتانا ، ونسلم ما خفى علينا ، ونكتفى بما بدا لنا ، ونقدم على ذلك كله بدارنا ، ونكل جميع ما بنا إلى من يملك جهارنا وسرارنا . وإنما قلتُ : ما أولانا بهذه الحال ! [١٢٢ ا] لأنا عبيد ، والذى يليق بالعبد أن يلزم حده ، ويبذل جهده ، وينفق وُجده[٢] ، ويحفظ وَجده[٣] ، ويُذلّل عُقده ، ويطلب رفده ، ويلحظ سَمْده ، وينتظر وعده ، ويصحح قصْده ، ويستديم وُكْده[٤] ، ويحصّل نقده ، ويرتكب فقده . فإن العبد إذا فرغ مما عليه بحق العبودية ، شغل بماله من حق الربوبية ، وكما كان فى حاله الأولى مربوطاً بما عليه ، كذلك يكون فى حاله الثانية مغبوطاً بما لديه . فهل رأيت عبودية أدت إلى ربوبية غير هذه ؟ وإنما كان هذا على هذا لأنها عبودية بحق لمن له ربوبية بحق ، والحق أحقُّ بالحق . فتعالَ حتى نسكت هائبين ، ونقول مُخْبتين[٥] ، ونعمل مجتهدين ، ونعلم مستسلمين ، ونرقد مُوَدَّعين ، وننتبه متعجبين ، ونصطحب مشفقين ، ونفترق متواصلين ، ونتذاكر

---

(١) من الوجيب : الخفقان .

(٢) ما يجد من المال .

(٣) من الوجد : شدة الانفعال والعواطف .

(٤) الوكد (بضم الواو) : السعى والجهد .

(٥) من الإخبات : يقال أخبت القومُ إلى ربّهم : أطمأنوا إليه ، ومنه : « هو يُصلّى بخشوع ، وإخبات وخضوع وانصات » . فهو مخبت .

مستفيدين ، ونعتقد محققين ، ونحقق معتقدين ، ونستقبل القبلة مستغفرين ، ونذكرُ فى الذاكرين مولانا ، ونتنبه بين الغافلين ، ونرجو خائفين ، ونخاف راجين ، ونفرّق بين الشك واليقين ، ونتوغل فى إقامة وظائف الدين ، ونزاحم مناكب المتقين . فإذا تعاونا على هذه الأحوال الحسنة فى هذا الزمان الذى قد عاد الإسلام فيه غريباً كما بدأ غريبا[1] ، كنا نجوم الأرض وأعلام الخلق ، وآتانا الله من عنده ما نغتبط به ونتنافس عليه . وقد قال الحق فى تنزيله على قلب رسول الله عليه السلام : « وتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ والتَّقْوَى ولا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والعُدْوَان »[2] . فما الذى يبقى بعد هذا الدعاء بالحضّ على إحراز النصيب والحظ ، إلا أن نكون جاهلين بما لنا وعلينا ، عُمْياناً عمّا بنا وفينا ؟ ! ونعوذ بجلال وجه ربنا من ذلك أن نكون . وكيف ذاك ولنا أعينٌ تجول فى ملكوته ، وقلوب تفقه كريم خطابه ، وآذان تسمع لطيف سِرّه ! فما بالنا نجحد أياديه عندنا ، ومِنَنَه قِبَلنا ! وكيف ننسى ما سبق به إلينا ، ونحن إذ ذاك لا عَيْنَ ولا أثر ، ولا عيان ولا خبر ، فأنشأنا وأظهرنا ، ونصرنا وعلمنا ، وقدّمنا وكرّمنا ، وهدانا وأرشدنا ، وأبرزنا وأشهدنا ، وألفنا وأفردنا ، وجاد علينا بما لم يكن فى حسْباننا ووهمنا ! فأيّة يد بيضاء لم تسبق له إلينا ! وأى مِنّة غراء لم تسبغ له علينا ! وأى نعمة لم تخلصْ له لدينا ! وأى نور

---

(١) إشارة إلى الحديث المشهور : « بدأ الإسلامُ غريباً وسيعود كما بدأ غريباً ، فطوبى للغرباء » (مسلم : ك ١ ح ٢٣٢ ؛ الترمذى : ك ٣٨ ب ١٣ ؛ الدارمى : ك ٢٠ ب ٤٢ ؛ ابن ماجه : ك ٣٦ ب ١٥ ؛ ابن حنبل ، ج ١ ص ٣٩٨ ، وج ٤ ص ٧٣) .

(٢) سورة « المائدة » : ٢

لم يشعْ له على كل واحد منا ! وأى رَوْح لم يصل منه إلى قلوبنا ! وأى كَرْب لم يزل به علينا ! وأى [١٢٢ ب] رائحة لم تطب به لنا !

اللهم إنّا قد أحسسنا بأياديك عندنا ، وتقلبنا فى نوافلك قبلنا ، وشممنا فوائح بِرّك بنا ، ووجدنا حقيقتك فى أسرارك ، وذقنا حلاوة مناجاتك لنا ، ورأينا عياناً آثار رأفتك بنا ، وأصَبْنا — بفضلك وجودك — ما أردنا وفوق ما أردنا . فبهذه المعرفة التى قد أنبأنا بها على نعمك علينا إلا ختمت لنا بالحُسْنى ، وهَوَّنْت علينا المصير إلى ذراك فى المحل الأعلى . وقبل ذلك : فإنا نسألك أن تكفينا مؤونة خَلْقك ، فقد صَدُّونا عن سبيلك ، وفرّقونا من أجلك ، وطلبوا عثراتنا بسببك ، لأنا ذكرناك حين نَسُوك ، وقرَعْنا بابك حين لاذوا بباب غيرك .

اللهم فامْحُ أسماءهم عن ألسنتنا ، واطمِسْ صِفاتهم من قلوبنا ، واشغَلْنا بك عنهم حتى نذكرك بالإخلاص ، ونصير من حزبك بالاختصاص ، فإنك ربُّ الناس « مَلِكُ الناس ، إله الناس »[1] — نسألك بكلماتك التامة ، وسُبُحات[2] وجهك ذوات الكرامة : أن تجيب دعاءنا ، وتسمع نداءنا ، وترحم نجاءنا[3] ، وتقبل ثناءنا — وما أولاك بأن تفعل ذلك وما فوق ذلك !

أيها الأجنبى فى هذه الطريقة ، المُنْكِرُ لهذه الحقيقة ! حرَامٌ عليك أن تسمع من هذا الديوان حرفاً بقلبك المنحرف ، وحرفك المنكشف ، وبلائك الملتحف . وحرام علينا أن نبدى لك من هذه الصحائف كلمة سائغة، أو حكمة بالغة ، فإن بلينا بأن نقول فأبليت بأن تسمع ، فذاك والله لتقصير

(١) سورة « الناس » : ٢ — ٣

(٢) سُبُحات (بضم السين والباء) وجه الله : أنواره .

(٣) النجاء : الخلاص .

قد كان منا ، ولمحنة قد أَرْدَتْ بنا [١] . وقانا الله فتنة القول ، وكفاك فتنة الجحود ، وجعلنا جميعاً تحت جَناح رحمته طائرين إلى ذروة عِزّه ، نائلين من خيرات ملكه ، راتعين فى رياض نعمته ، سابقين إلى حيازة مَرْضاته .

أيها المُزْوَرّ [٢] عن أكناف الحكمة ، والثانى لعطفه عند فواتح المعرفة ، والمتكبر عن أبناء جنسه بفضل اليسار والثروة ، والمتشدّق فى حديثه إذا جرى نَعْتُ المملكة ، والمتبغْثر عند أعاجيب القدرة السارية فى البرية ! أَقْلِع عن عادتك هذه الذميمة ، واتّق عواقب هذه الطرائق الوخيمة ، وتطلَّع نحو هذه الأنباء الكريمة ، وتذوق حلاوة هذه النِّعَم الجسيمة ، وابحث عن هذه الأسرار المكنونة ، وعانق هذه [١٢٣ ا] الأحوال العزيزة المصونة ، وابْلُ صِدقَ ما أقول وحقيقة ما تعى مرة واحدة . فإن رأيت الرُّشْد والغبطة والسرور والحبور والتمام والعز والعظمة فى ذلك فزِدْ فى اجتهادك ، وتَصَفَّ فى اعتقادك ، وترَقَّ إلى غايتك فى اعتمادك ، وحقق عزيمتك فى كل وقت بحسن ارتيادك . وإن لم تر ذلك ولا شيئاً منه ، فأمرك فى يدك ، ورأيُك إليك ، واختيارك لديك . وهذه مكاسرة [٣] منى فى مخاطبتك [٤] ، وإلا فلو وردت هذا الجناب لرعيت آمنا ، وأقمت ساكناً ، وأدركت ما تدركه معافياً .

كان الله لك حافظاً وكافياً ! اللهم حقق ما نسألك ونطلبه منك ، ياذا الجلال والإكرام !

---

(١) أردى به : أهلكه .

(٢) ازورّ عن كذا : انقبض ولوى عِطْفَه .

(٣) أى : ملاطفة .

(٤) ص : مخاطباتك ، وتصح ، ولكن آثرنا ما أثبتناه .

رسالة (هـ = مب)

اللهم اسلُكنا فى سبيل مَرضاتك على شمائل العارفين بك [١] فى درجات المُحبِّين لك عند كل خاطر هَجَس بسرك مع كل لسان مع تبيين بذكرك . وارفع عنا جَهْدَ الزمان وجَوْرَ الإخوان وتلوُّن الشان بعد الشان . وصِلِ ائتمارنا بأمرك . وأسبِل علينا كثيفَ سِترك . واملأنا ببرهان ربوبيتك . وفَجِّر فينا ينابيع البيان عن إلٰهيتك . وصُنْ وجدنا بك عن وجداننا لك . وأنشِئ فينا نوراً نهتدى به إليك ، واجعل فى الجملة والتفصيل كلامنا كله كلاماً [٢] عنك ، ودعاءنا إليك ، وخبرنا عن قدرتك ، وسكوننا معك ، وتلفتنا لك ، وتهالكنا فيك ، وتوكلنا عليك ، وقرة أعيننا عندك .

نسألك اللهم بجبروتك أن تعلمنا إذا جهلنا ، وتستعملنا إذا علمنا ، وتتألَّفنا إذا شَرَدْنا ، وتؤنسنا إذا استوحشنا ، وتُكرِمنا إذا هِنّا ، وتَهدينا إذا حِرْنا ، وتنفقنا إذا بُرْنا [٣] ، وتصلحنا إذا فسدنا ، وتُعزّنا إذا ذللنا ، وتكثرنا إذا قللنا ، وترشدنا إذا ضَللْنا ، وتُنشِّطنا إذا مللنا ، وتَجْبُرنا إذا انكسرنا ، وتغنينا إذا افتقرنا ، وتُبلِّغنا إذا انقطعنا ، وتدارينا إذا امتنعنا ، وترفعنا إذا اتضعنا ، وتحضرنا إذا استمعنا ، وتسهلنا إذا تعسرنا ، وتعفو عنا إذا قصّرنا ، وتنفعنا إذا علمنا ، وتوفقنا إذا عملنا . يا هذا ! إذا أهلَّك [٤] لدعائه

---

(١) ص : لك .

(٢) فى الأصل : كلامنا .

(٣) من : بار يبور بواراً وبوارا : بطل وكسد .

(٤) ص : هلك

فقد عرَّضك لأنبائه (١) ، وإذا وقفك بِفِنائه فقد اجتباك لعطائه ، فاختر . . . . . . (٢) . . . فى جميع خطراتك الباطنة ونظراتك الظاهرة بين قُدْرةٍ بها استترت فى [١٢٣ب] هذا الظلام ، وبين حكمة بها استعليت على هذا الأنام ، والحظْ النعمة بعين الوقار ، فإن اللحظ (٣) لها بعين الوقار امتراء (٤) من الزيادة فيها وامتيار (٥) . ومهما جمحت هكذا وهكذا فانفه يفنك ، وتوجه إليك يقبلك ، واعمل واحدة فإنها دعامة حالك ، وقد قرنتها ببالك . ولا تألف الشكوى ، ولا تنخدع بالدعوى ، ولا تتوجع بالبلوى ، ولا تطلب السُّكْنى فى غير دار السكنى ، فإن من ألِفَ الشكوى يُغْذِ من البلوى على البلوى ، ومن طلب السكنى فى غير دار السكنى فعن قريب يسمع : « وَيْلِى » ! « وَوَاوَيلى ! »

يا هذا ! رياض الأُنس زاهرة ، وحدائق المعرفة ناضرة ، وبحار النعيم زاخرة ، وآيات الحق حاضرة . فما هذا التعلل بأحلام النائمين ، وما هذا الزهد فى حياة العالمين ، وما هذا الإعراض عن علم اليقين والعلم المبين ؟

يا هذا ! اعتصم بالعُرْوة الوُثْقى التى لا انفصام لها . استمتع بالنعمة التى لا كدر فيها . اقطفْ من الشجرة التى لا نفَادَ لثمرها . تنعَّمْ بالكلمات التى لا فِراق بعدها . اشهَدْ العزة التى لا بؤس عندها . بانِ صفاتك التى لا خير لك منها . استقلّ عثراتك التى لا عثرة لك وراءها . غمِّض عينيك عن هذه

---

(١) يمكن أن تقرأ غير ذلك لإهمال نقطها .
(٢) بياض فى الأصل ، بيد أن الكلام يمكن أن يستقيم ويتصل .
(٣) ص : لحظ .
(٤) امترى الشىء ، امتراءً : استخرجه .
(٥) امتار لعياله امتياراً بمعنى أمارهم ومارهم : أى أتاهم بميرة .

الزهرة التى فى الحياة الدنيا ، واوْنُ[1] إلى ما وراءك وازْنُ[2] إلى ما وراءها فى الدرجات العُلَى . قد أُلِفت تأليفاً به نظامك ، فلم تتشبّث ؟ ودُعيت مراعاة بها قوامُك فلم تتفنت ؟ وكُفيت أموراً لو طولبت بإحضارها لقصُر عنها حَوْلُك وقُوّتك ، وباد دونها نشاطك ومُنّتُك[3] . واشهَدْ هذه الكفاية التى سبقت لك فى القِدَم ، وصُنِع لك بها وأنت فى العَدَم . ثم اشهَدْ مالاح لك فى مقامك هذا من العلم بعد العلم حتى رَوِيت بعد العطش ، واطمأننت بعد الدهش .

يا هذا ! عِزّ على حالك فإنها عُرْضة[4] سبايا عيون الحق ، ولك فيها صدور وورود ، فاحذر كل الحذر أن « تَزِلّ قَدَمُك[5] بعد ثبوتها » فتصبح من النادمين السادمين . ويحك فقال[6] وتلوك إصْبَعَك ! لاراحم عليك ، ولامُقْبل عليك ، ولاباسط لعذرك ، ولا ناعش لصرعتك . قد أمكنْتَ من نفسك الشامتين بك ، وبسطت ألسنتهم عليك ، وما بك قد أنساك ما بك من غيرك .

[١٢٤ ا] يا هذا ! اجمع ذيلك ، وازْرُرْه وجَيْبَك ، وقَصِّر كُمّك ، وثِبْ عن مكانك هذا وثبة الطالب لنجاته ، العامل بوصاته ، الواثق برجاته[7] ، الكابت لعُداته ، النازع إلى حسراته ، النائل لحياته ، الجامع بين وُلاته وحُماته ، الواصل إلى هداته وثقاته ، المتخلص من آفاته وعاهاته .

---

(١) كذا !

(٢) فعل أمر من رنا يرنو .

(٣) المنة (بضم الميم وتشديد النون المفتوحة) : القوة .

(٤) العرضة : الهمة .

(٥) سورة « النحل » : ٩٤

(٦) كذا !

(٧) الرجاة : الرجاء ، المرجاة ، الرجاوة .

يا هذا ! هذه مناغاة الحق لأصحاب القلوب المحترقة فيه ، ونَجْوى الحقّ لأسرار الحائمة عليه . فالزَمْ هذا اليفاع [١] فإن الألطاف تنثر عليك . واعلم أنها إذا انتثرت عليك انتظمت لديك . وإذا انتظمت لديك غنيت بها . وإذا غنيت بها أغنيت منها . وإذا أغنيت منها استغنيت عنها ، < وإذا استغنيت عنها [٢] > عدت غنياً بوُليها ومُسْديها .

يا هذا ! أما ترى هذه الدقائق كيف تحل بالحروف المجموعة المفرقة ؟ أما ترى هذه العجائب كيف تدق عن اللغات المزمومة [٣] المنمقة ؟ أما تراني فيها كأني من أهلها ولستُ من أهلها ؟ أما تراني عارياً منها وكأني حال بها ؟ أما تراني غريباً فيها وكأني مستأنس بها ؟ الويل لي إن كنتُ فيما أقوله غريباً منه . والويل لك إن كنت فيما تسمعه بعيداً عنه . إن القائل إذا لم يقل عن الحقيقة الأولى لم يسمع السامع على الطريقة المثلى . وبعدُ فإن القائل إذا لم يكن واجداً [٤] لما يقوله لم يكن السامع واجداً [٤] بما يسمعه : إنما هو قلب يناجي قلباً ، وروح [٥] تناجي روحاً ، وعقل يطارح عقلاً ، وربٌّ ينادي عبداً ، وعبد ينادي عبداً : فالمنادي من حيث ينادي بالصدق يجيب ، والمنادَى من حيث يجيب بالحق مناد .

يا هذا ! التيقظ بالمعارف إيقاظٌ للقلوب من الغَفَلات . التعارف بالتذاكر استحفاظ للغيوب من المفوات . فاجتهد أن تديم المذاكرة ، فإن أدنى ما فيها

---

(١) اليفاع : التل المُشْرف ، وقيل ما ارتفع من الأرض . وجاء في جمعه : يُفُوع .

(٢) أضفنا هذه الزيادة لأنه يلوح أنها ناقصة .

(٣) المضمومة الموثقة .

(٤) واجد الأولى ضد فاقد ، والثانية من الوجد : وهو الانفعال والتأثر .

(٥) ص : روحا .

أن يتصرّم عنك وقتك ولك فيه أثر ، وليس ينصرف عنك وقتك ولك فيه أثر إلاّ وَبقِيَ عليك منه روح يكون لك عنه خبر . ودَعْ عنك الشواغل من زيد وعَمْرو وبَكْر وخالد فإن الخالق عليك لا لك ، واجعل الحق قُبالة سِرّك وتُجاهَ حبة قلبك <و> وراء شفاف فؤادك ، فإن الحق لك ، لا عليك . وثق بأنك إذا أدمجت نفسك وأخلاقك وأعمالك ومعارفك وخطواتك فى هذه الصفات التى قد تكررت عليك وصارت ديواناً واسعاً عندك ، لم تَعْدَم رَوْحاً ينفى [١٢٤ ب] عنك كلّ كربٍ جاثمٍ كان على كبدك ، بل لم تعدم كشفاً به تشرف على كائنات الغيب الذى لم يك فى ظنك ، بل لم تعدم حالاً إذا رُمْتَ وصفها بالكاف والقاف ، والعين والغين ، والخاء والحاء ، لم تستطع ، لأن لغة ذلك البلد لا تفهم فى هذه المدينة ، كما أن عادة هذه المدينة لا تستمر فى ذلك البلد .

يا هذا ! إن شعاع هذا الشمس يختطف أنوار هذه الأبصار ، وبحر هذه الأحوال يبتلع جميع البحار ، وثمرة هذه الشجرة تُسلّى عن كل الثمار ، وسرّ هذه القصة يمحو رسوم سائر الأسرار . فالزَمْ جدك فى جدك ، وتحرّ وعدك بإنجاز وعدك ، وخَفْ رَدّك بِرَدّك ، واستمد مُمِدّك فإنه إن أمدّك كفاك مؤونة قُرْبك وبُعْدك ، وأغناك عن ترفك ورَغَدك .

اللهم إنّا نغدو ونروح ، ونَنوح ونبوح ، فاجعل غُدُوّنا إذا غدونا لك ، ورواحنا إذا رُحْنا بك ، وبَوْحنا إذا بُحْنا عندك ، ونَوْحنا إذا نُحْنا على فائتنا منك ، حتى نكون فى حالاتنا كُلّها متشبثين بذيل الذل لك ، منتسبين إلى عِزّ كنفك ، مهتدين بقبس لُطفك ، قارّين فى عَقْوة [1] عزك ، متفيئين

(١) العَقْوة : ما حول الدار ، الساحة والمحلّة كالعَقاة ، ج عِقاء . يقال : « ما يطور بعَقْوته أحد » أى لا يدنو منه أحد ولا يقرب ساحته إنسان .

بظل كرامتك ، متقلّبين بنعمتك على نعمتك ، سالكين طريق طاعتك بطاعتك ، واصلين إلى معرفتك بمعرفتك .

يا هذا ! تجنب الأضدادَ فإنهم مفْسَدَة ، وتجنب الأمثال فإنهم مَشْغَلَة . واعلم فى الجملة أن وصالهم صَرْمٌ ، وحُبّهم بُغْضٌ ، وبِرّهم جفاء ، وعطفهم صدود ، ومسالمتهم حَرْبٌ ، وإقبالهم كَرْب ، ونوالهم حَرَب (١) ، والفكر فيهم عطب .

يا هذا ! إن كنت مع العلم فأين العمل ؟ وإن كنت مع اليقين فأين الهيبة ؟ وإن كنت مع الحياء فأين المراقبة ؟ وإن كنت مع الطمع فأين البذل ؟ وإن كنت مع كبر المهمة فأين الشدّة ؟ وإن كنت مع المحبّة فأين الاتباع ؟ وإن كنت مع الظاهر فأين الأدب ؟ وإن كنت مع الباطن فأين الطرب ؟ وإن كنت مع الدَّعْوى فأين البيّنة ؟ وإن كنت من أهل الديوان فأين المنسوب ؟ وإن كنت من عند الصاحب فأين الخاتم ؟ فلا لك من المبدأ خبر ، ولا لك من المنتهى أثر . رضيت بزُخْرف القول غروراً ، وذهبت بما لك عما عليك حسرة وسروراً . حتى إذا جَدّ رَحيلُك وحضرك مُبْرَمُك وسِجِلُّك ، بقيت على قارعة الطريق بلا هادٍ ولا حادٍ . أما علمت أن من أشار إلى الحق قولاً ثم ركن إلى غيره فعلاً فقد حُجِبَ عن الصديق عقداً واحداً . أما علمت أن كل عامل [١٢٥ ا] مطرود إلا من أريد بذاك ، وكل وارد محدود إلا من أُذِن له فى ذاك ، وكل متمكن مغرور إلا مَنْ كوشف هناك ؟ يا هذا ! إن قصدت بالأدب حفظت ، وإن خادعت فى قصدك لفظت . أما علمت

(١) حُرِب الرجلُ ماله : سلبه ، فهو محروب . وحَرِب (من باب علم) يحرب : كَلِبَ ، واشتد غضبه ، ودعا بالويل .

أن الصادق مغبوط ، والكاذب محطوط ؟ أما سمعت الذى أنبأ عنه حين قال : أَوْفُوا بعهدى فى دار محنتى على بساط خدمتى لحفظ حرمتى ، أُوفِ بعهدكم فى دار نعمتى على بساط قربتى بجلال رؤيتى .

يا هذا ! قد أصبحت فى قَبْضة العز تجرى عليك تصاريف القدرة وأحكام المشيئة ، بين أستار سابغةٍ من النعمة ، وأكنانٍ [1] طليلة بالرأفة والرحمة ، فلا تتعرض لتغيّرها عليك فإنه قد أبان فى تنزيله ذلك حين قال : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » [2] .

يا هذا ! قد ناجيتك وناديتك وناغيتك ، كل ذلك بلطف قصدتك به ، وشفقة آثرتها : تارة بأن أريتها إياك حتى تُنقى مابك مما قد أقذاك ، وتارة عرضت عليك صفاتك حتى تعرف منها حقيقتك فتنصح لنفسك ، وتارة حدثتك عن إخوانك وأعدائك لتأخذ أهْبتَك فيما يجب لك وعليك ، وتارة تلوت[3] عليك الظاهر لترتاض ، وتارة شوقتك إلى الباطن لتعتاض ، وتارة سفرت بينك وبين ربك ليصير لك عنده وَزْنٌ فيخصك إذا قَرعْتَ بابه ذاكراً ، أو إذا حضرته مفكراً ، أو إذا شهدته واجداً ، أو إذا وجدته مشهوداً ، أو إذا أجبته مُلَبّياً ، أو إذا دنوت منه مجيباً ، أو إذا أخذمته [4] متحبباً ، أو إذا ناجيته مُتَقَرِّباً ، أو إذا أخبرت منه شاكراً ، أو إذا وصفته ممجداً .

---

(١) الكِن (بالكسر) : وقاء كل شىء وستره ، والبيت . والجمع : أكنان وأكِنّة . وطليلة : نزل عليها الطل ، أى ندية بالرأفة والرحمة .

(٢) سورة « الرعد » : ١٢

(٣) ص : نكون .

(٤) ص : أحدمه . والصواب ما أثبتناه : وأَخْذَمَ الرجلُ : أقر بالذل وسكن .

فما جزائى على ما تفرغت لك به ! وما ثوابى على ما أفرعت عليه من ذنوبه ؟ بل جزائى أن تضاعف سَماعَك منى ، وتزيد فى إصغائك إلىّ ، وتقطع ما بينى وبينك بسببى ، وتصل ما بينك وبينك من أجلى . فإن قَبولك منى يزيدنى رغبة فى إرادة الخير بك جهدى وطاقتى .

إلهى ! إنى قد لاطفت عبدك ليفئ إليك ، ويطلب ما لديك ، فأعِنْه على ذلك ، وأعنّى عليه فى ذلك ، فإنك الجَواد المالك .

يا هذا ! قد نبهتُ منك عليك فلا ترقد ، وقد عرفت مالك فيك فلا تغفَل . وسيق إليك ما كان غائباً عنك فاستكن . وكيفما دارت بك الدائرة فكن مستكيناً فإنك تُرْحَم ؛ وإذا رُحِمْتَ فقد فاز قِدْحُك ، وأورى زَنْدُك . إن الرحمة من المولى للعبد مبلغة بالعبد المبالغ . وإياك [١٢٥ب] وإلْفَ السَّهوِ ، فإن الساهى هٰهنا جدير هناك بالندم والأسف ، والسَّدم واللَّهف .

اللهم أعنا على أنفسنا الوثابة علينا حتى تقمعها عنها (١) فنعبدك بعزائم الأحرار وشكائم الأبرار ، ياذا الجلال والإكرام !

رسالة (ج)

اللهم إنّا لا ندعو بلسان الإخلاص من معدِن الاختصاص ، فنقول : إلهنا ! لا ثقة لنا إلا إليك ، ولا اعتماد لنا إلا عليك ، ولا قرار لنا إلّا لديك ؛ أنت كهفنا الحصين ، وحبلُنا المتين ، ومالكُنا الرؤوف ، ومُدَبِّرُنا اللطيف — فهب لنا من لدُنْك رحمةً واسعة تغمُرُنا بجودك وكرمك ، وأفض علينا من عندك نعمة سابغة تسُرُّنا بفضلك ولطفك ، ولا تكِلْنا إلينا فنعجز عن إصابة خيرك ، ولا تردَّنا علينا فنكسد على غيرك .

(١) كذا ! ولعلها : عنا .

أيها السامع ! احضرْ بقلبك ، واستدرك بلُبِّك ، وانظر لنفسك فى يومك بغير ما كنت عليه فى أمسك ، وانتبه للزاجر من ربك ، والتفت إلى اللَّدد[1] من الملك الموكل بك ! فلا خاسر أخسر منك إن لم يكن لك سكون من يقين ، أو تبصُّر من معرفة ، أو حياء فى مراقبة ، أو خوف من سطوة ، أو رغبة فى قُربة ، أو طمع فى وُصْلة ، أو ندم على هفوة ، أو حنين إلى مناسمة ، أو ظمأ إلى مجالسة ، أو إشارة إلى عين التوحيد ، أو عبارة عن مَحْض التجريد ، أو نقطة من عقل قد حُفَّ بالتأييد ، أو وجد لمشاهدة خَلَصَتْ على الاتصال والتأبيد . فإن جَسَرْتَ على أن تدعى هذا المقام وتحدث نفسك بهذا المرام ، فهاتِ العلامة التى تَدلُّ على هذه الكرامة ، فإن الدعوى بلا برهان مردودة ، والنفسَ فى الغاية بلا اطمأنينة مكدودة — قُلْ متى كان الليل مطيتك بالتهجد ؟ متى كان النهار منصرفك بالتزهد ؟ متى كانت ساعاتك مشغولة بالتفرد ؟ متى كانت حركاتك مقصورة على التعبد ؟ متى كانت سيرتك جارية على التوحش والتأبُّد ؟ متى جعلت حياتك قَعودَ سَنَرك ؟ متى قصدت الجنة بغاية وطرك ؟ متى وجدت الله فى أقاصى نظرك وفكرك ؟ متى تركت للدنيا قالياً لها ببصيرتك ؟ متى أصبحت ماقتاً لها بمخبرتك ؟ ما اعتذرت فيها بما[2] وصفها به الواصفون — أليس قيل : الدنيا سِجْنُ المؤمن ؟ فلم جعلتها أنت رَوْضَتَك وبهجتك ؟ ولم أخلدت إليها بجهلك [١٢٦ ا] وغِرّتك ؟ وهلا أخنت فى تحصيل ذلك وأهبتك ؟ متى كان العقل دليلك فى طريقك ؟ متى كان الجوع والعطش صاحبك فى حالك ؟ متى كان اللوم

---

(١) لدده (من باب نصر) لددا : تواضع له بالذل . ويمكن أن يكون مقلوب لَدَمَه ولدمه (من باب ضرب) : لطمه ، فاللدم هو اللطم ، وكذا اللدد . وهو الأقرب إلى المعنى هنا .

(٢) ص : ما .

والزراية معينيكَ على نفسك الأمّارة بالسّوء لك ؟ متى اتخذت الصدّيقين إمامك وإخوانك فى أمرك ؟ متى استظهرت بالورع والتقوى فى شأنك ؟ متى كان ذكر الله بالخشوع شعارك ، والافتقار إليه دثارك ؟ متى كان القرآن حديثك والخلوة بمناجاة الله ديدنك ؟ متى اتخذت الصبر وسادة ، والصمت عصابة ، والحكمة جُنّة ، والتسليم حجة ، والخوف قرينا ، والرجاء خدينا ، والتوبة فراشا ، والأمانة رياشا ، والاعتبار معاشا ؟ أين سهر العيون وموت الطباع فى المخالفة ؟ أين حنين القلب وشدة النزاع إلى الموافقة ؟ أين راح النفوس والشوق إلى المحل المأنوس ، والتطعم من ذلك الجَنَى المغروس ؟ أين متعة الأرواح بطرائف المساء والصباح ، وهناء بالغدو والرّواح ؟ أين الهشاشة بالنجاح ، والبشاشة بالفلاح ؟ لا تعرف الفرق بين الظلام والشعاع .

يا من تهاون بنظرة الله إليه حتى استجرأ بجهله عليه ، غير ذاكرٍ لموته ، ولا خائف من فوته ؟ يا من عظم حزمه ، وتضاعف عَزْمُهُ ، وقلّ بما عليه وله علمه ! يا من طالت غفلته ، واستحكمت قسوته ، واستمرت على ما ساه وباه (١) زلته !

يا من امتد به نومُهُ ، وضاع أمسه ويومه ، وشمت به عشيرته وقومه ! يا من قل حياؤه فلا يكترث لنظر الله إليه ، ولا يهاب اطلاعه عليه ! يا من توالى وَعْده ، وتمادى حَلْفه ، وتقدم عهده ، وقَرُب نكْثُهُ ، وحاَف بعزته فما وفى ، وغمس فى ينابيع الهدى فما صفا ، ووُلّى أمر معاشه ومعاده فما كفى ! يا من يُدْمِن أحبته وأعزته وإخوانه وجيرانه كل يوم فما يُقلع عما عليه من البَغى والزهو والغَشْم (٢) والظُّلْم ! يا من ذنوبه لا تحصى مع التضييع لما أُمِر به !

(١) كذا فى الأصل ! ولعل صوابه : ما شاه وتاه .

(٢) غَشَم الوالى فلاناً (من باب نصر) غشماً : ظلمه .

قد رضى أن يكون مطروداً عن باب ربه لا يراه أهلاً لمعاملته . صدَق الحكيم المتقدم :

لا يبلغ الأعداء من جاهلٍ ما يبلغ الجاهلُ من نَفْسِه

يا أخا العَثَرات بعد العثرات ! يا كاسب السيئات بعد السيئات ! يا صريع الشَّهَوات فى الشهوات ! [١٢٦ ب] يا خائضاً فى الشُّبُهات على الشُّبهات ! يا أسير اللذات فى اللذات ! يا قرين الغفلات فى الغفلات ! يا ناوياً فى الضلالات بعد الضلالات ! يا معتقداً فى الجهَلات بعد الجهَلات ! متى يكون انتباهك ؟ وإلى أى حد يبلغ سهوك ؟ لعمرى فِطامُ الأرواح عن الأجساد شديد ، ولكن هلاكُ الأرواح والأجساد أشد ، وفوت الدنيا والآخرة وخسرانه أبين وأبين . ويحك ! إذا فاتك الله فبم تسلو ؟ وإذا وجدت الله فعلام تحزن ؟ أما تعلم أن فى الله عِوَضاً من كل فائت ، ودَرَكاً لكل مأمول ، وبلوغاً إلى كل مراد ؟ ألا قفُوا على ديار الهالكين ، واستخبروها عنها إن كنتم شاكين ، ونادوا فى أقطاب الربوع الهامدة ، وآثار الجموع البائدة : يا منازل الأمم الخالية ، ومعاقل أولى الهمم العالية ! ما فعل سكانك الأولون ، وأين حلَّ قُطَّانك المتحملون [١] ؟ وكيف تفرقت تلك الأجسام الكثيفة ، واضمحلت تلك الجواهر الشريفة ؟

أيها المغرور عن تصاريف الأيام ! ما أغفلك ! أما تعتبر بمن كان قبلك ! ألهاهم الأملُ فهم ساهون ، وغرَّتهم الأمانى وهم غافلون ، واخترمتهم [٢]

---

(١) تحمل : سافر وارتحل .

(٢) اخترمت المنية فلاناً : أخذته . وكذا تخرّمته ؛ واخترمت القومَ وتخرمتهم : استأصلتهم .

يد المنون وهم يلعبون ، واعتورتهم الأيام بكرّ صروفها وهم يمرحون . لقد ناداهم ذو الجلال بالتنبيه لو كانوا يسمعون ، فقال : « أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ — إلى قوله : « يَسْمَعُونَ »[1] ، إلا القوم الخاسرون ؟ أنذرتكم الأيام بعبرها فلم ترتدعوا ، وأرتكم الليالى تقلبها بأهلها فلم تنتفعوا ، ونادتكم الدنيا بترك السكون إلى لذاتها فلم تستمعوا . خدعتكم الشهوات فملكتكم ، وغرتكم الأمانى فأهلكتكم ، وسباكم الشيطان من أوطانكم فباعكم فى أرض أعدائكم بثمن بخس ، فخسرتم وربح عليكم ، فبقيتم فى بلاد الغربة حيارى متلذذين[2] بلا أُنْس ولا سَلْوة ، فأنتم بين شَرِق بشربته غَصّان ، وشَجٍ بغصته ظمآن ، ومُدَلَّه بشهوته حيران ، ومقلقل بلوعته ولهان . قد غرقتم فى بحار الغرور ، وتُهتم فى مهامه الثبور ، وبُعتم[3] فى مَنابِتِ الندامة ، وركضتم فى ميادين أجرامكم التى تلزمكم منها الملامة ، فلا إلى ثقة [١١٢٧] من سراركم تسكنون ، ولا فى مدة آجالكم لأنفسكم تمهّدون ، ولا من غضب ربكم يوم القيامة مشفقون . إن عذاب ربكم غير مأمون . أما سمعتموه يقول : « إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ »[4] ؟ فيا للساجين على شجو أنفسهم العبرات ! ويا للمقطّعين نياطَ قلوبهم بالزفرات ! ويا للهائمين على وجوههم من شدة الحسرات ! ويا للاطمين من حُرَق الوجد خدودهم والوَجَنات ! فيارحمتا[5] لقوم بعدوا عن منازل المقربين فسحقت ديارهم ، ونأوا عن درجات

---

(١) سورة «الأعراف» : ٩٧—١٠٠

(٢) كذا فى الأصل بالذال المعجمة !

(٣) من باع يبوع : أبعدَ خُطاه .

(٤) سورة «المؤمنون» : ٥٨

(٥) ص : فارحمنا .

الفائزين فانمحت آثارهم ، ونُفُوا عن باب الله الكريم فقبحت أخبارهم . فلو رأيتهم يوم العَرْض ، وقد ساخت بهم (١) الأرض ، فندموا على ما فرطوا أيام المَهَل ، وحقت عليهم كلمةُ العذاب بالوعيد الأول ، لعلمت أن التاجر فى الدنيا من صادف ربحه فى الآخرة ، والناجى منها من قنع بالفِلْقة والخِرْقة . أتدرى ما كلمة العذاب ؟ قوله : « ادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ » (٢) ، « اخْسَئُوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ » (٣) . آه من الشقاوة التى ليس بعدها شقاوة !

ياهذا ! من سمع نداء الحق فى أعماق جوانح سره ، شهد الأول والآخر فى عجائب أمره . ومن ارتاح إلى صيانة ماتحت سره ، أخذ بصنعه إلى غاية ما أريد فى دهره وبعد دهره . ومن فتح فاه ناطقاً بودائع الحق فى صدره ، أُهّل لذخائر ما فى ملكه من تُحَفِه وبِرّه . ومن غبن نفسه بنفسه ، نكص على عقبيه فى حياته وعُمْره . ومن اتكل على عفوه مع إصراره فقد باء بسخط فى وِزْره وضيق عذره فى عذره . ومن لزم حُدود العبيد فى صبره وشكره ، فقد أمن من استدراجه ومكره . ومن استعزَّ بوجده وقوته ، فقد حشد على روحه من يأتى على عَفَره ونفره !

ياهذا ! إن كنت عبداً فالزق بالذل والقُلّ . وإن كنت رباً فأَبْرِزْ قدرتك على ثقة . أنت هنا لست هناك ، فلم تجمح ؟ اشهَدْ ضعفك فى قوتك ، وأشْرِف على قوتك فى ضعفك ، تجدك منقوصاً بعد الزيادة . وَرَدْتَ قبل أن تحوم ، فَشَرِقْتَ . ولو حُمْتَ قبل أن تَرِدَ لشربت سائغاً ، وجرعت هنيئاً ،

---

(١) ساخت به الأرض : غار فيها .

(٢) سورة « النحل » : ٢٩

(٣) سورة « المؤمنون » : ١٠٨

وثلمت ناهلاً ، وعلمت أنك مكنيٌّ معانٌ ، ومشرَّفٌ مُـآنٌ[1] . فالآن وقد خذلك سوء الاختبار ، لُذْ بحسن التنصل والاعتذار ، فليس لك من دونه اقتدار ولا انتصار . إن قبلك فلفضله عليك ، وإن ردّك فلنقصك الذى لايخفى عليك ، وإن عاتبك فلأنه يستصلحك ، وإن أعرض عنك فلأنه [١٢٧ ب] يستدرجك ، وان ناغاك فلأنه يحب أن يجتبيك ، وإن محا بينك وبينه فلأنه قد قلاك واطّرحك .

يا هذا ! إياك أن تسأله فى الطاعة إلا الطاعة فى الطاعة ، وإياك أن تطلب منه العطية ولكن العطية فى العطية ، وإياك أن تشير إليه بالإشارة ولكن الإشارة فى الإشارة . أتعقل ما تسمع ؟ أو تلذ ما تجرع ؟ أو تخشى ما يلقى إليك من هذه النجوى التى فاتت أهل الدنيا ؟ ليس لهم منها لا[2] الشخص ولا الظل ، ولا الكُثْر ولا القُلّ .

يا هذا ! الطاعة فى الطاعة الإخلاص ، والعطية فى العطية الرضا ، والإشارة فى الإشارة التجريد — فحدثنى بعد هذا الشرح : هل وقع دوائى منك على الجرح ؟ وهل وجدت خفاء من البَرَح[3] ؟ وهل وثقت بروح البر وبعد مسّ القرح ؟ إن كنت مراداً فقد نوديت ، وإن كنت مُزْداداً فقد بوديت ، وإن كنت مردوداً فقد عوديت ، وإن كنت مجتبى فقد هوديت . أنت أعلم بنفسك بقدر ما أُعلِمْتَ ، وأبصر بها بقدر ما بُصِّرت . إنما أروك العين لتبصر العين فى العين ، وأشهدوك الشاهد لتشهد الشاهد فى الشاهد ، وأخبروك

(١) اسم مفعول من آنه : رفق به .

(٢) ص : إلا .

(٣) برح الخفاء : وضح الأمر .

عن الغائب لتغيب فى الغائب ، وكلفوك ليرفّهوك ، وثقلوا عليك ليخففوا عنك ، وكدّوك ليبلغوا بك الراحة التى لن تنالها إلا بالكدّ . فلا تتهم مالكك ، ولا تستغش ناصحك ، ولا تركن إلى ما سوّلَتْ لك نفسُك وزخرفه لك هواك ، وأعاده وأبدأه قرين السوء معك . واعلم أنك بِعُرْضِ أمر جسيم ، ومُرادُ خطر عظيم ، ومدعوٌّ إلى خلود ونعيم مقيم ، فى جوار رب كريم . أفلا تبذل على هذه المكرمات كَدَّ عمر قصير ، وتعبَ أيام معدودة قد ذهب أكثرها باللهو واللعب ، وبقى آخرها بالكلال والتعب ؟ لئن بذلت قليلاً ، لتعُوَّضنّ كثيراً . ولئن نَصِبت يسيراً ، لَتَسْتريحنّ طويلاً .

يا هذا ! دع هذا وخُذْ بنا فى حديقة الحدائق لعلنا نتخلص من هذه البوائق[١] ، ونسلم على[٢] هذه العوائق ، وننسلّ عن هذه العلائق ، ونتلبس بتلك الأنوار والبوارق ، واسمع ما أقول لك فى وصف الملكوت الذى[٣] قد بهر الخلائق ، وميز السوابق من اللواحق : تراءت المناظر فحارت النواظر ، وتوارت المخابر [١٢٨ ا] فتبارت الحوابر[٤] . فأما تراءى المناظر فبشواهد الحق الذى الذى هو المعمور فيها والمغلوب بها ، المتراءى فيها والمرأى منها ، والمُرْبى عليها والمرابى بها . وأما حيرة النواظر فبشواهد الخلق الذى هو المعمور فيها والمغلوب بها والمقلوب بها والمقهور عليها . وأما توارى المخابر فللعزّ المحفوف بها والسلطان القائم عليها والتدبير الخافى فيها . وأما تبارى الحوابر فللغيرة عليها والوجد

(١) جمع بائقة : داهية .

(٢) بمعنى : على الرغم من هذه العوائق . أو لعلها تحريف صوابه : من .

(٣) ص : التى .

(٤) جمع حابرة أى سارّة : يعنى الأمور السارة ، من حبره : سَرّه .

بها والشوق إليها واللهف عليها . وهذه حدود مالاذبها بشر إلا بقى مسحوراً ، ولا بحث عنها إلا عاد مبهوراً مقهوراً ، ولا أفرج عنها إلا كان معذوراً ، ولا ادّعاها متكذبا إلا كان مهجوراً منكوراً .

رسالة (مد)

من قرع باب الله وَلج ، ومن طلب ما عند الله ادَّلج[1] ، ومن توجه إلى الله استسلم ، ومن طلب المكانة العلِيَّة عند الله استعصم ؛ ومن ذاق ما لَدى الله استحلاه ، ومن اشتاق إلى ما وَعد به استخلاه[2] . وفى الجملة ، من تأهب واستظهر بزاده ، وخفّض من مقاده ، وتعرّى من مراده ، فإنه يصل إلى غبطته وبهجته وراحته ورشاده . ومن سكر من شراب الدنيا ، هَلَك فى خُمَار[3] الهوى ، وبعد من أوطان الهدى ، وتاه فى أودية الرَّدَى .

يا هذا ! انتصحنى فوالله ما آلوك جهداً فيما عاد عليك بالثمرة الُحلْوة والمَسَرَّة الباقية والجَدْوى الحسنة . وإن رددت نصحى وتأففت عند قولى ، وسددت < عن > ذلك كله أذنك مكايدة لى ، وأَنَفَةً منى ، فلا عَجَب ! فلك فى هذا شركاء ، وهُمْ بأمثاله مِلاء[4] . ولا عجب منك ، فيما تسمع ، إذا نأيت عنه . فها أنا أقول ما أقول ، ونصيبى منه أقل القليل . ولولا أنى مراد بما ترى ،

---

(١) ادّلج القوم ادلاجاً : ساروا من آخر الليل ، والاسم الدُلْجه والدُّلْجَة .

(٢) ص : استحلاه (بالحاء المهملة) . وصوابه ما أثبتنا . واستخلى الملكَ استخلاء : سأله أن يجتمع به فى خلوة ؛ يقال : « استخلى الملك فأخلاه وأخلى به » — أى اجتمع به فى خلوة .

(٣) الخمار (بضم الخاء المعجمة) : صداع الخمر وأذاها ، وبقيّة السكر .

(٤) جمع : ملىء .

لنكبّت عن طريقة ليس لى فيها زادٌ ولا قِرى . فما أقبح النصح إذا كان الناصح به مخالفاً لنُصْحه فى سيرته ، وما أسمج الوعظ إذا كان الواعظ به غير منتحلٍ لأحسنه ، وعندى أن الدعوى بلا بيّنة فضيحة ، والظاهر بلا باطن فاحشة ، والقول بلا حجة بُهتان ، والتمنى بلا سعى صغو[1] ، والسعى بلا توفيق شقاء ، وركوب البرّ بلا دليل بلاء وعناء .

أيها الراكب سَنامَ الدنيا ، المُعرِضُ عن حُرَم المَوْلى ، التارك للطريقة المُثْلى ! أبشر بالخُسْر والعُسْر وضنك المعيشة [١٢٨ ب] فى الآخرة والأولى ! أيها الجاهل تعلَّمْ ! أيها العامل اعمل ! أيها العامل أخلِص ! أيها المُخلِص اثبُتْ ! أيها الثابت استمسك ! أيها المستمسك خَفِ المكر ! أيها الخائف ارجُ ! أيها الراجى ازَّوَّدْ ! أيها الواعظ اتعظ قبل أن تَعِظ ! أيها السامع احتفظ قبل أن تستحفظ ! أيها الشامخ تَطامن ! أيها الذاهب فى الشِّمال تيامن ! أيها المطرود عن الباب أجِدَّ البكاء لعلك ترحم ! أيها البائس أقلع واندم لعلك تقبل أو تُكرَّم ! أيها الخائض فى غمرات هذه العاجلة رِقَّ لعلك تسلم ! أيها المغتر بالصحة والشبابة[2] اعلم أنك ستسقم ! أيها المسرور بالمال والولد والربح والنعمة تنبه لعلك تَعدَم أو تُعْدَم .

إلهنا ! لولا قِحّتنا معك لم نستقبلك بوجوهنا مع اللَّطخ[3] الذى بنا ، والدَّرَن الذى قد غلب علينا . ولولا جودك وكرمك لم تؤهلنا لما أهّلْتنا لأنا نذكر بك[4] بألسنةٍ سليطةٍ فى الخنا والشّر والقَزَع والزُّور ، ونشتاقك

(١) صغا إليه : مال حنكه وإحدى شفتيه . يقصد : انحراف وانصراف .

(٢) كذا ! ولعلها : والشباب .

(٣) اللطخ : التلوّث .

(٤) كذا ! ولعلها : نذكرك .

بقلوب مُطْفَحة بالرياء والنفاق والخبث والفساد والرِّيبة ، ونُدِلُّ عليك بأعمال إذا قَدِمْنا بها عندك جعلتها هباء منثوراً لأنك لا ترى فيها نَفَساً خَلَص لك ، ولا وَهْماً سَلِم من سِواك ، ولا خيالاً جرى على مَرْضاتك . ثم إذا كان هذا حديثنا فى ألسنتنا إذا ذكرناك ، وفى قلوبنا إذا اشتقناك ، وفى أعمالنا إذا قصدناك ، فكيف ننجح عندك ، وكيف نسلم عليك — إلا أن الظن بك يا ربّنا جميل ، وأمَلنا فيك قوى . لا بل بدأتنا مما لم نكن أهله من الكرم والجود والإحسان والفضل . ومن بدأ بالحَسَن عاد بالأحسن ، وأنت البادى بالحَسَن والعادى (١) بالأحسن . هذا حكم أنت أقمته فى عقولنا حين أعلمتنا كرم الكرام ، وأنت فوق كل كريم . فكيف لا تعود بمثل مابدأت به وبأزيد منه ونحن نضرع إليك هذا الضَّرَع ، ونلوذ بك هذا اللِّياذ ، ونُعَفِّر وجوهنا لك بالخشوع والذلة . وأنت حين بدأت بما بدأت لم يكن منا شىء من هذا الذى وصفناه ؛ وكيف تخيب مسؤولاً (٢) وقد أنلت مبتدئاً (٣) ؟! هنا ما ليس فى عقولنا التى وهبتها لنا وجعلتها حجة علينا .

أيها الصاحب الطروب على ماتسمع ! إياك أن تُفْتَل (٤) عن حظك وتخدع ، فتسيل فى وادى الرجاء غير عامل على [١٢٩] كيس (٥) المستظهرين ، ولا آخذاً بجدّ المُسْتَبْصِرين .

---

(١) كذا ! والأقرب أن تكون : العائد ، لقوله قبل : عاد .

(٢) أى حينما تسأل .

(٣) أى مبتدئاً بالمعروف قبل أن تسأله .

(٤) فتله عن كذا : صرَفه (من باب ضرب) .

(٥) ص : كبس ، والصواب ما أثبتنا : والكيس ضد الحماقة . والمستظهرين : المحتاطين ، من استظهر الرجلُ : احتاط ، واستظهر له : استعدّ .

ياهذا ! إن الله وَهَبَ لك هذه الأَحساسَ لتعتبر بها فيما ترى ، وتسمع ، وتذوق ، وتشم ، وتلمس ، فجعلت الاعتبار بها بَطَراً وأَشَراً ، وتأَلَّبْتَ على واهبها لك منهمكاً مستكبرا . هكذا يشكر المنعم ، وبهذا تقابل النعم ، وإلى هذا كان الشوط ! ما أقل حياءك ! وما أصلب وجهك ! وما أوقح حَدَقَتَك ! بل ما أغرقك فى بحر الجهل ! وما أتيهك فى بَرّ الضَّلال ! بل ما أعماك عَمّا لَكَ ، وما أبصرك فيما هو عليك ! ياعدوّ نفسه ، وجالب حَتْفه بيده ، ويا شارب سَمّه بأنفه ، ويا خانق حَلْقه بحبله ، ويا مُخَرِّب بيته بساعده ، ويا سيِّء النظر لنفسه ، ويا جاهلاً بحظه ، ويا مستعقباً لحسرته بذنبه ، ويا مُجْهِزاً على روحه بخنجره ! إنما أنعم عليك هذه النعم المختلفة وشأنها بما أثر فى صفاتها ، لتحنّ إلى نعم هى أصفى منها وأوسع ، وأدوم وأرفع ، وأطيب وأسبغ وأهنأ ، حتى إذا حننت إليها سألت عن الأسباب التى توَصِّلك بها وتوفر قِسطك منها من خيرٍ تفعله ، وشر تتنكبه ، وجائع تشبعه ، وعارٍ تكسوه ، وجادٍ[1] تُسْعِفه ، وخائفٍ تؤَمِّنه ، وضائعٍ تحفظه ، وذمام تَعْقِده ، وفقيرٍ ترفده[2] ، وحق تنصره ، وباطل تخذله ، ومَسْجِدٍ تَعْمُرُه ، وبِرّ تتعوّذه[3] ، وضالّ تُرْشِده ، وداعٍ تجيبه . فبهذا وأمثاله تُشْكَرُ النعم وتُستدام ، لا بمخالفة الله وعِصيانه والعكوف على محارمِه ، والمجاهرة بما يُبْعِد من رِضوانه .

---

(١) الجادى : السائل (ومعطى الجدوى — ضدّ) .

(٢) رَفَده (من باب ضرب) رَفْداً وأرفده : أعطاه .

(٣) البَرّ (بفتح الباء وتشديد الراء) : البارّ . وعَوّذه به تعويذاً : دعا له بالحفظ وقال له : أعيذك بالله ، ورقاه ؛ يقال : تعوّذ بالله واستعاذه وعوّذه . وتعوّذ به منه : اعتصم ولجأ إليه — أو : وبِرّ تتعوده ؟

يا هذا ! قد صَرَّفْتُ لك القولَ ، وضَرَبْتُ لك الأمثال ، وأقنيت فى اللفظ والمعنى ناصحاً لك ، وطالباً لسعادتك ، وهادياً لك إلى راحتك . فإن أصغيت إلى هذه كلها قائلاً ، وتشبثت بها عاملاً ، وتثبَّتَّ عليها راجياً آملاً ، ضمنت لك الفوز بالنعيم الدائم ، وبالحياة الصافية ، وبالعيش الطيب ، وبالرَّوْح المتصل ، وبالرضوان الرفيع ، وبالنظر إلى وجه الله الكريم كفاحاً بلا حائل ولا حاجز . وليس بعد ذلك أملٌ أضمنه لك ، ولا مطلوب فأُشوِّقك إليه .

يا هذا ! غَيْبُ هذا الحديث خافٍ ، والرمزُ عنه متخافٍ ، وإنما ندندن (١) حول هذه المغافى (٢) ، هنالك تنال ما لا أُذُنٌ سمعت ، ولا عينٌ رأت ولا خطَرَ على [١٢٩ ب] قلب بَشَر . فثق — عافاك الله — بهذا الذى كنينا عنه ثقةً توفى على ما صرحنا به ، فإن غاية الإيمان اليقينُ ، وغايةَ اليقين ما تجده بقلبك ، وتُحِسُّه بروحك ، وتهيم عليه بفؤادك ، وتسلو به عن نفسك وحسِّك . وإن عبداً بَلَغَ مع الله هذا المُقامَ ، لجديرٌ بأن يكون قريرَ العين ، مغبوطَ الحال ، عظيمَ القَدْر ، واضح العذر ، شريف الحِلْية ، عجيب الجملة ، غريب التفصيل ، بديع الخبر ، طريف الأثر ، عزيز الوصف . إنْ ذُكِرَ وُجِدَ عليه ، وإن نُعِتَ اشتيق إليه .

اللهم كما علمتنا هذه الصفات التى تختصُّ بها من تشاء من عبادك بمشيئتك السابقة وقدرتك النافذة وحِكْمتك الخافية حتى وصفناه بوصفٍ شافٍ ،

---

(١) دندن الذباب والزنبور : صوّت وطنّ . والرجلُ : نغَّم ولم يفهم منه كلام .

(٢) ص : المعافى . ولعل صوابه ما أثبتنا وهو جمع : مغفى ، مصدر ميمى من غفا يغفو : نام .

وذكرناه بذكرٍ بالغٍ ، فخلنا حتى نظهر لك بحسنها وتتجلّى لعبادك بنورها ، وندعوهم إلى خدمتك بما يعود عليهم مِنْها ، ويَعِدهم بِمَنِّك مثلها ، ويكون سبباً لهم فى محبتك وعبادتك ، ولزوم فِنائك ، وطلب عطائك ، وغِشْيان بابك ، والتعلق بأسبابك[١] ، وانتحال توحيدك ، واللَّهج بتمجيدك .

إلهنا ! أنت أهّلتنا لهذا التوجُّه ، وألهمتنا هذا الدُّعاء ، وصرَّفتنا فى هذا[٢] الفنون ، وأرتعتنا فى هذه الرياض ، وسقيتنا بهذه الكؤوس ، وغمستنا فى هذه العيون ، وأوردتنا هذه الغُدْران ، وأطلعتنا على هذه الثنايا ، وحييتنا بهذه التحايا ، وأوسعتنا من هذه العطايا ، وناغيتنا فى المنام ، وصارحتنا فى اليقظة . فكما أهَّلْتنا لهذا كله فأهِّلْنا لرضاك عنا ، ولإحسانك إلينا ، ولرِفْقك بنا ، ولصُنْعك لنا ، وزِدْنا بعد ذلك ما لا نهتدى إليه فنسألَ ، ولا نعرفه فنطلب .

اللهم إنَّا لا نَشْبَعُ من فضلك ، ولا نَرْوَى من إحسانك ، فلهذا نُلِحّ ونُلْحِف ، ونطلب ونقترح ، ونتجاوز قدرنا فى الانبساط .

يا هذا ! إن كنت ظامئاً فرِدْ ولو حَبْواً[٣] ، وإن كنت غريباً فاستأنس فلك المثوى ، وإن كنت عليلاً فصِفْ ما بك فإنك تَشْفَى ، وإن كنت فقيراً فتعرَّض[٤] فلكَ الغنى وما فوق الغنى ، وإن كنت ضالاً فاضرع فلك الإرشاد والهُدَى ، وإن كنت معزولاً فاخطب [١٣٠ا] فلك الولاية الكُبْرى ، وإن كنت مهجوراً فاعترف فإنك تنال المرتبة العُلْيا ، وإن كنت حزيناً فاذكر ما بك فلك الفَرْحَةُ الطُّولَى ، وإن كنت تريد

---

(١) ص : بأسبابها .

(٢) كذا !

(٣) من حبا يحبو : مشى على يديه وبطنه ، زحف قبل القيام .

(٤) أى توجه بالسؤال إلى الله .

الدنيا فلا تَذْكُرُ المَوْلى . أما تعلم أن العيش مع المولى أحلى من المَنِّ والسَّلوى [1] ؟ أما ترى بالله يا صاحبى ما نحن فيه ؟ نَعرِفُ كأنّا لا نعرف ، ونعرف ما نصف كأنّا لم نصف . قلوبٌ تعترف ، وألسنة تختلف ، وأعمال لا تنتظم ولا تأتلف . ليت هذا لم يكن شقاء بنا ، ولا استدراجاً لنا !

اللهم إليك نفزع فى كلِّ ماهَمَّ ودَهَمَ ، وعليك نتوكل فى كل ما ناب وألَمَّ . وقد أهَمَّ أمْرُنا ، ودهمنا بلاؤنا ، ونابنا التقصير الذى فضحنا ، وأحاط بنا الخوف من الخِزْى المالك لنا . فا كفِنا أنت ، واروُفْ بنا أنت ، واعطف علينا أنت ، فإنك أنت أنت ، وإنما نحن بك لأننا لك . نتقلب فى ظلال نعمتك ، ونرجو غواشى رحمتك ، ونسألك الاتصال بك والدعاء إليك والخشوع لك وأنت مالِكُنا ومُصَرِّفنا ، فارزُقْنا رضاءنا عنك برضاك عنا . اﻫ .

أيها السامع ! هذا لسانُ الحق واعظاً وموقظاً ، فانظر أين أنت منه ، فإنه إن كان لك فيه نصيب فأنت حبيب ، وإن لم يكن لك منه نصيب فأنت غريب ، وإذا أردت أن تعرف نصيبك منه فانظر إلى سِرِّك كيف استنارتُه عند ذكر الحق ، وإلى قلبك كيف استراحته عند مجارى الأحكام ، وإلى روحك كيف هشاشته وبشاشته إذا صدَرْتَ بوادى الغيب إلى مواطن الملك ، وإلى شمائلك كيف اهتزازها فى أرجاء القُدْس ، وإلى نفسك كيف استجابتك للصبر عند الكوارث ، وإلى جملتك كيف انتهاضها بأثقال الحوادث ، وإلى كُلِّك كيف ثباته عند اختلاف الصوارف والبواعث ، وإلى بعضك كيف فِراره عند طلوع السواحر النوافث ، وإلى وجدك كيف صحته عند السماع ،

(١) المَنّ هو الطعام الذى يقال إن الله أنزله على بنى إسرائيل ليقتاتوا به ؛ والسلوى : العسل .

وإلى طمأنينتك [وصفْك] كيف طمأنينته عند الوداع، وإلى طاعتك كيف [١٣٠ ب] إخلاصك منها عند الهزاهز، وإلى معصيتك كيف نفورك منها عند الحوافز. تصفح النفس — عافاك الله — صعبٌ، وحَمْلُها على الجادة شديد، وإذعانها للحق مُعْوِز، وإنصافها متعذِّر، والانتصاف منها معدوم، وبلاياها بلا نهاية، وسراياها بلا آية، لها خداع ولك انخداع، فما الذى يبقى من الخداع والانخداع مع شَرَه العادة، وخُبْثِ الطباع، وبين مكاره الوقت وفتن الزمان، لأن الكلمة متشتتة، والدعوة ملتاثة، والرحمة مفقودة، والوصاة بالخيرة مهجورة، والقبائح فاشية، والخيانة ناشية[١]، والاصطلاح واقع على رفض المواعظ وترك التناصح. لاجَرَمَ اللبيب كئيب، والمُحَصِّلُ غريب، والقول فى هذه الحال العامة الطامة طويلٌ عريض، فقد أصبح الدين وما لمنهجه سالك، ولا عن حُكمه سائل؛ وأمست الدنيا وحُلْوُها مُرٌّ ونفعها ضُرٌّ. غلب والله اليأس[٢] لما قد غَمَرَ الناسَ. إليك المُشْتكَى يا إلهنا!

يا هذا! الدارُ دارُه، والخَلْقُ خَلْقُه، والمصادر عنه، والموارد إليه، والمشيئة منه، والتصاريف بإذنه، والحوادث بأمره[٣]، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. اهـ

فما بالنا نقلق هذا القلق، ونفترق[٤] هذا الفرق؟ أيحسن بنا أن ننازعه التدبير، وأن نرد عليه التقدير، وأن نظن أن نظرنا أصلح، ورأينا أصح،

---

(١) مخففة من ناشئة — أو من نشى بالشئ: عاوده مرة بعد أخرى — أى: الخيانة تتكرر مراراً.

(٢) مخففة من اليأس.

(٣) ص: فبأمره.

(٤) كذا! والأرجح أن تكون: نفرق: نخاف.

وعلمنا بالغيب أولج، ومعرفتنا بالكون أبهج؟ لا والله! ماهذا بلائقٍ بنا، ولا مُسَلَّمٌ لنا، لأنا أذلّاء بالفطرة، عبيد بالخِلْقة، مبسوطون بالحاجة، محمولون على المسكنة. إن رأينا فال[1] رأينا، وإن ظننّا التبس بالشك ظنّنا، وإن حكمنا اختلط بالجور حكمنا، وإن وهمنا اتصل المحال بوهمنا. فكمالُنا صادر عن التقصير، وعِلْمُنا مشوبٌ بالجهل، وواضحنا راجع إلى العويص، وصلاحنا ممزوج بالفساد. فمل هذا كيف يصح لنا قَصِيُّه، وكيف ينجلي لنا خَفِيُّه، وكيف يُقيم لنا سَرِيُّه[2]؟ وكيف تصفو لنا عطية، وكيف تصدر منا رويّة، وكيف تخلص لنا طَوِيّة، وكيف تبقى فينا[3] قنية؟ هذا ما لا ينبغي أن نطمع فيه وأن نحوم حَوْمَه، ونروم رومه. بلى! إن الذى يجب علينا، ويحسن بنا، ويدخل فى آداب العبيد مع ساداتها، أن ننظر إلى الملك على مجارى كون الكائنات، مُسْلِمين مُذْعِنين، متعجبين مُعجبين؛ فما كان مُواطئاً[4] لذيذاً قبلنا بالنشاط والأريحية، وما كان منافراً شديداً حملناه بالمسرة السوية والعقيدة القوية. فإن التردّى بهذا الرداء، والاستظهار بسكنى هذا الفناء، مَجْلبةٌ لسوابغ النَّعْماء، مَكْسَبَةٌ لمهانى العطاء، مَسْلَبةٌ لأثقال العناء، مَطْرَبةٌ بأنواع الغناء، مَطْرَدةٌ لأسباب الفناء، مقرَّبة لأحوال البقاء.

هذا ما أفضى إليه نظرى، ووقف عليه بصرى، واحتوى نحوه وِرْدى وصَدَرى، وطاح فى عُرْضه خطرى وغَررى، بعد الاستخارة المقدمة،

(١) فال (بالفاء ذات النقطة الواحدة) رأيه: فسد.

(٢) السرىّ: الجيد من كل شىء.

(٣) ص: فنّه — ويمكن أن تكون: بقية، أما القنيه (بكسر القاف وضمها وسكون النون)، فهى: ما اكتسب، والجمع: قِنًى.

(٤) أى: سهلاً ميسوراً.

والاستشارة المتممة ، وبعد توجه القلب لصفاء الضمير ، وبعد التَّبَرُّء من التقدير والتدبير . فإن سرّك أن تبرز بهذه الخلعة ، وتتخلص من ضروب الخدعة ، وتفوز بغرائب المتعة بعد المتعةِ — فافعل ، فإن الحظ فى ذلك كله لك ، والربح فى يدك ، والغبطة مكتنفة لظريتك ، مشتملة عليك . والسلام !

رسالة (هـ = مه)

كتبت إليك والربيع مُطِلٌّ ، والزمان ضاحك ، والأرض عروس ، والسماء زاهر ، والأغصان لدنة ، والأشجار وريقة ، والغُدْران مُتْرَعة ، والجبال مبتسمة ، والرياض معشوشبة ، والجنان ملتفة ، والثمار متهدّلة ، والأودية مطّردة . فما تقع العين إلا على سندس واستبرق ووشى اليَمَن وديباج الروم ونقش الصين . وكما أن للعين فى جميع ما وصفت مَراداً[1] ، كذلك للقلب فى عُرْض ذلك كله مُراد . ولكن أين القلب وأين صاحبه ؟ وأين العقل وأين ما يعقله ؟ العين تبصر الألوان وتَكِلُّ ، والنفس تضمر الأحزان فتفلُّ ، وأنت الحبيب دنا بعد نأيه ، وقُرب بعد بُعْدِه ، فكانت حرارة الفؤاد تبرد ، وحسْرَةُ الروح تخمد . وليت الحبيب كان يَهُمُّ بالوصل ويأذن فى اللقاء ويعد بإعادة العهد ، ويترنم بما سلف من الأيام الخالية من تنفس فى خَلْوة[2] ، وتأنس فى خلْوة[2] . وكانت الجبال تقشعر ، والأشجار تتساقط ، والأودية تنصب ، والغُدْران تجف ، والرياض تَقُفُّ[3] ،

(١) موضع ارتياد .

(٢) « خلوة » الأولى بمعنى : المكان الذى يخلى فيه الرجل ، و « خلوة » الثانية بمعنى : انفراد المرء بنفسه .

(٣) قف العشب والشجر (من باب نصر) قفوفاً : يبس ؛ وقَفَّت الأرضُ تَقِفُّ (من باب ضرب) قفاً وقفوفاً : يبس بقلها .

والأغصان تجْسو[١] ، والبلاد تقسو ، فإن فى مشاهدة الحبيب عوضاً من كل بعيد [١٣١ب] وقريب . — فحدثنى ياسيدى كيف أُسرّح طَرْفى فى آثار هذا الربيع ، وكيف أفرح بما أرى من الزَّهر والنور ، وعلى قلبى أقفال الهموم وليس لها مفتاح ، وعلى كاهلى أثقال الغموم وليس لها منها سراح[٢] ! وإنما كتبت إليك بعنوان حالى على غير إشباع لذكر مابى طلباً للرواح فى محادثتك ، وتسكيناً لما بصدرى من حرارة الشيطان إلى من طوقنى بمنه ، ثم غرقنى بفتنه ، ثم روقنى بمحنه ، ثم ختم علىّ بالصبر وأغلق دونى بابه ، ونهانى عن الشكوى وأغلق علىّ أسبابه ، وطوقنى على رؤوس الأعداء ساهِمَ الوجه بالمخالفة ، ذابل الشفَة باليأس ، كئيب البال بالحُزن ، مُقيَّد الشاهد والغائب بالتحكم ، متلجلج اللسان فى الاعتذار ، مردود الحجة عند الانتصار . إن رمقتنى عين رحمتنى بالبكاء ، وإن دنا منى إنسان وجدنى كرسم الهباء ، بعد ما عهدتنى جذلان ناعم البالَ رَخِىّ القلب ، أرجع إلى ثقة النفس فى السراء والضراء ، وإلى مقة الأنس فى الَّليان والخشناء[٣] . فهل تعرف ياسيدى بلوى تشبه هذه البلوى ؟ وهل يصبر العبد على مثل هذا من المولى ؟ بل يصبر ويصبر ، ولكن بعد مادّةٍ من نظرٍ جميل يقتاتها ، ويتقوى على حاله التى يتقلب فى عَرْضها وطولها . فالمسجون يُرْفَق به لئلا يموت ، والمحزون يُعْطَف عليه لئلا يبْلَى ، والمهجور يُسْأل عنه لئلا يتلف . وما غاية أملى بعد هذا الذى طولت به خبرى إلا أن أعلم أين مقر قدمى من مكانى ، وماذا الذى يصيبنى ممن رمانى ، بألوان

(١) جسا (من باب نصر) يجسو جُسُوًّا : يبس وصَلُب ، فهو جاسٍ ، وجسا الشيخ : بلغ غاية السن ، وجسا الماء : جمد .

(٢) السراح : الانطلاق .

(٣) الخشناء : الأمر الخشن .

أشجانى ؟ وهل العطفة مرجوة ؟ وهل الفيئة(١) منتظرة ؟ وهل الرحمة متوقَّعة ؟ وهل لزمان الفكرة والمؤانسة ، والغبطة والمناقسة ، رجوع وإياب ، وشهادة وغياب ، وعتاب واعتياب(٢) ، واعوجاج وانتصاب واغتراب ، وتباعد واقتراب ؟ فديت ذلك التباعد بحلاوات التجنى ، بل فديت ذاك الاقتراب بعد تحمل أثقال التمنى ، بل فديت تلك الطمأنينة التى كانت تحفظ دعائم حالى ، بل فديت ذلك الارتياب الذى كان يستوقف حظى من مالى أيام كنت أهيم فى كل شِعْب ، وأنتسب إلى كل قبيلة ، وأنتصب لكل فضيلة ، وأبرأ من كل رذيلة ، وأقول للحجر : ذُبْ — فأرى بأنه قد ذاب ، وأقول للبحر : امدُدْ — فأظن أنه استجاب ، أيام أقول :

[١٣٢] يا مُميرى(٣) طول الضنا والسقام! ما ترانى أهلاً لردّ السلام ؟
جُدْ بوعدٍ إذا مطَلْتَ دهوراً فلعل الميعاد يشفى سَقامى

أيام حلمى يُرينى كل فائت ملحوقا ، ويُصوِّر لى كلَّ باطل محقوقا ، وتناغينى حالٌ أكْثفُها يلطُفُ عن الفهم ، وأخفاها يعلو عن الوهم ، حالٌ كلما سلطت عليها العبارة وأرسلت إليها الإشارة حلَّتْ عن هذه ، وزلّت عن حاله — حالٌ كانت المنى تخطُبها على وجه الدهر . فلما بدت بحقيقتها استولت عليها يَدُ الدهر . فيا حَزَناً لمن لما وجد فقد ، ولَمَّا ملك هلك ، ولما أبصر غشى ، ولما أمن خشى ، ولما أوضح افتضح ، ولما ارتفع اتضع ، ولما علا هبط ، ولما استوى سقط . ووا لهفى ووا أسفى على سِرٍ كَتِمَ حتى لم نعرف منه لا الرسم

(١) الإنابة والرجعة .
(٢) بالعين المهملة فى الأصل . والمناقسة : من ناقسه : عابه .
(٣) من أعاره .

ولا الاسم . لعلك تظن أن الاسم بلا [١] عُرْفٍ لأنه سِرٌّ . فياويحك ! هذا خبال منك ، ووبال عليك ! أين الاسم الذى هو حروف ، من مضمونه الذى هو وراء الحروف ، الذى لا يناله الوهم لا بالسعى ولا بالوقوف ! وذاك هو الذى أفاد الاسم مرتبته ، وجمع بينه وبين نظيره ، وفَرَق بينه وبين ضده ، ذاك الذى نظر فعان ، وأراد فكان ، وظهر فبان ، وأظهر فأبان ، ورقّق فزان ، وكفل فمان [٢] ، وتولّى فصان ، ودنا فآنَ . سِرٌّ هو كاتمه ، وأمر هو ناظمه ، وبرق هو عارضه ، وشأن هو فارضه ، وكلٌّ هو حافظه ، وبعض هو ناقضه ، فليس لمخلوق أن يلم بحافات [٣] هذا الحديث رمزاً أو نبساً ، أو غمزاً أو هَمْساً ، إلا مِنْ بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى .

سيدى ! قد أرخيت عِنانى معك ، وطرحت ثِقْلى عندك ، وناقلتك [٤] بلغة أنت أعرف بها من غيرك ، وأوقَفُ عليها مِنْ سواك . وإنما كان ذلك منى لأشياء كثيرةٍ شريفة خطيرة ، منها : تسكين هذه الفورة التى قد بدت لك هواديها بما يدلك على تواليها ؛ والثانى طلب الفائدة منك بما جمع الله فيك ؛ والثالث إذعان النفس بالاعتراف لتصاريف الوقت ؛ والرابع مغالطة الأضداد فيما لم ينفتح عليهم منه باب ، والخامس استبراء [٥] العَيْب [٦]

(١) ص : فلا !

(٢) مانه يمونه موناً ومؤنة : احتمل مؤنته وقام بكفايته ؛ — فهو مائن .

(٣) كذا ولعل أصله : بخافيات — على أنه يجوز أيضاً .

(٤) ص : ثاقلتك (بالثاء) ، والصواب ما أثبتناه . يقال : ناقلته الحديثَ : حدثته وحدثنى ، أى نقلت إليه ما عندى منه ونقل إلىّ ما عنده وجادلته .

(٥) استبرأ : طلب الإبراء من الدين والذنب ؛ استبرأت الشىء : طلبت آخره لأعرفه وأقطع الشبهة عنى .

(٦) ص : الغيب ؛ ويجوز أن تكون : العيب (بالعين المهملة) كما أثبتنا .

بما هو صمَد[1] له من هذه الشهادة ؛ والسادس التعاون على نيل المراد من جناب الملك بحال لا تفسرها ألف ولا ياء ، ولا يخبر عنها جيم ولا حاء .

بالله ياسيدى ! أما ترانى كيف أبدأ لك بلسان قد ظهر بيانه ، فى مَعْرِض شأن قد استتر عِيانه ؟ وما هذا إلا لأن المكاتبة بالقلم تدعو إلى مثل هذه الحال التى وإن كنت مستغنياً بالله منها ، فإنى مُغاثٌ بتوفيق الله فيها . فهل بقى الآن بينى وبينك بعد هذه النجوى إلا أن تَكُفَّ ناظرى عن محاسن غيرك بِفَضْل إحسانك ، وتضاعف نشاطى فيما يصل إلىَّ من جوابك بما يضاعف نشاطك ؟ فإنك إن فعلت ذلك وصلت قديم بِرٍّ بحديث شُكْر ، وأفأت على سائلك ضالَّة حَقّ . فبحرمة انتسابك إلى الحق ، وبشرف انبساطك مع الحق ، وبعذوبة سرارك للحق إلا بلات طلبى بنداك ، وجُدْت علىَّ بما خصصت به من هُداك . وإنى إلى ذلك منك محتاج ، وليس لى إلى غيرك فيه مَعاجٌ . فاسمع ما أقوله متحققاً ، فما قلته إلا محققاً . وكيف أستحلُّ النفاق معك وأنت عَيْنُ الوَقْتِ ولسانُ الزَّمان وعنوانُ الحق !

اللهم إنَّا نكاتب الخلق التى أظهرتَها فى آفاق ملكوتك ليكونوا شفعاءنا عندك ، ونستدعى من أحوالهم خبراً عنك حتى تكون لنا فى ذلك وُصْلَتك وقيامٌ على أمرك ونهيك . فإذا حركتنا لطلب ذلك منهم لأجلك ، فحرِّكهم لإسعافنا بذلك ليكون ما يكون منهم بك مضافاً إلى ما كان مِنَّا لك . وارحم فقرنا إلى غيرك بسببك ، وأغننا بك عن كل ما سواك . وكما أظمأتنا إلى عين معرفتك ، فأَرْوِنا منها بقدرتك ، فقد حَرَّرْنا نواصينا فى حَرَم طاعتك ، وضممنا قواصينا فى ساحة خدمتك ، وتلهينا آسفين على فائتٍ منك ، وتحرّقنا لاهفين

(١) الصمد : السنَد .

على فوائدنا بك . فنسألك اللهم أن تغمرنا بفضلك ، وتسقينا بِسَجْلك[١] ، وتُصْفينا[٢] للقُرْب منك ، ثم تصافينا بتأنيسك . وقبل ذلك كله فاكفنا مؤونة خلقك وغوائل عبادك ، فقد أُصفقوا[٣] على هجرنا وجفائنا لاعتصامنا بحبلك ، وانتسابنا إلى قُدُسك ، وشغفنا بذكرك ، واقتباسنا من نورك ، واعتزازنا بربوبيتك .

يا هذا ! إذا مَرَّتْ بك هذه الطرائف فَخُذْ بها نَفْسَك ، ثم جُدْ بها على نفسك ، ولا تفكرها بَرَماً بها ، ولا تبرم بها منكراً ، ولا تجعل منشأك الفاسد حاكماً عليها ، ولا قرينك السوء معترضاً عليها ، فإن أكثر الناس لا يعلمون ولا يعقلون ، وإنهم بما بهم عمّا لهم جاهلون . [١١٣٣] وإن عقلاً نقل عن هذه المخارج[٤] لمؤيد ؛ وإن وهماً يصل إلى هذه المناهج لموحّد ؛ وإن وجداً يعبق بهذه الفوائد لموقد . فُديت قلباً لأنّ عنده هذه المعانى . فديت عيناً ذرفت على هذه المغانى . فُديت لساناً جرى بهذه الفنون . فديت عقلاً جُنّ على هذا الجنون . فديت عيناً اغرورقت على هذه العيون . لله الأمر من قبل ومن بعد .

أين نحن ، ويحك ! وفى أى شىء كنا ! وعمن أخبرنا بما أخبرنا ! وإلى أى غاية أُجرِينا ! ومن أى فنن قطعنا ! وبأى سحاب ابتللنا ! وعن أى غاية أبنانا ! وأى ذرة استخرجنا ! وبأى معرض اجتلينا ! ومَنْ أمّلنا ورَجَوْنا ! وبأى بيت غنينا وشجونا ! وكتاب من قصصنا وقرأنا ! وعتاب مَنْ سمعنا

(١) السجل : الدلو العظيمة .

(٢) أصفاه : اختاره .

(٣) أصفق على كذا : اتفق .

(٤) أى : مواضع الحَرَج .

وفهمنا ! وبحكمة من قهرنا وشهرنا ! ودعوة من أجبنا وقبِلْنا ! وحضرة مَنْ قصدنا وصمدنا ! وخاتم من أخذنا وملكنا ! وبعزّ من ظهرنا وقهرنا [وبحكمة[١] من قهرنا وشهرنا !] وكلمة من اعتقدنا واعتمدنا ! وتحت راية من سَرَيْنا وسِرْنا ! وبحبِّ من نُحْنا وَوَجَدْنا[٢] ! ورضا من تحرينا وتوخينا ! وفى مجلس من زَعقنا[٣] ورقصنا ! ورداء من جذبنا وسحبنا ! ولوجه من ركعنا وسجدنا ! وبسبب مَنْ سمعنا وأطعنا ! ولرضا مَنْ رفعنا ووضعنا ! وبأمر مَنْ اعتمرنا وحججنا ! وبإذن مَنْ صُمْنا وصلينا ! ولمراد مَنْ خضعنا وخشعنا ! ونعمة مَنْ نشرنا وشكرنا ! وفى ديار مَنْ نزلنا وسكنا ! ولهيبة مَنْ سكتنا وخرسنا ! ولمحبة مَنْ قلنا ونطقنا ! وعلى بساط مَنْ تقلبنا وترجحنا !

يا هذا ! كل هذا لمن له الخلق والأمرُ ، ولمن له الحَلّ والعقْد ، ولمن له التصريف والترصيف ، ولمن له التأليف والتكليف ، ولمن له الأول والآخر ، ولمن له الإرادة والمشيئة ، ولمن له العلم بحركاته وسكناته ، وباستناباته ورجَعاته ، وسَرّاته وظلماته ، له كل شيء ، وبه كل شيء ، وإليه كل شيء ، وفيه كل شيء ، وعليه كل شيء ؛ أمّا له كل شيء فلأنه مالكه ، أما به كل شيء فلأنه مُمِدّه ، وأما إليه كل شيء فلأنه غايته ، وأما فيه كل شيء فلأنه مبدأه ، وأما عليه كل شيء فلأنه حامله . ووراء هذا أيضاً ما يقف القلم على ترقيشه[٤] ، ويتهالك العقل عن تفتيشه ، ويتلجلجُ اللسان عن تنقيشه . وكيف لا يكون هذا هكذا وكل ما دونه ناقص ، وليس للناقص أن يحيط

---

(١) كذا فى الأصل وقد تكررت .

(٢) من وَجد به وَجْدا : أحبه ؛ ووجد به أيضاً : حزن به .

(٣) زعق الرجُل (من باب قطع) ، زعقاً : صاح ؛ وزعق فلاناً وبفلان : ذعره .

(٤) رقش كلامه : زوّره ؛ زخرفه ؛ رقش الرجلُ : نمّ .

عما ليس بناقص : لا بالقوة التى هى فى أول المراتب ، ولا بالفعل الذى فى آخر المذاهب .

[١٣٣ ب] إلهنا ! جلّ شأنك فما يرومك رائم إلا رجَع مبهوراً ، ولا ينعتك ناعت إلا انتهى مقهوراً ، ولا يصفك واصف إلا وما يزلُ عنه أكثر مما يدل عليه بلفظ ، لأنك فوق كل نعت ، وفوق كل مظنون بظن ، وفوق كل موصوف بوصف ، وفوق كل معقول بعقل . اللهم فنوِّرْ زوايا قلوبنا بمعرفتك ، واحرس [١] أسرارنا بالتوحيد لك ، واملأ ما خلا منا والتوكل [٢] عليك ، واذكرنا عند ذكرنا لك ؛ وإذا ذكرتنا فكرّمنا ، وإذا كرمنا [٣] فبين ذلك لنا ، وإذا بينت ذلك لنا فاحفظنا حتى لا نطير فرحاً به ولا نهيم وجداً عليه ، يا ذا الجلال والإكرام !

رسالة (٤٥)

اللهم إنّا نعادى فيك الشيطان فاعصمنا ، ونعصِى من أجلك الهوى فارحمنا ، ونجد بذكرك إذا ذكرت فأكرمنا ، ونتقلب بين آلائك ونعمائك فألهمنا ، ونعترف بتقصيرنا فى شكرك فقوّنا . غمرتنا بجودك أولاً وآخراً ، وعممتنا بإحسانك وفضلك قديماً وحديثاً ، وألهجتنا بتوحيدك سراً وجهراً ، وخصصتنا بالدعاء إليك والإجابة لك قولاً وفعلاً . فعَرصات قلوبنا مشحونة بمودتك ، وأفنية آمالنا عامرةٌ بالشوق إليك ، وأطراف ألسنتنا مُرهَفةٌ بنشر أياديك ، وأودية أنفسنا جاريةٌ بالتهلل فيك . إن عاقنا عنك عائقُ

(١) ص : حرس .

(٢) كذا !

(٣) الأصح أن تكون : كرمتنا — ويصح أن تكون : كُرّمنا .

الهوى! استغنينا [1] عنه بقائد الهدى ، وإن ساقنا إليك سائق الدَّعْوى! قوَّمْناه بحقائق الرُّعوى [2] والتقوى ، وإن زخرف فى أعيننا حاضرُ الدنيا كففنا أعيننا عنه بغائب النجوى . ولم يستوسق [3] كلُّ هذا لنا إلا بتوفيقك الذى تحول به الظلمة نوراً ، ويعود الغم به سروراً ، وتصير الكآبة به حُبوراً . — أيها المُدلَّه فى حاله ، المتسكع فى أمره ! طِبْ نفساً ، وازدَدْ بالله أُنساً ، فما فتح عليك بابَ ذكره إلا وهو يريد أن يجعلك من خاصته ، ولا كرَّر اسمه على لسانك إلا وهو يريد أن يدخلك فى خدمه ، ولا برد فؤادك بمحنتك إلا وقد رقاك إلى أوطان خالصته ، ولا عرفك مواقع التقصير إلا وقد عزم على نقلك بلطيف تدبيره ، ولا أطلعك على ثنايا نعمته إلا وقد بعثك على القيام بشكره ، ولا أذن لك فى الدعاء إليه إلا وقد ضمن لك التسديد فيه ، ولا حملك على الإدلال [١٣٤] عليه إلا وقد أذن لك فى الانبساط معه ، ولا اختبرك بأمره ونهيه إلا وقد اجتباك لطاعته ، ولا نبَّهك [4] على فائتك إلا وقد آثر أن تلْحقه بمعونته ، ولا قص عليك حديث من تقدم إلا لتعتبر به فيمن تأخَّر . فانظر يا هذا كيف أوْرَدَك رياض هذه النعم ، وكيف قلّبك فيها ، وكيف طيَّبك بطيب روائحها وغالب فوائحها . ثم انظر كيف جمعك بعد ما كنت متفرقاً ، وكيف نظمك بعد ما كنت متبدداً ، وكيف هداك بعد ما كنت متحيراً ، وكيف شفى علتك بعد ما كنت متسحراً [5] ،

---

(١) ص : استعنا .

(٢) الرعوى (بضم الراء وفتحها) : الرُّعيا ، الرعاية .

(٣) استوسق لك الأمرُ : أمكنك .

(٤) ص : ينْهك !

(٥) كذا! ولعل صوابه : مُسَحَّر ، أى مصاب فى سَحْره ، والسَّحْر : الرئة .

وكيف أروى ظمأك بعد ما كنت لاهثاً ، وكيف أولعك بالجد بعد ما كنت عابثاً ، وكيف فُتِحَ بصرك على حظك بعد ما كنت غضيضاً ، وكيف شُرِح صدرك بعد ما كنت مريضاً ، وكيف فُتِق سَمْعُك بعد ما كنت مُرْتَتِقا [1] ، وكيف رتق طبعك بعد ما كان منفتقا ؟ والله لو ظَاهَرك على هذه النعَم الجسيمة ، وعلى إحصاء هذه القِيَم الكريمة ، الثَقَلان : الجنُّ والإنْسُ ماقدرت على عشير من ذلك . فاكتف أيها العاقل بهذا التنبيه ، واسلك نفسك من هذا العاجل المحشوِّ بالتمويه ، فإن الأمر عن قريب يخلص إليك ، والطاعن بك يقف عليك — فحينئذ لا تستأخر ولا تستقدم . قد وَعظَكَ الواعظُ ، ونَصَح لك الناصح ، وأعذر إليك المُشْفِقُ . وإن كان لك رأى فى خلاص مُهْجتك والخلوص إلى بهجتك ، فبادر .

يأهل الجفاء ، تأهبوا لقوارع البلاء ! يا أهل الولاء ، توقعوا حلاوات الصفاء ! يا أهل الغَرَقِ فى النعم ، تقربوا إلى واهبها بالهبة منها ! أيها المُمْرَضون عن الله ، استأنفوا إقبالكم إليه ! إنه ما أقبل إليه أحد إلا قَبِلَه ، ولا قبل أحداً إلا خصه ، ولا خص أحداً إلا احتباه ، ولا احتبى أحداً إلا اصطفاه ، ولا اصطفاه إلا ولاّه ، ولا ولى أحداً إلا تولاه ، ولا تولّى أحداً إلا كفاه ، ولا كفى أحداً إلا ملأ قلبه وجداً به ، وطوّق عنقه حلية منه ، وبسط لسانه فى الوصف له ، وأعلى كعبه مُباهاة به . ولا عجب ! فالآلاء منه متتابعة ، والمنائح منه متواترة ، والمدائح له كثيرة ، والأفواه بذكره رَطْبة ، والنفوسُ لقدرته خاضعة ، والأيدى لبِرّه مبسوطة ، والعيون نحوه طامحة ، [١٣٤ ب] والآمال بجوده متعلقة ، ومظانُّ الرجاء والطمع فسيحة . فلا أثر إلا وهو بادٍ منه ، ولا خبر

(١) ارتتق الشىء : التأم .

إلا وهو شائع ، ولا صغير إلا وهو مشير إليه ، ولا كبير إلا وهو دليل عليه . فهل بقى بعد هذه الصفات وما وراءها مما هو من جنس هذه[1] الهنات إلا فسولتك فى نفسك ، وتوانيك فى مصلحتك ، واستبدادك برأيك ، وقلة ثقتك بموعودك ، وسوء نظرك فى أمرك !

يا هذا ! أما حان لبكيئكم[2] أن يُدِرّ ؟ أما أوجب لمغبونكم أن يُسَرّ ؟ أما دنا لغائبكم أن يحضر وأن يُبَرّ[3] ، ولسقيمكم أن يستشفى ! أما آن لمقصركم أن يستعفى ؟ بلى والله قد حان ووجب ، ودنا وقرب ، وآن . ولكن صدق الله العظيم حين يقول : « كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ بِمَا كَانُو يَكْسِبُونَ »[4] .

أيها النائى عن العرصة ، الجاهل بانتهاز الفرصة ، الصابر على تجرع الغُصّة ! اشتق إليه واجداً به ، وجُد به والهاً فيه ، ولَهْ[5] فيه متهالكاً عليه ، وتهالك عليه ناسياً لما عداه ، وامح البينونة بينك وبينه . أتدرى ما البينونة ؟ والبينونة هى الكينونة ، هى أنت : أنت الكينونة بآفاتك ، وأنت البينونة بشهواتك . وكيف تجدك وقد ضللت عنك ، بل كيف تضل عنك وقد وجدتك ؟ ضللت بإرادتك التى غمستك فى بحار شهوتك ، فخُذك الآن بشهادات الحق التى قامت عليك فى حالاتك فلا سبيل لك إلى الإنكار ، وقد صح منك الإقرار بالاغترار ، فى هذه الدار بالاستكثار ، والاستكبار ، مع أهل الخسار والدمار . بالله !

---

(١) ص : هذا الهان . ويمكن أن تقرأ : الهيئات .

(٢) بكأت الناقة والشاة (من باب قطع) بكأ : قلّ لبنها ، والبئرُ : قل ماؤها .

(٣) ص : وان فرق !

(٤) سورة « المطففين » : ١٤

(٥) فعل أمر من : وله .

أما تأنف من مشابهة البهائم فى السَّرَط بعد السَّرَط[1] ، والثَّلْط بعد الثَّلْط[2] ، والبَلْع بعد البلع ، والجرع بعد الجرع ، والحِساء بعد الحساء ، والامتلاء بعد الامتلاء ، والسُّكْر بعد السكر ، والخُمار بعد الخُمار ؟ أما تعاف هذه المزبلة التى قد قمعت[3] أنفك بهذه الأنتان المنكرة ؟ أما تحن إلى الطهارة التى هى حياة الأجساد فى الظاهر وحياة القلوب فى الباطن ، وقد وخطك الشيب وأنت مشتمل على العيب ، وخائض فى الريب ، لا تُقلع عن إصرارك ، ولا تعتذر عن زَلَّتك ، ولا تعتبر بمن مضى قبلك كأنك لست من طينتهم ، أو كأنك غير جار على شيمتهم ؟ أإخلادٌ إلى الدنيا [١٣٥ ا] وقد علمت تقلبها بأهلها وبُغْضَها لساكنيها ، وتخليها فى كل وقت من[4] المقيمين فيها ؟ أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ، ثم لايتوبون ولاهم يَذَّكَّرون ! « وَإِذَا قِيلَ لَهُ : اتَّقِ اللهَ ! أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ، فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ »[5] .

أيها الصاحب بالجنب ، والسامع بالأذن دون القلب ! ها أنا قد أعذرتُ إليك فيما أوردت عليك ، وإن كنت على بعض ما لا أرضاه منك ، ولا أحبه لك. فإن علمت أنى قد نصحت لك ، وأمكنتك من حظك ، فتقبل قولى ، وصرْ إلى رأيى ، واعمل بمشورتى ، فلعلى أسعد بك إذا سعدت بى . فما لُبْثُنا فى هذه البلدة الوبيئة ، والمدينة الحرجة إلا كَلَفْتِ اليمين على الشمال ، وكنقرة الديك

---

(١) مصدر سرطه (من بابى نصر وعلم) : سَرَطًا وسرطانًا : ابتلعه .

(٢) ثلط (من باب ضرب) الثورُ والبعير والصبيُّ ، ثَلْطًا : سلح سلحًا رقيقًا ؛ يقال للإنسان إذا رقّ نجوه هو : يثلطُ ثلطًا .

(٣) ص : قمعت . وقمع فى الشىء : دخل ؛ وقمعه : قهره . أما قمع (من باب فرح) فمعناها : أصابه داء .

(٤) كذا ! ولعل صوابها : عن .

(٥) سورة « البقرة » : ٢٠٦

فى الماء ، أو كحلم النائم فى الليل ، أو كظل قد أخذ فى النقصان ، أو كالنَّقابة[١] من مُوَلٍّ ، أو كتوهم من النفس ، أو « كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ »[٢] . هل تحس من غيرك ما مضى ؟ هل تجد من أمرك ما قد انقضى ؟ كذلك لاتحس ولا تجد فيما بقى . وإنما أنت لساعتك ، وإنما ساعتك هى أنت . فنكس وشمّر ، واغضب على نفسك وتَنَمَّرْ ، واعمل على أنك مُسْلَمٌ فى أيدى عُطَّابك[٣] ، فاطلب النجاة منهم بجميع حولك وقوتك ودهائك ، ولا تدع من الجهد شيئاً فإنك تندم .

يا هذا ! أُمَجِّد لك ربك لتشتاق[٤] إليه ، وأنشر آلاءه لك لتتوكل عليه ، وأصفه لك بالكرم لتثق به ، وأَدُلُّك على عينيك لتنتهى عنه ، وأَرْفُق بك فى السر لتبلغ المنزل ، وأستجمك[٥] فى الحال لتكون على عتاد فى المستقبل . فلو كنت مأخوذاً بك ومطالباً بذلك : هل كنت أزيد على هذه الفتون التى إن كان لى فى عُرْضها تذكرة فلك أيضاً وتبصرة ، وحظك أوفى ، ونصيبك أَجْزَلُ ، لأن الثقل فيما أقول ، ولى أن أسأل عن حقائقه وألحفه عليك فيما تسمع إن جريت على طرائقه ، وتنزهت فى حدائقه ، وآويت إلى سُرادِقه .

---

(١) النقابة (بفتح النون) : مصدر نقب على القوم (من بابى علم وكرم) : صار نقيباً عليهم ؛ أو النقابة بالكسر الاسم ، وبالفتح المصدر .

(٢) سورة « النحل » : ٧٧

(٣) جمع عاطب — من عطب على فلان (من باب نصر) : غضب عليه أشد الغضب .

(٤) ص : اتشتاق .

(٥) يقال : إنى لأستجم قلبى بشىء من اللهو حتى أقوى على الحق : أى : إنى لأجعل قلبى يتفكه بشىء من اللهو ليستجمع قوته .

فيا أيها المكفى: اسْعَدْ! فقد قيل: السعيد من كُفى. ويا أيها المُدْبر: أقبل! فالمغبوط من أقبل. ويا أيها العاقل: تنبه! فالمجدود(١) من تنبه. ويا أيها الجاهل: اعلَمْ، فالناجى من علم. ويا أيها العالم: اعمل، فالراجى من عمل. ويا أيها اللاعب: جِدَّ! فالمستظهر من جد. ويا أيها القائل: توقَّ، فالمسرور من توقى. ويا أيها السامع: عِهْ، فالراشد من وَعَى. ويا أيها الناسك: اثبُتْ، فالشجاع من ثبت. ويا أيها العابد: أخلِص، فالمقبول من أخلص. ويا أيها الرافد(٢): احلمْ، فالهالك من لم يحلم.

اللهم إنّا كيفما دُرْنا فإليك نفىء، وعليك نعطف، وكيفما حُلْنا فعليك نُدِلُّ وبك نشرف. اجعل ظنوننا فوق أقوالنا، <وأقوالنا> دون أفعالنا، وأفعالنا كفاء رضوانك عنا. وإذا مقَتّنا فلا تطردنا؛ وإذا طردتنا فلا تُهْمِلْنا، وإذا سَخِطْتَ علينا فلا تدَعْنا، وإذا قبلتنا فلا تَرُدَّنا. وإذا أطعناك فى بعض ما دعوتنا إليه، فلا تؤاخذنا فى بعض ما قصَّرنا فيه. مَن ذا يفى بحقك كله!

إلهنا! ماشئت فاصنع! لابد من العفو، والعفو خُلُق من أخلاق الكرام، وأنت أكرم الأكرمين. فاعفُ عنا ياذا الجلال والإكرام!

أيها الحاضر بجثته، الغائب بهمته، الناظر فى عِطفه، المتغافل عن سخفه، العاشق لعاجلته، الذائق سَمّه بيده، الساهى بيومه عن غده، الظانّ بنفسه أنه ذو حول وقوة. سوأةٌ لك، والسوأةُ عليك مشتملة، وأفٌّ عنك، وأنت لذلك أهل! أما تستحيى إن نَكَسَ فى معاملتك بالدرهم والدينار ولا تحابى منهما بالحبة والذَّرَّة، وترى أن ذلك منك غبن فى الرأى، ثم تتباله

---

(١) السعيد.

(٢) هكذا فى الأصل! والأنسب أن يكون: الراقد (بالقاف ذات النقطتين، بدليل قوله: احلم، من الحُلْم) أى المنام والرؤيا فيه.

فى معاملة ربك بما يزلفك من الجنة فيزحزحك من النار ، وتغضّ بعد ذلك عن سهو كثير ، بل تغالط نفسك وتستخدم عقلك لشهوتك ، وتُعفّر خدك لذلك ، وتجزع من فوت أيسر حاجة لبدنك فى مأكل أو مشرب أو منكح ، ولا تبالى أن تكون ممقوتاً عند ربك الذى خلقك فسوّاك ، وكيفك وآواك ، ومنحك وحباك ، وحفظك ورعاك ، وجاملك وكلأك ، وعلّمك وهداك ، واجتباك ورفعك ، وأعلاك من حين أتاك[١] . فهذا من العقل الذى تبجّح بنوره بين أصدقائك وأعدائك ؟ أهذا من الجنس الذى تعامل خاصتك وعامتك ؟ أهذا من الحزم الذى تدخره لدهرك ؟ أما ترى أنياب الرزايا بارزة متتابعة ؟ أما ترى عِين[٢] الليالى متشايعة ، أما ترى الغِيَرَ مُحْدِقة ؟ أما ترى الآفات متوالية ؟ إنك عَمٍ ، إنك صمّم ، إنك بَله ، إنك جنون . لا والله ما أنت إلا سواك : بصير كيّس خبير ، ولكنك تؤثر زهرة الحياة الدنيا البائدة الفانية على غضارة نعيم الأبد ، وإنى لأظن أن هذا من سقوطك [١٣٦] من عين الله ، ومن شُرُودك عن الله على الله ، ومن قلة تمسكك بأمر الله ، ومن عجبك بنعمة الله ، ومن قرين السوء الذى يصرفك عن صحبة الله ، ومن شؤم ناصيتك فى مخالفتك لله .

يا هذا ! إلى متى هذا التمطى ، وهذا التكاره ، وهذا التجبر ، وهذا التكبر ، وهذا البأو[٣] ، وهذه القسوة ، وهذه الفظاظة ؟ أما أنت من طين ؟ أما أنت

(١) غير واضحة تماماً فى الأصل هكذا : من حبراباك .

(٢) العينة (بكسر العين) : مادة الحرب والجمع عِين .

(٣) كذا فى المخطوط واضحة ولم نهتد لمعناها ، على أنها فى معنى التكبر . وقد ورد فى اللسان : بأَء مثل باع : تكبّر .

من ماء مهين ؟ أما أنت على بساط رب العالمين الذى لَوْ أَمَرَ أضعفَ جارحة لك لأسلمتك، ولو شاء لاختطفك من مأمنك ؟ أتجحد قدرة الله النافذة فيك ؟ أتنكر إحاطته بك؟ أتظن أن إمهالك إهمال، أو حِلْمَه عنك إغفالٌ ؟ كلا والله، ولكنه يتأنى وَيَرْفُق، ويعيد ويبدىء، ويدعو ويكرر، ويستر ويرحم، ولَصُنْعُ ذلك منه مألوف، وهو به معروف، ولكنك على نفسك عَسوف، وعلى مافاتك من حظك أسوف.

اللهم جُدْ علينا بما أنت أهله، ولا تعاملنا بما نحن أهله.

يا هذا! إنما أنت فى حالٍ كرقدةٍ فى الحلم أو حلم كاللمح، ثم الاطلاع على نعيم كنا نتهالك ههنا بشبائه لا بحقائقه، ونحنُ على أسمائه لا على معانيه، ونظن أنا قد وجدنا عزيزاً وملكنا نفيساً. وأى عز لما يبتذله الليل والنهار؟ وأى قدر لما يتخوّنه(1) القياس والمقدار! وأى شرف لما لا يثبت فى لحظته على حال! له فى كل آن اسم، وفى كل أوان رسم، أعنى أنه يقال له عريض وذابل، وجديد وخَلَق، وشاب وهَرِم، ومُقْبِلٌ ومُوَلٍّ. على هذا، فإن الأمثال بمثله < مضروبة >، والأدلة على نظائره منصوبة، ولكن القلوب عن التحقق بها محجوبة، والنفوس فى طلب ذلك منها وفيها مكروبة.

يا هذا! عَضَّ على ناجذك عند مرارة الكون العارض فإنه كَلَفْتَةِ لافتٍ أو كعطفة عاطفٍ. فإن ذلك يُهوِّن عليك الصبر، ويُفْسِح منك الصدر، ويزيدك نفسه بالعوض، وزهادة فى هذا العَرَض.

يا هذا! إن كنت تحب نفسك فلا تحفر لها مُغْوَّاتها(2) بيدك،

---

(1) تخوّنه: تعهده؛ تنقصه؛ أتاه.

(2) مصدر ميمى من: غوّاه تغوية: أضلّه؛ أى مُضِلّات.

ولا تكسبها عارَك بجهدك ، واستيقن أن محبة النفس فى معرفة النفس ، وأن فى معرفة النفس استكشافاً لحلة القدس ، أعنى أنك إذا لهجت بذلك عرفت الله الذى به قِوام النفس ، وإليه مصير الجن والإنس . وفى هذه المسألة دقائق [١٣٦ ب] من البحث ، وغوامض من النظر ، وغرائب من الجواب ، وبدائع من الإفصاح ، والله المستعان !

رسالة (مز)

يا هذا ! تعبد لله متأبداً ، وتأبد لله متعبداً ، وتأيَّدْ[١] فى طلب مالديه متأوِّداً ، وتأود[٢] فى التماس ماقِبَله متأوداً . أتدرى ما التعبد وما التأبد وما التأيُّد وما التأوُّد ؟ إنى أظنك لا تدرى ، فما أسلوك فى ديوان الأدب ، ولا حَلَّوك بحلية ذوى الشكل والظرف والأدب . التعبُّد ظاهرٌ ، وباطن : ظاهره أن تكون بخلقتك عاجزاً ، وباطنه أن تكون بهمتك لمن أنت له متعززاً . والتأبد أن تكون من بنى جنسك متميزاً ، ومن التشبه بما هم عليه سراً وجهراً متحرزاً . والتأيُّد أن تطمئن إلى خَطَرات الحق مجتنياً ثمرات الصدق . والتأوُّد أن تذل طالباً فتعز واجداً ، فإنك إن انتظمْت هذه الحالات التى ذكرتها لك بأسمائها ، وقفت عن قريب على غيوبها وأنبائها ، فحينئذ ينثال عليك من معين قد سُدَّ ما يطويك عن الكون ، وينشرك بين الملأ الأعلى ، وهناك تشق الجيب شقاً ، وتجد ما تجده يقيناً وحقاً ، وتنال ما تناله عِياناً

(١) تأيَّد : تقوى .

(٢) تأوّد : انحنى وانعطف .

وذوقاً ، ثم تطعم وتسق ، وتنعم خالداً ولا تشق . اللهم إنا نعتزى [١] إليك عالمين بشرفنا فى ذلك ، ونتحدث عنك بصفاتك واثقين بأنك فوق ماهنالك ، ونضرع معترفين بالحاجة إلى ما لديك لتنقذنا من هذه المهالك . ونقترح مدلين عليك أن تصحَبَنا فى تلك المسالك ، وتنزل فى برد ظلالك مغضياً عنا فيما سلف منا ، آخذاً بالجود الإلٰهى معنا ، ناظراً بالعطف والراحة إلينا .

اللهم إنّا بقدرتك ظهرنا ، وعلى مشيئتك جرينا ، وإلى إرادتك انتهينا ، وبعلمك فينا حَدَّثنا — وإن كنا قد تركنا أمرك وخالفنا . ولولا ذلك ماشهدنا بالتقصير ، ولا اعترفنا ؛ وعلى كل حال ، حكمك فينا أنْفَذُ من حكمنا ، وقضاؤك أجرى علينا من قضائنا ، وقدرتك أشدُّ إحاطة من قدرتنا على أنفسنا . فأى نسبة الآن لنا منا ! وأى بَسْطَة لنا علينا ! فبحق إلٰهيتك فى هذه الصفات التى نَشَرْنا وطَوَيْنا ، وبحق هذه الكلمات التى ألهمتناها حتى روينا ، إلاّ تجاوزت عنّا ، وسامحتنا فى معاملتنا ، وأريتنا فى حضورنا بين يديك ووقوفنا من جُودك الغامر لنا ، وفضلك [١٣٧ ا] المنسكب علينا ، وخيرك المحيط بنا حسب ظننا ويقيننا . وأشهد أنك لم تنطق بهذا الدعاء ألسنتنا إلا وأنت تحب أن تستجيب لنا ، يا مجيب الدعوات فى الخلوات على كثرة الخطايا والزلات !

(١) اعتزى إليه وله ، اعتزاءً : انتمى إليه صدقاً أو كذباً وانتسب ؛ والاسم العَزاء .

رسالة (ح)

واهاً لنفسٍ مُنِّيت بهوىً شديد ، ورُميت عن مدى بعيد ، وفتنت بقلب عميد ، وفطنت لعائد[1] شريد ، حتى خلقت[2] فى اختلاف شكولها واختلاف انقطاعها ووصولها معارفَ حالٍ فى مناكر أخرى ، بين ظن موسوم بيقين ، وعلم مرسوم بتلقين ، ورأيٍ مُخَوَّض فى الأهواء ، وعيب مُفَوَّض للأكناف والأرجاء . معارضها كونٌ بائد ، ومرافضها نون زائد ، ومشاعبها لهفٌ زائد ، ومطالعها تلف عائد . فلا جَرَمَ سُرورُها لُمَع ، وحزنها فِظَع ، وأمانيها خُدَع ، ومواردها جَرَع ، وحليها جُرَع ، وخلوتها فزع ؛ ولسانها عِيٌّ ، وشأنها غَيٌّ ، ونشرها طيّ ، وبذلها لَيّ ؛ وعِزُّها ذل ، ومركزها قل ، وكلها كل ، ونومها كلف ، ويقظتها كلف ، ووعدها سلف ، وانتظارها تلف ؛ وظاهرها حسرة ، وباطنها حيرة ؛ ووصالها فرقة ، وفراقها حرقة ؛ وروايتها تكذيب ، وكرامتها تعذيب ، وفطنتها تجبيب ، ونقلتها ترتيب ؛ وسكرها خطر ، وصحوها بطر ؛ وفعلها عدوان ، ودعواها بهتان ، وشكرها كفران ؛ وأولها خداع ، وأوسطها متاع ، وآخرها ضياع ، وكلها فى كلها قناع ورواع . أندرى لم هذا كله ؟ هذا لأن مقاصد ضمائر الخلق سابحة فى آفاق بحار العقل ، لا لغاية بادية يقصد إليها ، ولا لأيد هادئة تَدُلُّ عليها ، ولكن لسرِّ التَّهَمَ الأسرارَ ، ولمعنى هتك الأسرار ، وغائب[3] منع من الاستخبار والاستكبار ، وحاجز وقف من دون الاسترسال والاستظهار ، وسبق كُلَّ فئة سباقا عنيفا ، وحجب الجميع عنها حجاباً كثيفا ،

(١) يمكن أن تقرأ أيضاً : غائر ، غابر ، غائب .

(٢) ضرب عليها وكتب فى الهامش مكانها : شاهدت .

(٣) ص : غالب مع .

وتفرد هو عن ذلك تفرداً لطيفاً . نعم ! لوَّح بعض الأمر باليقين ، وطوَّح كله ، وأعلن لعنه[١] الأمر ، وأسرّ خالصة المراد ، ودعا بلسان التشكيك ، وحجب بغيب المعلوم ، ووهب عارض البقاء ، ووشحه بثابت البلوى ، [١٣٧ ب] وأنعم بمحبوب الحياة ، وحفها بمكروه التنغيص ، وأسلف المنى بالوعد ، وأنسأ[٢] الإنجاز بالتسويف ، ومَنّ بفروع القوة ، وفطر على أصول الضعف ، وزين بالقدرة ، وفضح بالعجز الخافى[٣] . نعم ! وطوى الأسرار فى الأسرار ، وطمس صُواها[٤] ، وأخفى الآثار فى الآثار ، وأدمج أولاها فى أخراها ، وعم من وجه اشترك الجميع فيه ، وخَصّ من وجه اضطرب الكل عليه . فالحسن مشغول بزينة عالمه ، والعقل مبهوت فى بدائع صنعه ! والنفس وَلْهَى مع دوام الحاجة إليه ، والحجة داحضة عند محاولة الاعتراض عليه . فلا عجبى مما رأيت منه عجبى ممن فيه بما أرادنى منى . فقل لى الآن : كيف أرجو شفاء مالى ودائى من دوائى ، وعِلّتى من طبيبى ؟ اتصلت الحروف بالحروف ، وغارت الطروف[٥] فى الطروف ، واشترك المستور بالمكشوف ، والتبس المنكور بالمعروف ، واشتبهت الصفات على الموصوف ، وعاد خفى الغيب يخطب ناصع التسليم ، وجَلِى الشاهد يشكل فى حشو المكتوم ، ويشير إلى الفضل الواقع بين المخصوص والمعموم . فأين الفضل إلا عند اللافظ به ،

---

(١) كذا فى الأصل !

(٢) أنسأ : أخّر .

(٣) كذا !

(٤) الصُّوى علامات الطريق .

(٥) الطروف جمع طرف (بكسر الطاء) : الكريم الطرفين أى الأب والأم ، والمستطرف الذى ليس من نتاج صاحبه ؛ والحديث من المال ؛ والرجل لا يثبت على صحبة أحد — وهى طِرْفة .

المعتاد له ، المغرور فيه ! فأما عند من علم أن العين دنت مُشوِّقة ، ونأت معوّقة ، وبدت غامره ، وعادت مطبقة ، واستقلت قاهرة ، وأعادت محققة ، وخبت مطمعة ، وأفرحت مُؤْنسة ، وأراعتْ مُحَبّبة ، وأزالت مخيبة — فلا أسمع حديثى وأنت حاضر ببالك ، ومحصل برؤيتك ، ومنصف لفضل عدلك . آنَسَنى بحاضر البقاء ، وأوْحشَنى بوارد الفناء ، واسترقنى بنصح العقل ، وأعتقَنى بعشق التحير ، وألاح الأمر لمفهومه جهراً ، وروى عن المراد بمعلومه سراً ، وقربنى من شاهد الفحوى ، وبَعَّدنى من غائب النجوى ، وقطعنى بينهما بتحمل البلوى وفضيحة الشكوى وفقد العدوى واختلاف الفُتْوى . فلا لى منى وَطَرٌ مقضى ، ولافىَّ عنّى خبرٌ مَرْوِىٌّ ، ولاعندى شبح مرئى ، ولا معنى بى معنى مرعى . بلى ! كلى عند الغاية مَسْبىٌّ مَرْمىٌّ ، وجميعى لدى النهاية مَنْسِىٌّ منفى ، وبكل داهية شنعاء مراد ومَغْنِىّ ، وبكل آبدة شوهاء مقصود ومَحْوِىّ . فأين نصيبى لنفسى ؟ وأين نسبتى إلى بنى جنسى ؟ وأين موقفى وتوقفى ! وأين تصرفى [١٣٨ ا] وتصوفى ! وأين تعسفى وتفلسفى ؟ وأين ترفقى وتحققى ؟ وأين تحرقى وتشوقى ؟ وبيانى وتبيينى ؟ وأين استنباطى وفطنى ؟ وأين سنانى ، ومِجَنّى ! وأين أينى وأَنّى [١] وأنى ؟ وأين كونى وعونى وعينى وعنى ومنى وكأنّى ؟ هيهات ! نَضَبَ ماء علمى ورسمى ، وباد شاهد حلمى وقسمى ، وسامرتنى الأمانى مُخَيَّلَةً لى آجلتى فى ثِنْىِ عاجلتى ، وتجمعت لدىَّ الأسبابُ بالأمل البسيط فارتهنتُ بها فى صورة مخدوع حتى رفضت يقينا يشعر به الحسُّ ، كالمظنون لا يصل إليه الحدس ، واقترحت عن موجود يشهد به العيان ، المخبر ليلة [٢] البيان والبرهان . فلهى الآن على واحد

(١) الآن ق ٥٧ ظ : الموجود أو الوجود . والآن بعدها أى : الآنين .

(٢) غير واضحة تماما .

ما نلته حتى فاتنى ، ولا حييت حتى أماتنى ، ولا بنتُ له حتى أبادنى ، ولا بدت به حتى أعادنى ، ولا أعادنى حتى أفادنى . سلام عليه وإن كثر جوره ، وتحية له وإن لم يبلغ غوره ، ومرحباً بإقباله وأن أضنى ، وتسليما لحكمه وإن أفنى .

حدثونى عن معنى يزعجنى ومع إزعاجه يعجبنى ، وأعشقُه ويعشقنى ، ومع عشقه يتعبنى — أمرٌ خارج عن العبادة وغريبٌ فى التعارف ومُنْكَرٌ عند الجمهور . وأعود فأقول : الويلُ لى إن أعرضت عن الكنه مشرئباً إلى الطمع فى ظهوره لى ، بل الويل لمن إن آنستُ منه نفورا مما يجنى علىّ ، بل الويل لى إن رُمْته بشاهد الرسم وشائع المجاز وموضوع الأصل . بل الويل لى إن فاتنى مع حضوره وظهوره كيفما أشرت إليه بأصبع وأصغيتُ إليه بسمع أو سددت نحوه بطرف أو نجوْته (١) بقلب ، أو نعتُّه بلسان ، أو نشرته بذكر ، أو عنيته بفكر . حقاً أقول ، وبالحق أصول . شُغْلى بأمره على حد الأمثال إعراض عنه ، وانقيادى لإرادته تحكّكٌ به ، وتعززى ببادى حاله جميل بعاقبتى ، واستتارى عنى إشراك بالمطلع علىّ ، وانتشارىْ بصفاتى عشق منّى لجوهرى ، وخبرى عن فَيْأَى وِجْدان لما بقى منى ، وطِماحى (٢) نحوى سُكْرٌ قد غَلَبَ علىّ ، واستسلامى إظهارٌ لعجزى ، واستمساكى احتياط على معَزى (٣) ، وإفراطى فى القول عدول عن منهجى اللائق بى ، وإسرافى فى الاعتذار تشاكس فى خلقى ، وتجلدى على من به جلدى تَعرُّضٌ لِقطع مادّته منى ، وظنى فى ظنى أنى مضيت فى ظنى [١٣٨ ب] ومال علىّ . ونكرتى

(١) نجا فلاناً نجواً ونجوى (من باب نصر) : سارَّه .
(٢) الطماح (بكسر الطاء) : الكبر والفخر .
(٣) احتاط على الشىء : حافَظَ . والمَعَزُ (محركة) : الصلابة ، يقصد : محافظة على كيانى .

فى معرفتى مقام لا ثبات لى عليه ، ومعرفتى فى نكرتى بابٌ لا سبيل لى إليه ، واستخفائى فى بروزى أمر لا قرار لى لديه . وما حيلتى وجملتى رهينةُ مُلكه وأسيرةُ قبضته ، وواقفة عند حدود مشيئته ، وجاريةٌ على تصاريف قدرته وتكاليف حكمته ! — وإن كانت الإضافة عارية عندى والنسبة لاصقة بى ، والدعوة راجعة علىّ ، وكنت وحدى فى مصدرى ومَوْرِدى ، وفقدت وحدى فى وحدى بما غاب من مشهدى ، ووجدت فقدى فى فقدى بما تذكرت من معهدى . أتدرى ما الذى قيل لى ؟ قيل لى : هيهات ! هب للواهب ما وهب لك ، فإنه مردود إليك بشرط الشفقة عليك ! وأنت مُخَبأٌ به [(١)] على طريق المكافأة . فإن كان هذا ممحواً بعز الجبروت ، ممحوقاً فى شاهد الملكوت ليكون فى كونك غير كائن ، ويظهر فى أينك غير مُخْبر ولا معُاين ، ويبقى به له غير مواصل ولا مباين ، ويُنتصب عنه غير خائن ولا شائن — وهذا كلام يُصِمُّ الأذن عند السماع ، ويستنفد الذهن بعد الفكر ، ويجلب الوَسْواس مع التعقب ، وخروج [(٢)] عما عليه الناس بالتعارف فما أصنع ! قد كان ما كان ! وطغى اللسان بما زان وشان ! وغارت العين فى الأعيان ! ولم يبق الإنسان لما هو به إنسان ! وقُلْتُ ما سمعت ، وبَلَّغْتُ ماحملت ، وأدّيت ما أودعت . إن كنتُ أسأت فبعد اللُّتيّا والتى ، وإن كنت أحسنت فبعد سوابق غيب لا يحيط بها همّى وأمّى . وإن كنت ما أحسنتُ فلا أسأت ، فبعد أسرار حلت عن شهادتى وغيبتى . نعم ! وقيل أيضاً : أتحب أن تصير إلى ما تتمنى بكل مَعْنىً ومَرْمىً ، وبكل مرقى ومَغْلَى ؟ قلت : نعم ! ومن لى بذاك ، وأنا دائم الدؤوب فى البلوغ إلى هناك ؟

---

(١) ص : مُخبأ به . فهل صوابها : مَخْبوءٌ ؟

(٢) ص : خرج .

قيل لى: الفظ كُلَّكَ عن هذه الجَوْبة [1]، وارفُضْ عينك فى تيه الغيبة، ثم انفض الخلق بيد الخيبة، ثم الحظ الحقَّ بظاهر الهيبة، ثم اقطع الطمع عن الأوبة إلى هذه الحوبة [2]، ثم افنَ باقياً به كما بقيت فانياً بك، ثم افن أيضاً عن فنائك ببقائه لك لا ببقائه له، حتى ينقطع نسبك عن لفظ مُغَيِّر، ويدرس [3] خبرك بكل معنى مزور، ويعفو أثرك عن كل علم مُصوَّر، ويتوحد كُنْهك عن كل مراد مخبَّر. اهـ.

حبيبى! دَعْ أيضاً والْهَ عما مضى وانقضى، واعمل عملاً تصل به إلى الرضا، وإن عرضت على جمر الغضا. [١٣٩] واعلم أنه غلط النواظر إليه، وأشرف الغالط عليه، ونعتَه مستشعراً له، وهو مِنْ دونه قرباً ودنواً، ووصفه قائساً إلى خلقه، وهو مِنْ ورائه بعداً وعلواً. ليس القرب والبعد ها هنا محولين على رسم شاهدك وجارى عادتك ومعروف استعمالك، لكنَّها [4] منسوبان إليك بحكم الاصطلاح والاتفاق، ومنفيان عنه بحق البشرية والاستحقاق. فإياك أن تقف مع اللفظ القصير فتُسْحَرَ به عن المعنى العريض، فإن اللفظ للعامة والمعنى للخاصة، وما يرتقى عنهما فهو سُبُحات الإلهيَّة ونفحات الربوبية. فانظر أين أنت، وكيف أنت، وما أنت، ومن أىّ بنتَ، وبأىِّ كنت؛ وما الذى تريد، وما الذى يراد بك؟ وهل حصولك هنا

---

(١) الجوبة: الحضرة؛ المكان الوطئ فى جَلَدٍ من الأرض ورحبها؛ والجمع جُوَب.

(٢) الإثم.

(٣) درس الرسمُ دروساً (من باب نصر): عفا فهو دارس.

(٤) كذا، والأصوب أن تكون: ولكنهما (أى القرب والبعد).

لحصول ، وهل بعد فُصولك (١) مِنْ ثم وصُول ! ومهما شككت فيه فلا تسكن فيما أوحى إليك وأشير به عليك ، فإنه غُرِفَ من غدير العارفين ، وقُطِفَ من غصن شجرة الفاضلين ، واقتُبِس من حَضْرة الحاضرين ، ولُقِّن من أفواه الصادقين ، واستُمْلِيَ مِن عقول المُبَشَّرين بالحكمة واليقين ، وحصل عن قَوْمٍ كرامٍ أمجاد مشفقين . حُصِر البيانُ عن « لِمْ » وأعرى به أمراً ، وأسِر الوهم عن « كيف » وسلط عليه سراً ، وقُيِّدَ الفهم عند « حيث » وسبّب فيه مكراً ، ونهى الضمير عن « لو » وسيق إليه جوراً ، وقُطِع اللسان عن « ليت » واستنطق به عذراً ، وصرف الجميع بالحروف واستولى عليه قهراً ، وليس هذا إلا لخافيةٍ مسلمةٍ عند طول السؤال وتواصل الجواب ، واختلاف المقال فى الخطأ والصواب .

اللهم اجعل قولنا موصولاً بالعمل ، وعملنا محققاً للأمل ، ولا تضايقنا فيما نتحوك به و نتقلب لك فيه ، وكَثِّفْ علينا سِتْرَك ، واخصصنا بما هو أليق بك ، يا ذا الجلال والإكرام !

رسالة (مط)

المُسْتَغاث (٢) بالله من قلب لا عهد له بالرقة والرأفة (٣) ، ومن نفسٍ لا خير عندها من التقرب واللطافة ، ومن عادةٍ بريئةٍ من المروءة والظرافة ، ومن أذن قد ألفت التزوير والجزافة (٤) ، [١٣٩ ب] ومن جملةٍ قد اشتملت

---

(١) فصل فلانٌ من البلد (من باب نصر) فصولاً : خرج منه .

(٢) أى : الاستغاثة .

(٣) تقرأ مخففة للسجع .

(٤) أى العمل جزافاً ، أى بالظن والتخمين ؛ من جازف فى كلامه : أرسله إرسالاً من غير روية ولا حسن تقدير .

على الآفة بعد الآفة ، ومن تفضيلٍ قد أشرف على المخافة بعد المخافة . يا هذا ! إذا كان هذا خبرى عن باطن الأمر ، فلم تخادع نفسك فى ظاهره ؟ وإذا كان هذا فرارى من شر الغيب ، فلم تهجم علىَّ بأذى الشهادة ؟ وإذا كان هذا شرحى لخفىّ القصة ، فلم تذهب مع جلىّ الحال ؟ كأنك تستغششنى [١] فيما أقول ، فكأنك تنصح لنفسك فيما تسمع . هيهات ! للقول شروطٌ لا يفى بها مكلمك ، وللسماع حدود لا يملكها مثلك . فكم تدور بفقرك على فقر مثلك ! وكم تغتر بمغتر بغيرك ! وكم تظن أنك متقدم وأنت متأخر ! وكم تحسب أنك فى أعلى عِلّيين وأنت فى أسفل السافلين ! فإنْ ملكتْك الأنفة مما تسمع ، وطارت فى خيشومك الخنزوانة [٢] مما ترى ، فقم بحق ما بدالك مما لا شك فيه عندك ، ثم تعمق بعد ذلك فى حقيقة البادى لك فانظر إلى وجدك به ، ووجدانك له ، وجِدَتك [٣] فيه . فإنك إذا تصفحت هذه المثانى بعُرْفٍ لا نكر فيه ، واستنقبته [٤] بعلم لا جهل معه ، وتوجهت نحوه بسعى لا فتور به ، صدَق رائدك ، ورَشَد قائدك ، وقوى ذائدك ، والتقى عليك بادئك وعائدك ، وسلمت فى مرامك من المرام ، وسعدت فى يقظتك والمنام . اهـ .

يا هذا :

يُؤَيِّسُنى فيُطْمِعُنى بوَصْلٍ ودُون وِصاله وَقْعُ النِّصالِ
بنفسى من يُبَلْبِلُنى هواه ومَنْ ذكراه موصولٌ ببال

---

(١) أى : تنسبنى إلى الغش .

(٢) الخُنْزُوان والخُنْزُوانة والخُنْزُوانية والخُنْزوة (بضم الخاء فى الجميع) : الكِبْر ، يقال هو شديد الخنزوانة ، ونزت فى أنفه خنزوانة .

(٣) الجِدَة : الفقر — أى الاحتياج إليه .

(٤) نقّبت عنه .

يا هذا ! أتدرى أى غاية صُمِدت بك ! وإلى أى عاقبة أُخذ بيدك ! وأىّ سِرّ أودع صَدْرَكَ ! وأى كلمة أُنطقَ لسانُك ! وبأى مِيل [1] كُحِلَ طَرْفُك ، وبأى يُمْن عصبت ناصيتك ، وبأى غناء أَطربك ، وبأى لغة شوق قلبك ، وبأى نور أبرز كلك ، وبأى وديعة خص بعضك ، وعلى أى روضة فتح بصرك ، وبأى شراب برد غليلك ، وإلى أى تحفة مدت يدك ، وبأى هدية ملئت كفك ، وبأى تحية تلقى وجهك ، وبأى توفيق حفظ أمرك ، وبأى عتاب خوطب ضميرك ، [١٤٠ا] وبأى لطف قوى رجاك ؟ والله ما تدرى ! وإنما أحلف لعلمى بسَهْوِك ، واطلاعى على لعبك ولهوك . وما يصرفنى عن الرحمة لك والغيظ عليك إلا ما أتيقنه عن خاصة حالى دونك . ولو أنصفتك ، كان حيائى منك يشغلنى عنك . ولكن ! للخسارة إنارة ، وللإنارة إثارة ، ومع كل حلاوة مرارة ، وعند كل لذة عرارة [2] ، وفى كل قَدْحةٍ شرارة .

يا هذا القولُ حُجَّةٌ على القائل متى لم يؤيدها بما يحققه ، والسماع وبالٌ على السامع متى لم يؤكده بما يشهد الوجد به . على أن السكوت على التقصير رضا به ، كما أن الكلام عليه انغماس فيه . وكما أن القول لا يخلو من فتنة الزخرفة ، كذلك السكوت ليس يَعْرَىٰ من محنة اللفلفة . وإذا كان الكلام والصمت مَحْشُوَّيْنِ بالبلاء ، فبلاء اللسان أشق لكمد النفس ، وأرخى لعنان اليأس . وبعدُ ، فالشَّكِيَّةُ [3] بلية ، والبلية أذية ، والنفسُ بين هذه وتلك

(١) الميل (بكسر الميم) : المُلْمُول الذى يكحل به البصر ؛ وآلة للجرّاح يختبر بها غور الجرح ؛ ومنار يبنى للمسافر فى أنشاز الأرض وأشرافها .

(٢) العرارة : الشدة ، الرفعة ، السؤدد ، سوء الخُلُق .

(٣) الشكوى ، ومثلها : شَكَاة ، شَكاوة ، شِكاية .

شقية . إلا أن تلذ لك الرحمة بمن وسعت رحمتُه كلَّ شيء ، وأحاط علمُه بكل شيء ، وقدر على كل شيء ، وانقاد له كل شيء .

يا هذا ! أين عِزّةُ الربوبية الصادرة عن القدرة التامة ، من ذلة العبودية الواقفة على العجز البادى ! جَلَّ ربك عنك ، وبان فيك منك ، وظهر عليك لك . فاشهد الآن ما حلاك به ، واشكره على ما أتاك من لدنه ، وأنكِر فى معرفته سواه ، واعرِفْ فى نكرته هُداه ، واستخلص إشارتك من كل فادية (١) حتى تذوق حلاوة ما خصصت به ، وتجد حاصل ما ظهرت من أجله . فإنك إن قرعتَ هذا الباب المعمور فُتِح لك ، وإن لزمتَ هذا الجَنابَ الذى أقبل عليك وإن صَبَرْتَ على الخدمة ، حَمِد أثرك ، ولعلك بعد ذلك تُحيَّا بتحية الملوك ، وتتوّج على سرير الملكوت ، ويقال لك : تَمَنَّ وسَلْ ، وتحكّم وقُلْ ، وارقَ وابْقَ ، وجُد وخذ ، فطالما طلبنا فى حسرتك (٢) ، وحننت إلينا بحرقتك ، ونحوتنا بإصبعك ، ولُذْتَ بفنائنا بخدمتك ، وصدقتنا عن نفسك ، وهجرت من أجلنا من كان كريمًا عندك ، وعاديت فينا من كان عزيزًا عليك . فتنعمّ الآن بما وصلناك به ، وواصلنا عليه ، وثق بأنك عندنا فى دار الأمر وكَنَفِ القرار مع الرَّوْح والرَّيحان ، والقُرْب والرِّضوان .

يا هذا ! أما ترى كيف آسُوك وأجرحك ، وكيف أوقد عليك وأطفئ عندك ، وكيف أبسط رجاك ، وكيف أقبض [١٤٠ ب] قنوطك ؟ هذا كله تَطَهُّرٌ لك واستظهار معك ، لأن العادة خبيثة ، والقرين مُهْلِك ، والجار حاسد ، والصاحب مريب ، وهذه أشياء لا تَزِيلُ عنك إلا بانسلاخك منك : والقول فى هذا الباب سهل على المَسْمَع ، ولكن بحقيقته صَعْبٌ فى المرأى . ولن يتم ذلك

(١) كذا فى الأصل : فاديه !

(٢) كذا ! ويمكن أن تقرأ : حيرتك . وطلبنا : كذا ، والأصح: طلبتنا .

إلا بعزيمة الأوّاهين المُنيبين ، بل لا يتم إلا [بشعار المخبتين[1]] بوثبة الأقوياء المعزّمين ، بل لا يتم إلا بالأَخْلاص[2] الموفقين المخصوصين ، بل لا يتم إلا بشعار المُخْبتين المهتدين ، بل لا يتم إلا بانتهاز فُرْصة اليقين على هدى المتقين[3] ، بل لا يتم إلا بجود رب العالمين الذى هو غاية الطالبين من العالمين .

فهاتِ الآن من نفسك ما وعدت به من الصدق فى التشمير ، وقَدّم على ذلك الجد فى ترك التقصير . واعلم أنك واثقاً[4] متى تقدمت ذراعاً ، تقدم مرادك منك باعاً . بل متى توجهت إليك[5] قابلك ، ومتى وقفت عنده قاولك منه ، ومتى أنست به فاوضك ، ومتى تركت شيئاً لوجهه عوّضك . ما ضاع عنده عَمَلُ عامل ، ولا خاف عليه أمل آمل . له لطائف لا تهتدى إليه[6] الأمانى ، ونعَمٌ لا تلحقها سير السوانى[7] . يمنع وهو فى منعه مُعْطٍ ، ويَحْرِمُ وهو فى حِرْمانه واهب ، ويضع وهو فى وضعه رافع ، ويُذِلُّ وهو فى إذلاله مُعِزٌّ ،

(١) فى الأصل كأنه يوجد شطب على هذه الجملة ؛ وقد وردت س ٣

(٢) كذا فى الأصل ولعله أراد منها أن تكون جمع خِلْص (بكسر الخاء) أى خدن ، وإن كان الجمع المشهور هو : خُلَصاء . أو يكون صوابها : بإخلاص .

(٣) هنا وردت جملة مكررة هى : بل لا يتم إلا بشعار المخبتين المهتدين ، بل لا يتم إلا بالأخلاص الموفقين المخصوصين . . .

(٤) كذا فى الأصل ؛ ونرى صوابه : واعلم واثقاً أنك .

(٥) كذا : والأصح : إليه .

(٦) كذا : والأصح : إليها .

(٧) السوانى جمع سانية ، وهى الناضحة أى : الناقة يستقى عليها من البئر ، والجمع سوانٍ : يقال « أذل من السانية » ومنه المثل : « سير السوانى سفر لا ينقطع » .

ويُعرِض وهو فى إعراضه مُقبِل ، ويُبعِد وهو فى إبعاده مقرِّب . الظاهر عند الخلق بمبلغ علمهم باطن عنده بخافى حكمته ، والباطن عنده مجهولٌ عند سواه .

يا هذا ! إذا كنت تائهاً فى برّ الحيرة فاهتدِ بنور ماترى من عينك ، وتسمع بأذنك ، وتجد بحسك ، وتلحظ بعقلك ، وتُدرِك بنفسك . أما ترى هذه الزينة ؟ أما ترى هذه الأشكال المبينة ؟ أما ترى هذه الأصول الممهدة ؟ أما ترى هذه الفروع الموقدة ؟ أما ترى هذه الحِلَم المتبددة ؟ أما ترى هذه النِعَم المُحدَّدة ؟ أما ترى هذه الأطناب الممددة ؟ أما تسمع هذه النغمات المرددة ؟ أما ترى عنده الأنضاد [1] للمؤبّدة ؟ أما ترى هذه الأحوال المؤبّدة ؟ أما أنا فأصدُقك ولا [١٤١] أكذبك ، وأشهدك ولا أغيب عنك . وحقِّ الحق ! لقد تناجت الأرواح بصنوف الارتياح ، بين هذا الصباح والمساء على قلوب كانت دامية بأنواع الجراح . لا جرم تلاءمت الفُرَق ، وتباعدت الحُرَق ، وتوضحت الطُرُق ، وصار يرى بتغميض البصر ما كان لا يرى بانفتاح العين ، ويُنال من البعد ما كان لا يوجد بالقُرْب . فهل هذا إلا بتيسير مَنْ له دِقُّ هذا العلم وجُلُّه ، وإليه بعضه وكله ، وبه عِزُّه وذله ، وعنده كُثْره وقِلُّه ؟!

حدثنى عنك : هل هزّ روحك هذا الكلام ؟ وهل حوّلك من مقام إلى مقام ؟ وهل فرّق لك بين اليقظة والمنام ؟ وهل وجدت به شفاء بعد سَقام ؟ وهل أحسست بعافية بعد آلام ؟ اهـ .

بل حدثنى عنك : هل حسبت أنك رابح أو خاسر ، وغانم أو غارم ، أو [2] قادر أو عاجز ، ومقبول أو مردود ، وموصول أو مهجور ، وحبيب أو بغيض ، وقريب أو بعيد ، ومراد أو مريد ؟ وهل حدّثك مُحدِّث بلا لفظ

(١) النضد : العز والشرف ، والجمع : أنضاد .

(٢) كذا ! والأصح أن تكون : وقادر .

مَحْكِيّ ، ولا معنى مَرْوِى ، ولا قول مسطور ، ولا مُراد مشهود ؟ وهل ترنمت فيما بينك وبينك بما لا ترجمة له بين الخلق ، ولا بيان له إلا عند الحق ؟ وهل تلذذت بما أدركت فى وزن ما تحرقت فيما فاتك قبل ؟ وهل أحسست بسلوةٍ عن الدنيا المعشوقة لك مذ كنت بما لاح لك من مكنون الغيب مذبِنْتَ ؟ غالب ظنى أنك قد وجدت هذا كله وأهِّلْتَ لما ستجده بعده . فالمظ [١] به ، واعتكف عليه ، وارْوَ بشرابه ، وابلُلْ سِرّك بسحابه ، وتغنَّ طرباً عليه ، وهِمْ عجباً بما حُبيت به . فإذا فرغت من ذلك — وأنَّى لك بالفراغ ! — فارشش [٢] ما فضل من الإحسان إليك ، وأنْعِم علينا بما أنعم الله عليك . والسعيد من اقتدى بربه .

بلغتُ — هداك الله — هذا المكانَ فى مناقلتك ومطاولتك ، والكرى قد عبث بعينى ، والكسل قد غلب على أطرافى ، وبعضى قد فارق بعضى ، وكلى قد تنكَّر على كلى . فاعذُرْنى إن كنتُ مُقَصِّراً فى أمرك لتقصيرى فى أمرى ، والفتوة حاكمةٌ عليك بما سألتك ، وحرمة هذه القصة ضامنة للجميل منك ، وأنت جارٍ فى كل حالٍ مع حسن الظن ، حاوٍ فى كل أمر كلَّ ما كَسَبَك جميلَ الثناء عليك ، يا قُرَّة عين الإخوان ، ويا واحدَ [١٤١ ب] من نطق فى هذا الزمان بأفانين البيان ، وأظهر غرائِبَ البرهان فى وصف ما يكون وكان ، وقام وجاب ببصره هذا الشانَ ، متحملاً أثقل الذُّل والهَوان ! لهذا أنت فردٌ فى لغتك ، لطيف

---

(١) ص : المط به ؛ وصوابه : المظ به (بالظاء المعجمة) : ولمظ الرجل (من باب نصر) لمظاً : أخرج لسانه بعد الأكل والشرب فمسح به شفتيه ، أو تتبع الطعام وتذوق .

(٢) رشَّ الماءَ والدمعَ (من باب نصر) ، رشاً وترشاشاً : نفضه ؛ رش الشيء : غسله .

فى مقتك ، معشوق فى جميع أحوالك ، صُرِفَتْ عنك عينُ السوء . وأرجو أن يرفع الله بهذا وأمثاله قَدْرَك ، ويُعلى عليها كعبك ، حتى تبحث عن أسرار الغيب من حافات الألوهية من تضاعيف النبوة لخصائص الولاية على أحكام الهداية ، بعقلٍ مصون بالتوفيق ، واستبصارٍ مقرون بالتوسّع والتشقيق ، وبيانٍ معقود بالتدقيق والتحقيق . والله يفعل ذلك بك : فمخيلتك ناطقة ، والفراسة فيك صادقة ، والعلامات منك بارقة ، وسحائب الحق عليك وادقة .

اللهم إنّا نَهَبُ بريحِ ربوبيتك ، ونَرْكُدُ بعِزّ سطوتك ، ونقول بأدبِك ، ونسكت للعجز عن وصفك ، ونتفكر متحيرين فى عظمتك ، ونفتخر منتسبين إلى عبوديتك ، ونُدِلُّ بذكرك ، ونَذِلُّ لأمرك ، ونحنُّ فى كل حال إلى وجهك ، ونغار عليك ، ونرى أن لا نقبل إلاّ بأن تتفصى عن كل ما هو سواك ، شوقاً إلى السُّكنى فى دارك ونزاعاً إلى أن نراك .

إلهنا ! فأعِنّا على مطالبتنا بتوفيقك ، واحرُسْنا فى مسالكنا بتأييدك ، فأنت مُحرِّكنا فى هذا القول ، فكن أنت مجيبنا فى هذا السؤال . أتُرانا يا إلهنا ندعوك بهذه الضراعة جاهلين بقدرتك ؟ فإن كنا مُقَصِّرين فى طاعتك ، لا وحقك فإنك حقٌّ لا يؤدى ببذل الروح والنفس ، بل ندعوك عارفين بأنك أنت الجواد الواهب المعطى لمن سأل ، والباذل لمن لم يسأل .

اللهم اكفنا مؤونة المتمرّدين عليك ، الظانّين بك ظنَّ السوء ، واضرب بيننا وبينهم سُوراً من قدرتك لئلا نراهم بأعيننا ، ولا نسمع أصواتهم بآذاننا ، فقد كادونا من أجلك ، وغاظونا بسببك ، وما ذنبنا إليهم إلا لأنا ندعوهم إليك ، وما غَضَبُنا عليهم إلاّ لتمردهم عليك ويأسهم من خير ما لديك .

إلهنا ! جهلوك فخالفوك ، ونكروك فجحدوك ، ولو فطنوا لما فاتهم منك لأحبوك ، ولو أحبوك لعبدوك ، ولو عبدوك لعرفوك ، ولو عرفوك لكنت لهم فوق الأم الرؤوف والأب الرحيم ، [١٤٢ ا] يا ذا الجلال والإكرام !

رسالة (ز م)

اللهم اغرس أشجار كلامنا فى خطط قلوبنا ، ثم اسقها بصَوْب [١] تأييدك عند رقدتنا وانتباهنا ، ثم استخرج أوراقها وأزهارها فى تصاريف أحوالنا ، ثم حَمِّلْ ثمارها بصبرنا ووفائنا على اختلاف سرائنا وضرائنا . فإنك إذا دَبَّرْتنا هذا التدبير ، ثَمَّرْنا من قصدك أجدَّ التشمير .

يا هذا ! أعَلَى الدنيا تعرّج [٢] ، وفى طلبها تُلَجِّجُ [٣] ، ونيرانها تؤجج ؟ لم هذا ؟ وكيف به ؟ أين حصافتك وبصيرتك ؟ وأين نظرك واختبارك ؟ وأين استنباطك وفطنتك ؟ وأين معرفتك بالدقيق والجليل ؟ وأين تحصيلك للقليل والكثير ؟ وأين حسّك الصادق عن الصحيح والعليل ؟ أما ترى ؟ — وليس فيها معنًى إلا وفيه مبكى ، ولا ملهًى إلا وعنده مهوى ، ولا مرعى إلا ودونه [٤] . . . أما ترى صروفها ، وفى صروفها حتوفُها ؟ أما ترى أهلها كيف تَطْرُقُهم طوارقها ، وفى طوارقها بوائقها [٥] ؟ أما ترى كيف تَسُرُّهم [٦] مراتبها ، وفى مراتبها معاطبها ؟ أما ترى خبرها ، وفى خبرها عبرها ؟ أما ترى غِناها كيف يفتن ، وفقرها كيف يحزن ؟ أما ترى أعلاقها نَهْبَ أحداقها ؟ أما ترى قصورها موقوفة على خرابها ؟ وهل تركت الدنيا لأحدٍ شبهة وإشكالا

---

(١) ص : بصوت .

(٢) عرج فى الشىء وعليه (من بابى ضرب ونصر) عروجاً : رقى وصعد .

(٣) لجّج القومُ : ركبوا اللجّة ، واللجة معظم الماء أو معظم البحر .

(٤) كذا ! ويظهر أن هنا نقصاً .

(٥) البائقة : الداهية ، والجمع : بوائق .

(٦) ص : قسرهم !

فى فضل الإعراض عنها ؟ أليس مُرُّها غامراً لحلوها ؟ أليس كَدَرُها غالباً لصفوها ؟ متى أفادت أحداً من سكانها فائدة فلم تكن عليه بائدة ؟ أليس أبناؤها بقية الهالكين ؟ أليس جديدها ميراث البالين ؟ اللهم غفراً ! نَصِفُها صفة العارفين ، ونصحبها صُحْبَة الجاهلين . ما أقبح الأمن فى عَرْصة الخوف ، وما أشنع الجهل فى وقت العلم ! ما أضر النوم فى مكان الانتباه ! ما أشد حسرة الخاسرين فى تجارته ، بعد كسبه فى حالته ! ما أسخن عيناً قَرَّت بما لا حاصل له ! ما أخرب قلباً سكن إلى ما لا عائدة منه ! يا هذا :

هل أنت معتبر بمن خَرِبَتْ　　عنه ، غَداةَ قضى ، دَساكِرُهُ ؟
ومن أذلّ الدهرُ مَصْرَعه　　فتبرَّأَتْ منه عشائِرُهُ ؟
وبِمَنْ جلت منه أسِرَّتُه　　وبمن خلت منه منابره ؟
[١٤٢ب] أين الملوكُ ، وأين هزمهم (١)　　صاروا مصيراً أنت صائِره ؟
بل ما بدا لك أن تنال من م الدنيا ؟ ! فإن الموت آخره

يا هذا ! إنما أذكر لك معايب الدنيا حتى تطهرَّ نفسك من أنجاسها ، وتتباعد جَنْبَتُك من أدناسها ، وتُفْرِدَ حالك من أحوال ناسها . فحينئذ إذا صفا لك جوُّ الدين تنفست فيه ، وإذا تدلى على فؤادك حبلُ اليقين تمرَّسْتَ منه ، وإذا انكشف عنك غطاء الجهل سَرَّحْتَ طَرْفَك بعده ، وإذا سمعت فَنَّاً مِنْ تجوّز الحق طربت عليه ، وإذا أودعت سراً من الغيب لم تُفْشِه إلى ما ليس من أهله ، وإذا كوشفت بعين الاختصاص لم تحس بما عداه ، وإذا قيل لك : ادْنُ إلينا — لم تدْنُ وفيك هيئة البَشَر ، وإذا قيل لك : اطلب — لم تطلب وعليك أثر من آثار أهل الشر ، وإذا قيل لك : اسمع ! — لم تسمع وأنت منتشر (٢) .

(١) كذا ! ولعل أصله : عزّهم .

(٢) أى مشتت الذهن .

اللهم عزيزٌ على أن أقول ما أقول [ما أقول] (١) ونصيبى منه اللفظ المُحبَّر ، ومحصولى منه الأمر المُحسَّر . فأما أنت أيها السامع ، فموكول إلىَّ شأنك بما أنت عليه أهلُه وبه مِنْ وُدِّك وشفائك ، لا سلطان لى على قلبك ، ولا مستنبط لى من عينك . إن أنت إلا لنفسك على ما كنت عليه فى أمسك ، فإن كنت ذا غبطة فى ذلك فالزَمْ ، فالغبطة هى المطلوبة لك والمرادة بك . ولكن بقى عليك شىء : هل أنت عارف بالغبطة ما هى ؟ وكيف هى ؟ فإنى خائف عليك أن تظن أن الغبطة فى شهوة تُنال ، ونعمةٍ تُدْرَك ، ولِيِّن يُلْبَس ، وحلو يُتَطَعَّم ، وباردٍ يُشرب ، وكأسٍ يُتعاطى ، ونديم يُضاحك ، وعود يُضْرَب ، وصوت يقترح ، ومجلس يُغنى ، ووجه ينظر إليه ، وحديث يقهقه عليه .

هيهات ! عزَبَ (٢) لُبُّك ، وتاه قلبك ، وركبك شيطانك . هذه أضاليل قد حُفَّت بأباطيل بُرْهانها . مَنْ لا حُنْكة له ولا حكمة عنده لا يُفرق بين العُرْف والنكر ، ولا بين اليوم والغد ، ولا بين الثابت والزائل ، ولا بين الباقى والحاصل ، ولا بين الصاعد والنازل ، ولا بين الجادّ والهازل . الغبطة — عافاك الله — فى حالٍ أخرى أنت منها فى قُطْرٍ شاسع لا يلوح لك ولا يتراءى لعينك . الغبطة فى النَّجْوة (٣) من هذه التى [١٤٣ ا] قد ضربت (٤) على غضب الألباب من أربابها ، ومرنت على تصديع الشمل بين ألاَّفها وأحبابها ، إلى محل الألم فيه (٥) ولا ألم ولا أذى ، ولا شَوْبَ به ولا قذى ،

(١) زيادة فى الأصل لا محل لها .

(٢) عزب الشىء عنه (من بابى نصر وضرب) عزوباً : بَعُد وغاب وخفى ، فهو عازب ؛ يقال : عزب عنه حلمه أى غاب .

(٣) هو فى النجوة من كذا : أى بعيد عنه ، سالم منه .

(٤) أو صوابها : دربت ؟ بدليل قوله بعدُ : مرنت .

(٥) كذا ! ولعل صواب العبارة محلّ لا ألم فيه ولا أذى .

إلى محل تجد فيه النعيم صافياً والحق بادياً ، إلى محل لا يعتريك < منه > ملل ، ولا ينتابك فيه علل ، حيث تنسى فيه الحزن حِسّاً ورَسْماً ، حيث يحكمك المولى فتحكم ، ويدنيك إلى حضرته فتتنعم ، حيث لا يلتهب لك فى صدرك نَفَسٌ ، ولا يخمد بين يديك قَبَس .

يا هذا ! إنما أُشوّقك إلى هذا المحل نظراً لك ، وأذلل لك السبيل إليه شفقاً عليك . فأعِنّى على نفسك والتكثير فى أُنْسى بأُنسك ، واعتقد أنى مقيّض لك من جهة وَلِيّك ليكون له عندك فىء ، فقد[1] يجب عليك شكرها ونعمة يلزمك القيام بحقها . فإن شهدت هذا التقبيض الذى أشرت لك إليه ، سمحت بذلك التفويض الذى جبلكَ عليه . وإن عميتَ — والعياذ بالله — فما أتيت إلا من جهة أُذُنٍ إذا سمعت لم تَعِ ، وإذا وَعَدَتْ لم تَفِ ؛ وإلا من جهة عين لا تبصر ، وإذا أبصرت لا تحصل ؛ وإلا من جهة قلب لا يهتم ، وإذا اهتم لا يستتم ؛ وإلا من جهة نفس لا تنقاد ، وإذا انقادت لا ترتاد ؛ وإلا من جهة عادة لا تفارق ، وإذا فارقت لا ترتفع ؛ وإلا من جهة قرين لا ينصح ، وإذا نصح لا ينفع ، وإذا كنت مأمناً[2] مِنْ هذه السبل الخافيه كيف الأمان لى منك عليك ، وكيف الرجاء لى فيك ، وكيف الشغل لى بك ؟ ! حدثنى عنك فقد بُليت بك ، واصْدُقنى جهْدَك فقد أُضِفْتُ إليك . وإذا امتحنتُ بان أقول لك ، وامتحنتَ بأن تسمع منى فلا أقل من التعاون الذى هو شيمة الفتيان ، ولا أقل من الرقة التى تدرك الإنسان على الإنسان . فإن لم ترحم نفسك فى قلة قبولك منّى ، فارحمنى لشدة إقبالى عليك . أجبنى إلى حظك . صافحنى عن الوفاء لك . اجمعنى عن بعض الكد من أجلك . ارحم عَبْرتى حسرةً على ضياعك . تعصب

(١) كذا ! والعبارة لا تستقيم إلا بافتراض مثل : عندك فضيلة . . .

(٢) وإذا كنت مائتا : كذا فى الأصل ، وهو لا يستقيم تماما مع ما مضى .

لغَيْرِى عليك . تعجب من انتصابى بسببك . أعطنى أجرتى على سعيى . اشكُرْنى على سهرى لك . أمِنَ الفُتُوَّة أن ترانى أتعب لك ، فلا ترحمنى ؟ أمن المروءة أن تجدنى مكدوداً على سعادتك ، فلا تساعدنى ؟ أمن الفضل أن أُحْسِنَ إليك بك ، فلا تقبل إحسانى فيك ؟ لو كنت غريباً لعذرتك ، ولو لم يخطك الشيب لأطلْتُ رَسَنك[1] ، ولو لم يجمعنا دين الحق لأهملتك ، ولو لم يعقد بيننا المِلْحُ لازْوَرَرْتُ عنك ، ولولا علائق [١٤٣ ب] بينى وبينك لأرخيت أناملى من ذيلك . فلا تغفل ! — ادْنُ مِنّى وأقبل علىّ ، وشَرِّب قلبك كلامى ، ومَيِّزْ مالك مما عليك بإرشادى . فعن قليلى تفقدنى ، وينأى سوادك من سوادى . فلعلك حينئذ أن تتمنى أن يجول فى أذنك صوتى ، وتقف لعينك صورتى ، وتلتمس بقلبك نُصْحى فلا يُجدى . فإذا كان ذلك ، فلا تبخل بدمعتك لتكون رحمة لى ورقّةً لك ، فإن العين إذا جادت بدمعتها شوقاً إلى أخ ، أو نَدماً على سالف ، أو حسرة على فائت ، أو استجداء[ا] لقدرٍ ، كان ذلك شاهداً لصاحبها برقّةِ الطباع ، وسُرْعة الانقلاع ، وشدة النزاع إلى الله عز وجل . وبعدُ وقبلُ ، فلست أدعوك إلى أن تلبس شعار العصمة ذاك بيد مولاك . وإذا أهلّك ألبسك ، وإذا أرادك أشخصك ، وإذا اختارك قيضك . لا مُقدِّمَ لما أخَّر ، ولا مؤخرَ لما قدَّم . وإنما أدعوك إلى أن تهتك حجاب المعصية بينك وبينه ، وتنشئ حالاً فى التعرف إليه ، وتخاط بسيئةٍ قديمةٍ حسنةً حديثة ، فإن هذا وما أشبهه يفْتِل حبلك بحبل الصالحين ، ويريش نَبْلَك بنبل المخلصين ، ويكتب اسمك فى عصابة المُخْبِتين ، ويُجْرِى ذكرك فى الملأ[2] الأعلى .

(١) الرسن (محركةً) : الحبل .

(٢) ص : البلا !

فإن لم تستجب لى ضربةً واحدةً، فاستجب حالة فحالة . ولا تأنف ولا تستكبر، فما أنِفَ من الله أحدٌ فأفلح ، ولا استكبر أحدٌ على الله فأنجح . هذا رفقى بك ونظرى لك ، فكن أنت لنفسى أكثر مِنّى فىّ . اللهم لولا إذْنُك لما دعونا إليك ، ولولا تفضّلك لما دللنا عليك ، ولولا إيناسك لما استوحشنا منْ غيْرك ، ولولا رجاؤك لما بسطنا إلفنا على خيرك . بك نلوذ معتصمين ، وإياك نسترحم محتاجين ، وبآلائك نتحدث معجبين متعجبين ، وإلى فنائك نأوى واثقين مُدِلّين ، وبحبلك نتعلق صاعدين ، وفى آفاق ملكوتك نجول راغبين ومُرَغّبين ، ورضوانك نخطب عارفين مُوَحّدين ، وفى رياض نعمائك نرتع شَرِهين ولهين .

يا هذا ! الزَمْ باب الافتقار إليه بالدعاء ، فإنك مادمت على هذا الالتزام رجوت لك الفوز . وقد قيل :

أخلِقْ بذى الصبر أن يحظى بحاجته

ومُدْمِنِ القَرْعِ للأبواب أن يَلجا

وثق بالله ! ما أولعك بذكره < إلا > وقد رشحك لوصله ، ولا أوحشك من خلقه إلا وقد هيأك لأُنْسِه . وهذه ولاية مانالها أحد فأثناه العزل ، فلا جدّ به الجِد فأتاه الهزْل . فاشدد الآن وسطك ، واطلُبْ [١٤٤ ا] قسطك ، وشمّر ذيلك ، وقطّع ليلك ، فكأنك وقد رأيت مساءك صباحاً وظلامك مصباحاً .

يا هذا ! اسمع رِطانةً أخرى ، ولغةً ليس فيها نحوى ، وكن من قبولك لها ونبوّك عنها بين تقوى ، فإن العبارة قد طالت فى وصف الدنيا ، والإشارة قد توالت فى الخبر عن أصحاب البلْوَى . وهذا كله لما أقوله وتسمعه عنّى . قولى لا شَرْحَ له، وسمعك لا فتح معه ؛ لكن لا بد من التنفس عند تضايق الخناق ، ولا بد من التغابى عند تفاقم الإغلاق ، ولا بد من الانحجاز [1] عند تعذر

(١) انحجز : أتى الحجاز ؛ أنجد : أتى نجداً ؛ أعرق : أتى العراقَ .

الإنجاد والإعراق. نعم حبيبي! كنت ثم تكونت، ثم بنت ثم تبينت. أتفهم هذه العويصة؟ إنك تخلص من هذه القبيصة [١].

يا هذا! كنت كوناً بائداً من أنت به فكأنك كوَّنك كوناً مطلقاً، ثم تكونت بإمداد مَنْ كنت له فصار تكونك امتداداً لكونك. فلما بلغت آخر التكون بِنْتَ، وإنما بِنْتَ لمن كنت به، فلما بنْت تبينت، أعنى ظهرت خالداً بعد ما كنت غبت بائداً. إلا أن بيدودتك [٢] كانت بالحس، وخلودك كانت [٣] بالقدس. فحدثنى عنك، وخَبِّرْنِي منك! أين أنت من هذه اللّمعة الثاقبة، ومن هذه البارقة الصادقة؟ هل وجدت منها نسيماً أهدى إليك نعيماً؟ بل هل وجدت منها ما لم تجدها، فإنك فى إحدى الوجدانين مُهَنّاً، وفى الآخر مُعَزًّى!

يا هذا! ما أشد انخداعى لك بما ألقى إليك! وما أقبح إعراضك عنى فيما أخلعه عليك! ولو كنت مُقَصِّراً فى أمرك وماله عائد فى خالصة حالك، لبسطت العذر سِرًّا وجهراً؛ ولكنى وَحَقِّ الحق جوادٌ بما وجدته، بذول لما ملكته، غيور على ما عرفته، نصيح لمن أصبته، صبور على من بلوته. ولولا حركات أسرارٍ لها جَوْلات فى الغيبة، ورَجَعات إلى الشهادة، لما نبست بحرف من هذه الغرائب، ولا ترنمت بشىء من هذه اللحون. ولكن: مُكْرَهٌ أخوك فاعذُر، ومضرور بك فاصبر، ومستعين بك فانصُرْ.

يا هذا! مَنْ عرف فى الشاهد لم يخل بالغائب، ومن اعتنق الغائب لم يلتفت إلى الشاهد، ومن تذبذب بينهما فهو الساقط الهابط.

(١) القبيصة: التراب المجموع، الحصى؛ يقصد: المعضلة الشديدة.

(٢) مصدر باد يبيد: هلك.

(٣) كانت: كذا! والأصح أن تكون: كان.

ياهذا ! أتريد أن تصيب الهدف ولما تسدد ! أتريد أن تبلغ المنزل ولما تجتهد ! أتريد أن تلحظ الأعلى ولما تحدق ! أتريد أن تجالس الملوك ولما تتأدب ! أتريد أن تسعد جُزافاً وتنال مُرادك اختلاساً !

هيهات ! إن المراصد مشحونة بالموانع ، وإن الآفاق مملوءة بالمقارع ، وإن الأسرار ملتهبة بالنوازع ، وإن المناظر منقوشة بالروائع ، وإن الألحان مصطحبة بالبدائع ، فلا عَيْنَ إلاّ وهي عَبْرَى ، ولا نَفْس إلا وهي حيرى ، ولا لفظ إلا وهو مُعاد ، ولا وصل إلا وهو معتاد .

دَعْنا في هذه الزاوية الحرجة حتى نتشاكى ونتباكى : تارةً على فقد حاصل لم يَبْقَ ، وتارةً على طلب مراد لم يَرُقَ ، وتارة على مُدْرَك بعقل لم يخلُصْ ، وتارة على فائت بِحِسٍ لم ينقص .

اللهم رحمتك نرجو ، ورأفتك نتمنى ، وإليك <نضرع>[1] إذا صفونا ، وإلى فِنائك نسير إذا خطونا ، وإياك نطلب إذا عطونا[2] ، وبك نستجير إذا نبونا ، وباسمك نلهج إذا صفونا ، وآلاءك ننشر إذا صبونا ، وإلى بابك نقصد إذا حبونا ، وعفوك نلتمس إذا هفونا ، وبِجُنَّتك نتقى إذا رمونا . فكن لنا ولا تكن علينا ياذا الجلال والإكرام !

رسالة (هط)

أيها الصاحب المستأنس بهذا الفن ، المسافر إلى هذا الوطن ، الساكن في هذا الموطن ، المستخبر عما ظهر فيه وبَطَن ، الكاره لأن يقال فيه تَوَهَّمَ وَظَنّ ، العَجِب بأن يسمع فيه حقق واستيقن : هل شهدت حالا تقلل عن الزمان والمكان اللذين يتقرب منهما كلُّ إنْسٍ وجان ، وهل ورد عليك

(١) ناقصة في الأصل هي أو ما في معناها .

(٢) عطا يعطو عَطْواً — إليه رأسه ويديه : رفعه .

ما محاك عنك وسلبك معك وتركك بلا أوانٍ تجده واسطةً فيما أنت مَحْبُوٌّ به ، مُحْيًا فيه ، مَحْوِىّ عليه . وهل قام فى نفسك أن الزلفة [١١٤٥] عند الحق هى البراءة من جميع الخلق ؟ كان ذلك زماناً أو مكاناً ، أو خبراً أو عياناً ، أو حجمة (١) أو بياناً ، أو ريبة أو بُرْهاناً . فإن كان ذلك كذلك فلقد خصصت بحلاوة الأُنْس ، ومشارفة ودائع الله فى حظيرة القُدُس ، مما لا يقدر عليه الجنُّ والإنس . وإن كنت فى هذه البلاد غريباً ، وعن هذه السرائر والغيوب طريداً ، فلا عليك أن تصل ليلك بنهارك ، وتُوَطِّنَ سرارك بجهارك ، وتجمع بين إضمارك وإظهارك ، وتحقق حالك فى إيرادك وإصدارك ، وتُفَرِّق بين حالك فى اغترارك واستظهارك ، وتنتقى من شعارك ودِثارك ، فى انتصارك واقتدارك . فإنك إذا هُدِيت لهذا الطريق سلكت واجداً ، ووجدت غانماً ، وغنمت جذلاً ، وجذلت ناعماً ، ونعمت واصلا ، ووصلت مقبولاً ، وقبلت مَرْضياً ، ورضيت مَكْفِياً ، وكُفِيتَ مَحْمِياً ، وحميت مهدياً . وليس بعد الهداية والوجدان ، والغنيمة والجَذَل ، والنعمة والوصال ، والقَبول والرضا ، والكفاية والحماية ، غايةٌ — تتمنى بالعبودية ، ولا نهاية يُتَرَقَّى إليها بالبشرية . وكل ما وراء ذلك إنما هو من جنس الإلهيَّة التى إذا سطعت أنوارها غصت بالهدايا والتُّحَف أقطارُها ، وامتلأت بالآلاء والنعم أنفاقُها (٢) ،

---

(١) كذا فى الأصل ؛ ونعتقد أن صوابه : مجمجة ؛ يقال : مجمج فى خبره : لم يبينه أو لم يَشْفِ .

(٢) جمع نَفَق (محركة) : سَرَبٌ فى الأرض له مخرج إلى مكان ؛ يقال : ابتغى نَفَقاً فى الأرض .

وفاضت بالزيادة والفضل والجدوى آفاقها . فيا من يَرُمُّ [١] هذه القاضية [٢] متمنياً فى الخلوة ، لم لا تتبرأ من زخارف هذه الدار ، مظهراً لنفسك من ضروب الأوطار والأقدار ، حتى تؤهل للأسرار ، وتصافح بالمَبارّ والمسارّ [٣] ؟ ولم لا تصحح نسبك ممن أنت منسوب إليه ؟ أعنى بذلك أنك تنسب إلى أبيك الأدنى باللحم والدم ، وإلى أبيك الأقصى بالماء والطين ؛ وقد غرّك هذا النسب ، وأغواك هذا السَّبَب حتى نسيت الذى تنسب إليه بكلك وبعضك ، وبأصلك وفصلك ، وبه تعرف فى أوّلك وآخرك ، وله تكرم فى غيبك وشهادتك ، وإليه تضرع فى نازلتك . وإياك نسأل دوام رَوْحك وراحتك ، فى سعيك وقدرتك . ولِمَ لا تقدّمُ على ذلك نظرَك فى نفسك وفى عوادبها عندك ، ولِمَ لا تحاسب نفسك لنفسك ؟ متى تعرف الفضل الذى لك [١٤٥ ب] فتحرزه ، وتقف على الوَكْس [٤] الذى عليك فتميزه ؟ هذا بيان حالك فيما هو ظاهر دنياك ، هاتِ بيان حالك فيما هو حقيقة دعواك ، وإليه توجهك وعنده منتهاك . فإن كانت عينك لا تبصر إلا العاجلة ، ونفسك لا تهوى [هذه] [٥] إلا الصور المتقابلة ، فقد أحاط بك الردى وأنت لا تشعر ،

---

(١) رم البناء وغيره (من بابى نصر وضرب) رَمًّا ومَرَمَّة : أصلحه ؛ رم الشىء : أكله .

(٢) وتقرأ أيضاً : القاضمة . وبهذه القراءة يكون المعنى : يا من تأكل ما يأكلك (أى الدنيا) ، أى أنك بإقبالك على الدنيا إنما تفنى نفسك . فأكلك لها هو أن تؤكل منها .

(٣) جمعا : مبرّة ومسرّة .

(٤) الوكس : الخسران والنقصان .

(٥) زيادة لا محل لها .

وحاق بك أمرُ الله وأنت لا تبصر ، وجاءك منك ما ينسيك عنك ، وثار عليك ما يشغلك فيك . وما أدرى ما أقول سوى أنى أستريح إلى قول ربى : « ومَنْ لم يَجْعَلِ اللهُ له نوراً فما لَهُ مِن نور »[١] .

يا هذا ! الوقت مجتمع معصوم ، ومفترق مرحوم ، ولله فيه نظرات إلى عباده المؤمنين ، فيَجْبُرُ بها كلَّ كسير ، ويُنْعِش بها كل عاثر ، ويهتدى كل تائه ، ويرتاح لها كل حزين ، ويَغْنَى بها كل محتاج ، ويَجد بها < كل > معدم . فالويل لمن انقلب عنه خاسراً باسراً قد حُثِى[٢] فى وجهه التراب ، وحُرِم جزيل الثواب ، وقيل له : أَمَلُك عليك مردود ، وجوارحك بمخالفتك عليك شُهود ، وسَوْط العذاب على هامتك مَصْبوب ، وخِذْلانُ الله إليك مجلوب . آه من المخالفة إلى ما نهى عنه ، وواحسرتا على مجانبة ما أمر به ! هذا مع دُرور النعم التى لا تُحْصَى ، واتصال أياديه التى لا تستقصى ، ولطائفه التى لا يأتى عليها لسان وإن كان رقيق الحاشية ، وخيراتها التى لا يُهْتَدى إليها إلا إذا خص أولياءه بالمعرفة الناشئة . وأين قدرة العبد الشاكرة إذا أنعم عليه ، مِنْ تفضل الرب الرؤوف إذا نظم أنواع بره بين يديه ؟ ! ليس بينهما نسب يعتمد ، ولا حاصل يتعهد .

يا أخى ! لقد عصيت زاجرك إذ زجرك ، وخالفت أمرك إذ أمرك ، وركنت إلى زهرة الدنيا وزُخْرُف الأمل ، ورضيت بوخيم عاجلها ، وزهدت فى نعيم آجلها ، وتوفرت على نظرتها ولألائها ، فإنك[٣] لا تؤمن بانقراضها وفنائها . فإلى متى هذه الغَفْلة والسَّهو ، وهذه العِزَّة واللهو ، وهذه الأُبَّهة والزهو ،

(١) سورة « النور » : ٤٠

(٢) صنيعة المبنى للمجهول من حثا يحثو التراب : نثره .

(٣) كذا ! والأصح أن تكون : كأنك .

وهذه السفاهة واللغو ؟ ملّكتَ الهوى زمامك ، واجتلبت بسوء الاختيار حِمامَك ، وانخدعت بلُماعة (١) الدنيا ، والزخارفُ فيها — والله ياأخى — المخاوفُ والمتالف . اهـ .

وأورثك الجهلُ والإغترا   رُ صُنوف البلايا ، وما يتقى
وملتَ إلى عاجل تافهٍ   وصادتك أشراكها يا شقى

حتى متى إلى الشيطان سُكُونك ، وإلى الدنيا وعمارتها ركونك ، وعلى حُطامها وسقامها جنونك ؟ أما تعتبر بمن مضى مِنْ أسلافك ، وبمن وارته الأرض من خلصائك وألافك ؟ أما يردعك عن جهلك رادع ؟ أما يقمعك عن غيك قامع ؟ أما أنت عما أنت عليه من الخطايا مُقْلِعٌ نازع ؟ أما تلحظ بعين فكرك الأمم الخالية ، والملوك الفانية ، والفراعنة الماضية ؟ هل تحسُّ منهم من أحد ؟ وهل ترى لهم من باقية ؟ طوتهم يد الحِمام ، وطحنتهم رَحَى الأيام ، وقرضهم (٢) مرُّ العام بعد العام . فهاتيك بيوتهم خاوية ، ومجالسهم فى قصورهم قاوية (٣) ، والأوزار فى أعناقهم باقية . اهـ .

وحُلُّوا بدارٍ لا تَزَاوُرَ بينهم   وأنَّى لسكان القبور تزاور ؟!

لقد نجا امرؤٌ محا عن نفسه شاهدً . هذا الموجود ملزوم الخدمة لله الملك المعبود . ألاَ صافى مِنْ كَدَرِ الأقذار ؟ ألاَ متميز عن عادة الأغمار ؟ ألا راغب فى طريق الأخيار ؟ ألا آنف من مذاهب الأشرار ؟ ألا مزاحم لمناكب الأبرار ؟ ألا هارب من أوطان الشاردين عن الله ؟ ألا منقطع إلى الحق بحقائق الواجدين لله ؟ ألا طامع فيما عند الله على ما وعد به

(١) اللماعة (بضم اللام) : الخصب ؛ الدنيا .
(٢) قرض الشىء (من باب ضرب) قَرْضاً : قطعه .
(٣) قويت الدارُ قِيّاً وقواية : خلَتْ .

أولياء الله ؟ ألا مستحيي من إعراضه عن الله مع علمه بما يصل إلى الله من طرائفِ ما عند الله ؟

يا أَكَلَةَ الحرام ، وحَمَلةَ الآثام ، وسَفَلَةَ الأنام ! النجاء النجاء ! فقد أظلكم عَلَمَ الانتقام ، وفاتكم من الله — ذى الجلال والإكرام — الخلودُ فى جوار الله والدوامُ .

أيها الناس ! خبرونى عنكم ، إذ وقفتم خدمتم[1] الدنيا أعماركم ، بأى شئ ظفرتم ؟ بذلتم حياتكم ، فأى زيادة ربحتم ، وبأى فائدة انقلبتم ؟ خاطرتم بأرواحكم ، فأىُّ فائت أدركتم ؟ أتعبتم أبدانكم . هل بنسيم حضرته عَبِقْتم ؟ هل على نغمات سِرِّه طربتم ؟ هل بعذوبة مناجاته تلذَّذتم ؟ هل بحقيقة محبته خُصِصْتم ؟ هل بحلاوة بواديه من عنده أَنِسْتم ؟ هل على بساط تكرِمته جلستم ؟ بل هل بضمانه لرزقكم وثقتم ؟ هل على وعده توكلتم ؟ وهل علمتم ماذا أريد [١٤٦ ب] بكم ؟ أو فكرتم فيما أريد منكم ؟ إن كان ذاك أو بعضُه فأين دلائله وروائده ؟ وأين أوائله وعوائده ؟ وأين مخايله وشواهده ؟ وأين وسائده وفوائده ؟ بل أين خوافيه وبواديه ؟ وأين مقدماته وهواديه ؟ وأين توابعه وحوادثه ؟ وأين الخلع التى[2] يُلقيها على مصافيه ؟ وأين السرائر التى يستودعها من يتهالك فيه ؟ فلا أجسامكم تحلَّتْ بالعبادة ، ولا قلوبكم ارتاحت فى طلب الزيادة ، ولا صدوركم صُرِفَتْ عن الهوى بصدق الإرادة ، ولا أرواحكم هَشَّتْ للاستفادة ، ولا أطماعكم انحسمت بالزهادة ، ولا سيرتكم استمرت على الزيادة

---

(١) كذا ! ولعل صوابه : على خدمة .

(٢) ص : الذى .

والذيادة[١] . لا جَرَم[٢] شَمِت بكم عدو الله إبليس ، وبلغ بكم فوق ما أراد بالحيلة والتلبيس . « أم حَسِبَ الذين اجترحوا السيئات أن نجعلَهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات »[٣] ؟! هيهات هيهات ! « إنْ كُلُّ مَنْ فى السمٰوات والأرض إلّا آتى الرحمن عبداً . لقد أحصٰهم وَعدّهم عدّا * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً »[٤] . رَحِم الله عبداً رفع طرفه ، وبسط كفه ، وشرح وهمه ، وسَيَّح[٥] فهمه ، ونظر إلى ما له فطلبه ، وإلى ما عليه فاجتنبه .

اللهم لا تؤاخذنا بالدعاء إليك قبل إجابتك ، ولا بإجابتك قبل اليقين معك ، ولا باليقين معك دون التهالك عليك ، < ولا بالتهالك عليك > دون[٦] تجرُّع الغصص من أجلك ، ولا بتجرع الغُصَص من أجلك دون الرضا والتسليم لك ، ولا بالرضا والتسليم لك دون الغيبوبة عن كل ما عداك ، ودون البراءة من كل ما سواك .

إلٰهنا ! إنّا لا نصل إليك إلا بك ، ولا نسلو عن غيرك إلّا لك . نواصينا معقولةٌ بتصريفك ، وآمالُنا موقوفة على تشريفك ، وسُورنا مهدوم إلا إذا كَفَيْت ، وحريمنا مستباح إلا إذا حَمَيْتَ .

اللَّهُمَّ إنا حضرناك دَنِسين فطرنا ، وسألناك محتاجين فأَجِبْنا ، ولُذْنا بك عاجزين فقوِّنا ، وخفناك لإجرامنا فآمِنّا ، وتكشفنا عندك فاسْتُرنا ، واعترفنا

(١) من ذاد يذود : حمَى .

(٢) لا جرم : حق .

(٣) سورة « الجاثية » : ٢٠

(٤) سورة ١٩ « مريم » : ٩٤ — ٩٥

(٥) جعله يسيح .

(٦) كذا ! ولعل فيه نقصاً أصله ما أثبتنا .

بحكمتك فاقبلنا ، وخضعنا لقدرتك فارحمنا ، وانهدَمْنا فى مخالفتك فاعمُرْنا ، وتبددنا فى ملكك فانظمنا ، وشُتِّتنا على أنفسنا .

[١١٤٧] اللهم أنت بنا أبصر ، ونحن عن مصالحنا أقصر ! فرقنا بكرمك إلى حظيرة القدس ، واسقنا بكأس القَبول شرابَ الأُنْس ، فإنك إن فعلت ذلك بنا لم نَظْمأ بعده أبداً ، ولم نؤْثِر عليك أحداً . آهٍ على أقدامٍ كانت تستثقل حَمْلَ رقيق النعال كيف تطيق غداً هَوْل ثقلِ القيود والأَنْكال[١] ! آهٍ على جنوب[٢] كانت تستخشن لين الحرير ، كيف تصبر غداً على مقاساة لهب السعير ! آه على خُدود فى ظلال الترف تتدلّل ناعمة ، كيف تكون غداً فى أطباق الثرى ساهمة راغمة ! آه على أجساد فى حُلَل الدنيا مصونة ، إذا أصبحت غداً فى أثناء الجنادل[٣] مهينة مدفونة ! آه على مَنْ قد غدا فى ضروب المعاصى مشتبكا ، كيف يكون إذا وقف بين يدى المَلِك الجبار مرتبكا ! — عجيب لقلب سكنه عقل ، أو اطمأن به فهم ، أو سنحت فيه فطنة ، أو هبَّ فيه انتباه ، أو ألمّ به رأى ، كيف ركن إلى الدنيا جهلاً ، ورضى بها وطناً ، ووجدها من الجنان بدلا ، وغفل عن صنيعها بمن مضى وخلا ! اسمع قول القائل :

تَوَخَّ سبيلَ البرِّ واجنحْ إلى التُّقَى !   وخلِّ عن الآثام واجتنبْ الفَحْشا
تفرَّدْ عن القومِ الذين ادَّخَرْتَهم   لأُنْسِك ، واستبدِلْ مِن الأُنْس الوَحْشا

---

(١) النكل (بكسر النون وسكون الكاف) : القيد الشديد من أى شىء كان ، وقيل قيد من نار ، والجمع : أَنْكال ونُكُول .

(٢) ص : حيوت . وهو تحريف ظاهر .

(٣) الجندل : الحجارة ، الواحدة جندلة والجمع جنادل ، يقال : « شاد قصره بصُمِّ الجندل وبصُمِّ الجنادل » . أثناء : ثنيات ، طيّات .

فلست ترى إلاَّ مشيرَ عداوةٍ　　لغيرك نصحاً وهو معتقد غِشّاً
أرى باطن الدنيا سُمومَ أراقمٍ　　وإن[1] ملأَتْ للعين ظاهرها نقشا

أفلا يعتبر المرء اللبيب بما يرى من تنعيمها[2] وورود الفجائع على أهلها : من علة فاجئة ، أو ميتة قاضية ، أو دار بعد ساكنها موحشة ، أو حالٍ بهولها وصعوبتها مدهشة ؟ قد كدّر منها المنونُ ماصفا ، وتركها رَيْبُ الزمان قاعاً صفصفا .

ياهذا ! شمّر وخُذْ فى الجِد ، فالأمرُ والله حق . أتدرى ما الأمر ؟ الأمرُ هو الرحيل عن هذا الموضع النّابى[3] بأهله المزعج إلى محل آخر : إما أن يكون أنعمَ منه ، وإما أن يكون أنبا[4] منه ، وبين الرحيل [١٤٧ب] والوصول وحشة الفراق ، وبلوغ الروح التراق ، والتفاف الساق بالساق ، وحشرجة الصدور ، وتَسكاب المآق[5] . ياقوم ! < ماذا > أقول لكم ، وكيف أعرض نصحى عليكم ؟ وما أنتم فى الحقيقة مرادى ، بل أنا ذلك المراد ، وأنا الحاضر ذلك النادى ، وأنا القادح لذلك الزناد ، وأنا المُنْتَجِعُ لتلك العِهاد[6] ، وأنا الخاطب لذاك الرشاد ، وأنا المقيم على نفسى أولئك الأشهاد . اللهم صِلْنا بخيرك ، ولا تكلنا إلى غيرك ، ياذا الجلال والإكرام !

---

(١) ص : فإن .

(٢) كذا فى الأصل ! والمعنى على هذه القراءة : بما يرى من نعمها ثم ما توردە بعد النعم من الفواجع . . .

(٣) نبا به المكان : لم يطب له .

(٤) أفعل تفضيل من نبا ينبو : لم يطب .

(٥) أى : المآقى .

(٦) جمع عهدة : كل مطر بعد مطر .

رسالة (مى)

إلٰهنا وإلٰه الخلق أجمعين ! طوبى لمن أهلّته لمواجهتك بحديثه على طريق الانبساط ! طوبى لمن وفقته فى عبادتك للأخذ بالاحتياط ! طوبى لمن صفيته فى إشارته إليك عما ابتليت به غيره من الكدر والاختلاط ! طوبى لمن سبقت له منا الحسنى فصار بين أهل السموٰات والأرض من أولى الاغتباط ! طوبى لمن رفعْتَ مقامه فى الملأ الأعلى عن كل استظهار واستنباط ! طوبى لمن عرَفَك فوصفَك أو وَصفَك فعرفك !

إلٰهنا ! سوابق مِننَك تدعو إلى الاعتراف بفضلك ، وسوابغ نعمك تبعث على العبادة لك ، وروادف بِرّك تستنفد قوى الشاكرين على ذلك ، وسوالف لطفك تأتى على آخر ما يقدر عليه الواله المتهالك بدعائك . أجبناك ، وبإرادتك أردناك ، وبصنعك عرفناك ، وبإذنك وصفناك ، ومن أجل ما عهدنا منك اشتقناك ، وبجهالتنا عصَيْناك ، وبفرط دالّتك قصدناك ، وبسوء آدابنا جَفَوْناك ، وبحسن توفيقك استعطفناك ، ولولا جودك ما سألناك ، ولولا إحاطتك ماشهدناك ، ولولا غَلَبَتُك علينا ما وجدناك ، ولولا لُطفُك ما عبدناك ، ولولا أنت فى كل ما نحن فيه وعليه ما أطعناك . لألاؤك أشيع من أن يُستر ، وآلاؤك أظهر من أن تنكر . قدرةٌ محفوفةٌ بالحكمة ، وحكمة مكفوفة بالقدرة ، ونعمة محوطة بالرحمة ، ورحمة منوطة بالنعمة . فكل شئ منك لائق بالربوبية ، وكل شئ لك شائق [١٤٨ ا] إلى العبودية . عززت موجوداً ، وكرمت معبوداً ، وحضرت مشهوداً ، وسئلت مقصوداً .

أيها السامع المتأيد ، والصاحب المتوجد ! لا يشهد فى مشاهدك غير من هو شاهدك فتغيب عن غايتك بغيبتك ، ولاتجد غيره ظانا أنه هو ، فتكون عادما

لحقيقته بما أنت غيره ، ولا تترنم بغير حديثه ، فيذهب طربك هباء منثوراً ، وينطوى عمرك حسْرة وثبورا . واحترس من نفسك لنفسك ، فإنها عقرب إذا لدغتك لم تُبلّ[1] ، وإذا ضربتك لم تستقل . واحفظ عهد الله عندك ، والحظ رِفده[2] قبلك ، واستقبل أمره بالشياح[3] والجد ، والتشمير والجهد . فقد حملت منْ سِرّه عظيما ، وكُلِّفْت من أمره جسيما ، وعرضت لذكره فى جميع أحوالك كظيما . فابرز بالخشية والتقوى ، واحتجب عن البلوى بالبراءة من الشكوى ، واستيقن أنه مختبرُ فى العاجلة ، ومعتبر فى الآجلة . فإن يكُ شَفٌّ[4] رجحت به وإلا فإنك من النادمين . أما أنى أتكلم وفؤادى مهيم ، وقلبى مقيم ! مالى فى هذا الهوى الناعم مُتَنَسَّم ، وفى هذه الأرض العريضة مُتوسَّم . سرٌ قد باح علىّ قبل أن أكتم ، وخبر قد شاع عَنّى قبل أن أعلم ، وتظلم قد توالى من أجلى قبل أن أظلم . فلا جرم العُذْر مردود قبل أن يسمع ، والعقاب واقع قبل أن يستحق ، والمحذور نازل قبل أن يستعد . وكيف يكون الشقى إلاّ كما تسمع ، وهل يكون المغضوب عليه إلاّ على ماترى ! فمن لى الآن بجد سعيد ، وصديق ودود ، لعلى أتلو عليه نبأى وأستنجده على ما أنا محمول فيه ومدفوع إليه . هيهات ! تَعِسَ الجَدُّ[5] ، وخاس الصديق ، ودام التعب ، واشتد الأسى ، وتوالى الندم على أمْرٍ لم يملك أوله ، ولم يدرك آخره ، ولم يظفر بما بينهما لعوزٍ مالو حِيد[6]

(١) أبلّ من مرضه : شفى .

(٢) الرفد : العطاء .

(٣) الشياح (بكسر الشين) : الحذار والجِدّ فى كل شىء .

(٤) الشفّ (بفتح الشين وكسرها) : الرّبح ، الفضل .

(٥) الحظ .

(٦) بمعنى : لو عُدِل .

وسمح بشىء منه ، كان مكان هذه الشكيّة مِنْ هذه البلية تلذذ ، وبَدَلَ هذا الترح فرح ، ودون هذا التحرق تنعُّم . فالحمد لله الذى استأثر بالحكمة فى غيب مصلحتى ، وزوى عنى روح حياتى ، وطوى دونى سِرّ عاقبتى ، وأفرغ على أذنَىّ البلوى ، ومنعنى فيها من بعض الشكوى [١٤٨ ب] — حمد (١) سائلٍ صلاحَ ما به ، مُستمِدّ مِنْ فضله فى أعتابه .

أما والله أيها السامع بأذنه الحاضر بذهنه ! لولا لزومى جدى فى العبودية ، وتلطفى فى تصفح الربوبية ، وأخذى بآداب من كان مَلِكَ النفس ، عزيزَ الهمة ، بعيد الغاية ، لتمطيت على جوانب ، وصرّحت بجوائب أخبار ليس لأحد من البشر عنها خبر ولا أثر . ولكن ما أصنع والرقيب يقظان يُحْصى أنفاسى ، والعدو متكىء فى ناحية يهيىء أمراسى (٢) ! فلو نقّيت من كل شوب ، وصَفَوْتُ من كل عيب ، لادّعى علىَّ ما يزيل بُنْيانى ، ويزلزل أركانى . فكيف إذا أهملت بعض الحق ، وأغفلت بعض الرفق ! أين يجدنى ، وعلى أى حال يشهدنى ! لسان ينطق بالسَّهْو ، ونفس تطرق على الزهو ، وحال تَغَرْقَق فى اللهو ، فإن باح مراد لم يلبث إلا مُحْتازا ، وإن عزّ مطلوبٌ لم يمكث إلا منحازاً . فعلى ذلك ليس الحالُ ناعماً ، ولا الأمل متوقَّعاً ، ولا الراحةُ مظنونة ، ولا البلاء متخلياً ، ولا الصديق متوالياً ، ولا الشانىء مستبقياً . — عادت الحسنات بسوء الأدب سيئات ، وسارت الطاعات بفرط الاعتراضات مخالفات . فاللوم حانق ، والأسى معانق ، والحوائج متآزفة (٣) ، والدواهى متضاعفة . والويل لمن أنّ

(١) مفعول مطلق لقوله : فالحمد لله . .

(٢) المرس (بفتح الميم وكسر الراء) : الحبل الناشب بين البكرة والقعو ، والجمع أمراس .

(٣) تآزف : تقارب خطوه ، و — القومُ : تدانى بعضهم من بعض .

تحت هذا الثقل الفادح ، والخيبة لمن شكايته إلى القريب أو النازح . لقد شد الوثاق [١] مَنْ عنَف فى السباق ، ومنع من الاستحقار من رد صادق الاقتدار ، فلا قوة يستبد بها ، ولا رحمة يستمد منها . جهة معوزة ، ومضلة موعزة ، ووسواس ملتهب ، وكرم حائم ، ومتمنًّى مفقود ، وقول كلما أعيد كان أفضح وأضر ، وأدهى وأمر ، وكَمَدٌ كلما صُبر عليه كان أقَدَّ للأحشاء ، وأقطع للرِّشاء ، وأكشف للغطاء والغشاء . خذ حديثى جُملةً فتفصيله باهظ ، واقنع بالعنوان فمفضوضه موحش . لم يكف زمانى ما رمانى به عَنِّى وكَدَّنى به لى ، وغَمَسَنى فيه علىَّ ، حتى يحال بينى وبين من كان للعين رَوْضة إذا سَرَحَتْ ، وللنفس مُتلهًّى إذا تروَّحت ، وللحال نقلة إذا استبهمت ، وللغاية علامة إذا استعجمت ، وللمحنة خفة إذا استحكمت . فلا جَرَمَ شوقى إلى ذلك الفائتِ [١٤٩ ا] العزيز على قدر وجدى به ، ووجدى به على قدر وَلَهى فيه ، وولهى فيه على قدر تهالكى عليه ، وتهالكى عليه على قدر تخيلى له ، وتخيلى له على قدر امتزاجى به . وهذه كنايةٌ مانعةٌ من البينونة التى بها يشار إلى اثنين أنهما واحد ، وإلى واحدٍ أنه اثنان . وهذا حدٌّ من استولى عليه كان خبره عن نفسه لنفسه ، ووجدانه لنفسه بنفسه . الصفات تتبرأ من هذه الخصوصية فى العشق ، والعلامات تمّحقُ فى النبأ عن هذا الفَتْق والرَّتْق . فما بعد هذا إلا أن تَسُدَّ سَمْعَك عن هذا الكُنْه اللطيف تحرياً للسلامة ، وأَزُمَّ لسانى عن هذا الخبر الطريف خوفاً من لاذع الملامة . إن العارف ، وإن ترقى فى سلالم المعرفة بحقائق الحال على تبين المكاشفة وغلبات المشاهدة ، ليس له أن يخبر إلا بعد الإذن له ، وإذا وَرَدَ الإذن ليس له إلا الجمجمة [٢] إذا قال

---

(١) بالفتح ويكسر .

(٢) ص : الحمحمه ! وصوابه ما أثبتنا . والجمجمة : عدم تبيين الكلام .

والهمهمة إذا سكت حتى يدرج فيما إليه تدرج ، ويعرُج إلى ما عنه تعرج . لُغَةٌ والله مُشْكلة ، وعلةٌ والله معْضلة ، وديوان والله مختوم ، وسرٌّ والله مكتوم . إن ألقيت مالك منه كنت محروماً ، وإن التمست مالك فيه صِرْتَ ظلوماً ، لأن الذى ليس لك هو لك (١) إلا إذا ملّكته ، وإذا ملكته فليس هو أيضاً لك إلا إذا بُقى عليك . فإن الاستدراج شرط فى الإلهية ، والفرق شرط فى العبودية . فلا يؤمنك من هذه المزلقة إلا إذا توكلت عليه ، ولا خِيرة لك فى هذا التوكل إلا إذا أوصلك إليه ، ولا توكل ولا وصولَ وهناك نزاعٌ إلى الشهوات وتخوُّضٌ فى الشُّبُهات ، والتفاتٌ إلى اللذات بعد اللذات ، وإعراض عن الغايات بعد الغايات ، وأخْذٌ بالرُّخْصة فى الحالات بعد الحالات . لا وحقِّك حتى تودع كل ما ألِفْتَه من هذه العَرْصة ، وتذوب دونه بكل حَسْرة وغُصَّة ، وتتهيأ لهذا التوديع والذوبان لكل جلسة وفرصة . ومن لك بأن تؤهل بعد هذا كله باستراق لحظةٍ من ذلك المنظر الأنيق الذى هو غاية الأمانى والآمال ، ومنتهى طلب الطالبين فى كل حال من الأحوال . ما وصل الواصلون إليه إلا بنزع الروح ، وقلع الضِّرْس ، واحتراق الصفة ، [١٤٩ ب] وتبدل السِّمة ، وتجرع العلقم ، ومعانقة البلاء والتَّبَرُّم بالنعيم ، والتجافى عن المِهاد الوثير ، والتغلب على الحَسَك النابت ، وحَسْو الدم بلا هاجسٍ تلابسه كراهة ، ولا خاطرٍ تفارقه نزاهة ، ولا عملٍ يشينه علمٌ ، ولا علمٌ يخالفه عمل ، — بل حال واحدة يغرق فيها كل رسم وقول ، ويعيق بها كل نَسْم ، وطول حال لا يترجمها البليغ إلا بعد أن يترك فيها أكثرها ، ويبدى منها أقلها ، عجزاً عن حقيقتها ، وتبلداً فى معرفة غايتها . أفلا ينتحر (١)

(١) كذا فى الأصل !

على هذه الصفات التى هو [١] استمارات عن تلك الحقائق ؟ أفلا يَبذل دون نيلها ما يملك من الذخائر ؟ أو لا يُهام عليها بكدّ الأبدان و بَذْل الأرواح ؟ أفلا يُجاد لها بما هو دونها فى القيم والأرباح ؟ أفلا تُتَعَرَّف الطرقُ إليها ؟ أفلا يستعان بكل صديق وصاحب عليها ؟ أفلا يتحسر على الفائت منها ؟ أفلا [٢] يطرب على الخبر الطيب عنها ؟ أفلا يقال كيف وما هى هى وإن هى ؟

يا هذا ! كُفَّ عنى فقد غِظْتَنى منى ، وأريتنى منك أنك أنى [٣] ، وهذه درجة لا أرضاها لمن هو عنى . فدعنى وأَرِحْنى إن لم تُرَوِّحنى وتُفرِحنى . إلى متى أهرِفُ بما أعرف ، وأبين ما لا يستبين ، وأشير إلى ما لا تستشير ، وأروى ما لا تدرى ، وأعلل نفسى منك بلَعَلَّ وعسى ، واليوم وغدا ، وكلا ولا ، وبل وبلى ؟ طابت الأوطان ، ورَحُبَتْ الأعطان ، وآن الرعى للسارح ، ومُتَهل المأتى على الغادى والرائح . فهل من سامع نجوى أهل الحق لباله الكاسف ، وظعنه الآزف إلى صراط الله المستقيم ، ومقامه الأمين ، حيث لاخوف ولا حُزْنَ ، ولا أنين ولا حنين ، حيث قرار ومعين ، ومكان ومكين . وهل مِنْ قارعٍ لباب الصفاء بيد الوفاء على الرفق والتأييد ، والصبر والتوحُّد ، والقناعة والنزاهة والزهد ، والنسك والتعبد ، والخلوة والتفرد ، حتى أضمن لك زكاء [٤] العمل ، وبلوغ الأمل ، على الوحى [٥] والعمل . واشوقاً إلى مريد نظيف ! وا أسفا على ذى حال لطيف ! واحنيناً إلى عارف طريف !

---

(١) كذا فى الأصل ، وصوابه : هى .

(٢) ص : فلا — وهو تحريف ظاهر .

(٣) أنَّى : أنينى وشكواى .

(٤) نمو .

(٥) ص : الوحا . والوحى : العجلة والإسراع ، كالوحاء .

واحزناً من متكلم عفيف ! وا ويلى على ذى همة شريفة ! عزب — والله — هذا الشأنُ على أهل الزمان فلا خبر ولا استخبار ، ولا مُخبِر ولا مُستَخْبَر . أصبحت الدار خالية [١١٥٠] من قُطّانها ، وعادت أطلالاً بعد بهجتها بسكانها ، فلا لافظ ولا حافظ ولا رافض [و] : لا لافظ بالحق ، ولا حافظ للصدق ، ولا رافض للرِّق . وإلى متى أسفى ولهفى على أمرٍ وَلّى ولم يَقِف ! كَمَدٌ قد أذاب الكبد ، أشكو إلى الله الواحد الصمد ، فالويل لمن رفعَ بثَّه إلى غير الله ، ويَئِسَ بجهله مما عند الله ، وظن أن له فرجاً إلا بالله !

اللهم إنّا لا نملك ضُرّاً ولا نفعاً إلا بك ، ولا نرجو خيراً ومَيْراً إلاّ منك ، ولا نخاف تولّداً (١) إلا عليك ، ولا نطمع إلا فيما لديك . واجعلنا على ثقة من قبولك لنا ، وألِّف بيننا وبين رِفْقك بنا ، واشمَلْنا بعطفك علينا ، واسطع بنورك فى أسرارنا ، واصدع مُرْتتَق (٢) عقولنا ، وزدنا من فضلك لما يضيق عنه وُسْعُنا عند مسألتنا . وكما حرمتنا الدنيا لتستمتع بنا ، فاصرف خيالها من قلوبنا حتى نُلْهَى عنها ، وخُذْ بأيدينا فى مداحضها ، واحفظنا منها عند عوارضها ، وسلِّطها على شيطاننا وعلى أهوائنا بالقَمْع ، وعلى شهواتنا بالعفاف ، وعلى أمانينا بالكفاف ؛ ولا تجعل خبرنا عنك غلطاً منا عليك ، ولا دعاءنا إليك سهواً منا عنك ، ولا انبساطنا معك سوء أدب منا فى صحبتك . فإنا لا نسلم من الزلة إلا بتوفيقك ، كما أنا لا نأمن إلا بتصديقك ، ياذا الجلال والإكرام !

---

(١) كذا ! ولعل المعنى : أن تكون مولداً عن غيرك .

(٢) اصدع : شقّ ؛ مرتتق : ملتئم ؛ مغلق ؛ أى : افتح مغاليق عقولنا .

رسالة (لح هـ)

حَرَامٌ على قلبٍ استنار بنور الله أن يفكر فى غير عظمة الله ! حَرَامٌ على لسان تعوَّد ذِكْرَ الله أن يذكر غير الله ! حَرَامٌ على نفسٍ طُهِّرت من أدناس الدنيا لله أن تُدنَّس بشىء من مخالفة الله ! حرامٌ على عين نظرت إلى مملكة الله أن تُحَدِّق إلى غير الله ! حرامٌ على كبد ابتلَّتْ بالثقة بالله أن تطمئن إلى غير الله ! حرامٌ على مَنْ لم يرَ الخير إلا من الله أن يُجدِّد طمَعاً فى غير الله ! حرامٌ على من شَرُف بخدمة الله أن يتضع بخدمة غير الله ! حرامٌ على من ألف فِناء الله أن يَعْرُجَ إلى غير الله ! حَرَامٌ على من تلذذ بمناجاة الله أن يناجى غير الله ! حَرَام على من رتع فى نعمة الله أن يعبد غير الله ! حرامٌ [١٥٠ ب] على من سكن حَرَمَ الله أن يتعرض لحُرَمَ الله ! حَرَامٌ على من دعا إلى الله أن يجيب غير الله ! حرامٌ على عَبْدِ الله أن يتخذ مَوْلى سِوى الله ! حرامٌ على من أنس بالله أن يأنس بغير الله ! حرامٌ على من عرف قدرة الله أن يتعرض لسُخْط الله ! حَرَامٌ على من عرف عفو الله أن يغلب اليأس من الله !

ياهذا ! إنما أنت بجوارحك ، وجوارحُك بك . فإذا رتبتَها فى مراتبها ، كانت لك وكنت لها . فإذا فسَدَتْ نظامها كانت عليك ، لالك ، أعنى أن لك قلباً فَرَتِّبه على حد الفكر فى أفعال الله ؛ وسِراً فاحْشُه بمحبة الله ؛ وضميراً فقلِّبه فى تيه حُسْنِهِ لوجه الله ، ونفساً فوكِّلها بالرضا عن الله ، وروحاً فسَرِّحْه فى رياض نِعَمِ الله ، وعيناً فسددها فى اعتبار خَلْق الله ، ويداً فمرِّنها على تناول الواجب من ملك الله ، وقدَماً فصبِّرها على الخطوات إلى باب الله ، وعقلاً فاجعله

رائداً لك عند الله ، وعلماً فاقصِرْه على العمل لوجه الله ، وكُلّاً فابذله فدىً لمرضاة الله ، وبَعْضاً فقِفْه على سلوك سبيل الله .

ياهذا ! أما ترى حدثان الدهر؟ أما تُحِسُّ مصائب الدنيا ؟ أما تشعر بأحكام الوقت ؟ أما ترى دوران الشمس ؟ أما تحس باختلاف الليل والنهار ؟ أما تؤمن بغيب هذا الشاهد ؟ أما تثق بشهادة هذا الغيب ؟ أما تبصر بعين الرأس تصاريف القدرة ؟ أما تضطر إلى الإقرار بربوبيته ؟ أما تلتجئ إلى القيام بدينونته ؟ أما تعلم أنه مُحْصٍ عملك ومقتفٍ أثرك : بعلمه ، ثم باطلاعه ، ثم بإحاطته ، ثم بالحَفَظَة مِنْ قبلَه ، ثم بانكشاف الأشياء له وانتصابها بسمعه وبصره .

إلهي ! استزرتني فلما جِئْتُ حجبتني ، دعوتني فلما أجبتُ حَضَرْتني[(١)] ؛ خاطبتني فلما استفهمتك أبهمتَ عليَّ ، عَرّتني فلما استعنتك تركتني ؛ أظمأتني فلما استسقيتك ذُدْتني[(٢)] . أبنتني فلما بدوتُ[(٣)] أبدتني . أحييتني فلما حييتُ أمتّني ؛ آمنتني فلما أَمِنْتُ أخفتني . كوّنتني فلما كنت كنيتني . فوحقّك لا فارقت بابك حتى تَفْصِل أمري ، وتحكم لي ، وتجود علي ، وتنظر إليّ ، وحتى تنقذني من دارك التي حشوتها بالغُصَص والآفات ، وبالبلايا والمساءات ،

---

(١) كذا بالضاد المعجمة ، وعلى هذه القراءة تكون بمعنى : أصبتني بسوء ، من قولهم : « أعوذ بك ربّ أن يحضُرونِ » أي : يصيبوني بسوء . أو تكون صحتها : حصرني ، بالصاد المهملة أي : ضيّق عليه وأحاط به .

(٢) غير واضحة تماماً في الأصل ، وما أثبتنا هو الأقرب إلى الرسم الظاهر . وذُدْتني : أي منعتني من الشرب ، من ذاد يذود : منع .

(٣) ص : بدت .

وحتى ترفعني إلى جِوارك ذى الظِّل السَّجْسَج[١] والماء المعين، والقرار المكين، والمقام الأمين، حيث لا أسمع فيه لاَغِيةً، ولا أقاسى [١٥١] من ليس منى فى ثاغية ولا راغية[٢].

أَرْسُمُ لك فى هذه الورقات كلاماً للحكماء فى صفة الرجل العاقل العادل كيف يكون، ومن أين تحصل له هذه الفضيلة؛ وصفة الرجل الحائر الجائر كيف يكون، ومن أين تدخل عليه النقيصة. زعمَتْ الحكماء على ما أوجبه آراؤها ودياناتها أن من الوحى القديم النازل من الله قوله للإنسان: « اعْرِفْ نَفْسَك؛ فإن عرفتها عرفت الأشياء كلها ». وهذا قول لاشىء أقصر منه لفظاً، ولا أطول منه فائدة ومعنى. وأوَّلُ مايلوح منه: الزراية على مَنْ جَهِل نفسه ولم يعرفها. وأَخلِقْ به إذا جهلها أن يكون لما سواها أَجْهَلْ، وعن المعرفة به أبعد، فيصير حينئذ بمنزلة البهائم، بل أرى أنه أسوأ منها وأشد انحطاطاً وسَفالاً[٣] لها، لأنها لم تشركه فى التمييز ولا يشركها فى الجهل. فلما حاول امتثال هذا الأمر لم يصل إليه إلا بعد التمهُّر فى الفنون العقلية، والتوهم إلى فهم دقيقها وجليلها[٤]، والإحاطة بكثيرها وقليلها. فكان ذلك الوحى إنما كان تلطفاً من الله له فى استيعابها بالإيماء والإشارة والخفيف من العبارة، ثم أدّاه

---

(١) السجسج: الأرضُ ليست بصلبة ولا سهلة، و — ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. ويقال: « يوم سجسج » إذا لم يكن فيه حرٌّ مؤذٍ ولا قُرّ، وكذا الليل.

(٢) الثاغية: الشاة، والراغية: الناقة، ويقال: ماله ثاغية ولا راغية. وفى النص: راعبه.

(٣) سفَل (من أبواب: نصر، علم، كرم) سُفولاً وسفالاً: نقيض علا.

(٤) الدقيق هو المسائل الجزئية، والجليل هو المسائل العامة الكلية. وهذا الاصطلاح يرد كثيراً فى كتب علم الكلام.

الاجتهاد إلى أن عرف نفسه وحدَّها بأنه حيٌّ ناطق مائت ، وأنه مركب من الأخلاط الأربعة التي هي عناصره وأصوله ، فإن فيه نفساً ذات قوى ثلاث : وهي الناطقة التي مَسْكَنها الدماغ ، والغضبية التي مسكنها القلب ، والشَّهَوِيّة التي مسكنها الكَبِد . لكن العادة جرت بأن تسمى هذه القُوى نفوساً ، وإن كان مرجعها إلى واحدة فيقال : نفس ناطقة ، ونفس غضبية ، ونفس شَهَوِية . فللناطقة في الدماغ ثلاثة أماكن : أحدها يكون بها(١) التخيل والإحاطة بالأشياء المُبْصَرة والمسموعة على ما هي عليه ، وهو المُقَدَّم منه ؛ والثاني يكون به التمييز لهذه الأشياء ومعرفة حقِّها من باطلها ، وصحيحها من سقيمها ، وحَسَنها مِنْ قبيحها ، ومُمْكنها من مستحيلها ، وهو الوسط ؛ والثالث يكون به الحفظ لما وقع عليه التمييز . فكأن الأوسط هو الأشرف ، إذ منزلته منزلة الحاكم الذي ترفع إليه الرفائع(٢) وتصدر عنه القضايا ؛ ومنزلة المُقَدَّم [و](٣) منزلة الشاهد الصادق الذي يُنْهِى إليه ما يُرى ويسمع ؛ ومنزلة المُؤَخَّر منزلة الخازن الحافظ يستودعه عِلْمَ ما ميزها وحصّله ، فمتى احتاج إلى شيء منه استدعاه من خزانته — فهذه حال النفس الناطقة اهـ .

وأما النفس الغَضَبية فبها تكون الأنفة(٤) من العار ، والأناة من الضيم ، وطلب الاقتصاص من الظُّلْم ، والانتقام عند الغضب . وأما النفس الشَّهَوِية فبها يكون حب المطاعم والمشارب واللذات . ومثال الناطقة مثال الملك المستولى ،

(١) كذا ! والأصح : به .

(٢) الرفيعة : القصة المرفوعة إلى الحاكم ، يقال : « رفع فلانٌ إلى العامل رفيعة » .

(٣) وردت الواو زائدة في الأصل .

(٤) ص : اللايقة . وصوابه ما أثبتنا بدليل ما يرد بعدُ ص ٣٩٨ س ٢

وأفضل أحواله أن يكون عادلاً سائساً مهيباً مطاعاً قوياً فى غير غلظة ورؤوفاً فى مَهابة . ومثال الغَضَبية مثال جُنْدِه الذين يَسُدُّون ثغوره ، ويدفعون أعداءه ، ويُقَوِّمون رعيته ، ويُنَفِّذون أمره . وأفضل أحوالها أن تكون عزيزة الجانب فى نفسها ، سليمة الانقياد والطاعة لسلطانها المستخدم لها . ومثال الشَّهَوية مثال رعيته الذين يجب أن تكون عريكتهم [1] لَيِّنة مواتية ، ورهبتهم منه ومن جنده تامة مُسْتَحْكِمة .

وإذا جرى أمر الإنسان هذا المجرى وأخذت هذه القوى مآخذها ، وتعادلت على أوزانها وأقساطها ، كان فاضلاً . وإن زال عن ذلك ، نَقَصَ وكان نُقصانه بحسب مقدار زواله . ومعلومٌ أن البهائم مساوية فى جميع أجزاء التركيب إلا فى النفس الناطقة التى بها صار مهيمناً على جمعها وسائساً قاهراً لها ، ومن أجلها كان مكلفاً موفقاً ، ومثاباً معاقباً . ومن وصل إلى هذه الغاية من معرفة نفسه ، لزمه أن يسوسها أحسن سياستها ، ويَسْلُكَها أَرْشَدَ سبيلها ، وأن يميّز بين الخير والشر فيتوخى محمودات الأمور ، ويتوقى مذموماتها .

وإذ قد أتينا على هذه الجملة ، فينبغى أن نجعل لطريق الخير معالم تهتدى [2] إليه لتتبع ، ولطرق الشر معالم تنهى عنه لتجتنب . فنقول : إن كل ماتفردت النفس الناطقة باستحسانه من غيرها فهو الخير ، وكل ما استقبحته منه فهو الشر . وإنما قلنا : « من غيرها » لأنها ربما عَمِيَتْ عن العيب إذا كان فيها ، وليست تَعْمَى عنه إذا كان فى سواها ؛ وعلى أن الشاعر قد أطلق ذلك ولم ير فيهم مُبرءاً منه ولا سليماً ، فقال :

(١) العريكة : النفس ، الطبيعة ، « رجل لين العريكة » : أى سلس الخلق منقاد ، شديد العريكة : شديد النفس ، أبىّ .

(٢) كذا ! ولعل صوابه : تَهْدِى .

[١١٥٢] أرى كلَّ إنسانٍ يرى عيْبَ غيرِه
ويَعْمَى عن العيب الذى هو فيه
وما خيرُ مَنْ تخفى عليه عيوبُه
ويبدو له العيبُ الذى لأخيه!

والذى أصارها إلى هذه الحال اكتنافُ ما يكتنفها من شوائب النَّفْسَيْن الباقيين [١] المسَّاكينْ لها فى هيكلها : وهما الشهوية والغضبية . فإنهما يجذبانها [٢] إلى الغلط فى الأمر الخاصّ ، ولا يجذبانها إلى الغلط فى مثله من غيرها؛ فليس تسلم من معارضتها إلا بأن تكون صارمة قوية ، وعَزوفاً أبيّة . وليت لها إذا كملت قوتها واستحكمت شِدّتها <أن> تثبت لمغالبة العَدُوَّين اللذين معها . قيل : ويلٌ للقوى بين الضعيفين! فلما أن كانت ضعيفة بين قويّين ، فهناك تجتمع العيوب والمثالب ، وترتفع المحاسن والمناقب . وقد شبهت الحكماء الإنسانَ ببيت فيه إنسان وخنزير وسبُع : فالإنسان العقل ، والخنزير الشهوة ، والسبُع الغضب . وقالت : أيُّ الثلاثة غلبت ، فالمَسْكَن له . وذلك يوجد قياساً وعياناً . فإن الرجل اللبيب الضابط لنفسه هو الحقيق بأن يسمى إنساناً ، والرجل الذى قد استبعدته [٣] واستتبعته شهوته بالخنزير أشْبَه . والرجل التائه الغضبان بالأسد أشْبَه . ويُحتاج فى هذا الموضع إلى فَضْلِ إيضاح تنفصل به من زيادة الزائدين : وهو أن الشهوة والغضب ، لو كان قهرهما وحصرهما واجباً على الإطلاق ، لسقطا من أصل التركيب سقوط ما يستغنى عنه ، بل ما يُتحرَّز منه . لكن هناك ضرورة إلى الشهوة لاجتذاب

(١) ص : الناقين!
(٢) ص : يجذبانهما .
(٣) كذا! ولعلها : استعبدته .

المطاعم التى بها قِوام البدن ، والارتكاب من لظى المناكح التى بها بقاء النسل . وضرورة أخرى إلى الغضب : لدفع الظلم وإباء الضيم والأَنَفة من العار والذَّبِّ عن الحريم . إلا أنه يجب أن تكون هاتان النفسان تحت طاعة النفس الناطقة وسلطانها لتُجْرِيَهما مُجْرَى [١٥٢ ب] المركوب الذى يركب عند الحاجة بسَرْجٍ يُذَلِّله وشكيمة تحنكه وعنان يثنيه وسوط يخيفه . فإذا نزل عنه راكب ألزمه الرباط والشِّكال ، لئلا يجد على حال من الأحوال سبيلاً إلى أن يشرد فيُهلك نفسه ، ويجنى على غيره .

ومما ينبغى للإنسان أن يعلمه أن هذين العَدُوَّين ، من شهوته وغَضَبه ، ربما اختدعاه وتشبهاً له بالصديق الذى هو العقل ، فظن أنه فى طاعته إياهما مطيع له ، واستعمل الشرَّ على أنه خير ، وجَارَ على أنه عادل ، وأخطأ على أنه مصيب . وسبيل الحازم أن يستعمل على ما أرشدناه إليه سالفاً ، لينجو من مصائدهما ومكائدهما ، ويُفْلِت من أشراكهما وحبائلهما ، فيَعْرِضَ على قلبه ما تدعو إليه نفسُه ، على أن الفعل واقع من غيره وقوعه منه ، فليعلم أنه خير صالح ، وليُمْضِه . <و> إن كان على الضد من هذه الصفة ، فليعلم أنه شر محض وليمتنع منه . ثم ليتأمل المستحسنات فإنه سيجدها مما يَخُصّ الإنسانُ به ، ولا تَشْرَكه البهائمُ فيه : كالحِلْم والكَظْم والكَفّ والعزوف وضبْط الحَمِيَّة وعِصْيان الشهوة واعتزال المحارم والتحوب (١) من المآثم . وليتأمل المُسْتَهْجَنات ، فإنه سيجدها مما تَشْرَكُه البهائم فيه ، بل هى أقوم منه كَشَرَه البطن ، وعُهْر الفرج ، ومحبة الانتقام . وكفاه بذلك وازعاً

(١) تحوّب الرجلُ : اجتنب الحُوب أى الإثم ، يقال : هو يتحوّب من القبيح ، أى يتحرّج منه ؛ وتحوب منه : توجّع وتحزّن . تحوب فى دعائه : تضرّع .

عما ضارَعها فيه ، وباعثاً عما استثاره عليها به . وليس كلُّ مَنْ قاده عقله إلى العلم بمراشد الأمور ، انقادت له نفسه إلى العمل بها : فقد رأينا كثيراً من أهل المعرفة يأمرون ولا يأتمرون ، ويزجرون ولا يزدجرون ، ويعرف من المتطببين من كان ينهى عن يسير التخليط فى المآكل ، وينهمك فى كثيره . ومن المتفلسفين الذين هم أطباء النفوس مَنْ كان يَذُمُّ مقابح الأخلاق ومفاحش الأفعال فيرتكبها فى خلواتها . وتاركُ العمل مع الجهل أعذَرُ من تاركه مع العلم . والحازم من الناس من سدّ بالرأى ثُغورَ الهوى ، ورابط فيها بجيوش النُّهَى : إما بالمزّ (١) والاعتزام الفَحْل إن وَثق من مُنَّتَه (٢) بالقوة والاستقلال ، وإما بالتفويض إلى النُّصحاء إنْ أحسَّ منها بالضعف والانخذال ، لأنه إنما يجاهد عَدُوّاً نازلاً بين حجابيه مالكاً لجميع جوارحه عليه . فإنْ أطاقه على الانفراد فليبارزْه بالأعوان والأعضاد (٣) ؛ وإذا كان الإنسان قد علم أنه مركب من شيئين : أحدهما شريف وهو النفس ، والآخر دنىء وهو الجسم ، فاتخذ للدنىء منها أطباء يعالجونه من أمراضه التى تعروه ويواظبون عليه بأقواته < التى > تغذوه ، ويتعاهدونه بأدويته التى تنقّيه ، وترك أن يفعل بالشىء الشريف مثْلَ ذلك — فقد أساء الاختيار عن بَيِّنة ، وأتى الغلط على بصيرة . وأطباءُ هذه النفوس هم أهل الفضل ، وأقواتها الغاذية التى لها هى الآداب المأخوذة عنهم ، وأدويتهم المنقية هى النواهى والمواعظ المسموعة منهم والسلام . اﻫ .

---

(١) المزّ : الصعب ، يقال : « أمرٌ مَزٌّ » أى صعب ، أى بالقهر والقسر .

(٢) المنة (بضم الميم وتشديد النون المفتوحة) : القوة .

(٣) جمع عضد (بفتح العين وسكون الضاد المعجمة) : الناصر ، المعين .

زينة اللفظ فى المعنى ، وحُسْنُ المعنى فى الصِّدْق ، والصدقُ ينقسم على صالح القول المؤدب والفعل المهذب ، وميراث الفعل باقٍ على وجه الدهر وخوالد الليالى ؛ وقيل :

العُرْف أصلٌ يُجْتَنَى ... من فرعه الثَّمَرُ الجديد
يَبْلَى الفتى فى قبره ... وفِعاله غضٌّ جديد

وإنما يُقدِّم هائلُ الخطيئة[1] على مخوف الخَطْب .

أما بعد ! أطال الله بقاءك مُحَسَّداً[2] ، وأدام عزك حميداً مؤيَّدا ، وأنعم عليك مُرَفَّهاً مُسَدَّداً . فقد علمت بصادق تجريبك وثاقب فطنتك ، وبمر الأحداث بك ، وصروف الأحقاب عليك ، وصفائح الأيام عليك — أن الجهد فَضْلٌ محروم ، والفاضل حر مظلوم ، والرأى سيِّد كذوب ، والهوى عَبْد مغلوب ، والطمع خُلُق خبيث ، والقدَرَ طالب حثيث ، واللَّسن[3] عدو ناصح ، واللفف[4] صديق فاضح ، والمُلْك والد عقيم ، والعِشق داثم قديم ، والدهر عَيْنُ هوَانٍ ، والقناعة خَيْرُ أمان ، والحرصُ صورةٌ شوهاء ، والحسد خلة بَلْهاء ، والعلم عنوان دارس ، والجهل حظ ناقص ، والزمان عسير غدور ، والحرُّ منه فى طرفى غرور ، والفقر لباسُ ذلٍّ وثوب عارٍ ، والمسألة لُؤْمُ نفس

(١) يمكن أن تقرأ أيضاً : الخطيب .

(٢) حسَّده تحسيداً ، مثل حسده ، ومنه قوله :

إن العرانين تلقاها مُحَسَّدَةً ... ولن ترى للئام الناس حُسَّادا

(٣) اللسن (بسكون السين) : من لسن فلاناً (من باب نصر) لسنا : أخذه بلسانه وذكره بالسوء .

(٤) اللفف (محركة) : ما لفُّوا من هنا وههنا ، كما يلفف الرجل شهادة الزور .

وسوء اختيار . نعم ! والموت ركية [١] موروده، وطريق مَهْيَع [٢] ، وحال ملتبسة ، والناس فيه أبناء واحد وحُلَفاء معاهد . ومع ضرب الأمثال وتصريف المقال ، بيني وبينك أحوالُ اللسانُ لا يُصنفها ، والعبارة لا تصرفها ، والوصف لا يأتي عليها ، والإشارة لا تصل إليها — كل ذلك للطافته ورقته ، ونحافته ودقته — ، مِنْ فَضْلِك الذي أظلّتْني غمامَتُه ، ومَطَرَتْ عليَّ سحابته ، وأزهرت بي أرضُه ، واخضلَّت عليَّ رَوْضَتُه ، والتفَّتْ عندي زَهْرَته ، وتكاملت عليَّ بهجته ، وورثتُ منه شوقاً يَقْلِع [٣] الكبد والفؤاد ، ويجلب الفكر والسُّهاد ، ويُزعِج الرُّوح والنفَس ، ويَسْلُبُ الرَّوْح والأُنْس ، وغراماً يُلزمني غُرْماً لا طوق [٤] في نقصانه ، ويسومني خَسْفاً لا أجد سبيلاً إلى عزائِه ، ويُعْلِيني ثَنِيَّةً أتمنى دونها معانقة الحِمام ، ويُهْبِط [٥] وادياً أسهلُ منه مضاجعة اللَّحْد ؛ — ونزاعاً ينازعني في أمري ويحاول بشدته انقضاء عُمْري ؛ — وصبابةً أكاد من رقتها أطير إليك ، وأقف بغرائب حالي عليك . فليت ذلك كذلك . فلعلك تطالع شبَحاً قد أنضاه السفر ، وأضناه التمني ، وأنحله البِلى ، وأذبله البلاء ، وجار عليه الزمان ، وصد عنه الإخوان ، ونَبَتْ به الأوطان ، وبقي فرداً لا يُغاث ولا يُعان . إن سكت نُسِبَ إلى اللُّكْنة والعِيِّ ، وإن نطق رُمي بالريبة والغَيِّ ، وإن تحرك هبَّ به الاضطراب والوَلَه ، وإن سكن تحكم فيه اليأس والتصنع . فكل حاله عَبَث ، وكل أمره خبث .

(١) الركية : البئر .
(٢) واسع .
(٣) قلعه (من باب قطع) قَلْعاً : انتزعه من أصله .
(٤) الطوق : الوسع والطاقة ، يقال : هو في طوق : أي في وسعي وطاقتي .
(٥) يجعلني أعلو وأصعد .

ليس له فى أمره لسان ينطق بالحق ، ولا شفيع يُقْبل على الصدق . علَّته فى كونه ، وراحته فى فقده ، واستراحته فى عدمه ؛ هذيانه فى ليله ونهاره قولُ القائل :

كَفَى بك داء أن تَرَى الموتَ شافيا
وحَسْبُ المنايا أن يَكُنَّ أمانيا[(١)]

يَذُمُّ زمانه وهو عَيْنُ المذموم فيه ، ويهجو أيامه وهو قلادة العار عليها . قُلْ لسيدى : فكيف يَلَذُّ بعدد أحيائه مَنْ يعالج مع اللمحات وفاته ؟ أم كيف يتصرّف بذكر ما حالفه ولهج به من ليس له لهجة تفصح ، ولا صدر ينشرح ؟ أم كيف يُفاد سكونُ من نَزَحَتْ داره عن [١١٥٤] الحبيب ، وحُرِم مشافهة الصديق ومفاكهة الخليل ؟ بل كيف يصول بالعلم مَنْ منتهاه فيه الجهل ؟ أم كيف يلتجىء إلى الحيلة مَنْ فطرته العجز ؟ أم كيف يتناول الثريا من مأواه الثرى ؟ أم كيف يتشبّح[(٢)] الخبر لمن يتنكر عليه العيان ؟ أم كيف يوقن بالقول من يتشكك فى الفعل ؟ أم كيف يطمئن إلى السكون من يُهيجه الغليان ؟ أم كيف يهتدى < إلى > الربح من لا مَخْلَص له من الخسران ؟ أم كيف يطمع فى الكمال من لا مَخْرَج له من النقصان ؟ فسبحان مَنْ لو آثر لَحكّمنا فى أمورنا ، فلَعَلَّنا[(٣)] كنا نصيب بعض الإصابة ، ونقف منه على طَرَف مِن أطراف السعادة . هيهات ! تلك مُنْيةٌ دونها مَنيّة ، وجهالة قرينتها ضلالة ؛ ها أنا لا أحيل على غيرى .

---

(١) بيت للمتنبي هو مطلع قصيدة له مشهورة (راجعها فى ديوانه ص ٦٢٣ نشرة فريدرخ ديتريصى . برلين سنة ١٨٦١) .

(٢) أى يصير ذا شبح ، أى هيئة وصورة وحقيقة .

(٣) ص : فلعنا — وهو تحريف ظاهر .

أستحِلُّ (١) الله عُقَدى ، وأستَفِكُّه رهينتى ، وأستقيله عثرتى ، وأستنعشه صرعتى ، وأسترحمه عَبْرتى (٢) ، وأسأله بلسان الذُّل والضراعة توقيع الكفاية والقناعة منذ حين وزمان ، فى كل وطن ومكان ، فيأبى إلاّ ما هو أعلم بمصلحتى فيه ، وسلامتى عليه . وإليه الشكوى ، ونعم المولى !

هذا ولست آسى على فائت ، فإنى أحرزت قَصَبى (٣) منه ، واستوفرت حظى فيه ، وقضيت وَطَرى به ، وحكمت الأمانى عليه ، وسحبت ذيل الرضا معه . وإنما تحركنى رسومها الباقية فى نفسى ، وآثارها الجارية على صدرى ، وصورُها المائلة لعينى ، وخيالها المسلم لسوادى ، وذكرها المولع بلسانى . فأما إذا حقّت الحقائق ، وزال اللُّبْس ، وصح العتاب ، فليس الذاهب فى النزاع إليه بأجمل من المنتظر بجميل الصبر عليه . وإنى لأصْبَرُ من عَوْدٍ (٤) لجنبيه طلب :

قالوا : تصبَّرْ! قلت : فالصبرشيمتى ... ألم تعلموا أن الكريم صبورُ ؟
فلئن صَبَرْتُ لأصبرنَّ بحسْرَةٍ ... ولئن جزعت فإننى معذورُ

وليس الأول من الثانى ، ولكن كما جرى القلم عليه وسمح الطبع به والوَصْلُ :

كُنْ للحوادثِ بالعَزاء (٥) مُقَطِّعا ... فلعلَّ يومٌ لا ترى ما تكْرَه

(١) ألتمس منه أن يحلّ . . . وأن يقيل . . . وأن ينعش . . . وأن يرحم . . .

(٢) العبرة (بفتح العين) : الحزن .

(٣) أحرز قصَبَ السَّبْق : استولى على الأمد .

(٤) العَوْد (بفتح العين) : المسنّ من الإبل ، وفى المثل : زاحم بِعَوْدٍ أو دَعِ ، معناه : استعن على حربك بالمشايخ الكُمَّل .

(٥) العزاء : الصبر .

[١٥٤ب] آخر: ومن جعل الكلام له قَعوداً
أصاب به الدُّجَى خيراً وشراً

آخر: واصبر فما استشفعْتَ فى مَطْلَبٍ
بشافعٍ خيرٍ من الصبر

آخر: فى كل يوم للزمان عِثار
ونوائبٌ تترى علىَّ كِبارُ
وتنقُّلٌ مِنْ نعمةٍ فى نعمةٍ
ما تنقضى أو تنقضى الأعمارُ
وكأننى بصروفه وخطوبه
رَبْعٌ محته الريحُ والأمطارُ
واصبر فإن الصبرَ عزمُ ذوى الحِجَى
ووراء لُبِّكَ إن غفَلْتَ نهار

آخر: إذا الناس قالوا: كيف أنت — وقد بدا
ضميرُ الذى فى — قلت للناس: صالحُ

آخر: هَوِّن عليك فإن الدهر غايته
إبرام مُنْتَقَضٍ أو نَقْضُ منبرم

ولقد سمعت بدوياً فى أرض بنى ربيعة يقول لمسايره: أيها الإنسان! عِهْ مقالى! مَنْ ذا الذى نَبَتَ عُوده على جائحة الزمان، وثبت عموده لعواقب الدهر؟ هَوِّن — فما أهونه على كَرَمٍ مُصاص(١)، وجوهر ثمين، وعِرق موصول،

---

(١) المصاص (بضم الميم): خالص كل شىء؛ مصاص الشىء: سِرُّهُ ومنبته؛ يقال: فلان كريم المصاص.

وأصل شريف ، ومُعْتَزَىً محمود ! فاستحسنته فتلقنته . فهل تشاركنى فى استحسانه حتى أنتفى من وحشة الانفراد ، وأتحلى بأُنس الاقتران ؟ فإن أعجبك هذا زدْتك منه ، فإنى سمعته يقول لصاحبه الأول فى أعطاف[1] كلام كان يديرها[2] بقدرته ، ويتسلط عليها بسماحة طبعه : يا أيها النسمة !

هل عاند الدهرُ إلاّ[3] مَنْ له خَطَر ؟

والله يا رفيقى وشريك زادى ، لقد صحبتُ الليالى ستين عاماً مذ عقلت ، فما غدرنى إلا من استوفيته ، ولا كدّر علىّ إلا من استصفيته ، ولا أمرّ لى إلا من استحليته ، ولا أهمل أمرى إلا من استرعيته ، ولا قَذِيَتْ عينى إلا بمن جعلته ناظرها ، ولا انحنى ظهرى إلا بمن نصبته عماده ، ولا نجمت لى نجاةٌ إلا من حيث لم أحتسب ، ولا سبقَتْ إلىّ مسرةٌ إلا بمن أكتسب . سيدى ! فهل بعد هذه الجملة قرار لنفس ، أو قرة لعين ، أو مَهْنأة لعيش ، أو مَرْضاة لعقل ، أو تسلية لحُرّ ، أو بُقْيا على فاضل ؟ اسمع منى ، فديتك ! واربق[4] فى حَمِيَّتك ، فهذا كله نفاثة[5] صدرٍ قد امتلأ بالغيظ ، وعُصارةُ [١١٥٥] فضلٍ قد ابتلى بالنَّحْس . واعلم أن الزمان جمعنى وإياك على غير شرط الأنس وحُكْم المراد وواجب التبسط ، فكان ذلك كسحابة تطلّعت ثم تقشعت ، واقتلعت ثم أقلعت . فيالها أُمنية لو وُكِفَتْ بالحديث الحلو ، والعلم المخزون ، والخلق الطاهر ، والفعل المصيب ، والأدب النفيس ،

(١) ثنايا .

(٢) الضمير يعود على أعطاف ، ولهذا جاء مؤنثاً .

(٣) ص : لا لا !

(٤) ربق فلاناً فى الأمر : أوقعه فيه .

(٥) النفاثة (بضم النون) : ما ينفثه المصدور من فيه .

والقول المُزْعفر[1] بالنُّصح ، والبشر المُعَصْفَر[2] بالنُّجح ، والرأى المؤيد بالحكمة ، والصواب المستفاد من الحُنْكة ، والحال الجامعة لشوارد الأنس ، والأمر المؤلف بين مختلفات الحسنى ! فإن لسانى على بُعد الدار وتراخى المزار لا يحول بخواص العلم خواص الأدب ؛ والعلل أنت أعرف بها وأهدى إليها . فليت الزمان إذا حرمنى المُنَى ، لم يُصلِنى بنار التمنى .

بالله يا سيدى ! هل عندك شىء مما عندى ؟ فلعلى بالوهم نطقت ، وعلى الظن جريت ، وبالبرق الخُلّب اغتررت ، وإلى جهْد المُقِلّ اضطررت ، وسُوْرَة اللّهْو تلوّثتُ ، وأثرَ الوسواس قفوت :

فلَمْ أرَ محْزُونَيْنِ أحملِ روعةً   على نائبات الدهر منّى ومن جُمْل
كلانا يَرُدُّ النّفْسَ وهى حزينة   ويُضْمِر وجداً كالنوافذ بالنَّبْل

إن كان — أيدك الله — للمضارعة حكم ، وللتشا كل تأثير ، وللائتلاف الأرواح حقيقة ، فهذه القصّة مرضية مستقيمة ، وهذه المطالبة صحيحة قوية ؛ وإن تكن أخرى ، فليس هذه بأعجب من أخواتها .

وإنّ اغترابَ المرء منْ غير حاجةٍ
ولا فاقةٍ يسمو بها لعجيبُ
وحَسْبُ امرىء ذُلاً ، وإن أدرك الغنى
ونال ثراء أن يقال : غريبُ

آخر : لكل ولايةٍ لاشكّ عَزْلُ
وأمْرُ الناس عقْدٌ ثم حَلّ

---

(١) زعفره : صبغه بالزعفران ؛ — الطعامَ : جعل فيه الزعفران .
(٢) عصفر الثوب : صبغه بالعصفر ، والعُصْفُر (كقنفذ) : صبغ .

آخر : دع الدهر يجرى بمقداره
ويقضى عجائبَ أوطارِه
ونَمْ نومةً عن وُلاةِ الأمور
وثِقْ بالزمان وأدْواره
لعلك تَرْحَمُ من قد غَبِطْتَ
وتَعْجَبُ من سُوءِ آثارِه

آخر : وطالبٌ جاهدٌ ماليس يُدْرِكه
ومُدْرِكٌ ما تمنّى غيرُ مُجْتَهِدِ !
ولَرُبَّ(١) مُدَّخرٍ ماليس آكِلُه
ومستعدٍّ ليوم ليس فى العدد

هذا كله بساطٌ طيَّه أَوْلى ، ونَشْره أبْلى ؛ ولكن الغريق بكل مرثية حقيق ؛ ولو أذنت سألتك عن التنائى عن بعض ما فاتنى فى التدانى ، فإن ذلك يُرَوِّح قلبى ، ويُفَرِّج كَرْبى ، وأنا إليه فقير ، [١٥٥ ب] وبه مطالب . وأنت العالم كلُّ العالم ، والفاضل كلُّ الفاضل : بجليل كل علم ، ودقيق كل معنى ، وغرض كل قائل ، وأَرَب كلِّ سائل . وسؤالى لايقف على منهج واحد <و> وتيرةٍ واحدة ، فإن قادحه مُتَلَوِّن ، ومُنْشِئه مختلف ؛ وذلك لأنى أظهر تارة بالرسوم وأنازعك فيها بالمعانى ، وتارة أدّعى لك المعانى وأطالبك فيها بالحقائق ، ثم أناديك بأسماء يعرفها القريب والبعيد ، والغائب والشهيد ، ثم أناجيك بحروف يَرْجَحُ العِيُّ عندها ، ويَفْضُلُ الخَرَسُ عليها . فهل من صَبْرٍ فأتقدم على مَقْدرةٍ ، أو هل تتوقف محتاطاً فأتأخر عن معذرة ؟ سيدى ! لاتنكر تلون

(١) كذا فى الأصل ! والوزن يقتضى : ورب — فهو من بحر البسيط .

خطابى وإطالتى به كتابى ، فكل ذلك لتباين أحوالى ، وشتات أمورى ، واختلاف مقاصدى ؛ فإنى :

أريد فلا أُعطَى ، وأُعطَى ولم أُرِدْ
وقصَّر عِلمى أن ينالَ المُغيَّبا

فلا جَرَمَ صباحى مساء ، ومسائى عَمىً ، ودعواى باطلة ، وقولى زور ، وانتباهى تعلل ، ورَقْدى موت ، ورضاى خسيس ، وعلمى تخيل ، ورجائى توهُّم ، وظنى شك ، وحقى مَخِيلة[1] ، وطريقى حسَك ، وعطائى خديعة ، ومنعى طبع ، وطبعى نَكَد ، وكالى بعض ، وولايتى عَزْل ، وظاهرى حسرة ، وباطنى حيرة ، وحالى سَراب ، وبُنْيانى خراب ، وجُرُفى[2] هائر ، وصوابى خطأ ، وبقائى حلم ، وفنائى رَوْح وَرَيحان . نعم ! وَ كُلُ كُلّى بِكَلّى[3] قبيح ، وجَمْعُ جميعى بجميعى مرذول . هذا لسانٌ بحرُ البلغاء فيه نقطة ، وزكاتهم فيه ميتة . فهذا حالى وشانى ، وربيمى ومَيْدانى ، ومَأْخذى ومُضْطَرَبى ومجالى ، فهل عندك من علاج تكشف مابى ، أو من مساعدة تخفف بعض أوصابى ؟ هيهات ! أنَّى يكون

---

(١) المَخِيلة (بفتح الميم وكسر الخاء) : الظن .

(٢) الجرف (بضمة وبضمتين) : ما تجرّفته السيول وأكلته الأرض ، ومنه المثل : « فلان يبنى على جُرْف هار ، لا يدرى ماليلٌ من نهار » ، الجمع : أَجْرُف . والجُرُف بضمتين : الجانب الذى أكله الماء من حاشية النهر كلّ ساعة يسقط بعض منه ، ومنه الآية : « أفمن أسّس بُنيانه على تقوى من الله ورضوانٍ خيرٌ أم من أسّس بُنيانه على شفا جُرُف هار ؟ » . هار البناء : هدمه ، وهار البناء : انهدم — لازم ومتعدٍ .

(٣) ص : فكلى — والأنسب ما أثبتناه بدليل ما بعده .

لك هذا ! وأَنَّى تَوْقُكَ إليه ! وأنت أيضاً فى قميصى تتبختر ، وفى ذيلى تتعثر ، وإن كنت أمثل عنى ، وإنما رضاك موقوف على مثل قولك :

والنارُ يعرفه من كان قدَّاحا
والثُّكلُ يعرفه من كان نوَّاحا

هذا الواصل إلينا من إشاراتك . فأما ما اعتاص والتوى من مثل قولك :

[١٥٦ا] تباركتْ خطَراتى فى تعالأئى(١)
فلا إلهُ ، إذا فكرتَ ، إلأَئى

وقولك فيه(٢) :

لأيه الهَوَ فى هُوَيه إلأئى
مثل الدواء الذى تبغيه للداء

فإليك بيانَه ، وعليك برهانُه ، ولسنا نُشاحُك(٣) فيه ، ولا ننافسك به ، لأن اللفظ به كَدِرٌ ، والمعنى عَسِرٌ(٤) ، والإرادة فى شِقّ ، والعبارة فى شق ، وبهاؤه مُنْتَزَع ، وتصحيحه ممتنع .

ونعوذ بالله من « الوَسْواس الخَنَّاس ، الذى يُوَسْوِسُ فى صُدور النَّاس ، من الجِنَّة والنَّاسِ »(٥) .

---

(١) ص : تعالاى .. إلآى — وقد أثبتنا الهمزة ليستقيم الوزن ، وهو من بحر البسيط . وتعالأئى أى : « تعالى » الخاصة بى ؛ وإلأئى : إلا أنا .

(٢) ص : لايه الهَوَ فى هُويه إلآى .

(٣) شاحَ زيداً : ماحكه وأعنته .

(٤) من : عَسِر الأمرُ (من باب علم) عُسْرا وعُسُراً وعَسَراً : ضد يسر .

(٥) سورة « الناس » ، آيات : ٤ — ٦

]« تمت المجلدة الأولى من الإشارات الالهية والأنفاس الروحانية ،
بحمد الله ومنّه ولطيف صُنعِه

« ويتلوه المجلدة الثانية ، وهى الرسالة الخامسة والخمسون :
« كتابى إليك (١) أيها الصديق ، وأنا أسلك أن يسألك » .

« وفرغ من كتبه محمد بن أحمد بن على الأشعى بتاريخ جُمادى الأولى سنة إحدى وسبعين وأربعمائة » .

« مُعارَضٌ مُصَحَّحٌ من أول المجلد إلى آخره » [.

(١) ص : كتابى .

تصويبات

صفحة	سطر	خطأ	الصواب
٩٤	٧	القَرطات	القَرطات
١١٠	٣	عطمط	غطمط
١١٠	تعليق ٢	يحذف ويوضع بدلا منه : الغطمطة : اضطراب الموج . وبحر غطامط وغطومط : عظيم كثير الأمواج .	
١١١	١٧	؟ إلا بيضاء	لعلها : الأسماء

مراجعات

تيسر لنا ، بعد الفراغ من طبع هذا الكتاب ، أن نطلع على مصورة شمسية لمختصره الموجود فى برلين حسبما أشرنا فى « التصدير » (ص كز) ، وهذه المصورة موجودة فى دار الكتب المصرية برقم ٤١٧٩ تصوف . وقد وجدنا قرابة نصف هذا المختصر قد أخذ من هذا الجزء الأول من « الاشارات الالهيه » فراجعناه على نسختنا هذه ، حسب ماوعدنا القراء فى « التصدير » (ص كح) ، فانتهينا من هذه المراجعة ومن إعادة النظر فى نصنا هذا إلى التصحيحات التالية . أما النصف الآخر من المختصر فسننشره مع اختلافات الرواية بالنسبة إلى النصف الأول فى كتاب مستقل :

ص	س	المطبوع	المستدرك
كح	١	المخلص	الملخص
	١٧	١٧٨٣	١٨٨٣
١	١٢	خطر	حظ
	١٣	بنا	بنا منا
٢	٣	واجبك . . فأرحنا	واجبك . قد كددنا لك، فأرحنا
	٤	فأمدها	فاملأْها
	٤–٧	لطفك . .	لطفك . ياهذا ! إذا زخر بك وادى الدعاء فاعلم أنك مراد بالاجابة وإذا تابع لك المزيد فى النعمة فاعلم أنك معرض للشكر . وإذا اكتنفك الكرب فى كل ناحية ، فاعلم أنك مطالب بالتصفية . وإذا توالى عليك هاتف العلم ، فاعلم . .
٢	٨	عيب	غيب
	٩	بواقع	لواقع
٣	٥	تنكسر . حسنوك . .	تنكسر . أنبتوك ، فلاتذوى . حسنوك . .

ص	س	المطبوع	المستدرك
	١١	بهذا	من هذا
		نعيمهم	نعمتهم
٤	٤	ساءك	شآك (وهذا وما بعده بيت شعر للبحترى . راجع ديوانه ج ١ ص ١٩٢ س ٨ ، طبع الآستانة سنة ١٣٠٠هـ)
٤	٧	النهى	كذا فى النسختين ، وفى ديوان البحترى أنه : النهج (ص ١٠٢)
٧	١١	يكون ذلك ، فيالك . . .	يكون ذلك ، وتشاهد ما هنالك ، فيالك . .
٨	١٤	وميسِره ،	، ومَيسِره
١٣	٧	طربتُ . . . نمتُ	طربتَ . . نمتَ
١٧	١٨	لواحد	بواحد
١٨	٤	عناك ما	عناك منى ما
١٩	٨	علم	علم
	١٤	نستحيي . . .	لانستحيى من طول مالانستحيي
٢٠	٩	مناجاك	مناجاتك
	١٦	المنة	المشيئة
٢١	١	فيه	فيه على

ص	س	المطبوع	المستدرك
	١٣	قَدِم	قُدِّم
٢٢	١٠	أسرى	أسرى مقيدة
	١١	مختلفة	مختلة
٢٤	٥	فبما يراد	فلجهلنا بما يراد
٣٠	٢-٣	أطمت ... حرآ	بيت شعر
٣٥	٢٢	تعليق ٤	يستبدل به التعليق التالي: سكر يسكر (من باب نصر): سكن (« لسان العرب » ج ٦ ص ٤١، س ١٩) ؛ وسكر (بالتشديد) تكون إذن بمعنى : سكن .
٤٥	٦	عليك	عليّ
		تعليق (١)	يحذف
٥٠	١١	بعيننا . تقلبت .	بعيننا تقلبت . .
٦٧	الاخير	وداري	وداري وارفأن : سكن وضعف واسترخى .
٩٠	٥	تسكتنق	تسكن
	٦	أشعار	أسفار
	٩	بعامه	بعمله
	١٤	أصف	صف
٩١	٢	بمثلك	مثلك
	٣	إلى	إلا إلى
٩٣	١٨	متجافية . . . الصافية . . .	متجافية . أين العقول الصاحية ؟ أين الآذان الصاغية ؟ أين الألباب الثاقبة ؟ أين القرائح الصافية . . .
٩٤	٤	الأشرار	الأسرار
٩٥	١١	لفناء	لفناءِ

ص	س	المطبوع	المستدرك
١٠١	٨	أكبر	أكر (فعل أمر من أكرى أي استأجر)
١١٧	١٧	إني رأيت... إلى قوله ص ١١٨ س ٥ : البلوى	أبيات من قصيدة لأبي العتاهية ، راجعها في ديوانه ص ٤ مع اختلاف في رواية بعضها .
	١٨	ففكرت	فكرت
١١٨	٤	ولا ...	من قبيح ولا أعلى
	٥	تمرّ صاحبها	يمر صاحبها
١٢١	٧	أجملك	جملك (وقد وردت هذه الأبيات في «الأمالي» ج ٢ ص ٢٣١ — ٢٣٢ ، القاهرة سنة ١٩٢٦، ولم تنسب إلى أحد) .
	٨	رنط	نُط
١٢٤	٨	ومامر بي	ويأمرني (والبيت للبحتري راجع ديوانه ج ٢ ص ١٧٣ طبعة هندية ـ ج ١ ص ١٢٦ طبعة الجوائب) .
١٢٥	١٨	فانه	فانها
١٣٧	١٠	بعيني	لعيني
	١١	لتشوقني	فتشوقني
١٤٤	١٧	العابر	العاثر
١٤٨	١٩	الدعوة والدعو والدعوة	الرعو والرعوة
١٤٦	١-٢	نؤمل . . .	الشعر لبشار بن برد ، راجع ديوانه ج ١ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ طبع مصر سنة ١٩٥٠

ص	س	المطبوع	المستدرك
١٦٦	١٦	جالت	حالت
١٦٧	٤	لم لا . . .	لم لاتلتمس مآربك بالحسنى
	٦	تستخدم	أن تستخدم
	١٠	أراداك	أرداك
	١٣	لاصدارك	لاصرارك
	١٩	الاحائين	اللحابين
	١٩	الصخر	الضجر
١٦٨	٣	علم . وما أشبه	علم وما أشبه .
	١٥	يخفف عليك	يجفف عنك
	١٧	استغثتث	استغثت
١٦٩	١٣	ترحزح	ترجرج
	١٤	الايجاش	الايحاش
	١٨	النفس	اليقين
	١٨	ترحزح	ترجرج
١٧٠	١	صنعة	صيغة
	٣	سلفه	سلف
	٦	وقبول ... إماما	وقبول ما يشير به العقل الكريم والرأى الرشيد تحزم ـ هداك الله ـ فى هذه النكت البديعة ، وتحل بأحسنها متزينا به ، واجعلها كلها إماما . . .
	٩	الفادية	العازبة
	١٠	نصائح	ناصح
	١١	انفسك	فاطلب نفسك التائهة منك ، واطلبك فى نفسك المهلكة . . .
١٧٣	٢	تجليه لرشدك	تخلية لرسنك
	٨	ولا لا لهم	ولا لهم
	١١	وانك وجهك	زانك وجهك

ص	س	المطبوع	المستدرك
١٨٥	٣	أحرّ	أضرّ
١٩٦	١٠	بل ، ما	نل ما
٢٠٠	١١	المخلى	المحلى (مخفف : محلأ أى : ممنوع عن الماء ، حلأه عن الماء : طرده ومنعه)
٢١٤	١٥	الحدم ...	الحدم . أوليت من حرمنى روح المخصوصين كفانى نوازع الندم والسدم ! أوليت من نبذنى وراء كل شىء منّ علىّ بشىء !
٢١٧	١٦	فقلب . . ايتاء	فغلب ... أثناء
٢١٨	٥	عنك	دونك
	٩	علينا حين	علينا فى الثانى حين
	١١	أصف	أصفك
	١٦	ثانى	ثانى
٢١٩	٣	أكلتنى بمناجاتك	أهلتنى لمناجاتك
	٨	فان	وإن (كما اقترحنا)
	١٠	تكفلت	تكلفت
	١١	السنوح	السبوح فى مراد إلهيتك
	١٢	إلينا	علينا
	١٢–١٣	لبلايا <غير> هذه	لبلايا هذا العالم
	١٤	مما	ما
	١٥	يصح هذا الصحيح	نضج هذا الضجيج
	١٦	بما . . داعين	ما ... واعين
٢٢١	١	دوينا	كربنا
	٢–٣	فراقك ، ومع ...	فراقك . ومع هذا وذلك ، فانا نسألك اللهم ...
	٦	حاجة النبات .	حاجة محيل النبات
	٩	غيبتنا	رغبتنا

ص	س	المطبوع	المستدرك
	١١	فى اليقين	باليقين
٢٣٠	٧	والاكرام	[والاكرام]
٢٣١	٢	حزين	حسّ
٢٤١	٦	حنينه	حبيبه
٢٨٠	٩	لج	لعل صوابها : لج
٢٨٩	١٣	القيم	القسم
٢٩٠	٥	الجاهلين . . . . لنعمتك	الجاهلين بحقك، الجاحدين لنعمتك
٢٩٣	٥	أرى ... مرأى	رأى ... امرؤ
	٩	بالمسلم	بالملم
	١٠	عادة	غارة
	١٠	وحقد جهل	وجهل جل
	١٣	وانظره	وانظر
٢٩٥	١	جلاء.. الفتور.	جلا وعبر وعبر . فان الفتور ...
	١١	سرك	أسرك
٢٩٧	٤	بموافقتك	موافقتك
	٥	رتقاً	رفقاً
	١١	لاتشمت أعداءك فيك بنا	لاتشمت بنا أعداءك فيك
	٨	ارحمنا فى التفصيل.	ارحمنا . وفى التفصيل أكرمنا ! ...
٢٩٨	١٠	تتالت	انثالت
	١٨	محلها	محكا
٢٩٩	٨	البلوى	البلوى والبلوى
	١٦	أو	و
٣٠٠	٤	السفر ... عسر	السفير ... يسير وعسير
	٤	وجدك	وحّدك
	٨	التوفيق	التوفيق والتسديد
٣٠٢	٤	بحكمة	بحكم
٣٠٣	٥	بملامسة	بملابسة

ص	س	المطبوع	المستدرك
	٧	أفدتنا	أنقذتنا
	١٠	تقرلها	تقولها
٣٠٤	١	أودقيقة؟ لست إذا	أو دقيقه نسب إذا جلب
	٥	حلت	جلب
	٨	اختار	احتاز
	١٤	اجتهادك . وإن كنت واجداً	اجتهادك . وإن كنت مزاداً فأين استقلالك؟ وإن كنت عازفاً، فأين انبساطك؟ وإن كنت غريباً، فأين انقباضك؟ وإن كنت متواجداً، فأين سكرتك وشكرك؟ وإن كنت تائباً ...
٣٠٥	٩	فى	وفى
	١٢	لا	[لا]
	١٧	نق من الخبر	نمق من الخبر
	١٨	أقلقه	أقلقنى
٣٠٦	٩	تمنت تمنت	تمنت فتنت
٣٠٧	٤	غاية	غالبة
	٥ـ٦	فأينما كنت . . التفات	بيت شعر
	٧	نافلة	ناقلة
	٩	استغفيتك	إذا استعفيتك
	١٠	تحوى	يجرى
		تعليق ١	يكتب هكذا : نازح : قليل الماء أو نافد .
	١٢	عليك	عنك
	١٧	قسط	بسط
٣٠٨	١	قضاء	فضاء
	٣	تبصر	تنفر
	٨	أرهبت	ورهبت

ص	س	المطبوع	المستدرك
٣٠٩	٢	والظهر والرحيل أزف	والرحيل آزف
	٣	هذا	هذه
	٨	يذال عقده	يؤكد عقده
٣١٠	٨	بالحض	والحض
	١٣	نصرنا	بصرنا
٣١١	٢	علينا	عنا
	٨	فرقونا	قرفونا
	١٧	حرقك	خرقك
	١٩	فأبليت	أوفليت
٣١٢	٥	عن	على
	٦	عند أعاجيب	عند سماع أعاجيب
	١٥	معافياً	معايناً
٣١٣	١٢	تَعزنا	تُعزنا
٣٤٩	١٦	المصدر	المصدر . أو لعل صوابه: التفاتة
٣٦١	١١	كشف	اكشف
٣٦١	١٥	خير	خبر
٣٦٢	٣	فراري من شر	اقراري من سر
	٣	بأذى	بادي
	٤	فكأنك	وكأنك
	١٧	أشق	أشق
٣٦٤	١	تلذك الرحة	تدركك الرحة
	٦	فادية	فائدة
	٨	الذى	الندى
	١١-١٢	طلبت . . برقتك	طلبتنا فى حيرتك، وحشت إلينا بحرقتك
	٢٠	بحقيقته	بحقيقه
٣٦٥	٩	خاف	خاب
٣٦٦	٥	هذه الزينة . .	هذه الصور المرئية ؟ أما ترى هذه الأشكال المبنية؟

ص	س	المطبوع	المستدرك
	٦	الموقدة .. الحلم	المؤكدة .. الحكم
	٧	المحددة	المجددة
	٨	عذه	هذه
	٨	المؤبدة	الموتده
	١٠	الصباح والمساء	المساء والصباح
٣٦٧	١	مشهود	مشهور
٣٦٨	٧	نهب .. نركد	نهتز . نلتز
	٧	بأدبك	باذنك
	١٩	لأنا	أنا
	٢١	فجدوك	بجحدوك
	٢٣	الرؤوف	الرؤوم
٣٨	٤	يتق	تتق
٣٨٥	٥	منا	منك
	١٠	بدعائك .أجيناك،	. بدعائك أجيناك ،
	١٢	دالتك	دالتنا
	٢١	غايتك	غائبك
٣٨٦	٤	أمرك	أمره
	٧	إنه	أنك
	٨	مقيم	مقسم
	١٦	حيد	حيد به (ويحذف التعليق).
٣٨٧	٦	جدى	حدى
	٨	جوانب	جوانب أسرار
	١٢	يجدنى .. يشهدنى	يجدنى .. تشهدنى
	١٥	متخليا .. متواليا	متجلياً . . مؤاتيا
	١٧	حانق	خانق
٣٨٨	٢	السباق	السياق
	٣	معوزه ..موعزة	معورة . . موعرة
	٤	كرم حانم	كرب جاثم
	٦	باهظ	مدهش
	٨	يحال	حال
	٩	نقلة	تعلة

ص	س	المطبوع	المستدرك
	١٦	تحقق	تمحى
٣٨٩	٤	الذى ليس لك هو لك	الذى لك ليس هو لك
	١٠	من	فى
	١١	جلسة	خلسة
	١٦	التغلب	التقلب
	١٨	يميق	يمبق
٣٩٠	٥	ان	أين
	٧	عنى	دونى
	٨	بما أعرف	بما لا تعرف
	٨	يستبين	تستبين
	١٤	التأييد	التأبد
	١٦	الوحى والعمل	الوحى والعجل (والوحى : الاسراع)
٣٩١	١	شريفة	شريف
	٣	أصبحت	أضحت
	٩	تولدا	بواراً (ويحذف التعليق)
	١١	اصدع مرتتق	اصدع بلطف مرتتق
	١٤	سلطها .. بالقمع	سلطنا على شيطاننا بالردع ، وعلى أهوائنا بالقمع

تم طبع هذا الكتاب فى مطبعة جامعة فؤاد الأول
بالقاهرة بتاريخ ١١ من شعبان سنة ١٣٦٩ ﻫ
محمد زكى خليل
مدير مطبعة جامعة فؤاد الأول

٩٤٦-١٩٤٩-٢٠٠٠)

ISLAMICA

— 12 —

TAUḤÎDÎ

DIVINAE INVOCATIONES

EDIDIT ET PROLEGOMENIS INSTRUXIT

ʿABDURRAḤMĀN BADAWI

[PARS PRIOR]

CAHIRAE

Ex typis Universitatis Fuadi I

MCML